السبك الفريد

شرح

كتاب التوحيد

للإمام المجدد شيخ الإسلام

محمد بن عبد الوهاب رحمه الله

(١٣٠٧هـ - ١٣٧٦هـ)

شرحه فضيلة الشيخ العلامة الدكتور

أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن إبراهيم الجبرين

(حفظه الله ورعاه)

اعتنى به وعزا آياته وخرج أحاديثه

أبو أنس علي بن حسين بن خليل أبو لوز

الجزء الأول

دار الوطن للنشر

بسم الله الرحمن الرحيم

السبك الفريد

شرح

كتاب التوحيد

الطبعة الأولى

١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م

مدار الوطن للنشر - الرياض

هاتف: ٤٧٩٢٠٤٢ (٥ خطوط) فاكس: ٤٧٢٣٩٤١ - ص ب: ٣٣١٠
فرع السويدي: هاتف: ٤٢٦٧١٧٧ - فاكس: ٤٢٦٧٣٧٧

- البريد الإلكتروني: Pop@dar-alwatan.com

- موقعنا على الإنترنت: www.madar-alwatan.com




تقديم

فضيلة الشيخ عبد الله بن جبرين

بخط يده

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الكبير المتعال، المتوحد بالكمال، المتعالي عن الشركاء والأمثال،
تفرد بالبقاء والدوام والجلال، وتنزه عن الصاحبة والأولاد والأشكال،
أحمده سبحانه وأشكره على جزيل الإنعام والإفضال، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده
لا شريك له في الألوهية والربوبية والأسماء والصفات والأفعال، وأشهد أن
محمدا عبده ورسوله المخصوص بعموم البعث والإرسال، صلى الله عليه وسلم
وعلى جميع الأصحاب والأتباع في جميع الأزمنة والأحوال.

أما بعد فإن ربنا سبحانه خلق الخلق ورزقهم، وأعطاهم وخولهم،
واختص من خلقه الجن والإنس بالتكليف والأمر والنهي حيث تميزوا
بالعقول والإدراك، وفهم الخطاب، ففرض عليهم عبادته وحده، وأمرهم
بتوحيده بالطاعة، وذكرهم بنعمه وسوابغ فضله.

وحيث أن الأصل في الإنسان الجهل والغفلة، وعدم العلم بما خلق له وكلف به،
فإن ربنا سبحانه قد أعذر إلى الخلق فأرسل الرسل، وأنزل الكتب ببيان ما
خلق له البشر مما كلفوا به، واتفقت رسالة الرسل عليهم الصلاة والسلام على
دعوة أممهم إلى معرفة الله تعالى وعبادته وحده، وترك عبادة من سواه من
الأحياء والأموات، والجماد والحيوان، قال الله تعالى (وما أرسلنا من قبلك
من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) وقد اقتضت حكمة الله
تعالى أن سلط على النوع البشري عددا من الأعداء الذين يصرفونه عن الإيمان بربه،
وعن معرفة ما خلق له من التوحيد والإخلاص، وعن التفكر في آيات الرب تعالى




الكونية التي تبهر العقول وتدل على عظمة الخالق وكبريائه فأول عدو لنوع
الإنسان إبليس اللعين الذي أبى واستكبر عن السجود لأبينا آدم عليه السلام
وعصى أمر ربه ثم بعد أن أنظره الله تعالى أقسم أن يتسلط على ذرية آدم وقال
(لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا ولأضلنهم ولأمنينهم ولآمرنهم فليبتكن
آذان الأنعام ولآمرنهم فليغيرن خلق الله) وحكى الله عنه أنه قال (لأحتنكن
ذريته إلا قليلا) وقال الله تعالى له (واستفزز من استطعت منهم بصوتك
وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم) الآية ولا
شك أنه قد أضل خلقا كثيرا وصرفهم عن التوحيد وزين لهم الشرك والتنديد
كما قال تعالى (ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقا من المؤمنين)
فهو الذي زين الشرك لقوم نوح حيث أوحى إليهم أن يعكفوا على قبور
الصالحين ودّ وسواع ويغوث ويعوق ونسر ثم يصوروا تماثيلهم
وينصبوها في مجالسهم ثم قال لمن بعدهم إنهم كانوا يعبدونهم وهكذا
وقع أول الشرك في بني آدم ثم تتابع بعد ذلك حتى بعث الله تعالى محمدا
صلى الله عليه وسلم في الوقت الذي تمكن فيه الشرك في الأمم وأكثر [illegible]
المعبودات التي تسمى أصناما وأوثانا إنما كانت مصورة على صور بعض
الصالحين أو غيرهم أو أشجارا أو أحجارا زين لهم الشيطان أنها تنفع
وتضر وتفيدهم في حياتهم وتجلب لهم الرزق وتنصرهم على الأعداء فقلدوا
في عبادتها الآباء والأجداد حتى كانت عبادة الأسلاف عندهم يستصعبون
مفارقة تلك العادات ولو كانت عندهم أوهى شيء في العقول المستقيمة

(ولكن أكثرهم لا يعلمون) ومع ذلك فإنهم يعترفون بأن الله تعالى هو
الخالق الرازق المتصرف في الكون فهو ربهم ومالكهم باعترافهم كما قال
تعالى (قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والأبصار
ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر
فسيقولون الله) أي سوف يعترفون بأن الفاعل لذلك هو الله وحده
وهكذا قال تعالى (ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض وسخر
الشمس والقمر ليقولن الله) ونحو ذلك من الآيات ثم إنهم مع ذلك
يخلصون لله تعالى في الأزمات وعند اشتداد الكربات كما قال تعالى
(وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم)
وقال تعالى (فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم
إلى البر إذا هم يشركون) ومع أنهم أيضا يعبدون الله تعالى بأنواع من العبادات
كالحج والعمرة والطواف والصدقة والصلاة ونحوها ومع أنهم لا يقصدون
من عبادة أصنامهم إلا الشفاعة والتقرب كما قال الله تعالى (ويعبدون من
دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله) وقال
تعالى (والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى)
والمعنى أنهم يعتقدون أن لهم عند الله [illegible] في جلب الرزق وإنزال المطر وحصول البركة
وكثرة المال والولد ويقربونهم إلى الله إذا دعوه [illegible]
بقوة منه وقد يحصل لهم شيء من هذه المقاصد إذا دعوهم مع الله إما
على وجه المصادفة [illegible] ابتلاء من الله
تعالى [illegible]

ثم إن الله تعالى كلف رسوله صلى الله عليه وسلم أن ينذرهم ويحذرهم ويخوفهم بأس الله الذي لا يرد عن القوم المشركين، ولقد بشر وأنذر، وبين لهم حقيقة التوحيد والدين الصحيح الذي دعت إليه الرسل جميع الأمم، وأوضح لهم أن هذه الآلهة لا تنفع ولا تضر، وأنها جماد أموات غير أحياء، وأن الله سبحانه هو الذي يملك ذلك كله بيده الخير وهو على كل شيء قدير، ثم قد حكى الله تعالى ما واجهه من الرد عليه وتكذيبه ورميه بأنه ساحر أو شاعر أو كاهن، وأنه قد افترى ما جاء به من هذا الكتاب، وكذا ما حصل له من الأضرار والأذى والمضايقة والمقاطعة حتى لأقاربه إلى أن هاجر وتحول إلى المدينة، ثم أعز الله تعالى نصره وجنده وعده، وأظهر دينه على الدين كله ولو كره المشركون، حتى قضى على وسائل الشرك وأسبابه، وهدم معابدهم، وأتلف أصنامهم ومعبوداتهم بعد أن أقنعهم بأنها جماد أو أموات، وقد حمى جناب التوحيد، وسد جميع طرق الشرك، وبلغ الرسالة التي كلف بحملها وبيانها، وبعد أن أكمل الله له الدين وبلغ البلاغ المبين اختار الله له جواره، ونقله إلى الرفيق الأعلى، ثم قيض الله لدينه من ينصره ويظهره، ويبلغه إلى أقصى البلاد وأدناها، فقام الصحابة رضي الله عنهم بالجهاد في سبيل الله تعالى ونشر الدين وبيان التوحيد، وهدم معاقل كل مشرك وكافر، حتى انتشر دين الإسلام في أصقاع المعمورة، وبلغ ما بلغ الليل والنهار، وقد بذل المسلمون في نصر الدين كل غال ونفيس، وضحوا بأموالهم وأنفسهم وأهليهم في سبيل الله تعالى، وهانت عليهم الدنيا ومتاعها، وتنافسوا في العمل للآخرة حتى نصرهم الله تعالى وأظهر دينه وأعلى كلمته

(وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم) وحيث إن ظهور هذا التوحيد والقضاء على الشرك ومحو الأديان الأخرى المنسوخة أو المحرفة مما يغيظ الشيطان وأعوان الشيطان، وأهل الملل والعقائد المحرفة من المجوس واليهود والنصارى والدهرية والملحدين وسائر المخالفين، فإن جميعهم قد امتلأت قلوبهم غيظا على الإسلام حقدا وضغنا وحسدا من عند أنفسهم، ودفعتهم شياطينهم ورؤساؤهم إلى إعمال الحيل والمكايد للنيل من هذا التوحيد ودين الإسلام، والتشكيك في صلاحيته، وإلى العمل في تضليل المسلمين وإيقاعهم في البدع والمحدثات والشرك بالله تعالى أو وسائله، حتى يشفوا غيظهم من المسلمين الذين غزوا أهل تلك الأديان الباطلة، وحتى يخرجوا المسلمين من دينهم إلى غيره، أو يشككوهم في صلاحيته، وقد نجحوا إلى حد كبير من تلك الحيل، وراجت أفكارهم عند الكثير من الدول الإسلامية التي أخذت تنشر أفكارهم وتطبق قوانينهم، وقد أدخلوا على المسلمين من الضلالات والبدع والمحدثات ما أعجز الكثير التخلص منه، حيث نشروا سمومهم ضمن كتب الضلال التي أدخلوها على المسلمين، وزعموا أنها كتب علم وفائدة تشحذ الأفكار وتوقظ الأذهان، فراجت تلك الكتب التي ترجموها، وأكب عليها الكثير من المسلمين لعدم تمييز علماء الأمة من معانيها، فكانت العاقبة أن كثرت الزندقة والإلحاد في أوساط المسلمين، وانتهى إليهم الرد وتوغل الكثير في تلك العلوم التي انتهت بأهلها بعدها إلى الحيرة والشك، فأتاهم أجلهم وهم لا يدرون ما يعتقدون، وندموا على ما مضى من حياتهم حين لا ينفع الندم.

وقد مضت القرون الوسطى على الخوض في علم الكلام والإنكار غالبًا لصفات
الكمال في جمهور الخالق تعالى، واستخفى أهل الإثبات، ومن تجرأ منهم
وأظهر معتقده رموه عن قوس العداوة، ونبزوه بالتشبيه والتجسيم،
والابتداع والمخالفة ونحو ذلك [illegible] هم أحق بها وأهلها،
ولو كانوا قليلاً في بعض الأزمنة، وكان منهم شيخ الإسلام ابن تيمية
رحمه الله وأكرم مثواه، فقد كان في القرن السابع والثامن مواقف
مع أهل الابتداع من المعطلة والصوفية والقبوريين ونحوهم، وقد
أظهر الله السنة على يديه، فهو من العلماء الربانيين، وقد كان من العاملين
يجهر بالحق، وأعلن القول بالإثبات عن اقتناع، وألف الكتب النافعة
وأقنعهم بالأدلة الواضحة الجلية، وجعل الله لمؤلفاته مكانة مرموقة
في قلوب العامة، فأحبوه ولازموه ونشروا علمه رغم كيد الكائدين،
وحسد الحاسدين، فهو أول من جهر في تلك الأزمنة بالرد على المعطلة
ونفاة صفات الكمال، والرد على المشركين عباد الأموات ومنافحة
المعبودين من الخلق، والتشكيك [illegible] وأصحاب الحالات وغيرهم من أهل
البدع والخرافات، [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] نشر العلم والجهر بالحق والكتابة [illegible] في هذه المواضيع
[illegible] وله كتب نفع الله تعالى بها [illegible]

فبعد موته ضعفت الدعوة إلى العقيدة السليمة، والتوحيد الصحيح، وظهرت
البدع والمحدثات، واستصغر المنكرون لها، وتمكن الشيطان من الاستيلاء
على القلوب، والدعوة إلى الشرك الصريح، ودعاء الأموات من دون الله
تعالى، حيث تمكنت الرافضة في الكثير من بلاد المسلمين، وأظهروا
شركهم بدعاء أئمتهم، واعتقادهم أنهم ينفعون من دعاهم وتقرب
إليهم، ثم بنوا على القبور قبابًا عالية، وأوهمهم الشيطان أن هناك دفن
الإمام علي أو الحسين أو السيدة زينب ونحو ذلك، وقلدهم
الكثير من أهل السنة، فعمروا القبور، واعتقدوا أن أهلها أولياء
وسادة وشفعاء، وأنهم ينفعون من دعاهم وينفعون من
دعاهم أو تقرب إليهم، فانتشر هذا الشرك الصريح في الكثير من
ديار المسلمين، وجادل أهل الباطل في جوازه، وغيروا الأسماء الظاهرة،
حيث سموه تبركًا أو توسلاً واستشفاعًا وتوسطًا، وتجنبوا التسمية
دعاءً أو عبادة أو شركًا، مع أن العبرة بالحقائق لا بالأسماء، ولقد كثر
وتمكن الغلو في الأموات والبناء على القبور، رغم ورود النهي الصريح
في الأحاديث الصحيحة عن رفع القبور والبناء عليها وإسراجها
وتجصيصها والكتابة عليها، ونحو ذلك مما هو من الوسائل إلى دعاء
الأموات والغلو فيهم، وقد خالف أولئك الإرشادات النبوية، فرفعوا
القبور وشيدوها، وبنوا عليها مما كان سببًا لدعاء الأموات مع الله
والهتاف بأسمائهم، والذبح لهم، والتمسح بتربتهم، وتحري الصلاة
عندها، وطلب البركة، والاعتكاف عندها، حتى صار ما هو شرك صريح

بالله تعالى فنشأ على ذلك الصغير وهرم عليه الكبير ومضى على ذلك
عدة قرون حتى قيض الله تعالى لهذه الأمة من جدد لها دينها وأعاد
من هداه الله تعالى إلى التوحيد الصحيح والدين القويم ألا وهو الشيخ
المجدد محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي النجدي الذي ولد
ونشأ في القرن الثاني عشر وتوفي في القرن الثالث عشر والذي هداه الله تعالى
وبصره بحقيقة التوحيد وما يجب لله تعالى على العبيد ولقد ألفى الناس في
زمانه على الشرك ووسائله رغم أنهم ينطقون بالشهادتين ويصلون
ويصومون ويحجون ويقرؤون القرآن ويتعلمون السنة وعندهم كتب الحديث
وكتب أهل العلم ومن بينهم علماء وحفاظ ومع ذلك يقع كثير من الشرك
فيهم وعبدوا غير الله تعالى فتراهم يطوفون بالقبور ويتمسحون بالأموات
ويتحرون الصلاة عند الأضرحة التي بنوها مشاهد ويذبحون عندها
القرابين ويلوذون بالسادة والأولياء ويصرفون لهم خالص حق الله تعالى
كما ذكر ذلك عنهم الشيخ العمراني بن ... بقوله:

الشيخ شاهد بعض أهل جهالة ... يدعون أصحاب القبور الهمد

تاجا وشيئا لا يسوغ ... من قبة أو تربة أو مشهد

وكذلك ذكر الأمير الصنعاني في داليته بقوله:

أعادوا بها معنى سواع ومثله ... يغوث وود بئس ذلك من ود

وكم نحروا في سوحها من نحيرة ... أهلت لغير الله جهرا على عمد

وكم طائف حول القبور مقبل ... ويستلم الأركان منهن بالأيدي

وكم هتفوا عند الشدائد باسمها ... كما يهتف المضطر بالصمد الفرد

لقد صدق هذان الشاعران رحمهما الله تعالى في تمثيل ما يعمله أهل ذلك الزمان
عند الأضرحة التي أسموها مشاهد تحاشيا من تسميتها أصناما وأوثانا وسموا أعمالهم
توسلا واستشفاعا وتبركا وهو في الحقيقة عبادة وتذلل وتقرب إلى غير الله تعالى
ولقد أنكر الإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب بدعوته بالتوحيد الذي خلق له الجن والإنس
واتضح له أن ما يفعله هؤلاء عند الأضرحة هو الشرك بعينه وصرف حق الله لهذه
القبور فبدأ بالإنكار عليهم إنكارا هادئا ومجادلتهم بالتي هي أحسن ولم
يجابههم بالتكفير المباشر ولم يقابل سفههم عليه إلا بالتؤدة والاستنكار
ولقد هيأ الله تعالى من تسلط على هذه البلاد وعلى رأسهم الإمام محمد بن
سعود أمير الدرعية في ذلك الزمان حيث شرح الله تعالى بالحمد والهدى وشرح
صدره للإسلام فهو على نور من ربه فآوى شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب
وواساه وقربه إليه وقام بنصره ومكنه من الدعوة إلى التوحيد وبيان الحكمة
التي لها خلق الجن والإنس ثم صرح في وجه من عاند وكابر وقام بالجهاد
في سبيل الله ونشر الإسلام وإظهار الدين الصحيح ولقد أنكر عليه الكثير من العرب
والعجم وهو في قوة العداوة وتعصب النصرة الباطلة والجاه لتبرير ما عليه
سادتهم وقادتهم وكبر عليهم ترك عادات الجاهلية الآباء والأجداد ...
العالمون بالأحكام من إنكار العامة لأنه ترك تلك الأوثان فالهم على ...
مرتاعون على مناصبهم التي لها يحرصون ويخرجون ... عليهم الأعطيات
والمرتبات فأخذوا يلفقون لهم الأعذار ويصفون ما وصلوا إليه من الضلال
هي أوهى من بيت العنكبوت ويلفقون الأكاذيب عن هذا الإمام ومن تبعه
ولقبوهم بالوهابية ... أن الشيخ



وأنها عد أضل وأكفر من اليهود والنصارى، ولكن ذلك كله لم يثن من عزائم علماء الدعوة، ولم يصد دولة آل سعود حفظهم الله عن إظهار الحق ونشره ونشر التوحيد والجهاد عليه حتى فتح الله بهم البلاد وأدان بالتوحيد من حولهم من العباد، فمنّ الله عليهم بالنصر والتمكين وتحقق لهم قول الله تعالى (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً) وعملوا صادقين بقول الله تعالى (الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر) فنصرهم الله تعالى وحقق لهم الأمنيات بهذا الدين القويم الذي من آثاره حصل لهم التمكين في الأرض كما قال شاعرهم المؤرخ ابن غنام رحمه الله تعالى

لقد رفع المولى به رتبة الهدى ... بوقت به يعلى الضلال ويرفع
وجرت به نجد ذيول افتخارها ... وحق لها بالألمعي المرفع
وعاد به نهج الغواية طامسا ... وقد كان مسلوكا به الناس ترتع

ثم إن الشيخ ابن عبد الوهاب رحمه الله وأكرم مثواه بعد أن أعلن الدعوة إلى التوحيد الصحيح كتب مؤلفات في ما يدعو إليه من التوحيد الصحيح وما ينافيه، وكان من أشهر ما ألفه (كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد) وهو كتاب فريد في موضوعه لم يسبقه إلى مثله ولم ينسج أحد قبله على منواله حيث جمع وأوعى واستوعب كل ما له صلة بالتوحيد الذي هو إفراد الله تعالى بالعبادة وكل ما ينافي التوحيد أو ينافي كماله أو يقدح فيه أو ينقص ثوابه، وجعله أبوابا وصل مجموعها إلى سبعة وستين بابا بدأها بستة أبواب في أهمية التوحيد وفضله والدعوة إليه

ثم شرع في التبويب للأفعال والاعتقادات التي هي من الشرك أو من وسائله يذكر تحت كل باب من الآيات والأحاديث ما يناسبه ويعقب الأحاديث الصحيحة التي يحيل في سياقها إلى ذكر رواتها أو الطعن فيها، ثم يتبع كل باب ببعض المسائل والفوائد التي يستنبطها من تلك الأدلة ليتضح للقارئ المراد منها ووجه دلالتها، ولقد لقي هذا الكتاب بتقبل ورواج واهتمام من أهل هذه الجزيرة وكان الطلاب يحفظونه عن ظهر قلب ويتناقشون ويختبرون في نصوصه ومعانيه، ثم أولاه العلماء عناية كبيرة بالشرح والتعليق عليه وإيضاح نصوصه وما يتصل به، وأول من شرحه شرحا موسعا هو حفيد المؤلف الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب رحمهم الله ولقد وفقه الله تعالى في هذا الشرح حيث أوضح الدلالات وأكثر من النقول عن الأئمة وبين ما يدخل في تلك التراجم واستوعب كل ما له علاقة بالباب، ولكنه قتل رحمه الله تعالى قبل إتمامه حيث بقي عليه من آخره سبعة أبواب وقد طبع شرحه والتيسير، ثم شرحه بعده حفيد المؤلف أيضا وهو الشيخ عبد الرحمن بن حسن بن محمد وسمى شرحه (فتح المجيد) والمطبوع أيضا مختصر يسمى (قرة عيون الموحدين) على هذا الكتاب ثم شروح وحواش وتعليقات كثيرة منتشرة مما يدل على أهمية هذا الكتاب وجودة ما فيه وكثرة فوائده فقد نفع الله به كل من اطلع عليه وقرأه بإنصاف حتى من الذين أنكروا الدعوة الحديثة ونسبوا إليها السوء لم يستطيعوا أن يعيبوا هذا الكتاب ولم يجدوا فيه مطعنا حيث أنه إنما يذكر آيات قرآنية واضحة الدلالة أو أحاديث نبوية صحيحة أو آثارا منقولة عن سلف الأمة وأئمتها أو نقولا عن مشاهير العلماء الربانيين معززة بالدليل والتعليل الواضح



ثم إن هذا الكتاب كان محل اهتمام مشايخنا وعلمائنا، وكان من أشهرهم
سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف رحمه الله تعالى، فقد وهبه الله من
العلم وسعة الفهم ما تميز به على أكثر زملائه، فكان من وحيد عصره وفريد دهره،
ولقد سمعنا وقرأنا من شرحه لهذا الكتاب ما فيه العجب العجاب، حيث
يوضح دلالات النصوص، وينبه على فوائده واستنباطات يعجب السامع
كيف وقعت له معاني التحقيق البالغ، ولقد استفدنا منه كثيراً، وأملى على
الطلاب ملخصات لشرحه احتفظ بها بعضهم، وضاع أكثرها والأسف،
ولقد قمت بشرحه عدة مرات في الحلقات التي أتولى التدريس فيها
في مساجد الرياض، ويحضرها العديد من طلاب الراغبين في العلم، وكان
أول ذلك في مسجد آل حماد الذي كنت إمامه من آخر عام ١٣٨٩هـ، ولم يسجل الشرح
إذ ذاك مع أني أتوسع في شرحه لطلاب يعنون بما يلقى لهم من خارجه، وربما يستغرق
الدرس للباب ساعة أو قريباً منها، وبعد ذلك شرحته في المسجد الجامع الكبير بالرياض
والمعروف حالياً بجامع الإمام تركي بن عبد الله آل سعود رحمه الله، وقد سجله أحد الطلاب
الحريصين واحتفظ بالتسجيل حتى قام بعض الإخوان بتفريغه وتصحيحه وتخريج
النصوص فيه، ثم عرض علي للتأكد من التصحيح وتصويب الأغلاط أو إكمال النقص
أو شرح بعض الأبواب أو بعض الجمل، وقد قمت بذلك حسب ما تسمح به الوقت، مع
كثرة المشاغل والرحلات في الدروس والكلمات والأغراض الشخصية، ثم رغب الكثير
من الطلاب في نشره وطبعه فوافقت على ذلك رجاء أن ينفع الله تعالى به من أراد به
خيراً من المسلمين في المواعظ والنصح، ولتصحيح ما وقع وانتشر من الأخطاء التقليدية،
أو لما فيه من معلومات وفوائد جديدة يكتسبها القارئ في الحكم الإسلامي بإذن الله.

وليعلم أني شرحته ارتجالاً ولم أتمكن حال الشرح من مطالعة الشروح
السابقة، والاهتمام بالتحضير والاستعداد، وإنما هو فتح من الله تعالى، وبيان لما علق
بالذهن من الفوائد التي تلقيتها عن أولئك المشايخ الذين أولوا هذا الكتاب
اهتماماً بليغاً، كما استفدته مما قرأته من شروح العلماء المطبوعة المشهورة،
وها أنا ذا أعرضه هنا على الزملاء والقراء والمستفيدين، رجاء أن ينظروا
فيه بعين الإنصاف، وأن من أخطأ من القراء ينبه أو يعلم بما حصل فيه من
خطأ لفظي أو معنوي، فالمؤمن مرآة أخيه المؤمن، وإني الآن أعتذر بما قال
ابن القيم رحمه الله تعالى في مقدمة كتابه (عدة الصابرين) قال: ومع ذلك فهو جهد المقل،
وقدرة المفلس، حذر فيه من الداء، وإن كان من أهله، ووصف فيه الدواء، وإن لم
يصبر على تناوله لظلمه وجهله، وهو يرجو من أكرم الأكرمين، وأرحم الراحمين أن يغفر
له لنفسه بنصيحته لعباده المؤمنين، فما كان في الكتاب من صواب فمن الله وحده
فهو المحمود والمستعان، وما كان فيه من خطأ فمني ومن الشيطان، والله
بريء منه ورسوله، وهذه بضاعته المزجاة تساق إليك، وسلعته تعرض
عليك، فلقارئه غنمه، وعلى مؤلفه غرمه، وبنات أفكاره تزف إليك، فإن صادفت
حراً كريماً كانت عنده أسعد، وإلا فهي عوض ترغب إلى غيره، وقصد انتهى كلامه رحمه الله تعالى.
وإليك الآن مبدأ شرح الكتاب، والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

تقديم
فضيلة الشيخ العلامة
عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الكبير المتعال، المتوحد بالكمال، المتعالي عن الشركاء والأمثال، تفرد بالبقاء والدوام والجلال، وتنزه عن الصاحبة والأولاد والأشكال. أحمده سبحانه وأشكره على جزيل الإنعام والإفضال.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، في الألوهية والربوبية والأسماء والصفات والأفعال، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، المخصوص بعموم البعث والإرسال، صلى الله عليه وسلم، وعلى جميع الأصحاب والأتباع، في جميع الأزمنة والأحوال.

أما بعد:

فإن ربنا سبحانه خلق الخلق ورزقهم، وأعطاهم وخولهم، واختص من خَلْقِهِ الجن والإنس بالتكليف والأمر والنهي؛ حيث تميزوا بالعقل والإدراك، وفهم الخطاب، ففرض عليهم عبادته وحده، وأمرهم بتوحيده بالطاعة، وذكرهم بنعمه وسوابغ فضله.

وحيث أن الأصل في الإنسان الجهل والغفلة، وعدم العلم بما خُلق له وكلف به، فإن ربنا سبحانه قد أعذر إلى الخلق، فأرسل الرسل، وأنزل الكتب، ببيان ما خلق له البشر وما كلفوا به، واتفقت رسالة رسله عليهم الصلاة والسلام على

دعوة أممهم إلىٰ معرفة الله تعالىٰ، وعبادته وحده، وترك عبادة من سواه، من الأحياء والأموات، والجماد والحيوان، قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وقد اقتضت حكمة الله تعالىٰ أن سلط علىٰ النوع البشري عدواً من الأعداء الذين يصرفونه عن الإيمان بربه، وعن معرفة ما خلق له: من التوحيد والإخلاص، وعن التفكر في آيات الرب تعالىٰ الكونية، التي تبهر العقول، وتدل علىٰ عظمة الخالق وكبريائه، فأول عدو لنوع الإنسان إبليس اللعين، الذي أبىٰ واستكبر عن السجود لأبينا آدم عليه السلام، وعصىٰ أمر ربه، ثم بعد أن أنظره الله تعالىٰ؛ أقسم أن يتسلط علىٰ ذرية آدم، وقال: ﴿لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا (١١٨) وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ...﴾ [النساء: ١١٨، ١١٩]. وحكىٰ الله عنه أنه قال: ﴿لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٦٢]، وقال الله تعالىٰ: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ ...﴾ الآية [الإسراء: ٦٤].

ولا شك أنه قد أضل خلقاً كثيراً، وصرفهم عن التوحيد، وزين لهم الشرك والتنديد، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: ٢٠].

فهو الذي زين الشرك لقوم نوح؛ حيث أوحىٰ إليهم أن يعكفوا علىٰ قبور الصالحين، ودّ، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر، ثم يصوروا تماثيلهم وينصبوها في مجالسهم، ثم قال لمن بعدهم: إنهم كانوا يعبدونهم[1].

(١) قال تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣].

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ في «تفسيره» (٤/ ٤٢٦): وهذه أسماء أصنامهم التي كانوا يعبدونها من دون الله... ثم قال: وهي أسماء رجال صالحين من قوم نوح عليه السلام فلما هلكوا =

وهكذا وقع أول شرك في بني آدم، وتتابع بعد ذلك، حتى بعث الله تعالى محمداً ﷺ في الوقت الذي تمكن فيه الشرك في الأمم، وأكثروا من المعبودات التي تسمى أصناماً وأوثاناً؛ سواء كانت منحوتة على صور بعض الصالحين أو غيرهم، أو أشجاراً وأحجاراً زين لهم الشيطان أنها تنفع وتضر، وتفيدهم في حياتهم، وتجلب لهم الرزق، وتنصرهم على الأعداء، فقلدوا في عبادتها الآباء والأجداد، وتمسكوا بعادة الأسلاف، واستصعبوا مفارقة تلك العادات ولو كانت غير مألوفة في العقول المستقيمة، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٣٧]، ومع ذلك فإنهم يقرُّون بأن الله تعالى هو الخالق الرازق، المتصرف في الكون، فهو ربهم ومالكهم باعترافهم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ [يونس: ٣١]؛ أي: سوف يعترفون بأن الفاعل لذلك هو الله وحده وهكذا قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١]، ونحو ذلك من الآيات.

ثم إنهم مع ذلك يخلصون لله تعالى في الأزمات، وعند اشتداد الكربات، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

= أوحى الشيطان إلى قومهم: أن أنصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسموها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك ونسخ العلم عبدت.

ثم نقل عن ابن جرير فقال: كانوا قوماً صالحين بين آدم ونوح وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم فصوروهم، فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس، فقال: إنما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر، فعبدوهم. أ.هـ.

ومع أنهم أيضاً يعبدون الله تعالىٰ بأنواع من العبادات: كالحج والعمرة والطواف والصدقة والصلة ونحوها، ومع أنهم لا يقصدون من عبادة أصنامهم إلا الشفاعة والقربة، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]، والمعنىٰ: أنهم يشفعون لهم عند الله في جلب الرزق، وإنزال المطر، وحصول البركة، وكثرة المال والولد، ويقربونهم إلىٰ الله إذا دعوه لينصرهم ويظهرهم، ويمدهم بقوة منه، وقد يحصل لهم شيء من هذه المقاصد إذا دعوهم مع الله، إما علىٰ وجه المصادفة بدون أن يكون لآلهتهم تأثير، وإما ابتلاء من الله تعالىٰ؛ فيظنوا أن ذلك بشفاعة آلهتهم، فيتمادوا في غيهم وضلالهم.

ثم إن الله تعالىٰ كلف رسوله ﷺ أن ينذرهم ويحذرهم ويخوفهم بأس الله الذي لا يرد عن القوم المشركين، ولقد بشر وأنذر، وبين لهم حقيقة التوحيد، والدين الصحيح الذي دعت إليه الرسل جميعاً لأممهم، وأوضح لهم أن هذه الآلهة لا تنفع ولا تضر، وأنها جماد ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ [النحل: ٢١]، وأن الله سبحانه هو الذي يملك ذلك كله، بيده الخير ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المُلك: ١].

ثم قد حكىٰ الله تعالىٰ ما واجهه من الرد عليه وتكذيبه، ورميه بأنه ساحر أو شاعر أو كاهن، وأنه قد افترىٰ ما جاء به من هذا الكتاب، وكذا ما حصل له من الأضرار والأذىٰ، والمضايقة والمقاطعة، حتىٰ لأقاربه إلىٰ أن هاجر وتحول إلىٰ المدينة، ثم أنزل الله تعالىٰ نصره وَصَدَقَهُ وعده وأظهر دينه ﴿عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٩]؛ حتىٰ قضىٰ علىٰ وسائل الشرك وأسبابه، وهدم معابدهم، وأتلف أصنامهم ومعبوداتهم، بعد أن أقنعهم بأنها جماد أو أموات، وقد حمىٰ جناب التوحيد، وسد جميع طرق الشرك، وبلغ الرسالة التي كلف

بحملها وبيانها، وبعد أن أكمل الله له الدين، وبلغ البلاغ المبين، اختار الله له جواره، ورفعه في الرفيق الأعلىٰ.

ثم قيض الله تعالىٰ لدينه من ينصره ويظهره، ويبلغه لأقصىٰ البلاد وأدناها، فقام الصحابة ومن خَلَفَهُم بالجهاد في سبيل الله تعالىٰ، ونصر الدين، وبيان التوحيد، وهدم معاول كل مشرك وكافر، حتىٰ انتشر دين الإسلام في أصقاع المعمورة، وبلغ ما بلغه الليل والنهار، وقد بذل المسلمون في نصر الدين كل غال ونفيس، وضحوا بأموالهم وأنفسهم وأهليهم في سبيل الله تعالىٰ وهانت عليهم الدنيا ومتاعها، وتنافسوا في الدرجات العلا عند الله، حتىٰ نصرهم الله تعالىٰ وأظهر دينه، وأعلىٰ كلمته، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥].

وحيث أن ظهور هذا التوحيد، والقضاء علىٰ الشرك، ومحو الأديان الأخرىٰ المنسوخة أو المحرفة مما يغيض الشيطان وأعوان الشيطان، وأهل تلك العقائد المنحرفة من: المجوس، والصهاينة، والنصارىٰ، والدهريين، والملحدين، وسائر المخالفين، فإن جميعهم قد امتلأت قلوبهم علىٰ الإسلام حقداً وضغناً، و ﴿حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ [البقرة: ١٠٩]؛ فدفعتهم شياطينهم ورؤسائهم إلىٰ إعمال الحيل والمكايد للنيل من هذا التوحيد ودين الإسلام، و التشكيك في صلاحيته، وإلىٰ العمل في تضليل المسلمين، وإيقاعهم في البدع والمحدثات، والشرك بالله تعالىٰ أو وسائله، حتىٰ يشفوا غيظهم من المسلمين الذين قضوا علىٰ تلك الأديان الباطلة، وحتىٰ يخرجوا المسلمين من دينهم إلىٰ غيره أو يشككوهم في صلاحيته، وقد نجحوا في كثير من تلك الحيل، وراجت أفكارهم عند الكثير من الدول الإسلامية التي أخذت تنشر أفكارهم وتطبق قوانينهم.

وقد أدخلوا على المسلمين من الضلالات، والبدع والمحدثات، ما أعجز الكثير التخلص منه؛ حيث نشروا سمومهم ضمن كتب الضلال التي أدخلوها على المسلمين، موهمين أنها كتب علم وفائدة، تشحذ الأفكار وتوقد الأذهان، فراجت تلك الكتب التي ترجموها، وأكب عليها الكثير من المسلمين، رغم تحذير علماء الأمة عن مغبتها، فكانت العاقبة أن كثرت الزندقة والإلحاد في أوساط المسلمين، وانتهجوا سبل الردى، وتوغل الكثير في تلك العلوم التي كانت نهايتهم بعدها الحيرة والشك، فأتاهم أجلهم وهم لا يدرون ما يعتقدون، وندموا على ما مضى من حياتهم حين لا ينفع الندم.

وقد مضت القرون الوسطى على الخوض في علم الكلام، والإنكار غالباً لصفات الكمال في حق الخالق تعالى، واستخفى أهل الإثبات، ومن تجرأ منهم وأظهر معتقده رموه عن قوس العداوة، ونبزوه بالتشبيه والتجسيم، والابتداع والمخالفة، ولكن الله تعالى قيض للسنة من يحفظها ويعمل بها، ولو كانوا قليلاً في بعض الأزمنة، وكان منهم شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله، وأكرم مثواه ـ، فقد كان له في القرن السابع والثامن مواقف مع أهل الابتداع من المعطلة والصوفية، والقبوريين ونحوهم.

وقد أظهره الله تعالى على حين فترة من العلماء الربانين، وقلة من العاملين، فجهر بالحق، وأعلن القول بالإثبات، وناقش أولئك النفاة، و أفحمهم بالأدلة الواضحة الجلية، وجعل الله تعالى له مكانة مرموقة في قلوب العامة، فأحبوه واعترفوا بفضله وعلمه، رغم كيد الكائدين، وحسد المعاندين، فهو أول من جهر في تلك الأزمنة بالرد على المعطلة، ونفات صفات الكمال، وبالرد على المشركين وعباد الأموات، ومناقشة المتصوفة، والغلاة في الأشخاص، وأصحاب الحالات وغيرهم من أهل البدع والمخالفات.

وقد عقد له معهم مجالس في دمشق ومصر ولم يجدوا إلا رفع أمره إلى السلطان، وَطَلَبَ سجنه مخافة أن يغير عليهم ما يعتقدون مما توارثوه عن الآباء والمشايخ، ولم يكن سجنه مانعاً له من نشر العلم، و الجهر بالحق، والكتابة الوافية في هذه المواضيع، بحيث انتشرت فتاواه وكتبه، ونفع الله تعالى بعلومه بعده.

فبعد موته ضعفت الدعوة إلى العقيدة السليمة، والتوحيد الصحيح، وظهرت البدع والمحدثات، واستصغر المنكرون لها، وتمكن الشيطان من الإستيلاء على القلوب، والدعوة إلى الشرك الصريح، ودعاء الأموات من دون الله تعالى؛ حيث تمكنت الرافضة في الكثير من بلاد المسلمين، وأظهروا شركهم بدعاء أئمتهم، واعتقاد أنهم ينفعون من دعاهم، وتقرب إليهم، ثم بنوا على القبور قباباً عالية، وأوهمهم الشيطان أن هناكَ دُفِنَ الإمام علي أو الحسين، أو السيدة زينب، ونحو ذلك، وقد قلدهم الجهلة من أهل السنة، وعمروا القبور، واعتقدوا أن أهلها أولياء، وسادة وشهداء، وأنهم يشفعون من دون الله، وينفعون من دعاهم أو تقرب إليهم، وانتشر هذا الشرك الصريح في الكثير من ديار المسلمين، وجادل أهل الباطل في جوازه، وغيروا الأسماء الظاهرة؛ حيث سموه تقرباً وتوسلاً واستشفاعاً وتوسطاً، وتجنبوا تسميته دعاء أو عبادة أو شركًا، مع أن العبرة بالحقائق لا بالأسماء.

ولقد كثر وتمكن الغلو في الأموات، والبناء على القبور، رغم ورود النهي الصريح في الأحاديث الصحيحة عن رفع القبور والبناء عليها، وإسراجها وتجصيصها، والكتابة عليها[1]، ونحو ذلك مما هو من الوسائل إلى دعاء

---

(١) وردت عدة أحاديث في النهي عن: تجصيص القبور، والبناء عليها، وإسراجها، ورفعها، والكتابة عليها، والجلوس عليها، ومن ذلك:

(أ) عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه، قال: «نهى رسول الله ﷺ: أن يجصص القبر، وأن يقعد عليه، =

الأموات، والغلو فيهم، وقد خالفوا تلك الإرشادات النبوية فرفعوا القبور وشيدوها، وبنوا عليها، مما كان سبباً مباشراً لدعاء الأموات مع الله، والهتاف بأسمائهم، والذبح لهم، والتمسح بتربتهم، وتحري الصلاة عندهم، وإطالة المكث والاعتكاف عند الأضرحة، مما هو شرك صريح بالله تعالىٰ.

فنشأ علىٰ ذلك الصغير، وهرم عليه الكبير، ومضىٰ علىٰ ذلك عدة قرون، حتي قيض الله تعالىٰ لهذه الأمة من جدد لها دينها، وأعاد من هداه الله تعالىٰ إلىٰ التوحيد الصحيح، والدين القويم، ألا وهو الشيخ المجدد محمد بن عبد الوهاب بن سليمان، التميمي النجدي، الذي ولد ونشأ في القرن الثاني عشر، وتوفي في القرن الثالث عشر، والذي هداه الله تعالىٰ وبصَّره بحقيقة التوحيد، وما يجب لله تعالىٰ علىٰ العبيد.

ولقد ألفىٰ الناس في زمانه علىٰ الشرك ووسائله، رغم أنهم ينطقون

= وأن يبنى عليه».

رواه مسلم برقم (٩٧٠).

(ب) وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لأن يجلس أحدكم على جمرة؛ فتحرق ثيابه، فتخلص إلى جلده، خير له من أن يجلس على قبر».

رواه مسلم برقم (٩٧١).

(جـ) وعن أبي مرثد الغنوي قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تجلسوا على القبور، ولا تصلوا إليها».

رواه مسلم برقم (٩٧٢).

(د) وعن جابر رضي الله عنه، قال: «نهى رسول الله ﷺ أن يكتب على القبر شيء».

رواه ابن ماجة برقم (١٥٦٣).

(هـ) وعن أبي الهياج الأسدي، قال: قال لي علي بن أبي طالب: ألا أبعثك علىٰ ما بعثني عليه رسول الله ﷺ: «أن لا تدع تمثالاً إلا طمسته، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته».

رواه مسلم برقم (٩٦٩).

والمعنى: إذا رأيت قبراً مرتفعاً جعلته كغيره من القبور، فيكون مرتفعاً ارتفاعاً يسيراً نحو شبر.

بالشهادتين، ويصلون، ويصومون، ويحجون، ويقرؤن القرآن، ويتعلمون السنة، وعندهم كتب الحديث، وكتب أهل العلم، ومن بينهم علماء وحفاظ، ومع ذلك فقد تمكن الشرك فيهم، وعبدوا غير الله تعالى، فتراهم يطوفون بالقبور، ويهتفون بالأموات، ويتحرون الصلاة عند الأضرحة التي يسمونها مشاهد، ويذبحون عندها القرابين، ويحلفون بالسادة والأولياء، ويصرفون لهم خالص حق الله تعالى، كما ذكر ذلك عنهم الشيخ ملا عمران بن رضوان ساكن نجد بقوله:

الشيخ شاهد بعض أهل جهالة
يدعون أصحاب القبور الهمد
تاجاً وشمساناً ومن ضاهاهما
من قبة أو تربة أو مشهد

وكذا ذكر الأمير الصنعاني في داليته بقوله:

أعادوا بها معنى سواع ومثله
يغوث وودٍ بئس ذلك من ود
وقد هتفوا عند الشدائد باسمها
كما يهتف المضطر بالصمد الفرد
وكم عقروا في سوحها من عقيرة
أهلت لغير الله جهراً على عمد
وكم طائف حول القبور مقبل
ومستلم منهن باليدي

لقد صدق هذان الشاعران رحمهما الله تعالىٰ في تمثيل ما يعمله أهل ذلك الزمان عند الأضرحة التي أسموها مشاهد، تحاشياً عن تسميتها أصناماً وأوثاناً، وسموا أعمالهم توسلاً واستشفاعاً وتبركاً، وهو فيا الحقيقة عبادة وتذلل وتقرب إلىٰ غير الله تعالىٰ.

ولقد ألهم الله الشيخ محمد بن عبد الوهاب وبصره بالتوحيد الذي خلق الله له الجن والإنس، واتضح له أن أعمال هؤلاء عند الأضرحة هو الشرك بالله، وصرف خالص حقه لهذه القبور، فابتدأ بالإنكار عليهم إنكار هادئاً، ومجادلتهم بالتي هي أحسن، ولم يجابههم بالتكفير المباشر، ولم يضلل سعيهم علنًا، مخافة النفرة والاستنكار.

ولقد هدىٰ الله تعالىٰ بواسطته أهل هذه البلاد، وعلىٰ رأسهم الإمام محمد بن سعود أمير الدرعية في ذلك الزمان، حيث بصره الله تعالىٰ بالحق والهدىٰ، وشرح صدره للإسلام، فهو علىٰ نور من ربه فآوىٰ شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب وواساه، وقربه إليه، وقام بنصره، و مكنه من الدعوة إلىٰ التوحيد، وبيان الحكمة التي لها خلق الجن والإنس، ثم صمد في وجوه من عاند و كابر، وقام بالجهاد في سبيل الله، ونصر الإسلام، وإظهار الدين الصحيح.

ولقد أنكر عليه الكثير من العرب والعجم، ورموه عن قوس العداوة، وانتصبوا لنصرة الباطل، والمجادلة لتبرير ما عليه عامتهم وقادتهم، وكبر عليهم ترك عادات ألفوا عليها الآباء والأجداد، وخاف العلماء العارفون بالأحكام من إنكار العامة لمخالفة تلك المألوفات، فداهن علماؤهم خوفاً علىٰ مصالحهم ومناصبهم التي فيها يحترمون ويوقرون، وتدر عليهم الأعطية والمرتبات، فأخذوا يلتمسون لهم الأعذار، ويجمعون ما وصلوا إليه من الحجج التي هي أوهىٰ من بيت العنكبوت، ولفقوا الأكاذيب علىٰ هذا الإمام ومن تبعه، ولقبوهم

بالوهابية، ورموهم بالعظائم، حتىٰ اعتقد العامة أن الشيخ وأتباعه أضل وأكفر من اليهود والنصارىٰ، ولكن ذلك كله لم يثن من عزمه علىٰ الدعوة، ولم يعق دولة آل سعود حفظهم الله عن إظهار الحق ونشره، ونصر التوحيد، والجهاد عليه، حتىٰ فتح الله بهم البلاد، ودان بالتوحيد من حولهم من العباد، فمنّ الله عليهم بالنصر والتمكين، وتحقق لهم قول الله تعالىٰ: ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا**﴾ [النور: ٥٥]، وعملوا صادقين بقول الله تعالىٰ: ﴿**الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ**﴾ [الحج: ٤١]؛ فقد نصرهم الله تعالىٰ وحق لهم الافتخار بهذا الدين القويم، الذي من آثاره حصل لهم التمكين في الأرض، كما قال شاعرهم المؤرخ بن غنام، رحمه الله تعالىٰ:

لقد رفع المولى به رتبة الهدى
بوقت به يعلى الضلال ويرفع
وعاد به نهج الغواية طامساً
وقد كان مسلوكاً به الناس تربع
وجرّت به نجد ذيول افتخارها
وحق لها بالألمعى ترفَّع

ثم إن الشيخ ابن عبد الوهاب ـ رحمه الله وأكرم مثواه ـ، بعد أن أعلن الدعوة إلىٰ التوحيد الصحيح، كتب مؤلفات في ما يدعو إليه من التوحيد الصحيح، وما ينافيه، وكان من أشهر ما ألف «**كتاب التوحيد**» الذي هو حق الله علىٰ العبيد، وهو كتاب فرد في موضوعة، لم يسبق إلىٰ مثله، ولم ينسج أحد

قبله على منواله؛ حيث جمع وأوعى، واستوعب كل ما له صلة بالتوحيد الذي هو إفراد الله تعالى بالعبادة، وكل ما ينافي التوحيد أو ينافي كماله، أو يقدح فيه، أو ينقص ثوابه، وجعله أبواباً، وصل مجموعها إلى سبعة وستين باباً، بدأها بستة أبواب في أهمية التوحيد وفضلة والدعوة إليه، ثم شرع في التبويب للأفعال والاعتقادات التي هي من الشرك أو من وسائله، يذكر تحت كل باب من الآيات والأحاديث ما يناسبه، ويعتمد الأحاديث الصحيحة التي لا يجد المخالف سبيلاً إلى ردها أو الطعن فيها، ثم يتبع كل باب ببعض المسائل والفوائد التي يستنبطها من تلك الأدلة، ليتضح للقارئ الهدف منها ووجه دلالتها.

ولقد لقي هذا الكتاب تقبلاً ورواجاً واهتماماً من أهل هذه الجزيرة، فكان الطلاب يحفظونه عن ظهر قلب، ويناقشون، ويختبرون في دلالة نصوصه ومعانيه، ثم أولاه المشايخ عناية كبيرة بالشرح والتعليق عليه، وإيضاح نصوصه، وما يتصل به، وأول من شرحه شرحاً موسعًا هو حفيد المؤلف المدعو سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، ولقد وفقه الله تعالى في هذا الشرح، حيث أوضح الدلالات، وأكثر من النقول عن الأئمة، وبين ما يدخل في تلك التراجم، واستوفى كل ماله علاقة بالباب، ولكنه قتل رحمه الله تعالى قبل إتمامه، حيث بقي عليه من آخره سبعة أبواب، وقد طبع شرحه وانتفع به.

ثم شرحه بعده حفيد المؤلف أيضاً، وهو الشيخ عبد الرحمن بن حسن بن محمد، وسمى شرحه «**فتح المجيد**»، وله عليه أيضاً حاشية تسمى: «**قرة عيون الموحدين**». وعلى هذا الكتاب عدة شروح وحواش وتعليقات كثيرة منتشرة، مما يدل على أهمية هذا الكتاب، وجودة معانيه، وكثرة فوائده، فقد نفع الله تعالى من اطلع عليه وقرأه بإنصاف، حتى من الذين أنكروا الدعوة النجدية، ونصبوا لها العداء، لم يستطيعوا أن يعيبوا هذا الكتاب، ولم يجدوا فيه مطعناً؛ حيث إنه

إنما يذكر آيات قرآنية واضحة الدلالة، أو أحاديث نبوية صحيحة، أو آثاراً منقولة عن سلف الأمة وأئمتها، أو نقولاً عن مشاهير العلماء الربانيين مؤيدة بالدليل والتعليل الواضح.

ثم إن هذا الكتاب كان محل اهتمام مشايخنا وعلمائنا، وكان من أشهرهم سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف رحمه الله تعالى؛ فقد وهبه الله من العلم وسعة الفهم ما تميز به على أهل زمانه، فكان وحيد عصره، وفريد دهره، ولقد سمعنا وقرأنا من شرحه لهذا الكتاب ما فيه العجب العجاب؛ حيث يوضح دلالات النصوص، وينبه على فوائد واستنباطات يعجب السامع كيف وقعت له؟! مما قد لا تخطر بالبال، ولقد استفدنا منه كثيراً، وأملى على الطلاب ملخصات لشرحه، احتفظ بها بعضهم، وضاع أكثرها وللأسف.

ولقد قمت بشرحه عدة مرات في الحلقات التي أتولى التدريس فيها في مساجد الرياض، ويحضرها العديد من الطلاب الراغبين المحبين للعلم، وكان أول ذلك في مسجد آل حماد الذي قمت بإمامته من آخر عام ١٣٨٩هـ، ولم يسجل الشرح إذ ذاك، مع أني أتوسع في شرحه لطلاب من جوانب المملكة ومن خارجها، فربما يستغرق الشرح للباب ساعة أو قريباً منها، وبعد ذلك شرحته في المسجد الجامع الكبير بالرياض، والمعروف حالياً بجامع الإمام تركي بن عبد الله آل سعود ـ رحمه الله ـ، وقد سجله أحد الطلاب الحريصين، واحتفظ بالتسجيل، حتى قام بعض الإخوان بتفريغه، وتصحيحه، وتخريج النصوص فيه، ثم عُرِضَ عليَّ للتأكد من التصحيح، وتصويب الأغلاط، وإكمال النقص لشرح بعض الأبواب أو بعض الجمل.

وقد قمت بذلك حسب ما اتسع له من الوقت، رغم كثرة المشاغل والمراجعات، والدروس والمكالمات، والأغراض الشخصية، ثم رغب الكثير من

الطلاب في نشره وطبعه فوافقت على ذلك، رجاء أن ينفع الله تعالى به من أراد به خيراً من المسلمين في الداخل والخارج؛ سواء بتصحيح ما وقعوا فيه من الأخطاء التقليدية، أو بإضافة معلومات وفوائد جديدة يكون لها تأثير ظاهر في المجتمع الإسلامي بإذن الله تعالى.

وليعلم أني شرحته ارتجالاً، ولم أتمكن حالة الشرح من مطالعة الشروح السابقة، ولا من التحضير والاستعداد، وإنما هو فتح من الله تعالى، وبيان لما علق بالذهن من الفوائد التي تلقيتها من أفواه المشايخ الذين أولوا هذا الكتاب اهتماماً بليغاً، وكذا ما استفدته قديماً من شروح العلماء المطبوعة المشهورة، وها أنا ذا أعرض بضاعتي المزجاة على القراء والمستمعين، رجاء أن ينظروا فيه بعين الإنصاف، وأن أحظى من إخواني القراء بتنبيه، أو إصلاح خطأ، أو دلالة على غلط لفظي أو معنوي، فالمؤمن مرآة أخيه المؤمن.

وإني الآن أتمثل بما قال ابن القيم رحمه الله تعالى في مقدمة كتابه «عدة الصابرين»، قال: (ومع ذلك فهو جهد المقل، وقدرة المفلس، حذر فيه من الداء وإن كان من أهله، ووصف فيه الدواء وإن لم يصبر على تناوله لظلمه وجهله، وهو يرجو أكرم الأكرمين، وأرحم الراحمين أن يغفر له غيه لنفسه، بنصيحته لعباده المؤمنين، فما كان في الكتاب من صواب فمن الله وحده، فهو المحمود والمستعان، وما كان فيه من خطأ فمن مصنفه ومن الشيطان، والله بريء منه ورسوله، وهذه بضاعة مؤلفه المزجاة تساق إليك، وسلعته تعرض عليك، فلقارئه غنمه، وعلى مؤلفه غرمه، وبنات أفكاره تزف إليك، فإن وجدت حرّاً كريماً كان بها أسعد، وإلا فهي خود تزف إلى عنين مقعد) انتهى كلامه رحمه الله تعالى.

وإليك الآن مبدأ شرح الكتاب، والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

مقدمة المعتني بالكتاب

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد:

فبين يديك أخي القارئ الكريم كتاب (**السبك الفريد شرح كتاب التوحيد**) لفضيلة شيخنا وإمامنا وقدوتنا العلامة الدكتور عبدالله بن عبد الرحمن بن إبراهيم الجبرين حفظه الله ورعاه.

ومعلوم أن أصل كتاب التوحيد للإمام المجدد الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله.

وهذا الشرح شرح عظيم الشأن كثير المعاني والفوائد، نسأل الله تعالى أن ينفع به كما نفع بأصله.

ولا أريد في هذه المقدمة أن أتكلم عن أهمية التوحيد وخطورة الشرك وعن أهمية كتاب التوحيد ونحو ذلك، فإن فضيلة الشيخ وفقه الله قد كتب مقدمة مطولة أجاد فيها وأفاد، فلا يسعني أن أزيد على كلام شيخنا حفظه الله.

ولكن الذي أريد اطلاع القارئ عليه هو بيان عملي في الكتاب، أي: مراحل العمل التي تمت حتى صدر الشرح بهذا الثوب القشيب.

عملي في الكتاب:

أولاً: قمت بنسخ الأشرطة التي كان عددها واحداً وعشرون شريطاً على أوراق، وذلك بعد أخذ الإذن من فضيلة شيخنا بالعمل في الكتاب.

علماً بأن هذه الأشرطة سجلت في عام ١٤١٢هـ عندما كان الشيخ يشرح الكتاب في الجامع الكبير بالرياض، والمسمى الآن (جامع الإمام تركي بن عبد الله آل سعود رحمه الله تعالى).

ثانيـاً: بعد الانتهاء من عملية التفريغ بدأت بتهذيب الشرح بحذف المكرر وضبط الجمل وربط الشرح بالمتن وغير ذلك مما يحتاجه العمل العلمي من التصحيح والمراجعة.

وتبين لي في هذه المرحلة أن بعض الأبواب لم يسجل شرحها وهي ستة أبواب، إضافة إلى عشرات الآيات والأحاديث و الجمل التي لم يسجل شرحها.

ثالثاً: قمت بتخريج الآيات والأحاديث للمتن والشرح قدر الجهد المستطاع.

وقد جعلت الباب من كتاب التوحيد قبل الشرح تليه المسائل ثم الشرح وذلك بذكر الآية أو الحديث ثم شرح الشيخ وهكذا في جميع الكتاب.

رابعـاً: قمت بعد هذه المرحلة بإرسال الكتاب للتنضيد، أي: لطباعته على جهاز الكمبيوتر، حيث تم عمل عدة مراحل من المطابقة والتصحيح والمراجعة والضبط ونحو ذلك.

خامساً: بعد ذلك قمت بتقديم الكتاب لفضيلة الشيخ لمراجعته وتصحيحه بإضافة وحذف ما يريد.

وقد بينت للشيخ بأنه توجد ستة أبواب لا يوجد لها شرح وبعض الآيات والأحاديث ونحو ذلك.

وقـد أرشـدني الشيخ إلى أن هناك شـرحـاً على بعض الأبواب في بعض الدروس العلمية، ولكن للأسف بحثت عن هذا الشرح طويلاً فلم أجده، لذلك اضطر الشيخ إلى شرح الأبواب الساقطة والآيات والأحاديث بخط يده، وقد كتب الشيخ أكثر من (١٥٠) صفحة بخط يده، فجزا الله الشيخ خير الجزاء على ما بذل من جهد، ونفع به، وجعله في موازين أعماله.

علماً بأن الشيخ قد كتب مقدمة قيمة مطولة وصلت إلى (١٣) صفحة.

سادساً: بعد ذلك أعطاني الشيخ حفظه الله الكتاب بعد أن انتهى من العمل فيه، وقمت بعد ذلك بمراجعته، وخرجت الآيات والأحاديث التي أوردها الشيخ في الإضافات.

سابعاً: عرضت الكتاب على متخصص في اللغة العربية لمراجعته وضبطه ووضع علامات الترقيم اللازمة ونحو ذلك.

ثامناً: قمت بمراجعة الكتاب مراجعة نهائية، وكلما واجهتني جملة أو كلمة أو سقط راجعت الشيخ لتصحيحه أو إكماله حتى وصل الكتاب إلى وضعه النهائي الذي عليه الآن.

تاسعاً: عندما أردت وضع عنوان للكتاب طلبت من بعض الأخوان تزويدي ببعض العناوين، وقد زودني الأخ الفاضل الشيخ سعد السعدان بجملة عناوين، وقد عرضت هذه العناوين على فضيلة الشيخ لاختيار ما يراه مناسباً منها، وقد اختار فضيلته العنوان الحالي والذي هو من اختيار الشيخ سعد السعدان وفقه الله.

عاشراً: وأخيراً فإنني أشكر كل من ساعد في إخراج هذا الشرح العظيم وأخص بالشكر فضيلة الشيخ الدكتور عبدالرحمن بن عبدالله الجبرين حفظه الله وخاصة

في المرحلة الأخيرة من تجهيز الكتاب.

كما أشكر الأخ الذي قام بطباعة الكتاب على جهاز الكمبيوتر، وكل من ساعد في مراحل التصحيح والمراجعة ونحو ذلك.

وختاماً: فإنني أقدم هذا الجهد المتواضع على ما فيه من تقصير لإخواني طلاب العلم، علّ الله أن ينفع به كما نفع بأصله، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن يكتبه في موازين أعمالنا إنه سميع مجيب.

كما أسأله تعالى أن يجزي شيخنا خير الجزاء على ما قدم ويقدم خدمة للعلم وللدعوة وللإسلام والمسلمين، وأن يبارك في عمره إنه سميع مجيب، والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وكتبه

أبو أنس على بن حسين بن خليل أبو لوز

ليلة الاثنين ٣/ ١/ ١٤٢٥ هـ

الموافق ٢٣/ ٢/ ٢٠٠٤م

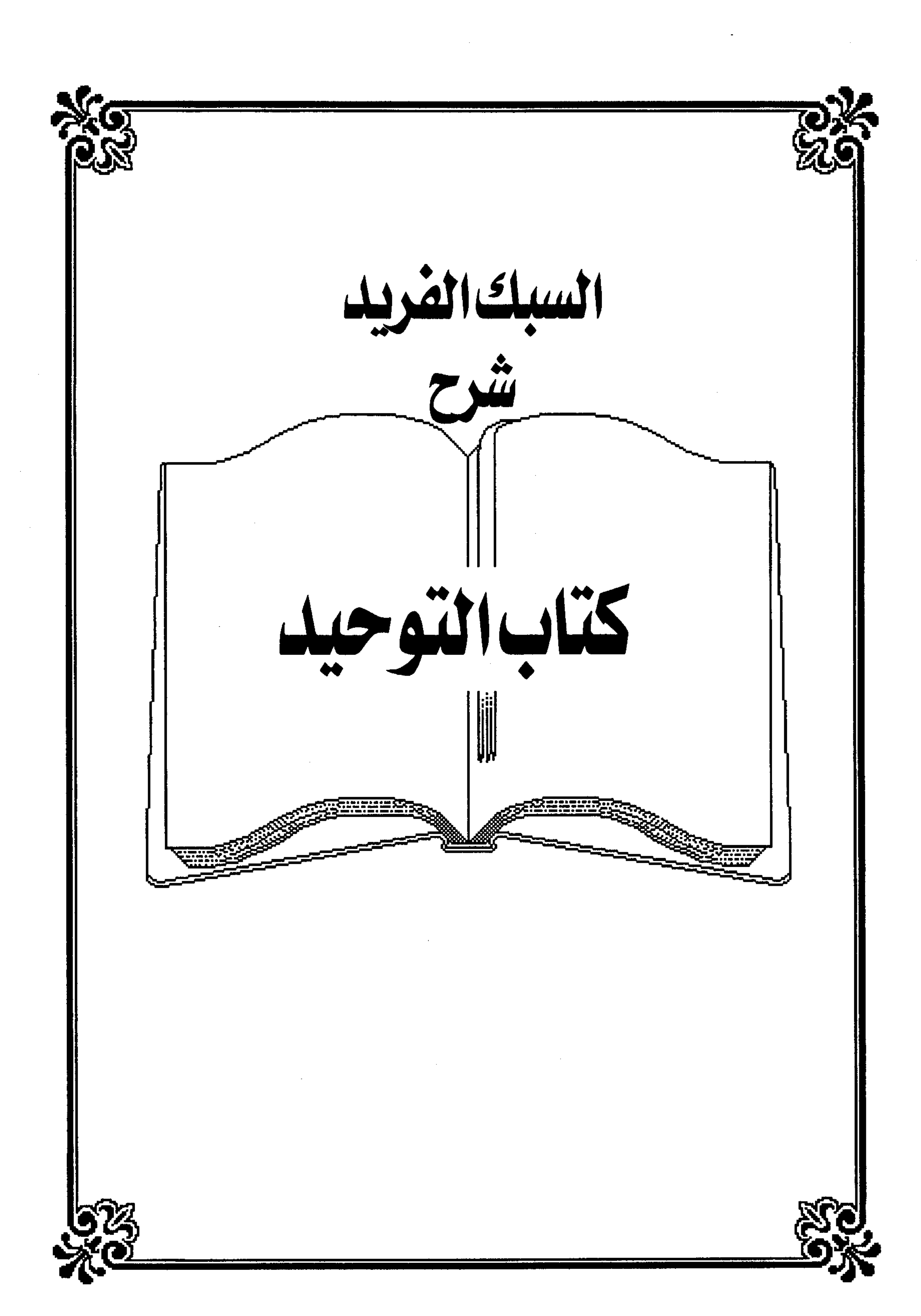
الرياض - حي الخالدية

ص ب: ٢٥٥٦٣٠ - الرمز البريدي: ١١٣٥٣

البريد الالكتروني

Alilouz2000@hotmail.com

□□□□□


السبك الفريد
شرح
كتاب التوحيد

كتاب التوحيد

وقول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات: ٥٦].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤].

وقوله: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦].

وقوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم

به لعلكم تتقون﴾ [الأنعام: ١٥١-١٥٣].

قال ابن مسعود: (من أراد أن ينظر إلى وصية محمد ﷺ التي عليها خاتمه، فليقرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ... إلى قوله: وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ الآية). [الأنعام: ١٥١-١٥٣].

وعن معاذ بن جبل، قال: كنت رديف النبي ﷺ على حمار، فقال لي: «يا معاذ! أتدري ما حق الله على العباد؟ وما حق العباد على الله؟» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «حق الله على العباد: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وحق العباد على الله: ألا يعذب من لا يشرك به شيئاً»، قلت: يا رسول الله! أفلا أبشر الناس؟ قال: «لا تبشرهم فيتكلوا». [أخرجاه في الصحيحين].

■■■■■

فيه مسائل:

الأولى: الحكمة في خلق الجن والإنس.

الثانية: أن العبادة هي التوحيد؛ لأن الخصومة فيه.

الثالثة: أن من لم يأت به لم يعبد الله؛ ففيه معنى قوله: ﴿وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ [الكافرون: ٣].

الرابعة: الحكمة في إرسال الرسل.

الخامسة: أن الرسالة عمت كل أمة.

السادسة: أن دين الأنبياء واحد

السابعة: المسألة الكبيرة: أن عبادة الله لا تحصل إلا بالكفر بالطاغوت؛ ففيه معنى قوله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ الآية. [البقرة: ٢٥٦].

الثامنة: أن الطاغوت عام في كل ما عبد من دون الله.

التاسعة: عظم شأن الثلاث الآيات المحكمات في سورة الأنعام عند السلف، وفيها عشر مسائل، أولها: النهي عن الشرك.

العاشرة: الآيات في سورة الإسراء، وفيها ثمانية عشر مسألة بدأها الله بقوله: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ [الإسراء: ٢٢]، وختمها بقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: ٣٩].

ونبهنا الله سبحانه على عظم شأن هذه المسائل بقوله: ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ [الإسراء: ٣٩].

الحادية عشرة: آية سورة النساء التي تسمى آية الحقوق العشرة؛ بدأها الله تعالى بقوله: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦].

الثانية عشرة: التنبيه على وصية رسول الله ﷺ عند موته.

الثالثة عشرة: معرفة حق الله علينا.

الرابعة عشرة: معرفة حق العباد عليه إذا أدوا حقه.

الخامسة عشرة: أن هذه المسألة لا يعرفها أكثر الصحابة.

السادسة عشرة: جواز كتمان العلم للمصلحة.

السابعة عشرة: استحباب بشارة المسلم بما يسره.

الثامنة عشرة: الخوف من الاتكال على سعة رحمة الله.

التاسعة عشرة: قول المسؤول عما لا يعلم: الله ورسوله أعلم.

العشرون: جواز تخصيص بعض الناس بالعلم دون بعض.

الحادية والعشرون: تواضعه ﷺ لركوب الحمار مع الإرداف عليه.

الثانية والعشرون: جواز الإرداف على الدابة.

الثالثة والعشرون: فضيلة معاذ بن جبل.

الرابعة والعشرون: عظم شأن هذه المسألة.

■■■■■

الشرح

كتاب التوحيد

بدأ الشيخ رحمه الله تعالىٰ بهذه الترجمة، مع أنها اسم لجميع الكتاب، ليبين موضوع كتابه والمقصود به، وبدأ بذكر خمس آيات من القرآن الكريم، وحديث نبوي صحيح، وكلها تدل على فرض التوحيد ووجوبه، وتدل على أهميته وآكديته، فيمكن أن يقدر قبل الآيات ترجمة دالة على حكم التوحيد، وأنه فريضة الله على عباده، وأنه أوجب الواجبات، وآكد المأمورات، ويمكن أن يقدر (باب أهمية التوحيد، ووجوب العناية به قبل ومع جميع العبادات).

ثم إن التوحيد مشتق من الوحدانية، وهي الإفراد، ولذلك قال الشيخ حمد بن عتيق ـ رحمه الله تعالىٰ ـ في «إبطال التنديد»، وقبله الشيخ سليمان في «تيسير العزيز الحميد»: يسمىٰ دين الإسلام توحيداً؛ لأن مبناه على أن الله تعالىٰ واحد في ملكه وأفعاله لا شريك له، وواحد في ذاته وصفاته لا نظير له، وواحد في إلاهيته وعبادته لا ند له. أ. هـ.

أقسام التوحيد:

وقد اشتهر تقسيم التوحيد إلىٰ ثلاثة أقسام: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات.

ويسمىٰ الأول: توحيد الذات:

باعتقاد أن الرب تعالىٰ واحد في ملكه وخلقه وتصرفه وأفعاله، فهو رب كل شيء ومليكه، و خالق الخلق ومدبرهم، والمتصرف في الكون، فهو رب

الأرباب، ومسبب الأسباب، خالق السموات والأرض وما فيهن وما بينهما، وهو توحيد الله تعالىٰ بأفعاله.

وقد كثر الاستدلال علىٰ هذا القسم في القرآن بآيات الله تعالىٰ الكونية، ومخلوقاته العلوية والسفلية، فجعلها آية ودلالة واضحة علىٰ وجوده تعالىٰ، وعلىٰ عظمته وكبريائه، وعلىٰ تمام ملكه وتصرفه، وأمره ونهيه، كقوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١-٢٢]، قال ابن كثير رحمه الله تعالىٰ: الخالق لهذه الأشياء هو المستحق للعبادة.

وكثيراً ما يذكر الله تعالىٰ الأدلة الكونية الظاهرة التي تدل من تفكر فيها وتأملها علىٰ عظمة الخالق وجلاله وكبريائه، كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ الآية [البقرة: ١٦٤]، وكقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ الآية [الاعراف: ٥٤]، وكقوله تعالىٰ: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا﴾ [النحل: ٣-٥].

وهذا القسم من التوحيد قد أنكره الدهريون والشيوعيون الذين ينكرون وجود الخالق تعالىٰ، ويعتقدون أن الموجودات كلها وجدت بالطبيعة والعادة، قال الشيخ حافظ الحكمي رحمه الله تعالىٰ:

ولا نصيخ لعصري يفوه بما
يناقض الشرع أو إياه يعتقد

يرى الطبيعة في الأشياء مؤثرة

أين الطبيعة يا مخذول إذ وجدوا

وقد تكلم ابن القيم[١] رحمه الله تعالىٰ في «مفتاح دار السعادة» علىٰ عجائب المخلوقات، وما فيها من العبرة والدلالة علىٰ قدرة من أوجدها، وأحكم خلقها وأتقنها، و ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]، وقد أطال النفس رحمه الله، وتوسع في ذكر ما تيسر له من المخلوقات التي اطلع عليها، أو وصل إليه العلم بما فيها، وأن جميع المخلوقات كلها دالة دلالة واضحة علىٰ وجود الخالق، وعلىٰ عظمته وكبريائه، وكمال تصرفه، فننصح بمراجعة كلامه، حيث توسع في الكلام علىٰ السموات والأفلاك العلوية، والنجوم، والشمس والقمر، والرياح والسحب، والأزمنة واختلافها بالحر والبرد، واختلاف البلاد في ذلك، وتكلم علىٰ الأرض وما فيها من العجائب والآيات والبراهين، واختلاف الأماكن وتنوعها من جبال وآكام، وضراب ووهاد، وأودية وكثب، وصحاري ومفازات، وأنهار جارية، وبحار زاخرة، وكذا ما علىٰ وجهها من الحيوانات مع اختلافها وتنوع خلقها، من دواب البر والبحر من الطير والحشرات، والهوام والسباع والوحوش وغيرها.

وهكذا تكلم في كتابه «التبيان في أقسام القرآن» علىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِي أَنفُسِكُمْ﴾ [الذاريات ٢٠ـ ٢١]؛ حيث توسع في عجائب الأرض، وما فيها من النباتات المختلفة الزهور والطعوم والألوان والروائح والأشكال والأنواع، وما فيها من العجائب، والحكم والمصالح، وما عليها من

(١) انظر مفتاح دار السعادة لابن القيم ص: ١٨٧ ـ ٢٨٢.

الدواب والمخلوقات، وبين أن ليس شيء منها مخلوق عبثاً.

وهكذا أطال النفس على خلق الإنسان وتتبع أعضاءه وجوارحه الظاهرة والخفية، وأطال القول فيها، وبين حكمة كل عضو ومناسبته، وما فيه من العجائب والدلائل الباهرة مما هو أعظم آية على قدرة الله تعالى الذي هو خالق كل شيء، فننصح بمراجعة هذا الكتاب، ليستفاد منه، ويرد على أهل الإلحاد والزندقة الذين أعرضوا عن التفكر والتأمل في آيات ربهم ومخلوقاته، وعاشوا كالبهائم ﴿إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الفرقان: ٤٤].

ومن تأمل القرآن الكريم وجد فيه الدلالات والعبر، والآيات التي تلفت الأنظار إلى الموجودات والمخلوقات، مثل قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا﴾ [يوسف: ١٠٩]، في عدة مواضع، وقوله: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١]، وقوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتًا (٢٥) أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا (٢٦) وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا﴾ [المرسلات: ٢٥-٢٧]، وقوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ الآيات [النبأ: ٦، ٧]، وقوله: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ الآيات [النازعات: ٢٧]، وقوله: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا﴾ الآيات [عبس: ٢٥، ٢٦].

وقد أورد ابن كثير[(١)] عند تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]، بعض الأدلة على وجود الصانع الخالق سبحانه، قال رحمه الله تعالى: فإن من تأمل هذه الموجودات السفلية والعلوية، واختلاف أشكالها وألوانها، وطباعها ومنافعها، ووضعها في مواضع النفع بها

---

(١) انظر تفسير ابن كثير (١/ ٥٨).

محكمة، علم قدرة خالقها وحكمته، وعلمه وإتقانه، وعظيم سلطانه، كما قال بعض الأعراب، وقد سئل: ما الدليل على وجود الرب تعالى؟ فقال: يا سبحان الله إن البعرة لتدل على البعير، وإن أثر الأقدام لتدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، ألا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير.

وحكى الرازي عن الإمام مالك أن الرشيد سأله عن ذلك فاستدل له باختلاف اللغات والأصوات والنغمات.

وعن أبي حنيفة أن بعض الزنادقة سألوه عن وجود الباري تعالى، فقال لهم: دعوني فإني مفكر في أمر قد أخبرت عنه، ذكروا أن سفينة في البحر موقرة فيها أنواع من المتاجر، وليس بها أحد يحرسها ولا يسوقها، وهي مع ذلك تذهب وتجيء، وتسير بنفسها، وتخترق الأمواج العظام حتى تتخلص منها، وتسير حيث شاءت بنفسها من غير أن يسوقها أحد، فقالوا: هذا شيء لا يقوله عاقل. فقال: ويحكم! هذه الموجودات بما فيها من العالم العلوي والسفلي، وما اشتملت عليه من الأشياء المحكمة، ليس لها صانع. فبهت القوم، ورجعوا إلى الحق، وأسلموا على يديه.

وعن الشافعي أنه سئل عن وجود الصانع، فقال: هذا ورق التوت، طعمه واحد، تأكله الدود فيخرج منه الإبريسم، وتأكله النحل فيخرج منه العسل، وتأكله الشاة والبقر والأنعام فتلقيه بعراً وروثاً، وتأكله الظباء فيخرج منه المسك.

وعن الإمام أحمد بن حنبل أنه سئل عن ذلك، فقال: ههنا حصن حصين

أملس، ليس له باب ولا منفذ، ظاهره كالفضة البيضاء، وباطنه كالذهب الإبريز، فبينا هو كذلك إذ انصدع جداره، فخرج منه حيوان سميع بصير، ذو شكل حسن، وصوت مليح، يعني: بذلك البيضة إذا خرج منها الدجاجة.

وسئل أبو نواس عن ذلك فأنشد:

تأمل في نبات الأرض وانظر
إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات
بأحداق هي الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهدات
بأن الله ليس له شريك

وقال ابن المعتز:

فيا عجباً كيف يعصى الإله
أم كيف يجحده الجاحد
وفي كل شيء له آية
تدل على أنه واحد
ولله في كل تحريكة
وتسكينة أبداً شاهد

وقال آخرون: من تأمل هذه السموات في ارتفاعها واتساعها وما فيها من الكواكب الكبار والصغار النيرة، من السيارة والثوابت، كيف تدور مع الفلك

العظيم في كل يوم وليلة دورة، ولها في أنفسها سير يخصها، ونظر إلى البحار المكتنفة للأرض من كل جانب، والجبال الموضوعة في الأرض لتقر ويسكن ساكنوها مع اختلاف أشكالها وألوانها، وكذا الأنهار السارحة للمنافع، وما ذرأ من الحيوانات المتنوعة، والنباتات المختلفة، مع اتحاد طبيعة التربة والماء، استدل على وجود الصانع وقدرته العظيمة، وحكمته ورحمته بخلقه، لا إله غيره ولا رب سواه، عليه توكلت وإليه أنيب. أ. هـ.

وقد كثر الذين ينكرون توحيد الربوبية، ويشكون في وجود الخالق تعالى، مع هذه الآيات الباهرة، والدلالات الظاهرة، ومع أن المشركين في الجاهلية يعترفون بهذا النوع من التوحيد، كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ [يونس: ٣١]؛ أي: يعترفون بالله تعالى، وأنه الذي يرزقهم، فينزل المطر وينبت النبات، وهو الذي يملك السمع والبصر، فلا يستطيع المخلوق أن يوجد هذه الجارحة وهي العين الباصرة، ولو للذرة والنحلة، فضلاً عن أعين المخلوقات الكبار كالإبل والخيل والفيلة، وكذا حاسة السمع هو الذي خلقها للإنسان والدواب، والطيور والوحوش، فلا يستطيع المخلوق أن يردها إذا فقدت، وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١]، ثم قال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، ونحو ذلك من الآيات التي فيها أن كفار العرب يقرُّون بأن الله تعالى ربهم وخالقهم، وخالق هذا الكون، ورازق العباد، ومدبر الأمر، ومسير الأفلاك، ورب الأرض والسموات، وإنما كان شركهم وكفرهم بدعاء وعبادة بعض المخلوقات التي جعلوها واسطة بينهم

وبين الله تعالىٰ.

وأما توحيد الألوهية:

فهو إفراد الله تعالىٰ بالعبادة، وهو حق الله على العبيد، ويسمىٰ التوحيد العملي، القصدي، الطلبي، الإرادي؛ لأنه عمل يتقرب به العبد إلىٰ ربه، وهو مقصود من العباد، طلبه الله منهم وأراده، وخلقهم له، وفرضه عليهم.

وهو الحكمة في خلق الجن والإنس، وبه أمر الله جميع الناس، كما قال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١].

وبه أرسل الله الرسل، وأمرهم أن يبدؤا به دعوتهم، كما أخبر عن كل رسول أنه يقول لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩]؛ فكل رسول بعثه الله، وكل كتاب أنزله فإنه يدعو إلىٰ توحيد العبادة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]؛ أي: يأمره ربه أن يدعو قومه إلىٰ الاعتراف بأن الله تعالىٰ هو الإله الحق، وإلىٰ عبادته وحده، وترك عبادة ما سواه، فعليه اتفقت دعوة الرسل من أولهم إلىٰ آخرهم، فإن الخصومة بين الأنبياء وأممهم فيه، إذ كانوا يقرُّون بأن الله تعالىٰ هو ربهم، ولكنهم يعبدون معه معبدوات من المخلوقات ويتخذونها آلهة تألهها قلوبهم، وتعظمها وتخضع لها، وتتواضع، وتخشع، وتتذلل، ويتقربون إليها بدعائها، والهتاف بأسمائها وبالذبح لها، والعكوف عندها، والطواف والتبرك بتربتها، والتمسح بصورها أو ما حولها، ويسمونها آلهة، لأن قلوبهم تألهها محبة وخوفاً، ورجاء وتوكلاً، واعتماداً وتعظيماً، ويسمون أفعالهم عبادة، فإن التعبد هو التذلل والخضوع، فهذا القسم هو الذي أنكره المشركون لما دعاهم النبي ﷺ إلىٰ إخلاص العبادة لله وحده، فتمسكوا بأديانهم الشركية، ونفروا عن

توحيد العبادة، فهو مخالف لمألوفاتهم، وما ألفوا عليه آباءهم. وقد حكىٰ الله عنهم قولهم: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٥ وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ﴾ [ص: ٥، ٦].

ولقد مكث النبي ﷺ بمكة عشر سنين يدعو إلىٰ هذا التوحيد، ويقيم الأدلة عليه، ويبين شأن تلك المألوهات التي يعبدونها مع الله تعالىٰ، وأنها لا تغني شيئاً عن عابديها، كما قال تعالىٰ: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝١٩١ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ۝١٩٢ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ۝١٩٣ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝١٩٤ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾ [الأعراف: ١٩١-١٩٥].

فأخبر بأن هذه المعبودات أموات أو جماد لا تنصر أنفسها فضلاً عن عابديها، كما قال تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝٢٠ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل: ٢٠، ٢١]، ونحو ذلك من الآيات التي تبين أنهم يعبدون هذه الجمادات من الصور المنحوتة علىٰ أشكال وصور أموات وجمادات، وأن الشيطان هو الذي سول لهم عبادتها مع الله، وزين لهم أنها تقربهم إلىٰ الله زلفي، وتشفع لهم في إنزال المطر، والبركة والخير، والرزق والنصر، والتمكين وتكثير الأموال والأولاد.

وهذا القسم هو الذي وضع له الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالىٰ «كتاب التوحيد»، وأورد الأدلة علىٰ أهميته وفرضيته، وعلىٰ التحذير من ضده وهو الشرك بأي نوع من أنواعه، وذلك لأن الشرك في العبادة قد تمكن

وفشىٰ في ذلك الزمان، كعبادة الأموات، وتعظيم المخلوقين، بما لا يوصف به إلا الخالق سبحانه، كما يحصل من الرافضة في وصف علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقد اعتقدوا فيه أنه يعلم الغيب، ويسمع السر والنجوىٰ، ويملك الضر والنفع، ويعطي ويمنع، وأنه قادر علىٰ كل شيء، ثم صرفوا له جلّ دعائهم وندائهم، وهتفوا باسمه في الملمات وعلقوا عليها آمالهم في الشدائد.

وكذا فعلوا مع بقية أئمتهم الاثني عشر كما يزعمون، وقلدهم الجهلة من أهل السنة، وتعلقوا بالأموات، وأطاعوا الشيطان الذي زين لهم عباداتها، وابتدعوا أماكن عمروها وشيدوها، وأوحىٰ الشيطان إليهم أنها قبور أولياء وسادة، مثل: قبر (تاج)، وقبر (شمسان)، وقبر (يوسف)، وقبر (زيد بن الخطاب) ونحوها، مع أن تلك القبور لا دليل علىٰ أنها قبور أولئك المسمين، وإنما أغلبها جعلوه بالظن والتخرص، فلما عظمت الفتنة، وكبرت المصيبة بهذا النوع من الشرك، أولاه الشيخ محمد رحمه الله الإهتمام، وكتب فيه هذا المؤلف الذي هو فرد في بابه، لم ينسج أحد قبله علىٰ منواله؛ حيث استوفىٰ كل ما يمكن أن يشتمل علىٰ شرك، أو وسيلة من وسائله، ولو من الأصغر أو ما ينافي كماله، وأورد الأدلة علىٰ ذلك من الآيات والأحاديث الصحيحة، حتىٰ لا يتمكن أحد من الطعن فيها أو ردها.

وقد اتضح بذلك أهمية توحيد العبادة، ووجوب العناية بمعرفته؛ حيث أخل به الكثير ممن يتسمون بالإسلام، وينطقون بالشهادتين، وقد يكونون من العلماء، وحملة القرآن، وحفظة السنة، ولكن راجت عليهم شبهات أدلىٰ بها أعداء التوحيد، فتخيلوا أن هذه الأعمال ليست شركاً، واعتقدوا أن الشرك خاص بأن تنحت أصنام من حجارة أو خشب، وتنصب ويسجد لها فقط، فاتضح بهذا الكتاب أن أفعالهم شرك صريح، مهما حسنوا لها الأسماء، وشبهوا علىٰ

العوام، وأوهموا أتباعهم أنها أعمال مستحبة، مفيدة لمن تقرب بها ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

وأما توحيد الأسماء والصفات:

ويسمى التوحيد العلمي، الخبري، الاعتقادي، الثبوتي، فهو إثبات أسماء الله تعالى الحسنى، وصفاته العلى، التي وصف بها نفسه، ووصفه بها رسوله، إثباتاً بلا تمثيل، وتنزيها بلا تعطيل، لأنه علم يعتمد الأخبار، والنقل الصحيح، فيجب اعتقاد أن الله سبحانه موصوف بصفات الكمال، منزه عن سماة النقص، وإثبات صفات الرب سبحانه على ما يليق به، من غير تشبيه ولا تمثيل، ولا تحريف ولا تأويل، ومن غير تكييف ولا تعطيل، على حد قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]؛ فنفي المثل رد على المشبهة، وإثبات السمع والبصر رد على المعطلة.

وهذا القسم هو الذي أنكره الجهم بن صفوان، ثم تتابعت على إنكاره المعتزلة، وسموا نفي الصفات توحيداً؛ حيث زعموا أن إثباتها يستلزم تعدد القدماء، وحيث لم يفهموا منها إلا ما يوصف به المخلوق فأطلقوا على أهل الإثبات لفظ التشبيه والتجسيم، وسموا أهل السنة: حَشَوِية، ونَوابِتَ، وغُثَاءً، وغُثَراً.

وقد أكثر السلف والأئمة رحمهم الله تعالى من الرد عليهم، وذكر الأدلة النقلية والعقلية على إثبات الصفات، من القدرة، والإرادة، والمحبة، والكلام، والحياة، والرحمة، والعلم، والحكمة، وإثبات الاستواء، والعلو، والنزول، والمجيء لفصل القضاء ونحو ذلك من الصفات التي وردت في القرآن الكريم، والسنة الصحيحة.

وسبب إكثار السلف من إثبات هذه الصفات: انتشار مذهب التعطيل، وَتَمَكُّنِ الجهمية والمعتزلة، وكثرة من انخدع بهم، وسلك مسلكهم، فلا جرم كان لزاماً على أهل السنة أن يجهروا بالحق، وأن يردوا على أهل الباطل، وقد سموا كتبهم بما يدل على مقاصدهم، فقد كتب الإمام أحمد رسالة في «الرد على الجهمية فيما شكت فيه من متشابهة القرآن»، وله رسالة في العقيدة باسم «السنة»، ولابنه عبد الله كتاب «السنة»، ولتلميذه الخلال كتاب واسع اسمه «السنة»، و لابن أبي عاصم كتاب «السنة»، ولعثمان الدارمي كتاب «الرد على الجهمية»، و «الرد على المريسي»، وهكذا «كتاب الشريعة» للآجري، و«الإبانة» لابن بطة، و«شرح السنة» للبربهاري، و «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» للالكائي و«إبطال التأويلات» للقاضي أبي يعلي، وكلها مطبوعة منتشرة والحمد لله، وبها يعرف ما كان عليه السلف الصالح والصدر الأول، وهم الذين زكاهم النبي ﷺ بقوله: **«خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»**(١) الحديث.

وقد تمكن معتقد المعتزلة في آخر القرون الثلاثة، وقرب بعضهم من الخلفاء، وزينوا لهم امتحان العلماء، وإلزامهم بالقول بخلق القرآن، وثبت الله بفضله العلماء على الحق، ومنهم إمام أهل السنة أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى.

ثم في القرن الرابع وما بعده انتشر معتقد الأشاعرة في إنكار الصفات الفعلية، كالعلو، والاستواء، والمجيء، والنزول، والرحمة، والمحبة، ونحوها واستصغر أمر أهل السنة، وضعف أمرهم، وكاد الحق أن يضمحل ويتلاشى، حتى قيض الله للسنة من يظهرها، وذلك في آخر القرن السابع وأول القرن الثامن، حيث اشتهر شيخ الإسلام ابن تيمية، وفقهه الله تعالى في الدين، وعرف

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٦٥٢)، ومسلم برقم (٢٥٣٥)، من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه.

وفي الباب عن أبي هريرة وابن مسعود وغيرهم.

الحق بدليله، وقرأ أدلة المتكلمين، وعرف اصطلاحاتهم، فرد عليهم رداً قوياً، وناقشهم جهاراً، وأظهره الله عليهم ﴿حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ [التوبة: ٤٨].

فهذه هي أقسام التوحيد الثلاثة، وقد جعلها ابن القيم رحمه الله تعالىٰ قسمين:

الأول: توحيد في المعرفة والإثبات، فيدخل فيه توحيد الربوبية والأسماء والصفات.

والثاني: توحيد في الطلب والقصد، وهو توحيد العبادة.

ويعتبر الأول دليلاً علىٰ الثاني، وكان الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالىٰ يقول لتلاميذه وغيرهم: اعرفوا الله بأفعاله، ووحدوه بأفعالكم، وهي فائدة كبيرة القدر، فإن من عرف الله تعالىٰ بآياته ومخلوقاته الكونية العلوية والسفلية عرف أنه أهل أن يعبد وحده، وأن يخص بالتعظيم والإجلال، وبجميع أنواع العبادة، والله أعلم.

ثم إن الشيخ رحمه الله تعالىٰ أورد في صدر هذا الكتاب خمس آيات للدلالة علىٰ عظمة التوحيد، ووجوبه علىٰ العباد، وأهميته وعظمة شأنه.

■ **فالآية الأولى: قوله: [وقول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾** [الذاريات: ٥٦]]:

فإن في هذه الآية بيان الحكمة من خلقهم وإيجادهم، وأن الله تعالىٰ ما خلقهم ليتكثر بهم من قلة، ولا ليتعزز بهم من ذلة، فإنه هو الغني وهم الفقراء.

فالمعنى: أنه خلقهم ليأمرهم وينهاهم، ففرض عليهم العبادة التي هي

إخلاص التوحيد لربهم وحده، فقد يعبدون وقد لا يعبدون ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ﴾ [النحل: ٣٦].

ولهذا قال الشيخ عبد الرحمن بن قاسم رحمه الله تعالى في حاشية التوحيد: أي: ما خلق الله الثقلين الجن والإنس إلا لحكمة عظيمة، وهي عبادته وحده لا شريك له، وترك عبادة ما سواه، ففعل الأول وهو خلقهم ليفعلوا هم الثاني وهو عبادته، لا ليفعل بهم الثاني فيجبرهم على العبادة، فإن من سبقت عليه الشقاوة لم يرد سبحانه وقوع العبادة منه، لما له في ذلك من الحكمة، وقال بعض السلف: إلا لآمرهم وأنهاهم . . . إلخ[1].

وقال ابن كثير رحمه الله تعالى: ومعنى الآية: أن الله خلق الخلق ليعبدوه وحده لا شريك له؛ فمن أطاعه جازاه أحسن الجزاء، ومن عصاه عذبه، وأخبر أنه غير محتاج إليهم، واللام في قوله: ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾، لام التعليل؛ أي: أن العلة في خلقهم هي تكليفهم بالعبادة، وفرضها عليهم، وخصّ الجن والإنس لأنهم هم المكلفون بالأمر والنهي، وفيهم المطيع والعاصي، كما حكى الله تعالى قول الجن: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ . . . إلى قوله: وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ﴾ [الجن: ١١-١٤]، ولم يذكر الملائكة لأنهم جميعاً مطيعون عابدون: ﴿لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩، ٢٠].

وأما الشياطين ذرية إبليس فكلهم عصاة معاندون ليس فيهم من يطيع ويهتدي على الصحيح، وأما البهائم فلا تكليف عليها لفقد العقل والتميز، ثم إن المكلفين بالعبادة من الجن و الإنس إذا قاموا بها وأطاعوا الله تعالى، وعبدوه

(١) انظر حاشية كتاب «التوحد» للشيخ عبد الرحمن القاسم (ص: ١٣).

حق العبادة، فإن ثمرة ذلك تعود إليهم؛ حيث يثيبهم الله ويضاعف أجرهم، وتعود فائدة عبادتهم إليهم، فإن الرب سبحانه غني عنهم، لا تنفعه طاعة المطيعين، ولا تضره معصية العاصين، كما قال تعالىٰ: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧]، وقال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

فعبادتهم تعود إليهم بالنفع والثواب، وأمرهم ونهيهم من باب الاختبار، ثم إن تعبدهم لله وتذللهم له شرف لهم ورفعة، وعزة وفخر؛ حيث أنهم تعبدوا لخالقهم ومالكهم الذي خضعت له الرقاب، وذلت له الصعاب، والله أعلم.

■ **الآية الثانية: قوله: [وقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ الآية** [النحل: ٣٦]]:

دلالة الآية واضحة؛ حيث أفادت أن التوحيد العملي هو دين الرسل كلهم، وأن كل رسول قال لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، والطاغوت يعم كل ما عبد من دون الله تعالىٰ، واشتقاقه من الطغيان الذي هو: مجاوزة الحد، فكل من رفع نفسه عن قدرها، أو تعدىٰ طوره، أوترفع عن العبودية، أو تدخل في الربوبية؛ فإنه طاغوت، فيدخل في ذلك الأصنام، وكل ما عبد من دون الله ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا﴾ [الزمر: ١٧]؛ أي: ابتعدوا عن عبادة الطواغيت، ويعم الاسم الشياطين وأعوانهم، كما ذكروا في قوله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]؛ أي: أن شياطين الإنس والجن قد تسلطت على الكفار واستولت عليهم، فأطاعوا الطواغيت، وقبلوا ما أمرتهم به.

وقد جعل الله الكفر بالطاغوت مقابلاً للإيمان بالله تعالىٰ في قوله: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وقد دلت الآية علىٰ أن الله تعالىٰ أرسل في كل أمة ممن خلا قبلنا رسولاً يدعوا إلىٰ التوحيد الذي هو عبادة الله وحده، وترك عبادة ما سواه من الطواغيت والأوثان، وسائر ما يعبده المشركون، و هذا معنىٰ كلمة التوحيد، فإن قوله: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [النحل: ٣٦]، هو الإثبات الذي في آخر كلمة الإخلاص، وقوله: ﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، هو: النفي الذي في أولها، فلا يكون هناك توحيد إلا إذا تضمن النفي والإثبات، فأول ما فرض علىٰ الإنسان هو الكفر بالطاغوت والإيمان بالله، أي: البراءة من كل الطواغيت، والبعد عنها ومقتها، وتحقير شأنها، والحذر من تعظيمها أو ما يقرب من عبادتها، ثم الإيمان بالله تعالىٰ، وصرف جميع أنواع العبادة له، من: الدعاء، والخوف، والرجاء، والحب، والتوكل، وتقبل كل ما جاء عن الله تعالىٰ من الأوامر، والتقرب بها إلىٰ الله، والتقرب إليه بترك المحرمات وسائر المعاصي، وعبر بالإجتناب لأنه أبلغ من الترك.

■ **الآية الثالثة: قوله:** [وقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤]]:

وجه الدلالة إثبات أن الله تعالىٰ أمر عباده ووصاهم، وفرض عليهم أن لا يعبدوا إلا إياه، وأن يخلصوا له العبادة، فلا يصرفوا منها شيئاً لغيره، وهو دليل

واضح على أن التوحيد والإخلاص هو أوجب الواجبات، وشرط قبول العبادات، وأول ما أمر الله تعالى وكلف به عباده، فيدل على أهميته وآكدية وجوبه.

وفي هذه الآية أيضاً معنى كلمة التوحيد، وهو النفي والإثبات، فإن قوله: ﴿أَلاَّ تَعْبُدُوا﴾ هو معنى: (لا إله)، وقوله: ﴿إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ هو الإثبات في كلمة الإخلاص، فدل على أن أول ما قضى وأمر ووصى به عباده أن لا يعبدوا غيره، وأن يفردوه وحده بالعبادة، وذلك يستلزم الكفر بكل معبود سواه من حجر أو شجر أو قبر أو سيد، أو مشهد أو غيرها مما يعبده بعض الأمم، ويصرفون له شيئاً من حق الله تعالى.

وهذه الآية وما بعدها اشتملت على عدة توجيهات، ووصايا كثيرة: كبرِّ الوالدين، وإيتاء ذي القربي حقه ونحوهم، والنهي عن قتل الأولاد أو قتل النفس، وعن الزنا، وأكل مال اليتيم، والأمر بالوفاء بالعهد، والكيل والوزن، والنهي عن القول بلا علم، وعن الكبر والفخر ونحوها.

ثم إن الله تعالى ابتدأها بالنهي عن الشرك في قوله تعالى: ﴿لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولاً (٢٢) وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾، وختمها بالنهي عن الشرك بقوله: ﴿وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: ٣٢-٣٩]، وذلك دليل على أن الشرك هو أعظم الذنوب، وأشدها عقوبة، حيث توعد عليه باللوم والخذلان، ثم بالإلقاء في جهنم، وأن ما سواه من الذنوب أخف منه، مع دخولها تحت الوعيد، والله أعلم.

■ الآية الرابعة: قوله: [وقوله: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ الآية، [النساء: ٣٦]]:

هذه تسمى آية الحقوق العشرة، وقد اقتصر المصنف رحمه الله على أولها، ولكن من باب الفائدة نشرح جميع الآية:

*** فالحق الأول: لله تعالى:**

وهو عبادته وحده، وترك الإشراك به، فهو أصل الحقوق وأهمها وأوجبها، قدمه وبدأ به؛ لأنه شرط لقبول الأعمال، ولا تقبل عبادة أو قربة ممن أهمله وترك العمل به.

أمر الله تعالى الخلق وهم المكلفون أن يعبدوه، والأمر للوجوب، ثم نهاهم عن الإشراك به، والنهي للتحريم، أي: أفردوه بجميع أنواع العبادة من الدعاء، والحب، والتذلل، والسؤال، والطلب، والخوف، والرجاء، والتوكل، والإنابة، والتوبة، والخضوع، والاستكانه، والركوع، والسجود، والرغبة، والرهبة، والخشية، والخشوع، ونحوها، فكلها داخلة في اسم العبادة؛ حيث أنها تفعل على وجه التذلل والخضوع، فصرف شيء منها لغير الله شرك بالله تعالى، ولهذا قال: ﴿وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾؛ فيدخل في ﴿شَيْئًا﴾ جميع القربات والعبادات، أي: لا تصرفوا شيئاً منها لغير الله، فمن صرف منها شيئاً لغير الله فهو مشرك كافر؛ ثم ذكر بقية الحقوق، وهي:

*** الحق الثاني: حق الوالدين:**

لما لهما على ولدهما من الفضل والإحسان؛ حيث ربياه صغيراً، فأمر بالإحسان بهما، فيعم جميع الإحسان: من الطاعة لهما في طاعة الله، والبر بهما، وخدمتهما، والنفقة عليهما عند الحاجة، ونحو ذلك.

* والحق الثالث: وبذي القربى:

وهم ذوو الأرحام من الإخوة، والأعمام والأخوال وبنيهم؛ حيث أمر الله بصلتهم وبرهم، والإحسان إليهم، ونهىٰ عن قطيعتهم، فمن قطع رحمه قطعه الله، كما ورد في السنة[1].

* والرابع: واليتامى:

الذين فقدوا آباءهم في الصغر؛ لأنهم محل رحمة وشفقة وإحسان، لضعفهم، وحاجتهم إلىٰ من يرفق بهم.

* الخامس: والمساكين:

يعم الضعفاء والفقراء، وذوي الحاجات والمعوقين، وكل من به عاهة أو عجز لا يقدر معه علىٰ الاكتساب؛ حيث تمسه الحاجة، وتشتد به الفاقة، فهو محل رقة وشفقه من إخوانه المسلمين.

---

(١) الآيات والأحاديث في الأمر بصلة الرحم والنهي عن قطعها كثيرة، نذكر من ذلك ما يلي:

١ـ قال الله تعالىٰ: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ (٢٣) أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٢ـ٢٤].

٢ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه».
جزء من حديث أخرجه البخاري برقم (٦١٣٨).

٣ـ وعن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ قال: «من أحب أن يبسط له في رزقه، وينسأ له في أثره، فليصل رحمه».
أخرجه البخاري برقم (٥٩٨٦)، ومسلم برقم (٢٥٥٧) (٢١).

٤ـ وعن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «... ألا ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك...» الحديث.
أخرجه البخاري برقم (٥٩٨٧)، ومسلم برقم (٢٥٥٤).

٥ـ وعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، قال: «الرحم شجنة من الرحمن، فقال الله: من وصلك وصلته، ومن قطعك قطعته».
أخرجه البخاري برقم (٥٩٨٨).
والأحاديث في الباب كثيرة جداً.

* **الحق السادس: والجار ذي القربى:**

أي: المجاور من الأقارب في المنزل، فإن له ثلاثة حقوق: حق الإسلام، وحق القرابة، وحق الجوار؛ أي: أحسنوا إلىٰ أقاربكم عموماً، وخصوا المجاورين منهم بزيادة بر وإحسان، وإيصال للخير، ودفع للضرر عنهم، وخصهم مع دخولهم في ذوي القربىٰ، لأهمية حق الجوار.

* **ثم ذكر الحق السابع: والجار الجنب:**

وهو الأجنبي، أي: من غير الأقارب، ولو كان حبشياً، أو بربرياً، أو أعجمياً، أو عربياً، بعيداً في النسب، فإن له حق الجوار، وقد قال النبي ﷺ: «**ما زال جبريل يوصيني بالجار، حتى ظننت أنه سيورثه**»(١) متفق عليه، فحق إيصال الخير إليه، والرفق به، ومواساته عند الحاجة، ودفع ضرورته، والدفاع عنه لمن تعدىٰ عليه ونحو ذلك.

* **والحق الثامن: والصاحب بالجنب:**

فسر بأنه الرفيق في السفر، وحقه: مواساته، والذب عنه، وحسن التعامل معه، وإحسان الخلق والرفق به، وخدمته عند الحاجة، وقد يعم كل صاحب في الحضر كالأصحاب، والجلساء، والزوجات ونحوهم، فلهم حق بالزيارة، وإجابة الدعوة والهدية، وحسن الصحبة، ونحو ذلك.

* **والحق التاسع: وابن السبيل:**

وهو المسافر المنقطع، وقد جعل الله له حقاً في الزكاة وفي الفيء، وفي الخمس من المغنم، وذلك لبعده عن وطنه وغربته، و انقطاعه، فله حق الاستضافة والصدقة، وتزويده حتىٰ يصل إلىٰ بلده إذا لم يستطع أن يستحضر

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٠١٤)، ومسلم برقم (٢٦٢٤)، من حديث عائشة رضي الله عنها.
وأخرجه البخاري برقم (٦٠١٥) ومسلم برقم (٢٦٢٥)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

من بلده ما يبلغه أهله.

*** والحق العاشر: وما ملكت أيمانكم:**

وهم الخدم والمماليك ذكوراً وإناثاً، وقد قال النبي ﷺ: «**هم إخوانكم خولكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم**»(١) متفق عليه، وفيه بيان حق الخدم لضعفهم وعدم قدرتهم على الكسب والاستقلال، فإن الله ولي عليهم غيرهم، والله أعلم.

■ **الآية الخامسة: قوله: [وقوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١-١٥٣]]:**

أورد المؤلف رحمه الله الآيات الثلاث من سورة الأنعام وفيهن عشر وصايا، فقد أمر الله تعالى نبيه ﷺ بندائهم ليقرأ عليهم المحرمات التي نهاهم ربهم عنها، أي: هلموا وأقبلوا حتى أبين لكم أهم الأشياء التي حرم ربكم عليكم، وتوعد عليها.

*** فالوصية الأولى: تحريم الشرك:**

وهو أشد المحرمات، والنهي عنه أمر بالتوحيد، فإن النهي عن الشيء أمر

---

(١) أخرجه البخاري برقم: (٣٠، ٢٥٤٥، ٦٠٥٠)، ومسلم برقم (١٦٦١)-(٣٨، ٤٠)، من حديث المعرور بن سويد عن أبي ذر رضي الله عنهم.

بضده، أي: آمركم بعبادة الله وحده، وترك الشرك به صغيره وكبيره، ظاهره وخفيه؛ حيث أنه يحبط الأعمال، ويسبب دخول النار.

* **ثم قال: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾، وهي الوصية الثانية:**

أي: حرم ربكم عليكم عقوق الوالدين، وأمركم بالإحسان إليهما بجميع أنواع الإحسان، وهو يفيد تحريم العقوق والعصيان، والإساءة إليهما، كما قال تعالىٰ: ﴿فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤]؛ فلو كان هناك شيء من الإساءة أقل من التأفيف لذكره، فدل علىٰ عظم حقهما؛ حيث قرن حقه بحقهما، كما في الآيتين السابقتين، وكقوله تعالىٰ: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤]، ونحوها من الآيات.

* **الوصية الثالثة: ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾:**

مع أن الله تعالىٰ قد جعل في القلب محبة للولد، وعطفاً عليه، وحناناً وحدْباً، وشفقة قوية، يكون من آثارها الرحمة والرقة والإيثار، حتىٰ قال النبي ﷺ: «**الله أرحم بعباده من الوالدة بولدها**»[1] متفق عليه بمعناه.

والقتل قد يكون حقيقياً كما يفعل بعض العرب قبل الإسلام بقتل الأولاد ذكوراً أو إناثاً خشية الإملاق، أي: الفقر، مع أن الله تعالىٰ هو المتكفل برزق

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري برقم (٥٩٩٩). ومسلم برقم (٢٧٥٤) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قدم علىٰ النبي ﷺ سبيٌ فإذا امرأة من السَّبي تَحْلُبُ ثديها إذا وجدت صبياً في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال لنا النبي ﷺ: «أترون هذه طارحة ولدها في النار؟» قلنا: لا، وهي تقدر علىٰ أن لا تطرحه. فقال: «الله أرحم بعباده من هذه بولدها». وهذا لفظ البخاري.

الجميع، كما قال تعالى: ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [هود: ٦]، وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لاَّ تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ [العنكبوت: ٦٠].

والواقع يشهد بأن وجود الأولاد سبب لسعة الرزق، والحياة السعيدة؛ حيث يفتح الله تعالى على الإنسان الرزق، وييسر له أسباب الكسب، ويغنيه من فضله، بعد أن كان قبل الأولاد في ضيق وشدة، وحاجة شديدة.

ثم إن بعض العرب كانوا يئدون الإناث، أي: يقتلونهن خشية العار الذي يلحق بالأسرة إذا وقعت في الفاحشة، فيدفنها أبوها وهي حية، وذلك قسوة تنافي ما جعل الله في القلوب من الرحمة والشفقة على الأولاد، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ⁽٨⁾ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨، ٩]، وذلك داخل في قتل الولد، وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: يا رسول الله أي الذنب أعظم؟ قال: «**أن تجعل لله نداً وهو خلقك**» قلت: ثم أي؟ قال: «**أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك**»(١)، الحديث متفق عليه.

* **الوصية الرابعة: قوله: ﴿وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾:**

وهو نهي عام عن الفواحش، وهي الذنوب والمعاصي التي يفحش أمرها، ويقبح فعلها، وقد سمى الله تعالى الزنا واللواط فاحشة، فقال تعالى: ﴿وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾ [الإسراء: ٣٢]، وقال عن قوم لوط عليه السلام: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ⁽٥٤⁾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ﴾ الآية، [النمل: ٥٤، ٥٥]، وقد قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، أي: ما أعلن به العاصي وجهر به عياناً، وما أخفاه وعمله سراً،

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٧٦١). ومسلم برقم (٨٦). من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

ولم يطلع عليه الناس، فإن الله تعالى لا تخفى عليه خافية، فيدخل في الفواحش مقدمات الزنا، كما قال النبي ﷺ: «**زنا العينين النظر، وزنا الأذن الاستماع، وزنا اليد البطش، وزنا الرجل المشي، والقلب يهوى ويتمنى، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه**»(١)، متفق عليه.

كما يدخل في الفواحش شرب الخمور، وتعاطي المخدرات، وسماع الأغاني والملاهي، والقذف، والشتم، واللعن، والسباب، وتتبع العثرات، والغيبة، والنميمة، ونحو ذلك.

* **الوصية الخامسة: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾:**

أي: النفس المعصومة بالإسلام، أو بالعهد والذمة، فالقتل من أعظم الفواحش، وأشنع الذنوب، وقد توعد الله عليه بالعذاب العظيم، كما في قوله تعالى: ﴿**وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا**﴾ [النساء: ٩٣].

ولا يخفى ما في هذه الآية من الوعيد الشديد، حتى روي عن ابن عباس وغيره أن القاتل لا توبة له(٢)، وأن هذه الآية خبر، والأخبار لا تنسخ، لكن قول الجمهور أن القاتل تقبل توبته، والأدلة على ذلك كثيرة(٣).

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٢٤٣). ومسلم برقم (٢٦٥٧)، من حديث عبد الله ابن عباس عن أبي هريرة رضي الله عنهم.

(٢) وقد نقل ابن كثير رحمه الله في تفسيره عند هذه الآية (١/ ٥٣٦) ما روي عن ابن عباس رحمه الله وغيره من الصحابة، وسرد الأدلة التي يبني عليها هذا القول.

(٣) قال ابن كثير رحمه الله (١/ ٥٣٧): والذي عليه الجمهور من سلف الأمة وخلفها أن القاتل له توبة فيما بينه وبين الله عز وجل، فإن تاب وأناب، وخشع وخضع، وعمل عملاً صالحاً؛ بدّل الله سيئاته حسنات، وعوّض المقتول من ظلامته وأرضاه عن طلابته، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾ [الفرقان: ٦٨-٧٠].
إلى آخر ما قاله رحمه الله.

وذكر ابن القيم رحمه الله تعالى أن القتل العمد يتعلق به ثلاثة حقوق :

الأول : حق الأولياء : فيسقط بالقصاص ، أو الدية ، أو العفو .

الثاني : حق الله تعالى : وهو يسقط بالتوبة النصوح التي يصدق فيها ، ويندم ، ويكثر من الصالحات .

والثالث : حق المقتول : فيتحمله الله تعالى عن عبده التائب ، أما إذا لم يتب فلابد من الحساب في الآخرة .

وقد قال النبي ﷺ : «**أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء**»(١) متفق عليه .

وقوله : ﴿**إِلاَّ بِالْحَقِّ**﴾ ، أي : ما يبيح قتلها ، كما قال النبي ﷺ : «**لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله ، وأني رسول الله ؛ إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزاني ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة**»(٢) ، متفق عليه . وكذا قال : «**من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة**»(٣) ، رواه البخاري . فإن نَقَضَ العهد حل دمه وماله .

ثم إنه تعالى ختم الآية الأولى بقوله : ﴿**ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾ ، أي : وصاكم بهذه الوصايا المذكورة في هذه الآية رجاء أن تتعقلوا وتعرفوا أهميتها فتعملوا بها .

*** ثم ذكر الوصية السادسة : بقوله : ﴿وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ :**

واليتيم هو من مات أبوه في صغره ، ويزول عنه اليتم بالبلوغ ، لحديث : «**لا**

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٥٣٣) . ومسلم برقم (١٦٧٨) . من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

(٢) أخرجه البخاري برقم (٦٨٧٨) ومسلم برقم (١٦٧٦) .

(٣) أخرجه البخاري برقم (٣١٦٦) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه .

يُتْمَ بعد احتلام»[(١)]، رواه أبو داود وغيره. وهو حديث حسن بشواهده.

وقد أوصىٰ الله تعالىٰ بالإصلاح لليتامىٰ في قوله تعالىٰ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾، أي: أصلحوا أموالهم، واعملوا فيها بالخير: ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٠]، أي: لو خلطتم طعامهم بطعامكم وأكلتم معهم فإخوانكم، ولا حرج عليكم.

وقد توعد الله تعالىٰ علىٰ أكل أموالهم بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠]، ولذلك عده النبي ﷺ من السبع الموبقات[(٢)]، وأباح أن يقربه بالإصلاح، ويتصرف فيه الولي بما يراه مناسباً في الاتجار به، وتنميته حتىٰ لا تفنيه الزكاة والنفقة[(٣)].

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (٢٨٧٣).

وقد قال الشيخ ابن جبرين: وهو حديث حسن بشواهده.

(٢) يشير الشيخ إلىٰ حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ـ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات، قيل: يا رسول الله وماهن؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات». أخرجه البخاري برقم (٢٦١٥). ومسلم برقم (٨٩).

(٣) كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٢٢٠]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ٦].

قالت عائشة رضي الله عنها في هذه الآية: أنزلت في والي اليتيم أن يصيب من ماله إذا كان محتاجاً بقدر ماله بالمعروف. أخرجه البخاري برقم (٢٧٦٥).

وأخرج الترمذي برقم (٦٤١) عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي ـ خطب الناس فقال: «ألا من وَلِيَ يتيماً له مال فليتجر فيه، ولا يتركه حتىٰ تأكله الصدقة» قال الترمذي وفي إسناده مقال، ولكن يتقوىٰ بغيره. =

* الوصية السابعة: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾:

أي: أوفوا عند البيع المكاييل والموازين، حتى لا تبخسوا الناس أشياءهم، وتنقصوهم حقهم، وقد ذكر الله عن شعيب عليه السلام أنه نهى قومه عن نقص المكيال والميزان(١)، وهو دليل على أن قومه اشتهروا بالنقص، فكان ذلك من جملة الأسباب التي عذبوا لأجلها.

وقد قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين: ١٣]؛ فتوعدهم على أخذهم حقهم وافياً، وبخسهم الناس إذا باعوهم بالكيل بصاع ناقص أو مد صغير ونحوه، وذلك لأنه أكل لأموال الناس بغير حق.

ثم إنه عَذَرَ العاجز فأخبر أنه تعالى لا يكلف الإنسان بما لا يستطيعه، وإنما التكليف والنهي والأمر بحسب الوسع والقدرة: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

* الوصية الثامنة: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾:

أي: انطقوا بالحق، واشهدوا بالصواب والواقع، واصدقوا في المقال، ولو

= وعن عمر بن الخطاب قال: اتجروا في أموال اليتامى، لا تأكلها الزكاة. أخرجه مالك في الموطأ في كتاب الزكاة رقم (١٢).

وعن عائشة رضي الله عنها: كانت تعطي أموال اليتامى الذين في حجرها من يتجر لهم فيها. أخرجه مالك في الموطأ في كتاب الزكاة رقم (١٤). قال الإمام مالك ـ رحمه الله ـ: لا بأس بالتجارة في أموال اليتامى لهم إذا كان الولي مأذوناً. فلا أرى عليه ضماناً.

(١) كما في قوله تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (٨٤) وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [هود: ٨٤، ٨٥].

كان عليكم ضرر في العدل، أو على أحد أقاربكم، فيجب على الإنسان أن يقول الحق ولو على نفسه، ولا يكون معه ميل أو حيف أو محاباة مع أحد أقاربه، فيكتم الشهادة أو يغيرها، كما قال تعالى: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا﴾ [النساء: ١٣٥]؛ فأمر بأداء الشهادة لله تعالى، والاعتراف بالحق ولو على النفس أو أحد الأبوين أو الأقارب، وذلك هو الإنصاف، وكما قال تعالى: ﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا﴾ [المائدة: ٨]، أي: لا يحملكم بغضهم على ترك العدل معهم، بل اشهدوا لهم ولو كانوا أعداء لكم.

* **الوصية التاسعة: ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾:**

والعهد هو: الميثاق مع الله تعالى، ومع الخلق، أي: متى تعهدتم لله بالطاعة والعبادة وترك المحرمات، فأوفوا بذلك حسب القدرة والاستطاعة، وكذا إذا تعهدتم لأحد فعليكم الوفاء لهم، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ﴾ [النحل: ٩١].

وصفته أن يقول: لك عهد الله وميثاقه أن لا أفعل كذا وكذا.

وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾ [الإسراء: ٣٤]، وهو دليل على أهمية الوفاء بالعهد.

وفي الحديث أن من صفات المنافق أنه إذا عاهد غدر[1]؛ أي: نقض عهده، وخالف ما تعهد به، بخلاف المؤمن فإنه يوفي بذلك حسب قدرته، وقد أخبر النبي ﷺ أنه يرفع لكل غادر لواء يوم القيامة، فيقال: هذه غدرة فلان. متفق

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٤)، ومسلم برقم (٥٨)، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خلة منهن كانت فيه خلة من نفاق حتى يدعها: إذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا وعد أخلف، وإذا خاصم فجر».

عليه بمعناه[١].

ثم إنه ختم الآية الثانية بقوله: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، أي: هذه الوصايا من الله تعالىٰ رجاء أن يحصل منكم التذكر والاتعاظ، والاعتبار والعمل بها.

* **ثم ذكر الوصية العاشرة: بقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾:**

الإشارة إلىٰ ما تقدم في الآيتين قبلها، وقيل إلىٰ ما ذكر من أول السورة إلىٰ هاهنا، أو إلىٰ جميع القرآن، أو إلىٰ الشرع الذي بلغه النبي ﷺ.

(والصراط) هو: الطريق الواسع الذي لا يضيق بمن سلكه. (والمستقيم) الذي لا عوج فيه، ولا انحراف، بل يؤدي بمن سلكه إلىٰ سبيل النجاة، والمعنىٰ: أن ما أخبرتكم به وأمرتكم بفعله أو نهيتكم عنه هو السبيل السوي، المؤدي إلىٰ رضىٰ الله وثوابه. (فاتبعوه) وسيروا علىٰ نهجه، وتمسكوا به، وعضوا عليه بالنواجذ، ولو سرتم وحداناً، ولو لقيتم مضايقات وأضراراً، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾؛ أي: طرق الغواية، ومسالك المبتدعة التي تنحرف بمن سار عليها إلىٰ الهلاك والدمار.

وقد مثل ذلك النبي ﷺ، وكان يوضح لأصحابه المعاني بالتمثيل، قال ابن مسعود رضي الله عنه: خط رسول الله ﷺ خطاً بيده، ثم قال: «**هذا سبيل الله مستقيماً**»، ثم خط خطوطاً عن يمين ذلك الخط وعن شماله، ثم قال: «**وهذه السبل**

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣١٨٦)، ومسلم برقم (١٧٣٦) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.
وأخرجه البخاري برقم (٣١٨٧)، ومسلم برقم (١٧٣٧)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.
وأخرجه البخاري برقم (٣١٨٨)، ومسلم برقم (١٧٣٥) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.
وأخرجه مسلم برقم (١٧٣٨)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

ليس منها سبيل إلا وعليه شيطان يدعو إليه»[١]، ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾. رواه أحمد والنسائي والدارمي والحاكم وصححه.

وعن النواس بن سمعان مرفوعاً: «ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً، وعلى جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى الصراط داع يقول: يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعاً ولا تعوجوا، وداع يدعو من جوف الصراط، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال: ويحك لا تفتحه فإنك إن تفتحه تلجه؛ فالصراط: الإسلام، والسوران: حدود الله، والأبواب المفتحة: محارم الله، وذلك الداعي على رأس الصراط: كتاب الله، والداعي من فوق الصراط: واعظ الله في قلب كل مسلم»[٢]. رواه أحمد و النسائي والترمذي وحسنه، والحاكم وصححه.

وهذه الأمثلة النبوية تقرب معنى الصراط، بأنه الطريق الذي نصبه الله تعالى موصلاً إليه، وهو يتمثل في طاعته وحده، وطاعة رسوله، بامتثال ما أمر به، وترك ما نهى عنه، بحيث لا يُقَدَّمُ على ذلك قول أحد كائناً من كان، وتكون

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١ / ٤٣٥، ٤٦٥ـ ٣/ ٣٩٧)، والدارمي برقم (٢٠٢، ٢٧٢٩)، وابن ماجه برقم (١١)، والحاكم (٢/ ٣١٨٣/ ٣٩٧)، والطبري برقم (١٤١٦٨)، وأورده البغوي في شرح السنة (١ / ١٩٦).
وصححه الحاكم وأقره الذهبي، وحسنه الألباني في تخريج المشكاة (١ / ٥٩)، وقال الأرناؤوط في شرح السنة (١ / ١٩٧): إسناده حسن، وقال أحمد شاكر في تحقيق المسند (٤١٤٢): إسناده صحيح، وانظر تحقيق ابن كثير لهذا الحديث في تفسيره (٢ / ١٩٠).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٤ / ١٨٢، ١٨٣)، والترمذي برقم (٢٨٥٩)، والنسائي في السنن الكبرى (٦ / ٣٦١)، والحاكم في المستدرك (١ / ١٤٤).
قال الترمذي: هذا حديث غريب. وأورده المنذري في الترغيب والترهيب (٣ / ٢٤٧)، وقال: ذكره رزين ولم أره في أصوله، وإنما رواه أحمد والبزار مختصراً بغير هذا اللفظ بإسناد حسن.

طاعة الله تعالىٰ، وطاعة رسوله ﷺ هي مقصده الأسنىٰ، متىٰ تبين له ذلك وعرفه عمل به، وتمسك به، ولو كثر مخالفوه، ولو عابه الأعداء بأنه رجعي، أو متأخر أو متزمت، أو جاهل بالأمور، فإن:

الحق شمس والعيون نواظر
لكنها تخفى على العميان

وأما (السبل) فهي طرق المبتدعة التي يدعو إليها رسل الشيطان، كالرفض، والنصب، والتعطيل، والجبر، والتجهم، والإرجاء، وإنكار القدر، والغلو في الأموات، والتصوف، والبعث، والنفاق، ونحوها، فهي طرق ملتوية، مخالفة للصراط المستقيم، وقد ضرب لها بعض مشايخنا مثلاً بعسيب النخل، إذا تدلىٰ فوصل طرفه إلىٰ الأرض، فلو تعلقت به حشرة ورقت فيه فإنها إذا مشت علىٰ أصل العسيب وصلت إلىٰ فرع النخلة، وأكلت من ثمرها، فإن انحرفت وركبت إحدىٰ الخوص سقطت إلىٰ الأرض.

وهذا مثل مطابق، حيث مثل الصراط المستقيم بأصل العسيب، ومثل الطرق المنحرفة عنه بالخوص المتعلق بالعسيب، وله أطراف قصيرة.

ثم إنه ختم الآية بقوله: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، أي: رجاء أن تكونوا من المتقين، فالآية الأولىٰ ختمها بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، والثانية: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾؛ لأنهم إذا عقلوا تذكروا، وإذا تذكروا اتقوا ربهم، وهو العمل الذي به يحصل الثواب والجزاء الأوفىٰ إذا تقبله الله تعالىٰ.

■ **قوله: [قال ابن مسعود: (من أراد أن ينظر إلى وصية محمد ﷺ التي عليها خاتمه، فليقرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ. . . إلى قوله: وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ الآية)** [الأنعام: ١٥٣] (١)]:

رواه الترمذي في التفسير من سننه، وحسنه، ورواه ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني بنحوه.

أي: من أحب أن يعلم الوصية التي أوصىٰ بها النبي ﷺ فهي في هذه الآيات؛ أي: كأنها كتبت وختمت، فلم تغير ولم تبدل بزيادة أو نقص، وذلك أن الوصية المختومة يعرف صحتها وثبوتها عن الموصي، وذلك لأن الله تعالىٰ ختم كل آية منها بقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ﴾؛ فالوصية الثابتة أولىٰ أن تتبع، مع أنها في صالح العاملين بها، حيث تحصل لهم التقوىٰ التي نهايتها وثوابها دار الكرامة، وهي الجنة، والله أعلم.

■ **قوله: [وعن معاذ بن جبل، قال: كنت رديف النبي ﷺ على حمار، فقال لي: «يا معاذ! أتدري ما حق الله على العباد؟ وما حق العباد على الله؟» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «حق الله على العباد: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وحق العباد على الله: ألا يعذب من لا يشرك به شيئاً»، قلت: يا رسول الله! أفلا أبشر الناس؟ قال: «لا تبشرهم فيتكلوا» (٢)، أخرجاه في الصحيحين]:**

أورد المؤلف حديث معاذ بن جبل؛ حيث ذكر أنه كان قد ركب مع النبي ﷺ علىٰ حمار فركب خلفه، ثم أنه ألقىٰ عليه سؤالاً عن حق الله تعالىٰ علىٰ عباده،

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٣٠٧٢)، وابن المنذر وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور (٣/ ٣٨١)، والطبراني في الكبير (١٠٠٦٠)، وفي الأوسط (١٢٠٨)، وأخرجه أبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان كما في الدر المنثور (٣/ ٣٨١). قال الترمذي: هذا حديث حسن.

(٢) أخرجه البخاري برقم (١٢٨، ١٢٩، ٢٨٥٦، ٥٩٦٧، ٦٢٦٧، ٦٥٠٠، ٧٣٧٣)، ومسلم برقم (٣٠).

وحق العباد على الله تعالى، فرد العلم إلى الله ورسوله، ثم إن النبي ﷺ أخبره بالجواب بعبارة واضحة، بأن حق الله على عباده وهم المكلفون من الجن والإنس عبادته وحده دون من سواه، بأن يصرفوا جميع أنواع العبادة له مخلصين له الدين، فإنه سبحانه أهل أن يعبد، وأن يحمد، ويركع له ويسجد، ويدعى، ويخاف، ويرجى، ويتوكل عليه العباد، ولا يلتفتون إلى سواه بقلوبهم أو بأعمالهم أو بأقوالهم، ولا يعظمون غيره بشيء من أنواع التعظيم الخاص به، حتى الحلف بالآباء أو بالحياة ونحو ذلك.

أما حق العباد على الله فهو أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً، بل يكرمهم ويثيبهم، ويغفر لهم ما وقع منهم من الزلات والهفوات، والسيئات التي تقع عن تساهل، أو عن اعتماد على عفو الله ورحمته، فإنه سبحانه يتكرم عليهم، ويمحو عنهم السيئات، ويغفر لهم خطاياهم، وهو الغفور الرحيم.

ثم إن في الحديث بشارة للموحدين بالسلامة من العذاب، فطلب معاذ أن يبشر الناس بأن من أخلص منهم الدين، ودان لله تعالى بالتوحيد، ولم يشرك بالله شيئاً، فإنه يسلم من العذاب، لكن النبي ﷺ منعه في ذلك الوقت، خشية أن يتكلوا على أنهم لا يعذبون ويتكلوا عن العمل، ولكن معاذ أخبر بذلك عند موته تأثماً من كتمان العلم، وبعد أن عرف أهل الإسلام أن سعة رحمة الله تعالى ومغفرته لا يسبب النكول عن الأعمال الصالحة، وترك المنافسة في الخيرات؛ بل لا يزيد المؤمن هذا الخبر إلا قوة في دينه، واستكثاراً من الصالحات.

وفي هذا الحديث تواضع النبي ﷺ، حيث ركب الحمار وأردف عليه، مع أنه مركب دنيء يترفع عنه المتكبرون.

وفيه أن من التعليم إلقاء العلم على المتعلم كهيئة سؤال، حتى يستعد لحفظ الجواب وتذكره، واستحضاره بعد ذلك.

وفيه أن من لا يعلم يتوقف عن الجواب فيرد العلم إلىٰ عالمه، ولا نقص عليه في ذلك، فإن من العلم أن تقول لما لا تعلم: الله أعلم. فمن أخطأ (لا أدرىٰ) أصيبت مقاتله، كما قاله بعض العلماء، وذكر عن مالك رحمه الله تعالىٰ أنه سئل عن أربعين مسألة، فأجاب عن أربع فقط، وتوقف عن الباقي، مع أنه إمام أهل المدينة، وفي ذلك يقول بعض الشعراء في فضل العلم كما في كتاب العلم لابن عبد البر:

وقل إذا أعياك ذاك الأمر
مالي بماتسأل عنه خبر
فذاك شطر العلم فاحفظه
واحذر هديت أن تزيغ عنه
فربما أعيا ذوي الفضائل
جواب ما يلقى من المسائل
فيمسكوا بالصمت عن جوابه
عند اعتراض الشك في صوابه.

ثم في الحديث بيان عظمة شأن التوحيد وأهميته، وحتميته علىٰ العباد، وأنه حق واجب عليهم، وهو أن يعبدوا الله وحده لا شريك له في العبادة، وأن يتقربوا إليه بجميع أنواع العبادة، كالدعاء، والابتهال، والإنابة، والتوبة، والتضرع، والتذلل، والرغبة، والرهبة، والخشوع، والخشية، والاستعانة، والاستعاذة، ونحو ذلك، فلا يصرفوا منها شيئاً لمخلوق، فمن صرف منها شيئاً لمخلوق فهو مشرك، كافر، ولو كان ذلك المخلوق نبيّاً أو رسولاً، أو ملكاً مقرباً، فضلاً عن غيرهما.

فمن أخلص هذا التوحيد لله تعالى حمله ذلك على معرفة عظمة الخالق، واستحضر كبرياءه، فقدسه وأجله، وهاب أن يعصيه، أو يخالف أمره، أو يرتكب ما نهاه عنه، فأكثر من الحسنات والأعمال الصالحة التي يحبها مولاه، وابتعد عن المخالفات، وعن جميع المعاصي التي يسخطها ربه، ويغضب على من فعلها، وتدل على نقص تعظيم الرب تعالى.

ثم إن حق الله تعالى على العباد حق واجب، يلزمهم أن يدينوا به، ويحرم عليهم تركه أو مخالفته، أما حقهم على الله فهو تكرم منه وفضل، فهو الذي أعانهم عليه، وهداهم وسددهم، وأقبل بقلوبهم، حتى أخلصوا له العبادة، وهو الذي حماهم عن الشرك وعن المعاصي، فله الفضل وله المن، كما قال الشاعر:

ما للعباد عليه حق واجب

كلا ولا سعي لديه ضائع

إن عذبوا فبعدله أو نعموا

فبفضله وهو الكريم الواسع

وفي الحديث جواز كتمان العلم للمصلحة، وهي هنا خوف أن يتكلوا على مجرد التوحيد، ويتركوا المنافسة في الأعمال الصالحة، و هذا يكون في حق المبتدئين والعامة، فأما الخاصة وأهل المعرفة فما يزيدهم هذا الخبر إلا جداً ونشاطاً، و تشميراً في العبادات، وتزوداً من الصالحات، والله أعلم.

■■■■■

[١]

باب:
بيان فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب

وقول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبد ورسوله، وأن عيسى عبده الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل»، أخرجاه.

«ولهما، في حدث عِتْبان: «فإن الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله، يبتغي بذلك وجه الله».

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ، قال: «قال موسى: يا رب علمني شيئاً أذكرك وأدعوك به، قال: قل يا موسى: لا إله إلا الله، قال: كل عبادك يقولون هذا، قال: يا موسى لو أن السموات السبع وعامرهن غيري، والأرضين السبع في كفة، ولا إله إلا الله في كفة، مالت بهن لا إله إلا الله»، رواه ابن حبان، والحاكم وصححه.

وللترمذي وحسنه، عن أنس: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: يا ابن آدم! إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً، لأتيتك بقرابها مغفرة».

• فيه مسائل:

الأولى: سعة فضل الله.

الثانية: كثرة ثواب التوحيد عند الله.

الثالثة: تكفيره مع ذلك للذنوب.

الرابعة: تفسير الآية (٨٢) التي في سورة الأنعام.

الخامسة: تأمُّل الخمس اللواتي في حديث عبادة.

السادسة: أنك إذا جمعت بينه وبين حديث عتبان وما بعده؛ تبين لك معنى قول: «لا إله إلا الله»، و تبين لك خطأ المغرورين.

السابعة: التنبيه للشرط الذي في حديث عتبان.

الثامنة: كون الأنبياء يحتاجون للتنبيه على فضل «لا إله إلا الله».

التاسعة: التنبيه لرجحانها بجميع المخلوقات، مع أن كثيراً ممن يقولها يخف ميزانه.

العاشرة: النص على أن الأرضين سبع كالسموات.

الحادية عشرة: أن لهن عُمّاراً.

الثانية عشرة: إثبات الصفات خلافاً للمعطلة.

الثالثة عشرة: أنك إذا عرفت حديث أنس، عرفت أن قوله في حديث عِتْبان: **«فإن الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله، يبتغي بذلك وجه الله»** أن ترك الشرك، ليس قولها باللسان.

الرابعة عشرة: تأمُّل الجمع بين كون عيسى ومحمد عبدَي الله ورسوليه.

الخامسة عشرة: معرفة اختصاص عيسىٰ بكونه كلمة الله .

السادسة عشرة: معرفة كونه رُوحاً منه .

السابعة عشرة: معرفة فضل الإيمان بالجنة والنار .

الثامنة عشرة: معرفة قوله : «علىٰ ما كان من العلم» .

التاسعة عشرة: معرفة أن الميزان له كِفَّتان .

العشرون: معرفة ذكر الوجه .

■ ■ ■ ■ ■

•• الشرح ••

باب:
بيان فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب

أي: هذا باب يذكر فيه بعض فضائل التوحيد وفوائده، وما يحصل للموحدين حقّاً من الخير والسعادة في الدنيا والآخرة، وأن من تلك الفضائل كونه يكفر الذنوب، ويمحو السيئات، إذا كان توحيداً خالصاً، سالماً من الشوائب التي تكدر صفوه، وتنقص أجره وثوابه.

فبعد أن ذكر المؤلف أهمية التوحيد وفرضيته على العباد، أورد في هذا الباب شيئاً من فضائل التوحيد، وآثاره على الموحدين، فإنه سبب النصر والتمكين، وسبب الخيرات والبركات، وبه يدفع الله عن الخلق الآفات والمصائب، وهو الذي يعصم الدم والمال في الدنيا، ويحصل لأهله تمام الأخوة فيما بينهم، زيادة على فضائله وفوائده في الآخرة، التي تضمنتها الأدلة المذكورة في الباب، حيث ذكر آية كريمة، ثم ذكر أربعة أحاديث صحيحة.

■ **قوله: [وقول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾** [الأنعام: ٨٢]]:

هذه الآية سيقت بعد محاجة إبراهيم لقومه، في قوله عليه السلام: **﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾** [الأنعام: ٨١].

فالمعنى: أنني لا أخاف من آلهتكم أن تلحقني ضرراً؛ لأنها جماد أو أموات، فأنا آمن من شرها وسوئها، فكيف أخاف من شركائكم؟ مع أنكم لا

تخافون من الله، وقد جعلتم له شركاء لم ينزل بها عليكم سلطاناً، فأنا أحق بالأمن منكم.

ثم إن الله تعالىٰ ذكر من هو أحق بالأمن، وهم المؤمنون حقّاً، الذين لم يخلطوا إيمانهم بشرك أو نحوه، ثم إن ظاهر الآية أن الأمن والاهتداء إنما يحصلان لمن لم يلبس إيمانه بشيء من الظلم الذي يعم ظلم النفس بالمعاصي، وظلم العباد بالاعتداء عليهم؛ فلهذا خاف الصحابة منها، وقالوا: يا رسول الله أينا لم يظلم نفسه؟ فأخبرهم النبي ﷺ أن المراد بالظلم: الشرك، واستدل بقول الله تعالىٰ عن لقمان: ﴿يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣][1]. رواه البخاري، عن ابن مسعود رضي الله عنه.

والشاهد من الآية أن أهل الإيمان الخالص السالم من الشرك صغيره وكبيره، يحصل لهم فائدتان عظيمتان، وهما: الأمن من النار أو من الخلود فيها، والاهتداء إلىٰ طريق الصواب، فهذا من فضل التوحيد.

وقد ذكر المفسرون والشراح أن الأمن قسمان: (الأمن المطلق)، (ومطلق الأمن).

فالأول هو: الأمن التام، بحيث لا يخاف صاحبه ولا يحزن الفزع الأكبر، حيث يبشر بالجنة التي وعد المتقون، وبالسلامة من العذاب في الموقف أو في النار، ولا يكون هذا الأمن إلا لأهل الإيمان الخالص، الذي لا يشوبه شرك أو شيء من وسائله، أو بدعة، أو ذنب كبير أو إصرار علىٰ صغير؛ حيث أن إيمانه الكامل لم يلبسه بشيء من الظلم فأمنه الله تعالىٰ، وصدق وعده له بدار الخلود التي وعدها عباده المؤمنين.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٢) ومسلم برقم (١٢٤).

وهكذا بشره بالاهتداء الذي هو سلوك الصراط السوي، ففي الدنيا يوفقه الله للسير على طريق النجاة بالأعمال الصالحة، وهو صراط الذين أنعم الله عليهم من: النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين، ثم الاهتداء في الآخرة بالسير على الصراط الحسي الذي ينصب على متن جهنم(١)، ويسير عليه الناس بأعمالهم سيراً سريعاً أو بطيئاً بحسب تمسكهم بالصراط في الدنيا.

ولا شك أن هذا الاهتداء يتفاوت كما يتفاوت الأمن، فمن سلم من الظلم كله صغيره وكبيره فله الأمن التام، والاهتداء التام، ومن كان من أهل التوحيد، ولكن وقع في شيء من الظلم، فله مطلق الأمن، وهو السلامة من الخلود في النار.

ثم إن الظلم ثلاثة أنواع ذكرت في الحديث الذي رواه الإمام أحمد والحاكم وصححه، عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «الدواوين عند الله عز وجل ثلاثة: ديوان لا يعبأ الله به شيئاً، وهو: ظلم العبد نفسه فيما بينه وبين ربه، من صوم تركه، أو صلاة تركها، فإن الله عز وجل يغفر ذلك ويتجاوز إن شاء. وديوان لا يترك الله منه شيئاً، وهو: ظلم العباد بعضهم بعضاً، القصاص لا محالة. وديوان لا يغفره الله، وهو: الشرك بالله عز وجل: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ [المائدة: ٧٢](٢)، وفي إسناده ضعف، ولكن له شواهد بمعناه، فإن الشرك هو أظلم الظلم، وهو: وضع العبادة في غير موضعها اللائق بها، وصرفها لمن لا يستحق شيئاً منها.

---

(١) جاء ذكر نصب الصراط على متن جهنم، وأن عليه كلاليب مثل شوك السعدان تخطف الناس بأعمالهم، في حديث طويل عند البخاري برقم (٧٤٣٧)، ومسلم برقم (١٨٢).

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٢٤٠)، والحاكم (٤/ ٥٧٥)، وأورده الهيثمي في المجمع (١٠/ ٣٤٨) والسيوطي في الدر المنثور (٢/ ١٧٠)، وصحح إسناده الحاكم، ورده الذهبي. وضعفه الألباني في الطحاوية (٣٨٤).

قال الشيخ ابن جبرين عقب الحديث: وفي إسناده ضعف، ولكن له شواهد بمعناه.

■ **قوله: [وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل»، أخرجاه**(١)]:

دلالة هذا الحديث على الباب أن من فوائد التوحيد كونه سبباً في دخول الجنة لمن عمل به، فإن لفظ الشهادتين يستدعي اعتقاد أن الله تعالى هو الإله الحق، وأن كل ما سواه مما يعظم ويصرف له شيء من أنواع التأله فهو باطل، واعتقاد صحة رسالة محمد ﷺ، ووجوب قبول ما جاء به وبلغه من أمور الشريعة.

فأما التلفظ بالشهادتين مع الجهل بمدلولهما، أو مع مخالفة معناهما، أو مع صرف معناهما إلى غير المعنى الحقيق الشرعي، فإن ذلك لا يفيد من تلفظ بهما، ولا يعصم الدم والمال، ولا يكون سبباً في دخول الجنة في الآخرة.

* **وقد كثر كلام العلماء في معنى لا إله إلا الله، وذكروا أن الإله هو**: الذي تألهه القلوب محبة وخوفاً ورجاءً، وتوكلاً وخضوعاً، وتذللاً وإنابة إليه، ورغبة فيما لديه.

وذكروا أن هذه الكلمة مركبة من ركنين، وهما النفي والإثبات، فلا يتم أحدهما إلا بالآخر، فأولها: نفي لجميع أنواع العبادة عن غير الله، وآخرها: إثبات العبادة كلها لله وحده، فهي اعتقاد أن الله تعالى هو الإله الحق وحده، أي: المألوه الذي تألهه القلوب، أي: تعظمه وتجله، وتخضع له وتتواضع، فمن كان كذلك فإنه يعرف قلبه وقالبه عن غير الله تعالى، بحيث يمتلئ قلبه بمحبة الله تعالى وتعظيمه وتقديسه، ويقبل على الله تعالى بكليته، فيصرف جميع أنواع التعظيم

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٤٣٥)، ومسلم برقم (٢٨).

والإجلال لرب العالمين، ولا يتسع قلبه لشيء سوىٰ الله تعالىٰ، فهو يخافه أشد الخوف، ويرجوه غاية الرجاء، ويحبه بأعلىٰ أنواع المحبة، ويعظمه ويجله، فله يركع ويسجد، وإليه يسعىٰ ويحفد، فهو محب لله تعالىٰ ولكل ما يحبه، وهو مبغض لأعداء الله، ولما يغضب ربه من الأقوال والأعمال.

وقد سبق ذكر معنىٰ العبادة وسبب تسميتها، و أن جميع أنواعها لا تصلح إلا لله تعالىٰ، وأن التقرب بها إلىٰ الله تعالىٰ: هو التأله والتذلل الذي يكسب القلب خصوعاً وخشوعاً وتواضعاً للرب سبحانه، فمتىٰ كان العبد كذلك صدق عليه أنه عبد لله تعالىٰ، عابد له وحده دون ما سواه.

وبالجملة فهذه الكلمة هي كلمة الإخلاص التي بدأ النبي ﷺ بالدعوة إليها واستمر علىٰ ذلك لمدة عشر سنين، مقتصراً علىٰ التوحيد العملي القصدي الطلبي الإرادي، وهو توحيد العبادة، ويقول لقومه: «**قولوا: لا إله إلا الله كلمة تملكون بها العرب، وتدين لكم بها العجم**» وفي لفظ: «**تدين لكم بها العرب، وتؤدي بها العجم الجزية...**»[1] إلخ. رواه أحمد بنحوه، والترمذي، وابن جرير في تفسير سورة (ص) وغيرهم، عن ابن عباس، وصححه الترمذي.

وقد اتفقت علىٰ معناها دعوة الرسل كما قال تعالىٰ: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ**﴾ [الأنبياء: ٢٥]، فكل من أوحىٰ الله إليه بهذه الكلمة فإنه يأمر بها قومه، ويبدأ بها دعوته، فكلهم قال لقومه: ﴿**اعْبُدُوا اللَّهَ**

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٣٢٣٢)، وأحمد في المسند (١ / ٢٢٧، ٣٦٢ـ٥ / ٤٣٣)، والنسائي في السنن الكبرىٰ (٥ / ٢٣٥)، والحاكم (٢ / ٤٦٩)، والبيهقي في السنن (٩ / ١٨٨)، وأبو يعلىٰ (٤ / ٤٥٥)، وابن حبان بترتيب ابن بلبان (٣ / ٢٦٢). قال الترمذي: هذا حديث حسن، وصححه ابن حبان، وصححه الحاكم، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال أحمد شاكر في تحقيق المسند برقم (٢٠٠٨): إسناده صحيح.

﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [المؤمنون: ٣٢]، وهي التي أنكرها المشركون على النبي ﷺ، وقالوا: **﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝ وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ﴾** [ص: ٥، ٦]؛ فقد فهموا أنها تلزمهم أن يقتصروا على إله واحد وهو الله، ويتركوا آلهتهم التي يعبدونها بالدعاء والخضوع، و التذلل والتواضع، والعكوف والذبح والنذر، والركوع والانحناء والتعظيم، والحلف بها ونحو ذلك.

ثم إن المتأخرين لما جهلوا معناها اللغوي، وماتدل عليه من ترك دعاء غير الله، ومن صرف جميع أنواع التعظيم لله وحده، نتج عن جهلهم أن صرفوا العبادة للأموات، وعظموا القبور كتعظيم الجاهليين لأصنامهم، وصرفوا لها خالص حق الله تعالى، فدعوها مع الله، وذبحوا لها ونذروا لها، وحلفوا بها، وعكفوا عندها، وتحروا الصلاة عندها، وفضلوها على الصلاة في المساجد التي: **﴿أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾** [النور: ٣٦]، وزين لهم الشيطان أن هذا لا بأس به، وأن هؤلاء الأموات من أولياء الله والمقربين إليه، وأنه يقبل شفاعتهم ووساطتهم، وسموا فعلهم توسلاً وتبركاً واستشفاعاً، وتحاشوا أن يسموه عبادة أو شركاً، مع أن الأسماء لا تغير الحقائق.

وقد توهموا أن الشهادتين يكفي منهما النطق، وأن من تلفظ بها فهو موحد مخلص، معصوم الدم والمال، ولو دعا الأموات، وحلف بهم، وذبح لهم، وطاف بالقبور، وتذلل للأموات وخضع وخشع، وأهطع وأقنع لغير الله، فأشركوا هؤلاء الأموات في حق الله تعالى، ودعوهم مع الله، فنقضوا بذلك توحيدهم، وخالفوا معنى لا إله إلا الله وهم يعلمون: **﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ﴾** [النمل: ٢٤].

ثم إن كثيراً من علماء القرون الوسطىٰ غلطوا في تفسير كلمة الإخلاص، وفسروا الإله بأنه القادر علىٰ الاختراع، وجعلوا معنىٰ لا إله إلا الله، أي: لاخالق إلا الله، وغفلوا عن كون المشركين الأولين يعترفون بذلك لله وحده، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١]، وقال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦٣]، ونحو ذلك من الآيات.

فلو كان الإله هو القادر علىٰ الاختراع أو هو الخالق المبدع، لما أنكر المشركون كلمة لا إله إلا الله، فقد قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ۝٣٥ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ [الصافات: ٣٥،٣٦]، فهم مع إقرارهم بأن الله تعالىٰ هو الخالق الرازق، المدبر للأمر، قد امتنعوا من قول: لا إله إلا الله؛ حيث فهموا من معناها: إبطال آلهتهم، وجعل الإله واحداً، فعلىٰ هذا يعتبر هذا التفسير خطأ، ونقصاً في العلم بمعنىٰ هذه الكلمة.

ومما يدل علىٰ المراد من كلمة لا إله إلا الله تأكيد معناها بقوله: «**وحده لا شريك له**»؛ فنفي الشريك تأكيد للنفي في هذه الكلمة، وقوله: «**وحده**» تأكيد للإثبات؛ أي: أنه سبحانه هو الإله وحده، المتفرد بالإلهية، وليس له شريك في استحقاق العبادة، ولا في مسمىٰ الإلهية، فكل ما يسمىٰ إلهاً فهو باطل؛ والله أعلم.

* **وأما الشهادة بأن محمداً رسول الله**: فإنها قرينة الشهادة الأولىٰ ومكملتها، فلا تتم إحدىٰ الشهادتين إلا بالأخرىٰ، وذلك لأن محمداً ﷺ هو الذي عرّفنا بربه، ودعىٰ إلىٰ التوحيد والإخلاص لرب العالمين، ولذلك يلزم كل مسلم أن يصدق برسالته، و يشهد بأنه مرسل من ربه، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾

[الشرح: ٤]، قال مجاهد: لا أذكر إلا ذكرت معي، وقال قتادة: رفع الله ذكره في الدنيا والآخرة، فليس خطيب، ولا متشهدٌ، ولا صاحب صلاة؛ إلا ينادي بها: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله[١]. وفي حديث مرفوع عن أبي سعيد: «إن الله قال: إذا ذُكِرْتُ ذُكِرَتْ معي»[٢]، رواه ابن جرير وابن أبي حاتم، وقد ذكر ذلك الشعراء كما في كتب التفسير.

وقد فسر الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى هذه الشهادة بقوله: ومعنى شهادة أن محمداً رسول الله: طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وأن لا يعبد الله إلا بما شرع. أ. هـ. وفسر شهادة أن محمداً عبده ورسوله بأنه: عبد لا يُعبد، ورسولاً لا يُكذب؛ بل يُطاع ويُتبع.

ولا شك أن هذه الشهادة تستدعي الإقرار والاعتراف بأن محمداً ﷺ مرسل من ربه، حمّله الله رسالة عظيمة، وهي شريعة الإسلام، وكلفه أن يبلغها إلى قومه وإلى الناس كافة، وقال تعالى: ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ﴾ [المائدة: ٩٩]، وقال تعالى: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ﴾ [الشوري: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧].

وقد شهد له الصحابة رضي الله عنهم بالبلاغ لما استشهدهم في حجة الوداع، فقالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت[٣]، رواه مسلم وغيره.

* وحيث أن من واجب المسلم الاعتراف برسالته، فإن ذلك يستدعي مكملات وعلامات يعرف بها صدق من ادعى الشهادة له بالرسالة:

---

(١) أورد هذه الأقوال ابن كثير في تفسيره عند تفسير هذه الآية (٤/ ٥٢٤، ٥٢٥).

(٢) أورده ابن كثير في تفسيره عند تفسير هذه الآية (٤/ ٥٢٤)، ونقله عن ابن جرير وابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه مسلم برقم (١٢١٨)، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

● **فمنها: محبته ﷺ**: وتقديمها على محبة كل مخلوق، فقد ثبت عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه: من ولده، ووالده، والناس أجمعين**»(١). متفق عليه.

ولاشك أن محبته تستلزم حبه وحب من يحبه، وحب شريعته وسننه، وتستلزم تقديم قوله على كل قول، كما تستلزم بغض أعدائه، وبغض مخالفته، والبعد عن ذلك.

● **ومنها: وجوب طاعته**: وقد قرن الله طاعته بطاعة رسوله، كما في قوله تعالى: ﴿**وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا**﴾ [الأحزاب: ٧١]، ورتب على طاعته الثواب، وعلى معصيته العقاب في قوله تعالى: ﴿**وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا**﴾ [النساء: ١٣، ١٤].

بل جعل الله تعالى طاعة الرسول طاعة لربه، فقال تعالى: ﴿**مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ**﴾ [النساء: ٨٠]. وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله**»(٢). رواه البخاري. ومعلوم أن المطيع هو الموافق المتمثل لما جاء به، المحب لشريعته.

● **ومنها: أمر الأمة باتباعه والتأسي بسنته**: وهو داخل في طاعته، وتابع لمحبته، قال الله تعالى: ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ**﴾ [آل عمران: ٣١]، وتسمى هذه الآية: آية المحنة، أي: الامتحان لكل من ادعى

---

(١) أخرجه البخاري برقم (١٥)، ومسلم برقم (٤٤)، عن أنس بن مالك رضي الله عنه.
وأخرجه البخاري برقم (١٤)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري برقم (٦٧١٨)، ومسلم برقم (١٨٣٥)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

التصديق لله تعالى، ومحبة الرب، فإن علامة صدقه اتباع هذا النبي الكريم.

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١]؛ أي: عليكم أن تقتدوا به في أفعاله، وتتأسوا به في أعماله وقرباته إن كنتم صادقين في الشهادة له بالرسالة، فمن ادعى محبته ولم يوافقه فدعواه كاذبة.

● ومنها: **الإيمان به**: فقد أمر الله بذلك كما أمر بالإيمان بالله تعالى، في قوله: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا﴾ [التغابن: ٨]، ورتب على ذلك أجراً كبيراً في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الحديد: ٢٨].

وقد علم أن الإيمان برسالته يستلزم تصديقه، واعتقاد صحة ما جاء به، وأنه مرسل من ربه، ثم يستلزم تقبل ما بلغه والعمل به أمراً ونهياً، كما قال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: ٧].

*** ثم إن الأمة الإسلامية قد افترقت في حقه ﷺ إلى ثلاثة فرق:**

ففرقة غلوا في معاملته، وفرقة جفوا، وفرقة توسطوا.

● **أما الغلاة**: فهم الذين صرفوا له الكثير من حق الله تعالى، كالذين بالغوا في مدحه بما لا يستحقه إلا الله تعالى، فوصفوه بعلم الغيب، والقدرة على كل شيء، والملكية، والتصرف في جميع الكون، وحملهم ذلك على الغلو فيه، فدعوه مع الله، وحلفوا به، وصرفوا له خالص العبادة التي لا يستحقها إلا الله، وهؤلاء يدَّعون أن ذلك من تمام محبته وتصديقه، فتراهم يدعونه في الملمات، ويهتفون باسمه عند الشدائد، وينسون الرب العظيم الخالق.

وقد غاب عنهم ما وصفه الله تعالى به من العبودية في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣]، وقوله: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩]، والعبد هو: المملوك لخالقه، فليس للعبد التصرف إلا فيما أقدره الله عليه.

وقد وصفه الله تعالى بأنه بشر، أي: إنسان من جملة الناس، فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠]؛ أي: أنه تميز عن البشر بالوحي إليه، فليس له من حق ربه شيء.

وقد بالغ ﷺ في تواضعه لربه، ، وحذَّر من الغلو في حقه، فقال: «**لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله**»(١)، ولما قال له رجل: ما شاء الله وشئت. قال: «**أجعلتني لله نداً**»(٢) على وجه الإنكار. وقال: «**إنما أنا عبد، أجلس كما يجلس العبد، وآكل كما يأكل العبد**»(٣).

ثم إن أولئك الذين غلوا في حقه، ودعوه من دون الله، إذا نظرنا في أحوال كثير منهم وجدناهم قد خالفوا سنته، وعصوه جهاراً، بحلق اللحى، وشرب الدخان، والإسبال في اللباس؛ بل وفي ترك الصلاة، ومنع حقوق الله في أموالهم، فلم يصدقوا في محبته، وأطاعوا الشيطان في عبادته.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٤٤٥) عن عمر بن الخطاب.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (١ / ٢١٤، ٢٨٢، ٣٤٧)، والطبراني في الكبير (١٢ / ٢٤٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما. قال أحمد شاكر في تحقيق المسند رقم (١٨٣٩): إسناده صحيح.

(٣) هذه الجملة جاءت في عدة أحاديث عند عائشة رضي الله عنها وهي صحيحه. فقد صححها الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٥٤٤) ورقم (٢٠٤٥) ورقم (٢٤٨٤). وأورد بعض الطرق والشواهد، وصححها أيضاً في صحيح الجامع رقم (٦، ٧، ٨)، وصححها أيضاً الأرناؤوط في شرح السنة (١١ / ٢٨٧) و(١٣، ٢٤٧).

● **أما الذين جفوا في حقه**: فهم الكثير من الذين يتسمون بالإسلام ظاهراً، وينطقون بالشهادتين، ولكنهم لا يأخذون من السنة إلا ما يناسب أهواءهم وأذواقهم، فهم يعلنون بالمعاصي، ويدعون أن فيها حظ الأنفس، والتلذذ بالشهوات المحرمة، ويقولون بلسان الحال: إن محمداً قد تدخل فيما لا يعنيه، فليس من حق التدخل في التحليل والتحريم لما تهواه الأنفس، وتلتذ به الأعين، فلذلك تراهم يشربون الخمور، ويعكفون على سماع الأغاني والملاهي، والنظر في الصور والأفلام الخليعة، ويفعلون فواحش الزنا ومقدماته، ويبيحون للنساء التكشف والسفور، ومخالطة الرجال الأجانب، ويتعاطون المعاملات الربوية، وأخذ المال بغير حق.

وإذا نُصحوا وذكِّروا ردُّوا على من نصحهم بأن الشرع لا دخل له في المعاملات والشهوات، وإنما أتى بالعبادات كالصلوات، والصوم، والحج، وأن القصد منها إظهار الطاعة والمتابعة، فيكتفون من ذلك بالتسمي، دون تحقيق الاتباع.

و لا شك أن هؤلاء لا تنفعهم شهادتهم، ولاتعصم دماءهم وأموالهم، حيث أنهم لم يعملوا بها، ولم يصدقوا بما تدل عليه، واتبعوا أهواءهم، و أعطوا أنفسهم حرية التصرف فيما يشتهونه، فخرجوا بذلك عن حقيقة الدين الإسلامي، وما يهدف إليه، وشابهوا المنافقين الذين آمنوا في الظاهر، وكذبوا في الباطن، فكانوا في الدرك الأسفل من النار[1].

● **وخير الأمور أوساطها**: فأهل الإسلام الصحيح يحترمون النبي ﷺ في

(١) لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً﴾ [النساء: ١٤٥].

حياته، ويحترمون سنته بعد مماته، فقد قال الله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ [الحجرات: ٢]، وقال تعالىٰ: ﴿لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النُّور: ٦٣]، أي: لا تدعوه باسمه العلم، كفعل بعض الجفاة؛ بل خاطبوه باسم نبي الله ورسول الله، وهو الذي تميز به عن البشر.

وقد عمل الصحابة بذلك، فكانوا يخافتون عنده، ولا يجرؤ أحدهم علىٰ رفع صوته حوله، وكذا في مجالس العلم الذي تروىٰ فيها أحاديثه، وبذلك مدحوا وصاروا هم أتباعه حقاً، فرضي الله عنهم وأرضاهم، وقد كَتَبْتُ في (الشهادتين) رسالة مطبوعة فيما يتعلق بمعناهما، و ما تستلزمه كل منهما فليرجع إليها(١).

* **أما قوله: «وأن عيسى عبد الله ورسوله..الخ»:**

هذا مأخوذ من قوله تعالىٰ: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ [النساء: ١٧١]، وهذا رد علىٰ النصارىٰ الذين غلوا في عيسىٰ عندما رأوا من معجزاته أنه يخلق من الطين كهيئة الطير، فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله، ويبرئ الأكمه والأبرص، ويحيي الموتىٰ بإذن الله، ونحو ذلك من المعجزات، وكونه يكلم الناس في المهد، فاعتقدوا أنه هو الله، أو ابن الله، أو ثالث ثلاثة.

---

(١) رسالة بعنوان: (**الشهادتان: معناهما وما تستلزمه كل منهما**)، من تأليف فضيلة الشيخ عبد الله بن جبرين، وقد طبعت عدة مرات.

وقد كفرهم الله لذلك، فقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ١٧]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٣]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ [التوبة: ٣٠].

وقد عظَّم الله هذا القول، وبين بشاعته، كما في قوله تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ الآيات [مريم: ٩٠-٩٢].

وقد كثر الرد في القرآن والسنة على الذين يجعلون لله ولداً من أهل الكتاب والمشركين، وأخبر سبحانه أنه: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٣، ٤]، وقال عن عيسى: ﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥]، وهو إشارة إلى أنه إنسان مخلوق، يحتاج إلى الطعام، ثم إلى التخلي، وذلك نقص يلزم منه ما ينزه عنه إلا له سبحانه وتعالى.

وقد أخبر الله تعالى أن عيسى رسول من الله تعالى، في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم﴾ [الصف: ٦]، فاعترف بأنه مرسل من ربه، وقال الله تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ﴾ [النساء: ١٧٢]؛ أي: أنه لا يأنف ولا يترفع عن العبودية لله تعالى، بل قد أقر بذلك كما في قوله تعالى عن عيسى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم: ٣٠]،

وذلك أول ما تكلم به مخاطباً لقومه وهو في المهد، وحكىٰ الله عنه أنه تبرأ من ادعاء الألوهية لما قال الله له: ﴿أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ . . . إلىٰ قوله: مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ١١٦، ١١٧]، ومع هذا كله فقد زين الشيطان للنصارىٰ فغلوا فيه، وادعوا أنه ابن الله، وحرفوا الإنجيل بما يوهم أن عيسىٰ ينقله عن أبيه الرب سبحانه، مما يدل علىٰ إفكهم وكذبهم.

وقد ذكر العلماء أنه لا يصح إسلام النصارىٰ حتىٰ يتبرؤا من قولهم في عيسىٰ، فيشهد أحدهم أنه عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلىٰ مريم وروح منه، كما في هذا الحديث، أي: أنه عبد من عباد الله الذين هم ملكه وخلقه وعبيده، فهو مملوك كسائر العباد الذين هم خاضعون لله تعالىٰ، يتصرف فيهم كما يشاء، فيمرض ويصح، ويغني ويفقر، ويعطي ويمنع، ويعز ويذل، ويخفض ويرفع، ويميت ويحيي، لا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه.

فعيسىٰ كغيره خاضع لربه، ذليل له، متواضع له، لا يستنكف عن العبودية له، ولا يتكبر علىٰ الله، تميز بأنه رسول من الله كسائر الرسل الذين حملهم الله شريعته، وكلفهم بالبيان والبلاغ إلىٰ أممهم، فبلغ ما أنزل إليه، ودعا بني إسرائيل إلىٰ الدين الذي جاء به، وأخبر الله عنه أنه قال: ﴿وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠]؛ أي: بالمعجزات التي أجراها الله علىٰ يديه لتدل علىٰ رسالته، ولكن النصارىٰ انخدعوا بما رأوا من خوارق العادات كخلق الطير، وإحياء الموتىٰ، فادعوا أنه ابن الله، فأنكر الله قولهم، وأخبر بأنه رسول الله، وأخبر بأنه كلمة الله ألقاها إلىٰ مريم؛ أي: أنه خلقه بالكلمة التي خلق بها آدم، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ

مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]؛ فعيسىٰ خلقه بهذه الكلمة.

* وقوله: «وروح منه»:

أي: روح من الأرواح التي خلقها، وذلك أنه أرسل الملك إليها: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ [مريم: ١٧-١٩]، فنخ في جيب درعها، فوصلت النفخة إلىٰ رحمها، فخلق الله من تلك النفخة عيسىٰ عليه السلام، فهو كلمة الله؛ أي: المخلوق بكلمة الله.

قال الإمام أحمد في الرد على الجهمية فيما شكت فيه من متشابه القرآن: الكلمة التي ألقاها إلىٰ مريم حين قال له: (كن) فكان عيسىٰ بكن، وليس عيسىٰ هو (كن)، ولكن بـ (كن) كان، فـ(كن) من الله قول، وليس (كن) مخلوقاً، وكذب النصارىٰ والجهمية علىٰ الله في أمر عيسىٰ، وذلك أن الجهمية قالت: عيسىٰ روح الله وكلمته، إلا أن الكلمة مخلوقة، وقالت النصارىٰ: عيسىٰ روح الله من ذات الله، وكلمة الله من ذات الله، كما يقال: إن هذه الخرقة من هذا الثوب. وقلنا نحن: إن عيسىٰ بالكلمة كان، وليس عيسىٰ هو الكلمة. أ. هـ.

وقال ابن كثير في التفسير: خلقه بالكلمة التي أرسل بها جبريل عليه السلام إلىٰ مريم، فنفخ فيها من روحه بإذن ربه عز وجل، فكان عيسىٰ بإذن الله عز وجل، وصارت تلك النفخة التي نفخها في جيب درعها فنزلت حتىٰ ولجت فرجها، بمنزلة لقاح الأب الأم، والجميع مخلوق لله عز وجل، ولهذا قيل لعيسىٰ: إنه كلمة الله وروح منه؛ لأنه لم يكن له أب تولد منه، وإنما هو ناشيء عن الكلمة التي قال له كن فكان، والروح التي أرسل بها جبريل عليه السلام. أ. هـ.

وقال أبي بن كعب: عيسىٰ روح من الأرواح التي خلقها الله عز وجل، واستنطقها بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ [الأعراف: ١٧٢]، بعثه الله إلىٰ مريم، فدخل فيها؛ أي: أن النفخة من الملك بأمر الله تعالىٰ، فإضافته إلىٰ الله تعالىٰ إضافة تشريف وتكريم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالىٰ(١): المضاف إلىٰ الله تعالىٰ إذا كان معنىٰ لا يقوم بنفسه ولا بغيره من المخلوقات، وجب أن يكون صفة لله تعالىٰ قائماً به، وامتنع أن تكون إضافته إضافة مخلوق مربوب، وإن كان المضاف عيناً قائمة بنفسها، كعيسىٰ وجبرائيل عليهما السلام، وأرواح بني آدم، امتنع أن تكون صفة لله تعالىٰ، لأن ما قام بنفسه لا يكون صفة لغيره، لكن الأعيان المضافة إلىٰ الله تعالىٰ علىٰ وجهين:

أحدهما: أن تضاف إليه لكونه خلقها وأبدعها، فهذا شامل لجميع المخلوقات، كقولهم: سماء الله وأرض الله... فجميع المخلوقين عبيد الله، وجميع المال مال الله، وجميع البيوت والنوق لله.

الوجه الثاني: أن يضاف إليه لما خصه به من معنىٰ يحبه ويأمر به ويرضاه، كما خص البيت العتيق بعبادة لا تكون في غيره، وكما يقال عن مال الفيء والخمس: هو مال الله ورسوله، وعلىٰ هذا الوجه فعباد الله هم الذين عبدوه وأطاعوا أمره، فهذه إضافة تتضمن ألوهيته وشرعه ودينه، و تلك إضافة تتضمن ربوبيته وخلقه. أ.هـ.

وعلىٰ هذا فروح الله عيسىٰ إضافته تشريف وتكريم، والله أعلم.

---

(١) انظر كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله مفصلاً في كتابه (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح) (٣/ ٢٤٨).

* وقوله: «وأن الجنة حق، والنار حق»:

أي: جزم بالجنة والنار، وأنهما مخلوقتان موجودتان، واعتقد أن الجنة دار النعيم التي أعدها الله لمن آمن به واتبع شرعه، وعبده وحده مخلصاً له الدين، وأن النار هي دار العذاب والنكال التي خلقها الله وأعدها لمن كفر به وعبد غيره، وأعلن المعصية والخروج عن شرع الله تعالىٰ.

وحمله هذا الاعتقاد علىٰ أنْ عمل الصالحات، وأكثر من القربات، ونوافل العبادات وحافظ علىٰ الفرائض والسنن التي وعد الله أهلها بالثواب الجزيل، وابتعد عن المحرمات وكبائر الذنوب التي توعد الله عليها بالنار والعذاب الأليم، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]؛ أي: هيئت وخلقت لهم، وقال تعالىٰ: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١]؛ أي: خلقت لهم، فهما موجدتان الآن؛ خلافاً لبعض المبتدعة.

* وقوله: «أدخله الله الجنة على ما كان من العمل»:

وفي رواية: «أدخله الله من أي أبواب الجنة الثمانية شاء»(١).

وهذا جواب الشرط في أول الحديث، والمعنىٰ: أن من اعتقد معنىٰ الشهادتين حقّاً، وأيقن بما ذكر عن عيسىٰ، وجزم بوجود الجنة والنار كما أخبر الله عنهما، فإنه ولابد يعمل لما بعد الموت، ويكثر من الصالحات، فيوحد ربه ويخلص له الدين، ويصد بقلبه وقالبه عن غير الله تعالىٰ، فيكون ذلك سبباً قويّاً في دخوله الجنة التي أيقن بها، وعمل لربه راجياً دخولها، والله أعلم.

---

(١) هذه الرواية أخرجها البخاري برقم (٣٤٣٥)، ومسلم برقم (٢٨).

■ **قوله: [«ولهما، في حدث عِتْبان: «فإن الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله، يبتغي بذلك وجه الله»[(١)]]:**

هذا طرف من حديث طويل رواه البخاري ومسلم عن عتبان بن مالك الأنصاري رضي الله عنه لما زاره النبي ﷺ ليصلي في بيته، فاجتمع عنده بعض قومه، فذكروا رجلاً واتهمه بعضهم بالنفاق، فأنكر ذلك النبي ﷺ وأخبر بأنه قد قال: لا إله إلا الله.. الخ.

وقد كثرت أحاديث في أن من أتىٰ بالشهادتين حرمه الله علىٰ النار، وهذا من فضل التوحيد وفوائده؛ أي: من أتىٰ بالتوحيد وأخلص فيه لله تعالىٰ حرمه الله علىٰ النار.

ولاشك أن هذا الوعد بالنجاة من النار، وتحريمه عليها؛ إنما هو في حق من أتىٰ بالشهادتين عن معرفة ويقين، وإخلاص وصدق؛ أي: من اجتمعت فيه شروط لا إله إلا الله، وهي:

* (العلم): بمعناها، وبما تدل عليه من الإخلاص، وإفراد الله تعالىٰ بالعبادة.

* ثم (اليقين): بدون شك، أو تردد في صحة ما دلت عليه من التوحيد.

* ثم التقرب إلا الله تعالىٰ بذلك، بأن يعبد الله (**مخلصاً**) له الدين، ويتقرب إليه وحده بأنواع العبادة دون ما سواه، ويصد بقلبه وقالبه عن غير ربه تعالىٰ.

* ولابد من (الصدق) في قول الشهادتين، بخلاف من يقول بلسانه ما ليس في قلبه، كالمنافقين الذين قال الله عنهم: ﴿**وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ**﴾

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٢٥، ٦٦٧، ٦٨٦، ٦٤٢٣، ٦٩٣٨). ومسلم برقم (٣٣، ٦٥٧).

[المنافقون: ١]، وأخبر بأن: ﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: ٢٢]، وأنهم مستهزؤن بكلامهم مع المؤمنين.

* ثم لابد من (المحبة) لما تدل عليه كلمة الإخلاص، وهي تستلزم محبة الله تعالى، ومحبة نبيه ﷺ، ومحبة دين الإسلام، فإن من أحب الله لهج بذكره، والتذ بعبادته، وآثرها على حظوظ نفسه وشهوات بدنه.

* ثم لابد من (الانقياد) لأمر الله تعالى، وانسياق النفس إلى الطاعات، بامتثال ما أمر به، وترك ما نهى عنه.

* وكذا لابد من (تقبل) كل من جاء عن الله تعالى من الأوامر بفعلها، والنواهي بتركها، وكل هذه اللوازم من آثار الإخلاص، وهو معنى قوله ﷺ في هذا الحديث: «**يبتغي بذلك وجه الله**».

وقد علم أن كثيراً ممن يقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله، قد يدخلون النار، ويحترقون فيها، بسبب ضعف إيمانهم، ودليل ذلك ما ورد في حديث الشفاعة: «**أن الله يأمر بإخراج من قال: لا إله إلا الله، وفي قلبه مثقال دينار من إيمان**»، ثم: «**من في قلبه مثقال شعيرة من إيمان**»، إلى أن قال: «**من في قلبه أدنى مثقال ذرة أو خردلة من إيمان**»(١).

وذكر في الأحاديث أنهم يعرفون بآثار السجود، وأن الله حرم على النار أن تأكل آثار السجود(٢)، وهو دليل على أن كثيراً ممن يقول: (لا إله إلا الله)،

(١) حديث الشفاعة أخرجه البخاري برقم (٧٥١٠)، ومسلم برقم (١٩٣)، عن أنس بن مالك رضي الله عنه.
وأخرجه البخاري برقم (٤٧١٢)، ومسلم برقم (١٩٤)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.
وأخرجه مسلم برقم (١٩٥)، عن أبي هريرة وحذيفة رضي الله عنهم.

(٢) ورد ذلك في حديث الرؤية الطويل عندما سأل الصحابة رضي الله عنهم الرسول ﷺ هل نرى ربنا يوم القيامة؟
أخرجه البخاري برقم (٨٠٦) ومسلم برقم (١٨٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ويصلون، يدخلون النار، ويبقون فيها حتى يصيروا كالحمم، وما ذاك إلا لنقص التوحيد معهم، وضعف ابتغاء وجه الله بهذه الكلمة.

فلذلك يقول العلماء: إن لا إله إلا الله قد قيدت بالقيود الثقال، فإن الكثير في هذه الأزمنة يقولونها كثيراً ثم يغشون المحرمات، ويتركون الواجبات، ويقترفون كبائر الذنوب، ولا يتحاشون من فعل المعاصي، إما تقليداً ومحاكاة لجماهير الناس من حولهم، وإما انسياقاً لشهوات البطن والفرج، وإما للغفلة ونسيان الدار الآخرة، حيث غاب عن أعينهم ثم عن قلوبهم ما أخبر الله به من الوعد والوعيد، والبعث والنشور، والحساب الشديد، وما في ذلك اليوم من الهول والفزع الأكبر، وإحصاء الأعمال صغيرها وكبيرها، مع أنهم يقرؤن ويسمعون قوله الله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقوله تعالى عن أهل الآخرة: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: ٤٩]، وقوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧٨].

ثم يعملون الكبائر ويصرون عليها، كما هو المشاهد في أهل زماننا، حتى لقد تركوا الصلوات وجاهروا بالأكل في نهار رمضان، حتى بتناول المسكرات، أو فعل فاحشة الزنا وهم صيام، بل هناك من يدعو إلى التحرر من التزام شعائر الدين، ويعطون أنفسهم حرية التصرف في تناول ما يشتهون، وأخذ ما طاب لهم من الدنيا، دون التقيد بالشريعة، ويدَّعون أن الدين لا دخل له في عاداتهم، ومكاسبهم ومشاربهم، ومعاملاتهم المالية، وموالاتهم ومعاداتهم، فكل ذلك

يفعلون منه ما طاب لهم، دون الرجوع إلىٰ الأحكام السماوية فهؤلاء قد عبدوا دنياهم، واتخذ كل منهم إلاهه هواه، فلا يهوىٰ شيئاً إلا ركبه، وعليهم تنطبق أحاديث الوعيد، كقوله ﷺ: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن**»(١)، وحديث: «**من غشنا فليس منا**»(٢)، وحديث: «**لا يدخل الجنة نمام**»(٣)، و «**لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر**»(٤)، ونحوها من الأحاديث الصحيحة في الوعيد علىٰ بعض المعاصي.

حيث أن الغالب عليهم التهاون والاستخفاف بالوعيد، فيكون أحدهم كالمستحل لما حرم الله، والمغير شرع الله، والمستحق بالوعيد والتهديد، فلا يدخل في أحاديث الوعد بالنجاة من النار إلا بالتوبة الصادقة، والبعد عن الذنوب، وسؤال الله عفوه ومغفرته ورحمته، ولزوم السنة، والمحافظة علىٰ الأعمال الصالحة التي هي من حق لا إله إلا الله، ومما تستدعيه من قائلها، حتىٰ يموت عليها، فهو الذي حرمه الله علىٰ النار.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٥٢٥٦). ومسلم برقم (٥٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) جزء من حديث أخرجه مسلم برقم (١٠١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، و لفظه: «**من حمل علينا السلاح فليس منّا، ومن غشنا فليس منّا**».

وأخرجه مسلم برقم (١٠٢). من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، بلفظ: «أن رسول الله ﷺ مرّ علىٰ صبرة طعام، فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللاً، فقال: «**ما هذا يا صاحب الطعام؟**» قال: أصابته السماء يا رسول الله. قال: «**أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس، من غش فليس مني**».

(٣) أخرجه مسلم برقم (١٠٥)، من حديث حذيفة رضي الله عنه.

وأخرجه البخاري برقم (٥٧٠٩). ومسلم برقم (١٠٥)-(١٦٩)، بلفظ: «**لا يدخل الجنة قتات**».

(٤) أخرجه مسلم برقم (٩١)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

■ قوله: [وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ، قال: «قال موسى: يا رب علمني شيئاً أذكرك وأدعوك به، قال: قل يا موسى: لا إله إلا الله، قال: كل عبادك يقولون هذا، قال: يا موسى لو أن السموات السبع وعامرهن غيري، والأرضين السبع في كفة، ولا إله إلا الله في كفة، مالت بهن لا إله إلا الله»[1]، رواه ابن حبان، والحاكم وصححه]:

ومطابقته للباب أن فيه من فضائل التوحيد أنه يثقل بالمخلوقات، ويرجح

---

(١) أخرجه ابن حبان برقم (٢٣٢٤)، والحاكم في المستدرك (١/ ٥٢٨)، والنسائي في عمل اليوم والليلة برقم (٨٣٤، ١١٤١)، وأبو نعيم في الحلية (٨/ ٣٢٨)، والبيهقي في الأسماء والصفات (١٠٢)، وأبو يعلىٰ كما في المجمع (١٠/ ٨٢).
والحديث صححه الحاكم ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رجاله وثقوا علىٰ ضعف فيهم وفيه دراج بن سمعان أبو السمح وهو ضعيف، وصححه الحافظ ابن حجر في الفتح (١١/ ٢٠٨)، وقال المنذري في الترغيب والترهيب(٣/ ٢٢٢): وقال الحاكم صحيح الإسناد.
وضعف إسناده الأرناؤوط في تحقيق شرح السنة (٥/ ٥٤).
وقد جاء الحديث من طريق أخرىٰ موقوفاً علىٰ كعب الأحبار، أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (١٠/ ٣٠٤) رقم (٩٥١٢).
ويشهد له حديث عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ: «إن نوحاً عليه السلام قال لابنه عند موته: آمرك بلا إله إلا الله، فإن السموات السبع، والأرضين السبع، لو وضعت في كفة، ولا إله إلا الله في كفة، رجحت بهن لا إله إلا الله، ولو أن السموات السبع والأرضين السبع، كن حلقة مبهمة قصمتهن لا إله إلا الله».
أخرجه أحمد (٢/ ١٧٠، ٢٢٥). والبخاري في الأدب المفرد (٥٤٨) والحاكم (١/ ٤٨، ٤٩) والبيهقي في الأسماء والصفات (ص١٠٣).
قال ابن كثير في «قصص الأنبياء» (ص٩٤): وهذا إسناد صحيح ولم يخرجوه، وقال الهيثمي في المجمع (٤/ ٢٢٠): ورجال أحمد ثقات، وقال أحمد شاكر في تحقيق المسند (٦٥٨٣): إسناده صحيح. وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد رقم (٤٢٦)، وانظر السلسلة الصحيحة رقم (١٣٤).
وله شاهد آخر في حديث البطاقة، أخرجه أحمد ٢/ ٢١٣، ٢٢١)، والترمذي رقم (٢٦٣٩)، وابن ماجه رقم (٤٣٠٠)، والحاكم (١/ ٦، ٥٢٩). وابن حبان رقم (٢٢٥)، قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، وبمثله قال البغوي، وقال الحاكم: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي، وقال أحمد شاكر رقم (٦٩٩٤): إسناده صحيح.

بكل من في الأرض والسموات، وهذه فائدة عظيمة، وهي أن كلمة التوحيد ترجح بجميع الأعمال، ولكن من شرط رجحانها أن تصدر من القلب، وأن تكون عن يقين وعقيدة صادقة، ومعرفة وإخلاص، فإن قالها موقناً بها مخلصاً لله الإلهية صحيح المعرفة، أخرجت من قلبه كل ما سوىٰ الله، وعظم قدر ربه في قلبه، وهانت عليه الدنيا وأهلها، وامتلأ قلبه بتعظيم ربه، فأحبه ورجاه، وتوكل عليه واستعان به، وعبده حق العبادة، وصد بقلبه عن جميع المخلوقات، فمتىٰ ختم حياته بهذه الكلمة مع هذا الاعتقاد فإنها تمحو كل ذنب، وتزيل أثر الغفلة والسيئات، ولهذا ورد قوله ﷺ: **«من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة»**(١)؛ أي: مع التوحيد والعقيدة الصحيحة، وصدق الإيمان، ويقين المعرفة، وإن لم تكن كذلك فإنها لا ترجح بسيئاته، فإن كثيراً ممن يقولها يخف ميزانه، حيث لم تقع من قلبه موقعاً مؤثراً.

وقد ورد في السنن عن عبد الله بن عمرو بن العاص قصة صاحب البطاقة التي رجحت بسيئاته، وهي تسع وتسعون سجلاً، كل سجل منها مد البصر، فأخرجت له بطاقة فيها الشهادتان فثقلت البطاقة، وطاشت السجلات(٢)، ولا يثقل مع اسم الله شيء.

* **أما قول موسى: «يا رب علمني شيئاً أذكرك وأدعوك به»:**

المراد بالذكر: كل شيء يُذَكِّرُ بالله تعالىٰ من الأقوال والأعمال الظاهرة

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (٣١١٦)، والحاكم في المستدرك (١ / ٣٥١). قال الحاكم: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي. وحسنه الأرناؤوط في شرح السنة (٥ / ٢٩٦).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢ / ٢١٣). والترمذي برقم (٢٦٣٩). وابن ماجه برقم (٤٣٠٠). من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنه. قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب. وقال أحمد شاكر في المسند (٦٩٩٤): إسناده صحيح.

والباطنة. وذكر الله تعالىٰ يكون بالقلب واللسان والجوارح، وقد قال تعالىٰ: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وقال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١]، وفي الحديث القدسي: **«من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم»**(١).

وموسىٰ طلب كلاماً يذكر به ربه ليحصل علىٰ ثواب الذاكرين، وأما الدعاء فهو في الأصل الطلب والسؤال، وقد يراد به دعاء العبادة.

ثم إن الله تعالىٰ أخبره وأمره بقول: لا إله إلا الله، فإنها جامعة بين الذكر والدعاء، فهي تذكر بعظمة الله وجلاله، وكبريائه وألوهيته، وما يستحق من التعظيم، وأنه هو الإله الحق لا إله إلا هو، ثم هي أيضاً دعاء لله، وطلب لثوابه، فإن الذاكر لله والموحد له يحصل له ثواب السائلين، كما ورد في الحديث القدسي: **«من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطى السائلين»**(٢)، فدل علىٰ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٢/ ٣٥٤). من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي برقم (٢٩٢٦)، والدارمي برقم (٣٣٥٧). من حديث أبي سيعد الخدرىٰ رضي الله عنه.

قال ابن حجر في فتح الباري (٩/ ٦٦): «رجاله ثقات إلا عطية العوفي، ففيه ضعف».

وأخرجه البخاري في تاريخه (١/ ٢/ ١١٥). والبيهقي في الشعب (١/ ٣٣٧). وابن شاهين في الترغيب (٢٥/ ٢). والبخاري في خلق أفعال العباد برقم (٥٤٤). وعلقة ابن الجوزي في الموضوعات (٣/ ١٦٥) عن ابن حبان، وقد أخرجه ابن حبان في الضعفاء (٢/ ٣٧٦). عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وحسنه ابن حجر في اللآلئ للسيوطي (٢/ ٣٤٢). وقد حسنه محقق كتاب خلق أفعال العباد للبخاري.

وقد أخرجه البيهقي في الشعب (١/ ٣٣٧) عن جابر رضي الله عنه، وأخرجه ـ أيضاً ـ أبو نعيم في الحلية (٧/ ٣١٣)، من حديث حذيفة رضي الله عنه.

أن الانشغال بالتهليل ونحوه يقوم مقام الدعاء.

* **أما قول موسى: «يا رب كل عبادك يقولون هذا»:**

أي: أن هذه الكلمة مشهورة يذكرون الله بها، ويوحدونه بمعناها، وقد ورد في بعض روايات الحديث أن موسى قال: «يا رب إنما أريد شيئاً تخصني به»، وذلك لما له من الفضل والمكانة والرفعة، فأراد أن يقابل ذلك بزيادة الشكر لربه، ويعمل عملاً يفوق به سائر الأمة، ولكن ربه سبحانه أخبره بفضل هذه الكلمة وعظمة شأنها، وأن السموات السبع وعامرهن؛ أي: من يعمرهن، ومن فيهن من الملائكة والخلق غير الله تعالى، والأرضين السبع، جعلن في إحدى كفتي الميزان، وجعلت كلمة لا إله إلا الله في الكفة الثانية لرجحت لا إله إلا الله بهذه المخلوقات، مع عظمتها واتساعها، ولكن ذلك خاص بمن تلفظ بها عن عقيدة وإخلاص، وامتلأ بها قلبه، ودان لله بما تدل عليه.

وهذا الحديث رواه ابن حبان في صحيحه كما في الإحسان (٥ / ٣) برقم (٦١٨٥) بمعناه، وفيه: «إنما أريد شيئاً تخصني به».

وكذا رواه الحاكم في المستدرك في كتاب الدعاء، وصحح إسناده ووافقه الذهبي، وكذا رواه النسائي في عمل اليوم والليلة، والبغوي في شرح السنة وغيرهم.

■ **قوله: [وللترمذي وحسنه، عن أنس: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: يا ابن آدم! إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً، لأتيتك بقرابها مغفرة»**(١)]:

ودلالته على الباب في أن التوحيد يكفر الذنوب، وهذه من أجَلِّ فوائد التوحيد، حيث أخبر أن العبد لو عمل من الذنوب ما يقارب ملء الأرض، ثم خُتِمَ له بالتوحيد الخالص السالم من الشرك؛ فإن الله تعالى يغفر له تلك الذنوب، ويتلقاه برحمته.

والمراد (بقراب الأرض) هو: ملؤها أو ما يقارب ملأها.

* **وقوله: «ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً»:**

وهذا شرط في حصول المغفرة وهو الموت على التوحيد، والسلامة من الشرك صغيره وكبيره، فإن من مات وهو يشرك بالله شيئاً دخل النار، فإن كان شركاً أكبر فهو مخلد فيها، وإن كان أصغر ومعه حسنات ماحية كثيرة فإنها

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٣٥٤٠) وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.
وأخرجه الدارمي برقم (٢٧٨٨) وأحمد (٥/ ١٥٣، ١٥٤، ١٧٢)، وابن ماجه برقم (٣٨٢١)، عن أبي ذر رضي الله عنه.
قال ابن رجب في جامع العلوم والحكم ص (٣٨١): إسناده لا بأس به، وسعيد بن عبيد هو الهنائي، قال أبو حاتم: شيخ، وذكره ابن حبان في الثقات، ومن زعم أنه غير الهنائي فقد وهم. أ.هـ.
وأخرجه الطبراني في الكبير برقم (١٢٣٤٦) وفي الصغير برقم (٨٢٠) وفي الأوسط برقم (٤٦٢) عن ابن عباس.
قال الهيثمي (١٠/ ٢١٥): وفيه إبراهيم بن إسحاق الصيني وقيس بن الربيع وكلاهما مختلف فيه، وبقية رجاله رجال الصحيح. أ.هـ
والحاصل أن الحديث حسن بتمامه كما قال السخاوي في تخريج الأربعين كما في الفتوحات (٧/ ٢٨٣). وحسنه ابن حجر في الفتوحات ـ أيضاً ـ.

تخففه، فلا يخلد في النار إن دخلها، فلا بد في حصول المغفرة من السلامة من نوعي الشرك، وذلك شرط ثقيل، لا يحصل إلا لمن أخلص وجهه لله، وعبده وحده، ولم يشرك به شيئاً، ومات على هذا التوحيد، فإن الله تعالى يغفر له ذنوبه، ولو كانت مثل زبد البحر، و يوفقه للحسنات، وعمل الصالحات، وهو دليل على أن التوحيد الخالص يكفر جميع الذنوب، ولا ينافيه الإشراك الذي يحبط الأعمال.

وفي هذه الأحاديث:

* **الرد على الخوارج الذين يكفرون بالذنوب، ويخرجون المسلم بها من** الإيمان، ولو كان موحداً.

* **والرد على المعتزلة الذين يخلدون العصاة في النار كالخوارج، إلا أنهم** يجعلونه في الدنيا في منزلة بين الكفر والإيمان.

والصواب: قول أهل السنة، وهو عدم التكفير بالذنوب، ولو بلغت عنان السماء، وأنها تحت المشيئة، فإن شاء الله غفرها، وإن شاء عذب بها، ثم مآل الموحدين إلى الجنة، والله أعلم.

■■■■■

[٢]

باب:
من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٩].

عن حُصين بن عبد الرحمن، قال: كنت عند سعيد بن جبير، فقال: أيكم رأى الكوكب الذي انقضَّ البارحة؟ فقلت: أنا، ثم قلت: أما إِني لم أكن في صلاة، ولكني لُدِغت. قال: فماذا صنعت؟ قلت: ارتقيتُ، قال: فما حملك على ذلك؟ قلت: حديث حدثناه الشَّعبي، قال: وما حدثكم؟ قلت: حدثنا عن بريدة بن الحُصَيْب أنه قال: «لا رقية إلا من عينٍ أوحُمَة»، قال: قد أحسن من انتهى إِلى ما سمع، ولكن حدثنا ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «عرضت عليَّ الأمم، فرأيت النبي ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد، إِذ رفع لي سواد عظيم، فظننت أنهم أمتي، فقيل لي: هذا موسى وقومه، فنظرت فإِذا سواد عظيم، فقيل لي: هذه امتك، ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب»، ثم نهض فدخل منزله، فخاض الناس في أولئك، فقال بعضهم: فلعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ، وقال بعضهم: فلعلهم الذين وُلدُوا في الإِسلام فلم يشركوا بالله شيئاً، وذكروا أشياء، فخرج عليهم رسول الله ﷺ فأخبروه، فقال: «هم الذين لا يسترقون، ولا يكتوون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون». فقام عُكَّاشة بن مِحْصَن، فقال: يا رسول الله! ادع الله أن يجعلني منهم، قال: «أنت منهم»، ثم قام رجل آخر، فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: «سبقك بها عُكَّاشة».

*** فيه مسائل:**

الأولى: معرفة مراتب الناس في التوحيد.

الثانية: ما معنى تحقيقه.

الثالثة: ثناؤه سبحانه على إبراهيم، بكونه لم يك من المشركين.

الرابعة: ثناؤه على سادات الأولياء بسلامتهم من الشرك.

الخمسة: كون ترك الرقية والكي من تحقيق التوحيد.

السادسة: كون الجامع لتلك الخصال هو التوكل.

السابعة: عمق علم الصحابة لمعرفتهم أنهم لم ينالوا ذلك إلا بعمل.

الثامنة: حرصهم على الخير.

التاسعة: فضيلة هذه الأمة بالكمية والكيفية.

العاشرة: فضيلة أصحاب موسى.

الحادية عشر: عرض الأمم عليه عليه الصلاة والسلام.

الثانية عشر: أن كل أمة تحشر وحدها مع نبيها.

الثالثة عشرة: قلة من استجاب للأنبياء.

الرابعة عشر: أن من لم يحبه أحدٌ يأتي وحده.

الخامسة عشر: ثمرة هذا العلم، وهو عدم الاغترار بالكثرة، وعدم الزهد في القلة.

السادسة عشرة: الرخصة في الرقية من العين والحمة.

السابعة عشرة: عمق علم السلف، لقوله: «قد أحسن من انتهى إلى ما سمع، ولكن كذا وكذا»، فعلم أن الحديث الأول لا يخالف الثاني.

الثامنة عشرة: بعد السلف عن مدح الإنسان بما ليس فيه.

التاسعة عشرة: قوله: **«أنت منهم»**، علَمٌ من أعلام النبوة.

العشرون: فضيلة عكاشة.

الحادية عشرة: استعمال المعاريض.

الثانية عشرة: حسن خلقه ﷺ.

■ ■ ■ ■ ■

•• الشرح ••

باب:
من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب

هذا الباب متصل بالذي قبله، وفيه فضل التوحيد.

وقد تقدم من فضل التوحيد أنه سبب في دخول الجنة، والتحريم على النّار، وأنه يثقل بالأعمال، ويرجح بها، وأنه يكفر الخطايا، وأنه سبب للأمن التام، والاهتداء التام؛ إذا كان توحيداً تامّاً.

وفي هذا الباب أنه يسبب دخول الجنة بلا حساب ولا عذاب، وهذه الفضيلة لا تتأتى إلا لمن حقق التوحيد تحقيقاً كاملاً.

ولكن ما معنى تحقيق التوحيد؟!

يقول الشيخ عبد الرحمن بن حسن رحمه الله في فتح المجيد: «تحقيقه: تخليصه وتصفيته من شوائب الشرك، والبدع والمعاصي»[(١)]؛ أي: إبعاده عن الشوائب، والشوائب هي: الأخلاط التي تمازجه فتغيرّ صفوه؛ لذا يجب تصفيته من تلك الأخلاط؛ لأن الشرك ينافي التوحيد فهو ضده؛ ولأن البدع تقدح في التوحيد؛ فلا يصبح كاملاً، وهكذا المعاصي بأنواعها تنقص ثواب التوحيد.

❊ **فمن تحقيق التوحيد:**

١ـ إجتناب الشرك صغيره وكبيره.

٢ـ اجتناب البدع والمحدثات في الدين.

٣ـ اجتناب المعاصي صغيرها وكبيرها.

---

(١) انظر فتح المجيد (١/ ١٥٥)، تحقيق الوليد بن فريان.

فبذلك يكون محققاً للتوحيد.

وقد ذكر المؤلف رحمه الله في هذا الباب آيتين وحديثاً:

■ **الآية الأولى قوله: [قال الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾** [النحل: ١٢٠]]:

ثم قال تعالى مكملاً الآيات: **﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٢١) وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٢٢) ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾** [النحل: ١٢٠-١٢٣].

وصف الله إبراهيم عليه السلام في هذه الآيات بخمس صفات تدل على تحقيقه التوحيد، ثم ذكر ثوابه وجزاءه عليها بخمسة أشياء؛ تدل على أنه من السابقين إلى الجنة، بغير حساب ولا عذاب.

والصفات التي تحققت في إبراهيم الخليل عليه السلام، وهي من كمال التوحيد هي:

* **الصفة الأولى:**

أنه **﴿كَانَ أُمَّةً﴾**؛ أي: قدوة في الدين، فكانت أفعاله حسنة يُهتدىٰ به فيها، قال تعالى: **﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾** [البقرة: ١٢٤]؛ أي: قدوة وأسوة.

* **الصفة الثانية:**

أنه كان: **﴿قَانِتًا﴾**، والقانت هو: الخاشع الذليل المطيع طاعة مستمرة، والقنوت: دوام الطاعة، قال تعالى: **﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾** [البقرة: ٢٣٨]؛ أي: خاشعين مطيعين، وقال تعالى: **﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ﴾** [الزمر: ٩]، وقال

تعالىٰ: ﴿وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ﴾ [الاحزاب: ٣٥]، فالقانت هو: المستمر في العبادة والخشوع لله تعالىٰ، ثم قال: ﴿لِلَّهِ﴾، أي: أنه ليس قانتاً لملك ولا لسلطان ولا لتاجر ولا لأحد من دون الله، بل إنه قانت لله وحده.

* **الصفة الثالثة:**

أنه كان ﴿حَنِيفًا﴾، وأصل الحَنَفْ: الميل، ومنه الأحنف الذي في إحدىٰ رجليه ميل أو في كلتا رجليه ميل. وفي تفسير الحنيف قولان:

القول الأول: الحنيف: هو المقبل علىٰ الله، المائل عما سواه.

القول الثاني: الحنيف: هو المائل عن الشرك قصداً إلىٰ التوحيد.

وكلاهما صحيح، فهما تعريفان متلازمان.

فالحنيف هو: المائل عما عليه أكثر الناس من الانحراف؛ لأن الغالب علىٰ الناس هو الانحراف، والمستقيمون قليل، فهو مائل عن الأنداد، وعن الأضداد، وعن الشواغل ونحوها.

وقد أمر الله تعالىٰ بذلك، فقال تعالىٰ: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥]، وسمىٰ إبراهيم عليه السلام حنيفاً؛ لأنه مال عن طريقة قومه.

* **الصفة الرابعة:**

أنه: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾؛ أي: ليس منهم لا بالأقوال ولا بالأفعال، بخلاف من كثّر سوادهم وزعم أنه مسلم؛ بل هاجر عليه السلام، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات: ٩٩]، وخالف ما كان عليه قومه، فمال عن الشرك؛ فدلّ علىٰ أنه حقق التوحيد.

* الصفة الخامسة:

أنـه: ﴿شَاكِرًا لأَنْعُمِهِ﴾؛ أي: معترفاً بالنعم التي أنعم الله بها عليه ومِنْ ثم شكرها.

والشكر: هو الاعتراف بالنعم والحرص على استعمالها في طاعة الله.

وهذه الصفات الخمس من تأملها يجد فيها تحقيق التوحيد، ولو لم يكن إلا قوله: ﴿قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، فكل ذلك فيه تحقيق التوحيد.

* وأما الثواب والجزاء لمن حقق هذه الصفات الخمس فيكون بخمسة أشياء:

الأول: قوله: ﴿اجْتَبَاهُ﴾، أي: اصطفاه واختاره، وهذه منّة من الله عليه.

الثاني: ﴿وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، والهداية: بيان الحق والتوفيق لسلوكه.

الثالث: ﴿وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾؛ أي: أن الله أنعم عليه في الدنيا وأعطاه من الولد والمال ونحوه.

الرابع: ﴿وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾، وهذا ثواب عظيم يقتضي سبقه إلى الجنة ودخوله بغير حساب.

الخامس: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾، فقد جعل الله له ذكراً حسناً واستجاب لقوله: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤]، فمن ثوابه أن الله أمر نبيه محمداً ﷺ أن يقتدي به باتباع ملته.

■ الآية الثانية: قوله: [وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٩]]:

في هذه الآية بيان أن من صفات المؤمنين أنهم يتجنبون الشرك بجميع أنواعه، وقد قال تعالى قبلها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ

هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ﴾، ثم قال بعدها: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧ ـ ٦١].

وهذه الآيات في جملتها فيها تحقيق التوحيد:

* فقوله تعالىٰ: ﴿الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾؛ الخشية هي: شدة الخوف، والشفقة: الخوف، والمعنىٰ أنهم خائفون من الله، وذلك تحقيق للتوحيد.

* وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: صدّقوا بآيات ربهم فهم محققون للتوحيد.

* وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ﴾؛ أي: يتجنبون الشرك بجميع أنواعه.

* وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا﴾؛ أي: يتقربون بما تقربوا به من العبادات.

* وقوله: ﴿وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾؛ أي: خائفه.

* وقوله: ﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾؛ فهم: يخشون ألا تقبل منهم أعمالهم.

هكذا فسر النبي ﷺ هذه الآية، كما في حديث عائشة رضي الله عنها[1].

---

(١) يشير الشيخ إلىٰ حديث عائشة رضي الله عنها، قالت: سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَّقُلُوبُهُمْ﴾ قالت عائشة: هم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: «لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون، وهم يخافون أن لا يقبل منهم، أولئك الذين يسارعون في الخيرات».
أخرجه الترمذي برقم (٣١٧٥)، وابن ماجه برقم (٤١٩٨)، وأحمد في المسند (٦ / ١٥٩، ٢٠٥)، وأورده ابن كثير في تفسيره (٣ / ٢٤٨). وصححه الألباني في السلسلة رقم (١٦٢)، وانظر المشكاة رقم (٥٣٥٠)، والطحاوية رقم (٣٨٢)، والإيمان ص (٤٢٨).

فمن كانت هذه صفاتهم كان ثوابهم: ﴿أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾؛ فدل على أن من ثوابهم الإسراع في الخيرات، ومن الخيرات الجنة، وأنهم يسبقون إليها؛ أي: يدخلونها بغير حساب ولا عذاب، كما حكى عن إبراهيم ـ عليه السلام ـ ذلك.

■ **أما الحديث: قوله: [عن حُصين بن عبد الرحمن، قال: كنت عند سعيد بن جبير، فقال: أيكم رأى الكوكب الذي انقضَّ البارحة؟ فقلت: أنا، ثم قلت: أما إني لم أكن في صلاة، ولكني لُدِغت. قال: فماذا صنعت؟ قلت: ارتقيتُ، قال: فما حملك على ذلك؟ قلت: حديث حدثناه الشَّعبي، قال: وما حدثكم؟ قلت: حدثنا عن بريدة بن الحُصَيْب أنه قال: «لا رقية إلا من عينٍ أو حُمَة»[1]، قال: قد أحسن من انتهى إلى ما سمع، ولكن حدثنا ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «عرضت عليَّ الأمم، فرأيت النبي ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد، إذ رفع لي سواد عظيم، فظننت أنهم أمتي، فقيل لي: هذا موسى وقومه، فنظرت فإذا سواد عظيم، فقيل لي: هذه أمتك، ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب»، ثم نهض فدخل منزله، فخاض الناس في أولئك، فقال بعضهم: فلعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ، وقال بعضهم: فلعلهم الذين وُلِدُوا في الإسلام فلم يشركوا بالله شيئاً، وذكروا أشياء، فخرج عليهم رسول الله ﷺ فأخبروه، فقال: «هم الذين: لا يسترقون، ولا يكتوون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون». فقام عُكَّاشة بن مِحْصَن، فقال: يا رسول الله! ادع الله أن يجعلني منهم، قال: «أنت منهم»، ثم قام رجل آخر، فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: «سبقك بها عُكَّاشة»[2]]:**

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٤٣٦، ٤٣٨، ٤٤٦)، والترمذي برقم (٢٠٥٧)، وأبو داود برقم (٣٨٨٤)، عن عمران بن حصين.
وأخرجه أحمد (١/ ٢٧١٠)، وابن ماجة برقم (٣٥١٣) عن حصين بن عبدالرحمن.
قال الهيثمي: رجال أحمد ثقات، وقال أحمد في تحقيق المسند (٢٤٤٨): إسناده صحيح.

(٢) أخرجه البخاري برقم (٥٧٠٥، ٥٧٥٢) مطولاً، وبرقم (٣٤١٠، ٦٤٧٤، ٦٥٤١) مختصراً، ومسلم برقم (٢٢٠).

في هذا الحديث فوائد وفضائل كثيرة، وأهم هذه الفضائل أن من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب ولا عذاب.

قال حصين بن عبد الرحمن في هذا الحديث: كنت جالساً عند سعيد بن جبير العالم المشهور، التابعي، فقال سعيد بن جبير: أيكم رأىٰ الكوكب الذي انقض البارحة(١)، أي: الذي رُمي تلك الليلة التي هم في صباحها؟ والكوكب هو واحد الكواكب، وهي النجوم.

والغالب أنه لا يكون في ذلك الوقت أحد منتبه إلا إنسان يتهجد، فقال الراوي حصين: أنا قد رأيته؛ ولكنه خاف علىٰ نفسه أن يتوهم الناس أنه كان يصلي، فكأنه يرائي بأعماله فيحبط عمله، فقال: لا تعتقدوا أني كنت أصلي في ذلك الوقت، فما أنا من أهل هذا الفعل، إنما قمت في ذلك الوقت؛ لأنني لدغت فكنت أعالجه، واللدغ هو: اللسع من ذوات السموم، إما حيّة أو عقرب.

فسأله سعيد بن جبير: فماذا صنعت؟ أي: بماذا عالجتها؟ فقال: ارتقيت: أي: طلبت من يرقيني فيقرأ علىٰ اللسعة؛ لأنني لست مِمّنْ يقرأ عليها، وهذه القراءة تسمىٰ الرقية. يعني: عالجتها بالرقية.

فسأله سعيد عن الدليل، فقال: فما حملك علىٰ ذلك؟

فقال حصين: حديث حدثناه الشعبي.

فقال سعيد: وما حدثكم؟

قال حصين: حدثنا عن بريدة بن الحصيب، أنه قال: **«لا رقية إلا من عين أو حمة»**.

عندها قال سعيد، فذكر الحديث..... إلخ.

---

(١) قال الشيخ ابن جبرين: قوله: البارحة: هي أقرب ليلة ماضية، يقولون: البارحة إذا كان آخر النهار بعد الزوال. أما إذا كان قبل الزول فيسمونها الليلة لقربها.

وقوله: «**لا رقية إلا من عينٍ أو حُمَة**».

المعنىٰ: أنفع ما تكون الرقية إذا كانت رقية من عين أو حمة، فأما غيرها فالرقية جائزة ونافعة؛ ولكن لا تؤثر كما توثر في العين والحمة.

وقد ثبت جواز الرقية في غير العين والحمة، وثبت أن النبي ﷺ رقىٰ رجلاً مصروعاً[1]، وهو الذي يصيبه الصرع: أي: الجنون؛ فتجوز الرقية من الأمراض كلها، لكن أنفع ما تكون من العين؛ أي: النظرة، والحمّة، أي: اللسعة.

وكان العرب قبل الإسلام يستعملون الرقىٰ، وقد ذُكرت في قوله تعالىٰ: ﴿**كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ۝٢٦ وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٖ**﴾ [القيامة: ٢٦، ٢٧]؛ أي: هل من راقٍ يرقي هذا المريض؟

وقد أقرها الإسلام، فقال النبي ﷺ: «**لا بأس بالرقى ما لم تكن شركاً**»[2]، فيجوز للإنسان أن يستعمل الرقية.

والرقية هي: النفث بقليل من الريق مع قراءة الكلمات التي يُرقىٰ بها.

فإن كانت هذه الكلمات من كلام الله، أو من كلام النبي ﷺ، أو من الأدعية الفاضلة ونحوها، ولم يكن فيها شرك، ولا دعاء لغير الله، ولا كلام أعجمي لا

---

(١) جاء في ذلك عدة أحاديث: منها: ما أخرجه الإمام أحمد في المسند (٥/ ٤٤٥)، والطبراني في الكبير (٥/ ٢٧٥) رقم (٥٣١٤).
وقد حسن جمع من المحققين هذه الرواية.
ومنها: ما أخرجه الإمام أحمد (٤/ ١٧٠) وغيره، وقد جوّدها الألباني في السلسلة الصحيحة رقم (٤٨٥).
ومنها: ما أخرجه الإمام أحمد (٤/ ١٧١، ١٧٢) وغيره، قال الألباني في السلسلة الصحيحة رقم (٤٨٥): وهذا إسناد حسن، رجاله ثقات.
ومن أراد الاستزادة في هذا الموضوع فليرجع إلىٰ كتاب (**فتح المنان في جمع كلام شيخ الإسلام ابن تيمية عن الجان**)، ص: ٤٠٤ ـ ٤١٤. والكتاب مفيد جداً في بابه حيث جمع فيه كل ما قاله شيخ الإسلام عن الجان.
وكذلك يستحسن الرجوع إلىٰ السلسلة الصحيحة للألباني رقم (٤٨٥).

(٢) جزء من حديث أخرجه مسلم برقم (٢٢٠٠).

يعرف معناه؛ فلا بأس بها، وإلا طرحت.

وقد تُحرَّم إذا كان فيها شرك، وسوف يأتي تفصيل ذلك في موضعه إن شاء الله.

ثم إن سعيد بن جبير قال لحصين: ولكن حدثنا ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: . . . ثم ذكر له الحديث.

ومعنىٰ كلام سعيد: أن فعلك يا حصين جائز، ولكن هناك مرتبة أفضل منها، وهي: ترك الاسترقاء توكلاً علىٰ الله، والدليل علىٰ ذلك: ما حدثنا به ابن عباس؛ هكذا تقدّر الجملة.

فالأفضل من الاسترقاء ـ وإن كان جائزاً ـ الترك توكلاً علىٰ الله، كفعل هؤلاء الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب.

ثم قال: قال ﷺ: «عرضت علي الأمم»:

والأمم: جمع أمة، وهي: الجماعة، أو الفئام من الناس، والمراد هنا: أتباع الأنبياء. وقد قيل: إن عرض الأمم عليه كان ليلة الإسراء، وقيل: إن ذلك كان مناماً؛ أي: رؤيا، ،ورؤيا الأنبياء وحيٌ محقق، لذلك صدق أن هذا فعل وحقيقة.

ثم قال: «فرأيت النبي ﷺ ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد»:

الرهط: هم الجماعة دون العشرة، ولفظه عند مسلم: **«الرهيط»**.

أي: لما عرضت عليه الأمم رأىٰ تفاوت أتباعهم:

فمنهم: من صدقته أمته كلها.

ومنهم: من صدقه جماعة قليلون: عشرة، أو أقل.

ومنهم: من صدقه رجلان.

ومنهم: من لم يصدقه إلا واحد.

ومنهم: من كذبوه كلهم، ولم يصدقه منهم أحد.

والأنبياء كثير، قال تعالىٰ: **﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾** [غافر: ٧٨]. فهناك أنبياء لم يتبعهم أحد، ودليل ذلك هذا الحديث.

ثم قال: «إذ رفع لي سواد عظيم، فظننت أنهم أمتي، فقيل لي: هذا موسى وقومه»:

يعني: رفع نظري إليه فرأيته، والسواد: أصله الظلمة، وأطلق عليهم سواداً لبعدهم؛ كأنه لا يميز هذا عن هذا، والعظيم: الكثير؛ أي: خلقاً كثيراً لا يُرىٰ إلا سوادهم لبعدهم وكثرتهم، فظن أنهم أمته؛ أي: أمة الإجابة؛ لأنه قد أطلع علىٰ أن أمته أكثر الأمم، وأنه أكثر الأنبياء أتباعاً.

ثم أخبر بأن ذلك السواد هم أتباع موسىٰ عليه السلام؛ لأن موسىٰ آمن به خلق كثير في زمنه، وما بعده، فتمسكوا بطريقته وبكتابه وبشريعته إلىٰ عهد النبي ﷺ، قال تعالىٰ: **﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ...﴾** الآية [آل عمران: ١٩٩].

ثم قال: «فنظرت فإذا سواد عظيم، فقيل لي: هذه أمتك، ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة»:

وفي رواية: «قد سدَ الأفق..»؛ أي: قد سدوا إحدىٰ الجهات لكثرتهم، ثم أُخبر أنهم أمته وأتباعه، وأن فيهم صفوة وأخيار يقدرون بسبعين ألفاً يدخلون الجنة لأول وهلة بلا حساب ولا عذاب.

وقد اختلف العلماء في هذا العدد؛ وسبب الخلاف أن المتصفين بهذه الصفات من الأمة قد يفوقون هذا العدد بكثير.

فقال بعضهم: إن المراد بذكر السبعين ألفاً: المبالغة؛ أي: عدد كثير، والعرب تذكر السبعة، و السبعين، والسبعمائة، والسبعة آلاف، والسبعين ألفاً، لقصد التكثير، لا إرادة ذات العدد.

وقال آخرون: إن المراد التحديد؛ أي: إنهم سبعون ألفاً فقط؛ وذلك لأن هذا الوصف قلّ مَنْ يتخلق به، فالاعتماد التام على الله يقل وجوده في الخلق؛ فلذلك لا يزيدون في أول الأمة حتى آخرها عن السبعين ألفاً.

لكن ورد في بعض الروايات، أنه ﷺ قال: «**فاستزدت ربي، فزادني مع كل ألف سبعين ألفاً**»، وعلى هذا يكون القصد الحصر، وأن العدد يبلغ سبعين ألفاً مكررة سبعين مرة، وهذه بشارة للأمة، وهي أن عدداً كثيراً منها من أهل هذا الوصف.

ثم قال: «بغير حساب ولا عذاب»:

المراد بالحساب: المناقشة على الدقيق والجليل؛ أي: لماذا فعلت كذا وكذا؟

والمراد بالعذاب: حصول الألم في الموقف، فإن الموقف فيه ألم شديد، قلّ من ينجو منه، ومن هذه القلة هؤلاء السبعون ألفاً، فلا يناقشون حساباً، ولا ينالهم عذاب.

ثم قال سعيد رضي الله عنه: «ثم نهض فدخل منزله، فخاض الناس في أولئك، فقال بعضهم: فلعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ، وقال بعضهم: فلعلهم الذين وُلِدوا في الإسلام فلم يشركوا بالله شيئاً، وذكروا أشياء»:

أي: قام ودخل منزله، ثم خاض الناس، أي: بحثوا في أولئك، أي: السبعين ألفاً، وذكروا بعض الأمور التي توقعوا أن تكون سبباً لدخولهم الجنة بغير حساب ولا عذاب.

فمنهم من قال: لعلهم الذين صحبوا الرسول ﷺ؛ فإنهم قد حظوا بهذه الصحبة.

ومنهم من قال: لعلهم الذين ولدوا في الإسلام، فلم يشركوا بالله شيئاً؛ بمعنى أننا ولدنا في الكفر، أما أولادنا ومن بعدهم فقد ولدوا في الإسلام، ولم يشركوا

بالله شيئاً، فهم أقرب أن يكونوا هم المراد، وذلك تواضعاً منهم رضي الله عنهم.

وفي روايات أخرى:

منهم من قال: لعلهم أهل التهجد.

ومنهم من قال: لعلهم أهل الهجرة.

ومنهم من قال: لعلهم المجاهدون.

ثم قال: «فخرج عليهم رسول الله ﷺ فأخبروه»:

أي: أثناء ذلك النقاش خرج عليهم النبي ﷺ فسألوه، فأخبرهم بوصف هؤلاء القوم، فقال: **«هم الذين: لا يسترقون، ولا يكتوون، ولا يتطيرون،وعلى ربهم يتوكلون»**.

أي: إنهم يعتمدون على الله فيما أصابهم، ويتركون هذه العلاجات التي قد تكون مباحة، ويرضون بما أصابهم من الله.

فترك الكي وترك الرقية أتم توكلاً؛ لأن المتوكل على الله المفوض الأمر إليه هو الذي يقول: لا يصيبني إلا ما قدّر لي، فلا أتعالج، ولا أكتوي، ولا أسترقي؛ أي: لا أطلب من يرقيني؛ بل الذي أنزل الداء هو الذي يرفعه إذا شاء.

والاسترقاء هو: طلب الرقية، أي: طلب من يرقي.

والكي هو: اللذعة بالنار ونحوها، وهو مكروه، وقد ورد ما يدل على كراهيته[1]، مع أنه جائز، والدليل على جوازه: أن النبي ﷺ قطع عرقاً من أبي بن كعب وكواه[2]؛ وكذلك يدل عليه أنه أخبر أن شفاء أمته في ثلاث، وعدّ منها

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٥٦٨٠)، من حديث ابن عباس رضي الله عنه.
وأخرجه البخاري برقم (٥٦٨٣)، من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٢٠٧)، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(الكي)[١].

والتطير هو: التشاؤم بالطيور، بأصواتها أو بمرورها، والطيرة شرك، لقوله ﷺ: «الطيرة شرك»[٢]، ولكنها من الشرك الأصغر.

والتوكل هو: تفويض الأمور إلى الله والاعتماد بالقلب عليه، والرضا به حسيباً ووكيلاً.

ثم قال: «فقام عُكَّاشة بن مِحْصَن، فقال: يا رسول الله! ادْعُ الله أن يجعلني منهم، قال: «أنت منهم»، ثم قام رجل آخر، فقال: ادْعُ الله أن يجعلني منهم، فقال: «سبقك بها عُكَّاشة»:

ولعل سبب رد الآخر أنه لم يكن معه من الإيمان ما مع عكاشة، أو مخافة أن يتتابع أهل المجلس فيسألها من ليس من أهلها.

وفي هذا الحديث فضيلة عكاشة، وأنه من هؤلاء السبعين، وأما هذه الأمور التي ذكرت في الحديث: **«لا يسترقون، ولا يكتوون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون»**؛ فهي التي جعلت هؤلاء يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، وهي حقيقة التوحيد؛ أي: من أتى بها من الناس فقد حقق التوحيد.

فهذا هو مطابقة الحديث للترجمة، ففيه فضيلة من فضائل تحقيق التوحيد، وهي دخول الجنة بغير حساب ولا عذاب.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٥٦٨٠)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
وأخرجه البخاري برقم (٥٦٨٣)، من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما.
(٢) أخرجه أبو داود برقم (٣٩١٠)، والترمذي برقم (١٦١٤).
قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وصححه الأرناؤوط في شرح السنة (١٢/ ١٧٨).

[٣]

باب:
الخوف من الشرك

وقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ١١٦].

وقال الخليل عليه السلام: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

وفي الحديث: «أخوف ما أخاف عليكم: الشرك الأصغر»، فسُئل عنه؟ فقال: «الرياء».

وعن ابن مسعود رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «من مات وهو يدعو من دون الله نداً دخل النار»، رواه البخاري.

ولمسلم، عن جابر: أن رسول الله ﷺ قال: من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به شيئاً دخل النار».

■ ■ ■ ■ ■

● **فيه مسائل:**

الأولى: الخوف من الشرك.

الثانية: أن الرياء من الشرك.

الثالثة: أنه من الشرك الأصغر.

الرابعة: أنه أخوف ما يخاف منه على الصالحين.

الخامسة: قرب الجنة والنار.

السادسة: الجمع بين قربهما في حديث واحد.

السابعة: أنه من لقيه لا يشرك به شيئاً دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به شيئاً دخل النار، ولو كان من أعبد الناس.

الثامنة: المسألة العظيمة: سؤال الخليل له ولبنيه وقاية عبادة الأصنام.

التاسعة: اعتباره بحال الأكثر لقوله: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٦].

العاشرة: فيه تفسير: (لا إله إلا الله)، كما ذكره البخاري.

الحادية عشر: فضيلة من سلم من الشرك.

■ ■ ■ ■ ■

الشرح

باب:
الخوف من الشرك

هذا الباب في الخوف من الشرك؛ وذلك لأن الواجب على الإنسان أن يكون خائفاً مشفقاً من أن يقع في الشرك، وهو لا يشعر، وذلك لأمور:

أولاً: أن الشرك أعظم الذنوب، وأنه لا يغفر إلا بالتوبة، فإذا مات عليه صاحبه دخل النار.

ثانياً: أن الشرك قد خافه الرسل على أنفسهم، وخافه الأنبياء على أممهم؛ فها هو إبراهيم ـ خليل الرحمن ـ عليه السلام يخاف من الشرك على نفسه وعلى بنيه، فيدعو الله أن يجنبه إياه[1] فاستجاب الله له، وقد قال إبراهيم التيمي[2]: (من يأمن البلاء بعد إبراهيم).

ثالثاً: أن الشرك يقع كثيراً ويحدث من أناس قد لا يظنون أنه شرك، ولا يعتقدونه؛ فيعتقد الواحد منهم أنه لا يصل إلى الشرك، وهو في نفس الأمر مشرك، ويستعظمون الكبائر والذنوب فينكرونها، ويقعون في الشرك ولا ينكرونه.

وقد اهتم المؤلف الكتاب رحمه الله بأنواع الشرك، ودقق في تتبعها ولم يترك خصلة تكون من أنواع الشرك إلا أتى عليها، وطفق يعلم تلامذته أنواع الشرك،

---

(١) في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٥، ٣٦].

(٢) رواه ابن جرير وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور للسيوطي (٥/ ٤٦).

ويعلمهم التوحيد، وما يخل بالتوحيد.

وذكر بعض المؤرخين: أن تلامذته لما طال عليهم الوقت في تعلم التوحيد، قال بعضهم: التوحيد فهمناه، يقولونه للشيخ محمد بن عبد الوهاب، فعند ذلك أراد أن يمتحنهم، فقال ذات يوم: سمعنا أن بنتاً لآل فلان وقعت في جريمة الزنا، فاستعظموا ذلك، واستكبروه، قالوا: كيف تفعل هذه الجريمة البشعة؟ التي هي كذا وكذا، وفيها وفيها، ولكن بعد يوم أو يومين قال الشيخ محمد لتلامذته: تحققنا أن الأمر أسهل، لم يقع منهم شيء ولم تقع البنت في جريمة الزنا، ثم قال: إنهم قد عملوا لها عملاً من السحر وألقوه عليها رجاء أن تشفى، وهذا الأمر أسهل، فعند ذلك هان عليهم، وقالوا: صدقت هذا أسهل من جريمة الزنا، فعند ذلك قال: عرفت أنكم ما فهمتم التوحيد، كيف يكون الشرك أسهل عليكم من الزنا؟!! هذا شرك، وهذه معصية، فلما كان الشرك يقع فيه الكثير من الناس، ولا يعتقدون أنه شرك، كان من المهم أن نبحث فيه، ونعرف دقائقه ونخاف منه.

وقد ذكر المؤلف في هذا الباب آيتان وثلاثة أحاديث:

■ **الآية الأولى: قوله: [وقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾** [النساء:١١٦]]:

وهذه أشد آية في الشرك، ويعم الشرك الأصغر والأكبر.

وقد ذكر العلماء أن الشرك قسمان: أصغر وأكبر، وكلاهما لا يغفر إلا بالتوبة، فإذا مات إنسان وهو مصر على الشرك الأكبر، فهو مخلد في النار، وإذا مات وهو يفعل الشرك الأصغر، فإنه ولا بد سيدخل النار، ولكن يعذب فيها بقدر شركه ما دام معه أصل الإسلام، وأصل العقيدة والأعمال؛ فلا يغفر له

شركه، لكن لا يصل به الحد إلىٰ الخلود في النار، فإذا وقع في رياء يسير مثلاً أو تطير أو حلف بغير الله، أو ما أشبه ذلك؛ فهذا ذنب لا يُغفر فلابد من دخول النار لتمحيص صاحبه، وتطهيره، ثم يخرج بعد التمحيص والتطهير، فالشرك أعظم الذنوب.

■ **الآية الثانية: قوله: [وقال الخليل عليه السلام: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾** [إبراهيم: ٣٥]]:

عبادة الأصنام رأس الشرك، وقد ذكر الله عن إبراهيم أنه كسّر أصنام قومه: فقال تعالىٰ: **﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا﴾** [الأنبياء: ٥٨]، بعد قوله: **﴿وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾** [الأنبياء: ٥٧]. وقال: **﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾** [الصافات: ٩٣]، أي: كسّر أصنامهم، ومع ذلك تعوذ بالله من عبادتها، ولهذا قال: **﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾** [إبراهيم: ٣٥]؛ فإذا كان إبرهيم يخاف علىٰ نفسه أن يعبد الأصنام مع كونه يحطمها، فكيف بغيره؟!

ولهذا قال بعض العلماء[1]: (ومن يأمن البلاء بعد إبراهيم)؛ فمن يأمن الوقوع في الشرك ما دام إبراهيم يخاف علىٰ نفسه!

كذلك ذكر الله أن الشرك يحرم علىٰ صاحبه الجنة، ولابد له من النار، قال تعالىٰ: **﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾** [المائدة: ٧٢]، والمراد هنا: الشرك الأكبر وهو الذي حرّم علىٰ صاحبه الجنة.

---

(١) تقدم أنه إبراهيم التيمي.

وأما الأحاديث:

■ **الحديث الأول**: قوله: [وفي الحديث: «**أخوف ما أخاف عليكم: الشرك الأصغر**»، فسُئل عنه؟ فقال: «**الرياء**»[1]]:

يعني: أن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يخف على أصحابه من عبادة الأصنام، لأنه ما مات إلا وقد فقهوا، لكن خاف عليهم أشياء من الشرك الأصغر، يقع فيها الإنسان استحساناً، فقال: «**أخوف مما أخاف عليكم الشرك الأصغر**»، فسئل عنه فقال: «**الرياء**»، ففسره بأنه: الرياء[2].

ثم قال في تمام الحديث: «**يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته لما يرى من نظر الرجل إليه**»، يعني: أن من الشرك أن يزيد في صلاته للناس، فإذا صلى في الخلوة كانت صلاته خفيفة لا يطمئن فيها، أو لا يسبح إلا واحدة، ولكن إذا كان أمام الناس اطمأن فيها، وزاد في هيئاتها، فكأنه ما صلّى إلا للناس، فهذه الزيادة تحبط عمله؛ وتُبطل صلاته؛ لأنها لغير الله.

كذلك إذا كان في الخفاء وفي الخلوة لا يتصدق، أو إذا تصدق مثلاً تصدق بدرهم، لكن أمام الناس يتصدق بأكثر من ذلك من أجل نظر الناس إليه، والله تعالى قد ذمّ ذلك، فقال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا**﴾ [النساء: ٣٨].

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٥/ ٤٢٨، ٤٢٩)، والطبراني في الكبير برقم (٤٣٠١) وأورده البغوي في شرح السنة (١٤/ ٣٢٣)، قال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢٢٢)، ورجاله رجال الصحيح غير عبد الله بن شبيب بن خالد وهو ثقة. وحسن الحافظ إسناده كما في بلوغ المرام (٣٠٢)، وقال المنذري في الترغيب (١/ ٦٩): إسناده جيد. وقال الأرناؤوط في تحقيق شرح السنة (١٤/ ٣٢٤): إسناده قوي.

(٢) وسيأتينا هذا الحديث إن شاء الله، حيث عقد المؤلف رحمه الله في هذا الكتاب باباً في الرياء وذكر فيه هذا الحديث.

فبهذا نعرف أن الرياء في الأعمال يعتبر محبطاً لها، وسمّاه النبي عليه الصلاة والسلام شركاً أصغر، وخافه على أمته.

وكذلك ذكر ابن عباس[(١)]: أن الشرك موجود في هذه الأمة، ولكنه خفي، لا يعرفه كل أحد، ولا يتفطن له كل أحد، فقد قال في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ٢٢]، قال: «الأنداد: هو الشرك، أخفى في هذه الأمة من دبيب النمل، على صفاة سوداء، في ظلمة الليل»[(٢)].

فكما أن النملة تختفي في الظلمة، ولا أحد يتفطن لها، فكذلك الشرك يقع في الأمة، ولا يتقطن له أحد، إلا كما يُتفطن للنملة التي تمشي على صخرة سوداء في ظلمة الليل.

ثم ذكر لهذا الشرك أمثلة، وأكثرها أقوال، قال: أن تقول: «والله وحياتك يا فلان، وحياتي»؛ أي: الحلف بغير الله، كالحلف بالحياة ونحو ذلك.

كذلك قول الرجل: «ما شاء الله وشئت»، وقوله: «لولا الكلب لأتانا اللصوص»، «ولولا البط في الدار لأتى اللصوص».

وكذلك قول بعضهم: «لولا فلان لحصل علينا حادث»، أو «لولا فلان لقتلنا العدو»، أو «لولا السلاح الذي معنا لهلكنا»، أو ما أشبه ذلك، ومثل هذه الأقوال تقع كثيراً، فيكون في ذلك قد اعتمد على السبب ونسي الرب تعالى، وفي مثل هذا يجب أن يأتي بـ«ثم»، فيقول: لولا الله ثم فلان. . . إلخ.

وما ذُكر في هذه الأحاديث يدل على عظيم خطر الشرك، فمن ذلك: أن النبي ﷺ خافه على أصحابه؛ فالخوف على غيرهم بطريق الأولى.

---

(١) سيأتينا إن شاء الله هذا الأثر في هذا الباب.

(٢) أورده ابن كثير في «تفسيره» (١ / ٥٧) عند تفسير هذه الآية وعزاه لابن أبي حاتم.

■ **الحديث الثاني: قوله: [وعن ابن مسعود رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «من مات وهو يدعو من دون الله نداً دخل النار»، رواه البخاري**[١]]:

■ **الحديث الثالث: قوله: [ولمسلم عن جابر: أن رسول الله ﷺ قال: من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به شيئاً دخل النار»**[٢]]:

في هذين الحديثين إخبار من النبي ﷺ بعقوبة من مات وهو مشرك.

والفرق بين حديث ابن مسعود، وحديث جابر: أن حديث ابن مسعود في الموت على الشرك: «**من مات**»، وحديث جابر في البعث عليه: «**من لقي الله**»، لكن معلوم أن من مات على الشرك لقي الله بالشرك.

وقد يطلق على من لقي الله: أنه مات، و يقال: فلان لقي ربه؛ أو قدم على ربه، أي: مات، فقوله: «**من مات**»؛ أي: من لقي الله، وكلاهما متقارب.

فالحاصل أنه قال في حديث ابن مسعود: «**يدعو من دون الله نداً**»، وقال في حديث جابر: «**يشرك بالله شيئاً**»، فدل على أن الند هو: الشرك، وأن من دعا الله نداً فقد أشرك، وأن من مات على ذلك فإنه واقع تحت الوعيد، ويكون حديث جابر مفسراً لحديث ابن مسعود، وهذا هو الشرك الأكبر الذي ذكره ابن القيم بقوله:

والشرك فاحذره فشرك ظاهر
ذا القسم ليس بقابل الغفران
وهو اتخاذ الند للرحمن أياً
كان من حجر ومن إنسان

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٤٩٧، ٦٦٨٣)، وأخرجه مسلم برقم (٩٢)، بغير هذا اللفظ.
(٢) أخرجه مسلم برقم (٩٣).

يدعـــوه، أو يرجـــوه، ثـم يخـــافـــه

ويحـــبـــه كـــمـــحـــبـــة الديّان

فهذا هو الشرك الذي لا يغفره الله لصاحبه إن مات عليه؛ وهو أن يجعل المرء لله ندّاً وهو الذي خلقه.

وفي حديث جابر بشارة عظيمة وهي: أن من مات لا يشرك بالله شيئاً؛ أي: سالماً من الشرك دقيقة وجليلة؛ فإنه يكون من أهل الجنة.

لكن معلوم أن من حقق التوحيد، وعبد الله وحده، وسلم من دقيق الشرك وجليله، يصير مسرعاً إلى امتثال الواجبات، ومبتعداً عن اقتراف المحرمات؛ لأن ذلك من تمام تحقيق التوحيد.

■ ■ ■ ■ ■

[٤]

باب:
الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله

وقول الله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذاً إلى اليمن، قال له: «إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه: شهادة أن لا إله إلا الله، ـ وفي رواية: إلى أن يوحدوا الله ـ، فإن هم أطاعوك لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوك لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم، فترد في فقرائهم، فإن هم أطاعوك لذلك، فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»، أخرجاه.

ولهما، عن سهل بن سعد: أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: «لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، يفتح الله على يديه». فبات الناس يدوكون ليلتهم: أيهم يعطاها، فلما أصبحوا، غدوا على رسول الله ﷺ، كلهم يرجو أن يعطاها، فقال: «أين علي بن أبي طالب؟» فقيل: هو يشتكي عينيه، فأرسلوا إليه، فأتي به، فبصق في عينيه، ودعا له، فبرأ، كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية، فقال: «انفذ على رسْلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً، خير لك من حُمر النعم». يدوكون؛ أي: يخوضون.

فيه مسائل:

الأولى: أن الدعوة إلى الله طريق من اتبع رسول الله ﷺ.

الثانية: التنبيه على الإخلاص؛ لأن كثيراً من الناس لو دعا إلى الحق فهو يدعو إلى نفسه.

الثالثة: أن البصيرة من الفرائض.

الرابعة: من دلائل حسن التوحيد أنه تنزيه لله تعالى عن المسبة.

الخامسة: أن من قُبح الشرك كونه مسبة الله.

السادسة: وهي من أهمها: إبعاد المسلم عن المشركين لئلا يصير منهم ولو لم يشرك.

السابعة: كون التوحيد أول واجب.

الثامنة: أنه يبدأ به قبل كل شيء حتى الصلاة.

التاسعة: أن معنى: «أن يوحدوا الله»، معنى شهادة: أن لا إله إلا الله.

العاشرة: أن الإنسان قد يكون من أهل الكتاب، وهو لا يعرفها أو يعرفها ولا يعمل بها.

الحادية عشرة: التنبيه على التعليم بالتدريج.

الثانية عشرة: البداءة بالأهم فالأهم.

الثالثة عشرة: مصرف الزكاة.

الرابعة عشرة: كشف العالم الشبهة عن المتعلم.

الخامسة عشرة: النهي عن كرائم الأموال.

السادسة عشرة: اتقاء دعوة المظلوم.

السابعة عشرة: الإخبار بأنها لا تحجب.

الثامنة عشرة: من أدلة التوحيد ما جرىٰ علىٰ سيد المرسلين وسادات الأولياء من المشقة والجوع والوباء.

التاسعة عشرة: قوله: «لأعطين الراية..» إلخ، علم من أعلام النبوة.

العشرون: تفله في عينيه علم من أعلامها ايضا.

الحادية والعشرون: فضيلة عليّ رضي الله عنه.

الثانية والعشرون: فضل الصحابة في دوكهم تلك الليلة وشُغلهم عن بشارة الفتح.

الثالثة والعشرون: الإيمان بالقدر لحصولها لمن لم يسْع لها ومنعها عمن سعىٰ.

الرابعة عشرة: الأدب في قوله: «علىٰ رسلك».

الخامسة والعشرون: الدعوة إلىٰ الإسلام قبل القتال.

السادسة والعشرون: أنه مشروع لمن دعوا قبل ذلك وقوتلوا.

السابعة والعشرون: الدعوة بالحكمة لقوله: «أخبرهم بما يجب».

الثامنة والعشرون: المعرفة بحق الله في الإسلام.

التاسعة والعشرون: ثواب من اهتدىٰ علىٰ يديه رجل واحد.

الثلاثون: الحلف علىٰ الفتيا.

■ ■ ■ ■ ■

•• الشرح ••

باب:
الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله

هذا الباب يراد به: دعوة الناس إلى التوحيد؛ لأن الله بعث الرسل إلى أقوامهم يدعونهم إلى التوحيد، والرسل بَعثوا أفراداً من أمتهم يدعون الناس إلى طاعة الله، وإفراده بالعبادة، وتوحيده سبحانه، ولا شك أنهم يدعون الناس إلى الدين كله؛ ولكن يقدمون التوحيد قبل كل شيء؛ لأن التوحيد شرط لصحة الأعمال.

فالذي يتعبد ويتقرب إلى الله قبل أن يحقق التوحيد لا يقبل الله منه عباداته، فلأجل ذلك يبدأ الرسل دعوتهم بالتوحيد، فكل رسول بدأ دعوته بقوله: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾. والبدء بالدعوة إلى التوحيد دليل على أهميته.

ويعبر عن التوحيد بالشهادتين، وتطلق شهادة أن لا إله إلا الله، ويكتفى بها عن الشهادة الأخرى: (أشهد أن محمداً رسول الله).

فإذا قيل: فلان يشهد أن لا إله إلا الله، فالمراد: أنه يشهد الشهادتين، وإذا قيل: باب: الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله، فالمراد مع شهادة أن محمداً رسول الله، وإذا قال الرسول عليه الصلاة والسلام: **«من كان آخر كلامه لا إله إلا الله»**[1]، فالمراد: مع الشهادة الأخرى؛ أي: مع شهادة أن محمداً رسول الله، وهكذا يعبر بلا إله إلا الله عن التوحيد، وقد يعبر بها عن الدين كله؛ لأن الدين أساسه

---

(١) أخرج أبو داود برقم (٣١١٦)، والحاكم في المستدرك (١ / ٣٥١). قال الحاكم: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.

التوحيد، وعبادة الله وحده والإيمان به، ولكن البدء بها دليل على أهميتها.

والدعاء إليها وظيفة الرسل، ووظيفة أتباع الرسل، فالكل مأمورون بأن يدعوا إلى الله؛ والدعاء إلى الله هو الدعاء إلى عبادة الله.

■ قوله: [وقول الله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨]]:

أي: ادعو إلى توحيد الله، وأدعو إلى معرفة الله، وأدعو إلى عبادة الله، فأطلق: ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ﴾؛ أي: إلى ما أمر الله به، وما فرضه، وما يحبه من عبادة خالصة.

وقد تطلق الدعوة وتعم، قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤]؛ أي: إلى التوحيد، وإلى الدين، وإلى الإسلام، فأطلق عليه الدعوة إلى الخير.

ولكن كثيراً ما يعبر عنها بالدعوة إلى الله؛ قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾ [فصلت: ٣٣]؛ أي: إلى توحيد الله.

وقد تطلق الدعوة إلى التوحيد، ويعبر عنها بالسبيل، كما في قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ [النحل: ١٢٥]؛ أي: إلى ربك، وإلى معرفته، وإلى عبادته، وإلى توحيده.

فالدعوة إلى الله، والدعوة إلى الخير، والدعوة إلى سبيل الله بمعنى واحد، وهي الدعوة إلى التوحيد.

ومن شروط الداعي إلى الله أن تكون دعوته على بصيرة؛ لأن الرسل لم يدع إلا وهو على بصيرة، ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف: ١٠٨].

والبصيرة هي: النور والعلم، فلا يدعو وهو جاهل، ولا يدعو وهو شاك أو متردد، فلا يدعو الداعي إلا وهو على بصيرة وعلم، يعرف أن ما يدعو إليه هو الحق، ويعلم أدلة ما يدعو إليه، ويتبصر الطريق التي يسلكها في الدعوة، ويجيد التعبير عن دعوته بالأساليب الجميلة الحسنة والمناسبة، فبذلك تصير الطريق أمامه واضحة، ولا يمكن أن يقوض مسيرته شيء، ولا أن يعيقه عائق.

ثم قال: ﴿أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾؛ أي: ومن اتبعني يدعو ـ أيضاً ـ إلى الله وهو على بصيرة.

فإذن عرف من هذا أن أتباع الرسل يدعون إلى الله على بصيرة؛ فمن أراد أن يحقق اتباع الرسول لزمه أن يدعو إلى الله بعد أن يتبصر.

■ **قوله: [عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذاً إلى اليمن، قال له: «إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب، فليكن أول ماتدعوهم إليه: شهادة أن لا إله إلا الله، ـ وفي رواية: إلى أن يوحدوا الله ـ، فإن هم أطاعوك لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوك لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم، فترد في فقرائهم، فإن هم أطاعوك لذلك، فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»، أخرجاه]**[1]:

بعث النبي ﷺ معاذاً إلى اليمن في أول سنة عشرة من الهجرة، وتوفي النبي ﷺ سنة إحدى عشرة من الهجرة، وهو في اليمن.

وقد بعثه النبي ﷺ إلى اليمن كله بأربعة وظائف:

الأولى: الدعوة، والثانية: التعليم، والثالثة: جمع الزكوات والصدقات والجزية، والرابعة: القضاء.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٣٤٧)، ومسلم برقم (١٩).

فأول شيء طلبه النبي ﷺ منه هو الدعوة، فقال له: «**فليكن أول ما تدعوهم**»، فدل على أنه بُعث داعياً، وبعد أن يستجيبوا عليك أن تعلمهم، لذا قال له النبي ﷺ: «**فأعلمهم**»، وهذا يدل على أنه بُعث معلماً، ثم إذا استجابوا والتزموا عليك أن تجمع منهم الزكوات والصدقات وتوزعها على مستحقيها، فإذا وقع بينهم خصومات فَصَلَ وحَكَمَ بينهم؛ حيث قال له النبي ﷺ: «**كيف تقضي بينهم؟**»، قال: بكتاب الله، قال: «**فإن لم تجد**»، قال فبسنة رسول الله، قال: «**فإن لم تجد**»، قال: أجتهد رأيي(١).

وقد اختار الرسول ﷺ معاذاً؛ لأنه من أعلم الصحابة؛ فقد ثبت في الحديث أن النبي ﷺ قال: «**وأعلمهم بالحلال والحرام: معاذ بن جبل**»(٢)، فكان شاباً متصفاً بالذكاء وبالفهم وبالعلم، وقد ذكروا أنه لما حضره الموت بكى، وقال: (أبكي حيث إنه يفوتني ثلاث: صوم الهواجر، وقيام ليل الشتاء، ومزاحمة العلماء بالركب)(٣)، وذلك دليل على أنه من أهل العلم الراسخين فيه.

وذكر بعض العلماء في فضائل معاذ: أنه يحشر أمام العلماء برتوة؛ أي:

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٥/ ٢٤٢)، وأبي داود برقم (٣٥٩٢، ٣٥٩٣)، والترمذي برقم (١٣٢٧).

قال الترمذي: هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وليس إسناده عندي متصل، وأبو عون الثقفي اسمه محمد بن عبيد الله.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٣/ ٢٨١)، والترمذي برقم (٣٧٩١)، وابن ماجه برقم (١٥٤)، وابن حبان (٢٢١٨، ٢٢١٩)، والحاكم (٣/ ٤٢٢)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وقال الحاكم: هذا إسناد صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم (١٢٢٤). وقال الأرناؤوط في تحقيق شرح السنة (١٤/ ١٣٢): إسناده قوي.

(٣) انظر مثل هذا المعنى في ترجمة معاذ بن جبل رقم (١٤٣)، في تهذيب الأسماء واللغات للنووي (٢/ ٩٨).

يسبق العلماء كلهم، وهذا دليل على أنه اتصف بالعلم؛ لذلك اختاره الرسول ﷺ لبعثته إلى اليمن، وحصل من ذلك عدة فوائد: منها: أن الله هدى على يديه الكثير، فدخلوا في دين الله، ومنها: أنه جمع الزكوات والصدقات، وأرسل بها إلى المدينة بعدما أعطى الفقراء المستضعفين المستحقين هناك، فاستجابوا لدعوته، وأسلموا دون مقاومة، أو قتال.

ولما اتسعت رقعة اليمن، وانتشر الإسلام فيها، ووصل إلى أكثر البقاع وإلى حضرموت، أرسل معه النبي ﷺ مساعدين، فأرسل علياً في جهة أخرى، وأرسل عمار بن ياسر، وأرسل أبا موسى.

فاجتمع أربعة من فضلاء الصحابة، وكلهم بعثوا لتعليم الناس الدين، ودعوتهم لعبادة الله عز وجل، ونشر الإسلام؛ وذلك لأن الشخص الواحد لا يستطيع تعليم العدد الكثير من الناس تعاليم الدين كله.

والحاصل أنه لما بعثه علّمه الطريقة، فأخبره: بأن أمامه في اليمن أهل الكتاب، فقال له: «**إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب**»، والمراد بهم: اليهود الذين عندهم التوراة، والنصارى الذين عندهم الإنجيل، فأرشد النبي ﷺ معاذاً إلى الاستعداد وهو يدعو أهل الكتاب، لأنهم أهل جدل وعلم ومعرفة، فَأَعِدَّ لهم العدة، أي: أعد لشبهاتهم ما يدحضها.

والحاصل أن النبي ﷺ أمر معاذاً أن يبدأ الدعوة بالتوحيد بقوله: «**فليكن أول ماتدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله**»، فسميت شهادة؛ لأنها تحصل عن مشاهدة، كأن الذي قالها، قالها عن مشاهدة، وهو لم يشاهد الله عياناً؛ أي: ذاته، ولكن شاهد آيات الله، وشاهد العبر والمخلوقات، التي تدل على أن الله حق وأن إليهته حق؛ فكأنه شهد عن يقين وشهد عن علم، قال تعالى: ﴿**إِلاَّ مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ**

يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦].

* **وقوله: في الرواية الثاني: «إلى أن يوحدوا الله»**[١]:

أي: أن يدعو الناس إلى أن يوحدوا الله، وهذا دليل على أن القصد من شهادة أن لا إله إلا الله هو: التوحيد؛ لأنه قال: **«إلى أن يوحدوا الله»**؛ والتوحيد معناه: التخصيص والإفراد، أي: يفردوا الله بالعبادة، ويتركوا إلهية أو تأليه ما سواه، فإذا قالوا: لا إله إلا الله، لكنهم لم يوحدوا الله، بل قالوها وأشركوا لم تنفعهم؛ لإن قول: لا إله إلا الله يستدعي أن يوحدوا الله ويخلصوا له العبادة.

* **ثم قال: «فإن هم أطاعوك لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة»:**

أي: بعد أن يستجيبوا لهذه الدعوة، ويخلصوا دينهم لله ويفردوه بالعبادة، ينتقل بهم إلى الركن الثاني وهو الصلاة، فأخبرهم بأنها فريضة، وأنها خمس صلوات مفرقة على اليوم والليلة، ولم يفصل له صفتها؛ لأن معاذاً كان على علم بتفاصيل الصلاة وواجباتها، و أركانها، وسننها، ومبطلاتها.

ومعنى: **«افتَرَضَ عليهم»**؛ أي: فرضها وألزمهم بها، والفرض: هو الشيء اللازم الملازم لذمة الفرد، وأصله اللازم للمكان، والفريضة سميت بذلك؛ لأنها ملازمة لذمة المكلف؛ فالصلوات فريضة فرضها الله وألزم بها عباده وهي خمس، وما زاد فإنه نفل: كصلاة الوتر، وصلاة الرواتب، التي قبل الفرائض وبعدها، وصلاة تحية المسجد، وصلاة الليل، وصلاة الضحى، وصلاة التراويح، وصلاة الكسوف، وما أشبهها؛ فهذه يقال لها: نوافل مكملات للعبادات، أما الفرائض فهي خمس.

---

(١) وهي رواية البخاري في صحيحة برقم (٧٣٧٢).

وبعد أن أخبره ﷺ بأن الصلاة هي الفريضة الثانية بعد التوحيد، انتقل به إلىٰ الفريضة الثالثة؛ وهي الزكاة؛ التي هي قرينة الصلاة في كتاب الله، فقال: «**فإن هم أطاعوك لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم**». وسماها النبي ﷺ هنا: «**صدقة**»، لأنها تدل علىٰ صدق من أخلص وأخرجها، وإذا أخرجها العبد وهو مصدق بها قبلت منه.

ثم ذكر له مصارفها، وأنها للفقراء، أي: تؤخذ من الأغنياء وتعطي للفقراء، فهي ليست للأغنياء ولا للأثرياء، وإنما تعطىٰ للفقراء علىٰ وجه المواساة؛ لأن الفقراء المعوزين قد لا يجدون ما يسد حاجتهم؛ فجعل الله في أموال الأغنياء حقاً للفقراء؛ فلذا قال له الرسول ﷺ: «**تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم**».

واستدل بهذا علىٰ أن الزكاة تؤخذ من البلد وتصرف في نفس البلد، والله أعلم.

ثم نهاه عن الظلم؛ لأنه عرف أن معاذاً هو الذي سيجمع الصدقات، فقال له: «**فإن هم أطاعوك لذلك، فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب**». أي: إذا استجابوا لك، ودفعوا إليك زكاتهم، واستسلموا، فخذ من أوسط أموالهم، فلا تأخذ سقطها ورديئها ورخيصها؛ فتظلم الفقراء، ولا تأخذ نفيسها وكريمها وغاليها فتظلم أصحاب الأموال؛ فإنك إما أن تظلم هؤلاء أو تظلم أولئك، بل توسط واعدل حتىٰ لا تظلم أحداً منهم؛ لأنك لو ظلمت هذا أو هذا فربما دعا عليك، ودعوة المظلوم مستجابة، لا تحجب عن الله تعالىٰ.

■ **قوله: [ولهما، عن سهل بن سعد: أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: «لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، يفتح الله على يديه». فبات الناس يدوكون ليلتهم: أيهم يعطاها، فلما أصبحوا، غدوا على رسول الله ﷺ، كلهم يرجو أن يعطاها، فقال: «أين علي بن أبي طالب؟» فقيل: هو يشتكي عينيه، فأرسلوا إليه، فأتي به، فبصق في عينيه، ودعا له، فبرأ، كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية، فقال: «انفذ على رسْلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً، خير لك من حُمر النعم»(١).**

يدوكون؛ أي: يخوضون]:

هذا الحديث قاله ﷺ يوم خيبر، في سنة سبع من الهجرة، وخيبر: هي البلدة التي بقرب المدينة، وهي مشهورة باسمها إلى الآن، وكان أهلها من اليهود، ولما أجلى النبي ﷺ بني قينقاع وبني النضير نزل كثير منهم بخيبر على قوم من أهلها، ولما كانوا بقرب المدينة كانوا يصالحون المسلمين على ترك القتال، ولكنهم كثيراً ما كانوا ينقضون الصلح، ومن ذلك نقض الصلح يوم الأحزاب.

ويوم الأحزاب هو اليوم الذي جاء فيه الكفار والمشركون لمحاربة المسلمين بالمدينة، حيث اتفق المشركون مع اليهود على قتال رسول الله ﷺ وأصحابه، فنقض أهل خيبر العهد والصلح؛ فلما لم يكن لهم عهد ولا صلح، غزاهم النبي ﷺ سنة سبع، ونصره الله عليهم، وقتلهم وفتح بلادهم، وعندما أقبل النبي ﷺ وأصحابه على بلادهم، وقد خرجوا بمساحيهم فرأوه، قالوا: محمد والله، محمد والخميس؛ يعني: الجيش؛ فقال النبي ﷺ: «الله أكبر خربت خيبر، إنا إذا

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٧٠١)، ومسلم برقم (٢٤٠٦).

نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين»[1] .

فنزل بهم وحاصرهم نحواً من نصف شهر أو أكثر حتىٰ أعانه الله ، وفتح أكثر حصونهم بالغلبة وبالقوة ، وفتح حصنين أو ثلاثةً بالصلح ، ولما فتحها أقرهم فيها علىٰ أن يعملوا في زراعة الأرض ، وسقي النخل ، ولهم نصف التمر ونصف الزرع مقابل عملهم ، ولرسول الله ﷺ وأهل المدينة النصف الآخر مقابل ملكهم ؛ لأن المسلمين ملكوها بالغلبة وبالاستيلاء .

وفي ليلة من الليالي والرسول ﷺ محاصر في خيبر أخبر أنها ستفتح غداً ، بقوله : «**لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله**» .

و«**الراية**» هي : العَلَمُ الذي ينصبه أمير الجيس في وسط الصفوف ، ويكون حوله المجاهدون ؛ حتىٰ لا يتفرقروا ويشذوا ، فإذا رأوا العلم قصدوه واجتمعوا حوله .

ثم أن النبي ﷺ في هذا الحديث وصف هذا الرجل بأنه : «**يحب الله ورسوله**» ، والصحابة كلهم يعرفون من أنفسهم أنهم يحبون الله ويحبون الرسول ، ولكن وصفه أيضاً بصفة ثانية ، بقوله : «**يحبه الله ورسوله**» ، وهذه هي الخصلة التي تسابقوا من أجلها ، يود كل واحد منهم أن يكون هو الذي يُعطىٰ الراية حتىٰ يكون محبوباً عند الله وعند رسوله ، وهذا مما جعل عمر رضي الله عنه يقول : «**ما تمنيت الإمارة إلا يومئذ**»[2] ، رغبة في الحصول علىٰ محبة الله ورسوله .

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري برقم (٣٧١) . ومسلم برقم (١٣٦٥)(٨٤) في «كتاب النكاح» ، ثم أخرجه ـ أيضاً ـ في كتاب الجهاد والسير برقم (١٣٦٥)ـ(١٢٠) ، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٤٠٥) .

ومن المعلوم أن الله تعالى يحب أهل الإيمان جميعاً، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، فإذا أردت أن يحبك الله، فاتبع هذا النبي الكريم ﷺ؛ لأن الله يقول: ﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾؛ فمن أحب الله أطاعه، ومن أحب الرسول اتبعه، ومتى أحببت الله وأطعته، وأحببت الرسول واتبعته؛ فأبشر بأن الله تعالى سوف يحبك؛ لأن الله يقول في هذه الآية: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾.

واتباع الرسول؛ هو تقليده في كل ما جاء عنه، سواء كان حديثاً، أو سنة، أو غير ذلك؛ حتى تحصل على هذه المرتبة التي هي محبة الله، ومحبة الرسول ﷺ.

أما إذا قال الإنسان: أحب الله وأحب الرسول، ثم تأتيه أوامر الله، وأوامر الرسول فيلقيها وراء ظهره ولا يتبعها، وتأتيه الإرشادات والإشارات ولا يعمل بها ولا يتبعها، فإنه بذلك لا يكون صادقاً، إنما الصادق هو الذي يقبل ذلك عن يقين ورضا، وتقبل وطواعية.

ثم يقول ﷺ: «يفتح الله على يديه»، أي: يفتح الله على يديه تلك الحصون الممتنعة.

وبعد أن وصف النبي ﷺ هذا الرجل بهذه الصفات، بات الصحابة ليلتهم سهراً لم يناموا، يدوكون. أي: يخوضون ويتكلمون، يتمنى كل منهم أن يعطى الراية، حتى جاءوا في الصباح مبكرين إلى الرسول ﷺ، فسألهم النبي ﷺ عن علي، فأخبروه بأنه أرمد يشتكي عينيه، وقد تأخر من أجل ذلك الرمد، فأرسل إليه النبي ﷺ من يأتي به، وهو على تلك الحال، فتفل في عينيه، ودعا له فبرأ من

ساعته، وهذا فيه علامة من علامات نبوته ﷺ؛ حيث إن الله استجاب دعاءه، وشفي عليٌ من وجع عينيه، يقول علي: «لما أن تفل في عيني ما صدعت ولا رمدت بعدها»[(١)]؛ أي: ما أصابني صداع في رأسي، ولا وجع في عيني بعد تلك المرة، وهذا كله ببركة دعوة النبي ﷺ له، وتفله في عينيه.

ثم أن النبي ﷺ: «أعطاه الراية»؛ أي: دفعها إليه، وقال له: «**انفذ على رسلك**»؛ أي: سر نحو العدو وهم اليهود، على مهل وتؤدة، فلا تستعجل ولا تشق على المسلمين الذين يغزون معك، بأن تكلفهم السير السريع «**حتى تنزل بساحتهم**»؛ أي: بالمكان المتسع الذي أمامهم، «**ثم ادعهم إلى الإسلام**»؛ أي: تدعوهم إلى الإسلام وإلى الخضوع لله ولشرعه ودينه، وأن تُسْلِمُوا لله رب العالمين، وأن تقبلوا هذا الدين، وأن تتلفظوا بالشهادتين. وأول شيء تبدؤهم به أن تدعوهم إلى معرفة الله، وإلى الإيمان به، وإلى طاعته وعدم الشرك به، ثم اتباع الرسول ﷺ في كل ما أمر به ونهى عنه. وعدم اتباع غيره من المشايخ الذين يسيرون على غير شريعته، ويدعونا إلى الابتداع في الدين، وعدم اتباع الطواغيت الذين يشرعون للناس شرائع من عند أنفسهم ما أنزل الله بها من سلطان، وذلك كله من الدعوة إلى الله.

ثم تُبين لهم بأننا لم نقصد الاستعلاء، ولا الترفع عليكم، ولا قصدنا التملك عليكم، ولا قصدنا الأموال والسبايا، فلم نقصد إلا نشر الإسلام في أنحاء العالم، وتمكينه في القلوب ودخول الناس فيه.

هذه هي رغبة النبي ﷺ وصحابته الذين قاتلوا على الإسلام، لم يكونوا

(١) أخرجه الطبراني وأحمد وأبو يعلى بنحوه، انظر مجمع الزوائد للهيثمي (٩/ ١٢٢).

يقاتلون الناس من أجل أن يكونوا ملوكاً عليهم، ولا كانوا يقاتلونهم من أجل أن يحصلوا على الأموال التي يغنمونها ولا السبايا التي يأخذونها، إنما قصدهم أن يدخل الناس في الإسلام.

وقد ذكر ذلك النبي ﷺ في عدة أحاديث، كما في حديث بريدة الطويل، الذي يقول فيه: «**وإذا لقيت عدوك من المشريكن فادعهم إلى ثلاث خصال: فأيتهن ما أجابوك لها فاقبل منهم وكف عنهم: ادعهم إلى الإسلام**»(١)، أي: ابدأ بالدعوة إلى الإسلام؛ يعني: لا تقاتلهم قبل أن تدعوهم إلى الإسلام، فإذا قبلوا منك فكف عنهم.

وكان النبي عليه الصلاة والسلام إذا غزا قوماً لا يغزوهم إلا وقد أبلغهم دعوته، وأنه جاء بهذا الإسلام، فإذا نزل قريباً منهم استمع فإن سمع أذاناً عرف أنهم مسلمون، فأمسك عن القتال، وإلا قاتلهم.

وإذا لم تكن بلغتهم الدعوة، يبدأ فيبلغهم إياها، ويقول لهم: اقبلوا هذا الدين، واقبلوا هذا الإسلام، وسوف تبقون على أموالكم وعلى بلادكم وعلى أنفسكم، وتحصل لكم ـ أيضاً ـ المنزلة والدرجة العالية، التي هي شرف الدنيا والآخرة، وتكونوا أعزة في الدنيا، وأعزة في الآخرة، ولكن كثيراً منهم يبخلون بأديانهم، ويقولون: ديننا الذي ولدنا عليه، وورثناه من الآباء والأجداد لا نتركه لك، ولا نبغي به بديلاً.

فاليهود يتمسكون بيهوديتهم، ويبقون عليها، ويدعون أنها لم تنسخ، وأنها لم تحرف، ويصرون على التمسك بها، ولا يقبلون الإسلام.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (١٧٣١).

وكذلك النصارىٰ في ديانتهم، التي يدّعون أنها وراثة من المسيح، ويسمونه بلغتهم اليسوع، فيقولون: نحن علىٰ دين اليسوع، ولا نتركه، ولا نريد به بديلاً.

هذا بالنسبة إلىٰ الأديان التي هي غير دين الإسلام.

وهكذا أيضاً الذين هم من أهل الإسلام، ولكنهم منحرفون، تجدهم يُدْعَوْنَ إلىٰ الإسلام الصحيح، ولكنهم يصرون علىٰ البقاء علىٰ تلك البدع، أو ذلك الشرك الذي يَدَّعُونَ أنه ليس بشرك، وَيَدَّعُونَ أنه هو الأصل، ويزعمون أنهم ورثوه عن الآباء والأجداد، فلا يبغون له بديلاً.

فمن ذلك مثلاً: عبدة القبور الذين يعبدون الأموات ويذبحون للأموات، وينذرون لهم، ويطوفون بتلك القبور، ويتبركون بجدرانها وحيطانها، ويحملون التربة لها، وما أشبه ذلك، ويزعمون أن هذا تبرك بهؤلاء الأولياء والسادة والصالحين، فإذا قيل لهم: أسلموا، قالوا: نحن مسلمون، وإذا قيل لهم: اتركوا هذا الشرك، قالوا: هذا ليس بشرك، بل هذا من دين الإسلام، وهذا تعظيم لهؤلاء الذين هم عظماء عند الله ونحو ذلك، وما علموا أن هذا هو عين الشرك الذي هو دعوة غير الله معه، فلا يقبلون الدعوة إلىٰ الإسلام الصحيح.

وهكذا أيضاً أغلب المبتدعين المتمسكين ببدعهم، لا تفيد فيهم الدعوات، والترغيبات، والترهيبات. فالرافضة الذين هم علىٰ عقيدة سيئة، من المغالاة في أهل البيت كالحسن، والحسين، وعلي، وفاطمة، ونحوهم، والبغض لبقية الصحابة، إذا نصحوا أو بين لهم لم يقبلوا؛ وذلك لأنهم ورثوا هذه العقيدة السيئة أباً عن جدّ؛ فألفوها وبقوا عليها، فلا ينفع معهم النصح، ولا الوعظ

والتذكير.

وهكذا أيضاً الذين يتمسكون بعاداتهم القديمة المنحرفة، إذا دعوا إلىٰ ترك هذه العادات وجدوا صعوبة في ذلك، ولكن قد يتركونها بالتدرج، فإن النبي ﷺ لما دعا أهل مكة إلىٰ ترك مألوفاتهم امتنعوا، وقالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢]، وقال الله تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ [الصافات: ٦٩، ٧٠]، وقال لهم إبراهيم: ﴿لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنبياء: ٥٤]، وأخبر عن آلهتهم بقوله: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٧٥-٧٧].

والحاصل أن الإسلام جاء بهذا الدين وبهذه الشريعة السمحاء، ولم يقصد استرقاق الناس، ولا تملكهم، ولا الاستعلاء عليهم، فمنهم من هداه الله فقبله لما تبين له صحة ما جاء به، ومنهم من حقت عليه الضلالة فضل والعياذ بالله.

وبعد أن تدعوهم إلىٰ الإسلام، **«أخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه»**؛ أي: قل لهم أسلموا، فإذا أسلمتم وجب عليكم كذا، ووجب عليكم كذا.

واحرص علىٰ أن يهتدوا، ويقبلوا منك ما تأتيهم به، واحرص علىٰ أن يهدي الله بك أي شخص، لقوله ﷺ: **«لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً»**؛ أي: يهتدي علىٰ يديك، كأن يكون منحرفاً فيهتدي علىٰ يديك، أو يكون مذنباً فيتوب علىٰ يديك، أو يكون كافراً فيسلم علىٰ يديك، فلك بذلك أجر عظيم: **«خير لك من حُمر النعم»**، وحمر النعم هي: الإبل الحمر، كان العرب يتنافسون في اقتنائها،

ويعدونها أفخر المال عندهم، وهذا على وجه التقريب، وإلا فالاهتداء يكون أجره في الآخرة، وأجر الآخرة لا يقاس بالدنيا بأكملها، فذرة في الآخرة خير من الدنيا وما فيها، إبلها وغنمها وجميع ممتلكاتها، وإنما مثل لهم بشيء ترغب فيه نفوسهم ويحبونه، وهو تنافسهم في هذا.

وقد أخبر النبي عليه الصلاة والسلام عن ثواب من دعا إلى الله فقال: **«من دعا إلى هدى كان له مثل أجور من اتبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيء»**[(١)].

فالذي يدعو إلى الله ويهتدي على يديه إنسان، يكون له مثل أجره كما في الحديث: **«من دل على خير فله مثل أجر فاعله»**[(٢)]، فإذا دعا المسلم إنساناً إلى المسجد فهداه الله، كان له مثل أجره، وأجره كامل لا ينقص، وإذا دعاه إلى القرآن فهداه الله، وقرأه وتعلمه وعمل به، كان له أجر على حسب عمله، وللداعي مثل أجره؛ لأنه السبب في هدايته وتبصرته، وهكذا من دعا إلى هدى فله مثل أجور من اتبعه.

أما الذين يدعون إلى ضلالة ومعصية، فعليهم مثل أوزار من اتبعهم، لقوله ﷺ: **«ومن دعا إلى ضلالة كان عليه مثل أوزار من ابتعه من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»**[(٣)]، فالذي يدعو إلى الأغاني أو إلى الفحش، ومعصية الله عز وجل، ويتبعه أناس على ذلك، فعليهم أوزارهم كاملة، وعليه مثل أوزارهم كلهم ولو كثروا.

والذي يدعو إلى معصية أياً كانت، والذي يدعو إلى شرك، وإلى تعظيم

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٦٧٤).

(٢) أخرجه مسلم برقم (١٨٩٣).

(٣) جزء من حديث أخرجه مسلم برقم (٢٦٧٤).

ميت، وإلىٰ حلف بغير الله، وإلىٰ غير ذلك من المعاصي ويُتبع في ذلك؛ يحمل مثل أوزار من ضلوا بسببه جميعاً إلىٰ يوم القيامة، كما بين ذلك رسول الله ﷺ.

وكذلك قوله ﷺ: «**لا تُقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها، لأنه كان أول من سن القتل**»(١).

فكل من سنّ معصية أو اخترع ضلالة وانخدع به الناس، واتبعوه علىٰ ذلك فانه يحمل عليه مثل آثامهم وأوزارهم، لا ينقص منهم شيء، وفي هذا ترغيب للإنسان أن يكون داعية خيرٍ، وأن يكون مجتنباً للشر بعيداً عنه، والله تعالىٰ أعلم.

■ ■ ■ ■ ■

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٣٣٥)، ومسلم برقم (١٦٧٧).

[٥]

باب:
تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله

وقـول الله تعـالى: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِيـنَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيـلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً﴾ [الإسراء: ٥٦].

وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٦ـ٢٨].

وقوله: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

وقـولـه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وفي الصحيح، عن النبي ﷺ أنه قال: «من قال: لا إله إلا الله، وكفر بما يعبد من دون الله: حرم ماله ودمه، وحسابه على الله عز وجل».

وشرح هذه الترجمة: ما بعدها من الأبواب.

● فيه أكبر المسائل وأهمها:

وهي: تفسير التوحيد: وتفسير الشهادة، وبيّنها بأمور واضحة:

* منها: آية الإسراء: بيّن فيها الرد على المشركين الذين يدعون الصالحين، ففيها بيان أن هذا هو الشرك الأكبر.

* ومنها: آية براءة: بيّن فيها أن أهل الكتاب اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، وبين أنهم لم يؤمروا إلا بأن يعبدوا إلهاً واحداً، مع أن تفسيرها الذي لا إشكال فيه، طاعة العلماء والعباد في المعصية، لا دعاؤهم إياهم.

* ومنها: قول الخليل عليه السلام للكفار: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٨]، فاستثنى من المعبودين ربه، وذكر سبحانه أن هذه البراءة وهذه الموالاة هي تفسير شهادة أن لا إله إلا الله، فقال: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٨].

* ومنها: آية البقرة في الكفار الذين قال الله فيهم: ﴿وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧]، ذكر أنهم يحبون أندادهم كحب الله، فدل على أنهم يحبون الله حبّاً عظيماً ولم يدخلهم في الإسلام، فكيف بمن أحب الند أكبر من حب الله؟ فكيف بمن لم يحب إلا الند وحده ولم يحب الله؟

ومنها: قوله ﷺ: «من قال: لا إله إلا الله، وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه، وحسابه على الله»، وهذا من أعظم ما يبين معنى (لا إله إلا الله)، فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصماً للدم والمال؛ بل ولا معرفة معناها مع لفظها؛ بل ولا الإقرار بذلك؛ بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له؛ بل لا يحرُمُ ماله

ودمه حتىٰ يضيف إلىٰ ذلك الكفر بما يعبد من دون الله، فإن شك أو توقف لم يحرم ماله ودمه.

فيالها من مسألة ما أعظمها وأجلها، وياله من بيان ما أوضحه، وحجة ما أقطعها للمنازع.

■ ■ ■ ■ ■

الشرح

باب:
تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله

إذا عرفنا أن الله فرض علينا أن نوحده فنحن بحاجة إلىٰ معرفة التوحيد، يعني: ما هو هذا التوحيد الذي فرضه الله علينا؟

ولا يمكن أن نعرف أنواع التوحيد إلا إذا عرفنا أنواع الشرك، فإذا عرفنا أنواع الشرك وتجنبناها سلم لنا الوحيد، فإن معرفة الشيء تتوقف علىٰ معرفة ضده، وتصور التوحيد إنما هو بعد تصور أنواع الشرك.

وما دمنا عرفنا أن التوحيد فرض، وأنه أهم الفروض وأوجبها، وأنه حق الله علىٰ عباده، وأنه سبب للاهتداء في الآخرة، وسبب للأمن في يوم القيامة، وسبب لدخول الجنة، وسبب للنجاة من النار، وسبب لرجحان الأعمال، وسبب لمغفرة الذنوب، وأن من حققه أتم تحقيق صار من أهل الجنة دون أن يتعرض لحساب أو عذاب، وأننا مكلفون أن نعمل به وأن ندعو الناس إليه.

ما دمنا عرفنا ذلك كله فإننا بحاجة إلىٰ معرفة هذا التوحيد الذي هذه فضائله.

فالتوحيد: مشتق من الواحد، وهو إفراد الله تعالىٰ بأنواع العبادة.

* وأنواع التوحيد أربعة:

* النوع الأول: توحيد الإلهية: وهو الاعتقاد بأن جميع أنواع العبادة لا تصلح إلا لله، وإفراد الله بها.

* **النوع الثاني: توحيد الذات**: وهو الاعتقاد بأن الله واحد في ذاته؛ أي: ليس معه خالق آخر، وليس معه من يشابهه في ذاته.

* **النوع الثالث: توحيد الصفات**: وهو الاعتقاد بأن كل صفة لله لا تشبه صفة من صفات خلقه.

* **النوع الرابع: توحيد الأفعال**: وهو الاعتقاد بأن الله هو الفاعل لكل ما في الوجود، وأنه ليس له شريك في أفعاله، فهو المتفرد بالأفعال، وبالخلق، وبالرزق، وبالتدبير، وما أشبه ذلك.

والمشركون اعترفوا بتوحيد الأفعال، فقد أقروا بأن الله هو الذي خلقهم ورزقهم، وهو الذي خلق السماوات والأرض، وهو الذي ينزل المطر، وهو الذي ينبت النبات... إلخ، ولكنه لم يكف؛ حيث طلب منهم توحيد العبادة الذي هو توحيد الله بأفعال العباد.

وقد ذكر المؤلف رحمه الله تحت هذا الباب أربعة آيات فيها: تفسير توحيد الله بأفعال العباد، الذي هو حق الله على العبيد.

■ **الآية الأولى**: قوله: [وقول الله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٧]]:

وقد سبقها قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٦]؛ أي: ادعو كل معبوداتكم، وانظروا هل يملكون كشف الضر عنكم؟! أو يملكون تحويله منكم إلى غيركم؟! أو يملكون تحويله من عضو إلى عضو؟!

والجواب: أنهم لا يملكون.

وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾، أي: إن أولئك المدعوين الذين تدعونهم من دون الله خير منكم؛ لأنهم: ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾، أي: يبتغون القربة إلىٰ الله بالأعمال الصالحة، والوسيلة هي: القربة، فالصلاة وسيلة، والدعاء وسيلة، والتسبيح وسيلة، والذبح وسيلة، والتكبير وسيلة، والذكر وسيلة.

﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾، أي: مَنْ الأقرب الداعين أم المدعوين؟

لا شك أن المدعوين هم الأقرب، وذلك لأنهم لم يفعلوا كفعلهم، فإن الداعين عبدوا أولئك الأموات وتقربوا إليهم وذبحوا لهم، وأولئك المدعوين كانوا رجالاً صالحين؛ إما علماء أو أنبياء، وكانوا يتقربون إلىٰ ربهم بالأعمال الصالحة: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾؛ أي: كان أولئك المدعوين الصالحين يرجون رحمة الله، ويخافون عذابه، لذا كانوا خيراً منكم أيها العابدون، الذين عبدتموهم مع الله.

فكان الواجب علىٰ الداعين أن يقتدوا بأولئك المدعوين لأنهم كانوا يعبدون الله، فلماذا لم تعبدوا الله مثلهم؟

ثم ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً﴾، أي: يجب أن نحذر أن يقع عذاب الله وذلك بالخوف والرجاء وعبادته وتحقيق التوحيد التام والكامل.

وهذه الآية فيمن يعبد مخلوقاً، وذلك المخلوق يعبد الله، فالذين يعبدون عيسىٰ عليه السلام، يقال لهم: إن عيسىٰ عليه السلام يبتغي الوسيلة إلىٰ ربه، ويرجو رحمته، ويخاف عذابه، وكذلك الذين يعبدون الملائكة، يقال لهم: إن الملائكة عباد لله مكرمون، يعبدون الله وحده، وهم يتبغون الوسيلة إلىٰ ربهم، ويرجون رحمته، ويخافون عذابه.

وهكذا الذين يعبدون الصالحين من الأموات والأحياء، يقال لهم: إن هؤلاء الصالحين يبتغون إلىٰ ربهم الوسيلة، ويرجون رحمته، ويخافون عذابه.

فكل من عبد مخلوقاً وكان ذلك المخلوق المعبود يعبد الله؛ فإنه داخل في هذه الآية.

■ **الآية الثانية: قوله: [وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾** [الزخرف: ٢٦-٢٨]]:

وهذه الآية في قصة إبراهيم عليه السلام، وهي أصرح دليل علىٰ مقصود إبراهيم من قومه لما أنكر عليهم عبادة غير الله، قال لهم: **﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي﴾**.

وهذا دليل علىٰ أن قوم إبراهيم عليه السلام يعبدون الله ويعبدون معه آلهة أخرىٰ غير الله، وهذه الآلهة إما من الأحياء، أو الأموات، أو الجماد؛ ومن أجل ذلك تبرأ إبراهيم عليه السلام من كل معبوداتهم واستثنىٰ ربه.

وقوله: **﴿بَرَاءٌ﴾**؛ أي: متبرئ ومبتعد ومبغض لها، وبريئ منكم ومن أعمالكم، ومن معبوداتكم، **﴿إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي﴾**؛ أي: ابتدع خلقي؛ أي: إلا الخالق لي ولكم ولسائر المخلوقات **﴿فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾** إلىٰ سواء السبيل.

وفي هذه الآية دليل علىٰ أن حقيقة التوحيد: البراءة من المعبودات كلها إلا الله وحده.

وفي آية أخرىٰ أن إبراهيم عليه السلامة قال: **﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾** [الشعراء: ٧٥-٧٧]، فقد

صرح بعداوة كل معبوداتهم إلا رب العالمين.

■ **الآية الثالثة: قوله:** [وقوله: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]]:

هذه الآية في سياق الكلام على اليهود والنصارى الذين قالوا: عزير ابن الله، والمسيح ابن الله، قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠]، ثم قال الله رداً عليهم وبياناً لفساد قولهم: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ . . .﴾الآية؛ أي: أنهم اتخذوا أحبارهم: وهم العلماء من اليهود، ورهبانهم: وهم العباد من النصارى.

وقد كان هؤلاء الأحبار والرهبان مقدسين عند عامة الناس من اليهود والنصارى، بحيث إنهم يتقبلون منهم، ويتبعون تشريعهم ويعظمونهم ويطيعونهم، فيحلون لهم الحرام، ويحرمون عليهم الحلال، ويغيرون لهم الشريعة، ويسقطون عنهم الحدود، والناس يطيعونهم في ذلك، وكأنهم أرباب؛ أي: جعلوهم بمثابة الرب.

﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]؛ فلم يؤمروا في كتبهم التي أنزلت عليهم إلا أن يعبدوا إلهاً واحداً؛ وهو الله، وهذا هو تفسير التوحيد.

قال في فتح المجيد(١): «وفي الحديث الصحيح أن النبي ﷺ تلا هذه الآية على عدي بن حاتم الطائي، فقال: يا رسول الله؛ لسنا نعبدهم، قال: «أليس

(١) انظر «فتح المجيد» (١ / ٩٧).

يحلون لكم ما حرّم الله فتحلونه ،ويحرمون ما أحل الله فتحرمونه؟» قال : بلى ، قال النبي ﷺ : **«فتلك عبادتهم»**(١) .

فصارت طاعتهم في المعصية عبادة لغير الله ، وبها اتخذوهم أرباباً ، كما هو الواقع في هذه الأمة ، وهذا من الشرك الأكبر المنافي للتوحيد ، الذي هو مدلول شهادة (لا إله إلا الله) . انتهى .

■ **الآية الرابعة: قوله: [وقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾** [البقرة: ١٦٥]] :

هذه الآية فيها ذكر نوع من أنواع الشرك ، وهو شرك المحبة ، وسيأتي الكلام عنه في باب : قول الله تعالى : **﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا ...﴾** الآية [البقرة: ١٦٥] .

إن هناك من الناس من يحبون بعض المخلوقات الحب الواجب لله ، ولكن محبة المؤمنين لله أشد من محبة هؤلاء لمألوهاتهم ولمعبوداتهم ؛ سواءً كانوا يحبون ميتاً من الأموات المقبورين ، أو يحبون نداً كشجرة ، أوحجر ، أو بقعة ، أو قبة ، أو قبر ، وما أشبه ذلك .

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٣٠٩٥) ، وابن جرير برقم (١٦٦٣١)و(١٦٦٣٢)و(١٦٦٣٣) ، وأورده السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٢٣) ، عن عدي بن حاتم رضي الله عنه .

قال الترمذي : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب وغطيف بن أعين ، وغطيف بن أعين ليس بمعروف في الحديث .

قال الشيخ عبد القادر الأرناؤوط في تحقيقه على كتاب التوحيد للشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله : لكن في الباب عن حذيفة موقوفاً ، أخرجه ابن جرير برقم (١٦٦٣٤) وبه يقوى .

وقال ابن كثير : رواه أحمد والترمذي وابن جرير من طرق عن عدي بن حاتم رضي الله عنه .

إنهم يحبونهم كحب الله؛ فحبهم لله وحبهم للأنداد على حد سواء، وفي هذا دليل على أنهم يحبون الله حباً شديداً، ولكن حبهم لله هذا لم يدخلهم في الإسلام؛ وذلك أنهم جعلوا حبهم مشتركاً، قسماً لله وقسماً لهؤلاء الأموات وهؤلاء الأنداد.

والمؤمنون حبهم لله أشد؛ وذلك لأن المؤمنين حبهم كله خالص لله، أما هؤلاء فحبهم مشترك، ولا شك أن الحب الخالص أقوى من الحب المشترك.

وهذه الآية فيها تفسير التوحيد؛ لأنه الذي يكون فيه الحب لله تعالى، وأن الشرك هو محبة غير الله كمحبة الله.

■ **قوله: [وفي الصحيح، عن النبي ﷺ أنه قال: «من قال: لا إله إلا الله، وكفر بما يعبد من دون الله: حرم ماله ودمه، وحسابه على الله عز وجل**[1]]:

ظاهر هذا الحديث أن التلفظ بالشهادة لا يكفي، فلا يصير مسلماً بمجرد التلفظ حتى يترك عبادة غير الله.

وقوله: «**وحسابه على الله عز وجل**»: قال في فتح المجيد[2]: (أي: الله تبارك وتعالى هو الذي يتولى حسابه، فإن كان صادقاً جازاه بجنات النعيم، وإن كان منافقاً عذبه العذاب الأليم، وأما في الدنيا فالحكم على الظاهر، فمن أتى بالتوحيد ولم يأت بما ينافيه ظاهراً، والتزم شرائع الإسلام، وجب الكف عنه) انتهى.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٣)، من حديث طارق بن أشيم الأشجعي رضي الله عنه.

(٢) انظر «فتح المجيد» ص(١ / ٢٢٤) بتحقيق الوليد بن فريان.

■ وقوله: [وشرح هذه الترجمة: ما بعدها من الأبواب]:

قال في فتح المجيد[1]: (وذلك أن ما بعدها من الأبواب فيه ما يبين التوحيد، ويوضح معنىٰ لا إله إلا الله، وفيه ـ أيضاً ـ بيان أشياء كثيرة من الشرك الأصغر والأكبر، وما يوصل إلىٰ ذلك من الغلو والبدع، ومما تركه من مضمون لا إله إلا الله، فمن عرف ذلك وتحققه تبين له معنىٰ: لا إله إلا الله، وما دلت عليه من الإخلاص ونفي الشرك، وبضدها تتبين الأشياء.

فبمعرفة الأصغر من الشرك، يعرف ما هو أعظم منه من الشرك الأكبر المنافي للتوحيد، وأما الأصغر فإنما ينافي كماله، فمن اجتنبه فهو الموحد حقّاً.

وبمعرفة وسائل الشرك والنهي عنها، تعرف الغايات التي نهي عن الوسائل من أجلها.

فإن اجتناب ذلك كله يستلزم التوحيد والإخلاص، بل يقتضيه.

وفيه أيضاً من أدلة التوحيد: إثبات الصفات، وتنزيه الرب تعالىٰ عما لا يليق بجلاله؛ وكل ما يعرّف بالله من صفات كماله وأدلة ربوبيته؛ يدل علىٰ أنه هو المعبود وحده، وأن العبادة لا تصلح إلا له، وهذا هو التوحيد، ومعنىٰ شهادة أن لا إله إلا الله). انتهىٰ.

* ومن المسائل التي ذكرها المصنف في هذا الباب: قال: (ومنها: آية البقرة في الكفار، الذين قال الله فيهم: ﴿وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧]، فذكر أنهم يحبون أندادهم كحب الله): فدل أنهم يحبون الله حبّاً عظيماً، ولم يدخلهم في الإسلام، فكيف بمن أحب الند أكبر من حب الله؟ فكيف بمن لم يحب إلا الند

---

(١) انظر «فتح المجيد» ص(١ / ٢٢٤). تحقيق الوليد بن فريان.

وحده ولم يحب الله؟

* ومن المسائل التي ذكرها المصنف رحمه الله، أيضاً قال: «**فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصماً للدم والمال**»: فلو قالها إنسان مائة مرة، ولكنه يعبد مع الله غيره، أو لم يكفر بعبادة غير الله، ولا أنكر على من يعبد غير الله، أو أقر من يعبد المسيح، أو من يعبد عبد القادر، أو من يعبد البدوي، أو من يعبد فلاناً، أو ما أشبه ذلك؛ فهذا حلال الدم والمال؛ لأنه لم يكفر بما يعبد من دون الله، والكفر يستدعي إنكاره ويستدعي البراءة منه، ويستلزم الإنكار على عابديه، وتشنيعه عليهم، ومقته لهم، وإنكاره لأفعالهم، وأن يكون الإنكار علنياً.

ثم قال المصنف: «**بل ولا معرفة معناها مع لفظها**»: فكون الإنسان يعرف معنى (لا إله إلا الله)، ويعرف مدلولها، ويعرف أنه لا أحد يستحق الإلهية إلا الله، وأن الإلهية حق الله لا يشاركه فيها أحد غيره، ولكنه لم يعمل بمقتضاها، أو لم ينكر على من خالف مقتضاها، وعبد غير الله، فهذا لا ينتفع ولا يحرم ماله ودمه، حتى يكفر بما يعبد من دون الله، فإن شك أو تردد لم يحرم ماله أو دمه؛ بل يكون دمه وماله حلالاً؛ حيث إنه استحل شيئاً يضاد معنى: لا إله إلا الله.

■ ■ ■ ■ ■

[٦]

باب:

من الشرك: لبس الحلقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه

وقول الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨].

عن عمران بن حصين رضي الله عنه، أن النبي ﷺ رأى رجلاً في يده حَلْقة من صُفْر، فقال: «ما هذه؟»، قال: من الواهنة، فقال: «انزعها؛ فإنها لا تزيدك إلا وهناً؛ فإنك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبداً»، رواه أحمد بإسناد لا بأس به.

وله، عن عقبة بن عامر، مرفوعاً: «من تعلق تميمة فلا أتم الله له، ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له».

وفي رواية: «ومن تعلق تميمة فقد أشرك».

ولابن أبي حاتم عن حذيفة: أنه رأى رجلاً في يده خيط من الحمى، فقطعه، وتلا قوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦].

*** فيه مسائل:**

الأولى: التغليظ في لُبس الحلقة والخيط ونحوهما لمثل ذلك.

الثانية: أن الصحابي لو مات وهي عليه ما أفلح، فيه شاهد لكلام الصحابة أن الشرك الأصغر أكبر من الكبائر.

الثالثة: أنه لم يعذر بالجهالة.

الرابعة: أنها لا تنفع في العاجلة بل تضر، لقوله: «**لا تزيدك إلا وهناً**».

الخامسة: الإنكار بالتغليظ على من فعل مثل ذلك.

السادسة: التصريح بأن من تعلق شيئاً وُكل إليه.

السابعة: التصريح بأن من تعلق تميمة فقد أشرك.

الثامنة: أن تعليق الخيط من الحمّى من ذلك.

التاسعة: تلاوة حذيفة الآية دليل على أن الصحابة يستدلون بالآيات التي في الشرك الأكبر على الأصغر، كما ذكر ابن عباس في آية البقرة.

العاشرة: أن تعليق الودع عن العين من ذلك.

الحادية عشرة: الدعاء على من تعلق تميمة أن الله لا يتم له، ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له؛ أي: ترك الله له.

■ ■ ■ ■ ■

الشرح

باب:
من الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه

هذا أول الأبواب التي ذكر فيها ما ينافي التوحيد من الشركيات الظاهرة والخفية.

وقد جزم الشيخ رحمه الله بأن هذا اللبس من الشرك إذا قصد به رفع البلاء بعد نزوله، أو دفعه قبل نزوله.

والمراد باللبس: الاستعمال، فإن لبس كل شيء بحسبه، فلبس الحلقة ربطها في العضد أو الساق أو الاصبع، ولبس الخيط ربطه ووضعه في بعض أعضاء البدن.

ويراد بالحلقة: كل حديدة متلاقية الطرفين، وسواء كان صنعها كذلك، أو عند اللبس عطف أحد طرفيها حتى صارت حلقة، وقد تكون من أعواد أو من معدن، أو ربل، أو طين أو غير ذلك، والذين يلبسونها يظنونها تنفعهم وتخفف عنهم الآلام، أو تحرسهم من الأضرار والأمراض، فيعتقدون أنها تشفي بذاتها، وتؤثر حماية ودفعاً، ومنفعة ظاهرة، مع أنها مخلوقة مصنوعة، لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضراً، فكيف تملك لغيرها شيئاً من ذلك؟! فلا ترفع البلاء من الإنسان أو من المجتمع بعد نزوله، ولا تقدر على دفعه ورده قبل نزوله.

ويراد بالبلاء: الأمراض والعاهات، والمصائب والعقوبات، وكذلك تسلط

الأعداء وغلبتهم ونحو ذلك، ولا يدفع ذلك إلا الله تعالىٰ، فالواجب علىٰ العباد أن يعتمدوا علىٰ ربهم، ويدعوه ويطلبوا منه حمايته وحراسته وحفظه لهم، وأن يفعلوا الأسباب الحسيّة، فيأخذوا الحذر كما قال تعالىٰ: ﴿وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: ١٠٢]، وذلك بأخذ كل ما بقي من الأضرار؛ كاللباس لدفع البرد والحر، وكالأكل والشرب لدفع الجوع والظمأ، ومثل التكسب بما أباحه الله لجلب الرزق الحلال، وكالعلاج لدفع الأمراض بالأدوية المباحة، ونحو ذلك، مع التوكل علىٰ الله فإنه مسبب الأسباب.

■ **قوله: [وقول الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾** [الزمر: ٣٨]]:

هذا الخطاب للنبي ﷺ، أمره الله تعالىٰ بمناظرة المشركين في آلهتهم التي يدعونها من دون الله، و يصرفون لها العبادة التي هي خالص حق الله تعالىٰ، هل تقدر علىٰ كشف الضر والبلاء الذي يقدره الله علىٰ الإنسان، أو تدفعه وترده فلا يقع، وهل تقدر علىٰ إمساك رحمة الله التي يريد الله وقوعها للناس أو لبعضهم؟

فالمعنىٰ: أخبروني أيها العابدون لغير الله عن آلهتكم التي تعظمونها، وتصرفون لها أنواع العبادة، لو قدر الله عليكم أو علىٰ بعضكم مرضاً أو قحطاً أو موتاً أو مصيبة، فهل لها قدرة علىٰ كشف ذلك البلاء، أو ردِّه حتىٰ لا يقع؟! أو قدر الله تعالىٰ لي أو لأحد من الناس رحمة ونعمة وخيراً ورزقاً، فهل تقدر هذه المعبودات علىٰ إمساك رحمته وردها، ومنع الوقوع لها؟

الجواب: أنها لا تقدر على شيء من ذلك، فإن أولئك المشركين يعترفون بأن ذلك لله وحده، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ [يونس: ٣١]، فهم يعترفون أن النفع وجلب الخير من الله وحده، وأن دافع الشرور هو الله العظيم، وإنما جعلوا تلك المعبودات وسائط بينهم وبين الله، يرجون شفاعتها وبركاتها، وهذا الوصف يدخل فيه لبس الحلقة أو الخيط، واعتقاد أنه يكشف الضرر أو يجلب الخير، فيكون من لبسه لذلك قد فعل ما لا فائدة فيه، كما أن المشركين عبدوا من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم، فلا يجلب لهم خيراً، ولا يمسك عنهم ضراً، فالواجب تعلق القلوب بعلام الغيوب، واعتقاد أنه هو الذي يملك الضر والنفع دون من سواه.

■ **قوله: [عن عمران بن حصين رضي الله عنه، أن النبي ﷺ رأى رجلاً في يده حَلْقة من صُفْر، فقال: «ما هذه؟»، قال: من الواهنة، فقال: «انزعها؛ فإنها لا تزيدك إلا وهناً؛ فإنك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبداً»، رواه أحمد بإسناد لا بأس به**[1]]:

وهو في المسند برقم (١٩٩٤٣)، ولفظه: أن النبي ﷺ أبصر على عضد

(١) أخرجه أحمد في المسند (٤/ ٤٤٥)، وابن ماجة (٣٥٣١)، وابن حبان (١٣/ ٤٤٩، ٦٠٨٥)، والطبراني في «الكبير» (١٨/ ١٧٢) رقم (٣٩١)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ٢١٦)، والبيهقي في «السنن» (٩/ ٣٥١).

قال البوصيري في «مصباح الزجاجة» (٣/ ١٤٠): هذا إسناد حسن، مبارك هو ابن فضالة مختلف فيه. أ. هـ وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ١٠٣): وفيه مبارك بن فضالة وهو ثقة، وفيه ضعف وبقية رجاله ثقات. أ. هـ.

وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وعزاه المنذري في «الترغيب والترهيب» (٦/ ١١٣)، للحاكم، وقال: قال الحاكم: صحيح الإسناد. وقال المصنف (أي: الشيخ محمد بن عبد الوهاب): رواه أحمد بإسناد لا بأس به.

وقد خرجه الشيخ عبد الله بن جبرين حفظه الله وذكر بعض الألفاظ.

رجل حلقة، أراه قال: من صفر، فقال: «**ويحك ما هذه؟**» قال: من الواهنة، قال: «**أما إنها لا تزيدك إلا وهناً، انبذها عنك فإنك لو مت. .إلخ**».

ورواه الحاكم في المستدرك في الطب، ولفظه: دخلت على النبي ﷺ وفي عضدي حلقة صفر، فقال: «**ما هذه؟**» فقلت: من الواهنة، فقال: «**انبذها**». وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.

و«**الحلقة**»: قطعة من حديد أو نحوه متلاقية الطرفين، وكل ما ليس له طرف فهو حلقة، ومنه تحلق القوم حول العالم، وذلك إذا استداروا حوله.

و«**الصفر**»: هو الذي تعمل منه الأواني، وهو نوع من النحاس الجيد، ولونه يميل إلى الصفرة.

و«**الواهنة**» عرق يأخذ بالمنكب وبالعضد كلها، ويحصل منه وهن وضعف في البدن.

ففي هذا الحديث أن النبي ﷺ أنكر على هذا الرجل، - وهو عمران نفسه كما في رواية الحاكم - لبس هذه الحلقة كعلاج لهذا المرض، وذلك أنه يعتقد في هذه الحلقة أنها تدفع هذا المرض، أو تخففه بعد نزوله، فأمره النبي ﷺ أن ينبذها؛ أي: يطرحها ويلقيها عنه، بعد أن يخلعها، وأخبره بأنها لا تنفعه من هذا المرض، بل تزيده وهنًا إلى وهنه.

و«**الوهن**» هو: الألم والضعف كما في قوله تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ [لقمان: ١٤].

ثم إن النبي ﷺ قد عرف أنها حلقة، وأنها من صفر، فقوله: «**ما هذا؟**»، أي: ما هذا الفعل؟ ولماذا لبست هذه الحلقة؟ وما السبب في جعلها في عضدك؟

وقد عرف أنه قصد بلبسها استشفاءً من مرض، وأنها لم تكن حلياً، ولم يقصد بها الزينة، فسأله عن الحامل له على وضعها في عضده، فلما أخبره بالسبب أمره بنزعها ثم طرحها، وأخبره أنها لا شفاء فيها لا من الواهنة ولا من غيرها، و أنها تزيده مرضاً.

ولعل السبب أنه لما اعتقد أنها تنفعه وتفيده عاقبه الله بنقيض قصده، أو أنه لما تعلق قلبه بمخلوق، واعتقد أن له تأخير الألم أو إزالته عاقبه الله على هذا الذنب الذي هو شرك بعقوبة حسية أو معنوية، بنقص توحيده، وإضعاف إيمانه، فكان ذلك معنى زيادة الوهن، أو بمرض مع مرضه عقوبة على هذا الفعل الذي لم يأذن به الله تعالى.

ثم قال: «**فإنك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبداً**».

الفلاح هو: الفوز والسعادة، والظفر بالمطلوب، وهو من خصائص الموحدين، كما قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢]؛ أي: السعداء في الدنيا والآخرة، وقد أخبر الله تعالى بصفات أهل الفلاح بقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ الآيات، [المؤمنون: ١]، فعلى هذا يكون المعنى أنك لو بقيت على لبس هذه الحلقة لأجل الاستشفاء بها والاعتقاد فيها فإنه لا يحالفك الفلاح؛ بل تفوتك السعادة، و تخسر في الآخرة أعظم الخسران، وهو دليل على أن الشرك ولو كان من الأصغر يؤدي إلى الخسران المبين، فإن هذا اللبس لا يصل بصاحبه إلى الشرك الأكبر إذا كان مجرد ظن أنها ترفع البلاء كسبب، ومع ذلك فقد نهى عنها أشد النهي، حيث أمر بنبذها، وتوعد على لبسها لهذا الغرض بعدم الفلاح المؤبد، ولكن هذا التأبيد مقيد بالدنيا، أو بعدم عفو الله ورحمته.

■ **قوله: [وله، عن عقبة بن عامر، مرفوعاً: «من تعلق تميمة فلا أتم الله له، ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له[1]»]:**

هكذا رواه أحمد في المسند برقم (١٧٣٧٢)، ورواه أبو يعلىٰ في مسنده برقم (١٧٥٩)، والحاكم في المستدرك (٤ / ٤١٧)، وصححه ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد»: رواه أحمد وأبو يعلىٰ والطبراني ورجالهم ثقات.

و(التميمة): واحدة التمائم التي تعمل من خرزات، أو نوىٰ، أو خرق، أو كتابات، تجمع في خيط أو خرقة، وتعلق علىٰ الأولاد ونحوهم، يتقون بها العين، كما قال سيبويه في معلقته:

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع
فألهيتها عن ذي تمائم محول

أي: شغلتها عن الطفل الذي قد علقت عليه التمائم.

وقال الشاعر:

وإذا المنية أنشبت أظفارها
ألفيت كل تميمة لا تنفع

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٤ / ١٥٤)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٤/ ٣٢٥) وأبو يعلىٰ في مسنده (٣ / ٢٩٦) رقم (١٧٥٩)، والحاكم في «المستدرك» (٤ / ٢١٦، ٤١٧)، وابن حبان (١٣ / ٤٥٠) رقم (٦٠٦٨) والبيهقي (٩ / ٣٥٠) والطبراني في «الكبير» (١٧ / ٢٩٧) رقم (٨٢٠).

قال المنذري في «الترغيب والترهيب» (٤ / ٣٠٦): إسناده جيد، وقال الهيثمي (٥ / ١٠٣)، بعد أن عزاه إلىٰ أحمد وأبو يعلىٰ والطبراني: ورجالهم ثقات، وقال الحافظ ابن حجر في تعجيل المنفعة ص(١١٤) رقم (٦٢): ورجال حديثه موثوقون، وقال المناوي في «التيسير» (٢ / ٢٣١): إسناده صحيح.

ومعنى الحديث: أن من علق هذه التميمة على نفسه، أو على ولده، أو دابته، أو على سقف داره أو بابها، وقصد بذلك الحماية والتحرز من العين أو الأضرار، أو الأمراض والعاهات، «فلا أتم الله له»، وهذا دعاء عليه بنقيض قصده، فإن التميمة مشتقة من التمام؛ أي: أنها في زعمهم تتم بها المقاصد، ويتم بها الحفظ والحراسة من الأضرار والشرور، وهذا تعلق على مخلوق، واعتقاد أن هذه الخرزات والخرق تدفع البلاء قبل نزوله، أو ترفعه بعد النزول، أو تخففه، مع أنها جماد مخلوق لا حركة فيها، ولا أثر لها في الظاهر، ولكنهم لجهلهم وبعدهم عن الحق، وعن معرفة الرب تعالى؛ خيل إليهم أنها مع الاعتقاد فيها تفيدهم وتنفعهم، ورأوا على الاعتماد عليها آباءهم وأسلافهم فجاء الشرع بإنكار ذلك، وأبطل هذا الاعتقاد، وأمر بالتوكل على الله، واعتقاد أنه هو النافع الضار، وأن هذه التعاليق لا تأثير لها أصلاً.

ثم إن قوله: «**من تعلق تميمة فلا أتم الله له**»، يعم من تعلق قلبه بها، ولو لم يلبسها، كمن يعلقها على الأطفال أو الدواب أو المنازل، فإنه يصدق عليه أنه قد علق قلبه بها، وتوهم أنها تحرس المنزل بطبعها، أو تحفظ الدابة من الضياع واللصوص والسباع، أو الأطفال من العين والهوام والأمراض، فاعتبر هو الفاعل، وإن كانت على غيره، فإن الأطفال ليس لهم اختيار، فالتكليف والإثم على الوالدين اللذين باشرا هذا التعليق.

وكذا يقال في تعليق الودع، الذي واحدته ودعة، وهي شيء أبيض يشبه، الصدف، في وسطها شق مثل شور النواة، أو أوسع، منها ما هو كالنواة وما هو أكبر منها، ذكروا أنه يستخرج من البحار، فأهل الجاهلية ومن شابههم من المشركين في هذه الأمة وغيرها ينظمونه في سلك، ويعلقونه على الأطفال ونحوهم، وقد يجعلونه مع التمائم داخل الخرق، وقد يجمعه الكهنة ونحوهم

وينثرونه عند طلب معرفة المغيبات، كالضرب بالحصىٰ، ويستدلون به علىٰ بعض الحوادث المستقبلة التي تخبرهم بها الشياطين، فلهذا أنكر النبي ﷺ علىٰ من تعلق قلبه به، ودعا عليهم بقوله: «**ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له**»؛ أي: لا جعله في دعة وسكون؛ بل جعله في قلق واضطراب.

وهذا دعاء عليه بنقيض قصده، حيث قصد الحماية والحفظ والراحة، والطمأنينة والسرور بهذا التعليق، وتعلق قلبه بهذه الودعات التي هي مخلوقة مربوبة، لا تملك نفعاً ولا ضرّاً؛ بل هي جماد وتفنىٰ، ولا ترد عن نفسها، فكيف عن غيرها؟! فمن تعلق قلبه بها قاصداً النفع فهو حري أن يعاقبه الله، ويسلط عليه الآفات والشرور عاجلاً أو آجلاً، ولو قدر أنه حصل له في نظره شيء من النفع الذي هو من باب المصادفة، فإن عاقبته وخيمة والله أعلم.

■ **قوله**: [وفي رواية: «**ومن تعلق تميمة فقد أشرك**»(١)]:

هذا اللفظ وقع في حديث آخر رواه الإمام أحمد عن عقبة بن عامر، أن النبي ﷺ أقبل إليه رهط فبايع تسعة وأمسك عن واحد، وقال: «**إن عليه تميمة**»، وقال: «**من علق تميمة فقد أشرك**»، ورواه الحاكم بنحوه ورواته ثقات.

ومعنىٰ الشرك في هذا التعليق: أن من علقها فقد تعلق قلبه بها، وظن أنها تؤثر وتفيد بطبعها، وتحرس وتحمي من علقها، فكان هذا تعلقاً بغير الله فيكون شركاً، فإن اعتقد أن التمائم لها أثر بنفسها، وأنها هي التي تنفع وتدفع بذاتها فهو شرك أكبر؛ لأنه جعل مع الله متصرفاً في الكون وإن اعتقدها تؤثر بإذن الله، وأن

---

(١) أخرجه أحمد (٤ / ١٥٦)، والحاكم (٤ / ٤١٧).

قال المنذري في «الترغيب والترهيب» (٦ / ١١٢): رواه أحمد والحاكم ورواة أحمد ثقات.
وقال الهيثمي في «المجمع» (٥ / ١٠٣): رواة أحمد ثقات.

الله جعل فيها هذا النفع، فتعلق قلبه بها لذلك فهو من الأصغر، وهو أكبر من الكبائر والله أعلم.

■ **قوله: [ولابن أبي حاتم عن حذيفة: أنه رأى رجلاً في يده خيط من الحمى، فقطعه، وتلا قوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾**[١] [يوسف: ١٠٦]]:

قال الشارح الشيخ سليمان بن عبدالله رحمه الله: وروىٰ وكيع عن حذيفة أنه دخل علىٰ مريض يعوده فلمس عضده فإذا فيه خيط، فقال: ما هذا؟ فقال: شيء رقي لي فيه، فقطعه، وقال: لو مت وهو عليك ما صليت عليك[٢].

وذكر ابن كثير عن حماد بن سلمة، عن عاصم، عن عروة، قال: دخل حذيفة علىٰ مريض فرأىٰ في عضده سيراً فقطعه، أو انتزعه، ثم قال: **﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾**[٣] [يوسف: ١٠٦].

وهذه الآية نزلت في مشركي العرب، فإنهم يؤمنون بالله ويوحدونه في الشدة، وفي لجة البحر، فإذا نجوا من الشدة أشركوا بالله، وجعلوا له أنداداً.

وقيل: إن إيمانهم إقرارهم بتوحيد الربوبية، وأن الله هو الخالق الرازق المدبر، المتصرف في الكون، الذي يملك السمع والأبصار، ويخرج الحي من الميت، والميت من الحي، وهم مع ذلك يجعلون معه آلهة آخرىٰ يصرفون لها العبادة التي هي حق الله علىٰ العبيد.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير كما في «تيسير العزيز الحميد» (ص١٦٠)، و«الفتح» (ص١٢١)، وأورده ابن كثير في تفسيره(٤/ ٣٤٢).

(٢) انظر «فتح المجيد» (١/ ٢٣٧).

(٣) انظر «تفسير ابن كثير» (٤/ ٣٤٢).

ثم إن حذيفة رضي الله عنه استدل بها على أن تعليق السير، أو الخيط لدفع المرض من الشرك؛ أي: ذلك الرجل مسلم موحد، ولكنه وقع منه شرك بهذا التعليق وربط هذا الخيط، حيث تعلق قلبه به، وظن أنه ينفعه أو يخفف عنه من الحمى أو من الأمراض، مع أنه خيط أو سير عادي؛ أي: مخلوق، لا يتصرف في نفسه، فكيف يدفع عن غيره؟

وهذا التعليق من الشرك الأصغر، ولكن حذيفة لم يتساهل مع ذلك الرجل، فبادر بقطع الخيط، وأزال المنكر بيده، ولم ينتظر إزالة صاحبه له، مبادرة إلى محو الشرك، واستدل عليه بهذه الآية التي نزلت في الشرك الأكبر، لعموم الآية لنوعي الشرك، ففيه دليل على أن هذا التعليق والربط بهذا الاعتقاد داخل في عموم الشرك الذي حرمه الله، وتوعد عليه بالعذاب، والله أعلم.

■ ■ ■ ■ ■

[٧]

باب:
ما جاء في الرقى والتمائم

في الصحيح، عن أبي بشير الأنصاري: أنه كان مع النبي ﷺ في بعض أسفاره، فأرسل رسولاً: أن لا يبقين في رقبة بعير قلادة من وتر ـ أو قلادة ـ إلا قُطعت».

وعن ابن مسعود: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الرقى والتمائم والتولة شرك»، رواه أحمد، وأبو داود.

وعن عبد الله بن عُكَيم، مرفوعاً: «من تعلق شيئاً وكل إليه»، رواه أحمد، والترمذي.

(التمائم): شيء يعلق على الأولاد يتقون به العين، لكن إذا كان المعلق من القرآن فرخص فيه بعض السلف، وبعضهم لم يرخص فيه، ويجعله من المنهي عنه، منهم ابن مسعود رضي الله عنه.

و (الرقى): هي التي تسمى العزائم، وخص منه الدليل ما خلا من الشرك، فقد رخص فيه رسول الله ﷺ من العين والحمة.

و (التولة): شيء يصنعونه يزعمون أنه يحبب المرأة إلى زوجها، والرجل إلى امرأته.

وروى الإمام أحمد، عن رويفع، قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا رويفع، لعل الحياة ستطول بك، فأخبر الناس: أن من عقد لحيته، أو تقلد وتَرَاً، أو استنجى برجيع دابة، أو عظم، فإن محمداً برئ منه».

وعن سعيد بن جبير، قال: من قطع تميمة من إنسان، كان كعدل رقبة. رواه وكيع.

وله عن إبراهيم، قال: كانوا يكرهون التمائم كلها، من القرآن وغير القرآن.

■ ■ ■ ■ ■

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الرقى والتمائم.

الثانية: تفسير التولة.

الثالثة: أن هذه الثلاث كلها من الشرك من غير استثناء.

الرابعة: أن الرقية بالكلام الحق من العين والحمة ليس من ذلك.

الخامسة: أن التميمة إذا كانت من القرآن فقد اختلف العلماء، هل هي من ذلك أم لا؟

السادسة: أن تعليق الأوتار على الدواب من العين من ذلك.

السابعة: الوعيد الشديد على من تعلق وتراً.

الثامنة: فضل ثواب من قطع تميمة من إنسان.

التاسعة: أن كلام إبراهيم لا يخالف ما تقدم من الاختلاف؛ لأن مراده أصحاب عبد الله.

■ ■ ■ ■ ■

•• الشرح ••

باب:
ما جاء في الرقى والتمائم

أي: ما جاء في حكمها وما يجوز منها وما لا يجوز، وما وقع فيه خلاف.

والمراد بالرقى: القراءة على المرضى، باستعمال النفث والنفخ عليه، مع قراءة آيات أو غيرها.

وقد تقدم في باب: (من حقق التوحيد) حديث بريدة بن الحصيب بلفظ: «**لا رقية إلا من عين أو حمة**»[1]، وقد فسرها المؤلف هنا بالعزائم، و ذلك أن الراقي يعزم على قراءته ويجزم، فيقرأ بقوة، ويستمر في القراءة مدة طويلة أو قصيرة، مع النفث على المريض.

وقد اختلف في حكمها، فجاء في الباب السابق إباحتها بحديث: «**لا رقية إلا من عين أو حمة**»، كما جاء تركها والتورع عنها في قوله ﷺ في صفة السبعين ألفاً: «**هم الذين: لا يسترقون، ولا يكتوون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون**»[2]،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد: (٤ / ٤٣٦، ٤٣٨، ٤٤٦)، وأبو داود برقم (٣٨٨٤). والترمذي برقم (٢٠٥٧). عن عمران بن حصين.

وأخرجه أحمد (١ / ٢٧١)، وابن ماجة برقم (٣٥١٣)، عن حصين بن عبد الرحمن، قال الهيثمي رجال أحمد ثقات. وقال أحمد شاكر في تحقيق «المسند» (٢٤٤٨): إسناده صحيح.

(٢) جزء من حديث أخرجه البخاري برقم (٥٧٠٥، ٥٧٥٢) مطولاً، وبرقم (٣٤١٠، ٦٤٧٢، ٦٥٤١)، مختصراً، ومسلم برقم (٢٢٠)، عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

وانظر شرحه وتخريجه في الباب الثاني، باب (من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب).

متفق عليه، وهو مدح لهم على ترك طلب الرقية، وأنهم بهذه الصفات استحقوا دخول الجنة بغير حساب ولا عذاب.

● **ومع ذلك فالجمهور على جواز الرقية المباحة، لكن بشروط ثلاثة:**

* **الأول**: أن تكون بكلام الله تعالى، أو بأسمائه وصفاته، أو بالأدعية المأثورة السالمة من الشرك.

* **الثاني**: كون الرقية باللسان العربي، وما يعرف معناه، فلا تجوز بلغة مجهولة، ولا بحروف مقطعة أو منكسة، ولا بكلام لا معنى له في الظاهر.

* **الثالث**: أن يعتقد أن الرقية لا توثر بذاتها، بل بتقدير الله تعالى.

وقد ثبت أن النبي ﷺ رقى بعض أصحابه[١]، ورقاه جبريل عليه السلام[٢]،

---

(١) عن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ: كان يرقي بهذه الرقية: «**أذهب الباس، رب الناس، بيدك الشفاء، لا كاشف له إلا أنت**». أخرجه مسلم برقم (٢١٩١)(٤٩).

وعنها أيضاً قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أتى المريض يدعو له: «**أذهب الباس، رب الناس، واشف أنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقماً**». أخرجه البخاري برقم (٥٦٧٥)، ومسلم برقم (٢١٩١)(٤٨).

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ يعوذ الحسن و الحسين، ويقول: «**أعيذكما بكلمات الله التامة، من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة**». أخرجه البخاري برقم (٣٣٧١). وغيرها من الأحاديث.

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢١٨٥). من حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كان إذا اشتكى رسول الله ﷺ رقاه جبريل، قال: باسم الله يبريك، ومن كل داء يشفيك، ومن شر حاسد إذا حسد، وشر كل ذي عين.

وعن أبي سعيد رضي الله عنه: أن جبريل أتى النبي ﷺ فقال: يا محمد اشتكيت؟ فقال: «**نعم**». قال: باسم الله أرقيك، من كل شيء يؤذيك، من شر كل نفس، أو عين حاسد الله يشفيك، بسم الله أرقيك. أخرجه مسلم برقم (٢١٨٦).

وروىٰ مسلم في صحيحه عن عوف بن مالك قال: كنا نرقي في الجاهلية، فقلنا: يا رسول الله! كيف ترىٰ في ذلك؟ فقال: «**أعرضوا علي رقاكم، لا بأس بالرقى ما لم تكن شركاً**»[١].

وعن أنس قال: رخص رسول الله ﷺ في الرقية من العين والحمة والنملة[٢]، رواه مسلم.

وثبت في الصحيح عن أبي سعيد قصة الصحابة الذين نزلوا بحي من أحياء العرب، فلدغ سيد الحي، فرقاه أبو سعيد أو أحد أولئك الصحابة بفاتحة الكتاب فشفي بإذن الله، وأعطوهم علىٰ ذلك جعلاً، فقال النبي ﷺ: «**وما أدراك أنها رقية**»، ثم قال: «**اقسموا واضربوا لي معكم سهماً**»[٣]، وقال: «**إن أحق ما أخذتم عليه أجراً كتاب الله تعالى**»[٤].

وقد ثبت في الرقية أدعية كثيرة:

* **منها**: حديث عائشة رضي الله عنها، قالت: كان النبي ﷺ ينفث علىٰ نفسه بالمعوذات، فلما ثقل كنت أنفث عليه بهن وأمسح بيده نفسه رجاء بركتها[٥]، وفي رواية: كان إذا أوىٰ إلىٰ فراشه نفث في كفيه بـ ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ**﴾، وبالمعوذتين جميعاً، ثم يمسح بهما وجهه، وما بلغت يداه من جسده، قالت: فلما اشتكىٰ كان يأمرني أن أفعل ذلك به[٦]، رواه البخاري.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٢٠٠).

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢١٩٦).

(٣) أخرجه البخاري برقم (٥٧٣٦)، ومسلم برقم (٢٢٠١).

(٤) أخرجه البخاري برقم (٥٧٣٧)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) أخرجه البخاري برقم (٥٧٥١)، ومسلم برقم (٢١٩٢)(٥١).

(٦) أخرجه البخاري برقم (٥٧٤٨)، ومسلم برقم (٢١٩٢).

* وله عن أنس، قال: ألا أرقيك برقية رسول الله ﷺ: «**اللهم رب الناس، مذهب الباس، أشف أنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقماً**»[١].

* وله أيضاً عن عائشة: كان النبي ﷺ يقول في الرقية: «**بسم الله تربة أرضنا، بريقة بعضنا، يشفى سقيمنا، بإذن ربنا**»[٢].

* وروى الإمام أحمد(٥/ ٣٢٣) برقم(٢٢٧٥٥)، عن عبادة بن الصامت: أن النبي ﷺ قال: «**إن جبريل عليه السلام رقاني برقية برئت: بسم الله أرقيك، من كل شيء يؤذيك، من حسد كل حاسد وعين، بسم الله يشفيك**»[٣].

وهناك الكثير من الأدعية التي ورد استعمالها في الرقية الشرعية، وهي تدل على جواز جنس الرقية وفائدتها.

وقد روى مسلم عن جابر قال: نهى رسول الله ﷺ عن الرقى، فجاء آل عمرو بن حزم فقالوا: يا رسول الله إنه كانت عندنا رقية نرقي بها من العقرب؛ فعرضوا عليه، فقال: «**ما أرى بأساً، من استطاع أن ينفع أخاه فلينفعه**»[٤].

وقد تمسك قوم بهذا العموم فأجازوا كل رقية جربت فنفعت، لكن لابد من الشروط الثلاثة المتقدمة.

وليعلم أن تأثير الرقية الشرعية يكون بحسب إيمان الراقي وصلاح نيته، واستقامته، وسلامة معتقده، وبعده عن المحرمات، فمتى كان الراقي حافظاً لكتاب الله وما تيسر من السنة النبوية، ومشتغلاً بتلاوة القرآن وتدبره، وكان

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٥٧٤٢).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٥٧٤٥)، ومسلم برقم (٢١٩٤).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٥/ ٣٢٣).

(٤) أخرجه مسلم برقم (٢١٩٩)(٦٣).

محافظاً على العبادات، مبتعداً عن المعاصي والمكروهات، يتقرب إلى الله تعالى بعد الفرائض بالنوافل، ويتزود من الحسنات، ويحفظ نفسه وأهله ومنزله من الملاهي والأغاني وأسباب الفساد، وكان سليم الاعتقاد، بعيداً عن البدع والمحدثات، فإنه بإذن الله يكون لرقيته الأثر الظاهر في شفاء المريض، وفي علاج الأمراض المستعصية كالمس، والسحر، والعين، ونحوها كما نُقل من ذلك وقائع فيها أعجب العجائب من أفراد طهروا عقائدهم من الأدناس، وبطونهم من الحرام، والمشتبه، وألسنتهم من الإثم والكذب والزور، وصانوا أعراضهم مما يقدح فيهم، حتى أن منهم من إذا نفث في الإناء مرتين امتلأ بإذن الله وفاض ما فيه.

أما الكثير من أهل الرقية في هذه الأزمنة فإنهم جهلاء بحقوق الله تعالى وبكتابه وشرعه، يتصدى أحدهم للعلاج بالرقية بمجرد ما يسمع آية أو دعاء، ويظن أنه بلغ الذروة، ولهذا يقل تأثير الرقية معهم.

وقد يكون السبب في عدم التأثير كون المريض من أهل المعاصي والفساد، إما بامتلاء منزله من الملاهي وآلات الأغاني، وإما بما يقترفه من الذنوب ويتركه من الواجبات، وقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤]؛ فيدخل في الذين (لا يؤمنون) من إيمانهم ضعيف يحصل معه كثير من المعاصي، وترك الطاعات.

وأيضاً فإن من أسباب تأثير الرقية أن يجزم المريض بأنها هي السبب الوحيد لشفاء ما به من ألم، ويعتقد أن القرآن والأدعية النبوية مؤثرة ومفيدة بإذن الله لأهل الإيمان، لقول الله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

فأما الذي يستعمل الرقية كتجربة قائلاً: إن لم تنفع فإنها لا تضر، فَقَلَّ أن يستفيد منها، وهو الغالب من كثير من الناس؛ حيث يتتبعون القراء، ويدفعون الأموال ثم لا يجدون لذلك أثراً، بسبب الشك في تأثيرها أو بسبب ضعف الإيمان، والله المتسعان.

■ قوله: [**في الصحيح ،عن أبي بشير الأنصاري: أنه كان مع النبي ﷺ في بعض أسفاره، فأرسل رسولاً: أن لا يبقين في رقبة بعير قلادة من وتر ـ أو قلادة ـ إلا قُطعت**»(١)]:

يعني: أن ذلك وقع في بعض الغزوات أو نحوها من الأسفار، وكأنه ذُكر للنبي ﷺ أن بعض المسلمين لم يزل عندهم شيء من العادات الجاهلية في تعليق الأوتار ونحوها في رقاب الإبل، فبعث أحد الصحابة وأوصاه أن يقطع ما وجده من الأوتار المعلقه في رقبة أي بعير، تطهيراً للمسلمين من هذا الاعتقاد الذي يؤدي بهم إلىٰ الشرك، ولو كان من الأصغر؛ حيث أنه ينقص التوحيد.

وقوله: «**في بعض أسفاره**»، لم تعين تلك السفرة، ولا يترتب علىٰ الجهل بها أو العلم بعينها حكم.

فأما (**الرسول**) الذي بعثه فهو زيد بن حارثة مولىٰ رسول الله ﷺ، وقد قتل في غزوة مؤتة رضي الله عنه، أمره أن لا يُبقي شيئاً من القلائد في رقاب الإبل، وخص في الرواية الصحيحة قلائد الأوتار.

والمراد (**بالوتر**): شرعة القوس، وهو الحبل الذي يُربط به القوس الذي يستعمل الرمي به للصيد أو في القتال، يعمل من الصوف أو من الليف، كما في قول الحجاج:

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٠٠٥)، ومسلم برقم (٢١١٥).

والقــوس فــيـــهــا وتـر عــــرد

مــــثـل ذراع البـكـر أو أشـــــد

ثم إن هذا الوتر إذا اخلولق علقوه في رقاب الإبل، أو في رقاب الأولاد، يتقون به العين، ويزعمون فيه البركة والحماية، وذلك أنه استعمل كثيراً في النكاية بالعدو وحماية الديار، فيتبركون به، و يعلقونه في رقاب الإبل، أو الخيل، ويدعون أن له التأثير في الحماية والحراسة، والحفظ عن العين والأضرار، فأمر النبي ﷺ في هذا الحديث بقطعها، فإن هذا الاعتقاء شرك، حيث ظنوا هذا الوتر يؤثر بنفسه في حماية الأنفس والأموال والإبل، كما اعتقدوا ذلك في التمائم، فأخبرهم النبي ﷺ أنها لا ترد من أمر الله شيئاً، وأمرهم أن يتوكلوا على الله، فمن توكل على الله كفاه.

■ **قوله: [وعن ابن مسعود: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الرقى والتمائم والتولة شرك»، رواه أحمد، وأبو داود[1]]:**

هذا الحديث رواه الإمام أحمد (١ / ٣٨١) برقم (٣٦١٥)عن زينب امرأة عبد الله بن مسعود، قالت: دخل عبد الله فجلس إلى جنبي فرأى في عنقي خيطاً، قال: ما هذا الخيط؟ قلت: خيط رُقي لي فيه، فأخذه فقطعه، ثم قال: إن آل عبد الله لأغنياء عن الشرك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن الرقى والتمائم**

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (٣٨٨٣)، وأحمد (١ / ٣٨١)، وابن ماجة برقم (٣٥٧٦)، وابن حبان (٧ / ٦٣٠)، والحاكم في «المستدرك» (٤ / ٢١٧، ٤١٨)، والطبراني في «الكبير» برقم (١٠٥٠٣)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٩ / ٣٥٠).

قال الحاكم: صحيح الإسناد على شرط الشيخين وأقره الذهبي، وقال أحمد شاكر في تحقيق المسند (٣٦١٥): إسناده حسن.

والتولة شرك»، فقلت له: لم تقول هذا، وقد كانت عيني تقذف، فكننت أختلف إلىٰ ذلك اليهودي يرقيها، وكان إذا رقاها سكنت؟ قال: إنما ذلك عمل الشيطان، كان ينخسها بيده فإذا رقيتها كف عنها، إنما كانت يكفيكِ أن تقولي كما قال رسول الله ﷺ: «أذهب الباس، رب الناس، أشف أنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقماً»(١).

وكذا أخرجه ابن ماجه برقم (٣٥٣٠) به مطولاً، ورواه أبو داود في الطب واختصره، وحسنه أحمد شاكر في تحقيق المسند برقم (٣٦١٥) عن ابن أخي زينب امرأة عبد الله، وقال: لم يعرف اسمه، ولكنه تابعي، فهو علىٰ الستر وقبول حديثه، وسكت عنه أبو داود فهو عنده صالح.

■ **قوله: [وعن عبد الله بن عُكَيم، مرفوعاً: «من تعلق شيئاً وكل إليه»، رواه أحمد، والترمذي(٢)]:**

هذا الحديث رواه أحمد برقم (١٨٧٣٦) عن عيسىٰ بن عبد الرحمن بن أبي

---

(١) هذا الدعاء «أذهب الباس.....» ثبت أيضاً عن عدد من الصحابة، وقد سبق تخريجه في أول هذا الباب، وانظر تخريج الحديث السابق.

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٣١٠، ٣١١)، والترمذي (٢٠٧٣)، والحاكم (٤/ ٢١٦)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٨/ ١٣)، والبيهقي في «السنن الكبرىٰ» (٩/ ٣٥١).
قال الترمذي: حديث عبد الله بن عكيم إنما نعرفه من حديث ابن أبي ليلىٰ. أ. هـ. وقال ابن البنا في «الفتح الرباني» (١٧/ ١٨٨): قلت: هذا الحديث لا تقل درجته عن الحسن لا سيما وله شواهد تؤيده. وقال الألباني: في «غاية المرام» رقم (٢٩٧): حسن، وذكر أن له شاهداً عن الحسن البصري مرسلاً أخرجه ابن وهب في «الجامع» ص١١٣ أخبرني جرير بن حازم أنه سمع الحسن يقول: فذكره مرفوعاً. وهذا إسناد مرسل صحيح.
ويشهد له حديث أبي هريرة رضي الله عنه يقول: **«من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر، ومن سحر فقد أشرك، ومن تعلق شيئاً وكل إليه»**.
أخرجه النسائي (٧/ ١١٢)، وابن عدي في «الكامل» (٢/ ٢٣٨)، والمزي في «تهذيب =

ليلي، قال: دخلنا على عبد الله بن عكيم وهومريض نعوده، فقيل له: لو تعلقت شيئاً؟ فقال: أتعلق شيئاً، وقد قال رسول الله ﷺ: «من تعلق شيئاً وكل إليه».

وكذا هو في سنن الترمذي في كراهة التعليق من كتاب الطب.

وهذا يعم التعاليق من القرآن وغيره، ويدخل فيه تعليقها على الصبيان والدواب، والسيارات والمنازل، والصغار والكبار، ويعم تعلق القلب بها، والاعتماد عليها، واعتقاد أنها تحرس وتقي صاحبها من العين والحسد، والجان، والعاهات، والأمراض، والبلايا، والمصائب، والحوادث، فمن فعل ذلك وكله الله إليها، ومن وكله الله إلى مخلوق فقد وكله إلى ضيعة وخسارة، ولن تغني عنه تلك التعاليق شيئاً، وبذلك يكون قد صرف هذا التعلق والتعظيم لمخلوق، فيكون شركاً.

وقد روى الإمام أحمد في الزهد عن وهب بن منبه قال: أوحى الله إلى داود: «يا داود أما وعزتي وعظمتي لا يعتصم بي عبد من عبيدي دون خلقي أعرف ذلك من نيته، فتكيده السموات السبع ومن فيهن، والأرضون السبع ومن فيهن، إلا جعلت له من بينهن مخرجاً، أما وعزتي وعظمتي لا يعتصم عبد من

= الكمال» (٢ / ٦٥٤)، من طريق عباد بن ميسرة المنقري عن الحسن البصري عن أبي هريرة مرفوعاً به.

وأخرجه ابن مردوية في «التفسير» كما في «الدر المنثور» (٦ / ٤١٩)، والطبراني في «الأوسط» (٢ / ٢٨٠) رقم (١٤٩٢)، وحسنه ابن مفلح كما في «قرة عيون الموحدين» ص(١٣٧)، و«فتح المجيد» ص (٤٠٢)، وفي «الآداب الشرعية» (٣ / ٧٨)، وقال المنذري في «الترغيب والترهيب» (٤ / ٣٢): رواه النسائي من رواية الحسن عن أبي هريرة، ولم يسمع منه عند الجمهور. أ.هـ، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» رقم (٥٧١٤)، وقال الذهبي في «الميزان» (٢ / ٣٧٨): هذا الحديث لا يصح للين عباد وانقطاعه.

وسيأتي تخريجه إن شاء الله في الباب الرابع والعشرين (باب: بيان شيء من أنواع السحر).

عبادي بمخلوق دوني، أعرف ذلك من نيته إلا قطعت أسباب السموات من يده، وأسخت الأرض من تحت قدميه، ثم لا أبالي بأي أوديتها هلك»[1]. هكذا ذكره الشارح[2] وغيره.

وظاهر الحديث أن التعلق بالله يحصل بتعلق القلب بالرب سبحانه، بحيث يفوض أمره إليه، ويرضىٰ به حسيباً ووكيلاً، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]، ويحصل التعلق علىٰ مخلوق كأن يتعلق رجاءه بفلان، و يفوض أمره إليه، ويعتقد أنه سيقوم بكفايته ورزقه وحمايته، ولا يخطر ربه بقلبه، فيكله الله إلىٰ ذلك المخلوق.

---

(١) قال محقق كتاب «فتح المجيد» الدكتور الشيخ الوليد بن فريان: لم أقف عليه في كتاب «الزهد» ولا في «المسند» للإمام أحمد. ثم قال: وأخرجه من غير هذا الطريق أبو نعيم في «الحلية» (٤ / ٢٦)، والديلمي في «مسند الفردوس» رقم (٤٩٦)... الخ.

وقد أورده ابن كثير في «تفسيره» (٣ / ٣٧٠) عند تفسير قول الله تعالىٰ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢]. نقله عن وهب بن منبه.

قال العلامة الألباني في «السلسلة الضعيفة» (٢ / ١٣٢) رقم: (٦٨٨): أخرجه تمام الرازي في «الفوائد» (٥ / ٥٨ / ٢) من طريق يوسف بن السَّفْر عن الأوزاعي عن الزهري عن عبد الرحمن ابن كعب بن مالك عن أبيه مرفوعاً.

ثم قال: وهذا موضوع، المتهم به ابن السَّفْر؛ فإنه ممن يضع الحديث كما تقدم، ولعله من الإسرائيليات التي تلقاها كعب بن مالك عن بعض مسلمة أهل الكتاب، ثم نسبه هذا الكذاب إلىٰ رسول الله ﷺ.

ثم قال: والحديث عزاه السيوطي في «الجامع» لابن عساكر وحده، وهذا قصور واضح، ولم يتكلم عليه شارحه المناوي بشيء.

(٢) أي شارح كتاب «فتح المجيد».

● **وقد فسر المؤلف رحمه الله تعالى هذه الثلاثة:**

* **فأما (التمائم): فقال المؤلف رحمه الله تعالى: شيء يعلق على الأولاد يتقون به العين، لكن إذا كان المعلق من القرآن فرخص فيه بعض السلف، وبعضهم لم يرخص فيه، ويجعله من المنهي عنه، منهم ابن مسعود رضي الله عنه:**

وقد ذكرنا في الباب قبل هذا المراد بالتمائم، وكيفية تعليقها، والتعلق عليها، والاعتقاد فيها، ومتىٰ يكون شرك أكبر وأصغر.

فأما إذا كانت من القرآن فقد ذكر الشارح في تيسير العزيز الحميد جواز ذلك عن عبد الله بن عمرو بن العاص، وعائشة، وأبي جعفر الباقر، وأحمد في إحدىٰ الروايتين، وهو ظاهر اختيار ابن القيم، وقاسوا ذلك علىٰ الرقية بأسماء الله وصفاته وكلامه، وحملوا النهي علىٰ التمائم الشركية.

وقالت طائفة: لا يجوز التعليق مطلقاً، وبه قال ابن مسعود وأصحابه، وابن عباس، و حذيفة، وعقبة بن عامر، وعبد الله بن عكيم، و غيرهم، وهو الرواية الثانية عن أحمد اختارها كثير من أصحابه، وجزم بها المتأخرون لهذا الحديث وما في معناه، حيث عمم في التمائم، ولم يفرق بين القرآن وغيره.

والفرق بين الرقية والتعليق أن التعليق لا بد فيه من أوراقٍ ومدادٍ وخرقٍ وخيوطٍ وجلودٍ وسيورٍ، وكلها قد يعتقد فيها، وأما الرقية فهي مجرد كلام يقرؤه الراقي وينفث بعده.

ورجح صاحب فتح المجيد المنع مطلقاً، وكذا الشيخ ابن قاسم في حاشية التوحيد، لوجوه:

* **الأول**: عموم النهي عن التمائم والتعاليق، كحديث: «**من تعلق شيئاً وكل**

إليه»[١]، وحديث: «**من تعلق تميمة فقد أشرك**»[٢]، ولا مخصص لهذا العموم.

* **الثاني**: سد الذريعة، فإن من علق القرآن فقد يفضي به الأمر إلىٰ تعليق ما ليس من القرآن، ومن قواعد الشرع سد الذرائع، فإن التعاليق ذريعة إلىٰ الشرك لتعلق القلوب بها.

* **الثالث**: أن من علقها فلا بد أن يمتهنها، ويدخل بها بيوت الخلاء، والأماكن المستقذرة التي ينزه عنها كلام الله تعالىٰ، كما ورد النهي عن دخول الخلاء بما فيه ذكر الله تعالىٰ.

* **الرابع**: أن من علقها تعلق قلبه بها، مع أن فيها الخرق أو الجلود أو الخيوط والسيور، والورق والمداد مما هو مخلوق، ومن تعلق بذلك وكل إليه.

* **الخامس**: أنه ﷺ كان يرقي ويُرقىٰ، فلو كان التعليق مباحاً من القرآن لأمر به ولفعله، ولم يرد في القرآن ولا في السنة الصحيحة ما يدل علىٰ تعليق الآيات علىٰ الصدر أو الدابة أو نحوها لطلب الاستشفاء بها، فإنه ينافي التوكل والإخلاص.

فأما تعليقها في المجالس والمكاتب أمام الداخل والخارج، فإن كان القصد منها الاستفادة من معانيها، وتذكير من قرأها بما تتضمن من المواعظ والارشادات، فهو مقصد حسن، ويلحق بها علىٰ هذا القصد تعليق الحكم والفوائد والنصائح، ولو من غير الكتاب والسنة، لحصول الفائدة منها، ويعم ذلك تعليقها في المجالس، والسيارات ونحوها.

وأما من قصد منها التبرك والحماية، والحفظ والحراسة من الأضرار

(١) سيأتي تخريجه مفصلاً قريباً في هذا الباب.

(٢) انظر تخريجه في الباب السادس (باب من الشرك لبس الحلقة والخيط).

والأمراض، فإن ذلك داخل في النهي، كالذي يجعل في سيارته مصحفاً أو كتاب أدعية، لاعتقاده أنه يحرسها من اللصوص والعين، والحسد والجن ونحو ذلك، فكلة تعلق بغير الله، فيدخل في الشرك المذكور في هذا الحديث.

*** وأما (الرقى) فقال المؤلف رحمه الله: هي التي تسمى العزائم، وخص منه الدليل ما خلا من الشرك، فقد رخص فيه رسول الله ﷺ من العين والحمة[(١)]:**

وقد سبق في باب: (من حقق التوحيد) ذكر الحديث بذلك، وفي أول هذا الباب ذكرنا الجائز من الرقى، ويراد بالشرك فيها ما فيه توسل بأسماء الشياطين والجن، فإن السحرة والكهنة والمشعوذين يستعملون في الرقى أنواعاً من الشرك بدعاء غير الله، وذكر أسماء بعض الشياطين ومردة الجن، كما يستعمل ذلك السحرة في السحر والكهانة، فكل رقية فيها تلك الأسماء، أو فيها كلام لا يعرف معناه، فهي من الشرك، وكذا الاعتماد على الرقية، واعتقاد أنها تؤثر بنفسها دون إرادة الله وقدرته، بخلاف الرقية بأسماء الله تعالى وصفاته، والأدعية النبوية، والآيات القرآنية التي ورد الأمر باستعمالها في الرقية.

*** وأما (التولة): فقال المؤلف رحمه الله: شيء يصنعونه يزعمون أنه يحبب المرأة إلى زوجها، والرجل إلى امرأته:**

أي: أنه من عمل السحرة الذين يتقربون إلى الشياطين ومردة الجن حتى يتمكن من قلب الزوج أو الزوجة، فيتعلق كل منهما بالآخر، ويزيد في القرب منه، ولا يقدر على فراقه.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤ / ٤٣٦، ٤٣٨، ٤٤٦)، والترمذي برقم (٢٠٥٧)، وأبو داود برقم (٣٨٨٤)، عن عمران بن حصين رضي الله عنهما.

وأخرجه أحمد (١ / ٢٧١)، وابن ماجه برقم (٣٥١٣)، عن حصين بن عبد الرحمن. قال الهيثمي: رجال أحمد ثقات. وقال أحمد شاكر في تحقيق «المسند» (٢٤٤٨): إسناده صحيح.

وقد حكىٰ لنا بعض المشايخ أن امرأة دخلت عليها إحدىٰ السواحر فأعطتها دواء يجلب لها محبة زوجها ولكن المرأة أطعمته كبشاً، ثم إن ذلك الكبش تعلق بها، فلا يقر حتىٰ يجعل رأسه في حجرها، فذبحوه فوجدوا رأسه مليئاً بالدواء الذي لا يستقر معه إلا بالالتصاق بها.

ولا شك أن الشياطين لهم تمكن من النفوذ في جسد ابن آدم، والوصول إلىٰ قلبه، فلا يستبعد أن يحدث في قلب الإنسان محبة زائدة، أو كراهية شديدة، وهو ما يسمىٰ بالصرف والعطف؛ أي: صرف بعض الناس عن أحبائه، بوقوع الوحشة بينه وبينهم، ونفرته منهم، واستئناسه بالبعد عنهم، أو العطف الذي هو تعلقه بمحبوبه، وشدة التصاقه به، بحيث لا يقدر علىٰ فراقه، وكل ذلك بقضاء الله تعالىٰ وقدره الكوني، لقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢].

■ **قوله: [وروى الإمام أحمد، عن رويفع، قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا رويفع، لعل الحياة ستطول بك، فأخبر الناس: أن من عقد لحيته، أو تقلد وتَراً، أو استنجى برجيع دابة، أو عظم؛ فإن محمداً بريءٌ منه»**[1]]:

روىٰ هذا الحديث الإمام أحمد وأبو داود والنسائي بأسانيد متعددة، يقوي بعضها بعضاً.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ١٠٨، ١٠٩)، وأبو داود رقم (٣٦)، والطبراني في «الكبير» (٤٤٩١).

وأخرجه من طريق آخر النسائي (٨/ ١٣٥)، والبيهقي (١/ ١١٠)، وإسناده صحيح، كما في «النهج السديد» (ص٦٢).

وقد قال الشيخ ابن جبرين حفظه الله: روىٰ هذا الحديث الإمام أحمد وأبو داود والنسائي بأسانيد متعددة يقوي بعضها بعضاً.

وهذا الصحابي من الأنصار، وقد طالت به الحياة حتىٰ مات سنة ست وخمسين للهجرة عن عمر مديد.

أمره النبي ﷺ أن يبلغ ما علمه من هذا الحديث، وكذا غيره، ففيه وجوب البيان، وتعليم الناس ما يجهلونه عند مسيس الحاجة إلىٰ ذلك، وقد وردت أحاديث في وجوب البلاغ كحديث: «**ليبلغ الشاهد منكم الغائب**»(١) ونحوه.

* **أما عقد اللحية**، فقيل: أنه ما يفعله بعض الأعاجم الذين تطول لحاهم، فيعقدونها تكبراً وإعجاباً في الحرب ونحوه، فنهىٰ عن ذلك لتحريم الكبر، أو لمنع التشبه بالأعاجم.

وقيل: إن عقدها هو معالجة الشعر حتىٰ يتجعد، وتنعقد كل شعرة إلىٰ نفسها، والجعد في شعر الرأس هذا السبط، وهذا التجعيد من فعل أهل التأنث، والتشبه بالنساء، ولا شك أن حلقها أو تقصيرها أولىٰ بالنهي، لأنه تشبه ظاهر بالإناث، وقد لعن النبي ﷺ المتشبهين من الرجال بالنساء(٢).

وحمل بعضهم عقد اللحية علىٰ عقدها في الصلاة، كما ورد به رواية في الحديث، وذلك عبث وشغل في الصلاة.

* **أما تقلد الوتر**، فقد عرفنا أن الوتر هو: شرعة القوس؛ أي: الحبل الذي يعقد فيه؛ أي: من جعله كالقلادة في عنقه للتبرك به، واعتقاد أنه ينفع، ويحمي من الشرور والآفات، وذلك من فعل الجاهلية، وهو الشاهد من الحديث، لأن

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري برقم (٦٧)، ومسلم برقم (١٦٧٩)، عن أبي بكرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري برقم (٥٨٨٥). عن ابن عباس رضي الله عنهما.

تعليقه في الرقبه أو على الدابة شرك، لأنه تعلق بمخلوق، ومن تعلق شيئاً وكل إليه[١].

وأما الاستنجاء فإنه مسح أثر الخارج من السبيل للطهارة، وقد ورد النهي عن استعمال العظم ورجيع الدابة في الاستنجاء[٢]، وعلل بأنهما لا يطهران[٣]، أو أنهما طعام المؤمنين من الجن[٤]، وقد ذكر ذلك الفقهاء في باب آداب دخول الخلاء.

* وقوله: **«فإن محمداً بريء منه»**: هذا وعيد شديد لمن فعل شيئاً من هذه المذكورات، وظاهره أنه بريء من ذلك العامل، لأنه بلغه النهي فأصر وعاند، وتظاهر بالمعصية، ويكون هذا من أحاديث الوعيد، التي وردت للزجر عن اقتراف المحرمات، والتحذير من التساهل بها.

وقيل: إن المعنى بريء من فعله، وهو عقده للحية تكبراً أو تأنثاً، وتقلده الوتر اعتقاداً أنه يؤثر بنفسه، ويدفع الشر بطبعه، واستنجاؤه بالروث الذي هو زبل الدابة مأكولة أو غير مأكولة، لنجاسته أو لقذراته، أو لأنه علف لدواب الجن، وكذا العظم لمأكول الدواب أو غير المأكول، إما للزوجته وكونه لا يزيل الأذى، أو لأنه طعام لمؤمني الجن.

ومعتقد أهل السنة أن الكبائر لا تخرج من الملة، وأن أصحابها وإن دخلوا

---

(١) يشير الشيخ إلى حديث عبدالله بن عكيم الذي سبق تخريجه في هذا الباب.

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٦٢)، من حديث سلمان رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الدارقطني (١ / ٥٦). وقال إسناده صحيح، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ نهى أن يستنجى بعظم أو روث. وقال: إنهما لا يطهران.

(٤) أخرجه مسلم برقم (٤٥٠)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

النار فإنهم لا يخلدون فيها، فعلىٰ هذا البراءة منهم تفيد الزجر والتنفير عن هذه المحرمات، حتىٰ لا يتهاون بها المؤمن فيدخل في الوعيد.

■ **قوله: [وعن سعيد بن جبير، قال: من قطع تميمة من إنسان، كان كعدل رقبة»[١]، رواه وكيع]:**

والمراد بالتميمة العوذة التي تعلق في العنق أو العضد، يعتقد فيها أنها تجلب الخير أو تدفع الشر بنفسها، وذلك شرك بالله، وقد سبق حديث عقبة بلفظ: «**من تعلق تميمة فقد أشرك**»[٢]، وذلك لأنه يعلق قلبه بهذه الخرزات ونحوها، ويكل أمره إليها، فمن قطعها منه فقد أنقذه من هذا الشرك، فكأنه أعتقه من النار، فيكون له أجر من أعتق رقبة؛ أي: حررها وأزال الرق عنها في الدنيا، وقد جاء الحديث أن: «**من أعتق رقبة مؤمنة أعتقه الله بكل جزء منه جزءاً منه من النار**»[٣].

ثم إن هذا الأثر قاله سعيد بن جبير، وهو من كبار التابعين، وتلامذة الصحابة، وقد جزم بالحكم، فلا بد أن عنده دليل علىٰ هذا الحكم، فلذلك قال العلماء: أن له حكم المرفوع، ولو كان من تابعي، فهو دليل علىٰ فضل قطع التمائم من المعلقين لها، لإنقاذهم من الشرك.

■ **قوله: [وله عن إبراهيم، قال: كانوا يكرهون التمائم كلها، من القرآن وغير القرآن[٤]]:**

أي: روىٰ وكيع بن الجراح رحمه الله عن إبراهيم بن يزيد النخعي، ومراده

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» رقم (٣٥٢٤).

(٢) سبق تخريجه في الباب السادس (باب من الشرك لبس الحلقة و الخيط).

(٣) أخرجه البخاري برقم (٢٥١٧)، ومسلم برقم (١٥٠٩). من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٥١٨).

أن أصحاب ابن مسعود رضي الله عنه يكرهون جميع التمائم، ولو كانت من القرآن، أي: كراهة تحريم، حيث تلقوا عن ابن مسعود النهي عن تعليق كل تميمة، وحيث روى الحديث المرفوع أن التمائم من الشرك[1]، فلذلك كانوا يحرمونها، ويمنعون من تعليقها.

وأصحاب ابن مسعود تلامذته الذين تلقوا العلم عنه في الكوفة، ورووا عنه كثيراً، ومنهم علقمة، والأسود، و أبو وائل، والحارث بن سويد، وعبيدة السلماني، ومسروق، والربيع بن خثيم، وغيرهم، وكانوا مشهورين بالعلم الصحيح، وموثوقين من ثقات التابعين، وذلك دليل على أن التعاليق كلها مكروهة كراهة تحريم، لما سبق من الأدلة في عموم النهي عنها، والله أعلم.

■ ■ ■ ■ ■

(١) سبق تخريجه في هذا الباب.

[٨]

باب:
من تبرك بشجرة أوحجر ونحوهما

وقول الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ (٢٢) إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ﴾ [النجم: ١٩-٢٣].

وعن أبي واقد الليثي، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين، ونحن حدثاء عهد بكفر، وللمشركين سدرة يعكفون عندها، وينوطون بها أسلحتهم، يقال لها: ذات أنواط، فمررنا بسدرة، فقلنا: يا رسول الله! اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال رسول الله ﷺ: «الله أكبر، إنها السنن، قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، لتركبن سنن من كان قبلكم»، رواه الترمذي وصححه.

■ ■ ■ ■ ■

*** فيه مسائل:**

الأولى: تفسير آية النجم.

الثانية: معرفة صورة الأمر الذي طلبوا.

الثالثة: كونهم لم يفعلوا.

الرابعة: كونهم قصدوا التقرب إلى الله بذلك لظنهم أنه يحبه.

الخامسة: أنهم إذا جهلوا هذا فغيرهم أولى بالجهل.

السادسة: أن لهم من الحسنات والوعد بالمغفرة ما ليس لغيرهم.

السابعة: أن النبي ﷺ لم يعذرهم الأمر، بل رد عليهم بقوله: «**الله أكبر إنها السنن لتتبعن سنن من كان قبلكم**»، فغلظ الأمر بهذه الثلاث.

الثامنة: الأمر الكبير، وهو المقصود: أنه أخبر أن طلبهم كطلب بني إسرائيل لما قالوا لموسى: ﴿**اجْعَل لَّنَا إِلَهًا**﴾.

التاسعة: أن نفي هذا من معنى «لا إله إلا الله»، مع دقته وخفائه على أولئك.

العاشرة: أنه حلف على الفتيا، وهو لا يحلف إلا لمصلحة.

الحادية عشرة: أن الشرك فيه أكبر وأصغر لأنهم لم يرتدوا بهذا.

الثانية عشرة: قولهم: «ونحن حدثاء عهد بكفر»، فيه أن غيرهم لا يجهل ذلك.

الثالثة عشرة: التكبير عند التعجب خلافاً لمن كرهه.

الرابعة عشرة: سد الذرائع.

الخامسة عشرة: النهي عن التشبه بأهل الجاهلية.

السادسة عشرة: الغضب عند التعليم.

السابعة عشرة: القاعدة الكلية لقوله: «إنها السنن».

الثامنة عشرة: أن هذا علم من أعلام النبوة لكونه وقع كما أخبر.

التاسعة عشرة: أن ما ذم الله به اليهود والنصارىٰ في القرآن أنه لنا.

العشرون: أنه متقرِّر عندهم: أن العبادات مبناها علىٰ الأمر فصار فيه التنبيه علىٰ مسائل القبر. أما «من ربك؟» فواضح، وأما «من نبيك؟» فمن إخباره بأنباء الغيب، وأما «ما دينك؟»، فمن قولهم: ﴿اجْعَل لَّنَا﴾، إلىٰ آخره.

الحادية والعشرون: أن سنة أهل الكتاب مذمومة كسنة المشركين.

الثانية والعشرون: أن المنتقل من الباطل الذي اعتاده قلبه لا يُؤْمَنْ أن يكون في قلبه بقية من تلك العادة، لقولهم: «ونحن حدثاء عهد بكفر».

■ ■ ■ ■ ■

•• الشرح ••

باب:
من تبرك بشجرة أوحجر ونحوهما

التبرك: قصد البركة التي هي كثرة الخير.

وصفة التبرك بالشجرة ونحوها أن يتمسح بها أو يستصحب شيئاً من أوراقها أو أغصانها، أو يتبرك بما مسها من ماء أو تراب لاعتقاده أن الشجرة أثرت فيه بركة ونفعاً، بحيث يحصل من آثار ذلك بركة في الرزق ونماء فيه، أو جلب نفع أو دفع ضر.

ويلحق بالشجر والحجر ما قد يعتقد فيه البركة كالقبور والقباب، والبقاع والعيون ونحوها، فإن الكثير من الناس قد يعتقدون في بقعة من الأرض البركة بسبب أن أحد الأولياء بات فيها أو دفن حولها، وكذا يتبركون بعين أو بئر لاعتقادهم أنها نالت البركة بقربها من أحد الأولياء، أو أن منهم من بصق فيها، أو سقط فيها خاتمه أو نعله ونحو ذلك، ثم هم مع ذلك يستجلبون بها الخير، ويظنون أنها تعصمهم من السوء، أو تدفع عن عهم كيد الأعداء، أو تغنيهم عند الافتقار، أو تشفي مرضاهم، وتحفظ أموالهم.

ولا شك أن هذا كله مما يوقع في الشرك، حيث يعظمون ما ليس بعظيم، ويعلقون آمالهم على مخلوق ضعيف، لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً فضلاً عن غيره.

ثم إن هناك بعض المخلوقات كعيسى والمطر ونحو ذلك بما وصفه الله بالبركة، كقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا﴾ [ق: ١٠]، وهو المطر، فإن

من بركته أثره على الأرض، بحيث ينبت النبات، وتكثر من آثاره الخيرات، ومع ذلك لا يعتقد فيه أنه يؤثر بذاته، فمن شرب منه للتبرك اعتقد أن الله هو الذي أنزل فيه البركة، ولو شاء لنزعها منه.

وهكذا يقال في ماء زمزم، حيث ورد أنه: «**طعام طعم وشفاء سقم**»[(١)]، وأنه لما شرب له[(٢)]، فالله هو الذي أنزل فيه البركة، وجعل فيه شفاء السقم، ولا يجوز الاعتقاد أنه يشفي بنفسه، ويجوز أن ينزع الله منه ما وضعه فيه من البركة.

وقد تكون خاصة بالمؤمنين وأهل التوحيد، كما قال تعالى عن القرآن: ﴿**قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى**﴾ [فصلت: ٤٤]؛ فأخبر بأن القرآن الذي هو كلام الله تعالى شفاء للمؤمنين دون غيرهم، فكذلك يقال في ماء المطر وماء زمزم هي: بركة لأهل الاعتقاد الصحيح، وتوحيد الرب تعالى، دون الكفار والمشركين.

وأما تبرك الصحابة بالنبي ﷺ، فقد روى البخاري في كتاب الشروط عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم حديث الشروط في صلح الحديبية، وفيه: ثم إن عروة أبي ابن مسعود جعل يرمق أصحاب النبي ﷺ بعينيه، قال: فوالله ما

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم برقم (٢٤٧٣)، مطولاً، من حديث أبي ذر رضي الله عنه.
أما قوله: «وشفاء سقم» فقد أخرجها أبو داود الطيالسي في «المسند» (ص٨١) برقم (٤٥٧).

(٢) قوله: «أنه لما شرب له». وردت في حديث ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ماء زمزم لما شرب له، إن شربته تستشفي به شفاك الله، وإن شربته يشبعك أشبعك الله به، و إن شربته لقطع ظمئك قطعه الله، وهي هزمة جبريل وسقيا إسماعيل**». أخرجه الدارقطني (٢/ ٢٨٩) برقم (٢٣٨)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٤٧٣).
ووردت أيضاً في حديث جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ماء زمزم لما شرب له**». أخرجه أحمد في «المسند» (٣/ ٣٥٧، ٣٧٢)، وابن ماجة برقم (٣٠٦٢). وصححه السيوطي، والألباني في «إرواء الغليل» رقم (١١٢٣).

تنخم رسول الله ﷺ نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه.. إلخ، زاد ابن إسحاق: ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه(١)، قال الحافظ في الفتح: وفيه طهارة النخامة والشعر... إلخ(٢).

وفي حديث أبي جحيفة المتفق عليه: فجعل الناس يأخذون من فضل وضوئه فيتمسحون به(٣)، وفي لفظ: ورأيت الناس يتبدرون ذاك الوضوء، فمن أصاب منه شيئاً تمسح به، ومن لم يصب منه شيئاً أخذ من بلل يد صاحبه(٤)... الخ.

ولكن هذا التبرك من خصائص النبي ﷺ؛ حيث لم يفعلوه مع أبي بكر ولا عمر ولا العباس ولا أحد بعد النبي ﷺ، فلا يجوز أن يتمسح بأحد من الناس لا بعرقه ولا بثيابه.

■ **قوله: [وقول الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ﴾** [النجم: ١٩-٢٣]]:

والمعنى: أخبروني عن حال هذه الأصنام التي كنتم تعظمونها، وتتبركون

(١) جزء من حديث طويل أخرجه البخاري في شروط الصلح في الحديبية وما حدث فيها برقم (٢٧٣١، ٢٧٣٢).

(٢) انظر «فتح الباري» لابن حجر (٥/ ٤٠٢).

(٣) أخرجه البخاري برقم (١٨٧). ومسلم برقم (٥٠٣)(٢٥٣) من حديث أبي جحيفة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري برقم (٣٧٦). ومسلم برقم (٥٠٣)(٢٥٠) من حديث أبي جحيفة رضي الله عنه.

بها، و ترجون نفعها، فأي فائدة فيها، وما أثر تعظيمكم لها، وهذه أسماء أوثان كان المشركون يعبدونها قبل الإسلام.

● **فأما اللات فهي**: طاغية أهل الطائف، والتي يفتخرون بها ويعظمونها، ويتمسحون بها، ويعكفون حولها، ويذبحون لها، ويحلفون بها.

وهي عبارة عن صخرة كبيرة منقوشة وملونة، وحولها فناء واسع، ينيحون فيه، ويطوفون بتلك الصخرة، ويتقربون إليها بما يمكنهم، ولابد أن الشيطان يكلمهم من داخلها، ويخبرهم ببعض المغيبات، ويقضي بعض حوائجهم، حتىٰ يُمَكِّنَ حبها وتوقيرها من قلوبهم، ولأجل ذلك لما أسلموا طلبوا من النبي ﷺ أن يمتعهم بالطاغية سنة؛ أي: يتركها لهم، فامتنع من ذلك، ثم إنه بعث إليها المغيرة بن شعبة فهدمها، وحطم الصخرة، وأزال أعلامها، وبنىٰ موضعها مسجد للصلاة، واضمحل أثر تلك الطاغية[١].

وقد روي عن ابن عباس، وغيره أنه قرأها: (اللاتّ)، بفتح التاء وتشديدها[٢].

وسيأتي في باب: (**ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يعيدها أوثاناً**)[٣]، ما رواه ابن جرير عن مجاهد في اللات، قال: كان يلتّ لهم السويق فمات فعكفوا علىٰ قبره[٤]، وعن ابن عباس: كان يلت السويق للحاج[٥].

---

(١) انظر «تفسير ابن كثير» (٤/ ٢٥٣، ٢٥٤).

(٢) انظر «تفسير ابن كثير» (٤/ ٢٥٣، ٢٥٤).

(٣) الباب رقم (٢٠)

(٤) أخرجه ابن جرير في «التفسير» (٢٧/ ٥٨).

(٥) أخرجه البخاري برقم (٤٨٥٩) في «التفسير» عند تفسير قوله تعالىٰ: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاتَ وَالْعُزَّىٰ﴾.

فعلىٰ هذا كان أصل هذه الطاغية هذا الرجل الصالح الذي يخدم الحجاج ويكرمهم، ويطعمهم السويق بعد أن يخلطه بسمن أو نحوه.

وعلىٰ القراءة المشهورة ذكروا أنهم اشتقوا اسمها من الإله فأنثوها لكون الاسم ينصرف إلىٰ الصخرة.

● **وأما العزى فهي**: اسم لشجرات في وادئ نخلة بين مكة والطائف، وكانت قريش ومن حولها تعظم العزىٰ ويحلفون بها، وافتخر بها أبو سفيان يوم أحد؛ حيث رفع صوته بقوله: لنا العزىٰ ولاعزىٰ لكم، فقال النبي ﷺ: «**قولوا الله مولانا ولامولى لكم**»[1]، وكانوا يتمسحون بتلك الشجرات ويتبركون بها، ويعكفون عندها، ويحلفون بها، ولها في قلوبهم قدر ومكان كبير.

ولاشك أن هناك ما يدفعهم إلىٰ تعظيمها، فقد يسمعون من داخلها أصواتاً تجيب سؤالهم وتخبرهم ببعض الأشياء الغائبة التي تطلع عليها الشياطين، ونحو ذلك مما يكون سبباً في تمسكهم بدعائها والذبح لها والطواف بها، مع أنها في الظاهر سَمُرَات[2] عادية، لا فرق بينها وبين سائر الشجر، لكن الشيطان له غرض في تعظيمها، ليوقعهم في الشرك والكفر.

ثم إن النبي ﷺ لما فتح مكة بعث إليها خالد بن الوليد فقطع السمرات، وهدم البيت الذي عليها، ثم أتىٰ النبي ﷺ فأخبره، فقال: «**ارجع فإنك لم تصنع شيئاً**»؛ فرجع خالد، فلما أبصرته السدنة وهم حجبتها أمعنوا في الجبل، وهم يقولون: يا عزىٰ يا عزىٰ، فأتاها خالد فإذا أمراة عريانة ناشرة شعرها، تحفن التراب علىٰ رأسها، فعلاها بالسيف حتىٰ قتلها، ثم رجع إلىٰ رسول الله ﷺ فأخبره، فقال: «**تلك العزى**»، أي: أن هذه المرأة شيطانة تتكلم في أصل تلك

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٠٣٩). من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

(٢) سَمُرَات: جمع سَمُرَة وهي شجرة الطلح، ويطلق علىٰ الشجر العادي.

الشجرات، وتخبر من يقصدها ببعض المغيبات، فبقتل تلك الشيطانية من الجن بطل ما يتعلقون به(١).

● **وأما مناة فهي**: بناية تقع بالمشلل عند قديد، بين مكة والمدينة، كانت خزاعة والأوس والخزرج يعظمونها، ويهلون منها بالحج أو بالعمرة.

قيل: إنهم اشتقوا اسمها من الله المنان، وقيل: سميت بذلك لكثرة ما يمنى، أي: يراق عندها من دماء القرابين، ذكروا أن النبي ﷺ بعث إليها علياً بعد فتح مكة فهدمها(٢).

ثم إنه يلحق بها ما يعظم من البنايات والقبور والأضرحة، وتبنى عليها القباب، وتوضع عليها الأستار، ويقصدها العامة والخاصة يتمسحون بجدرانها، ويهتفون بأسمائها، وينحرون عندها النحائر، ويحلقون الرؤوس بخضوع وخشوع، ويصرفون لها خالص حق الله من العبادة والتضرع، والتعظيم، ولو سموها مشاهد أو مزارات، فلا يخرجها ذلك عن كونها أصناماً وأوثاناً، ولو سموا أفعالهم عندها تبركاً وتوسلاً واستشفاعاً ووساطة، فإنه في الحقيقة شرك ظاهر، ودعاء لغير الله، فإن العبرة بالحقائق لا بالأسماء.

● وبعد أن ذكر تلك الأصنام التي كانوا يعبدونها من دون الله ويعظمونها، ويصرفون لها خالص حق الله، أشار إلى بعض اعتقاداتهم، وهو أنهم جعلوا لله ولداً، وجعلوا ذلك الولد أنثى، حيث قالوا: إن الملائكة بنات الله، وقد كانوا يأنفون من الإناث، بل قد يقتل بعضهم البنات، كما قال تعالى: ﴿**وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ**

---

(١) انظر «تفسير ابن كثير» (٤ / ٢٥٤)، و«الدر المنثور» للسيوطي (٦ / ١٢٦).

(٢) انظر «تفسير ابن كثير» (٤ / ٢٥٣، ٢٥٤)، وغيره.

كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾ [النحل: ٥٧ ـ ٥٩]؛ فذكر أن بعضهم إذا ولدت له الأنثى كره ذلك، واسود وجهه، واستخفى من قومه، ثم تارة يمسكها على هون وذل واحتقار لها، وأحياناً يقتلها، أو يدفنها في التراب، وهو (وأد البنات)، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨، ٩].

● ثم أخبر بأن هذه القسمة ﴿ضِيزَىٰ﴾؛ أي: جائرة مائلة غير عادلة، حيث فضلوا أنفسهم على الرب العظيم الذي هو خالقهم ومالكهم، ولهذا أخبر بعد ذلك عن تلك الأصنام والمعبودات التي تقدمت، وهي اللات، والعزى، ومناة، وبيّن أنها مجرد أسماء لقبوا بها تلك الأحجار والأشجار، والبنايات التي قلدوا فيها آباءهم وأجدادهم، واخترعوا لها تلك الأسماء التي ﴿مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾، فليس لهم حجة ولا برهان، ولا دليل يتمسكون به في عبادتها وتعظيمها، ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾، أي: إنهم يتبعون ظنهم وتخمينهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [يونس: ٣٦]، وفي الحديث: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث»(١)، متفق عليه.

والظن هاهنا هو التخرص والتخمين، ثم البناء على ما ظنه واعتقده حقاً، فهؤلاء ظنوا المنفعة في تلك الأصنام، فأقدموا على عبادتها بلا دليل يجزمون به.

وهكذا أخبر بأنهم يتبعون أيضاً هواهم: ﴿وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ﴾؛ أي: ما تميل إليه وتستحسنه، مع قول الله تعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف: ٥٣].

وفي الحديث: «حبك الشيء يعمي ويصم»(٢)، رواه أحمد وأبو داود، وقال

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٠٦٦)، ومسلم برقم (٢٥٦٣). من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (٥ / ١٩٤)، وأبو داود برقم (٥١٣٠) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

أبو أمامة: سمعت النبي ﷺ يقول: «ما عبد تحت السماء إنه أبغض إلى الله من الهوى»(١)، ذكره القرطبي في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية: ٢٣].

• ثم قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى﴾؛ أي: البيان الواضح، وهو هذا القرآن الكريم الذي أنزل علىٰ محمد ﷺ، فمن اتبعه اهتدىٰ، ومن خالفه ضل وهوىٰ، والله أعلم.

■ قوله: [**وعن أبي واقد الليثي، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين، ونحن حدثاء عهد بكفر، وللمشركين سدرة يعكفون عندها، وينوطون بها أسلحتهم، يقال لها: ذات أنواط، فمررنا بسدرة، فقلنا: يا رسول الله! اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال رسول الله ﷺ: «الله أكبر، إنها السنن، قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، لتركبن سنن من كان قبلكم»، رواه الترمذي وصححه**](٢):

ذكر هذا الصحابي رضي الله عنه أنهم خرجوا مع النبي ﷺ غزاة بعد فتح مكة سنة ثمان، وتوجهوا إلىٰ حنين لغزو هوزان، وكان كثير منهم من مسلمة الفتح، أو قريب عهدهم بالكفر وعبادة الأشجار والأحجار، ولم يتمكنوا من معرفة ما

(١) انظر «تفسير القرطبي» (١٦/ ١٦٧).

(٢) أخرجه الترمذي(٢١٨٠)، وأحمد في المسند (٥/ ٢١٨)، وعبد الرزاق في مصنفه (٢٠٧٦٣)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٧٦)، وابن جرير (٩/ ٣١، ٣٢)، وأبو يعلىٰ (٣/ ٣٠)، وابن حبان (١٨٣٥)، والطبراني في «الكبير» (٣٢٩٠، ٣٢٩٤)، وابن المنذر وابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (٣/ ٥٣٣).

قال الترمذي: حديث حسن صحيح. وصححه ابن حجر في الإصابة (٤/ ٢١٦). وصححه الأرناؤوط في «جامع الأصول» (١٠/ ٣٤).

يقرب من الشرك، وقد عرفوا أن للمشركين من هوزان ونحوهم شجرة كبيرة من السدر، يعظمونها ويتبركون بها، ويعكفون عندها، وقد جعلوا في أغصانها خيوطاً أو حبالاً كهيئة العرىٰ، يعلقون فيها سيوفهم ورماحهم وأقواسهم، زعماً منهم أنها تكتسب قوة وتأثيراً، ونكاية بالعدو، ويشتد وقعها، وتنالها بركة تلك الشجرة.

ويسمون تلك الشجرة ذات أنواط، فظن أولئك المسلمون الجدد أن فعلهم جائز ومفيد، وأن المسلمين بحاجة إلىٰ مثل تلك الشجرة، فبعد أن مروا بسدرة تشبه سدرة المشركين تذكروا تلك، فطلبوا من النبي ﷺ أن يأذن لهم في اتخاذ سدرة يختارها لهم، يعملون معها ما يعمله المشركون في تلك السدرة.

ولكن النبي ﷺ استغرب هذا الطلب، وكبر الله وعظمه عن هذا العمل، وأخبرهم بأن هذه المقالة وهذا الطلب شبيه بقول بني إسرائيل لموسىٰ: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾، مع أن بني إسرائيل قد رأوا الآيات والمعجزات، وقد أنجاهم الله من فرعون، وأغرق آل فرعون بمرأىٰ منهم، ومع هذا طلبوا من موسىٰ أن يجعل لهم إلهاً مثل أولئك الذين يعكفون علىٰ أصنام لهم.

ثم إن النبي ﷺ أخبر بأن هذه الأمة سوف تركب سنن المشركين قبلهم، وتفعل كما فعلوا، وقد وقع ما أخبر به النبي ﷺ، فحدث في هذه الأمة الشرك والغلو في الأموات، ودعاؤهم مع الله، وتقليد اليهود والنصارىٰ، واعتقاد أن ما فعلوه هو عين الصواب، فالله المستعان.

● فقوله: «عن أبي واقد الليثي»: ذكر الترمذي أن اسمه الحارث بن عمرو، وفي اسمه خلاف كما في الإصابة، قيل: أنه شهد بدراً، ولعل الصواب ما في

هذا الحديث أنه أسلم سنة ثمان أو نحو ذلك، حيث ذكر أنه مع الذين هم حدثاء عهد بكفر لما خرجوا إلى حنين.

وحنين موضع مشهور بين مكة والطائف، كانت فيه الغزوه المذكورة في القرآن بين المسلمين وهوزان، التي ذكرت في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ [التوبة: ٢٥]، الآية، وكانت في آخر سنة ثمان بعد فتح مكة.

● **ومعنى قوله:** و«**نحن حدثا، عهد بكفر**»؛ أي: قريب عهدهم بالشرك، فلم تطل مدة بقائهم في الإسلام ليعرفوا ما ينافي التوحيد أو ينقص ثوابه، وهذا اعتذار منهم عن هذه المقالة التي حملهم الجهل عليها، وهو دليل على أن من قبلهم قد عرفوا حقيقة التوحيد، ولا يخفى عليهم حكم اتخاذ الشجر للتبرك به.

● **وقوله:** «**وللمشركين سدرة يعكفون عندها، وينوطون بها أسلحتهم، يقال لها: ذات أنواط**»: يمكن أن يريد بالمشركين هوزان وثقيف الذين لم يسلموا إذ ذاك، ويجوز أن يريد غيرهم من الكفار.

والسدر من أفضل شجر العضاه، ذكره الله في قوله تعالى: ﴿وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ [سبأ: ١٦]، وذكره في شجر الجنة بقوله تعالى: ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ [الواقعة: ٢٨]، وفي قوله تعالى: ﴿عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى﴾ [النجم: ١٤].

وذكرت في حديث الإسراء أن نبقها كقلال هجر؛ أي: ثمرها الذي يؤكل.

ووقع في مسند أحمد في هذا الحديث: وكان للكفار سدرة يعكفون عندها، ويعلقون بها أسلحتهم، يقال لها: ذات أنواط، فمررنا بسدرة خضراء عظيمة، فقلنا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط، وفي رواية له: اجعل لنا هذه ذات أنواط، كما للكفار ذات أنواط... الخ.

والعكوف: طول الإقامة حول الشيء، وكان المشركون يلازمون أصنامهم، ويطيلون الإقامة والبقاء حولها، تعظيماً لها، كما قال تعالىٰ عن إبراهيم: ﴿مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢]، وقال عنهم: ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾ [الشعراء: ٧١]، وقال تعالىٰ: ﴿فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، وكان أولئك المشركون يطيلون البقاء حول تلك السدرة، تبركاً بها، وتعظيماً لها.

● وقوله: «**وينوطون بها أسلحتهم**»؛ أي: يعلقونها عليها، وسموها ذات أنواط، حيث جعلوا في أغصانها عرىٰ من الحبال أو الخيوط فيعلقون بها الأقواس والسيوف ونحوها، يزعمون أنها تنالها بركة تلك الشجرة، فتكون أقوىٰ وأنكىٰ ضرباً عند القتال.

● وقوله: «**فمررنا بسدرة فقلنا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط**»: أرادوا الخير وظنوا أنه لا حرج في ذلك، ولم يكونوا متعمدين لطلب الشرك، فلما رأوا تلك السدرة العظيمة توهموا أن اتخاذها لتعليق الأسلحة بها أمر جائز أومفيد، فلذلك طلبوا الإذن أن يجعلها لهم ذات أنواط لغرض التبرك بها.

● وقوله ﷺ: «**الله أكبر**»: هكذا عند الإمام أحمد، وللترمذي: «**سبحان الله**» قالها استنكاراً واستغراباً لصدور هذه المقالة منهم بعد إسلامهم، وكثيراً ما يسبح النبي ﷺ ربه أو يكبره لغرابة بعض المقالات أو الحوادث، وقد يقول ذلك تعظيماً لربه تعالىٰ وتنزيهاً له عن الإشراك به أو صرف شيء من التعظيم والتأله لغيره.

● وقوله: «**قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾**»: هكذا أقسم ﷺ وهو الصادق المصدوق، وأراد بذلك تحقيق هذا التشبيه؛ أي: أن طلبكم لنصب هذه الشجرة لتعظيمها والتبرك بها شبيه أو قريب

من طلب بني إسرائيل أن يجعل لهم موسىٰ إلاهاً؛ أي: صنماً يعكفون عنده، مع التفاوت بين المقصدين في النية، ولا شك أن بني إسرائيل لو عصوا موسىٰ ونصبوا لهم صنماً إلاهاً يعبدونه لكفروا بذلك، وهكذا لو أن هؤلاء الصحابة خالفوا نهي النبي ﷺ واتخذوا شجرة لتعظيمها والتبرك بها لعصوا الله ورسوله.

● وقوله: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم**»؛ أي: طرق الأمم قبلكم وعاداتهم، وتفعلون كأفعالهم، وقد وقع ما أخبر به ﷺ؛ حيث ركبت هذه الأمة ما ركبته الأمم السابقة، ووقعوا في الشرك وعبادة غير الله، وهذا تحذير منه ﷺ من مثل هذه الأعمال، وبيان لأنواع الشرك حتىٰ يبتعدوا عنها، فلقد بلّغ ﷺ وحذر وأنذر، فقامت الحجة علىٰ الخلق، وانقطعت المعاذير، والله أعلم.

■ ■ ■ ■ ■

[٩]

باب:
ما جاء في الذبح لغير الله

وقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

وقوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢].

عن علي بن أبي طالب، قال: «حدثني رسول الله ﷺ بأربع كلمات: «لعن الله من ذبح لغير الله، لعن الله من لعن والديه، لعن الله من آوى مُحْدِثاً، لعن الله من غير منار الأرض»، رواه مسلم.

وعن طارق بن شهاب: أن رسول الله ﷺ قال: «دخل الجنة رجلٌ في ذُباب، ودخل النار رجل في ذباب»، قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: «مر رجلان على قوم لهم صنم لا يجاوزه أحد حتى يقرِّب له شيئاً، قالوا لأحدهما: قرب، قال: ليس عندي شيء أقرب، قالوا له: قرب ولو ذباباً، فقرب ذباباً، فخلّوا سبيله، فدخل النار. وقالوا للآخر: قرب، قال: ما كنت لأقرب لأحد شيئاً دون الله عز وجل، فضربوا عنقه، فدخل الجنة»، رواه أحمد.

■ ■ ■ ■ ■

فيه مسائل:

الأولى: تفسير ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾.

الثانية: تفسير ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾.

الثالثة: البداءة بلعنة من ذبح لغير الله.

الرابعة: لعن من لعن والديه، ومنه تلعن والدي الرجل فيلعن والديك.

الخامسة: لعن من آوىٰ محدثاً؛ وهو الرجل يحدث شيئاً يجب فيه حق الله، فيلتجيء إلىٰ من يجيره من ذلك.

السادسة: لعن من غير منار الأرض، وهي المراسيم التي تفرق بين حقك وحق جارك فتغيرها بتقديم أو تأخير.

السابعة: الفرق بين لعن المعين ولعن أهل المعاصي علىٰ سبيل العموم.

الثامنة: هذه القصة العظيمة وهي قصة الذباب.

التاسعة: كونه دخل النار بسبب ذلك الذباب الذي لم يقصده، بل فعله تخلصاً من شرهم.

العاشرة: معرفة قدر الشرك في قلوب المؤمنين، كيف صبر ذلك علىٰ القتل ولم يوافقهم علىٰ طلبتهم مع كونهم لم يطلبوا إلا العمل الظاهر.

الحادية عشرة: أن الذي دخل النار مسلم، لأنه لو كان كافراً لم يقل: «دخل النار في ذباب».

الثانية عشرة: فيه شاهد للحديث الصحيح: **«الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله، والنار مثل ذلك»**.

الثالثة عشرة: معرفة أن عمل القلب هو المقصود الأعظم حتىٰ عند عبدة الأوثان.

الشرح

باب:
ما جاء في الذبح لغير الله

الذبح قد يكون من الأمور العادية، وقد يكون عبادة لله، وقد يكون عبادة لغير الله.

● **فالذي من الأمور العادية**: هو ذبح الناس الدواب التي يريدون أكلها، وهذا هو الذبح العادي، وله شروط معروفة، يكون بها ذلك الحيوان المذبوح حلالاً إن تمت الشروط، أو حراماً إن فقدت الشروط أو بعضها.

فلقد أباح الله للإنسان بهيمة الأنعام ينتفع بها ويأكل منها، كقوله تعالى: ﴿**أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ**﴾ [المائدة: ١]، وكقوله تعالى: ﴿**وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ**﴾ [النحل: ٥]؛ يعني: من بهمية الأنعام، التي هي: الإبل، والبقر، والغنم، وكذا ما يشبهها من الصيد ونحوه، و كذلك الطير المباح ونحوه باستثناء ما ورد تحريمه.

لكن نهى عن ما لم يذكر اسم الله عليه، فقال تعالى: ﴿**وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ**﴾ [الأنعام: ١٢١]، إذ لما نزل تحريم الميتة أوحى الشيطان إلى المشركين أن يقولوا لمحمد وأصحابه: كيف تزعم يا محمد أن ذبحك حلال وذبح الله حرام؟ أليس الله هو الذي أمات الميتة وذبحها، فكيف تكون حراماً؟! وما ذبحته أنت تزعم أنه حلال، فعند ذلك أنزل الله: ﴿**وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ**﴾ [الأنعام: ١٢١]، وأنزل: ﴿**فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ (١١٨) وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ**﴾ [الأنعام: ١١٨، ١١٩].

وأخبر بأن الميتة حرام؛ وذلك لأنها لم يذكر اسم الله عليها، و لأنها متعفنة

محبوس فيها الدم الذي هو مضر ومحرم، فأما إذا ذبحت ذبحاً شرعياً، فإن هذا الذبح يبيحها ويحلها.

* شروط الذبح الشرعي:

ذكر العلماء رحمهم الله للذبح أربعة شروط حتى يكون المذبوح حلالاً، وهذه الشروط هي:

الشرط الأول: ذكر اسم الله: فيذكر اسم الله عند الذبح بقوله: (باسم الله)، وإن زاد بقوله: (والله أكبر)، فهو أفضل، ولا يقول: بسم الله الرحمن الرحيم؛ لأن المقام ليس مقام رحمة، إنما يقتصر على باسم الله، وتقديره: (باسم الله أذبحها)، أو: (باسم الله أستحلها)، أو: (باسم الله استعين على ذبحها)، أو: (بسم اللهأتبرك بذبحها)، ونحو لك، كما يؤمر أن يذكر اسم الله عند الأكل وعند الشرب وعند اللباس، وغيره؛ لأن اسم الله به تحل البركات، وبنزعه تنزع البركة.

الشرط الثاني: أهلية الذابح: وهو أن يكون مسلماً أو كتابياً، فإن كان مشركاً أو ملحداً أو منحرفاً غير متمسك بإسلامه كالمرتد ردة مكفرة، أو نحوه، فإنها لا تحل ذبيحته؛ لأن الله لم يبح إلا ذبح المسلم وذبح الكتابي، بقوله تعالى: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ [المائدة: ٥]، ويعني بطعامهم: ذبائحهم، كما اتفق على ذلك المفسرون من السلف ومن بعدهم.

وذلك لأن أهل الكتاب (اليهود والنصارى) من شرعهم ومن ديانتهم ذكر اسم الله تعالى عند الذبح، ومن شرعهم عدم حل الميتة التي تذبح بغير ذبح شرعي، فمن أجل ذلك أباح الله تعالى ذبحهم لتمام الشروط فيه.

أما ذبح المشرك حتى ولو ذبحها ذبحاً كاملاً كذبح المسلم، حتى ولو ذكر اسم الله عليها، فإن ظاهر النص الاقتصار على المسلم أو الكتابي، وتحريم ذبائح المشركين والملحدين والشيوعيين والمرتدين، وسائر أنواع الكافرين.

الشرط الثالث: الآلة التي تذبح بها: بأن تكون حادة القطع سريعة في الذبح.

وقد جوز النبي ﷺ الذبح بكل ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه، لما استأذنه بعض أصحابه أن يذبحوا بالقصب، ولم يكن معهم (مُدىً)؛ أي: السكاكين فقالوا: إنا لاقوا العدو غداً، وليس معنا مُدىً، أفنذبح بالقصب، قال: «**ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوه**»؛ أي: الشيء الذي يقطع جلدة الحلق، ويسيل الدم، فإنه يُحِلُّ الذبيحة، ثم استثنى فقال: «**ما لم يكن سن ولا ظفر**»، ثم علل بقوله: «**وسأحدثكم عن ذلك: أما السن فعظم، وأما الظفر فمدى الحبشة**»[1]، فهم يذبحون بأظفارهم؛ أي: إن أحدهم يطيل ظفره ثم يذبح به، فنهى أن يذبح بالظفر حتى ولو عصفوراً ونحوه، ونهى أن يذبح بسن.

وتعليله بذلك ـ أيضاً ـ يفهم منه أنه لا يجوز الذبح بالعظم، لأنه قال: «**أما السن فعظم**» فلا يذبح بالعظم، أما بقية ما يذبح به من حديد ومن أعواد ومن قصب ومن حجارة ومن خشب، وما أشبه ذلك، فإنه يحل الذبح به.

الشرط الرابع: أن يُقطع الحلقوم والمرئ والودجان من الذبيحة: فإذا لم تقطع هذه الأشياء فلا تحل، وبالأخص مجرى الطعام، وهو: المريء، ومجرى النفس وهو: الحلقوم، فلا بد من قطعهما، فلو اقتصر على قطع مجرى النفس وتركها حتى ماتت لصارت ميتة، وكذلك يتأكد من قطع الودجين، وهما عرقان بجانبي

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٤٨٨)، ومسلم برقم (١٩٦٨)، من حديث رافع بن خديج رضي الله عنه.

المريء الذي هو مجرىٰ الطعام، وبقطعهما يخرج الدم باندفاع.

أما كيفية الذبح: فقد أمر النبي ﷺ بالإحسان عند الذبح بقوله ﷺ: «**وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته**»[1]، أمرنا أن نريح الذبيحة؛ أي: إذا أراد أن يذبح لابد أن تكون السكين حادة قوية سهلة القطع حتىٰ لا تتعذب الذبيحة وتتألم كثيراً.

واختلف: هل يقطع عظم الرقبة حتى يسرع الموت أم لا؟

فمنهم من استحب قطع عظم الرقبة إلىٰ أن يقطع المخ، وعللوا ذلك بأنه أسرع في إزهاق الروح، وأسرع لموتها وعدم تألمها.

ومنهم من قال: لا يقطع الرقبة؛ بل يقتصر علىٰ قطع هذه الأشياء، ونحوها، وقالوا: إذا طالت حياتها دقيقة أو دقيقتين مثلاً كان ذلك سبباً لخروج بقية الدم من عروقها وسيلانه، وعلىٰ كل حال فالأمر واسع إن قطع الرقبة، أو تركها.

هذه هي شروط الذبح الحلال، وهو ما يسمىٰ بالذبح للحم.

● فأما إذا ذبحت الذبيحة لغير الله ـ وهو المراد بالباب ـ فإنها تكون حراماً لأنها عبادة لغير الله، ولو تمت شروط الذبح التي تقدمت، فإذا جاء إنسان وقال: أنا مسلم أو أنا كتابي من أهل الكتاب ومعه ذبيحة كشاة، أو نحوها، ومعه سكين حادة، وذبحها، وقال: باسم الله، وقطع الحلقوم والمريء والودجين، وكان ذبحه لها تعظيماً لقبر أو تعظيماً لميت أو لبقعة أو نحو ذلك، فإنها تصبح حرامًا؛ لأنها مما أهل به لغير الله.

---

(١) رواه مسلم برقم (١٩٥٥)، من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه.

ويقع كثيراً الذبح لمخلوقين من كثير من الجهلة، فيتساهلون بذلك، أو يتعمدون ذلك، وقد ذكر لنا كثيراً أن بعضهم إذا اشترىٰ سيارة ذبح عندها، ويقول: إن هذا الذبح يزيل أثر العين، أو الحسد، ونحوهما، أو يحل البركة فيكون ذبحاً لغير الله، وليس ذبحاً للحم، وهناك في بعض البلاد عيون تنبع من الأرض، وأهل تلك البلاد يذبحون لهذه العين حتىٰ لا تتوقف، فيذبحون لها كل أسبوع ويزعمون أنهم إذا لم يذبحوا لها غارت وتوقف جريانها، وهم ينتفعون بها، فيسقون بها نخيلهم، وأشجارهم، فهذا ذبح لمخلوق.

وكذلك يُذكر أن الكثير منهم إذا أراد أن يستوطن داراً، أو يسكنها، ذبح عند عتبة الباب، ويزعم أن هذا الذبح يقيه من دخول الجن أو السباع أو اللصوص أو غيرها.

وهكذا إذا أراد حفر بئر ذبح في مكانها زاعماً أن الجن تسد عيونها حتىٰ لا ينبع الماء إن لم يفعل ذلك.

أو إذا أراد بناء دار وتأسيسها ذبح في أساس الحيطان التي يريد أن يبنيها، ويزعم أن هذا يحصل به بركة أو يحصل به دفع شر أو أذىٰ.

وكل هذا من الذبح لغير الله، يدخل في هذا الباب، وقد قال فيه النبي ﷺ: «لعن الله من ذبح لغير الله»[1].

● **وعلى هذا فأقسام الذبح هي:**

القسم الأول: أن يكون مباحاً،وهو ما تقدمت به الشروط، وكان قصده من ذبحه أكل اللحم فقط.

---

(1) سيأتي تخريجه ـ إن شاء الله ـ في هذا الباب.

والقسم الثاني: **أن يكون حراماً**، وهو ما ذبحه وتمت فيه الشروط أو لم تتم، ولكن قصده تعظيم هذه البقعة.

والقسم الثالث: **ما ذبحه للأكل**، ولكنه اختلت فيه الشروط فهو حرام لاختلال الشروط.

والقسم الرابع: **ما ذبحه باسم مخلوق مع تمام الشروط للحم**، ولكن قال عليها: باسم المسيح أو باسم البدوي، أو ما أشبه ذلك، فمثل هذا أيضاً ذبح على غير اسم الله، فلا يكون حلالاً؛ بل يكون حراماً؛ وذلك لكونه داخلاً في قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾، ولأنه يصدق عليه دخوله فيما أهل به لغير الله.

القسم الخامس: **وهو أفضلها**، وهو ما ذبح لله تعالى وتوفرت فيه الشروط، مثل القرابين والأضاحي ونحوها إذا قصد بها التقرب إلى الله تعالى، وكان الذابح مسلماً، وذكر اسم الله، والآلة حادة، وتمت الشروط، فإنه يكون من أحلها وأفضلها.

فالإنسان إذا توقى ما هو حرام واقتصر على ما هو حلال؛ فإن الله تعالى جعل بدل الحرام ما يقوم مقامه.

● كما أن الذبح يكون عبادة كذبح الهدايا والقرابين والأضاحي والصدقة التي تذبح لله ولمرضاة الله وفي سبيل الله وباسم الله، فذابحها يؤجر ويثاب على ذبحها.

فكل عبادة يتقرب بها إلى الله لا تصلح لغيره، وإذا صرفت لغير الله كان ذلك الفعل شركاً، وإذا عرفت أن هذا الشيء عبادة فإن التقرب به إلى الله طاعة وتوحيد، وصرفه أو صرف بعضه لغير الله شرك، وكفر بالله عز وجل.

■ قوله: [وقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]:

تقدم أن الذبح عبادة لا يجوز صرفها لغير الله، بل صرفها لغير الله شرك، وهذه الآيات من الأدلة على كون الذبح عبادة؛ لأن الله قرنه بالصلاة في هاتين الآيتين(١)، الآية الأولى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي...﴾، والآية الثانية: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾.

والآية عامة في كل الصلوات؛ أي: لا تصل إلا لله فكما أنك لا تصلي إلا لله، فكذلك لا تذبح ولا تنحر إلا تقرباً إلى الله لا إلى غيره، فلا تتقرب بالذبح لمخلوق؛ ولا تتقرب بالذبح لبقعة أو لشجر أو لحجر أو لميت، أو نحوه؛ بل تقرب بالذبح تعظيماً لله كما أن الصلاة لله، كما في هذه الآية: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي﴾، والنسك: هو الذبح، كما في قوله تعالى: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة: ١٩٦].

قال مجاهد في قوله: ﴿صَلاتِي وَنُسُكِي﴾، قال: النسك: الذبح في الحج والعمرة، وقال الثوري عن السدي عن سعيد بن جبير: ﴿وَنُسُكِي﴾: وذبحي، وكذلك قال الضحاك(٢).

فالمعنى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي﴾ لله، ﴿وَنُسُكِي﴾؛ أي: ذبحي لله ﴿وَمَحْيَايَ﴾؛ أي: ما آتيه في الحياة هو لله ﴿وَمَمَاتِي﴾؛ أي: ما أموت عليه ﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لا شَرِيكَ لَهُ﴾، فإذا كانت هذه كلها لله، فإن صرفها لغير الله يعتبر شركاً؛ لأن هذا هو شأن كل عبادة يتقرب بها إلى الله، فإن صرفها لغيره شرك.

---

(١) يشير الشيخ إلى هذه الآية: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي...﴾، والآية الثانية التي تأتينا بعد هذه وهي قوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾.

(٢) انظر «تفسير ابن كثير» (٢/ ١٩٨).

■ **قوله: [وقوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢]]:**

جمع الله تعالىٰ في هذه الآية بين الصلاة والنحر، فإن الصلاة أفضل العبادات البدنية، والذبح والنحر من أفضل العبادات المالية، قيل أن الصلاة هنا: جميع الصلاة المكتوبة والمندوبة، وقيل: أنها صلاة عيد النحر، وقيل المراد: الدعاء كله فإنه في اللغة صلاة.

وفسر النحر بنحر الأضاحي والهدايا، والصحيح أنه أعم من ذلك، فيدخل فيه نحر الصدقات والقرابين والهدايا ونحوها.

فالمعنى: اجعل صلاتك ونحرك كله لربك، ولا تجعل منه شيئاً لغيره، فدل علىٰ أن صرفه لغير الله شرك؛ لإنه خالص حق الله تعالىٰ.

■ **قوله: [عن علي بن أبي طالب، قال: حدثني رسول الله ﷺ بأربع كلمات: «لعن الله من ذبح لغير الله، لعن الله من لعن والديه، لعن الله من آوى مُحْدِثاً، لعن الله من غير منار الأرض»(١)، رواه مسلم]:**

اللعن هو: الطرد والإبعاد عن رحمه الله، وذلك دليل علىٰ أنه ذنب كبير يستحق عليه اللعن، ويستحق عليه اللوم، وذلك لأنه تعظيم لغير الله.

● **جاء في هذا الحديث اللعن على أربعة أشياء:**

الأول: لعن الله من ذبح لغير الله.

الثاني: لعن الله من لعن والديه.

الثالث: لعن الله من آوىٰ محدثاً.

الرابع: لعن الله من غير منار الأرض.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (١٩٧٨).

* **الأول: قوله: «لعن الله من ذبح لغير الله»:**

وسيأتي أن النبي ﷺ نهى أن يذبح في المكان الذي يذبح فيه المشركون لأعيادهم، أو لأوثانهم ولو كان الذبح لله، فكذلك الذبح لغير الله يكون بهذه المثابة، ولذلك قال: **«من ذبح لغير الله»**.

وقد سمى الله الذبائح قرابين، في قوله تعالى: ﴿**إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ**﴾ [المائدة: ٢٧]؛ فالذبائح: تسمى قرابين، والأضاحي والهدايا تسمى قرابين؛ وذلك لأن العبد يتقرب بها إلى الله، كأنك تفترض أنك بعيد عن الله، وبعيد عن ثوابه، وبعيد عن أسباب رضاه، وهذه الأشياء والعبادات تقربك؛ فكأنها تفتح لك الأبواب حتى تدخل، أو تجعلك قريباً بعد أن كنت بعيداً.

فالصلاة قربة؛ لأنها تقربك إلى الله، والصدقة قربة؛ لأنها تقربك بعد أن كنت بعيداً، كما أن المعاصي تُبعد عن الله تعالى وعن ثوابه، فكذلك الطاعات تسمى قربات.

ومن جملة تلك الذبائح التي تسمى قرابين: الأضحية، كما في قول ابن القيم:

شكر الضحية كل صاحب سنة
لله درك من أخي قربان

* **الثاني: قوله: «لعن الله من لعن والديه»:**

ولعن الوالدين ذنب كبير؛ وذلك لأن فيه إساءة إلى من يستحق الإحسان؛ فإن الوالدين لهما إحسان على ولدهما وجزاء الإحسان الإحسان، قال تعالى:

﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، في عدة مواضع، فإذا قوبل هذا الإحسان بالإساءة، وقوبل بدلاً من الدعاء لهما والترحم عليهما بالسب والشتم واللعن؛ كان ممن بدل الحسنى بالإساءة، وبدل البر بالقطيعة وبالعقوق، وبدل الصلة بالقطيعة، فيكون مستحقاً لهذا اللعن والوعيد.

وليس هذا خاصّاً بالتصريح بأن يقول لأحدهما: أنت ملعون، أو عليك اللعنة، أو لعنك الله، فهذا ذنب كبير لو قاله، بل يعم ما إذا تسبب في إيصاله إليهما، فإنه يدخل في ذلك، ويكون من الكبائر، كما في الحديث، أنه ﷺ قال: «من الكبائر شتم الرجل والديه»، قالوا: وهل يشتم الرجل والديه؟ قال: «نعم؛ يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه»(١).

والشتم: هو السب والقذف، فعقوق الوالدين من الذنوب التي يستحق فاعلها الوعيد.

* **الثالث: قوله: «لعن الله من آوى مُحْدِثاً»:**

ورواها بعضهم: «من آوى مُحْدَثاً»: بفتح الدال، والمحدِث: بكسر الدال، هو العاصي، والمحدَث: بفتح الدال، هو المعصية، ومعنى آواه: نصره؛ أي: حال بينه وبين أن يقام عليه الحد، أو يؤخذ منه الحق، أو يقتل إن كان قاتلاً، أو يقطع إن كان سارقاً، أو يرجم إن كان زانياً، أو ما أشبه ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٥٩٧٣). ومسلم برقم (٩٠)، واللفظ له. من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

وجاء اللعن صريحاً في الحديث الذي أخرجه الترمذي برقم (١٩٨٢)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، وهو في صحيح الجامع برقم (٢٢١٤)، ولفظه: «إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه، يلعن أبا الرجل فيلعن أباه، ويلعن أمه فيلعن أمه».

فمثلاً إذا جاءك إنسان قاتل أو سارق، ثم أَجَرْتَهُ وعصمته وَحُلْتَ بينه وبين أن يؤخذ الحق منه، ويقام عليه الحد، فتكون قد آويت محدِثاً، فتدخل في قوله ﷺ: «لعن الله من آوى محدِثاً». وأيضاً فإن أهل الحق سوف يدعون عليك.

فيجب على المسلم أن يكون مساعداً لأهل الحق على العصاة، ولا يساعد العصاة على أهل الحق، «فمن آوى محدِثاً»، يعني: صار حرباً لله.

ويدخل في قوله: «من آوى محدَثاً» بالفتح، من دعا إلى المعاصي ومكنها؛ فإنه قد آوى المحدَث، كمن فتح أبواب العهور والفحش، وسعى في الأسباب التي يتمكن الناس فيها من المحدثات ومن المنكرات، وسعى في أسباب التبرج ودعوة النساء إلى أن يتبرجن، ويخلعن جلباب الحياء، أو سعى في تمكين الأغاني والملاهي حتى يشتغل بها الناس؛ فأتاح الفرصة للمنكرات حتى تنتشر؛ فهذا قد آوى المحدث، وكذلك من سعى في فتح أماكن الرقص وأماكن الغناء أو أماكن الزنا، أو سعى في حلول الفوضى حتى يختلط الناس ويخطف بعضهم بعضاً، ويسرق بعضهم بعضاً، ولا يكون هناك قوة تردع؛ فهذا قد آوى المحدث.

فمن آوى المحدَث بتمكينه من المعاصي بفتح أبوابها فهو مستحق للعن، ومن آوى المحدِث، بأن نصر العصاة بالحيلولة دونهم ودون أخذ الحق منهم، فقد آوى محدِثاً، وكل ذلك يستحق اللعن.

* **الرابع: قوله: «لعن الله من غير منار الأرض»:**

منار الأرض هي: الرسوم التي تحجز بين أرض وأرض، وهي عبارة عن علامات من الحديد، أو من حجارة، ينصبونها تفصل بين أرض هذا وأرض هذا؛ فيأتي إنسان ويقلع هذا النصب، ويقدمه في أرض جاره ليأخذ منه جزءاً قليلاً أو كثيراً، وذلك من الغلول والاقتطاع بغير حق، وهذا خيانة وسرقة

وغصب، وظلم عظيم، وذنب كبير، حتى قال فيه النبي ﷺ: «**من اقتطع شبراً من الأرض ظلماً طوقه الله إياه يوم القيامة من سبع أرضين**»(١)، وفي رواية: «**من أخذ شيئاً من الأرض بغير حقه خسف به يوم القيامة إلى سبع أرضين**»(٢)، وهذا جزاء الشبر، فكيف إذا اقتطع مئات الأذرع، أو مئات الأبواع؟ فإن هذا يعتبر أكبر وأكبر، بل أعظم وأشد.

ومعنى «طوقه»: جُعل عنقاً في رقبته، ويأتي به يحمله كطوق العنق، وهذا - أيضاً - يدل على عظيم ظلم الناس.

والشاهد من الحديث هو: «**لعن الله من ذبح لغير الله**»، وبدأ به؛ لأنه شرك، والبقية معاص من كبائر الذنوب.

■ **قوله: [وعن طارق بن شهاب: أن رسول الله ﷺ قال: «دخل الجنة رجلٌ في ذباب، ودخل النار رجل في ذباب»، قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: «مر رجلان على قوم لهم صنم لا يجاوزه أحد حتى يقرِّب له شيئاً، قالوا لأحدهما: قرب، قال: ليس عندي شيء أقرب، قالوا له: قرب ولو ذباباً، فقرب ذباباً، فخلّوا سبيله، فدخل النار. وقالوا للآخر: قرب، قال: ما كنت لأقرب لأحد شيئاً دون الله عز وجل، فضربوا عنقه، فدخل الجنة»(٣)، رواه أحمد]:**

توعد النبي ﷺ في هذا الحديث على الذبح لغير الله بدخول النار، حيث

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٩٨)، ومسلم (١٦١٠) واللفظ له، من حديث سعيد بن زيد رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٣١٩٦)، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» (١٥، ١٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٠٣)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٢/ ٣٥٨)، عن طارق بن شهاب عن سلمان الفارسي موقوفاً بسند صحيح.

أخبر بأن رجلين قُتل أحدهما، وَسَلِمَ الآخر، فالذي قُتل دخل الجنة؛ لأنه سَلِمَ من الشرك، بسبب أنه طُلب منه أن يذبح ذبابة فامتنع، وقال لا أتقرب بها لأحد إلا لله. وأما الآخر فقد سلم من القتل لأنه فعل الشرك، حيث ذبح ذبابة تقرباً للصنم.

فالحاصل أن أحد هذين الرجلين قال: ليس عندي شيء أقربه، قالوا: قرب شيئاً يدل على تعظيمك حتى ولو ذباباً، فقرب هذا الذباب الحقير الدنيء، تعظيماً لذلك الصنم، فخلوا سبيله، وكان ذلك ردة منه وشركاً، فأصبح من أهل النار بسبب هذا التقريب، الذي هو تعظيم لشيء حقير.

أما الثاني: فإنه ما إن سمع ذلك، وعرف أن تعظيم هذا ا لصنم - ولو بهذا الشيء الحقير - شركٌ، فصمم، وقال: لا أقرب له ولا أعظمه، ولا أقرب إلا لله عز وجل، فعند ذلك قتلوه، وصبر على القتل، فكان جزاؤه أن دخل الجنة.

■ ■ ■ ■ ■

[١٠]

باب:
لا يذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله

وقول الله تعالى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨].

عن ثابت بن الضحاك، قال: نذر رجل أن ينحر إبلاً ببوانة، فسأل النبي ﷺ، فقال: «هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يُعبد؟» قالوا: لا، قال: «فهل كان فيها عيد من أعيادهم؟» قالوا: لا، فقال رسول الله ﷺ: «أوف بنذرك، فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله، ولا فيما لا يملك ابن آدم»، رواه أبو داود، وإسناده على شرطهما».

■ ■ ■ ■ ■

*** فيه مسائل:**

الأولى: تفسير قوله: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾.

الثانية: أن المعصية قد تؤثر في الأرض؛ وكذلك الطاعة.

الثالثة: رد المسألة المشكلة إلى المسألة البينة ليزول الإشكال.

الرابعة: استفصال المفتي إذا احتاج إلى ذلك.

الخامسة: أن تخصيص البقعة بالنذر لا بأس به إذا خلا من الموانع.

السادسة: المنع منه إذا كان فيه وثن من أوثان الجاهلية، ولو بعد زواله.

السابعة: المنع منه إذا كان فيه عيد من أعيادهم ولو بعد زواله.

الثامنة: أنه لا يجوز الوفاء بما نذر في تلك البقعة لأنه نذر معصية.

التاسعة: الحذر من مشابهة المشركين في أعيادهم ولو لم يقصده.

العاشرة: لا نذر في معصية.

الحادية عشرة: لا نذر لابن آدم فيما لا يملك.

■ ■ ■ ■ ■

الشرح

باب:
لا يذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله

اعلم أن الأماكن التي يُعصى الله فيها إذا قصدها المطيع فإنه يفتح للعصاة الأبواب فيقتدون به، ولو كانت نيته الطاعة.

وهذا الباب معقود للذبح، ولكن يراد به بقية الأعمال الصالحة، فالأماكن التي يذبح فيها المشركون لغير الله؛ مثل: ذبحهم للأصنام، وذبحهم للقبور، وذبحهم للعيون، وذبحهم للبركة في بقعة أو قبة، أو نحو ذلك، لا يجوز أن يذبح لله فيها، كذبح الأضحية أو الصدقة ونحو ذلك. والذبح لغير الله مما بينا من قبل أنه شرك بالله العظيم.

فإذا كان المشركون يذبحون عند هذا القبر تعظيماً له، فلا يجوز للمسلم أن يذبح فيه لله تعظيماً لله، كالأضحية، أو الصدقة، أو الهدي، وإن كان صحيح النية؛ لأنه لا يؤمن أن يقع في قلبه شيء من تعظيم البقعة، كما لا يؤمن أن يقتدي به الجهلاء، ويقولون: لقد رأينا فلاناً يذبح لهذا القبر أو نحوه، فيقعون فيما وقع فيه المشركون.

والمؤلف رحمه الله عقد هذا الباب للذبح، ولكنه عام في العبادات كلها، والدليل عليه الآية التي أوردها المصنف.

■ قوله: [وقول الله تعالى: ﴿لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨]:

نزلت هذه الآية في مسجد الضرار الذي أقامه المنافقون في المدينة، وقصدوا بذلك ما ذكر الله تعالى في قوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة: ١٠٧]، ثم قال تعالى: ﴿لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾؛ أي: لا تقم في ذلك المسجد، فالرسول عليه الصلاة والسلام لو قام فيه فهذا القيام لا يكون إلا لله؛ فإنهم لما بنوه جاءوا للنبي ﷺ وقالوا: إنا قد بنينا عندنا مسجداً للضعيف، ولابن السبيل، ولنا في الليلة المطيرة، ونريد أن تأتينا فتصلي فيه، فقال النبي ﷺ: «إنا على سفر، ولكن إذا رجعنا إن شاء الله»(١)، فلما قفل راجعاً من تبوك نزلت عليه هذه الآيات في مسجد الضرار، فأرسل إليه فَهُدِمَ.

وهذه الآية عامة لكل أماكن الكفر، وأماكن النفاق، وأماكن الشرك، لا يجوز أن يتعبد لله فيها؛ فالمكان الذي يقصده المشركون، ويذبحون فيه لهذا القبر أو لهذه البقعة، لا يقصده المسلم ليذبح فيه.

وقد وردت أحاديث كثيرة في النهي عن اتخاذ القبور مساجد؛ أي: أماكن للصلاة، ومعلوم أن كل موضع يصلى فيه فهو مسجد، ومعلوم أن من بنى عليه مسجداً لا يقصد إلا أن يصلى فيه لله، لكن لما كان قد يعظم، وقد يأتيه من يصلي فيه لغير الله، حسمت المادة ونهي عن ذلك نهياً كاملاً.

فالنهي عن مسجد الضرار أن يقام فيه خير مثال لبقية الأماكن التي يبنيها

---

(١) رواه ابن هشام عن ابن إسحاق بدون إسناد (٢ / ٣٣٢)، وذكره ابن كثير في «التفسير» (٢ / ٣٨٨)، عن ابن إسحاق عن الزهري، ويزيد بن رومان وعبد الله بن أبي بكر وعاصم بن عمر بن قتادة وغيرهم مرسلاً، وضعفه الألباني في فقه السيرة، ص(٤٣٦).

المشركون أو المنافقون أو يقصدونها ويعبدون فيها غير الله، أو يبنونها لغير الله، فلا يقام فيها، ولا يصلى فيها، ولا يتعبد فيها بأي نوع من أنواع العبادات.

■ **قوله: [عن ثابت بن الضحاك قال: نذر رجل أن ينحر[1] إبلاً ببوانة، فسأل النبي ﷺ، فقال: «هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يُعبد؟» قالوا: لا، قال: «فهل كان فيها عيد من أعيادهم؟» قالوا: لا، فقال رسول الله ﷺ: «أوف بنذرك، فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله، ولا فيما لا يملك ابن آدم»، رواه أبو داود، وإسناده على شرطهما[2]]:**

هذا الحديث دليل على ما تقدم، وفيه أن هذا الرجل نذر نذراً لله ألزم به نفسه، فنذر أن ينحر إبلاً لله يتصدق بلحمها في موضع يقال له: بوانة، وهو مكان معروف هناك، فلما نذر هذا النذر الذي هو طاعة وتحقق شرطه، أو نذر نذراً مطلقاً توقف عنده حتى يسأل أهل العلم، وذلك لأنهم لا ينفذون إلا بعدما يسألون عن الحكم، فذهب إلى الرسول عليه الصلاة والسلام وسأله ماذا ترى في وفاء هذا النذر؟

والنذر هو: إلزام المكلف نفسه ما ليس واجباً عليه شرعاً تعظيماً للمنذور له.

والوفاء بالنذر إذا كان طاعة فهو واجب، وقد مدح الله أهله: ﴿يُوفُونَ

---

(١) قال الشيخ ابن جبرين: النحر: خاص بالإبل؛ ويكون في أصل الرقبة، مما يلي النحر. والإبل معروفة من بهيمة الأنعام، وهي التي تنحر، وكذلك كل ما له رقبة طويلة فإنه ينحر.

أما الذبح: فهو خاص بالبقر والغنم، ويكون في أصل الرأس، ويجوز ذبح ما ينحر، ونحر ما يذبح.

(٢) أخرجه أبو داود برقم (٣٣١٣)، قال شيخ الإسلام في «الاقتضاء» (١ / ٤٣٦): إسناده على شرط الصحيحين.

وأخرجه البيهقي (١٠ / ٨٣)، والطبراني في «الكبير» (١٣٤١)، قال ابن حجر في «التلخيص». (٤ / ١٨٠): حديث صحيح، وصححه الألباني في تخريج «المشكاة» (٣٤٣٧)، و«صحيح الجامع» (٢٥٤٨).

بِالنَّذْرِ﴾، وإذا كان معصية فلا يجوز كما سيأتي.

فمن أجل ذلك سأل هذا الرجل النبي ﷺ عن حكم الوفاء بالنذر في هذه البقعة، فسأله النبي ﷺ عن هذه البقعة، والتي اسمها (بوانه)، هل كان فيها قبل الإسلام وثن أو صنم يعبده المشركون ويقصدونه، ويذبحون فيه لغير الله؟ كوثن ينذرون له، ويطوفون به، ويدعونه، ويتمسكون بأركانه، ويتبركون به.

فقالوا: ليس فيها وثن.

ثم سأل بعد ذلك: هل فيها عيد من أعيادهم يقصدونها من أجله؟ يعني: المجتمعات التي يقصدونها ويجتمعون فيها ويعظمونها.

فقالوا: ليس فيها عيد من أعيادهم.

فعند ذلك أمره أن يوفي بنذره، وأخبره وأخبر غيره بأن النذر إذا كان نذر معصية فلا يجوز الوفاء به، وكذلك إذا نذر عيناً مملوكة لغيره، وليست ملكاً له -أي: للناذر- فلا يلزمه الوفاء به، ولكن في الجميع كفارة يمين، كما في قوله: **﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾** [المائدة: ٨٩].

* **وقوله: «هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يُعبد؟»:**

الوثن: كل ما يعبد من دون الله، ولكن إن كان له صورة أو تمثال سمي صنماً، وسمي وثناً، وإن لم يكن له صورة؛ بل يعبد لتصوره بالعقل، كمن يعبد الجن ومن يعبد الشيطان، فإنه يسمى وثناً، ولا يسمى صنماً.

والجاهلية: هي الوقت الذي قبل الإسلام، وسموا جاهلية لكثرة جهلهم، أو لأن عباداتهم كلها صادرة عن جهل.

* **وقوله: «هل كان فيها عيد من أعيادهم»**.

العيـد: اسم لكل ما يعود ويتكرر من الاجتماع العام؛ إما بعود السنة، أو الشهر، أو الأسبوع، لذلك يسمى يوم الجمعة عيداً للأسبوع، ويوم الفطر عيد، ويوم الأضحى عيد، وأيام التشريق أيام عيد للمسلمين، فالشيء الذي يتكرر بعود السنة ونحوها يسمى عيداً.

وأهل الجاهلية كان لهم أعياد، وقد أبطلها الإسلام، فكانوا يجتمعون في بقاع خاصة، كالأسواق التي كانوا يجتمعون فيها كل سنة ثلاثة أيام أو نحوها، كما في الصحيح: أن مجنة وذو المجاز وعكاظ كانت أعياداً وأسواقاً يجتمعون فيها قبل الإسلام[1]، فجاء الإسلام ونسخها.

فالرسول عليه الصلاة والسلام سأل هل في هذه البقعة مجتمع يجتمعون فيه؟ ومعلوم أنهم إذا اجتمعوا فيه، فإنهم يعتقدون فيه أو يعظمونه، أو يعصون الله فيه، إما مثلاً بتفاخرهم وتكبرهم، أونحو ذلك من المعاصي، أو معاملاتهم السيئة والربوية، فلما أخبروه بأنه ليس فيها عيد من أعيادهم، قال: **«أوف بنذرك، فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله»**.

فالنذر إذا كان في معصية الله لا يجوز الوفاء به، فمن نذر مثلاً أن يقتل فلاناً وقال: إن سلمت أو وصلت البلاد الفلانية فعلي أن أقتل فلاناً، فهذا ظلم، وحرام عليه أن يقتله، فإنه: **«لا وفاء لنذر في معصية الله»**، وكذلك إذا نذر أن يشرب خمراً أو يزني أو يسرق أو ينتهب مالاً أو نحو ذلك من المعاصي، أو يترك صلاة أو يمنع حقاً واجباً كزكاة أو كفارة، أو نحو ذلك من المعاصي **«فلا وفاء لنذر في معصية الله»**.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٠٩٨، ٤٥٢٩)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

كذلك إن نذر عيناً ملكاً لغيره لم يلزمه الوفاء بها، مثل أن يقول: لله علي إن شفاني الله من هذا المرض أن أذبح شاة فلان، وهي ليست ملكاً له، أو قال: سوف أتصدق بثوب فلان، أو أوقف بيت فلان أو فرسه في سبيل الله، وهو ليس ملكاً له، لأنه لا يملك إلا ماله هو، فأما مال غيره فلا يقدرعليه، ولا يجوز له التصرف فيه، وإذا فعل فعليه كفارة يمين، لقوله ﷺ: **«لا نذر في معصية الله، وكفارته كفارة يمين»**[1].

■ ■ ■ ■ ■

(١) أخرجه أحمد (٦ / ٢٤٧)، وأبو داود برقم (٣٢٩٠، ٣٢٩١)، والترمذي برقم (١٥٢٤)، والنسائي (٧ / ٢٦، ٢٧)، وابن ماجه برقم (٢١٢٥). من حديث عائشة رضي الله عنها، وهو حديث صحيح، صححه الألباني في «الإرواء» (٢٥٩٠).

[١١]

باب:
من الشرك النذر لغير الله

وقول الله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧].

وقوله: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾[البقرة: ٢٧٠].

وفي الصحيح، عن عائشة: أن رسول الله ﷺ قال: «من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه».

■ ■ ■ ■ ■

*** فيه مسائل:**

الأولى: وجوب الوفاء بالنذر.

الثانية: إذا ثبت كونه عبادة لله فصرفه إلىٰ غيره شرك.

الثالثة: أن نذر المعصية لايجوز الوفاء به.

■ ■ ■ ■ ■

•• الشرح ••

باب:
من الشرك النذر لغير الله

النذر: هو إلزام المكلف نفسه ما لم يجب عليه شرعاً تعظيماً للمنذور له.

والمكلف: هو الحر البالغ الرشيد، فإلزام الصغير نفسه بشيء لا يلزمه؛ لكونه غير مكلف، وإلزام السفيه أو المجنون ونحوه نفسه بشيء لا يلزمهم لفقد شرط التكليف.

ومعنى: إلزام المكلف نفسه ما لم يجب عليه شرعاً: أن يلزم نفسه لله أو لغير الله شيئاً لم يوجبه عليه الشرع، فإذا كان الذي أوجبه وألزم به نفسه قد أوجبه عليه الشرع فلا يسمى هذا نذراً.

فإذا قال إنسان: لله علي أن أصوم شهر رمضان، نقول: هذا لا يكون نذراً، بل يكون فرضاً شرعيّاً.

أما إذا قال: إن شفاني الله فللّه علي أن أعتكف عشر رمضان، فهذا يسمى نذراً؛ لأن الاعتكاف ليس بواجب شرعاً، وإنما أوجبه على نفسه.

والحاصل أن المكلف إذا أوجب على نفسه عبادة فإنه يلزمه الوفاء بها، وإذا أوجب على نفسه عادة من العادات فلا يلزمه الوفاء بها، بل يخير بين فعلها، وبين التكفير إذا تركها، أما إذا أوجب على نفسه فعل معصية، فإنه لا يجوز الوفاء بالمعصية، ولكن عليه أن يكفر كفارة يمين.

■ قوله: [وقول الله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧]]:

مدح الله تعالى عباده المقربين، بعد أن ذكر أن من ثوابهم في الجنة شرابهم من عين الكافور التي تمزج للأبرار، حيث قال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۞ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان: ٥-٧]؛ أي: أن الأبرار يمزج لهم الشراب بالكافور، فأما المقربون فإنها تصفى لهم فيشربون منها صرفاً.

ثم ذكر بعد ذلك بعض أعمالهم في الدنيا، ومنها قوله: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾؛ أي: متى نذروا لله طاعة فإنهم يوفون بها، وهذا دليل على أن النذر عبادة وطاعة وقربة، يلزم بها المكلف نفسه، كصلاة، وصدقة، وحج، وصوم، واعتكاف، وطواف، وجهاد، وذكر، ودعاء، ونحوها؛ أي: يفعلون ما التزموا به، ويأتون به كاملاً، كما قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ [الحج: ٢٩]، وهو دليل على أن النذر عبادة يتقرب بها إلى الله، فلا يجوز صرفه لغير الله تعالى.

ثم وصفهم بأنهم: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾، وهو يوم القيامة، وما فيه من الأهوال والفزع، فيعملون الأعمال الصالحة، رجاء النجاة من شر ذلك اليوم، ولهذا قال تعالى: ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ﴾ [الإنسان: ١١]؛ أي: أمنهم فيه مما يخافون، والله أعلم.

■ قوله: [وقوله: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ [البقرة: ٢٧٠]]:

وهذه الآية تدل على أن النذر عبادة إذا التزم به فعل قربة أو طاعة، كقوله: لله علي أن أتصدق بمائة، أو إن شفى الله مريضي فللّه علي أن أحج وأعتمر، أو إن ربحت فعلي لله أن أصوم شهراً؛ أو أن أعتكف في المسجد الحرام عشراً، ونحو ذلك من القربات، فيلزمه الوفاء بها. فأخبر الله تعالى أنه يعلم ما ننفقه من النفقات، أو ننذره من النذور، وفي ضمن ذلك أنه يجازي عليه على حسب النية والعمل.

وإذا كان النذر جنسه طاعة لله تعالى، فإنه إذا صرف لغير الله صار شركاً بالله، وهو ما يفعله القبوريون من صرف النذور للأموات والأولياء، كقول أحدهم: إن شفي مريضي فعلي أن أسرج قبر السيد فلان ليلتين أو أكثر؛ أو إن رجع غائبي فعلي أن أذبح للقبر الفلاني، أو أهريق عليه سمناً؛ أو أصلي عند قبره ركعتين؛ ونحو ذلك مما فيه تعظيم لذلك السيد بما يذبح عنده، أو يتقرب إليه بسمن، أو إنارة، أو صلاة، أو سفر نحوه، ونحو ذلك مما هو شرك صريح، يدخل في النصوص التي تبين عاقبة المشركين.

■ **قوله: [وفي الصحيح، عن عائشة: أن رسول الله ﷺ قال: «من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه»]**[1]:

النذر إما أن يكون مطلقاً أو معلقاً:

* **فالنذر المعلق**: هو الذي يعلق على شرط في المستقبل، ولا يلزم إلا إذا وجد ذلك الشرط، كأن يقول: إن شفى الله لي مريضاً، أو إن شفاني الله من هذا المرض، أو إن نجحت في دراستي، أو إن ربحت في تجارتي، أو إن رزقني الله

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٧٠٠).

ولداً ذكراً، فللّه علي أن أحج في هذا العام، أو فللّه علي أن أصوم عشرين يوماً، أو فللّه علي أن أصلي في هذه الليلة عشرين ركعة، أو فللّه عليّ أن أتصدق على المساكين بألف، أو فله علي أن أعتكف في ذلك المسجد شهراً أو عشراً، فهذا نذر عبادة، فإذا رزق ما شرطه لزمه الوفاء به، لأنه أوجب على نفسه عبادة، فلزمه الوفاء بما وعد به الله، فلا تخلف ما وعدت الله؛ حيث حقق الله لك ما طلبته.

ثم نقول: النذر إما أن يكون في طاعة، وإما أن يكون في معصية، وإما أن يكون في أمور مباحة.

● **فإن كان النذر في طاعة،** فإنه يجب الوفاء به، لأنه ألزم نفسه بشيء لم يوجبه عليه الشرع، فلو قال: لله علي أن أصوم عشرة أيام من كل شهر، أو أتصدق بألف كل شهر، أو اعتكف شهراً في المسجد الحرام أو المسجد النبوي، أو أن أعتمر كل عام في رمضان، أو أحج كل عام، ونحو ذلك، فإنه يجب الوفاء بمثل هذه الطاعات؛ لأنه أوجبها وألزم نفسه بها، لقوله ﷺ: **«من نذر أن يطيع الله فليطعه»**.

● **أما إذا كان نذر معصية؛** فإنه يحرم الوفاء به لهذا الحديث، وهو قوله: **«ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه»**. فإن قال: إذا رد الله علي غائبي، أو نجحت، أو ربحت، فسأقتل فلاناً، أو أشرب الخمر ثلاثة أيام، أو أسرق، أو أزني، أو أفجر، فكل هذا من المعاصي، فلا يجوز الوفاء بها، سواء كانت المعصية ظاهرة أو خفية، وعليه في مثل هذه الحالة أن يترك المعصية، ويكفر كفارة يمين، لقوله: **«من نذر أن يعصي الله فلا يعصه»**.

● **أما إذا كان ذلك النذر أمراً مباحاً**؛ فهو مخير بين فعله وبين الكفارة، كأن يقول: إن رزقني الله ولداً، أو إن نجحت، أو إن ربحت، ونحو ذلك، فعلي أن ألبس ثوباً بمائة، أو أن لا آكل إلا من هذا النوع من الطعام، أو أن اشترىٰ داراً واسعة، أو أن اشترىٰ سيارة بخمسين ألفاً مثلاً، ونحو ذلك، فهذه من الأمور المباحة، فمباح له أن يأكل من نوع كذا، وأن يلبس من نوع كذا، فلا يكون عبادة، فنقول له: أنت مخير بين أن توفي بنذرك، وبين أن تكفر كفارة يمين.

فإذا شق علىٰ المرء مثلاً شراء السيارة، أو لم يجد الثوب الذي نذر أن يلبسه، أو لم يستطع أن يتحول من هذا البيت، أو لم يستطع أن يدخل بيتاً صفته كذا وكذا، أو ما أشبه ذلك، فيكفر عن يمينه.

أما إذا كان مشتملاً علىٰ نذر طاعة ونذر مباح، فإنه يلزمه الوفاء بنذر الطاعة وله أن يترك المباح الذي لا فائدة فيه، وليس بعبادة، و عليه الكفارة، وقيل: لا تلزمه إذا وفىٰ بالبعض؛ ويستدلون بقصة أبي إسرائيل لما رآه النبي ﷺ واقفاً في الشمس، قال: «لماذا وقف في الشمس؟»، فقالوا: إنه نذر أن يصوم، وأن لا يستظل، ولا يقعد، ولا يتكلم، فقال النبي ﷺ: «**مروه أن يتكلم، وأن يجلس، وأن يستظل، ويتم صومه**»(١)؛ فلما كان الصوم عبادة أمره بأن يتمه، ولما كان ترك الكلام ليس بعبادة، وكذلك تعذيب النفس بترك الاستظلال، وتعذيب النفس بالقيام وعدم الجلوس؛ لا فائدة فيه، وليس من العبادات، نهاه عن ذلك، وأمره بأن يستمر فيما هو عبادة.

وكذلك إذا كان في النذر تعذيباً للنفس، فإنه يؤمر بتركه، ومن ذلك قصة

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٧٠٤) من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

الرجل الذي جاء إلى النبي ﷺ فقال: إن أختي نذرت أن تحج، ولا تركب، فقال النبي ﷺ: **«ما يصنع الله بعذاب أختك أو بتعذيبها نفسها»**، ثم قال: «لتمش ولتركب»(١)؛ يعني: تمشي إذا استطاعت، وإذا عجزت فلها أن تركب؛ حيث إن تعذيب النفس والمشقة عليها فيه تأليم ينفر من العبادة.

فالعبادة بالنذر إذا كانت طاعة وجب الوفاء بها، وإذا كان معصية لم يجز الوفاء بها، وإذا كان شيئاً مباحاً فهو مخير بين أن يوفي به، وبين أن يكفر كفارة يمين.

وقد أمر الله بالوفاء بالنذر في مثل مواسم الحج، فإذا نذر إنسان مثلاً أن يحج ماشياً ولم يكن عليه مشقة، فإن عليه أن يفعل ذلك؛ لأنه أعظم للأجر، وإذا نذر الحاج أن يطوف في كل يوم عشرين طوافاً، أو خمسة أطوفة، فإن عليه أن يوفي بالنذر، وذلك لقوله تعالى: **﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾** [الحج: ٢٩].

وكانت الأمم السابقة تفعل النذر، فقد أخبر الله تعالى عن مريم بقوله تعالى: **﴿فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾** [مريم: ٢٦]؛ فذكر أن مريم نذرت صوماً، وفسر بالصمت ونحوه، أو بالصوم مع الصمت.

وكذلك أمها قبلها حكى الله عنها، قال تعالى: **﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾** [آل عمران: ٣٥]، نذرت أن حملها هذا تجعله

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (٣٢٩٥)، وهو في «المشكاة» برقم (٣٤٤١)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وقوله: «لتمش وتركب»: أخرجها البخاري برقم (١٨٦٦)، ومسلم برقم (١٦٤٤)، من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه.

خادماً لبيت الله، وهو بيت المقدس، المسجد الأقصى، فرزقها الله هذه البنت فجعلتها كذلك خادمة، فدل على أن النذر معمول به وموجود قبل الإسلام.

وأما الحلف بالمخلوق فهذا لا كفارة فيه؛ فلو مثلاً حلف بتربة السيد فلان، أو حلف بالسيد البدوي، فقال: والسيد البدوي لأفعلن كذا وكذا، فنقول: هذا لا كفارة فيه، ولا يلزم الوفاء به، لأنه حلف بمخلوق، والحلف بالمخلوق حلف بغير الله تعالى، وهو أيضاً شرك بالله.

ونقول لمن حلف بغير الله تعالى: عليه أن يكفر ذلك الحلف بالتوبة، وبتجديد التوحيد؛ لأنه عليه السلام قال: «**من حلف فقال في حلفه: واللات والعزى، فليقل: لا إله إلا الله**»[1]؛ أي: يجدد توحيده، والله أعلم.

■ ■ ■ ■ ■

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٦٥٠)، ومسلم برقم (١٦٤٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

[١٢]

باب:
من الشرك الاستعاذة بغير الله

وقول الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦].

وعن خولة بنت حكيم، قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من نزل منزلاً، فقال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق: لم يضره شيء حتى يرحل من منزله ذلك»، رواه مسلم.

■ ■ ■ ■ ■

*** فيه مسائل:**

الأولى: تفسير آية الجن.

الثانية: كونه من الشرك.

الثالثة: الاستدلال على ذلك بالحديث، لأن العلماء يستدلون به على أن كلمات الله غير مخلوقة، قالوا: لأن الاستعاذة بالمخلوق شرك.

الرابعة: فضيلة هذا الدعاء مع اختصاره.

الخامسة: أن كون الشيء يحصل به منفعة دنيوية، من كف شر، أو جلب نفع، لا يدل على أنه ليس من الشرك.

■ ■ ■ ■ ■

•• الشرح ••

باب:
من الشرك الاستعاذة بغير الله

الاستعاذة عبادة من العبادات، وكل العبادات لا تصلح إلا لله، وصرفها لغير الله شرك وتنديد.

والاستعاذة هي: طلب العوذ.

والمستعيذ هو: المحتمي والمستجير والخائف.

يقال: استعاذ، **يعني**: لاذ بالشيء واحتمى به، وتحصن، وتحرز وتحفظ عن الشر الذي يخافه ويحذر منه.

والمتسعاذ به هو: الذي يحفظه من ذلك الذي يخاف منه.

والمستعاذ منه هو: ذلك الشر الذي يحذره العبد ويخافه.

ولا يكون المستعيذ إلا عاجزاً عن مقاومة الشر الذي يخافه؛ فلذلك يعوذ بغيره، ولا يكون مستعاذاً به إلا قادراً على دفعه، قادراً على قمعه ورده، فلذلك كانت الاستعاذة عبادة، وكان المتسعيذ بالله عابداً لله، وذلك لأنه يخاف الشرور على نفسه.

وهكذا الإنسان في حياته يخاف الشرور، ويخاف الأضرار؛ وذلك لأن أعداءه قد أحاطوا به من كل مكان، ولأنه لا مقاومة له، ولا مدافعة له على دفع أولئك الاعداء إلا بإعانة من ربه.

فمن أجل ذلك يلجأ إلى ربه معظماً لله، ومكبراً ومجلاً له، وعالماً أنه هو

الملاذ، وهو المعاذ، وهو القادر على دفع الشرور والأضرار، ويعلم من نفسه أنه الضعيف، وأنه المهين، وأنه العاجز عن كل شيء؛ إلا إذا أمده ربه بقوته، وبحمايته، وبحفظه.

فلذلك يطرح نفسه على عتبات أبواب ربه، طريحاً، ذليلاً، مستكيناً، متواضعاً غاية التواضع، ومن أجل ذلك كانت الاستعاذة عبادة من أجل العبادات.

*** وقد وردت الاستعاذة في القرآن من أشياء كثيرة، فمن ذلك الاستعاذة من الشيطان، وقد ذكرت في مواضع:**

الموضع الأول: قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]؛ أي: استعذ بالله من الشيطان، فإنك لا تقدر على التلخص من الشيطان، فأنت عاجز وضعيف عن مقاومة هذا العدو، فعلى المرء أن يلوذ بالله، ويستعيذ به ليحميه من شره ومن كيده.

الموضع الثاني: قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٧، ٩٨].

وهذه ـ أيضاً ـ استعاذة من الشياطين أن يضروا الإنسان، وأن يحضروه، واستعاذة من همزاتهم التي هي من وسوستهم، ونحو ذلك، فلا يقدر المرء على مقاومة الشياطين إلا إذا أعانه الله، وأمده بقوة، وطردهم وأبعدهم عنه.

الموضع الثالث: عند قراءة القرآن، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨].

فهذا أمر بالاستعاذة في موضع؛ ويفيدنا ذلك أن الشيطان له تدخل على

المسلم عند قراءته، فيفسد عليه نيته، أو يخلط عليه قراءته، فإذا أعاذه الله منه كان ذلك حفظاً، وحماية، وحراسة، وتحصيناً من هذا الشيطان.

الموضع الرابع: مثل الموضع الأول، قوله تعالىٰ في سورة فصلت: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦].

فهذه أربعة مواضع أمرنا الله أن نستعيذ فيها من الشيطان.

* وهناك ـ أيضاً ـ مواضع أخرىٰ أمر الله فيها أن يستعاذ به من أضرار أخرىٰ، مثل: سورتي المعوذتين فقد أمر الله نبيه أن يستعيذ فيهما من الشرور.

ففي سورة الناس: استعاذة من الشيطان: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١ مَلِكِ النَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ النَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝٤ ـ أي: الشيطان ـ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ [الناس: ١ـ ٥]؛ فأمر الله بالاستعاذة برب الناس، ملك الناس، إله الناس، من هذا الشيطان الموسوس، وهذا دليل علىٰ أن الإنسان عاجز عن مقاومته، إلا إذا أعانه الله، وأمده بسبب من عنده سبحانه.

أما السورة التي قبلها وهي سورة الفلق ففيها الاستعاذة من أربعة أمور من الشرور:

فبدأ السورة بالاستعاذة برب الفلق وهو الله، فقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ [الفلق: ١]، قيل: الفلق هو: الخَلْق، قال تعالىٰ: ﴿فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ﴾ [الأنعام: ٩٥]، وقيل: الفلق: الصبح، قال تعالىٰ: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ [الأنعام: ٩٦]، وعلىٰ كل حال المستعاذ به هو الله.

ثم بدأ بذكر الشرور التي يستعاذ منها، وهي:

الشر الأول: قوله: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ [الفلق: ٢]، وهذا أمر من الله لنبيه ﷺ أن

يستعيذ استعاذة عامة من شر جميع الخَلْق، ثم خصص بعض الشرور ومن ذلك:

الشر الثاني: قوله: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ [الفلق: ٣]. أي: تعوذ من الليل عند الغروب.

الشر الثالث: قوله: ﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ [الفلق: ٤]. أي: تعوذ من السواحر.

الشر الرابع: قوله: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: ٥]. أي: تعوذ من الحاسد الذي يحب زوال النعمة، وقيل أن الحاسد: العائن، لأن العين تصدر من إنسان شرير خبيث يحب زوال النعمة عن أخيه.

فأمر الله نبيه أن يستعيذ من هذه الشرور؛ لأنه عاجز عن مقاومة هذه الشرور؛ إلا إذا لجأ إلى الله تعالى يطلب منه الحماية والوقاية.

*** وكما وردت الاستعاذة في القرآن، فقد وردت أيضاً في أحاديث كثيرة لا تحصى فيها الاستعاذة بالله تعالى من شرور كثيرة، مما يدل على أن الله تعالى هو المعاذ، وهو الملاذ.**

ففي كثير من الأحاديث الاستعاذة من شرور كثيرة في الصلاة، وخارج الصلاة، ففي آخر الصلاة قال عليه الصلاة والسلام: **«إذا صلى أحدكم أو إذا تشهد أحدكم فليستعذ بالله من أربع: من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، وفتنة المحيا والممات، وفتنة المسيح الدجال»**(١).

أي يقول: أعوذ بالله من عذاب جهنم، إلى آخره؛ وذلك لأن هذه الأشياء

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٥٨٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

لا ينجي ويحمي منها إلا الله تعالىٰ؛ فالمسلم يستعيذ به سبحانه، ويطلب منه أن ينجيك من شرورها.

وهكذا ـ أيضاً ـ ثبتت الاستعاذة من شرور كثيرة، كقوله ﷺ: «**اللهم إني أعوذ بك من الهم، والحزن، ومن الجبن، والبخل، والكسل، والهرم، وسوء الأخلاق، وشماتة الأعداء، وضلع الدين، وقهر الرجال**»(١)، ونحوها كثير.

وهذه الأشياء المذكورة في الحديث قد عقدت لها أبواب كثيرة؛ تدل علىٰ أن لها أضراراً مختلفة، وأن الإنسان إذا استعاذ بالله تعالىٰ منها نجاه وحماه منها؛ سواء كانت شروراً قائمة بنفسها، أو صفات وأخلاقاً، فأكثر هذه الأشياء التي ذكرت في الأحاديث: الجبن، والبخل، والكسل، والهرم، فهي أخلاق.

والشرور القائمة بنفسها، مثل ما روي أن النبي ﷺ كان يقول: «**أعوذ بالله من أسد وأسود، ومن ساكن البلد، ومن والد وما ولد**»(٢)، فهذه شرور قائمة بنفسها.

وكذلك الأخلاق السيئة، مثل قوله: «**أعوذ بالله أن أَضِل أو أُضَلَ، أو أَزِلَ أو أُزَلَ، أو أظلِم أو أُظْلَمْ، أو أجهِل أو أُجهل علي**»(٣)، فهذه استعاذة بالله من هذه الأخلاق.

والحاصل أن الاستعاذة بالله عبادة من أجل العبادات، فالاستعاذة بغيره تكون شركاً.

---

(١) أخرج بنحوه البخاري برقم (٦٣٦٩)، ومسلم برقم (٢٧٠٦)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود برقم (٢٦٠٣) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، وضعفه الألباني في ضعيف سنن أبي داود رقم (٥٦٠).

(٣) أخرجه ابن ماجه برقم (٣٨٨٤) عن أم سلمة رضي الله عنها، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه رقم (٣١٣٤).

■ قوله: [وقول الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦]]:

حكى الله عن المشركين قبل الإسلام أنهم يستعيذون بالمخلوقات؛ كما في هذه الآية، وهي قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦].

وقيل: أن سبب نزول هذه الآية: أن جهلة المشركين إذا سافر أحدهم ونزل في مكان فيه خوف، يقول: **(أعوذ بسيد هذا الوادي من الجن من سفهاء قومه)**، فيستعيذ بكبير الجن من سفهاء الجن؛ أي: الإنسي يستعيذ بكبير الجن، من سفهاء الجن، فيبيت وقلبه مضطرب يخشى أن لا يعيذه فيكون هذا هو الذي يزيده رهقاً.

* وقوله: ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾؛ أي: أن الجن ما زادوكم أيها الإنس إلاخوفاً، وما زاودكم أمناً، وذلك لأنهم لا يملكون لهم ضراً، ولانفعاً، ولا يلمكون دفع أضرار السفهاء منهم.

وقيل: زادوكم أيها الإنس خوفاً وذعراً؛ أي: أن هذا الذي استعاذ بالجني من شر السفهاء، لم يفعل شيئاً يقيه حقّاً، ومع ذلك فهو معرض لأن يضره سفيه من السفهاء، فلم يستفد من هذه الاستعاذة، بل يكون قد أشرك بالله.

كذلك هناك قول آخر: إن الإنس زادوا الجن طغياناً وكبراً، وقالوا: قد خافنا الإنس فزادوهم كفراً.

وعل كل حال فإن الله تعالى نبههم بهذه الحال، وهي الاستعاذة من المخلوق بالمخلوق؛ الاستعاذة من الإنسي بالجني، وأن ذلك لم يفد شيئاً.

■ **قوله: [وعن خولة بنت حكيم، قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من نزل منزلاً، فقال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق: لم يضره شيء حتى يرحل من منزله ذلك»[١]، رواه مسلم]:**

أفاد هذا الحديث أن الاستعاذة بصفات الله تعالىٰ جائزة، ومن ذلك الاستعاذة بكلماته، فإن كلمات الله صفة من صفاته، كما في هذا الحديث.

وكلام الله ليس مخلوقاً، وقد ذُكر أن الإمام رحمه الله استدل بهذا الحديث علىٰ المعتزلة الذين قالوا: إن القرآن مخلوق، قال: لو كان القرآن مخلوقاً ما استعاذ به النبي ﷺ، ولم يحثنا علىٰ أن نستعيذ به، فإن الاستعاذة لا تجوز بالمخلوق.

وهذا من أجَلِّ الأدلة علىٰ إثبات أن القرآن ليس بمخلوق، كما زعمت المعتزلة وأذنابهم.

وأفادنا هذاالحديث أيضاً أن هذه الاستعاذة لها أهميتها، وأن الإنسان متىٰ كان خائفاً من وحوش، أو هوام، أو من اللصوص، أو نحو ذلك، فاستعاذ بهذه الاستعاذة، فإن الله تعالىٰ يحميه، ويحفظه، إذا قال: **«أعوذ بكلمات الله التامات من شر ماخلق»**؛ فهي جملة قصيرة فيها خير كثير.

ورُوي أيضاً زيادة، أنه عليه الصلاة والسلام كان يقول: **«أعوذ بكلمات الله التامات، من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة[٢]، ومن شر مخلوقات الله كلها عامة»**.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٧٠٨).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٣٣٧١)، عن ابن عباس رضي الله عنهما. أما الجملة الأخيرة منه فلم أجدها.

وكان ﷺ يعوذ الحسن والحسين من الجان وعين الإنسان، فلما نزلت المعوذتان أخذ بهما وترك ما سوىٰ ذلك[1]. وقال: ما تعوذ بمثلهن أحد[2].

وقد ثبتت الاستعاذة بصفات أخرىٰ لله تعالىٰ، ومن ذلك قوله ﷺ: «أعوذ بعزة الله وقدرته من....»[3]، وقوله ﷺ: **«أعوذ بعزتك التي لا تضام، وبجلالك الذي لا يرام»**[4]؛ فهذا استعاذة بصفة من صفات الله عز وجل.

فعزة الله صفة من صفاته، وجلاله كذلك صفة من صفاته، وأما الاستعاذة بالمخلوق، فلا تجوز، ولا تصح، وهي شرك محرم.

فالحاصل أن الاستعاذة بالله تعالىٰ فيها الخير، وفيها الفائدة العظيمة؛ وذلك لأن الله تعالىٰ إذا علم من عبده صدق اللجوء إليه، وعلم أنه ما استعاذ به إلا وقد عظم قدر ربه في قلبه؛ فعند ذلك يعيذه، ويحميه، وينصره من المخاوف.

وهذه فائدة كبيرة يحصلها العبد من آثار هذه الاستعاذة، فإذا أكثرنا من الاستعاذة من كل الشرور سواء: أخلاق، أو أعمال، أو شرور المخلوقات المستقلة؛ فإن الله تعالىٰ ينجينا منها، ولا نستعيذ بأي مخلوق.

أما الاحتماء بالمخلوق فيما يقدر عليه من الشرور المحسوسة فهذا يجوز في حدود، فيجوز مثلاً أن يستجار بإنسان قوي ليكبح جماح المعتدين، ويحمي

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٢٠٥٨)، وابن ماجه برقم (٣٥١١)، والنسائي برقم (٥٥٠٩)، عن أبي سعيد رضي الله عنه.

(٢) أخرجه النسائي برقم (٥٤٤٥)، عن عقبة بن عامر رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم برقم (٢٢٠٢)، وابن ماجه برقم (٣٥٢٢)، واللفظ له. من حديث عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه.

(٤) لم أجده.

المتسجير منهم، فمثل هذا استجارة واحتماء من شر محسوس يقدر على كفه ذلك الذي استجار به المرء، وإذا أتى إنسان إلى أمير مثلاً وقال له: إني في جوارك لتحميني من شر فلان الذي يريد أن يفتك بي، أو يقتلني، أو يضربني، أو يأخذ مالي بغير حق، فمثل هذا إذا استجار به فإن الاستجارة جائزة في حدود ما يقدر عليه.

فأما الاستعاذة التي هي الاحتماء والاحتفاظ من الشرور المعنوية ونحوها، فلا تصلح إلا لله تعالى، والله تعالى أعلم.

■ ■ ■ ■ ■

[١٣]

باب:
من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره

وقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ (١٠٦) وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٦، ١٠٧].

وقوله: ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧].

وقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥، ٦].

قوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾ [النمل: ٦٢].

وروى الطبراني، بإسناده: أنه كان في زمن النبي ﷺ منافق يؤذي المؤمنين، فقال بعضهم: قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق، فقال النبي ﷺ: «إنه لا يستغاث بي، وإنما يستغاث بالله».

*** فيه مسائل:**

الأولى: أن عطف الدعاء على الاستغاثة، من عطف العامّ على الخاص.

الثانية: تفسير قوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ [يونس: ١٠٦].

الثالثة: أن هذا هو الشرك الأكبر.

الرابعة: أن أصلح الناس لو يفعله إضاءً لغيره صار من الظالمين.

الخامسة: تفسير الآية التي بعدها.

السادسة: كون ذلك لا ينفع في الدنيا، مع كونه كفراً.

السابعة: تفسير الآية الثالثة.

الثامنة: أن طلب الرزق لا ينبغي إلا من الله، كما أن الجنة لا تطلب إلا منه.

التاسعة: تفسير الآية الرابعة.

العاشرة: أنه لا أضل ممن دعا غير الله.

الحادية عشرة: أنه غافل عن دعاء الداعي، لا يدري عنه.

الثانية عشرة: أن تلك الدعوة سبب لبغض المدعو للداعي، وعدواته له.

الثالثة عشرة: تسمية تلك الدعوة عبادة للمدعو.

الرابعة عشرة: كفر المدعو بتلك العبادة.

الخامسة عشرة: هي سبب كونه أضل الناس.

السادسة عشرة: تفسير الآية الخامسة.

السابعة عشرة: الأمر العجيب، وهو إقرار عبدة الأوثان أنه لايجيب المضطر إلا الله، ولأجل هذا يدعونه في الشدائد مخلصين له الدين.

الثامنة عشرة: حماية المصطفي ﷺ حمى التوحيد، والتأدب مع الله.

●● الشرح ●●

باب:
من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره

وهذا نوع من أنواع الشرك، وهو الاستغاثة بغير الله، ودعاء غير الله.

والدعاء والاستغاثة متقاربان، ولذلك جمعها في باب واحد.

● **والفرق بين الدعاء والاستغاثة:**

أن الدعاء: يكون من المكروب، وغير المكروب.

والاستغاثة: لا تكون إلا من المكروب.

والمكروب: هو الذي وقع في شدة وضيق، وحرج ومشقة، فإذا دعا والحال هذه فإن دعاءه يسمى استغاثة.

ومن ذلك قصة الصحابة في غزوة بدر، عندما أحدق بهم العدو الذي هو مثلهم ثلاث مرات، والذي جاء بحنق وغيظ وغضب على الصحابة، ومعهم العدة، والقوة، والصحابة نحو ثلثهم، فاستغاث الصحابة ربهم فأغاثهم، قال الله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾؛ أي: تستنصرونه، وتدعونه في تلك الحال الشديدة، ﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩][(١)].

---

(١) انظر القصة بتمامها في «مسند الإمام أحمد» (١ / ٣٠، ٣١)، وأوردها ابن كثير في «تفسيره» (٢ / ٢٨٩)، ثم قال: ورواه مسلم وأبو داود والترمذي وابن جرير وابن مردويه من طرق عن عكرمة بن عمارية وصححه علي بن المديني والترمذي، وقالا: لا يعرف إلا من حديث عكرمة بن عمار اليماني، وقال أحمد شاكر في تحقيق المسند (٢٠٨): إسناده صحيح.

فإجابة الداعي إذا كان ملهوفاً تسمى إغاثة، وإعطاؤه شيئاً يسمى غوثاً.

ومنه - أيضاً - إذا قحط الناس واستسقوا المطر يسمى دعاؤهم استغاثة، وذلك أنهم وقعوا في شدة، ووقعوا في حاجة وضيق، فإذا دعوا الله في تلك الحال فقد دعوه وهم مضطرون، ومكروبون، فيسمى دعاؤهم هذا استغاثة، وإذا أعطاهم الله ما طلبوه يسمى ذلك غوثاً، وغيثاً؛ ولذلك يسمى المطر غيثاً، وذلك أنه دعاء الذين استغاثوا الله؛ أي: طلبوا منه غوثاً لأولئك المكروبين، وغوثهم بمعنى: تفريج ما بهم من الكرب، وإزالة ما هم فيه من الشدة، والتوسعة عليهم.

فالحاصل أن الإنسان إذا دعا الله تعالى وهو في حال رخاء فهذا يسمى دعاء، وإن دعا الله وهو في حال كرب، وفي حال ضيق وشدة وحرج، فهو مستغيث.

فمثلاً: إذا أحدق بالإنسان العدو، أو جاءه من شهر في وجهه السلاح، وليس له استطاعة مقاومته، فدعا الله تعالى عليه، فإن دعاءه والحال هذه استغاثة.

ولا يجوز لأحد أن يدعو غير الله، سواء كان في كرب، أو في حال رخاء، بل عليه أن يكون دعاؤه لله، فإن دعا غير الله، أو استغاث بغير الله، فإنه قد أشرك، وقد جعل شيئاً من العبادة لغير الله، وذلك شرك في العبادة.

والدعاء عند العرب يطلق على النداء؛ دعا فلاناً بمعنى: ناداه، ودعا الله سأله، قال تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠]، فإذا قلت: دعا الله فمعناه: أسألك يا ألله، وقولك: اللهم، معناه: يا ألله.

فالدعاء: هو النداء يا ألله، وهو السؤال، فيقال له في حق الله: سؤال؛ لأن الداعي كأنه يسأل حاجته.

* **ولاشك أن الدعاء من أفضل القربات، والله تعالى يحب من عباده أن يدعوه،** وأحب عباده إليه الذين يكثرون دعاءه.

وقد ورد في الحديث: «**من لم يسأل الله يغضب عليه**»(١)، وورد أيضاً: «**إن الله يحب الملحين في الدعاء**»(٢).

والأحاديث في الأدعية كثيرة، وألفت فيها المؤلفات، ورغَّب الشرع في الدعاء، وأخبر بأنه مخ العبادة، أو أنه هو العبادة، قال ﷺ: «**الدعاء هو العبادة**»(٣)، وقرأ قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، فجعل الدعاء عبادة، فقال في أول الآية: ﴿ادْعُونِي﴾، وقال في آخرها: ﴿يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾؛

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٤٤٢، ٤٤٣)، والترمذي (٣٣٧٣)، وابن ماجه (٣٨٢٧)، عن أبي هريرة رضي الله عنه، وحسنه الأرنؤوط في تحقيق «جامع الأصول» برقم (٢١٣٦)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٤١٤).

(٢) رواه العقيلي في «الضعفاء» (٤٦٧)، عن عائشة مرفوعاً، قال الألباني في «الضعيفة» (٦٣٧): باطل، ثم قال: وهذا سند ضعيف جداً؛ بل موضوع، يوسف بن السفر كذاب؛ بل قال الهيثمي: هو في عداد من يضع الحديث.

(٣) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٧١٤)، وأبو داود برقم (١٤٧٩)، وابن ماجه برقم (٣٨٢٨)، والترمذي برقم (٢٩٦٩)، ٣٢٤٧، ٣٣٧٢)، من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

قال الترمذي: هذا حديث صحيح، وصححه الألباني كما في «الإرواء» (ص١٩٤)، و«صحيح الأدب المفرد» رقم (٥٥٠).

أما حديث: «**الدعاء مخ العبادة**» فهو حديث ضعيف، أخرجه الترمذي برقم (٣٣٧١) عن أنس بن مالك رضي الله عنه، وقال: هذا حديث غريب من هذا الوجه لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة. وقال الألباني رحمه الله في «أحكام الجنائز»: وهو ضعيف لسوء حفظه، ثم قال: لكن معناه صحيح بدليل حديث النعمان، وهو قوله ﷺ: «**الدعاء هو العبادة**».

أي: دعائي.

وكذلك في الآية التي بعدها بقليل، وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ [غافر: ٦٦]، فقوله: ﴿أَعْبُدَ﴾، و﴿تَدْعُونَ﴾؛ دليل على أن دعاءهم: عبادة.

وذكر الله عن إبراهيم الخليل أنه قال لأبيه وقومه: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [مريم: ٤٨]، وقال في الآية التي بعدها: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [مريم: ٤٩]؛ فدل على أن: ﴿يَعْبُدُونَ﴾، و﴿تَدْعُونَ﴾؛ بمعنى واحد.

ولاشك أن الدعاء من أجلِّ أنواع العبادة؛ وسبب ذلك أن فيه تعبداً، والتعبد هو التذلل، والعبادة سميت عبادة؛ لأن العابد فيها يتذلل، فعندما يفعلها يكون في حال ذل، وخضوع، وانقياد لربه؛ لذلك أصبحت من أحب الأعمال إلى الله تعالى، فإن الله عند المنكسرة قلوبهم من أجله:

*** والدعاء ينقسم إلى قسمين: دعاء عبادة، ودعاء مسأله.**

ودعاء العبادة متضمن لدعاء المسألة، ودعاء المسألة مستلزم لدعاء العبادة.

● **ودعاء العبادة**: هو جميع الطاعات؛ فجميع الطاعات عبادة، وتسمى دعاء عبادة؛ لأن الذي يأتي بها كأنه يدعو بلسان الحال، وإن لم يدع بلسان المقال، فالذي مثلاً: يصوم، نقول: كأن لسان حاله يدعو الله؛ كأنه يقول: إني صمت لك يا ربي لتقبل مني، ولتأجرني ولتثيبني، ولتعظم أجري، وهو داع في نفس الأمر؛ كأنه يقول: ما صمت إلا للثواب، وما صمت إلا للأجر، وما صمت إلا للجزاء عند الله تعالى.

والذي يتصدق داع بلسان الحال، وإن لم يدع بلسان المقال، فلسان حاله يقول: إني أتصدق لك يا ربي، رجاء أن تضاعف صدقتي، ورجاء أن تنجيني من العذاب، ورجاء أن تخلف علي، وهكذا، فكان ذلك دليلاً على أنه داع وهو في العبادة.

فدل على أن كل عبادة فإنها دعاء: فالصلاة دعاء، والحج دعاء، والصدقة دعاء، والجهاد دعاء، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دعاء، والنصح للمسلمين والموعظة دعاء، فكل ذلك داخل في الدعاء، إلا أنها تسمى دعاء عبادة.

● **أما دعاء المسألة:** فهو دعاء الطلب، وقد ورد فيه آيات وأحاديث كثيرة، كقوله تعالى: ﴿**رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً**﴾ [البقرة: ٢٠١]، وقوله: ﴿**رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً**﴾[الكهف: ١٠]، وقوله: ﴿**رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا**﴾ [آل عمران: ٨]، وقوله: ﴿**رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا**﴾ [البقرة: ٢٨٦].

ومن الأحاديث قوله ﷺ: «**اللهم إني أسألك العفو والعافية في الدنيا والآخرة...**»(١)، وقوله ﷺ: «**اللهم إني أسألك الجنة، وما قرب إليها من قول أو عمل**»(٢).

فهذا كله يسمى دعاء مسألة؛ وذلك أنه دعاء طلب، ولكنه ـ أيضاً ـ يتضمن دعاء العبادة، فهو عبادة، وذلك أن العبادة كما عرفت: هي الذل، ،وهي التذلل والخضوع.

---

(١) أخرجه ابن ماجه برقم (٣٨٧١). عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) جزء من حديث أخرجه ابن ماجه برقم (٣٨٤٦)، عن عائشة رضي الله عنها، وأوله: «**اللهم إني أسألك من الخير كله، عاجله وآجله...**».

والمسلم إذا رفع كفيه يسأل ربه المغفرة، ويسأل ربه الجنة، ويعوذ به من النار، ويسأله العلم النافع، والعمل الصالح، ويسأله التوفيق والهداية، وما أشبه ذلك، فإنه في هذه الحال متعبد.

والذي يأتي بهذه الأمور يأتي بها حال خشوعه، وحال خضوعه، وحال تذلله، فيقال له: عابد عندما يُرىٰ وقد مد يديه، وأخضع رأسه، وأحضر قلبه، واستكان لربه، فكلها من مظاهر العبودية.

والحاصل أن دعاء المسألة عبادة، ودعاء الطاعة عبادة، وهذا دليل علىٰ أن الدعاء هو مخ العبادة، وهو أجلها، وصرفه لغير الله شرك، فإذا دعا ميتاً، أو دعا غائباً بشيء لا يقدر عليه إلا الله فقد وقع في الشرك وصار مشركاً.

■ قوله: [وقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٦، ١٠٧]]:

ذكرنا أن العبادة في الأصل هي: التذلل، والخضوع، والخشوع، وسمي العبد عبداً لكونه ذليلاً، وخاشعاً ومتذللاً، فأصل التعبد التذلل، و منه قولهم: طريق معبد؛ يعني: مذلل، يوطأ بالأقدام، فأصبح معبداً مهيئاً للسير عليه.

ولذلك فإن دعاء غير الله شرك، فمن دعا مخلوقاً فقد عبده، ولو قال: لم أعبده، يقال: بل عبدته، وذلك لأنك عندما دعوته ـ أي: دعوت هذا الميت مثلاً، في شيء لا يقدر عليه إلا الله ـ فقد دعوته وأنت متخشع، وأنت متذلل، وأنت متواضع عنده، وأنت واقف مقام الهيبة؛ وذلك هو حقيقة العبادة، ولذلك فإنك قد عبدته، ولو لم تسم فعلك هذا عبادة.

فالذين مثلاً يدعون الأموات، ولو كانوا صحابة، أو رسلاً، أو ملائكة، أو غير ذلك، يدعونهم حال وجل في قلوبهم، وحال رغبة، وحال خضوع، وتواضع، يدعونهم مهطعين مقنعي رؤوسهم، خاشعين حال وقوفهم عند قبورهم، فيدخلون في هذه الآية: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ [يونس: ١٠٦]؛ أي: جميع من دون الله، لا ينفعون، ولا يضرون.

ففي هذه الآية النهي عن عبادة غير الله من الأموات، والغائبين، والأشجار، والأحجار، والقباب، والبقاع، ويعم ذلك دعاء الأولياء، والسادة، والرسل، والملائكة، والنبيين، والصالحين من العباد، ونحوهم، فإن هذا الوصف يعمهم، فهم لا يقدرون على النفع ولا الضر، ولا يجلبون الخير لمن دعاهم، ولا يدفعون عنه السوء ولا يضرون من أعرض عنهم، أو نهى عن دعائهم من دون الله.

فالمعنى: لاتدع غير الله ممن لا ينفعك إن دعوته، ولا يضرك إن تركته ﴿فَإِن فَعَلْتَ﴾؛ أي: دعوت غير الله: ﴿فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ﴾؛ أي: من المشركين، ومن الكافرين، فإن الشرك ظلم وكفر، لأنه وضع للعبادة في غير موضعها، وصرف للدعاء عن مستحقه، فيكون ظلماً وخسراناً مبيناً.

فالظلم هنا: الشرك، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، وأيضاً الظلم هو: الكفر؛ كما قال تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

ثم أخبر بأن الله تعالى هو الذي يملك ذلك: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾؛ أي: إذا أمرضك أو قدر عليك ضرراً في البدن، أو المال، ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾، أي: لا يكشفه غيره، فعليك أن تدعو الله، وتتضرع إليه، فهو الذي يزيل الضر والمرض وحده.

﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ يقدره عليك من رزق وصحة، ونصر وتمكين، ونحو ذلك من الخيرات ﴿فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾؛ أي: لا أحد يقدر على رده ومنعه عنك، فإن الخلق لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك(١).

والله يصيب بفضله من يشاء من عباده، ويمنعه من يشاء، فلا راد لفضله، ولا معقب لحكمه، ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ﴾، لمن تاب إليه ﴿الرَّحِيمُ﴾ لمن سأله المغفرة والرحمة.

ومن جملة الأدلة الصريحة في أن المدعو لا يفيد الداعي، قول الله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٤]، فهؤلاء الذين تدعونهم، ولو كانوا أنبياء، ولو كانوا رسلاً، ولو كانوا ملائكة أو سادة أو أولياء صالحين ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا﴾.

هل هذه البقعة خلقوها؟ هل هذا الجبل خلقوه؟ هل هذا الوادي خلقوه؟ ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ﴾؛ فيستحقون أن يجعل لهم شيء من حق الله؟

---

(١) هذا الكلام يدل عليه قول النبي ﷺ؛ من حديث ابن عباس قال: كنت خلف النبي ﷺ يوماً، فقال: «ياغلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله. واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف».

أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (١ / ٢٩٣)، والترمذي برقم (٢٥١٦)، قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وقال أحمد شاكر في تحقيق «المسند» (٢٦٦٩): إسناده صحيح، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٨٣٤).

والجواب: لم يخلقوا شيئاً، ولن يخلقوا شيئاً.

ثم قال تعالىٰ: ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾، هل لهم شركة في خلق السموات؟ كما قال تعالىٰ: ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْهُ﴾ [فاطر: ٤٠]، كل ذلك لم يحصل.

فالحاصل أن الله استنطق الكفار فقال: ﴿ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾؛ أي: هاتوا برهانكم ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

■ قوله: [وقوله: ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧]]:

وبعد أن أخبر الله تعالىٰ أن جميع معبوداتهم من دون الله لا يملكون لهم رزقاً، ولا يقدرون علىٰ جلب خير، ولا دفع ضر، وأن الذي يملك ذلك هو الله وحده، أمرهم بطلب الرزق من الله تعالىٰ ودعائه وحده، والإقبال بالقلب عليه، فإنه الذي يملك النفع والضر، ويجلب الخير، ويملك الرزق، ويرزق من يشاء بغير حساب، فاطلبوا منه الرزق، وأخلصوا له العبادة، وتوجهوا بقلوبكم إلىٰ خالقكم وحده، ولا تعبدوا سواه، واشكروه علىٰ ما تفضل به عليكم، فهو أهل أن يعبد، وأن يحمد ويشكر علىٰ ما يسره من الخير والرزق لعباده، ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، وسوف يجازي كلاً بعمله، ويثيب من شكره وعبده، والله أعلم.

■ قوله: [وقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥، ٦]]:

في هذه الآيات بيان حالة الأوثان، وجميع المعبودات من دون الله تعالىٰ، وحال المشركين الذين يدعون الأموات والغائبين، ويهتفون بأسمائهم، ويكررون

ندائهم، ويعتقدون فيهم النفع والفائدة، مع أن هذه المعبودات لا تسمع دعاءهم، ولاتستجيب لهم، ولو دعوها طوال زمن الدنيا؛ بل هي غافلة عنهم وعن دعائهم لها.

وفي الحشر بعد البعث يوم القيامة تظهر لهم تلك المعبودات العداوة، وتكفر بعبادتهم، وتنكر ما صنعوه معها، فهؤلاء المشركون هم الضلال، فلا أحد أضل وأجهل وأخسر ممن ينادي جماداً كشجر، أو حجر، أو ينادي ميتاً أو غائب بعيداً عنه، لا يسمع دعاءه، ولا يدري بحالته، ولو كان ذلك المدعو ملكاً، أو رسولاً، أو شهيداً، فإنه قد فارق الدنيا، و انتهت حياته بخروج روحه من جسده، وواراه التراب، مع أنه في حياته لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، ولا يستطيع نصر غيره، ولا ينصر نفسه ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٧].

وقد أخبر الله أنهم هم الضالون، ولا أضل منهم، حيث يدعون غير الله من أموات وجماد، لا يستجيبون لهم، ولو دعوهم إلىٰ يوم القيامة، بل هؤلاء الأموات مشغولون بأنفسهم، غافلون عن دعاء هؤلاء لهم.

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ﴾ يوم القيامة ﴿كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾؛ أي: أظهروا العداوة لمن دعاهم، وكفروا بعبادتهم لهم.

ومثل هذه الآية قوله تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾، أي: ميزنا هؤلاء عن هؤلاء: ﴿وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾، أنكروا عليهم ما كانوا يعملونه من عبادتهم لهم ﴿فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾، فالله هو الشهيد فكفىٰ به شهيداً ﴿إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ [يونس: ٢٨، ٢٩]. إن كنتم عبدتمونا فنحن في شغل في أنفسنا ما التفتنا لكم، ولا سمعنا عبادتكم، وهكذا يقول كل مدعو من دون الله أيّاً كان.

وكفى بذلك جهلاً وسفهاً، وتوبيخاً لكل من دعا غير الله من الأولياء، أو السادة، أو الشهداء، أو الصالحين، فإن الجميع أموات قد انقطع عملهم، أو أحياء، عاجزون عن نفع أنفسهم، كما قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَدًا﴾ [الجن: ٢١].

وكل من دعا معه أحداً

أشرك بالله ولو محمداً

وذلك لأن محمداً عليه الصلاة والسلام بشر، لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، فكيف بغيره؟!

وقد خاطبه الله تعالى بقوله: ﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

■ قوله: [قوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾ [النمل: ٦٢]]:

في هذه الآية دليل أن العبد إذا دعا الله تعالى مع يقينه أنه هو وحده الذي يجيب المضطر ويكشف السوء، فإن الله يجيبه.

وقد ذكروا أن إنساناً كان مسافراً في قديم الزمان وحده، ومعه تجارة، وفي أثناء الطريق اعترض له رجل مدجج بالسلاح، وقال له: تخل عن تجارتك، وأعطني ما تملكه، وإلا قتلتك، وشهر عليه السلاح، فقال له: أمهلني حتى أصلي ركعتين، فعند ذلك صلى ركعتين، ، ودعا الله، وقرأ هذه الآية: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾؛ فما أن انتهى من الركعتين، إلا وقد جاء رجل على فرس أدهم، وطعن ذلك القاطع المعتدي من خلفه، فأرداه

صريعاً، فقال له ذلك التاجر: بالله من أنت الذي أغاثني الله بك، فأخبره بأنه أحد الملائكة، وقد سمع الله دعاءه، فأمره أن يغيثه، وأن يزيل كربه، فهذا دعاء المكروب، ذكره بمعناه ابن كثير عن الحافظ ابن عساكر(١).

ونقل عن وهب ابن منبه ما معناه أنه قرأ في بعض الكتب أن الله تعالىٰ يقول: وعزتي وجلالي لا يعتصم عبد من عبادي بي أعرف ذلك من نيته، فتكيده السموات والأرض إلا جعلت له من بينهن فرجاً ومخرجاً، ولا يعتصم عبد من عبيدي بغيري أعرف ذلك من نيته، إلا قطعت أسباب السموات من يده، وأسخت الأرض من تحت قدميه، ولا أبالي بأي واد هلك. أو كما قال(٢).

فهذه الآية فيها الحث علىٰ دعاء الله تعالىٰ عند الاضطرار، والوقوع في الشدائد والأزمات، والحالات الحرجة، من خوف وضيق، وهم وغم وكرب.

فالمعنىٰ: أنه سبحانه هو الذي يجيب دعوة المضطرين، ويزيل ما بهم من الشدة والضرورة متىٰ دعوه، وأخلصوا له العبادة، وعلقوا رجاءهم به وحده، ولم يلتفتوا إلىٰ غيره من المخلوقات، فإنه يجيب دعوتهم، ويعطيهم ما طلبوا، ﴿وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾؛ أي: البأساء والضر الذي نزل بهم، ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾؛ أي: هو الذي يخلف الأولاد آباءهم، ﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾، أي: هل هناك إله مع الله، فالذين يدعون معه آلهة أخرىٰ قليل تذكرهم؛ أي: هو الإله الحق فلا إله غيره، ولا رب سواه.

---

(١) انظر «تفسير ابن كثير» (٣/ ٣٧١).

(٢) انظر «تفسير ابن كثير» (٣/ ٣٧٠).

وقد سبق تخريجه في الباب السابع (باب ما جاء في الرقىٰ والتمائم).

■ قوله: [وروى الطبراني، بإسناده: أنه كان في زمن النبي ﷺ منافق يؤذي المؤمنين، فقال بعضهم: قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق، فقال النبي ﷺ: «إنه لا يستغاث بي، وإنما يستغاث بالله»(١)]:

عرفنا مما سبق أن الدعاء عبادة لا تصلح إلا لله وحده، والدعاء يكون من المكروب وغير المكروب، فإذا كان من المكروب يسمى استغاثة، وذكرنا أن الاستغاثة بالمخلوق تجوز فيما يقدر عليه، فيجوز أن يستغيث إنسان مكروب بإنسان قادر، ودليل ذلك قصة موسى، لما دخل مصر ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ﴾ [القصص: ١٥].

* وقوله: «فاستغاثه»؛ أي: طلب منه الغوث، وهو النصر؛ لأنه كان في كرب، وقد أوشك أن يقتله ويعلو عليه ذلك القبطي الذي هو من قوم فرعون، فاستغاث بموسى لشيء يقدر عليه موسى؛ فمن أجل ذلك أغاثه بأن قتل ذلك القبطي، الذي حاول أن يقتل الإسرائيلي.

فدل على أن الاستغاثة بقادر تصح، ولا حرج فيها، لكن إذا كانت هذه اللفظة قد أصبحت من جملة الأدعية التي هي حق لله، فلا يجوز استعمالها.

وهذا هو ما تضمنه هذا الحديث؛ فإنهم لما قالوا: «قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق»، لم يطلبوا إلا أن يغيثهم؛ بمعني: أن يزيل عنهم الكرب الذي ينالهم من هذا المنافق، وهو قادر عليه؛ أي: فيما أقدره الله، ولكنه ﷺ رد

---

(١) أخرجه الطبراني كما في «المجمع» (١٠ / ١٥٩)، عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه. قال الهيثمي في «المجمع» رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير ابن لهيعة وهو حسن الحديث. وقد رواه أحمد بغير هذا السياق، وهو في «الأدب» في باب القيام. أ. هـ.

ورواية أحمد في «المسند» (٥ / ٣١٧)، وأخرجها ابن سعد في «الطبقات» (١ / ٣٨٧)، ولفظها: «إنه لا يقام لي؛ بل يقام لله تبارك وتعالى».

الأمر إلىٰ أهله، وإلىٰ مستحقه، فقال: «إنه لا يستغاث بي، وإنما يستغاث بالله»، أي: الاستغاثة من حق الله، وليس لأحد أن يستعملها في حق غير الله، آيّاً كان من المخلوقين.

* وقوله: «لا يستغاث بي، وإنما يستغاث بالله»، كأنه قال: أنا إذا نصرتكم فسموا ذلك إعانة أو نصرة، فأما كلمة استغاثة فاجعلوها لله تعالىٰ وحده.

وهذا المنافق الذي كان يؤذي المؤمنين، سمي في بعض الروايات، أنه عبد الله بن أُبي بن سلول.

والذي قال: «قوموا بنا نستغيث»، هو أبو بكر؛ أي: كأنهم أرادوا أن يأخذ الرسول ﷺ علىٰ يده، ويمنعه من هذا الأذىٰ الذي كان يؤذيهم به.

ومعلوم أن أذىٰ المنافقين مستمر علىٰ المؤمنين، إما مثلاً بتنقصهم، وإما بعيبهم وثلبهم، وإما بالاستهزاء بعباداتهم، وبدينهم ونحو ذلك.

فالرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ يقدر علىٰ أن يكفه، أو يأخذ علىٰ يديه، ولكنه لم يفعل ذلك لما طلبوه بهذه الكلمة وهي الاستغاثة، بل ذكر أن الاستغاثة هي حق الله تعالىٰ.

فالحاصل أن الدعاء، والاستغاثة، من جملة أنواع العبادة التي لايصلح منها شيء إلا لله تعالىٰ، فمن صرف منها شيئاً لغير الله، فقد عبد ذلك الغير، ولا فرق في التسمية حينئذ، ولو سمىٰ دعاءه توكلاً، أو تشفعاً، أو تبركاً، أو غير ذلك، فإن العبرة بالحقائق، لا بالأسماء، والأسماء لا تغير حقائق المسميات.

فبهذا نعرف أهمية هذا الباب وآكديته، وصلته ببقية أبواب التوحيد.

ولذلك اهتم العلماء بالدعاء، دعاء الله سبحانه وتعالىٰ، وذكروا أن العبد لا يكون عابداً حقاً، إلا إذا صرف كل دعائه لله تعالىٰ.

وقد كان الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ يُرَغِّبُ في دعاء الله، بأن يسأل الإنسان الله تعالىٰ كل حاجاته، وكل ما تمس له الحاجة من أموره العادية، والغيبية ونحو ذلك.

وفي إظهار هذا السؤال وكثرته إظهار للحاجة والفاقة، وكلما كان العبد مُظهراً للحاجة والفاقة لربه كان ذلك أقرب إلىٰ إجابته، وأقرب إلىٰ كثرة ثوابه، فنحن مأمورون بأن نكثر من دعاء الله، يقول الله تعالىٰ: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥]، ويقول: ﴿وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [الأعراف: ٢٩]، ويقول: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ﴾ [غافر: ١٤]، بمعني: اسألوه حاجاتكم.

وذكرنا أنه ـ عليه السلام ـ كان يرغب في الدعاء، بما روىٰ: «**إن الله يحب الملحين في الدعاء**»(١)، وبقوله: «**من لم يسأل الله يغضب عليه**»(٢).

فمعناه أن من لم يظهر الحاجة إلىٰ الله فكأنه أكتفىٰ بنفسه، وأظهر الاستغناء عن الله تعالىٰ، وعن الافتقار إليه، مع أن العباد موسومون بأنهم عباد، وموسومون بالفقر إلىٰ الله قال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، وإذا قلنا ذلك فإنا مأمورون بإكثار الدعاء لله في كل حال من الحالات، حتىٰ نظهر العبادة لله والخشوع والفقر بين يديه سبحانه، والله أعلم.

---

(١) سبق تخريجه في هذا الباب.

(٢) سبق تخريجه في هذا الباب.

[١٤]

باب:

قول الله تعالى:

﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾

قول الله تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩١، ١٩٢].

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ (١٣) إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣، ١٤].

وفي الصحيح، عن أنس، قال: شُجَّ النبي ﷺ يوم أحد، فقال: «كيف يفلح قوم شجوا نبيهم؟» ؛ فنزلت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

وفيه: عن ابن عمر، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول ـ إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر ـ: «اللهم العن فلاناً وفلاناً»، بعد ما يقول: سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد، فأنزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾.

وفي رواية: يدعو على صفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، والحارث بن

هشام، فنزلت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]» .

وفيه: عن أبي هريرة، قال: قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله عليه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، قال: «يا معشر قريش ـ أو كلمةً نحوها ـ اشتروا أنفسكم، لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا عباس بن عبد المطلب، لا أغني عنك من الله شيئاً، يا صفية عمة رسول الله، لا أغني عنك من الله شيئاً، يا فاطمة بنت محمد، سليني من مالي ما شئت، لا أغني عنك من الله شيئاً» .

■ ■ ■ ■ ■

• فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآيتين.

الثانية: قصة أحد.

الثالثة: قنوت سيد المرسلين، وخلفه سادات الأولياء، يؤمِّنون في الصلاة.

الرابعة: أن المدعو عليهم كفار.

الخامسة: أنهم فعلوا أشياء ما فعلها غالب الكفار، منها: شجهم نبيهم، وحرصهم على قتله، ومنها: التمثيل بالقتلى مع أنهم بنو عمهم.

السادسة: أنزل الله عليه في ذلك: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾.

السابعة: قوله: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾، فتاب عليهم فآمنوا.

الثامنة: القنوت في النوازل.

التاسعة: تسمية المدعو عليهم في الصلاة بأسمائهم، وأسماء آبائهم.

العاشرة: لعن المعين في القنوت.

الحادية عشرة: قصته ﷺ لما أنزل عليه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾.

الثانية عشرة: جِدُّه ﷺ في هذا الأمر، بحيث فعل ما نسب بسببه إلى الجنون، وكذلك لو يفعله مسلم الآن.

الثالثة عشرة: قوله للأبعد والأقرب: «**لا أغني عنك من الله شيئاً**»، حتى قال: «**يا فاطمة بنت محمد لا أغني عنك من الله شيئاً**».

فإذا صرح وهو سيد المرسلين بأنه لا يغني عن سيدة نساء العالمين، وآمن الإنسان أنه ﷺ لا يقول إلا الحق، ثم نظر فيما وقع في قلوب خواص الناس اليوم تبين له التوحيد، وغربة الدين.

الشرح

باب:
قول الله تعالى:
﴿أيشركون ما لا يخلق شيئًا وهم يخلقون﴾

هذا الباب عقده المؤلف لبيان أن كل من سوى الله متصف بهذه الصفة في هذه الآيات: ﴿لا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩١، ١٩٢].

فكل من سوى الله فهو على هذه الحال، ويدخل في ذلك الأنبياء، والملائكة، والصالحون، والسادة ونحوهم، حتى النبي ﷺ لا يستحق شيئاً من حق الله، الذي هو الملك، والتصرف، والخلق، والتدبير، فهذا كله إلى الله.

■ قوله: [قول الله تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩١، ١٩٢]]:

يقول الله تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ﴾؛ أي: كيف يشركون، وكيف يعبدون من هو بهذه الحال؟ ﴿مَا لا يَخْلُقُ شَيْئًا﴾؛ أي: أولئك المدعوون المعبودون، ولو من الملائكة لا يخلقون شيئاً ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ بل هم مخلوقون، ومحتاجون إلى خالق يخلقهم ﴿وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾، أي: لا يستطيعون نصركم أيها العابدون ﴿وَلا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾؛ فلو أنهم أصيبوا بشيء لم يقدروا أن يدفعوا عن أنفسهم، بل هم محتاجون إلى النصر من عند الله؛ فإذا لم يستطيعوا نصر أنفسهم، فكيف ينصرون غيرهم ممن عبدوهم؟

وهذا الوصف عام لكل من سوى الله، ولو سموا سادة، أو أولياء، أو سموا

أنبياء، أو صالحين، أو أشرافاً، أو غير ذلك، كلهم لا يخلقون؛ بل هم مخلوقون، ولا ينصرون؛ بل هم محتاجون إلىٰ من ينصرهم.

فإذا كانوا لا يستطيعون نصر أنفسهم فكيف بغيرهم؟!

■ **قوله:** [وقوله: **﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ۝١٣ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾** [فاطر: ١٣، ١٤]]:

هذه الآية في وصف المشركين وآلهتهم، يقول تعالىٰ: **﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾**، أي: كل من تدعونه، ولو كان نبيّاً، أو ملكاً، أو سيداً: **﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾**، والقطمير هو: اللفافة التي علىٰ ظهر نواة التمر، فإذا أخرجت نواة التمر وجدت عليها لفافة رقيقة، متىٰ كانت يابسة طارت من خفتها.

فيقول تعالىٰ: إنهم ما يملكون في السموات، ولا في الأرض، ولا في الكون كله، ولو وزن هذا القطمير، فكيف بما هو أكبر منه؟

وإذا لم يكونوا مالكين، فكيف تدعونهم؟ و كيف تقولون لهم: نحن في جواركم؟ ونحن في عصمتكم وفي ذمتكم؟ أنقذونا، أعطونا، أو ملكونا، أو أدخلونا الجنة، أو أنقذونا من النار، أو خذوا بأيدينا.

كيف يأخذون بكم؟ أو كيف ينصروكم؟ وهم ليس لهم ملك، ولا نصر لأنفسهم، ولا لغيرهم، والملك لله فهو الذي يملك ما في السموات، وما في الأرض.

فإذا لم يكونوا مالكين حتىٰ ولو قطميراً، فكيف يدعون مع الله أو من دون الله؟

ثم قال: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾، وذلك لأنهم مشغولون بأنفسهم، أو أنهم جماد، أو أنهم أموات؛ فهم ليسوا مهتمين بكم، أو لا يسمعونكم.

ثم قال: ﴿وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾، فلو قدر أنهم يسمعون ـ كالأموات الذين ورد أنهم يسمعون من يسلم عليهم[1] ـ، ونحو ذلك، لا يستجيبون لكم؛ يعني: لا يعطونكم طلباتكم، ولا ينفعوكم فيما طلبتم منهم وأردتم، وذلك لأنهم لا يملكونه، فالملك لله، ولو سمعوكم وأنتم تدعونهم ما استجابوا لكم، أي: لما كلموكم، ولما أعطوكم مطلوبكم.

فإذا طلبتم منهم المغفرة، أو طلبتم منهم الرحمة، أو طلبتم منهم النصر، أو طلبتم منهم الرزق، فليس في أيديهم، ولو كانوا أنبياء، أو ملائكة، أو سادة، أو نحو ذلك.

ثم قال: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾، أي: يوم القيامة يتبرءون منكم، كما قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦]؛ أي: تقطعت بينهم الوسائل والقرابات ونحو ذلك، فلا

---

(١) وردت عدة أحاديث في مسألة سماع الأموات من يسلم عليهم، عن ابن عباس وعائشة وأبي هريرة وغيرهم، ذكر بعضها ابن رجب في كتاب أهوال القبور، فصل: معرفة الموتى بمن يزورهم ويسلم عليهم.
قال عبدالحق الأشبيلي عن حديث ابن عباس: إسناده صحيح، ذكره العراقي في المغني (٤/ ٤٩١)، وابن رجب في أهوال القبور، إلا أن ابن رجب قال بعد أن نقل عن الأشبيلي، قال: يشير إلى أن رواته كلهم ثقات وهو كذلك إلا أنه غريب منكر.
وأما حديث عائشة فقد قال ابن رجب في كتاب أهوال القبور: رواه عبدالله عن ابن سمعان وهو متروك.
قال الشيخ ابن جبرين: أما الأرواح فلا شك أنها تعرف من يزورها، وأنها تسمع، وأنها أيضاً تتلاقى وتتخاطب. فهي في هذا الوجود لم تعدم حتى يأذن الله بردها إلى أجسادها عند النفخ في الصّور. (انظر كتاب: المقرب لأحكام الجنائز، إعداد عبدالعزيز العريفي، وهي جزء من فتوى للشيخ ابن جبرين حفظه الله).

ينفعونكم، بل يكفرون بشرككم، ويقولون: ﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (٢٨) فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ [يونس: ٢٨، ٢٩].

إن كنتم عبدتمونا فنحن غافلون عنكم، ومشغولون عنكم، وما شعرنا بعبادتكم، ولم نأمركم بعبادتنا.

وكما حكى الله عن عيسى أنه قال: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ١١٧]؛ فهذا دليل على أن كل من عُبد ولو كان نبيّاً، أو صالحاً فإنه يتبرأ ممن عبده مع الله، ويبغض عبادته.

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٦]، فإذا حشر هؤلاء السادة الذين أنتم تدعونهم من دون الله يكونوا من ألد الأعداء لكم، وأنتم ترجونهم أن ينقذوكم، وأنتم تذبحون لهم، أو تطوفون بقبورهم، أو تتعلقون بهم، أو تستشفعون بهم، أو تزعمون أنهم... وأنهم...، وتنسون الله، ولا تطلبون منه، فهم يوم القيامة يكفرون بشرككم، ولا يستطيعون نفعكم، أو دفع الضر عنكم، ويكونون لكم أعداءً، ﴿وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٦]؛ أي: منكرين جاحدين.

ثم إن حال هؤلاء الذين عبدتموهم؛ سواء كانوا أنبياء، أو صالحين، أو غيرهم، إنهم لا يملكون شيئاً، حتى نبينا محمد ﷺ، مع أن الله خصه بالرسالة وفضله وأنزل عليه الوحي، وجعل رسالته عامة للناس وختم به النبيين وفضله عليهم، ولكن ليس له شيء من حق الله، فليس له شيء من العبادة.

وكل من دعا معه أحداً

أشرك بالله ولو محمداً

■ قوله: [وفي الصحيح، عن أنس، قال: شُجَّ النبي ﷺ يوم أحد، فقال: «كيف يفلح قوم شجوا نبيهم؟» ؛ فنزلت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨][(١)] .

وفيه: عن ابن عمر، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول - إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر -: «اللهم العن فلاناً وفلاناً». بعد ما يقول: سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد، فأنزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾[(٢)].

وفي رواية: يدعو على صفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام، فنزلت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨][(٣)]:

في هاتين القصتين، وفي هذين الحديثين دليل على أن الرسول ﷺ بشر لا يملك شيئاً، ولا يقدر أن يرد ما كتبه الله.

● ففي القصة الأولى: أنه لما كان في يوم أحد شجه بعض المشركين؛ أي: جرحوه في رأسه، وكسروا إحدى رباعياته، وهي السن الذي في جانب الثنية، فجعل يمسح الدم عن وجهه، ويقول: «كيف يفلح قوم شجوا نبيهم؟!»؛ فأنزل الله هذه الآية: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾؛ أي: الأمر كله لله.

فالله تعالى هو الذي سلطهم، فلا تنفي عنهم الفلاح، بل أطلب النصر من

---

(١) أخرجه البخاري معلقاً في «كتاب المغازي» باب: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾، وأخرجه مسلم موصولاً برقم (١٧٩١)، وأحمد في «المسند» (٢/ ٢٥٣، ٢٨٨).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٤٠٦٩).

(٣) أخرجه البخاري برقم (٤٠٧٠) مرسلاً كما قال ابن حجر؛ لأنه من رواية سالم بن عبدالله بن عمر رضي الله عنهم.
وقد أخرجه موصولاً أحمد (٢/ ٩٣)، والترمذي برقم (٣٠٠٤)، وابن جرير (٤/ ٨٨)، عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما.
قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، وقال أحمد شاكر في تحقيق المسند» (٥٦٧٤): إسناده صحيح.

الله، فلو كان له من الأمر شيء، أو من الملك لما قدروا على ذلك، ولكن الأمر بيد الله.

فالظاهر أن الله تعالى أنكر عليه لما نفى عنهم الفلاح، وعاتبه بقوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾.

● **كذلك القصة الثانية**: أنه كان ﷺ يدعو على المشركين في صلاته إذا كان في الركعة الأخيرة من الفجر، وقال: «**سمع الله لمن حمده**»، ثم قال: «**ربنا ولك الحمد**»، أخذ يدعو على أناس من صناديد الكفار، الذين هم قواد الكفر، وسادات المشركين، مثل صفوان بن أمية، الذي كان أبوه أمية بن أنس من صناديد الكفار، وقد قتل في غزوة بدر، ويدعو على سهيل بن عمرو، وكان - أيضاً - من سادات أهل مكة، ولم يكن من قريش، ويدعو على الحارث بن هشام، وهو أخو أبي جهل؛ لأنه كان أيضاً ممن يحرض المشركين على قتال النبي ﷺ، وكان يعذب المسلمين، فدعا عليهم النبي ﷺ؛ لأنهم على هذه الحال في الكفر، فالحاصل أنه ﷺ كان يدعو عليهم، فيقول: «**اللهم العن فلاناً وفلاناً**»، يدعو على هؤلاء.

ولكن الله أنكر عليه ذلك، فقال: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾؛ أي: لا تَدْعُ عليهم، فإن الله يعلم الغيب وأنت لا تعلمه، فربما يهديهم الله، وهدى الله الثلاثة، وأسلموا، وحسن إسلامهم، وقاتلوا في سبيل الله، وحصل لهم مكانة، فدل على أن الأمر كله لله، وأن النبي ﷺ لا يعلم الغيب، ولا يدري ما هو المتسقبل، وأنه - أيضاً - ليس له من الأمر شيء؛ بل الأمر كله لله، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وكان ﷺ يدعو لأناس من المسلمين في صلاته، فيقول: «**اللهم انج الوليد بن الوليد، وسلمة بن هشام، وعياش بن أبي ربيعة، والمستضعفين من المؤمنين**»(١)؛ حيث أن المشركين حبسوهم في مكة ولم يمكنونهم من الخروج والهجرة، فيدعو ﷺ لهؤلاء بالنجاة، ويدعو على أولئك الصناديد بالهلاك واللعنة والعذاب.

ولكن لما علم الله شيئاً لم يعلمه الرسول ﷺ أنكر عليه، فقال: ﴿**لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ**﴾، أي: أنك لا تستطيع ولا تقدر أن تغير الحال، كما قال تعالى: ﴿**لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ**﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقال تعالى: ﴿**إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ**﴾ [القصص: ٥٦].

وهذا دليل على أن الغيب لا يعلمه إلا الله، وعلى أن الأمر كله لله.

والأمر في هذه الآية بمعني: الملك والتصرف، أي: الملك والتصرف لله وحده، فإذا كان الملك له فهو الذي يرجى، وهو الذي يطلب، وهو الذي يعبد، وهو الذي يُخضع له، وهو الذي ينذر له ويذبح له، ولا يصرف من ذلك شيء لغيره.

فمتى عرف المسلم ذلك رغب إلى الله تعالى وأقبل على دعائه، وصد عن كل ما سواه، ولم يدع أحداً إلا الله، لا نبياً، ولا وليّاً، ولا سيّداً، ولا غير ذلك بأي نوع من أنواع الدعاء؛ **سواء بالأقوال**، كأن يقول: ياسيدي أنا في جوارك، أو اعصمني، أو انصرني، أو ارزقني، أو أعطني أو نحو ذلك، أو **بالأفعال**: كأن يطوف بقبته، أو بقبره، أو يتسمح بتربته، أو يصلي عنده، أو يذبح له، أو ينذر له، أو نحو ذلك، فكل ذلك تعلق على من ليس له من الأمر شيء؛ سواء كان نبينا محمد ﷺ أو غيره من الأنبياء، أو الصالحين، أو الشهداء، أو السادة ونحو

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٢٠٠)، ومسلم برقم (٦٧٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ذلك .

فإذا كان النبي ﷺ وهو في هذه المنزلة العظيمة عند الله ، ومع ما خصه ، وما ميزه من الوحي والرسالة ؛ لم يصل إلىٰ أن يستحق شيئاً من العبادة ، ومن حق الله الذي هو التعظيم والذل له ، وليس له من الأمر شيء ؛ ونحو ذلك ، فكيف بمن هو دونه؟!

وهذا هو القصد من إيراد هذا الباب ، وكأن المؤلف لمس أن أهل زمانه وقع فيهم شيء من الغلو في حق النبي ﷺ ، فخاف أن يصل بهم الغلو إلىٰ ما وصل بالنصارىٰ ؛ حيث غلوا في عيسىٰ حتىٰ جعلوه إلهاً ، أو ابناً للإله ، أو شريكاً في الإلهية .

فإذا غلت هذه الأمة في نبيها فدعته مع الله ، أو حلفت به ، أو قدسته تقديساً وتعظيماً لا يصلح إلا لله ، أصبحت مثل النصارىٰ .

والله تعالىٰ قد ذم أهل الكتاب علىٰ الغلو ، بقوله : **﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾** [المائدة: ٧٧] ، وقال : **﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾** [النساء: ١٧١] ؛ أي : إنما وظيفته أنه رسول ؛ فلم يصل أن يكون إلهاً .

كذلك يقال لهذه الأمة: لا تعظموا الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، إنما هو رسول وظيفته الرسالة ، وكفىٰ بها شرفاً ، ففضله الله بالرسالة ، ولكن لم يخرج بذلك عن العبودية ، فهو عبد الله ورسوله ، وعبوديته ﷺ فضيلة وشرف ـ أيضاً ـ وذلك لأنها عبودية لله تعالىٰ ، والعبودية لله ميزة وفضيلة عظيمة ، ولهذا ذكره الله تعالىٰ باسم العبد ، في عدة آيات ، كما في قوله تعالىٰ : **﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ

يَدْعُوهُ [الجن: ١٩]، وقوله تعالىٰ: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ**﴾ [الإسراء: ١]، وقوله: ﴿**تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ**﴾ [الفرقان: ١]، وقوله: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ**﴾ [الكهف: ١]، وقوله: ﴿**وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا**﴾ [البقرة: ٢٣].

ومعنىٰ كونه عبداً: أنه عابد لله، ومعبد لله، ومملوك لله، ولو كان مرسلاً، ولو كان ينزل عليه الوحي، ولو كان من خيرة الله من خلقه، وصفوته من بريته، فإنه لم يخرج عن كونه عبداً، فقد صرح بذلك النبي ﷺ في قوله: «**إنما أنا عبد فقولوا: عبد الله ورسوله**»(١)، ولما جلس مرة جلسة التواضع، قال: «**إنما أنا عبد، أجلس كما يجلس العبد، وآكل كما يأكل العبد**»(٢).

ولاشك أنا إذا تعبدنا لله، وأضفنا أنفسنا إلىٰ عبودية الله، كانت هذه العبودية لله تعالىٰ ميزة وفضيلة، وشرفاً لنا.

كان بعض المماليك يمتدح إذا قيل: إنه عبد فلان، أو مملوك السلطان الفلاني، أو نحو ذلك، فيمتدح بالعبودية لبعض السلاطين والملوك، ويعد ذلك شرفاً، يقول أحدهم:

إذا قيل هذا عبدهم ومحبهم
تهلل بشراً وجهه يتبسم

فإذا كانت العبودية لبعض الخلق يعدونها فضيلة وميزة، فكيف بالعبودية لله الخالق رب الأرض والسماء؟ كيف إذا قيل: أنت عبد الله؟ أي: مملوكه ورقيقه، الذي يملك رقك، والذي يتصرف فيك، لا شك أن هذه الصفة صفة فضل،

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٤٤٥) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.
(٢) سبق تخريجه مفصلاً في الباب الأول (باب بيان فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب).

وصفة شرف لنبينا ﷺ، ولغيره من أنبياء الله أيضاً، كما قال تعالىٰ: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ﴾ [ص: ٤٥]، وقال: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ﴾ [ص: ١٧]، وقال: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ﴾ [ص: ٤١]، ونحو ذلك، فهم عباد الله مملوكون، والمالك هو الله تعالىٰ، ولا يصلح للعبد شيء من حق المالك.

وحق المالك هو الذل له، ودعاؤه، وتعظيمه، وأما العبيد فلا يصلح لهم شيء من ذلك.

وإذاً فللرسول ﷺ حق لا يصلح لغيره، وللرب تعالىٰ وتقدس حق لا يجوز صرفه لأحد من البشر.

يقول ابن القيم رحمه الله:

للرب حق ليس يقبل غيره
ولعبده حق هما حقان
لا تجعلوا الحقين حقاً واحداً

* وللرسول ﷺ حقوق علينا، نذكر بعضها:

أولاً: أن نؤمن به؛ أي: نصدق بأنه رسول.

ثانياً: أن نحبه محبة نقدمها علىٰ محبة أنفسنا، وأهلينا.

ثالثاً: أن نطيعه: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [النساء: ٥٩].

رابعاً: أن نتبعه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾ [آل عمران: ٣١].

خامساً: أن نتأسى به: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

سادساً: ألا نخالفه، ولا نعصيه: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ

أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

سابعاً: أن نتقبل كل ما جاء به، قال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: ٧].

ثامناً: أن نعظم سنته، وأن نحترمها في حياته، وبعد مماته، فقد كان الصحابة يحترمونه، احتراماً عظيماً، فلا يرفعون الصوت عنده: ﴿لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ [الحجرات: ٢]، ولا يخالفون سيرته وأفعاله.

ونحن كذلك أيضاً متى قُرئت علينا أحاديثه لم نرفع أصواتنا عند صوته؛ ـ أي: عند الأحاديث التي تكلم بها ـ، ولم نخالف، أو نتقدم بين يدي ما أمرنا به.

فإذا عرفت حقوقه ﷺ فبقية العبادات حق الله؛ فالدعاء حق الله؛ فليس للرسول شيء من ذلك، فلا يقال: يا محمد، أو: يا رسول الله، خذ بأيدينا أو أعطنا، فالدعاء حق الله، والله يقول: ﴿فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]، ولم يقل: إلا محمداً، أو نحو ذلك.

وكذلك الخوف، والرجاء، والتوكل، والرغبة، والخشية، والخشوع، والإنابة، والتوبة، والاستغفار، كل هذا لله تعالى، وهي حق الله.

وهكذا أيضاً الذبح لله، والنذر له، والركوع له، والسجود له، وما أشبه ذلك.

فالعبادات التي هي فروع من طاعته تعتبر حقوق لله فلا يصرف منها شيء لغير الله، لا لنبي مرسل، ولا لملك مقرب فضلاً عن غيرهما.

وحيث إن الرسول ﷺ بشر ميزه الله تعالى بالرسالة، وفضله بها، فليس له شيء من حق الله، ومن أجل ذلك صرح في هذه الآيات، فقال تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]؛ يعني: ليس لك من العبادة، وليس لك من التدبير، إلا ما دبِّرتَ به، فالتدبير، والأمر والشأن، والقدر، والخلق، كله لله: ﴿قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

كذلك - أيضاً - هو لا يملك لنفسه، ولا لغيره شيئاً، يقول الله تعالى: ﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [الأعراف: ١٨٨]؛ يعني: إلا ما أعطاني الله، وملكني، وأقدرني: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَدًا﴾ [الجن: ٢١]؛ يعني: لا أقدر أن أضركم، ولا أقدر أن أنفعكم، ولا أملك لكم خيراً، ولا شراً، بل ملك ذلك كله لله تعالى.

■ **قوله: [وفيه: عن أبي هريرة، قال: قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله عليه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، قال: «يا معشر قريش - أو كلمةً نحوها - اشتروا أنفسكم، لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا عباس بن عبد المطلب، لا أغني عنك من الله شيئاً، يا صفية عمة رسول الله، لا أغني عنك من الله شيئاً، يا فاطمة بنت محمد، سليني من مالي ما شئت، لا أغني عنك من الله شيئاً»(١)]:**

في هذا الحديث يتبرأ ﷺ من أقاربه، حتى عمه، وعمته، وابنته، ويخبر بأنه لا يملك لهم شيئاً، ولا يغني عنهم شيئاً، فيقول لابنته: «**لا أغني عنك من الله شيئاً**»، وكذا يقول لعمه، ولعمته، ولأقاربه: «**لا أغني عنكم من الله شيئاً**»، يعني:

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٧٥٣).

انقذوا أنفسكم لا ينفعكم إلا أعمالكم، اعملوا الأعمال الصالحة التي تنجون بها من عذاب الله، فإن الله هو الذي يملك النفع والضر، وهو الذي يستحق العبادة، وهو الذي عنده الثواب والعقاب، فاطلبوا منه الثواب، والنجاة من العقاب، ولا تطلبوها مني، فإنه لا ينفعكم قربي، وكوني قريباً لكم، أو أخاً أو ابن أخ، أو نحو ذلك، إنما تنفعكم أعمالكم.

وإذا كان هو عليه الصلاة والسلام لا يملك شيئاً من ذلك، فكيف يُدعى؟.

كيف بحال أولئك الذين يقفون عند قبره، ويقولون: أتيناك يا أبا فاطمة من مسيرة شهر من مكان بعيد، ونحن في جوارك، ونحن في ضيافتك، لا تخيب رجاءنا، اشفع لنا، انفعنا، أعطنا، اقبل حجنا، اقبل سعينا، أو ما أشبه ذلك، فهؤلاء طلبوا من المخلوق، وهو عليه الصلاة والسلام قد أخبر أنه لا يملك شيئاً لأقاربه، فكيف بهؤلاء الذين قد أحبطوا أعمالهم بهذا الشرك؟!

فالإنسان عليه أن يخلص أعماله التي هي قربات، وطاعات لله، ويكون عمله مع الرسول ﷺ إنما هو: الاقتداء والاقتفاء؛ فيحبه، ويتبعه، وتحمله محبته على أن يتفانى في طاعته.

إن الكثير من الناس يقولون إذا رأوا من ينهاهم عن الحلف بالرسول عليه الصلاة والسلام كقولهم: والنبي، أو والرسول: نحن نحبه، فنقول لهم: إن كنتم تحبونه وتحبون ربه فاتبعوا الرسول، وذلك علامة محبته.

كذلك إذا نهوا عن التمسح بجدران الحجرة النبوية، أو نهوا عن دعائه، بقولهم: ياخير البرية، أو: يا رسول الله، أو ما أشبه ذلك، وقيل لهم: ادعوا الله، قالوا: نحن ندعوه ونتمسح بجدران حجرته لأننا نحبه، وأنت لا تحب

الرسول، وأنت. . . وأنت. . . .

فنقول لهم: محبته والإيمان به إنما ثمرتها طاعته، والسير على طريقته، واتخاذه أسوة وقدوة، لا أن يعطى شيئاً من حق الله، فإن الدعاء لله، والله يقول: ﴿فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]، ولم يقل: إلا محمداً.

فأنت إذا قلت: يا محمد، فهذا هو الدعاء، سواء كنت بعيداً أو قريباً.

فالحاصل أن حق الله تعالى هو العبادة، ولا يصح ولا يجوز أن يصرف منه شيء لغير الله، لا لملك مقرب، ولا لنبي مرسل، فضلاً عن سواهما، فإذا كانت هذه حال الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ مع أقاربه، ومع أصحابه، فكيف بغيره؟ وكيف بغير أقاربه؟

■ ■ ■ ■ ■

[١٥]

باب:

قول الله تعالى:

﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ﴾

قول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣].

في الصحيح، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله، كأنه سلسلة على صفوان، يَنْفُذُهم ذلك، حتى إذا فزع عن قلوبهم، قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الحق، وهو العلي الكبير، فيسمعها مسترق السمع، ـ ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض، ووصفه سفيان بكفه فحرَّفها وبدّد بين أصابعه ـ، فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته، حتى يلقيها على لسان الساحر، أو الكاهن، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يدركه، فيكذب معها مائة كذبة، فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا: كذا وكذا؟ فيصدق بتلك الكلمة التي سُمعت من السماء».

وعن النواس بن سمعان، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله تعالى أن يوحي بالأمر تكلَّم بالوحي، أخذت السموات منه رجفة ـ أو قال: رعدة ـ شديدة، خوفاً من الله عز وجل، فإذا سمع ذلك أهل السموات صُعقوا، وخروا لله سجداً، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل، فيكلمه الله من وحيه بما أراد، ثم يمر جبريل على الملائكة، كلما مر بسماء سأله ملائكتها: ماذا قال ربنا يا جبريل؟ فيقول: قال الحق، وهو العلي الكبير، فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل، فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله عز وجل».

● **فيه مسائل:**

الأولى: تفسير الآية .

الثانية: ما فيها من الحجة على إبطال الشرك ، خصوصاً ما تعلق على الصالحين ، وهي الآية التي قيل : إنها تقطع عروق شجرة الشرك من القلب .

الثالثة: تفسير قوله : ﴿قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ .

الرابعة: سبب سؤالهم عن ذلك .

الخامسة: أن جبرائيل يجيبهم بعد ذلك بقوله : «قال كذا وكذا» .

السادسة: ذكر أن أول من يرفع رأسه جبرائيل .

السابعة: أنه يقول لأهل السموات كلهم ؛ لأنهم يسألونه .

الثامنة: أن الغَشْي يعم أهل السموات كلهم .

التاسعة: ارتجاف السموات بكلام الله .

العاشرة: أن جبرائيل هو الذي ينتهي بالوحي إلى حيث أمره الله .

الحادية عشرة: ذكر استراق الشياطين .

الثانية عشرة: صفة ركوب بعضهم بعضاً .

الثالثة عشرة: إرسال الشهاب .

الرابعة عشرة: أنه تارة يدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وتارة يلقيها في أذن وليّه من الإنس قبل أن يدركه.

الخامسة عشرة: كون الكاهن يصدق بعض الأحيان.

السادسة عشرة: كونه يكذب معها مائة كذبة.

السابعة عشرة: أنه لم يصدق كذبه إلا بتلك الكلمة التي سمعت من السماء.

الثامنة عشرة: قبول النفوس للباطل، كيف يتعلقون بواحدة ولا يعتبرون بمائة.

التاسعة عشرة: كونهم يتلقى بعضهم من بعض تلك الكلمة، ويحفظونها ويستدلون بها.

العشرون: إثبات الصفات خلافاً للأشعرية المعطلة.

الحادية والعشرون: أن تلك الرجفة والغَشْي خوفٌ من الله عز وجل.

الثانية والعشرون: أنهم يخرون لله سجداً.

■ ■ ■ ■ ■

الشرح

باب:
قول الله تعالى:
﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ﴾

القصد من هذا الباب: بيان خوف الملائكة من الله تعالىٰ، وتعظيمهم لأمره، وشدة وجلهم إذا كلفهم خوفاً من التقصير في أوامره.

والملائكة عباد الله المكرمون الذين خلقهم لعبادته، وأخبر بأنهم: ﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، وأخبر بأنهم: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩]، لا يتكبر أحد منهم عن أن يعبد الله، ولايستحسر؛ أي: لا يتعب: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠]، يقول النبي ﷺ: **«أطَّتِ السماء، وحق لها أن تئطَّ، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وفيه ملك قائم، أو راكع، أو ساجد»**(١).

يمثل بذلك كثرتهم وطواعيتهم، وأن من الملائكة من هو ساجد أو راكع من حين خلق إلىٰ أن تقوم الساعة، فإذا قامت الساعة، قالوا: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك، غير أنا لم نشرك بك شيئاً، هذا مع طول عبادتهم؛ وذلك لأنهم عرفوا أن ربهم أهل العبادة، والمستحق للتعظيم، فعظموه بقدر وسعهم.

وقد أخبر الله بكرامتهم عليه، في قوله تعالىٰ ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٥، ١٧٣)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٥١٠)، وقال: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وسكت عليه الذهبي، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٧٢٢).

يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦، ٢٧]؛ أي: لا يتقدمون في القول بين يديه، ويعملون بأمره ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٢٩]، وهذا على وجه الفرض، وإلا فمعلوم أنه لا يقول أحد منهم: إنه إله من دون الله، فهم دائماً يسبحون الله تعالى ويحمدونه، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [غافر: ٧].

فوظيفتهم أنهم دائماً في عبادة، ولا يتعبون، ولا يستحسرون، كما في قوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ﴾ [فصلت: ٣٨]، وفي آية أخرى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

كل هذا حكاية عن الملائكة أن هذه حالهم، وهذه عبادتهم، وهذا خوفهم الشديد من الله.

■ **قوله: [قول الله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]]:**

هذه الآية وردت بعد نفي الشفاعة إلا لمن أذن له الله تعالى، رداً على المشركين والقبوريين الذين يعبدون الأموات والأولياء: ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]؛ فأخبر تعالى أن الشفاعة له وحده ﴿وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾، ثم قال تعالى ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ [سبأ: ٢٣]، قيل: الضمير يعود إلى الملائكة؛ أي: إذا زال الفزع عن قلوبهم، حيث ذكر في الحديث(١) أنهم يفزعون ويصعقون عند سماع كلام الله تعالى الذي ترجف منه

---

(١) يشير الشيخ إلى حديث أبي هريرة رضي الله عنه الذي أورده المصنف في هذا الباب، وسيأتي تخريجه.

السموات، وترتعد خوفاً من الله عز وجل، فيصعق أهل السموات، ويخرون لله سجداً، فعند زوال ذلك الفزع والصعق عن قلوبهم يتساءلون ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ ؛ أي: بماذا أمر، وما قدر ودبر من الأمور، فيقول من سألوه: ﴿قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾، كما ذكر في الحديث أن أول من يرفع رأسه جبريل عليه السلام، فيكلمه الله من وحيه بما أراد، وأنه يمر على الملائكة فيسأله أهل كل سماء: ماذا قال ربنا يا جبريل؟ الخ.

وهذا دليل على خوف الملائكة وفزعهم، وتعظيمهم للرب سبحانه، مع كونهم من المقربين، وإذا كانوا كذلك لم يصلح أن يصرف لهم شيء من العبادة التي هي حق الله، ولا لغيرهم ممن هو دونهم في القرب والفضل.

ومما يدل على أن المراد بهذه الآية الملائكة، قول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ (٢٦) لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٨]، وهذه الآيات رد على الذين جعلوا لله ولداً، وجعلوا الملائكة إناثاً.

فأخبر بأنهم عباد الله مكرمون عند ربهم، وأنهم لا يتقدمونه بالقول، ويعملون بما أمرهم به، وأنهم لايشفعون إلا لمن رضي عنه من خلقه، فهكذا في هذه الآية، أخبر بأن الشفاعة لا تنفع إلا بإذنه، وأن الذين ترجى شفاعتهم وهم الملائكة يخافون من الله تعالى، ويفزعون عند سماع كلامه، فإذا زال عنهم الفزع تساءلوا عن ماذا قاله الرب تعالى.

وهناك قول آخر في الآية: أن الضمير في قوله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ يعود إلىٰ المشركين، وأن زوال الفزع في الآخرة، وقد رجح ابن حجر وابن كثير القول الأول.

وقوله: ﴿قَالُوا الْحَقَّ﴾؛ أي: لا يقول إلا حقاً وصدقاً مما يأمر به، أو يدبره من أمر أو نهي، أو خلق، أو رزق، أو موت أو حياة، مما يكون في السماء أو في الأرض، ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾؛ فله جميع صفات العلو، بذاته، وصفاته، وعلو القدر، وعلو القهر: ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الجاثية: ٣٧]، والله أعلم.

■ **قوله: [في الصحيح ،عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله، كأنه سلسلة على صفوان، يَنْفُذُهم ذلك، حتى إذا فزع عن قلوبهم، قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الحق، وهو العلي الكبير، فيسمعها مسترق السمع، ـ ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض، ووصفه سفيان بكفه فحرَّفها وبدّد بين أصابعه ـ، فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته، حتى يلقيها على لسان الساحر، أو الكاهن، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يدركه، فيكذب معها مائة كذبة، فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا: كذا وكذا؟ فيصدق بتلك الكلمة التي سُمعت من السماء»(١)].**

في هذا الحديث يمثل النبي ﷺ طواعية الملائكة لأمر الله، وذلك أن الله تعالىٰ إذا قضىٰ أمراً، أو حكم بحكم، أو قدّر قدراً في السماء ظهر لذلك أثر في السموات، فإذا رأىٰ ذلك الملائكة ضربوا بأجنحتهم خاضعين مستكينين، بمنزلة الطائر الذي يكون خاضعاً للإنسان، أو خائفاً من عدو، فإنه يمد جناحيه علىٰ

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٧٠١).

وجه الخضوع، وعلى وجه التذلل، فتضرب الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله عندما يسمعون كلام الله، أو عندما يسمعون ما دبره الله، وما قدره من الأمور، كل ذلك خوفاً من الله وتعظيماً له سبحانه.

وقد شبه النبي ﷺ في هذا الحديث كلام الله تعالى الذي قدره مثل جر السلسلة على الصفا، فإن السلسلة متى سحبت على صفاة ملساء ظهر لها صوت مزعج شديد، يسمعه القريب والبعيد، ويسبب فزعاً يصل إلى القلوب، فهذا الصوت ينفذهم ويصل إلى قلوبهم فيفزعون، ويغشاهم الوجل مما يجعلهم يخضعون، ويخشعون، ويسجدون، ويضربون بأجنحتهم خضعاناً لقوله.

فإذا زال الفزع والخوف عن قلوبهم تساءلوا فيما بينهم، وقالوا: ماذا قضى الله؟ وبماذا قدر؟ وما هو الأمر الذي أمر به؟ والحكم الذي حكم به؟ فيخبر بعضهم بعضاً: إنه حكم وقضى وأمر بـ: ﴿الْحَقَّ﴾ فيعظمون الله الذي لا يقول إلا الحق ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾، يعني: إنه حكم بكذا، وقدر كذا، وأمر بكذا، من إماته، أو إحياء، أو قحط أو جذب، أو مرض، أو غيث ينزل في مكان كذا في وقت كذا، أو ما أشبه ذلك مما يحدث في الأرض.

والحاصل أن الملائكة تتحدث بذلك الأمر الذي يحدث في السماء، فتتحدث بما سوف يقدره الله وما سوف يجريه.

وإذا كانت هذه حال الملائكة، وهذا خوفهم من الله، وأنهم يعبدون الله تعالى بالتعظيم، فكيف يصلح أن يصرف للملائكة شيء من حق الله؟ وكيف يجوز أن يعظموا؟ فحق الله لله، وحق الله هو: العبادة، وحق الله هو: الدعاء، وحق الله هو: الخوف منه، والرجاء فيما عنده، وجميع أنواع التعظيم له وحده،

لا شريك له، ولا يصلح أن يصرف حق الله لغيره، ولو كان الملائكة.

وإذا لم يصلح لهم شيء من التعظيم، والعبادة، فغيرهم بطريق الأولى، فإن من سواهم من الخلق دونهم، فمن يسمون أولياء، ومن يسمون سادة، وصالحين، وعباداً، وأقطاباً، وأوتاداً، وأبدالاً، ونحو ذلك، كل هؤلاء دون الملائكة في الفضل، ودون الملائكة في الخوف من الله، فكيف مع ذلك يصرف لهم شيء من حق الله.

والملائكة لما كانوا عارفين بالله، وعارفين بعظمته كان تعظيمهم لله أشد، وكان خوفهم من الله أعظم؛ ولذلك يقول بعض العلماء: من كان بالله أعرف كان منه أخوف، فلما كان الملائكة أعرف بالله كانوا أشد خوفاً، وإذا كان هذا خوفهم من الله تعالى لم يصلح أن يصرف لهم شيء من حق الله تعالى.

فإذا تحدثت الملائكة فيما بينهم بهذا الأمر الذي قضاه الله تعالى؛ سمعته الشياطين أو الجن الذين يسترقون السمع قرب السموات، كما أخبر الله تعالى - حكاية عن الجن - أنهم يسرقونه في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ﴾، أي: لنا مقاعد قريبة من السماء نستمع فيها كلام الملائكة وننقله: ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن: ٨، ٩].

فهؤلاء الشياطين يسرقون السمع، أي: الكلام الذي يسمعونه من الملائكة، ويتناقلونه بينهم.

فمسترق السمع هم: الشياطين، أو هم شياطين الجن، وقد وصفوا في الحديث بأنهم يكون بعضهم فوق بعض، ووصفه سفيان بكفه فحرّفها، وبدد بين

أصابعه.

والحاصل أن هؤلاء الشياطين الذين يسرقون السمع يرجمون بالشهب، فتارة يصيب أحدهم الشهاب قبل أن يلقي تلك الكلمة لوليّه من الإنس، وتارة يلقيها إلىٰ وليه من الإنس بسرعة هائلة قبل أن يدركه الشهاب.

وقد أخبر الله تعالىٰ أن هذه الشهب حرس وحفظ للسماء من الشياطين، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: ٥]، وقوله: ﴿لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ٨-١٠]؛ أي: إلا من اختطف كلمة يسمعها من الملائكة فيتبعه شهاب يُرمىٰ به ليحرقه، أو يطرده عن السماء.

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: ٥]؛ فيخبر تعالىٰ بأن هذه الشهب رجوم ترجم بها الشياطين عن استراق السمع.

فالشياطين يسرقون السمع من الملائكة، ويُرجمون بهذه الشهب، ولكن قد يلقي الكلمة التي سرقها بسرعة هائلة إلىٰ الإنسي قبل أن يصيبه الشهاب، فإذا استرقوا الكلام كان بعضهم فوق بعض، فالأعلىٰ منهم يسمع كلمة من الملائكة، ويلقيها بسرعة إلىٰ من تحته، ويلقيها الثاني إلىٰ من تحته، ويلقيها الثالث إلىٰ من تحته، وهكذا إلىٰ أن يقرقرها آخرهم في أذن الساحر، أو الكاهن من الإنس الذي يستخدم الشياطين، فيأتي ذلك الساحر أو الكاهن ويخبر الناس، ويقول: إنه سيحدث كذا، وإنه سيحدث كذا.

فإذا أدرك الشهاب الشيطان قبل أن يأتي بالكلمة إلىٰ وليه احترق، ولم يقل

شيئاً، وإذا ألقاها إلى وليه الإنسي قبل أن يدركه فإن ذلك الولي الذي هو الساحر أو الكاهن يحدث بها الناس، ثم لا يقتصر على تلك الكلمة؛ بل يضيف عليها، ويكذب معها مائة كذبة، ويقول قولاً لا حقيقه له، وذكر المائة مبالغة في العدد، وإلا فقد يكذب أكثر أو أقل.

وقد أخبر الله تعالى بأن الكهنة يحدثون الناس بما توحيه إليهم الشياطين، ولكنهم يكذبون ويزيدون، كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ﴾؛ أي: يتلقون السمع من الشياطين التي تسترقه من الملائكة ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢١، ٢٢٣]، فقد يكون الكذب من الشياطين بأن تخبر الكهنة بأشياء لم تقع، ولكن الغالب أن الكذب يكون من السحرة والكهنة ونحوهم، وذلك أنهم إذا سمعوا كلمة كذبوا معها عدة كلمات، وتَقَوَّلُوا من قبل أنفسهم، ولكن الناس ينخدعون ولا يعتبرون، فإذا أصاب مرة بسبب ما أوحته إليهم الشياطين انخدعوا، ولم يعتبروا بكذبهم مرات كثيرة الذي هو من عادتهم.

والحاصل أنهم يغترون بصدقه ويعتقدون أن عندهم شيء من علم الغيب، والغيب لا يعلمه إلا الله وحده.

ثم متى حدثهم الكاهن بشيء ولم يقع قالوا: لا يضره فإنه قد صدق في يوم كذا وكذا، وقد أخبرنا بشيء فوقع كما قال. ثم متى حدثهم بشيء آخر ولم يقع أيضاً أصروا وقالوا: لا يضره، فلا يعتبرون بمائة كذبة اعتماداً على مرة واحدة صدق فيها ووافق وطابق الواقع.

فالحاصل أن الكهان والسحرة يستخدمون الشياطين ويعبدونها ويتقربون

إليها، ويدعون لها، ويعظمونها، فإذا أطاع الشيطان وعبده فإن الشيطان يخدمه، ويخبره ويطلعه على أشياء لا يطلع عليها الناس؛ لأن الشيطان يرى أشياء لا يراها الناس، إما في العالم العلوي، وإما في العالم السفلي؛ كالأشياء البعيدة ونحوها.

فيجب على المرء ألا يصدق هؤلاء الكهنة، ولا ينخدع بأكاذيبهم، ولا بأقوالهم، وأن يعتبر إصابتهم مرة واحدة إما على وجه المصادفة، وإما على وجه السرقة التي استرقتها الشياطين من الملائكة، وإلا فهم بشر كسائر البشر.

وقد أخبر النبي ﷺ بأن الكهان ضلال، وبأن من صدقهم فهو كافر، فقال ﷺ: **«من أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد»** [1].

فائدة:

عرفنا أن الملائكة عباد خلقوا لطاعة الله، والله أعلم بكيفيتهم، فهم **﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦) لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾** [الأنبياء: ٢٦، ٢٧].

وأيضاً هم يسمعون كلام الله وينفذونه كما أمرهم دون زيادة أو نقصان، وقد جعل الله لهم قوة خاصة يستطيعون بها الانتقال من السماوات إلى الأرض والعكس.

وهم أيضاً عباد لا يأكلون ولا يشربون ولا يتغوطون، وقد خلقهم الله لعبادته وتنفيذ أوامره **﴿لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ﴾** [الأنبياء: ١٩]، والكلام حولهم يطول، ونكتفي بهذا.

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (٣٩٠٤)، والترمذي برقم (١٣٥)، وابن ماجه برقم (٦٣٩)، عن أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه الألباني في الإرواء (٢٠٠٦).

أما الشياطين فهم مطرودون ومبعدون من رحمة الله، ولا نعرف خلقتهم، إلا أنهم أرواح يتمكنون من النفوذ في جسد ابن آدم، ويدخلون إلى الصدر ويوسوسون للناس، كما في قوله: ﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ [الناس: ٤، ٥].

ويجب علينا أن نصدق بوجودهم، وإن كنا لا نعلم كيفيتهم، وذلك من علم الغيب، وأنهم يوسوسون لأوليائهم من الإنس، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٢١]؛ أي: يوحون إلى أوليائهم من الكفرة، والكهنة ونحوهم.

● ما يستفاد من هذا الحديث:

أولاً: هيبة الملائكة، وتعظيمهم لله، وشدة خوفهم منه، وإخبارهم بأنه تعالى لا يقول إلا الحق، ولا يقول باطلاً، وأنهم متى سمعوا كلامه، خشعوا، وخضعوا، وتواضعوا لله تعالى.

ثانياً: أن الله تعالى يتكلم بكلام مسموع تسمعه الملائكة، ويظهر له تأثير.

ثالثاً: فيه شدة وقع كلام الله؛ حيث شبه قوته على وجه التقريب ولله المثل الأعلى: بجر السلسلة على الصفوان.

رابعاً: فيه أن الملائكة يسجدون، ويبادرون بالسجود، عندما يسمعون كلام الله الذي دبره وقدره، ثم لا يزالون سجوداً إلى أن يزول الفزع عن قلوبهم، ثم بعد ذلك يتحدثون بما كان، وبما دبره الله، وبما قدره، أو سيقدره في الكون، ويتحدثون به، وبكيفية وقوعه.

خامساً: أن الشياطين يسترقون السمع من الملائكة، وأنهم يرتفعون إلى أن

يصلوا إلىٰ السماء، وذلك لخفة أجسامهم؛ فإنه ليس لهم ما للإنسان من الأجرام التي لايستطيعون معها الارتفاع، فالشياطين والجن أجسامهم خفيفة، أو أنهم أرواح ليس لها أجسام، فمن أجل ذلك يستطيعون أن يرتفعوا، كما أنهم يستطيعون أن يتخاطبوا فيما بينهم، ويسمع بعضهم بعضاً، ولو من بعيد.

سادساً: أن الذين يسترقون السمع يحدثون به أولياءهم من الإنس، والأولياء هم الكهنة أو السحرة، ولا شك أن الكاهن الذي تنزل عليه الشياطين لا تنزل عليه إلا بعدما يكون من أوليائها؛ ولهذا في بعض الروايات ذكر أنه: يقرقرها في أذن وليه من الإنس؛ أي: أن تلك الكلمة التي سمعها من السماء يحتفظ بها حتىٰ يقرقرها في أذن وليه؛ يعني: حتىٰ يخبر بها وليه.

وفي هذا دليل علىٰ أن الساحر أو الكاهن قد والىٰ الشياطين، وموالاة الشياطين معناها: أنه أطاعهم في معصية الله، وتقرب إليهم بما يحبون من سخط الله، ومن الخروج عن شريعته حتىٰ صار من أوليائهم، فإنهم لا يخدمون إلا من عصىٰ الله، وذلك لمحبتهم للعاصي وتقربهم إليه، وإغرائهم الناس ليكونوا من أوليائهم ومن جنودهم.

هكذا عادة الشياطين أنهم يحرصون علىٰ إغواء الناس، وإخراجهم من الدين، كما أخبر عن ذلك إبليس، بقوله: ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٣٩]، وبقوله: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ إلىٰ آخر الآيات، [الأعراف: ١٧].

وبعد أن عرفنا ذلك فلا ينبغي للمسلم أن يغتر بالكهنة، أو يغتر بكلامهم، فالكهنة يحدثون الناس بأشياء لم تقع، فتقع كما حدثوا، أو يخبرون بأشياء من الغيب، فلا يغتر بهم، بل يعرف أنهم بشر من جنسنا، قد كانوا معدومين فوجدوا، فهم مركبون مما ركبنا منه: من لحم ودم وعظم، وعصب وعروق وبشر

وشعر، ليس بينهم وبين الناس فرق، فكيف وصلوا إلىٰ معرفة أشياء لا نعرفها؟! وكيف وصلوا إلىٰ أنهم يحدثون عما في الضمير؟ أو يخبرون بمكان الضالة من بعيد؟ أو يخبرون بأن أشياء لم تقع فتقع كما قالوا؟

وما دام هذا ليس بوحي وليسوا بأنبياء فلابد أن هناك شيئاً تميزوا به ألا وهو استخدامهم للشياطين، فلا نغتر بهم ما دمنا قد عرفنا السبب، ولا نعد ذلك عجباً، ولانقدسهم، ولا نعظمهم، بل نحذر منهم فإنهم أولياء الشيطان، ولايكون المؤمن ولياً للشيطان.

بل هنك فرق بين المؤمنين وبينهم: فالمؤمنون أولياء الله، الذين لاخوف عليهم ولا هم يحزنون، وهؤلاء قد تخلوا عن ولاية الله، وأصبحوا من أولياء الشيطان.

وكثير من الناس إذا رأوا هذا الكاهن، أو هذه الكاهنة، ونحوهما، اعتقدوا أن عندهم معرفة، ويأتون إليهم من أماكن بعيدة، ويقدسونهم، ويعظمونهم، ويتقربون إليهم ويعطونهم ما يطلبونه.

ونحن نقول: هذا لا يجوز، بل حكم الشرع في الكاهن أنه يقتل، وكذلك في الساحر؛ وذلك لأنه كافر؛ فإنه عليه السلام قد كفَّر من صدق الساحر، أو الكاهن، فقد ثبت عنه أنه، قال: «**من أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد**»[(١)]، فإذا كان هذا حال من صدقه، فكيف بحاله هو.

كذلك أيضاً قد أمر ﷺ بقتل الساحر بقوله: «**حد الساحر ضربة بالسيف**»[(٢)].

---

(١) سبق تخريجه في هذا الباب.

(٢) سيأتي تخريجه مفصلاً في الباب الثالث والعشرون (باب ما جاء في السحر).

■ **قوله: [وعن النواس بن سمعان، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله تعالى أن يوحي بالأمر تكلم بالوحي، أخذت السموات منه رجفة ـ أو قال: رعدة ـ شديدة، خوفاً من الله عز وجل، فإذا سمع ذلك أهل السموات صُعقوا، وخروا لله سجداً، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل، فيكلمه الله من وحيه بما أراد، ثم يمر جبريل على الملائكة، كلما مر بسماء سأله ملائكتها: ماذا قال ربنا يا جبريل؟ فيقول: قال الحق، وهو العلي الكبير، فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل، فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله عز وجل»[(١)]:**

يخبر ﷺ في هذا الحديث بأن الله تعالىٰ إذا أراد الله أن يوحي وحياً إلىٰ نبي من الأنبياء، أو أحد الرسل، أو يحدث أمراً من الأمور في الأرض، أو نحو ذلك، فإنه يتكلم قبل ذلك بالوحي قبل أن يخبر به الملائكة ونحوهم، فإذا تكلم به ارتعدت وارتجفت السموات التي فيها الملائكة كما يشاء الله؛ وذلك من شدة وقع كلامه.

وقد تقدم أن كلامه يكون وقعه في سمع أولئك الذين يسمعونه كجر السلسلة علىٰ الصفوان، وذلك يدل علىٰ شدة وقع كلام الله، وعظمته، أو يدل علىٰ هيبة المخلوقات له، فإذا كانت المخلوقات حتىٰ الجمادات يظهر لها هذه

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسير ابن كثير» (٣/ ٥٣٧)، وابن جرير في «تفسيره» (٢٢/ ٦٣)، والأجري في «الشريعة» (٢٩٤)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٢٠٢)، والطبراني كما في «فتح الباري» (٨/ ٥٣٨)، وابن خزيمة في «التوحيد»، ص(١٤٤)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٥١٥).

قال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٩٥): رواه الطبراني عن شيخه، يحيىٰ بن عثمان بن صالح وقد وثقه، وتكلم فيه من لم يسم بغير قادح معين، وبقية رجال ثقات. أ. هـ. وضعفه الألباني في تخريجه للسنة (١/ ٢٢٧).

الرعدة الشديدة، وهذه الهيبة مع كونها جماداً، فبطريق الأولىٰ من هم مكلفون كالملائكة.

فالسموات ترتعد وترتجف من سماع كلام الله؛ والملائكة يبادرون بالسجود إذا سمعوا كلام الله، أو سمعوا ارتجاف السموات من سماع كلام الله تعالىٰ خوفاً من الله عز وجل، فيحدث لهم غشية، ثم مع الغشية سجود، أو أنهم يسجدون، ويغمىٰ عليهم، فيجمعون بين كونهم في عبادة، وبين كونهم في غاية الخوف من الله تعالىٰ؛ أي: أنهم يخافونه ويعظمونه أشد الخوف، وأشد التعظيم.

فإذا سجدوا ظلوا ساجدين إلىٰ أن يرفع رأسه أولهم؛ وهو جبريل الموكل بالوحي، الذي يكلمه الله من وحيه بما أراد أن يوحي به إلىٰ أنبيائه، أو رسله، أو إلىٰ ما دبره وقضاه، يكلمه الله لكونه الموكل لذلك.

فيسمع جبريل كلام الله، وهذا دليل علىٰ أن الله يتكلم بكلام مسموع، ويسمعه الملائكة، ويسمعه من يشاء الله تعالىٰ، وإن كان كلامه له من الشدة ما له، ولكن يُثبِّت الله الذين يريد أن يسمعهم، كما ثَبَّت موسىٰ لما سمع كلام الله عندما كلمه الله من جانب الطور، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ﴾ [مريم: ٥٢]، فأسمعه كلامه.

كذلك أيضاً جبريل عليه السلام يسمع كلام الله منه إليه، فإذا كلمه الله بالوحي الذي يريده، أو الأمر الذي يقدره، ويدبره، عند ذلك ينفذ أو يذهب جبريل لينفذ أمر الله الذي قدره عليه، فيمر بالملائكة، وكلما مر بملائكة في سماء، سألوه: ماذا قدر؟ وماذا أمر به ربنا؟ وماذا تكلم به؟ فيخبرهم بما تكلم به من ذلك الأمر، ويخبرهم بأنه تعالىٰ لا يتكلم إلا بالحق، ولا يقول إلا الحق وهو العلي الكبير.

وكلهم يرددون مثلما قال جبريل عليه السلام : ﴿قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]، وينتهي جبريل عليه السلام بالوحي إلىٰ حيث أمره الله عز وجل.

والشاهد أن هذا يدل علىٰ شدة خوف الملائكة من الله تعالىٰ فعلاً وقولاً.

فمن الفعل: أنهم متىٰ سمعوا كلام الله صعقوا، وخروا لله سجداً، فيجمعون بين كونهم يصعقون ويسجدون.

والصعق هو: الغشية، والسجود معروف، وذلك يدل علىٰ قوة معرفتهم بربهم، ويدل علىٰ شدة خوفهم من عذابه، وإن لم يصدر منهم ذنب، ولكن هيبة لله وتعظيماً.

ومن الفعل ـ أيضاً ـ: استمرارهم في السجود، وطول سجودهم عندما يسمعون كلام الله، أو عندما يسمعون ارتجاف السموات من شدة وقع كلام الله عليها.

أما القول: فترديدهم لهذه الكلمة: ﴿قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]، عندما يقولها جبريل ويسمعونها كلهم منه يقولون: ﴿قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣].

فهذا اعتراف منهم بأن الله لا يقول إلا الحق، واعتراف بأن الله تعالىٰ هو العلي الكبير، وهو العلي الأعلىٰ بجميع أنواع العلو، وهو الكبير الذي له الكبرياء، وله العظمة، فيقولون، ويعتقدون، ويخافون الله أشد الخوف.

هذا هو تعظيم الملائكة لله تعالىٰ، وهذه هيبتهم، وهذه شدة خوفهم من الله، فإذا كانت هذه حالتهم عرف أنهم عباد مخلوقون، وأنهم يخافون الله، ويعظمونه أشد التعظيم، فإذا كانوا كذلك فإنه لا يصلح أن يُعبدوا مع الله، وإذا

كانت هذه هيبتهم لله تعالىٰ فكيف يُدعون مع الله؟

هذا هو القصد من ذكرهم هاهنا؛ وهو بيان أنهم ولو كانوا كما ذكر من أنهم ملائكة مقربون، فإنهم يخافون الله تعالىٰ؛ حيث أن الله تعالىٰ سماهم مقربين، كما في قوله: ﴿وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢]؛ يعني: أنهم مقربون عند الله بأنواع القرب، ومع ذلك يعظمون الله تعالىٰ هذا التعظيم، ويخافون منه هذا الخوف.

وكذلك وصفهم بما يدل علىٰ فضلهم علىٰ غيرهم، كما في قوله تعالىٰ: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ (٢٦) لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨) وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٩].

ووصفهم بأنهم: ﴿لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ (١٩) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩، ٢٠].

ووصفهم بأنهم: ﴿لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [[التحريم: ٦].

ووصفهم بأنهم: ﴿لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ [الاعراف: ٢٠٦].

فهذه أوصاف الملائكة، وهذه حالتهم، وهذا مع شدة خوفهم من الله، فإذا كانوا بهذه المثابة؛ يخافون الله أشد الخوف، ويعظمونه أشد التعظيم، وبهذا الوصف بطلت دعوتهم وعبادتهم مع الله، أو من دونه، فهم عباد لا يخرجون عما وصفهم الله به، من أنهم عباد مكرمون، فكيف يدعىٰ، وكيف يعبد من هذا خوفه، وهذه شدة تعظيمه؟ ألا تكون العبادة والتعظيم لذلك المعبود الذي يعظمونه هم، ويعبدونه؟ بلىٰ.

وإذا كان المرء يريد أن يعبد، أو يريد أن يعظم، فليعظم من عظموه، ولا يعظمهم، فإنهم مخلوقون يخافون الله، ويهابونه أشد الهيبة، وهم مع ذلك وفي هذه الحال من قربهم من الله وفضلهم لا يصلح أن يُدْعَو مع الله تعالىٰ.

وقد عبد بعض الناس الملائكة، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾؛ أي: ما أمرناهم بعبادتنا، ولا شعرنا بعبادتهم: ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١]؛ فنحن في شغل عنهم، فإننا مشتغلون بأنفسنا، ولم نأمرهم بعبادتنا.

وإذا بطلت عبادة الملائكة مع فضلهم وقربهم، فبطريق الأولىٰ بطلان عبادة من سواهم، فكل من سوىٰ الله تعالىٰ لا يصلح له شيء من حق الله المتمثل في العبادة والتعظيم، فالعبادة حقه فلا يعبد غيره، لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل.

● **فيظهر من هذا الحديث:**

أولاً: أن الله تعالىٰ يتكلم، والكلام صفة من صفاته تعالىٰ، وليس كلامه مخلوقاً كما يزعم أهل الباطل، لهذا قال في هذا الحديث: «**تكلم بالوحي**».

ثانياً: أن كلام الله مسموع ومعقول يسمعه جبريل منه، ويعقله، ويبلغه.

ثالثاً: أن كلام الله قول، ولهذا يقولون: ماذا قال ربنا؟ قال: الحق وهو العلي الكبير، فأطلق علىٰ كلام الله قولاً.

والقول اسم للكلام الذي هو مفهوم، وإن كنا لا نتصور كيفية كلام الله، ولا نشبه كلامه بكلام البشر كسائر صفاته العلا، بل إنه يتكلم كما يشاء.

رابعاً: أن المخلوقات ولو كانت جمادات قد يخلق الله فيها إحساساً؛

فالسموات مع كونها جماداً تهاب الله، وتخشاه، وترتعد، وترتجف لهيبته، كما في هذا الحديث: «**أن السموات ترتجف إذا تكلم الله أو ترتعد**».

وإذا كانت الجمادات من المخلوقات تهاب الله وتخشاه، فكيف لا يخافه ولا يخشاه من رزقه الله حياة، ومن أعطاه فهماً وعقلاً؟ إنه بطريق الأولىٰ يجب أن يكون ارتجافه، وخوفه، وشدة وجله أعظم من هذه المخلوقات التي هي جماد.

والله تعالىٰ قادر علىٰ أن يجعل في الجماد معرفة وإحساساً، وقد أخبر الله بأن كثيراً من الجمادات تسجد له، قال تعالىٰ: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ**﴾ [الحج: ١٨]، فأخبر بأن هذه الأشياء تسجد له.

وقال تعالىٰ: ﴿**وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (٤٩) يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**﴾ [النحل: ٤٩، ٥٠]، فأخبر بأنها تسجد كلها لله تعالىٰ وتعظمه، فكذلك هذه المخلوقات التي هي جماد أيضاً تهاب الله.

وكل ذلك دليل علىٰ عظمه الله التي في قلوب العارفين به؛ فالذي يخاف الله، ويعرفه حق المعرفة عليه أن يعبده، ويعظمه حق التعظيم، والله تعالىٰ أعلم.

■ ■ ■ ■ ■

[١٦]

باب:
الشفـــاعة

وقول الله عز وجل: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٥١].

وقوله: ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤].

وقوله: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقوله: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ﴾ [النجم: ٢٦].

وقوله: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ (٢٢) وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣].

قال أبو العباس: نفى الله عما سواه كل ما يتعلق به المشركون، فنفى أن يكون لغيره ملك أو قسطٌ منه، أو يكون عوناً لله، ولم يبق إلا الشفاعة، فبيَّن أنها لا تنفع إلا لمن أذن له الرب، كما قال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

فهذه الشفاعة التي يظنها المشركون هي: منتفية يوم القيامة، كما نفاها القرآن.

وأخبر النبي ﷺ: أنه يأتي فيسجد لربه ويحمده»، لا يبدأ بالشفاعة أولاً، ثم يقال له: «ارفع رأسك، وقل يسمع، وسل تعط، واشفع تشفع».

وقال له أبو هريرة: من أسعد الناس بشفاعتك؟ قال: من قال: لا إله إلا الله خالصاً من قبله»، فتلك الشفاعة لأهل الإخلاص بإذن الله، ولا تكون لمن أشرك بالله.

وحقيقته: أن الله سبحانه وتعالى هو الذي يتفضل على أهل الإخلاص، فيغفر لهم بواسطة دعاء من أَذِنَ له أن يشفع؛ ليكرمه وينال المقام المحمود.

فالشفاعة التي نفاها القرآن: ما كان فيها شرك، ولهذا أثبت الشفاعة بإذنه في مواضع، وقد بين النبي ﷺ أنها لا تكون إلا لأهل التوحيد والإخلاص. انتهى كلامه].

■ ■ ■ ■ ■

• فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآيات .

الثانية: صفة الشفاعة المنفية .

الثالثة: صفة الشفاعة المثبتة .

الرابعة: ذكر الشفاعة الكبرىٰ ، وهم المقام المحمود .

الخامسة: صفة ما يفعله ﷺ أنه لا يبدأ بالشفاعة ؛ بل يسجد ، فإذا أذن له شفع .

السادسة: من أسعدُ الناس بها .

السابعة: أنها لا تكون لمن أشرك بالله .

الثامنة: بيان حقيقتها .

■ ■ ■ ■ ■

●● الشرح ●●

باب:
الشفـــاعة

معرفة الشفاعة لها أهمية كبرىٰ، وأهمية عظيمة، وكذلك معرفة ما يثبت منها وما لا يثبت.

والشفاعة مشتقة من الشفع، والشفع: هو الزوج من الأعداد.

والشفع والوتر مذكوران في قوله تعالىٰ: ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ [الفجر: ٣].

فالوتر: هو الواحد، والثلاثة، والخمسة، والسبعة، والتسعة، وهكذا.

والشفع: اثنان، أربعة، ستة، ثمانية، عشرة، وهكذا، هذا أصل الشفع.

وسمي الشفيع شفيعاً؛ لأنه ينضم إلىٰ المشفوع له فيصير به شفعاً بعد أن كان واحداً.

والشفاعة عند العرب بمعنى: الوساطة بين اثنين، فالمتوسط بين اثنين يسمىٰ شفيعاً، ولا يكون إلا شافعاً إلىٰ من هو فوقه، فيكون الشافع فوق المشفوع له، ودون المشفوع عنده.

والمشفوع له: هو صاحب الحاجة، وهو الذي لا يقدر علىٰ قضاء حاجته عند ملك، أو عند أمير، أو عند وزير، فيأتي إلىٰ واحد من الناس دون ذلك الملك، أو الوزير، ولكنه أرفع من صاحب الحاجة، ويقول له: اشفع لي عند فلان؛ عند هذا الأمير، أو الوزير، أو نحوه، فيشفع له، فكأن صاحب الحاجة أصبح اثنين بعد أن أصبح هذا الشفيع منضماً له، فبعد أن كان واحداً فرداً أصبح شفعاً، فهذا

هذا الشفيع منضماً له، فبعد أن كان واحداً فرداً أصبح شفعاً، فهذا سبب تسميتها شفاعة.

وقد جاء الأمر بالشفاعة لذوي الحاجات، فكان النبي ﷺ يقول: «**اشفعوا تؤجروا، ويقضي الله على لسان نبيه ما شاء**»(١)، فإذا جاءه صاحب حاجة يأمر أصحابه أن يشفعوا له حتىٰ يحصلوا علىٰ أجر؛ بمعنىٰ: أنهم يقومون لصاحب الحاجة ويساعدونه في قضاء حاجته حتىٰ يحصلوا علىٰ أجر.

وإن كان النبي ﷺ لا يعوق أحداً، ولا يحجب عن بابه أحداً، بل الكبير والصغير كلهم بالنسبة إليه سواء، ولذلك لم يكونوا بحاجة، لكنه مع ذلك يحثهم علىٰ هذه الشفاعة ليعلمهم الشفاعة عنده وعند غيره حتىٰ يحصلوا علىٰ أجر.

وعليه طبقوا الآية الكريمة في سورة النساء، وهي قوله تعالىٰ: ﴿**مَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا**﴾ [النساء: ٨٥].

فالشفاعة الحسنة: هي نصرة المظلوم.

والشفاعة السيئة: هي نصرة الظالم.

فإذا كان هناك إنسان مظلوم؛ أو محبوس ظلماً، أو مطالب بمال وهو مظلوم، أو مطالب بأخذ ملك من أملاكه ظلماً، أو بتطليق زوجته ظلماً، أو بإعتاق عبده ظلماً، أو بأخذ شيء من استحقاقاته ظلماً، ثم أتيت فشفعت له عند ذلك الظالم، وبينت أنه بريء من التهم الموجهة إليه، وما أشبه ذلك، وأنت

(١) أخرجه البخاري برقم (١٤٣٢)، ومسلم برقم (٢٦٢٧)، عن أبي موسىٰ رضي الله عنه.

صادق محق عارف بأنك لم تتجاوز، ولم تقل إلا حقاً؛ فإن هذه شفاعة حسنة، فيكون لك أجر، كما قال ﷺ: «**اشفعوا تؤجروا**»[1]. وعليه تطبق الآية الكريمة: ﴿**مَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا**﴾ [النساء: ٨٥].

أما إذا كان الشافع يعرف أن المشفوع له ظالم، وقد حبس، وأتى الشافع لتخليصه، أو عرف أنه متهم بأخذ أموال بغير حق، وأتى يشفع لنصره، فإنه بذلك يكون شريكاً له في إثمه، وإذا خُلِّص بشفاعته كان عليه إثم ونصيب من ذنبه، وأصبح شريكاً له، بقوله ﷺ: «**لعن الله من آوى محدثاً**»[2]؛ أي: شفع له، أو نصره.

والمحدث هو: العاصي، وهو: الظالم، فإذا ظلم إنسان إنساناً، أو أخذ مالاً بغير حق، أو ضرب إنساناً بغير وجه حق، فقبض عليه مثلاً للاقتصاص منه، ثم وقف أحد بجواره يسانده ويساعده، فإنه بذلك يكون قد شفع شفاعة سيئة، ويكون عليه كفل من هذا الذنب، وهذا الإثم، وبذلك يدخل في حديث: «**لعن الله من آوى محدثاً**»، ويدخل أيضاً في هذ الآية: ﴿**مَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا**﴾ [النساء: ٨٥]، والكفل: هو النصيب والجزء؛ أي: عليه جزء من ذلك الذنب.

فالحاصل أن الشفاعة عند الأمراء ونحوهم جائزة، وفيها أجر؛ وذلك لما فيها من قضاء حاجة هذا المسكين ونحوه؛ وذلك لأن هؤلاء الأمراء ونحوهم لا يعرفون كل واحد، ولا يعرفون صدق كل صادق؛ فيقع منهم نوع من التقصير

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري برقم (١٤٣٢)، ومسلم برقم (٢٦٢٧).

(٢) أخرجه مسلم برقم (١٩٧٨)، وقد سبق تخريجه وشرحه في الباب التاسع: (**باب ما جاء في الذبح لغير الله**).

والخطأ حتى ينبههم غيرهم، فإذا أتى إليهم من يثقون فيه يشفع، ويعرفون نصحه لهم، وصدقه ومحبته لهم، قبلوا شفاعته لأمرين:

● **الأمر الأول**: ثقتهم بكلامه وبنصحه، ومعرفتهم صدقه، وعدم تدخله فيما ليس بصحيح.

● **والأمر الثاني**: أنهم يحبونه، ويحبون بقاءه، وإذا لم يقبلوا شفاعته أو شك أن ينفصل عنهم، ولا يشفع عندهم مرة ثانية.

والناس في الشفاعة: ثلاثة أقسام: طرفان ووسط:

فمنهم: من نفاها كليّاً، وقال: ليس هناك شفاعة.

ومنهم: من أثبتها مطلقاً.

ومنهم: من توسط وأثبتها بشروط وبحدود.

القسم الأول: الذين نفوا الشافعة كليّاً:

وهم الخوارج والمعتزلة الذين يخلدون أصحاب الكبائر في النار، فعندهم أن من مات على كبيرة مصرّاً عليها فإنه في النار، ولا يُخْرَجُ منها، ويستدلون بقوله تعالى: ﴿**يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا**﴾ [المائدة: ٣٧]، وبقوله: ﴿**كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا**﴾ [السجدة: ٢٠]، وبقوله: ﴿**كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا**﴾ [الحج: ٢٢]، وبقوله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ**﴾ [البقرة: ٢٥٤].

فيقولون: ليس هناك شفاعة، فما دام أنهم دخلوا النار، فلا خروج منها أبداً، هذه عقيدتهم.

والجواب على هذا: أن المراد بقوله: ﴿**مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا**

شَفَاعَةٌ﴾، أي: لا شفاعة مملوكة؛ أي: لا يملك أحد الشفاعة بنفسه، ولا يستطيع أحد أن يشفع بدون إذن من الله عز وجل، فذلك يوم: ﴿لاَّ بَيْعٌ فِيهِ﴾، أي: ليس فيه فداء يفدي الإنسان به نفسه من العذاب: ﴿وَلا خُلَّةٌ﴾، والخلة: هي الصداقة والمحبة؛ أي: لا ينفع أحد خليله وصديقه؛ بل يكون الأخلاء متعادين، إلا أهل البر والتقوىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]، فلا تنفع خلة خليل، ولا صداقة صديق، ولا قرابة قريب، بل كل يهتم بنفسه: ﴿يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (١١) وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ...﴾ الآيات [المعارج: ١١، ١٢].

ثم قال: ﴿وَلا شَفَاعَةٌ﴾، أي: وكذلك ليس فيه شفاعة يملكها الشافع، ويقدر أن يشفع كما يريد.

ومن الآيات التي تعلقوا بها قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ (١٨) يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٨، ١٩]، وهذه الآية في سورة المؤمن (غافر) مصرح فيها بأنها منفية عن الكافرين؛ أي: إن الكافرين لا تقبل فيهم شفاعة ولا تنفعهم؛ لأن الشفاعة إنما هي لأهل التوحيد، فأما الكفار والظالمون ونحوهم فلا تنفعهم؛ وذلك لأنهم حرموا منها بسبب أعمالهم السيئة.

وقد ذكر الله أن الشفاعة لا تنفع الكفار والظالمون بقوله تعالىٰ في ذكر أهل النار: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦) حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ (٤٧) فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٢-٤٨]؛ يعني: هؤلاء الذين هذه حالهم لا تنفعهم، فلو شفع فيهم شافع لم تقبل، كما أنه لا يشفع أحد فيهم، إنما يشفع الشافع فيمن حُدَّ له، كما سيأتي.

فالحاصل أن الظالمين والكافرين ليس لهم شفيع في الآخرة، فتبين أنه لا دلالة في هذه الآية على نفي الشفاعة؛ لأن الشفاعة للمؤمنين لا للكافرين.

* فالذين لا يصلون يقولون يوم القيامة: ﴿لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾، فبالتالي لا تنفعهم الشفاعة.

* والذين لا يزكون كذلك أيضاً: ﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ﴾؛ يعني: يمنعون زكاة أموالهم الواجبة، فهؤلاء أيضاً لا تنفعهم شفاعة الشافعين إذا جحدوا وجوبها.

* وكذلك الذين ضيعوا أوقاتهم، وأضاعوها في اللهو والهوى، والخوض في الباطل: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾، إنما يخوضون مع الناس فيما يخوضون فيه من غير أن يهتموا بآخرتهم، وقضوا حياتهم الدنيا في هذا الخوض.

* وكذلك الذين يكذبون بالبعث، وبالحساب، وبالجزاء في الآخرة: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ هؤلاء لا تنفعهم شفاعة الشافعين.

ومن الأدلة التي يستدلون بها على ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٤٧، ٤٨].

فمعنى قوله: ﴿وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾، وفي الآية الأخرى: ﴿وَلا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ﴾ [البقرة: ١٢٣]، أن هذا نفي مطلق، ولكنه مقيد بالشفاعة التي بدون إذن الله، وبدون رضاه، فلا دلالة في هذه الآية أيضاً على أنه ليس هناك شفاعة بإذن

الله، إنما فيها نفي الشفاعة التي تنفع مطلقاً؛ أي: الشفاعة المطلقة؛ لأن الشفاعة المثبتة شفاعة مقيدة بشروط.

فالحاصل أن المعتزلة والخوارج أنكروا أن يكون هناك شفاعة، واستدلوا بهذه الآيات التي فيها نفي الشفاعة، وأعرضوا عن الآيات الصريحة التي فيها إثبات الشفاعة بإذن الله، وأعرضوا أيضاً عن الأحاديث الصحيحة التي فيها شفاعة الرسول ﷺ بإذن الله، وكذلك شفاعة غيره من الأنبياء.

القسم الثاني: الذين أثبتوا الشفاعة مطلقاً:

وهم المشركون؛ فالمشركون الأولون والمشركون الآخرون يزعمون أن أولياءهم تشفع لهم بدون إذن الله، ويزعمون أن آلهتهم يشفعون لهم، وكذلك المشركون المتأخرون يثبتون الشفاعة للأولياء، وللسادة، وللصوفية، ولأكابرهم، وللأنبياء بدون إذن الله، ويحملهم هذا الاعتقاد السيء على أن يطلبوها من غير الله، فترى أحدهم يقول: يامحمد اشفع لي، أو ياعبد القادر اشفع لنا، أو يا يوسف، أو يا بدوي نسألك أن تشفع لنا، وما أشبه ذلك.

وهذه عقيدة المشركين الأولين، فالأولون الذين يعبدون عيسى وأمه، وعزيزاً، ويعبدون اللات والعزى، ويعبدون وداً وسواعاً ويغوث ويعوق ونسراً؛ لا يطلبون منهم إلا الشفاعة، وقد حكى الله ذلك عنهم في قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]؛ أي: نعبدهم ونطلب منهم الشفاعة، ليشفعوا لنا في طلب الرزق، والنصر على الأعداء، ، والتوسعة، وشفاء مرضانا، وفي رد الغائبين، وما أشبه ذلك؛ هذا زعمهم، وهذه عقيدتهم.

وجاء بعدهم المشركون القبوريون الذين تعلقوا بالقبور، واعتقدوا هذا الاعتقاد السيء، وظنوا أن هذا جائز، وأن الاعتقاد ينفع في هؤلاء الذين يسمونهم أولياء، وقد رفعوا قبورهم، وبنوا عليها قباباً، وبنايات، وصاروا يقصدونهم من أجل هذه الشفاعة، ، ويعبدونهم ثم يدعونهم في المساجد، ويدعونهم في الحرمين، ويدعونهم عند أضرحتهم، ويطلبون منهم الشفاعة.

ويضربون مثلاً بملوك الدنيا ولله المثل الأعلى، فيقولون: هؤلاء مقربون عند الله، ونحن محبوبون، ونحن نطلب منهم، وهم يطلبون من الله؛ كما أنك تطلب من وزير الملك ليطلب لك الوزير من الملك نفسه؛ هكذا يقولون، وهذا اعتقاد سيء؛ وذلك أنهم جعلوا الله تعالى بمنزلة البشر من ملوك الدنيا ووزرائهم.

ولا شك أن الأمراء ونحوهم بشر مخلوقون بمنزلة غيرهم لا يعلمون الغيب، ولا يعلمون الصادق من الكاذب، فإذا أتيتهم أنت وهم لايعرفونك، وقلت: إني محق، وإني مظلوم، فكيف يعرف أنك صادق أو كاذب؟! ليس هناك أمارات في وجهك، ولا في كلامك، تدل على صدقك وأمانتك؛ لذا فهم بحاجة إلى أن يسألواعنك، وأن يتثبتوا ممن يعرفونك، فإذا أتيتهم بمن يعرفونك، وبينوا لهم قبلوا منه لثقتهم بالذي أخبرهم وعرفهم بك وشرح لهم حالتك، وحاجتهم إلى هذا الشافع، فهم لا يودون أن يطردوه، أو يمنعوه من الشفاعة لكونه معروفاً دائماً بنصحهم وخدمتهم، فلا يخبرهم بشيء ولا يطلب منهم شيئاً إلا وهو صادق، فتقبل شفاعته لذلك السبب.

ولهذا يقول الله تعالى: ﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ﴾

[يونس: ١٨]، أي: هل الله تعالىٰ يخفىٰ عليه شيء من أحوالكم حتىٰ يخبره أولئك السادة علىٰ حد زعمكم، وحتىٰ يطلبوا منه؟ فالله أعلم بكم وبسرائركم، ويعلم السر وأخفىٰ، ويعلم الجهر وما يخفىٰ، لا تخفىٰ عليه خافية من أحوالكم، ولا من أقوالكم، فهو أعلم بكم من هذا السيد أو هذا الولي الذي أنتم تطلبون منه، وتستشفعون به.

فلا يصح أن تطلب من هذا الولي؛ لأنه قد مات وانقطع عمله، ولأنه مخلوق مثلكم، ولأنه لا يعلم من أموركم شيئاً، ولا يعلم الغيب، ولا يطلع علىٰ ما في الضمير، ولا يعلم صلاحكم، ولا فسادكم، ولا غير ذلك.

ثم هو - أيضاً - في عالم البرزخ مشغول بنفسه عنكم، لا اهتمام له بحالكم، ولا يسمع كلامكم، كما يقول الله تعالىٰ: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، أي: لا يستجيب له إذا دعاه، ولو دعاه إلىٰ يوم القيامة، ﴿وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾، ثم قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٤-٦]، ففي يوم القيامة يصرحون لهم بالعداوة، وينكرون عبادتهم، ويقولون: ﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ [يونس: ٢٨، ٢٩]؛ فأنتم تطلبون منا أن نطلب لكم، أو أن نشفع لكم، ونحن مشغولون بأنفسنا؛ وذلك لأنهم في عالم البرزخ، كل مشغول بنفسه مهتم بها.

كما أن المشركين يعتقدون أن طلبهم من غير الله تعظيم لله؛ فيقولون: من

تعظيم الله ألا تطلب من الله، إنما اطلب منه بواسطة، فاجعل بينك وبين الله واسطة، وليكن هذا الولي، أو هذا العبد الصالح من عباد الله، فيقولون مثلاً: ياحسين توسط لنا عند ربك، أو اطلب لنا أن يعفو عنا، أو يتوب علينا، وكذلك ياعلي، أو ياعيدروس، أو يا فلان اشفع لنا إلى ربك ليغفر لنا، أو ليرزقنا، ويقولون: هذا دون الله تعالى مثل البشر يحتاج إلى قبول شفاعة إنسان مثله لثقته به.

وهذا في الحقيقة ليس كما يقولون، فهم يزعمون أنه تعظيم، وهو في الحقيقة تنقص لله؛ حيث إن الله أعلم بأقوالهم، وبأفعالهم، وبسرائرهم، وبضمائرهم من غيره من الأنبياء والصالحين ﴿أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ﴾ [يونس: ١٨]؛ أي: هل ستخبرون الله بشيء يخفى عليه؟! أليس الله أعلم بسرهم ونجواهم؟! أليس الله يعلم الجهر وما يخفى، ويعلم السر وأخفى من السر؟!

إذاً الأولياء الصالحون، ومن قبلهم الملائكة والأنبياء لا يملكون الشفاعة أبداً، وإنما الشافعة ملك لله؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلا يَعْقِلُونَ (٤٣) قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٣، ٤٤]، يعني: ملك الله تعالى وحقه.

شبهة:

قد يقولون: إن الله تعالى أعطى لهم الشفاعة، وشفعه وجعله هو الشفيع والمشفع، فإذا كان قد أعطاه الشفاعة فإننا نطلب منه شيئاً أعطاه الله إياه.

والجواب: أن الله أعطاه، ولكنه لم يعطه شفاعة مطلقة، وذلك:

أولاً: أنه لا يشفع إلا بعد أن يأذن له ويرضى منه أن يشفع.

ثانيــاً: أنه لا يشفع في كل أحد، إنما يشفع في أناس قد خصصوا، وهم الموحدون المتقون الذين لم يشركوا بالله، ولم يعبدوا معه غيره.

فأنتم إذا دعوتم الرسول، أو دعوتم الولي فقد صرتم مشركين بهذا الدعاء، ولو لم تطلبوا منهم إلا الشفاعة، فحينئذ المشرك لا تنفعه الشفاعة، لكونه ليس ممن حققوا التوحيد.

فبذلك تبين أن تعلق المشركين بالشفعاء، وقولهم: **﴿هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾** [يونس: ١٨]، قول باطل، وأن حقيقة الشفاعة هي أن الله تعالىٰ يأذن لبعض أنبيائه، وبعض عباده الصالحين تفضلاً منه، فيكرم الولي ويرفع مقامه بقبول شفاعته، ويكرم المذنب فيغفر له ذنبه بقبول الشفاعة فيه، ولكنه لا يشفع فيمن لا يستحق الشفاعة.

القسم الثالث: الذين توسطوا في الشفاعة:

وهم أهل السنة والجماعة، فإنهم أثبتوا الشفاعة، ولكن بشرطين وهما:

١ـ الإذن للشافع أن يشفع.

٢ـ والرضا عن المشفوع فيه.

وقد دل علىٰ الشرطين، قول الله تعالىٰ **﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾** [النجم: ٢٦]؛ أي: بعد الإذن للملائكة، أو الأنبياء أن يشفعوا، وبعد الرضا عن المذنبين أن تعمهم الشفاعة، ويرضىٰ الله عنهم، والله لا يرضىٰ لعباده الكفر.

وقال تعالىٰ **﴿يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً﴾** [طه:

١٠٩]؛ أي: لا يشفع أحد من الأولياء أو الصالحين إلا من أذن له الرحمن في الشفاعة، ولا يشفعون إلا لمن رضي له قولاً.

والأدلة على ذكر هذين الشرطين كثيرة، وقد تضمن كلام شيخ الإسلام الذي ساقه المؤلف حقيقة الشفاعة التي يقول بها أهل السنة، وقولهم هو القول الوسط في الشفاعة، والله أعلم.

وفي هذا الباب أورد المصنف رحمه الله خمس آيات، ثم نقل كلام شيخ الإسلام ابن تيمة رحمه الله حول الشفاعة:

■ **الآية الأولى: قوله: [وقول الله عز وجل: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾** [الأنعام: ٥١]]:

هذه الآية من الآيات التي استدّل بها نفاة الشفاعة كالمعتزلة، ولكنها مقيدة بملكية الشفاعة؛ أي: أنذر بهذا القرآن، وخوف به المؤمنين الذين يخشون ربهم، ويؤمنون بالبعث، والحشر، والحساب، والجزاء، ويعلمون أنهم إذا حشروا يوم القيامة فليس هناك أحد يملك الشفاعة لهم بدون إذن الله؛ بل لا شفاعة إلا بعد إذن الله: **﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ﴾**؛ أي: ليس لهم غير الله ولي يتولى أمورهم، ولا شفيع يشفع لهم باختيارهم، على حد قوله تعالى حكاية عنهم: **﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾** [الشعراء: ١٠٠، ١٠١]، وقوله تعالى: **﴿وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ﴾** [البقرة: ١٢٣]، ونحو ذلك.

■ **أما الآية الثانية: قوله: [وقوله: ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾** [الزمر: ٤٤]]:

في هذه الآية حصل نفي الشفاعة، ولكن المراد الشفاعة الشركية؛ أي: الشفاعة التي يزعمها المشركون، فأول الآية قوله تعالى في سورة الزمر: **﴿أَمِ**

اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ﴾ [الزمر:٤٣]، أم اتخذ المشركون آلهة يزعمون أنهم يشفعون لهم من دون الله، كما قال عنهم: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس:١٨]، فهكذا قال هنا: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ﴾؛ أي: يزعمون أن شفاعتهم تنفعهم ﴿قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر:٤٣، ٤٤]، أتتخذونهم شفعاء وهم لا يملكون شيئاً؟! فإن ملكية الشفاعة لله، وملكية الأمر كله لله، وإنما يشفع من يُمَلِّكُهَا إياه، ولا يشفع أحد إلا بعد أن يأذن الله له.

■ أما الآية الثالثة: قوله: [وقوله: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]]:

في هذه الآية نفي الشفاعة لمن لم يأذن له الله، وإثباتها لمن أذن له، وإذن الله للشافع شرط من شروط الشفاعة المثبتة؛ أي: لا أحد يشفع عنده، إلا بإذنه.

■ أما الآية الرابعة: قوله: [وقوله: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم: ٢٦]]:

قوله: ﴿كَم﴾ هنا للتكثير؛ أي: وكثير من الملائكة في السموات مقربون عند الله، وعابدون، ومطيعون له، ومع ذلك لا تغني شفاعتهم شيئاً إذا شفعوا لأحد، لا تغني مع أنهم لا يشفعون، ولا يتجرءون أن يشفعوا إلا بعد إذن الله، وبعد رضاه: ﴿إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾.

وهذه الآية جمعت الشرطين؛ أي: أن الشفاعة المثبتة لابد فيها من شرطين:

الشرط الأول: الرضا عن المشفوع له.

والشرط الثاني: الإذن للشافع.

فالشرط الأولى: وهو الرضا عن المشفوع: فالله تعالى لا يرضى إلا عن الموحدين، ولا يرضى إلا عن المخلصين لله تعالى حقيقة الإخلاص، أما أهل الشرك والكفر فلا يرضى عنهم، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿**إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ**﴾ [الزمر: ٧].

فإذا كان الله لا يرضى الكفر فإنه لا يرضى عن الكافرين، ولا يرضى أن يشفع فيهم أحداً، ولا يأذن في الشفاعة لهم، فمن أراد أن تحصل له الشفاعة فليأت بهذا الشرط؛ ألا وهو تحقيق التوحيد.

أما الشرط الثاني: وهو الإذن للشافع: فالأنبياء، والملائكة، والرسل، والصالحون، ونحوهم، لا أحد يشفع منهم عند الله إلا بعد أن يأذن له، فيقول له: اشفع، أو: أذنت لك أن تشفع في كذا وكذا.

فالشفاعة المثبتة تحصل للشافع تكرمه له، ورفعاً لمقامه، وإعطاءً له المقام المحمود، وتحصل رحمة للمشفوع له، ونعمة عليه، حيث شفّع فيه أنبياءه، أو رسله، أو عباده الصالحين، وقبل فيه الشفاعة. فهي رفعة لمقام النبي، ورحمة، ومغفرة، وجود، وكرم على ذلك العبد المذنب.

■ **أما الآية الخامسة: قوله:** [وقوله: ﴿**قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ (٢٢) وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ**﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣]]:

يقول شيخ الإسلام وابن القيم وغيرهما في هذه الآية: (أنها قطعت عروق الشرك، وقطعت جذوره من أصلها).

وذلك أن المشرك بين عدة أمور:

الأمر الأول: أن يزعم أن معبوده الذي يعبده له ملك مستقل بشيء في

السموات، أو في الأرض، فيقول: إن معبودي يملك هذا الشيء ملكاً استقلالياً، فنفىٰ الله ذلك بقوله: ﴿لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾.

فإذا لم يملكوا مثقال ذرة ملك استقلال، فكيف بغيره؟!؛ أي: فلا يملكون غيره بطريق الأولىٰ.

الأمر الثاني: أن يدّعوا أنهم شركاء في ذلك الملك، إذا لم يقولوا: هذا مملوك لهم ملك استقلال، فقد يقول قائل منهم: ليس مملوكاً لهم، ولكنهم شركاء، فنفي الله ذلك بقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾؛ يعني: شركة؛ أي: ليسوا شركاء لله حتىٰ في مثقال ذرة، فكيف بغيره؟!

الأمر الثالث: قد يقولون: نسلم أنهم لا يملكون ملكاً استقلالياً، ولا أنهم شركاء في ملك شيء، لكن قد يقولون: إنهم مساعدون لله، ومعينون له، فنفىٰ ذلك بقوله: ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾؛ أي: من معين ومساعد ومقوٍ؛ أي: ليسوا مساعدين لله في خلق السموات، ولا في تصريف الملك وتدبيره.

الأمر الرابع: أنه لما نفىٰ الملك، ونفىٰ الشركة، ونفىٰ الإعانة، بقي شيء رابع قد يتعلقون به، وهو الشفاعة، فنفىٰ ذلك بقوله: ﴿وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾، أي: لا تنفع شفاعة أحد عند الله إلا لمن أذن الله له، مع أنهم في ذلك اليوم لا يتجرءون أن يشفعوا، ولا يتجرأ أحد منهم أن يشفع بدون إذن الله، بل كل منهم يخاف علىٰ نفسه، حتىٰ إن الأنبياء في حديث الشفاعة وأولو العزم يقول كل منهم: نفسي نفسي.

وأخبر النبي ﷺ في حديث طويل أنهم في يوم القيامة كل منهم يقول: «**اللهم سلم سلم**»، حيث قال في ذلك الحديث: «**ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل، ودعوى**

الرسل يومئذ اللهم سلم سلم»[١]؛ فإذا كانت هذه حالهم فكيف يتجرأ أحد منهم أن يشفع عند الله تعالىٰ بدون إذنه فضلاً عن غيرهم؟!

ولكن الله تعالىٰ من كرمه ورحمته بعباده يأذن لعباده بالشفاعة، فيأذن للنبي ﷺ أو لغيره من الأنبياء، ويقول لهم: «**اشفعوا في كذا، أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان**»؛ أي: من أهل لا إله إلا الله، الموحدين، وأخرجوا من النار من كانت هذه صفته، ويخبر النبي ﷺ أنهم يعرفونهم، وهم في النار، وقد احترقوا إلا آثار السجود، يقول: «**وحرم الله على النار أن تأكل من بني آدم أثر السجود**»[٢]

وهذا يدل علىٰ أنهم موحدون، وأنهم يصلون، حيث ظهرت آثار السجود في أعضائهم؛ أي: مواضع السجود التي لا تأكلها النار، فتبين بذلك أن الشفاعة إنما تنفع أهل التوحيد، وحينئذ فالذي يريد الشفاعة فليطلبها من مالكها الحقيقي: ﴿**قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا**﴾ [الزمر: ٤٤]، وذلك بأن يأتي بسببها الأكيد الأصيل، وهو تحقيق التوحيد والإيمان والعمل الصالح، وأن يطلبها من الله مباشرة، وليقل: اللهم شفع في نبيك، أو اللهم ارزقني شفاعته، اللهم اجعلني مما تناله شفاعة الشافعين، أو ما أشبه ذلك، فبذلك يكون العبد مستحقاً لهذه الشفاعة.

وأما إذا طلبها من غير الله، ولو من الرسول، أو الملائكة المقربين، كأن يقول: يامحمد اشفع لي، أو كن لي شفيعاً، أو أسألك يامحمد أو: يا نبي الله، أو: يا فلان أن تشفع لي، أو تأخذ بيدي، أو ما أشبه ذلك فإن هذا شرك؛ لكونه دعاء لغير الله.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٨٠٦)، ومسلم برقم (١٨٢)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) جزء من الحديث السابق.

والله تعالى قد نهى أن يُدعى أحد غير الله، لا بطلب الشفاعة، ولا بغيرها، وسمى ذلك المدعو إلهاً، في قوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ [يونس: ١٠٦]، وقوله: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٣]؛ فالذي: يريد الشفاعة يطلبها من مالكها.

■ **قوله: [قال أبو العباس[١]: نفى الله عما سواه كل ما يتعلق به المشركون، فنفى أن يكون لغيره ملك أو قسطٌ منه، أو يكون عوناً لله، ولم يبق إلا الشفاعة، فبيَّن أنها لا تنفع إلا لمن أذن له الرب، كما قال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].**

فهذه الشفاعة التي يظنها المشركون هي منتفية يوم القيامة، كما نفاها القرآن.

وأخبر النبي ﷺ: أنه يأتي فيسجد لربه ويحمده، لا يبدأ بالشفاعة أولاً، ثم يقال له: «ارفع رأسك، وقل يسمع، وسل تعط، واشفع تشفع»[٢].

وقال له أبو هريرة: من أسعد الناس بشفاعتك؟ قال: «من قال: لا إله إلا الله خالصاً من قبله»[٣]، فتلك الشفاعة لأهل الإخلاص بإذن الله، ولا تكون لمن أشرك بالله.

وحقيقته: أن الله سبحانه وتعالى هو الذي يتفضل على أهل الإخلاص، فيغفر لهم بواسطة دعاء من أَذِنَ له أن يشفع ليكرمه، وينال المقام المحمود.

فالشفاعة التي نفاها القرآن ما كان فيها شرك، ولهذا أثبت الشفاعة بإذنه في مواضع، وقد بين النبي ﷺ أنها لا تكون إلا لأهل التوحيد والإخلاص. انتهى كلامه]:

كلام أبي العباس - وهو شيخ الإسلام ابن تيمية -؛ متعلق بآية في سورة

---

(١) هو: أبو العباس: شيخ الإسلام أحمد بن تيمية رحمه الله. وانظر كلامه هذا في الكلام على «حقيقة الإسلام» ص١١٩-١٢١).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٤٧١٢)، ومسلم برقم (١٩٤)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.
وأخرجه مسلم برقم (١٩٣)، عن أنس رضي الله عنه.
وأخرجه البخاري برقم (٧٤٣٩)، ومسلم برقم (١٨٣)، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري برقم (٩٩).

سبأ، وهي قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ (٢٢) وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣].

● **يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (نفى الله عما سواه كل ما يتعلق به المشركون، فنفى أن يكون لغيره ملك، أو قسط منه، أو يكون عوناً لله، ولم يبق إلا الشفاعة، فبين أنها لا تنفع إلا لمن أذن له الرب، كما قال تعالى: ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى﴾** [الأنبياء: ٢٨]) :

أي: أن الله نفى الأسباب التي يتعلق بها المشركون في عبادتهم لغير الله، حيث نفى أنهم لا يملكون مثقال ذرة في السموات، ولا في الأرض، وإذا لم يكونوا مالكين فكيف يعبدون أو كيف يعظمون؟! ولو كانوا أنبياء، أو ملائكة، أو أولياء، أو صالحين، أو سادة، أو غيرهم، فإنهم لا يملكون مثقال ذرة ملكاً استقلالياً، بحيث لا يتصرف الرب فيه، ولا قدرة له عليه، بل هم المتصرفون؛ فإن هذا مستحيل.

كذلك ليسوا شركاء لله شركة مساوية لملكية الله؛ فهم قد يقولون: إنهم لا يملكون، ولكنهم مشاركون، فنفى أن يكونوا شركاء.

كذلك قد يقولون: إنهم ليسوا مالكين، ولا شركاء، ولكنهم أعوان وأنصار، فنفى الله ذلك بقوله: ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾؛ أي: معين ومساعد.

فلما نفى ذلك كله، فقد يتعلقون بالشفاعة، ويقولون: ﴿هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾؛ فبين أن شفعاتهم لا تفيد، وأنه لا يشفع أحد منهم إلا إذا أذن الله تعالى، وأن الله إذا أراد العبد بضر لم ينفعوه، وإذا أراده بخير لم يقدروا على إمساك ذلك عنه، كما حكى الله عن مؤمن يس أنه قال: ﴿إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي

شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ﴾ [يس: ٢٣]؛ أي: لاتنفعني شفعاتهم، لا في الدنيا ولا في الآخرة.

● **ثم قال شيخ الإسلام: (وأخبر النبي ﷺ: أنه يأتي فيسجد لربه، ويحمده، لا يبدأ بالشفاعة أولاً، ثم يقال له: «ارفع رأسك، وقل يسمع، وسل تعط، واشفع تشفع»)**:

يعني: أن الله تعالىٰ يأذن لبعض أنبيائه، كنبينا محمد ﷺ أن يشفع ليكرمه فينال المقام المحمود؛ فإن المقام المحمود فسر أنه الشفاعة في قوله تعالىٰ: ﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]، قيل: إنه الشفاعة.

والنبي ﷺ إذا أراد أن يشفع لا يبدأ بالشفاعة حتىٰ يأذن له الله تعالىٰ، فقد أخبر النبي ﷺ في حديث طويل أن أهل الموقف يأتون آدم فيقولون: اشفع لنا إلىٰ ربك، فيعتذر، ثم يأتون نوحاً ويقولون: اشفع لنا إلىٰ ربك، ألا ترىٰ ما نحن فيه؟ ألا ترىٰ ما قد بلغنا؟ فيعتذر نوح، فيأتون إبراهيم فيقولون: اشفع لنا إلىٰ ربك، فيعتذر أيضاً، ثم يأتون موسىٰ، فيعتذر، ثم يأتون عيسىٰ، فيعتذر، ثم يأتون محمداً ﷺ، فإذا أتوه استأذن وسجد لربه، وأطال السجود، وعلم الله أنه يريد أن يشفع، فإذا أطال السجود قال له ربه: «**يامحمد ارفع رأسك، وقل تسمع، وسل تعط، واشفع تشفع**»(١)؛ فلا يبدأ بالشفاعة حتىٰ يقال له: «**اشفع تشفع**»، وهذا هو الإذن: ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٣].

فلا تكون هناك شفاعة نبي، ولا ملك، ولا ولي، ولا غيرهم؛ إلا بعدما يأذن الله له، فيقول له: اشفع، فيقول: أشفع عندك يا ربي في أمتي، أو في أقاربي، أو في فلان وفلان، ولا يتجرأ أحد علىٰ ذلك إلا بعد إذنه.

---

(١) هو جزء من حديث الشفاعة الطويل الذي أخرجه البخاري ومسلم، وقد سبق تخريجه قريباً في هذا الباب.

● ثم قال شيخ الإسلام رحمه الله: (وقال له أبو هريرة: «من أسعد الناس بشفاعتك؟ قال: من قال: لا إله إلا الله خالصاً من قبله». فتلك الشفاعة لأهل الإخلاص بإذن الله، ولا تكون لمن أشرك بالله. وحقيقته: أن الله سبحانه هو الذي يتفضل على أهل الإخلاص فيغفر لهم بواسطة دعاء من أَذِنَ له أن يشفع ليكرمه وينال المقام المحمود.

فالشفاعة التي نفاها القرآن ما كان فيها شرك، ولهذا أثبت الشفاعة بإذنه في مواضع، وقد بين النبي ﷺ أنها لا تكون إلا لأهل التوحيد والإخلاص):

أخبر النبي ﷺ بأهل الشفاعة الذين ينتفعون بها، وأنهم أهل التوحيد، لما قال له أبو هريرة رضي الله عنه يا رسول الله! من أسعد الناس بشفاعتك؟ فقال: «من قال: لا إله إلا الله خالصاً من قلبه»؛ أي: أهل التوحيد الموحدين حقّاً، الصادقين في توحيدهم، وفي عملهم، الذين جعلوا الله تعالى هو إلههم وحده دون سواه، فهؤلاء هم الذين يسعدون بشفاعته، وتنفعهم شفاعته ﷺ.

فأما من أشرك بالله، وعبد معه غيره، فهذا لا تنفعه شفاعة الشافعين، ولو شفعوا، مع أنهم لا يتجرءون أن يشفعوا؛ وذلك لأنه لم يكن من أهلها، وأهلها هم أناس مذنبون من أهل التوحيد والإسلام والعقيدة السليمة، دخلوا بسبب ذنوبهم في النار، فلما دخلوا فيها، وعذبوا بقدر ذنوبهم، أذن الله أن يشفع فيهم، فأذن لنبيه أن يشفع في أهل التوحيد الذين لم يشوبوه بشائبة الشرك، ولو كانوا مقصرين في بعض الواجبات، أو مرتكبين لبعض المحرمات، فقبل الله شفاعته فيهم، فيخرجهم من النار بشفعاته ﷺ، وبشفاعة غيره من الملائكة، والأنبياء، والرسل، والصالحين، والأطفال، ونحوهم.

كذلك أيضاً الشفاعة فضل من الله؛ لأنها ملك لله، قال الله تعالى في الآية السابقة: ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾؛ أي: هي ملك لله، فلا أحد يقدر على أن

يشفع من نفسه.

فتبين بذلك أن الشافع لا يبدأ بالشفاعة حتىٰ يأذن الله له فيشفع، وأنه لا يشفع في كل أحد، وإنما يشفع في حد مبيّن.

وقد أخبر ﷺ في بعض الأحاديث بأن الله يحدُّ له حداً، فيصف له قسماً من الناس، فيخرجهم من النار، ويدخلهم الجنة، فيقول: «**اشفع فيمن كان في قلبه مثقال دينار من الإيمان**»؛ أي: من أهل التوحيد، فيخرجهم من النار، ثم يقول له: «**أخرجوا من النار من قال: لا إله إلا الله وفي قلبه مثقال ذرة من إيمان**»(١)، وفي رواية: «**أدنى ذرة من إيمان**»(٢)؛ أي: من عقيدة، فإذا كان معه عقيدة، وتوحيد، ولو كان ضعيفاً، وحمله ضُعف عقيدته علىٰ اقتراف بعض الخطايا، ونحوها، فإنها تنفعه.

وعلىٰ كل حال فالذي يريد أن تنفعه الشفاعة فعليه أن يأتي بأسبابها وهي:

أولاً: تحقيق التوحيد.

ثانياً: تحقيق العقيدة التي تنفعه وتردعه عن المحرمات، وتحمله علىٰ فعل الواجبات، والله أعلم.

■ ■ ■ ■ ■

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٧٤٣٩)، ومسلم برقم (١٨٣)، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) أخرجها مسلم برقم (١٩٣)-(٣٢٦)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

[١٧]

باب:
قول الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾

قول الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦].

في الصحيح، عن ابن المسيب، عن أبيه، قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ، وعنده عبد الله بن أبي أمية، وأبو جهل، فقال له: «يا عم، قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله»، فقالا له: أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فأعاد عليه النبي ﷺ، فأعاد. فكان آخر ما قال: هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله، فقال النبي ﷺ: «لأستغفرن لك ما لم أُنه عنك»، فأنزل الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣].

وأنزل في أبي طالب: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦]].

■ ■ ■ ■ ■

• فيه مسائل:

الأولى: تفسير: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦].

الثانية: تفسير قوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣].

الثالثة: وهي المسألة الكبيرة: تفسير قوله: «قل: لا إله إلا الله»، بخلاف ما عليه من يدعي العلم.

الرابعة: أن أبا جهل ومن معه يعرفون مراد النبي ﷺ إذا قال للرجل: قل: لا إله إلا الله، فقبَّح الله مَنْ أبو جهل أعلم منه بأصل الإسلام.

الخامسة: جده ﷺ ومبالغته في إسلام عمه.

السادسة: الرد على من زعم إسلام عبد المطلب وأسلافه.

السابعة: كونه ﷺ استغفر له فلم يغفر له، بل نُهي عن ذلك.

الثامنة: مضرة أصحاب السوء على الإنسان.

التاسعة: مضرة تعظيم الأسلاف والأكابر.

العاشرة: استدلال الجاهلية بذلك.

الحادية عشرة: الشاهد لكون الأعمال بالخواتيم، لأنه لو قالها لنفعته.

الثانية عشرة: التأمل في كبر هذه الشبهة في قلوب الضالين، لأن في القصة أنهم لم يجادلوه إلا بها، مع مبالغته ﷺ وتكريره، فلأجل عظمتها، ووضوحها عندهم؛ اقتصروا عليها.

■ ■ ■ ■ ■

الشرح

باب:
قول الله تعالى:
﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾

عقد هذا الباب للرد على الغلاة المتجاوزين الحد في حق النبي ﷺ؛ بحيث جعلوا له بعض حق الله تعالى، فهو في اعتقادهم يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، ويملك النفع والضر، والعطاء والمنع، والتصرف في الكون، فلذلك يدعونه من دون الله، وبالأخص عند الشدائد والمضايقات، والوقوع في الأزمات، فينسون ربهم، ويهتفون باسم محمد ورسول الله، ويعلقون عليه الآمال، ويعتقدون أنه يجيبهم ويعطيهم طلبتهم، ويحقق رغبتهم.

فبين المؤلف رحمه الله في هذا الباب أن النبي ﷺ بشر، خصه الله تعالى بإنزال الوحي عليه، وكلفه بالبيان والبلاغ، وأمره أن يكون للناس بشيراً ونذيراً، وقد أخبر بأنه لا يستحق شيئاً من حق الله تعالى، فقد أمره أن يقول: ﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، وقال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَدًا (٢١) قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ [الجن: ٢١، ٢٢]، فإذا كان لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، ولا يملك لقومه ضراً ولا رشداً، فكيف يقال: إنه يتصرف في الكون، وأنه يهدي من يشاء هداية التوفيق، وقد قال الله في حقه: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦].

فلذلك بوب الشيخ رحمه الله تعالى بهذه الآية، وذكر سبب نزولها، فإنه ﷺ حاول أن يهدي عمه أبا طالب فلم يقدر على ذلك، مع حبه له، ومع أنه الذي

كان يحميه، ويمنع وصول الأذىٰ له من الكفار، ومع ذلك لم يقدر علىٰ هدايته، وإدخاله في الإسلام، مما يدل علىٰ أن الذي يملك ذلك هو الله وحده، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٦) وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ﴾ [الزمر: ٣٦، ٣٧].

وإذا كان النبي محمد ﷺ ليس له قدرة علىٰ الهداية والتوفيق، فكيف يكون ذلك لغيره من البشر، كما تدعي ذلك الرافضة في حق علي رضي الله عنه، وكذا الصوفية والقبوريون في حق من يدعون فيهم الولاية، نعوذ بالله من الشرك والشك والنفاق وسوء الأخلاق.

■ **قول الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾** [القصص: ٥٦].

■ **في الصحيح ،عن ابن المسيب، عن أبيه، قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ، وعنده عبد الله بن أبي أمية، وأبو جهل، فقال له: «يا عم قل: لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله»، فقالا له: أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فأعاد عليه النبي ﷺ، فأعاد. فكان آخر ما قال: هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله، فقال النبي ﷺ: «لأستغفرن لك ما لم أُنه عنك»[(١)]، فأنزل الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾** [التوبة: ١١٣]]:

هذه الآية وهي قول الله تعالىٰ: **﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾**، كان سبب نزولها موت أبي طالب علىٰ ملّة عبد المطلب.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٧٧٢)، ومسلم برقم (٢٤).

ثم ذكر المصنف قصة وقعت للنبي ﷺ مع عمه أبي طالب.

وكما هو معلوم أنّ أبا طالب كان من أكابر قريش، وكان مشهوراً فيهم، مطاعاً فيما بينهم، لشرفه، ولكبر سنه، ولاحترامه فيما بينهم، وكان يحمي النبي ﷺ، ويحول بين المشركين وبينه لكي لا يؤذوه.

وظل رسول الله ﷺ في حمىٰ عمه أبي طالب احتراماً له، وذلك لأمور منها:

أولاً: لمنزلته، وشرفه.

ثانياً: لشهرته، ولكبر سنه.

ثالثاً: لكونه علىٰ دينهم، وعلىٰ ملتهم.

فمن أجل ذلك كان النبي ﷺ في حمايته، وفي جواره، لا يناله شيء من الأذىٰ مدة حياة عمه أبي طالب، ثم مات أبو طالب، وماتت زوجة رسول الله ﷺ خديجة في سنة واحدة، وسمىٰ الناس ذلك العام بعام الحزن، وهي تسمية من الناس، ولم يُنقل عن النبي ﷺ أنه ظهر عليه شيء من الحزن والأسىٰ، ولم ينقل عنه أيضاً أنه سمىٰ ذلك العام بعام الحزن.

وعندما احتضر أبو طالب، وحضره الأجل والموت، وهو ما زال علىٰ دين قومه ولم يُسْلم لله، تأسف النبي ﷺ أن يموت عمه علىٰ الكفر والشرك، وكان رسول الله ﷺ يرجو أن يموت علىٰ الإسلام، ويختم له بخاتمة حسنة، فجاء إليه النبي ﷺ وهو يحتضر في آخر حياته، وذكَّره رسول الله ودعاه إلىٰ الله وإلىٰ الشهادة، وأمره أن يقول: لا إله إلا الله، لأنه يعرف معناها، ويعرف أنه إذا قالها فقد تبرأ من كل إله غير الله، وقد رضي بالله إلهاً وحده، وقد اتخذه مألوهاً يألهه،

ويترك تأله ما سواه؛ لكونه يعرف ما تدل عليه هذه الكلمة، فلو قالها في تلك الحال، وتبرأ من كل الآلهة لنفعته، ولكن صادف أن كان عنده قرناء السوء، حيث كان عنده أبو جهل بن هشام الذي هو فرعون هذه الأمة، ورجل آخر من بني مخزوم يقال له: عبد الله بن أبي أمية، وربما كان معهما رجل ثالث؛ وهو المسيب بن حزن والد سعيد بن المسيب.

فلما وجدهم عنده، ذكَّروه بالحجة الشيطانية؛ وذكروه بملة الآباء والأجداد، فقالوا له: إنك إذا تبرأت من هذه الآلهة خالفت أباك وجدك وجد أبيك، وأجدادك من قريش، فإن لهم آلهة كثيرة، فإذا قلت: لا إله إلا الله فقد انتقدتهم، وقد عبت دينهم، وقد سفهت أحلامهم، وقد خالفت شريعتهم، **فكيف ترغب عما كانوا عليه؟**

أليس أبوك عبد المطلب كان على حق؟ أليس على دين؟ أليس على خير؟ فإذا قلت هذه الكلمة فإنك تنتقده، وتعيب حاله.

فلما ذكروه هذه الحجة الشيطانية، لم يقبل أن يقول: لا إله إلا الله، فعند ذلك كرر عليه النبي ﷺ ليقولها رجاء أن يختم له بخاتمة حسنة، وذكر له أنه متى قالها فإنه سيحتج بها عند الله، ويقول: يا رب إنه قالها فأنجه من العذاب، ويشهد له بها، وتكون حجة قوية على أنه من أهل الخير، ولكن لم يزل به يرددها، ولم يزالا يرددان عليه تلك الحجة الشيطانية، وهي تقليد الآباء والأجداد حتى ختم له بخاتمة سيئة، وكان آخر ما قال: هو على ملة عبد المطلب؛ أي: على شريعته، وعلى دينه، وامتنع عن أن يقول: لاإله إلا الله، ومات وهو على ذلك الشرك.

ولما مات على هذه الملة الشركية أسف النبي ﷺ، وعزم على أن يستغفر الله

له، وذلك لكونه فَعَلَ جميلاً معه، ولكونه فعل به خيراً، وحماه، ونصره، وآواه، وحفظه، وأيده، فعند ذلك قال: «**سأستغفر لك ما لم أنه عن ذلك**»، ولكن نهاه الله أن يستغفر له، أو يستغفر لغيره من الأقارب الذين ماتوا على الشرك، ونهى أيضاً بقية المؤمنين أن يستغفروا لأحد من المشركين، ولو كانوا من أقاربهم.

فأنزل الله تعالى هذه الآية التي في سورة التوبة: ﴿**مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٣) وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ**﴾ [التوبة: ١١٣، ١١٤]، وذلك أن بعضاً من المسلمين قال: سأستغفر لأبي، كما استغفر إبراهيم الخليل لأبيه، كما حكى الله عنه أنه قال: ﴿**وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ**﴾ [الشعراء:٨٦]، وأنه قال: ﴿**رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ**﴾ [إبراهيم:٤١]، وحكى الله عنه أنه قال: ﴿**سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا**﴾ [مريم:٤٧].

ولكن ما كان هذا الاستغفار إلا عن موعده وعدها إياه، فلما تبين له إصراره، وعداوته، واستمراره على الكفر، وقوله لابنه: ﴿**قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا**﴾ [مريم:٤٦]، بعد ذلك تبرأ منه: ﴿**فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ**﴾.

فالحاصل أن الله تعالى نهى نبيه عن الاستغفار لأقاربه، ونهى المؤمنين أيضاً أن يستغفروا لأقاربهم الذين ماتوا على الكفر، وأخبر بأنه لا يفيدهم هذا الاستغفار، ولا يتقبل فيهم.

وما ذاك إلا لأن أصل عقيدتهم الكفر، والكفار والمشركون قد حكم الله

عليهم بالخلود في العذاب، فلا يفيدهم استغفار أقاربهم، لذلك قال: ﴿وَمَا كَانَ﴾؛ أي: لا يصح، ولا يجوز للمؤمنين أن يستغفروا للمشركين ﴿وَلَوْ كَانُوا أُوْلِي قُرْبَى﴾، ولو كانوا آباءً، أو أبناءً، أو إخوة، أو عشيرة، أو من القبيلة، ونحوهم، لا يحل لهم ﴿مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾.

فلما نزلت هذه الآية كف النبي ﷺ عن الاستغفار للكفار وللمشركين، حتى لأبيه ولأمه.

وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «أستأذنت ربي أن أستغفر لأمي فلم يأذن لي، واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي، فزوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة»(١)؛ أي: لا بأس بزيارة قبور المشركين، وأما الاستغفار لهم، ولو كانوا أقارب فلا يجوز، كما في هذا الحديث.

■ **قوله: [وأنزل في أبي طالب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾** [القصص: ٥٦]:

أنزل الله تعالى هذه الآية في أبي طالب وهي تدل على أنه ليس من أهل الاهتداء، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦]؛ أي: أنك يا محمد لا تقدر على هداية من أحبب.

وهذه الآية نزلت في أبي طالب لما لم يقدر النبي ﷺ على هدايته، وذكر أن الله تعالى هو الذي يهدي، كما في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٩٧٦)، من حديث أبي هريرة وفيه: «فزوروا القبور فإنها تذكر الموت».
أما قوله: «فزوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة»، فأخرجه الترمذي برقم (١٠٥٤)، من حديث بريدة، وابن ماجة برقم (١٥٧١)، من حديث ابن مسعود، وصححه الألباني في «أحكام الجنائز»، ص(١٧٨، ١٧٩).

يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

فهداية القلوب بيد الله تعالىٰ، والمراد هنا بالهداية هداية التوفيق؛ لأن الهداية تنقسم إلىٰ قسمين:

هداية بيان: وهذه إليه ﷺ، كما قال تعالىٰ: **﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾** [الشورى: ٥٢]؛ أي: تبين لهم الصراط، وتوضح لهم الحجة.

وهداية توفيق: وهذه ليست إليه، ولا إلىٰ أحد من البشر، وإنما هذه إلىٰ الله: **﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾**، هداية التوفيق إلىٰ الإسلام، ولو كان محبوباً لديك، إنما الذي يهدي هو الله تعالىٰ.

فإذا كان النبي ﷺ لا يستطيع أن يهدي أحداً حتىٰ ولو كانوا أقاربه، فإنه بطريق الأولىٰ لا يجوز لأحد أن يتعلق عليه دون الله تعالىٰ، وليس له من الأمر شيء، كما تقدم في الكلام علىٰ قوله تعالىٰ: **﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾** [آل عمران: ١٢٨]، الآية.

فإذاً يجب أن يكون التعلق بالله تعالىٰ، فإذا كان النبي ﷺ قد ذكر الله أنه لا يهدي من أحب، فهو لا يقدر علىٰ أن يمنح أحداً، أو يعطي أحداً، أو يغفر لأحد، أو يشفع لأحد إلا بإذن الله، بعد أن يأذن الله له بالشفاعة كما تقدم، فإذاً المطلوب كله من الله تعالىٰ.

فعليك أن ترجع إلىٰ الله لأنه ربك، ولأنه مالك كل شيء، والمتصرف في كل شيء.

وإذا كانت هذه حال النبي ﷺ أنه لا يقدر علىٰ أن يهدي من أحب، حتىٰ ولو

كان أقرب أقاربه، فكيف بحال عبد القادر الجيلاني؟ أو بحال البدوي؟ أو بحال عيدروس، أو بحال ابن علوان، أو بغيرهم؟ كيف يهدون أحداً، أو كيف ينفعون أحداً بدون إذن الله؟ إذاً المرجع إلىٰ الله تعالىٰ.

فلا يجوز أن يُعتمد ولا يُتوكل علىٰ أحد، ولا يطلب من أحد إلا الله تعالىٰ، وهو الذي بيده أزِمَّة الأمور، وهو الذي يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، والله تعالىٰ أعلم.

■ ■ ■ ■ ■

[١٨]

باب:
ماجاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين

وقول الله عز وجل: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١].

في الصحيح، عن ابن عباس ـ في قول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣] ـ، قال: (هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم: أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً، وسمّوها بأسمائهم، ففعلوا. ولم تعبد، حتى إذا هلك أولئك، ونُسي العلم؛ عُبدت).

وقال ابن القيم: (قال غير واحد من السلف: لما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوّروا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمد، فعبدوهم).

وعن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله»، أخرجاه.

قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم والغلو؛ فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو».

ولمسلم، عن ابن مسعود: أن رسول الله ﷺ قال: «هلك المتنطعون»، قالها ثلاثاً».

● فيه مسائل:

الأولى: أن من فهم هذا الباب وبابين بعده تبيّن له غربة الإسلام، ورأىٰ من قدرة الله وتقليبه للقلوب العجب.

الثانية: معرفة أول شرك حدث في الأرض كان بشبهة الصالحين.

الثالثة: أول شيء غُيِّر به دين الأنبياء، وما سبب ذلك، مع معرفة أن الله أرسلهم.

الرابعة: قبول البدع، مع كون الشرائع والفطر تردها.

الخامسة: أن سبب ذلك كله مزج الحق بالباطل، فالأول: محبة الصالحين، والثاني: فعل أناس من أهل العلم والدين شيئاً أرادوا به خيراً، فظن من بعدهم أنهم أرادوا به غيره.

السادسة: تفسير الآية التي في سورة نوح.

السابعة: جبلة الآدمي في كون الحق ينقص في قلبه، والباطل يزيد.

الثامنة: فيه شاهد لما نقل عن السلف: أن البدع سبب الكفر.

التاسعة: معرفة الشيطان بما تؤول إليه البدعة ولو حسن قصد الفاعل.

العاشرة: معرفة القاعدة الكلية، وهي النهي عن الغلو ومعرفة ما يؤول إليه.

الحادية عشرة: مضرة العكوف علىٰ القبور من أجل عمل صالح.

الثانية عشرة: معرفة النهي عن التماثيل، والحكمة في إزالتها.

الثالثة عشرة: معرفة شأن هذه القصة، وشدة الحاجة إليها مع الغفلة عنها.

الرابعة عشرة: وهي أعجب وأعجب: قراءتهم إياها في كتب التفسير والحديث، ومعرفتهم بمعنى الكلام وكون الله حال بينهم وبين قلوبهم حتى اعتقدوا أن فعل قوم نوح هو أفضل العبادات، واعتقدوا أن ما نهى الله ورسوله عنه فهو الكفر المبيح للدم والمال.

الخامسة عشرة: التصريح بأنهم لم يريدوا إلا الشفاعة.

السادسة عشرة: ظنهم أن العلماء الذين صوروا الصور أرادوا ذلك.

السابعة عشرة: البيان العظيم في قوله: «**لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم**»، فصلوات الله وسلامه على من بلغ البلاغ المبين.

الثامنة عشرة: نصيحته إيانا بهلاك المتنطعين.

التاسعة عشرة: التصريح بأنها لم تعبد حتى نسي العلم، ففيها بيان معرفة قدر وجوده، ومضرة فقده.

العشرون: أن سبب فقد العلم موت العلماء.

■ ■ ■ ■ ■

•• الشرح ••

باب:
ماجاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين

هذا الباب هو جُلّ مقصود الكتاب، فالكتاب يدور من أوله إلىٰ آخره علىٰ النهي عن الشرك، ولكن هذا الموضوع؛ وهو الغلو في الصالحين؛ هو أكبر المقاصد، وهو أشهرها، وأهمها؛ وذلك لعظم البلية به، ولكثرة الذين وقعوا في الغلو في الصالحين، وكفروا بالله، وأشركوا من حيث لا يشعرون أنهم أشركوا، وتمادوا في شركهم، وأن هذا هو سبب الغلو في الصالحين في القديم، وكذلك في الحديث في أواسط قرون هذه الأمة، من القرن السادس، ثم السابع، ثم الثامن، وقع الناس في شيء من الغلو، فصاروا يأتون إلىٰ قبور الصالحين، ويقيمون حولها، ويعكفون عندها، ويرجون من ذلك الصالح الذي قد مات أن ينالهم خيره وتنالهم بركته، يعتقدون أنه بفضله ومنزلته عند الله ينفعهم، ويدفع عنهم، فكان في أول الأمر يأتون إليه وهو مدفون، ثم يطيلون الاقامة حوله، وتمادىٰ بهم الأمر فصاروا يأتون إليه، ويدعون الله عنده.

ثم اعتقد آخرون أن الصلاة عنده لها فضيلتها وميزتها فصاروا يتحرون الصلاة عنده، ويفضلون الصلاة عند القبر علىٰ الصلاة في المسجد، ويزعمون أنه سبب في قبولها، أو في رفعها، أو ما أشبه ذلك.

ثم زاد آخرون فدعوا صاحب القبر، فقالوا: ياسيدنا فلان نحن في جوارك، أعطنا، واقبل منا، واشفع لنا، وانفعنا، ونحو ذلك، فما زالوا هكذا يتمادون في

غيهم إلى أن وقعوا فيما وقعوا فيه من الشرك؛ فيقال لهم: هذا هو سبب كفر بني آدم في أول الأمر: الغلو في الصالحين، وهو أيضاً سبب كفر من كفر من الآخرين فإنهم وقعوا في مثل هذا الغلو.

* **والغلو هو**: زيادة المدح، أو إعطاء الإنسان شيئاً لا يستحقه، والغلو في الدين المذكور في الآية عام للغلو في الصالحين، وغيرهم، فكل من غلا في مخلوق، وجعل له شيئاً من حق الله، إما من الربوبية، وإما من الألوهية، سواء كان ذلك الإنسان الذي غلا فيه من الصالحين، أو من غيرهم، فإنه قد اتخذه إلهاً، فالغلو في صالح حتى ولو كان ما كان فإنه يصير بالغلو إلهاً يُعبد من دون الله.

■ **قوله: [وقول الله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾** [النساء: ١٧١]]:

هذه الآية عامة للغلو في الدين، وقد ذكر أهل الكتاب؛ لأنهم غلوا في دينهم، ثم خص النصارى، لأن النصارى غلو في عيسى، فأخبر الله بأنه رسول، وليس بإله كما يقولون، ووصفه بهذه الصفات، فدل على أن الذين غلوا فيه، وقالوا: هو الله، أو هو ابن الله، أو هو ثالث ثلاثة، أو جعلوه هو وأمه إلاهين من دون الله، أنهم قد كفروا بالله، ولهذا قال تعالى في هذه الآية: **﴿وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾** إلى آخرها، [النساء: ١٧١].

فلما ذكر أنه رسول الله؛ أي: من جملة الرسل، وأنه كلمة الله؛ أي: خلق بكلمة الله، التي هي (كن)، وأنه روح من الأرواح التي خلقها الله **﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾**؛

أي: من جملة الأرواح التي خلقها، لم يكن هناك ما يوجب أن تجعلوه إلهاً، فهو كسائر الرسل، فلا تقولوا: ثلاثة، ولا تقولوا: نعبد الله، والمسيح، وأمه؛ بل اعبدوا الله وحده، فهذا من جملة غلوهم في الدين.

وقوله: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ [النساء: ١٧١]، عام للغلو في كل العبادات، وذلك أن دين الله تعالىٰ وسط بين الغالي والجافي، فالنصارىٰ غلو في حق عيسىٰ، فجعلوه إلهاً من دون الله، واليهود قد جفوا، فسبوه وتنقصوه، وقالوا: هو ابن بغي، قاتلهم الله.

* وقد وقع في هذه الأمة الغلو في بعض الأشخاص؛ مثل ما وقع في حق علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقد غلا فيه أناس، وجفا فيه أناس آخرون:

فالخوارج والنواصب ونحوهم أبغضوه، وصاروا يسبونه، ويلعنونه، ويشتمونه، ويرمونه بالعظائم، فهؤلاء جفوا في حقه.

وأما الروافض فإنهم غلوا في حقه، فأعطوه ما لا يستحقه، حتىٰ قال بعضهم: إنه هو الله، تعالىٰ الله عن قولهم، كما قال ذلك غلاة الباطنية، وكما يقول قائلهم: أشهد أن لا إله إلا حَيْدَرة الأنزع البطين، وحيدرة: هو علي، فهم يقولون: لا إله إلا علي، تعالىٰ الله عن قولهم.

وقاربهم طائفة أخرىٰ من الرافضة، قالوا: إن علياً هو الرسول، وهو أحق بالرسالة من محمد، وإنما جبريل خان الأمانة، فيقولون في تشهدهم: (خان الأمين وصدها عن حيدرة)، وحيدرة سمته به أمه، كما قال علي عن نفسه: أنا الذي سمتني أمي حيدرة.

وقد كان جبريل عليه السلام عندهم مأموراً بأن ينزل على عليٍّ فنزل على محمد، فهؤلاء من جملة الغلاة.

ومن جملتهم الذين يوجدون في هذه الأزمنة ممن يعبدون عليّاً مع الله، فتراهم في الضيق والشدة ينسون الله، ويعبدون علياً، وكثيراً ما نسمعهم في الطواف بالبيت يدعونه من دون الله: ياعلي، ياعلي، وربما أيضاً دعوا ابنه الحسن، أو الحسين، أو علي بن الحسين، أو نحوهم، وكذلك يدعونه في المشاعر، فيدعونه في عرفة، وعند الرمي، وفي الأماكن الشريفة، ويصفونه بالأوصاف التي لا يستحقها إلا الله، بأنه الذي يعلم الغيب، وأنه الذي يملك ما في السموات، وما في الأرض، وأنه الذي يعطي ويمنع، وأنه الذي بيده الضر والنفع، وما أشبه ذلك، وهذا كله من الغلو في هذا المخلوق، فلذلك نهى عنه: ﴿لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾.

والنهي وإن كان لأهل الكتاب لكننا مقصودون به، ولهذا كان عمر رضي الله عنه إذا قرأ آية فيها توجيه لأهل الكتاب، يقول: «مضى القوم ولم يعن به سواكم»؛ أي: أنتم مأمورون، وكأن الله لما نهاهم عن الغلو كان في ذلك تنبيه لنا بأن بني إسرائيل وأهل الكتاب قد غلوا في دينهم فلا تكونوا مثلهم.

وقال الله تعالى في آية أخرى في سورة المائدة: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة:٧٧]، وهي مثل الآية السابقة فيها النهي عن الغلو.

■ قوله: [في الصحيح، عن ابن عباس ـ في قول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣]ـ، قال: «هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم: أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً، وسمّوها بأسمائهم، ففعلوا. ولم تعبد، حتى إذا هلك أولئك، ونُسي العلم؛ عُبدت»[(١)]:

لما كان موضوع الكتاب الغلو في الصالحين، خصّ الباب بالغلو فيهم، وأورد هذه القصة القديمة التي ذكرت في القرآن الكريم، وهي غلو قوم نوح في أولئك الصالحين.

وقد قيل: إنهم كانوا قبل نوح بقرنين، أو ثلاثة، وهؤلاء الصالحون هم: ودّ، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر، فلما مات هؤلاء، تأسف تلاميذهم عليهم، فجاءهم الشيطان وأوحىٰ لهم: أن يصوروهم بعدما ماتوا، وينصبونهم في مجالسهم التي يتعلمون فيها، ويعلمون، ويعبدون الله، ويذكرونه، ففعلوا، ثم جاءهم الشيطان وقال لأولادهم أو أولاد أولادهم: إن آباءكم أو أجدادكم كانوا يعبدونهم من دون الله، فلما نُسي العلم، وطال عليهم الأمد، عبدوهم من دون الله.

فإذا كان هذا هو سبب كفر الأولين فهو أيضاً سبب شرك المتأخرين، فإنهم لما وقعوا في الغلو في الصالحين أشركوهم مع الله، وجعلوهم معبودين، فصاروا يطوفون بقبورهم، ويعتقدون أن الطواف بهم أفضل من الطواف ببيت الله الحرام، وينذرون لهم، ويذبحون لهم، ويدعونهم من دون الله، فيقولون: ياسيدي فلان، ياسيدي عيدروس، أو: ياسيدي يوسف، أو: تاج، أو ما

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٩٢٠).

أشبهه، فيجعلون لهم قسطاً من حق الله تعالىٰ؛ وهو العبادة، فصاروا بذلك مشركين عبدوا مع الله غيره.

فهذا بيان أن كفر بني آدم الأولين بسبب الغلو، وكذلك كفر الآخرين.

■ **قوله: [وقال ابن القيم: قال غير واحد من السلف: لما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوّروا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمد، فعبدوهم»**[1]]:

كلام ابن القيم هذا أفاد أن أول ما عملوا مع أولئك الصالحين هو العكوف علىٰ قبورهم، وذلك من الحزن عليهم، والأسف بفقدهم.

والمعنىٰ: أنهم لازموا تلك القبور وأطالوا المقام حولها، وإن لم يقصدوا ما قصده المشركون بعدهم من العبادة، كما في قولهم: ﴿فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾ [الشعراء: ٧١].

ثم بعد أن طال العكوف حولهم أوحىٰ إليهم الشيطان أن صوروا تماثيلهم، فصنعوا لكل منهم صورة منقوشة، أو منحوتة، ونصبوها في مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها للعبادة أو للتعليم، وسموها بأسمائهم، وإنما قصدوا أن يتذكروا عبادتهم وأعمالهم مما يكون سبباً في محاكاتهم والعمل بمثل أعمالهم، ثم بعد أن طال الأمد وتوالت السنين وهلك الذين صوروهم ونشأ آخرون لم يعرفوا سبب تصويرهم جاءهم الشيطان وزين لهم عبادتها، فعبدوها بدعائها والتمسح بها، والذل والخضوع أمامها، والذبح لها وتعظيمها، وصرف خالص حق الله لها، وسموها آلهة، فقالوا لنبي الله نوح عليه السلام: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦]، وتواصوا بينهم بالتمسك بمعبوداتهم: ﴿وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾

---

(١) أنظر كلام ابن القيم في كتابه «إغاثة اللهفان» (١ / ٢٠٣).

[نــــوح: ٢٣]، وهو دليل على أن لهم آلهة أخرى، وأن هذه الخمسة أشهرها، وأغلاها في نفسوهم، حيث حثوا على التمسك بها.

وهكذا جميع المشركين في كل زمان يتواصون بالغلو في معبوداتهم، ولزوم عبادتها، فقد حدث في القرون المتأخرة أن رفعوا قبور بعض الصالحين ومن يخيل إليهم أنهم من الأولياء والأصفياء، وتمادوا في التعبد عندها، وتحري الصلاة والذكر والقراءة في أفنائها، والذبح والنذر لها، وصرف الكثير من العبادات لها، وفي ذلك يقول الإمام الصنعاني: رحمه الله في داليته:

ويعمر أركان الشريعة هادماً
مشاهد ضل الناس فيها عن الرشد
أعادوا بها معنى سواع ومثله
يغوث وود بئس ذلك من ود
وكم هتفوا عند الشدائد باسمها
كما يهتف المضطر بالصمد الفرد
وكم نحروا في سوحها من عقيرة
أهلّت لغير الله جهراً على عمد
وكم طائف حول القبور مقبل
ومستلم الأركان منهن بالأيدي

فالصنعاني رحمه الله تعالى يحكي ما يصنع في زمانه في اليمن وفي نجد، وفي أغلب البلاد الإسلامية من الغلو في الأموات، ودعائهم مع الله، وتعظيم الأضرحة وبناء القباب عليها، وصرف خالص حق الله لأربابها حتى أشبهت الأوثان التي كانت في زمن نوح وما بعده إلى عهد النبي ﷺ، والتي أنكرها

وحاربها الشيخ المجدد محمد بن عبد الوهاب، ووفق الله آل سعود إلى نصرته وقبول دعوته، مما كان سبباً في القضاء على تلك المشاهد والمعبودات في تلك الأماكن، وتطهير هذه الجزيرة من أوضار(١) الشرك والكفر.

■ **قوله: [وعن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله»، أخرجاه]:**

الإطراء هو: المبالغة في المدح والزيادة على القدر الصحيح، حتى يرفع منزلته إلى منزلة الرب المعبود، وذلك أن من صفة المخلوق العبودية لله وحده، وهي صفة شرف ورفعة، وصف الله تعالى أنبياءه ورسله بها، كقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [ص: ٤٥]، وقوله: ﴿لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢]؛ فإن التذلل للرب العزيز والتواضع له وتعظيمه من عباده هو غاية الشرف، والرفعة والفضل.

فلا يتوهم أن وصف نبينا ﷺ بالعبودية لربه فيه هضم لحقه، أو نقص لقدره؛ بل قد وصفه الله تعالى بالعبودية في أشرف المقامات، ففي مقام التحدي، قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣]، وفي مقام الإسراء، قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾ [الإسراء: ١]. وفي مقام الدعوة، قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: ١٩].

فله ﷺ من العبودية أعلاها فهو عبد الله الذي هو ذليل لربه متواضع له ومعترف به له سبحانه بالعزة والكبرياء، كما أنه يتعبد له ويتقرب إليه بأنواع العبادة والطاعة ليكون من عباده المقربين، وقد تميز بوصف الرسالة وهي أن الله

---

(١) أوضار: أوساخ.

تعالىٰ اختاره لحمل رسالته، وفضله بإنزال الوحي عليه، ومدحه بما هو أهله، وذكره نعمته عليه بأنه آواه وهداه وأغناه وشرح له صدره، ووضع عنه وزره، ورفع له ذكره، وغفر له ذنبه ما تقدم وما تأخر، وأمر الأمة أن يؤمنوا برسالته، وأن يتبعوا سنته، وأن يقدموا محبته علىٰ محبة النفس والأهل والمال، كما نهاهم عن معصيته ومخالفة أمره، وتوعد علىٰ ذلك بالعذاب الأليم، وكل ذلك لإبعادهم عن الغلو فيه كما فعلت النصارىٰ، وعن الجفاء كما فعلت اليهود في عيسىٰ بن مريم، وإنما الواجب تصديقه والاعتراف بفضله علىٰ الأمة ونصحه لهم، فعلينا الإكثار من الدعاء له والصلاة عليه، وسؤال الوسيلة والفضيلة ونحو ذلك من حقه علىٰ أمته.

■ **قوله: [قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم والغلو؛ فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو»**[1]].

هذا الحديث رواه الإمام أحمد(١ / ٢١٥ ، ٣٤٨)برقم (١٨٥١ ، ٣٢٤٨)، والنسائي، وابن ماجه، وابن خزيمة، وابن حبان، والحاكم، والبيهقي، في

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (١ / ٢١٥، ٣٤٧)، وابن ماجة رقم (٣٠٢٩)، والنسائي (٥ / ٢٦٨)، وابن أبي عاصم في «السنة» رقم (٩٨)، وابن حبان (٦ / ٦٨)، والطبراني في «الكبير» رقم (١٢٧٤٧)، والحاكم في «المستدرك» (١ / ٤٦٦)، والبيهقي (٥ / ١٢٧)، من حديث الفضل بن عباس رضي الله عنه.

وصححه الحاكم ووافقه الذهبي. وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٢٨٩): إسناده صحيح علىٰ شرط مسلم. وقال في «مجموع الفتاوىٰ»: (٣/ ٣٨٣): وهو حديث صحيح. وقال أحمد شاكر في «تحقيق المسند» (١٨٥١): إسناده صحيح. وصححه الألباني في «الصحيحة» رقم (١٢٨٣).

تنبيه: قال الشيخ ابن جبرين: (وشك الراوي عند أحمد هل هو عن عبد الله بن عباس أو أخيه الفضل؟ والصحيح أنه عن الفضل؛ حيث أن عبد الله كان من الذين تعجلوا إلىٰ منىٰ آخر الليل، والراوي عنه هنا هو أبو العالية وقد أدرك الفضل.

المناسك، عن ابن عباس قال: قال لي رسول الله ﷺ غداة العقبة وهو واقف على راحلته: «**القط لي سبع حصيات**»، فلقطت له سبع حصيات هن حصى الخذف، وأخذهن بيده، وقال: «**بأمثال هؤلاء فارموا، وإياكم والغلو في الدين، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين**». وصححه الحاكم والذهبي.

وشك الراوي عند أحمد هل هو عن عبد الله بن عباس؟ أو أخيه الفضل؟، والصحيح أنه عن الفضل؛ حيث أن عبد الله كان من الذين تعجلوا إلى منى آخر الليل، والراوي عنه هنا هو أبو العالية وقد أدرك الفضل.

والحديث نهى عن الغلو في الدين، ومن جملة الغلو في رمي الجمار بالحصى الكبيرة، فإنه مجاوزة للحد، ويدخل في الغلو الزيادة في المدح والإطراء، ووصف الإنسان بما لا يستحقه إلا الله تعالى، وقد وقع هذا في الأمة فإن القبوريين إنما عبدو الأموات، وصرفوا لهم خالص حق الله لما غلوا فيهم، ووصفوهم بأنهم يعلمون المغيبات، ويتصرفون في الكون، ويأخذون من اللوح المحفوظ، ويستغنون عن الشرع، وعن الأخذ من الكتاب والسنة، فنتج عن ذلك أن دعوهم من دون الله تعالى، وشيدوا قبورهم، وذبحوا لهم، ونذروا لهم النذور، وتبركوا بتربتهم، وهتفوا بأسمائهم، وتعلقوا عليهم في الملمات، وصرفوا لهم خالص حق الله تعالى.

فمن ذلك ما وقع من الغلو في النبي ﷺ بمدحه والزيادة في إطرائه، كما في قصيدة البردة المشهورة، وقوله فيها:

فإن من جودك الدنيا وضرتها

ومن علومك علم اللوح والقلم

يا أكـــرم الخلق مـــا لي من ألوذ به

ســـواك عند حلول الحـادث العـمـم

ولـن يضـيق رســول الله جـاهك بي

إذا الـكـريم تحلـى بـاسـم منتــــقـم

إن لـم تـكن فـي مـعـادي آخـذ بيـدي

فــضـــلاً وإلا فــقـل يا زلة القـــدم

ولا يخفى ما في هذه الأبيات من الغلو في مجاوزه الحد، والشرك الصريح، ووصف النبي ﷺ بأن الدينا والآخرة كلها من جوده، وأنه يعلم ما كتب القلم في اللوح المحفوظ، وأنه ليس له من يلوذ به ويستجير به سوى النبي ﷺ، فنسي الله تعالى ولاذ بمخلوق، ومثل هذا كثير في شعر الكثير من الغلاة ونثرهم وأعمالهم الشركية، نعوذ بالله من الخذلان.

■ **قوله: [ولمسلم، عن ابن مسعود: أن رسول الله ﷺ قال: «هلك المتنطعون»، قالها ثلاثاً»**[1]]:

التنطع: التشدد والتكلف، والتعمق في الكلام، والتشدق وتكلف الفصاحة، ويدخل فيه التكلف في البحث عن المغيبات، والدخول في العلوم التي لا حاجة إليها في الدين والدنيا، كما فعل أهل الكلام، حتى وقعوا في الحيرة والحسرة، وهو معنى هلاكهم؛ أي: ضلالهم، وخسرانهم، وضياع سعيهم، وجهدهم، ثم وقوعهم في المهالك، وتكلفهم ما ليس لهم به علمه، وإعراضهم عن العلم الصحيح النافع، وعن طريقة الرسل وأتباعهم من علماء الأمة وأئمتها، والله أعلم.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٦٧٠)، وأبو داود برقم (٤٦٠٨)، وأحمد في المسند (١/ ٣٨٦).

[١٩]

باب:
ما جاء من التغليظ فيمن
عبد الله عند قبر رجل صالح، فكيف إذا عبده؟!

في الصحيح، عن عائشة: أن أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة وما فيها من الصور، فقال: «أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح، أو العبد الصالح، بنوا على قبره مسجداً، وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله»، فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين: فتنة القبور، وفتنة التماثيل.

ولهما، عنها، قالت: لما نَزَل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه، فإذا اغْتَمَّ كشفها، فقال وهو كذلك: «لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبياءهم مساجد»، يُحذِّر ما صنعوا، ولولا ذلك أُبرِزَ قبرُه، غير أنه خُشي أن يتخذ مسجداً»، أخرجاه.

ولمسلم، عن جندب بن عبد الله، قال: سمعت النبي ﷺ قبل أن يموت بخمس، وهو يقول: «إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل، فإن الله قد اتخذني خليلاً، كما اتخذ إبراهيم خليلاً، ولو كنت متخذاً من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك».

فقد نهى عنه في آخر حياته.

ثم إنه لعن ـ وهو في السياق ـ من فعله.

والصلاة عندها من ذلك، وإن لم يُبْنَ مسجد.

وهو معنى قولها: خشي أن يتخذ مسجداً، فإن الصحابة لم يكونوا ليبنوا حول قبره مسجداً.

وكل موضع قصدت الصلاة فيه فقد اتخذ مسجداً، بل كل موضع يُصلى فيه يسمى مسجداً؛ كما قال ﷺ: «جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً».

ولأحمد بسند جيد، عن ابن مسعود مرفوعاً: «إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء، والذين يتخذون القبور مساجد»، رواه أبو حاتم، وابن حبان في صحيحه.

■ ■ ■ ■ ■

● فيه مسائل:

الأولى: ما ذكر الرسول فيمن بنىٰ مسجداً يعبد الله فيه عند قبر رجل صالح، ولو صحت نية الفاعل.

الثانية: النهي عن التماثيل، وغلظ الأمر في ذلك.

الثالثة: العبرة في مبالغته ﷺ في ذلك. كيف بين لهم هذا أولاً، ثم قبل موته بخمسٍ، قال ما قال، ثم لما كان في السياق لم يكتف بما تقدم.

الرابعة: نهيه عن فعله عند قبره، قبل أن يوجد القبر.

الخامسة: أنه من سنن اليهود والنصارىٰ في قبور أنبيائهم.

السادسة: لعنه إياهم علىٰ ذلك.

السابعة: أن مراده تحذيره إيانا عن قبره.

الثامنة: العلة في عدم إبراز قبره.

التاسعة: في معنىٰ اتخاذها مسجداً.

العاشرة: أنه قرن بين من اتخذها، وبين من تقوم عليهم الساعة، فذكر الذريعة إلىٰ الشرك قبل وقوعه مع خاتمته.

الحادية عشرة: ذكره في خطبته قل موته بخمسٍ، الرد علىٰ الطائفتين اللتين هما أشر أهل البدع، بل أخرجهم بعض أهل العلم من الثنتين والسبعين فرقه، وهم الرافضة والجهمية، وبسبب الرافضة حدث الشرك، وعبادة القبور، وهم أول من بنىٰ عليها المساجد.

الثانية عشرة: ما بُلي به ﷺ من شدة النزع.

الثالثة عشرة: ما أكرم به من الخلة.

الرابعة عشرة: التصريح بأنها أعلىٰ من المحبة.

الخامسة عشرة: التصريح بأن الصديق أفضل الصحابة.

السادسة عشرة: الإشارة إلىٰ خلافته.

الشرح

باب:
ما جاء من التغليظ
فيمن عبد الله عند قبر رجل، فكيف إذا عبده؟

هذا الباب الثاني من الأبواب التي تتعلق بالقبور، وبالعبادة عند القبور، والباب الذي قبله: (باب: ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين».

وهذا الباب في التغليظ في عبادة الله عند قبور الصالحين، فكيف بعبادة الصالح نفسه؟ فكيف بعبادة من ليس من الصلاح في شيء؟! بل لا يعرف بصلاح أو يعرف بفساد؟!

ذكر المؤلف رحمه الله في كتابه كشف الشبهات، قال: فاعلم أن شرك الأولين أخف من شرك أهل زماننا بأمرين:

أحدهما: أن المشركين الأولين يخلصون في الشدة، ويشركون في الرخاء، كما ذكر الله عنهم، في قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧].

وأما مشركوا زماننا فإنهم يشتد شركهم عند الأزمات، وعند الشدائد، فتجدهم عند الشدائد يهرعون إلى معبوداتهم، فيدعون الصالح، والولي، والنبي، أو نحوهم، ويهتفون بأسمائهم، وينسون عبادة الله.

الأمر الثاني: أن المشركين الأولين، إما أنهم يعبدون أناساً صالحين، كعيسى، وأمه، وعزيز، والملائكة، ونحوهم، وإما يعبدون أشجاراً وأحجاراً لم تذنب؛

بل هي مسخرة مذللة لله.

أما مشركوا زماننا، فإنهم كما ذكر الشيخ في كشف الشبهات: يعبدون أناساً فسقة، والذين يعبدونهم هم الذين يحكون فسقهم.

وقد يسمونهم مجاذيب؛ بمعنى: أن أحدهم مجذوب، قلبه عند ربه، ولذلك لا تكليف عليه، ولو فعل ما فعل.

وأشار إليهم أيضاً الإمام الصنعاني في قصيدته البائية، حيث يقول:

كقوم عراة في ذرى مصر ما تُرى

على عورة منهم هناك ثياب

يعدُّونهم في مصرهم من خيارهم

دعاؤهم فيما يرون مجاب

هذا في زمن الصنعاني، فهم يمشون عراة ليس على عوراتهم ثياب، وأن أهل بلادهم يعدونهم من خيارهم، ويزعمون أن دعاءهم مستجاب فيما بينهم.

فالحاصل أن عبادة الله عند قبور الصالحين شرك، وورد فيها هذا الوعيد، فكيف بعبادة من ليس بصالح؟

ومن العبادة الصلاة عندهم، أي: تحري الصلاة عند القبر، وكذلك تحري الدعاء عند القبور، بأن يذهبوا إلى القبر ليدعوا عنده، ويزعمون أن دعاء الله عند القبر يستجاب، إما بواسطة ذلك الصالح، أو ذلك الولي الذي في صلاحه يشفع في قبول الدعاء وينفعه، أو ببركته وببركة تربته يقبل الله دعاءنا إذا دعونا عند ذلك الصالح والتقي والسيد ونحوهم، فيقصدون القبر للدعاء عنده، دعاء الله لا دعاءه نفسه، والصلاة لله لا الصلاة له نفسه، فيعتبر هذا شركاً، ورد فيه هذا الوعيد.

وفي هذا الباب ذكر المصنف رحمه الله عدة أحاديث:

■ **الحديث الأول: قوله: [في الصحيح، عن عائشة: أن أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة وما فيها من الصور، فقال: «أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح، أو العبد الصالح، بنوا على قبره مسجداً، وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله»[١]، فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين: فتنة القبور، وفتنة التماثيل]:**

وفي رواية في الصحيح: أن أم سلمة وأم حبيبة[٢] ذكرتا للنبي ﷺ كنيسة بأرض الحبشة يقال لها: مارية[٣]، وذكرتا ما فيها من الصور، فأخبر النبي ﷺ بأنهم شرار الخلق عند الله بهذا الفعل.

وكانت أم سلمة من المهاجرات إلىٰ الحبشة، وكذا أم حبيبة، إحدىٰ زوجات النبي ﷺ.

والكنيسة معبد النصارىٰ الذي يقصدونه للتعبد فيه، ذكرتا له هذه الكنيسة، وذكرتا ما فيها من الصور، فكأنهما دخلتاها فهالتهما تلك الصور، فأخبر النبي ﷺ أنها صور أولئك الصالحين المقبورين المدفونين في تلك الكنيسة، وأنهم يتحرون عبادة الله في تلك الكنيسة؛ من أجل أولئك الصالحين الذين فيها، أو يتحرون دفن من مات من صالحيهم في هذه الكنائس من أجل البركة؛ ومن أجل أن تقبل عباداتهم التي يتعبدونها عند قبور أولئك الصالحين، ومع ذلك لم يقتصروا علىٰ القبور، بل زادوا بالتصاوير.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٣٤).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٤٢٧). ومسلم برقم (٥٢٨).

(٣) جاء ذكر اسم الكنيسة في رواية البخاري برقم (٤٣٤). ومسلم برقم (٥٢٨).(١٨).

* ولذلك يقول المؤلف: (هؤلاء جمعوا بين فتنتين: فتنة القبور، وفتنة التماثيل).

فأما فتنة القبور: فإنهم يدفنون الصالحين في المساجد، ثم يصورون صورهم، وينصبونها أمام المصلي، أو أمام الداعي، أو أمام العاكف، ونحوه، حتىٰ إذا صلىٰ رأىٰ صورة فلان العبد الصالح، أو الرجل الصالح؛ الذي صورت صورته، فيتذكره، ويتبرك به، ونحو ذلك، فصاروا شرار الخلق عند الله بهذا السبب.

فهذا الحديث بيان من النبي ﷺ أن دفن الصالحين في المساجد أو في المعابد من فعل شرار الخلق، وأن تصويرهم لصورهم ونصبها من فعل شرار الخلق عند الله.

هذا هو وجه الدلالة في قوله: «**أولئك**» يخاطب أم سلمة: «**أولئك شرار الخلق عند الله**».

وذنبهم أنهم دفنوا صالحيهم في معابدهم، وأنهم نصبوا صورهم، ولا شك أن هذا يستلزم أن الكثير من الجهلة يتبركون بهم، ويتمسحون بتربتهم، وأنهم فيما بعد يدعونهم مع الله، أو يدعونهم من دون الله، فيقع الشرك.

وهذا هو ما قصده الشيطان عندما أوحىٰ إلىٰ قوم نوح، الذين صوروا ودّاً، وسواعاً، ويغوث، ويعوق، ونسراً، أنه قصد من تصويرهم أن أولادهم، وأولاد أولادهم سيعبدونهم إذا رأوا صورهم منصوبة، فكذلك هؤلاء الذين في هذه الكنائس، قد لا يعبدها من صورها ونحتها لأول مرة أو دفنها، ولكن تقع العبادة فيمن يجيء بعدهم.

■ **الحديث الثاني: قوله: [ولهما، عنها، قالت: لما نَزَل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه، فإذا اغْتَمَّ كشفها، فقال وهو كذلك: «لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبياءهم مساجد»، يُحذِّر ما صنعوا(١)، ولولا ذلك أُبرِزَ قبرُه، غير أنه خُشي أن يتخذ مسجداً»(٢)، أخرجاه]:**

هذا الحديث دلالته صريحة، فإنه ﷺ لما احْتُضِر في آخر حياته، في مرض موته، ونزل به الموت، جعل يطرح ثوباً له على وجهه، يغطي به وجهه، فإذا اغتم وضاقت به نفسه كشفه، وفي تلك الحال، وهو في سياق الموت، لعن اليهود والنصارىٰ، لماذا؟ لأنهم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، يحذر مما صنعوا، يحذر من أن تتخذ أمته قبره أو قبور الصالحين من صحابته مساجد يقصدونها من أجل الصلاة عندها.

* تقول عائشة: «**ولولا ذلك لأبرز قبره**»؛ أي: دفن في الصحراء، ولكنهم خشوا أن يتسلل إليه الناس، ليقصدوا الصلاة عنده، فدفنوه في حجرته؛ حتىٰ تكون الحجرة محل المراقبة، هكذا فعلوا.

لكن بعد أن كان في آخر القرن الأول وانقضىٰ من فيها من الصحابة، أدخلت الحجرة في المسجد من باب التوسعة، ولكن الذين أدخلوها أحاطوها بحيطان، حتىٰ لا تكون محلاً للقصد، ولم يبرزوا القبر، حتىٰ لا يصل إليه الناس من أجل التمسح به، أو نحو ذلك.

فيتبين من ذلك أنه ﷺ صرّح بلعن اليهود والنصارىٰ، «**لعن الله اليهود والنصارى**»، لماذا؟ «**اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**» وفي رواية: «**قبور أنبيائهم**

(١) الحديث إلىٰ هنا، أخرجه البخاري برقم (٤٣٥)، ومسلم برقم (٥٣١)، عن عائشة وعبد الله بن عباس رضي الله عنهم.

(٢) قول عائشة أخرجه البخاري برقم (١٣٣٠)، ومسلم برقم (٥٢٩).

وصالحيهم مساجد»(١) .

وليس معنىٰ مساجد أنهم بنوا عليها مساجد علىٰ هيئتها ، بل إنهم جعلوها مصلىً ومقصداً ، أو أنهم دفنوهم في المساجد ، أو أنهم بعدما دفنوهم بنوا حولهم معابد ، فهذا صريح في ذمهم ، وعيبهم ؛ حيث صرح بلعنهم بقوله : «**لعن الله**» ، واللعن : الطرد الإبعاد عن رحمة الله .

وهذا دليل علىٰ أنهم عصوا الله معصية كبيرة ، سببت وقوعهم في الشرك بعبادة الأنبياء ، أو بعبادة الصالحين ، فيخاف علىٰ من فعل مثل فعلهم أن يقع في مثل ما وقعوا فيه .

فهذا وجه دلالة هذين الحديثين علىٰ أن من عبد الله عند قبر رجل صالح فهو متوعد باللعن ، وهو من شرار الخلق ، فكيف إذا عبد ذلك الرجل؟! والله تعالىٰ أعلم .

■ **الحديث الثالث : قوله : [ولمسلم ، عن جندب بن عبد الله ، قال : سمعت النبي ﷺ قبل أن يموت بخمس ، وهو يقول : «إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل ، فإن الله قد اتخذني خليلاً ، كما اتخذ إبراهيم خليلاً ، ولو كنت متخذاً من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ، ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، فإني أنهاكم عن ذلك»**(٢)] :

هذا الحديث ـ وهو حديث جندب ـ ورد فيه ما يدل علىٰ أنه تكلم بذلك في آخر حياته ﷺ ؛ فذكر أولاً أن الله تعالىٰ اتخذه خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً ،

(١) أخرجه مسلم برقم (٥٣٢) ، عن جندب رضي الله عنه .
(٢) أخرجه مسلم برقم (٥٣٢) .

قال الله تعالىٰ: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾ [النساء: ١٢٥]؛ أي: محبوباً مقرباً؛ فلذلك يقال لإبراهيم ومحمد عليهم الصلاة والسلام الخليلان.

فقد أخبر ﷺ أنه اقتصر على خلة ربه له التي هي أعلىٰ أنواع المحبة، وتبرأ من أن يكون له خليل من الناس، حتىٰ لا يشارك ربه في تلك المحبة الخاصة أحد من المخلوقين.

ثم ذكر أن أولىٰ الناس بالخلة له هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وذلك لطول صحبته، وصدقه في إيمانه، وملازمته للنبي ﷺ منذ أن بعث حتىٰ مات، فهو أولىٰ أن يكون خليله وحبيبه، ولكنه لا يحب أن يزاحم ربه أحد من الخلق في هذه الخلة التي هي أعلىٰ أنواع المحبة، كما قيل:

قد تخللت مسلك الروح مني

وبذا سمي الخليل خليلاً

ثم في هذا بيان أن المحبة صفة دون الخلة، فإن الله تعالىٰ: ﴿يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، و﴿يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، و﴿يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦]؛ فأما الخلة فإنها خاصة بالخليلين إبراهيم ومحمد.

وفي هذا الحديث إشارة إلىٰ أحقية أبي بكر رضي الله عنه بالخلافة، حيث نص النبي ﷺ فضله في هذه الخطبة التي ألقاها قبل موته بخمس ليال، فلا جرم عمل بها الصحابة وقدموه في الخلافة.

ثم إنه أخبر عن الأمم السابقة بأنهم يتخذون قبور أنبيائهم مساجد؛ أي: مواضع للعبادة والصلاة عندها، وذلك مما أنكره من فعل تلك الأمم، وضلل من

فعله، ثم نهىٰ عن مثل فعلهم، بل عن اتخاذ القبور عموماً مساجد؛ سواء كانت قبور الأنبياء أو قبور الصالحين والأولياء، أو قبور الصحابة والشهداء، فنهىٰ عن ذلك كله، وكأنه أشار بذلك إلىٰ قرب أجله، وخاف أن أمته يبنون علىٰ قبره مسجدًا، أو يقصدونه للصلاة عنده، ونحو ذلك مما يكون وسيلة إلىٰ تعظيمه والغلو فيه، ثم دعائه مع الله، وصرف العبادة له مع إنها خالص حق الله تعالىٰ.

وقد وردت السنة المتواترة بالنهي عن الصلاة عند القبور، وتحري الدعاء عندها، حتىٰ لا يتوهم أن إجابة الدعاء بسبب ذلك الميت وشفاعته، وبركة الدعاء عنده، مما يؤدي إلىٰ الاعتقاد فيه، وتوهم أنه ينفع من دعاه، أو توسط به، أو يجيب من سأله، أو طلب منه تفريج كربه، أو شفاء مريض، أو قضاء حاجة.

ومع هذا النهي الأكيد والوعيد الشديد فإن القبوريين قد خالفوا ذلك وجاهروا بالمخالفة، فبنوا القباب علىٰ القبور، ورفعوها، وشيدوها، وعظموها، ثم قصدوها للتعبد والتقرب حولها، ثم آل بهم الأمر إلىٰ أن ذبحوا لها القربان، ونذروا لها النذور، وطافوا بالأضرحة، وتمسحوا بتربتها، وشدوا إليها الرحال من بعيد، واعتقدوا أن تلك البقاع تفضل علىٰ البيت الحرام، والمساجد الثلاثة، كما يفعل ذلك عند القبر المنسوب كذباً إلىٰ علي رضي الله عنه بالنجف، وإنما هو قبر المغيرة بن شعبة، وكذا في كربلاء، وكذا ما نسب إلىٰ الحسين في القاهرة ونحو ذلك، مما يسمونها مشاهد، يغلون فيها، ويعبدونها من دون الله، ولم يرعووا لمن نصحهم، ولم يقرؤا مثل هذه الأحاديث الصحيحة.

■ **قوله: [فقد نهى عنه في آخر حياته.**

ثم إنه لعن - وهو في السياق - من فعله.

والصلاة عندها من ذلك، وإن لم يُبْنَ مسجد.

وهو معنى قولها: خشي أن يتخذ مسجداً، فإن الصحابة لم يكونوا ليبنوا حول قبره مسجداً.

وكل موضع قصدت الصلاة فيه فقد اتخذ مسجداً، بل كل موضع يُصلى فيه يسمى مسجداً؛ كما قال ﷺ: «جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً»[١]]:

ذكر الشيخ رحمه الله استنباطاً من أحاديث الباب أن النبي ﷺ نهى عن اتخاذ القبورمساجد في آخر حياته قبل موته بخمسن ليال، كما في حديث جندب بن عبد الله[٢]، ثم لم يكتف بهذا النهي؛ بل لعن وهو في السياق من فعله، كما في حديث عائشة، حيث ذكرت أنه قال وهو ينازعه الموت: «**لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»، يحذر ما صنعوا[٣].

وأفاد الشيخ رحمه الله تعالى أن قصدها للصلاة عندها داخل في اتخاذها مساجد؛ فليس من شرط اتخاذها مساجد عمارة المساجد عليها، أو إدخالها في المساجد، وذلك ما دل عليه قول عائشة رضي الله عنها: «**خشي أن يتخذ مسجداً**»،

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري برقم (٣٣٥)، ومسلم برقم (٥٢١)، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

وفي الباب عن حذيفة رضي الله عنه بلفظ: «**وجعلت لنا الأرض كلها مسجداً، وجعلت تربتها لنا طهوراً، إذا لم نجد الماء**»، أخرجه مسلم برقم (٥٢٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: «**وجعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً**». أخرجه مسلم برقم (٥٢٣).

(٢) سبق تخريجه في هذا الباب.

(٣) سبق تخريجه في هذا الباب.

أي: خاف أن يقصد الناس قبره إذا كان بارزاً ويتحروا الصلاة عنده، وذكر أن الصحابة رضي الله عنهم قد تأكد عندهم النهي عن البناء على القبور، وتشييدها وتجصيصها، ورفعها عن المستوى المعتاد، بل قد أرسل النبي ﷺ علياً وأمره أن لا يدع قبراً مشرفاً إلا سواه بسائر القبور[1].

ثم ذكر أن كل موضع قصد للصلاة فيه يسمى مسجداً ومصلى، ولو كان صحراء لا بناء فيه، لكنه يخصص للصلاة فيه، ويقصده الناس لذلك، ثم استدل بقول النبي ﷺ: «**جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً**»، أي: كل الأرض تصلح للصلاة فيها، والسجود في أي بقعة منها، فسماها مسجداً مع عدم البناء فيها كلها، وكأنه أراد الجواب لمن يقول: نحن ما عمرنا تلك القبور مساجد ذات محاريب ومنارات، وحيطان متقابلة، وإنما نعتقد أن أولئك الصالحين لهم جاه وفضل وشرف، وأن الصلاة حولهم لها ميزة وفضيلة على غيرها، لشرف تلك البقعة التي احتوت جثمان ذلك الولي الصالح من عباد الله.

فأجابهم: بأنكم قد اتخذتموها مساجد تقصدونها للصلاة عندها، وتركعون وتسجدون حولها، كالصلاة ذات الركوع والسجود في المساجد، وذلك صريح مخالفة النهي في هذه الأحاديث، فإن المساجد سميت بذلك لظهور الركوع والسجود فيها، ولا يسمى مسجداً ما لا صلاة ولا ركوع أو سجود فيه.

ولا شك أن من قصد تلك البقاع التي دفن فيها أولئك الأموات، وتحرى الصلاة، أو الدعاء، أو القراءة عندها فقد صادم هذه النصوص.

ثم إن فعل هؤلاء القبوريين قد دعاهم ودعا الجهلة إلى الغلو في الأموات، واعتقاد أنهم ينفعون ويشفعون بدون إذن الله، فلا جرم دعوهم ورجوهم،

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٦٩٩).

وعلقوا عليهم الآمال، وهتفوا بأسمائهم وأشركوهم مع الله تعالىٰ في خالص حقه، وذلك مما خافه النبي ﷺ علىٰ أمته، حيث نهىٰ عن الوسائل التي توصل إلىٰ هذه المقاصد، التي هي شرك ظاهر في صورة تعظيم الأولياء ومحبتهم.

■ الحديث الرابع: قوله: [**ولأحمد بسند جيد، عن ابن مسعود مرفوعاً: «إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء، والذين يتخذون القبور مساجد»**[1]**، رواه أبو حاتم، وابن حبان في صحيحه**]:

المراد بشرار الناس أكفرهم وأفسقهم، وأبعدهم عن الرشد والصلاح والتمسك بالدين، فقد ورد أنه: «**لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: الله الله**»[2]، وأخبر النبي ﷺ في حديث آخر أنه يبقىٰ شرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع[3]، يتهارجون تهارج الحمر[4]، فعليهم تقوم الساعة.

ثم ألحق بهم في الشر القبوريين الذين يعمرون المشاهد حول القبور، أو يقصدونها لأداء الصلاة فرضاً أو نفلاً عندها، وذلك لأنهم بفعلهم وذلك يقربون من عبادتها، ويقتدي بهم الجهلة من العامة، ويعظم ذلك ويتفاقم الأمر، حتى

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (١/ ٤٣٥). وابن خزيمة رقم (٧٨٩)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٣/ ٣٤٥). والطبراني في «الكبير» رقم (١٠٤١٣). قال الهيثمي في «المجمع» (٨/ ١٣): رواه البزار بأسانيد في أحدهما عاصم بن بهدلة وهو ثقة وفيه ضعف وبقية رجاله رجال الصحيح أ.هـ.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في «الاقتضاء» (٢/ ٦٦٨): إسناده جيد. وبذلك قال أيضاً ابن القيم في «إغاثة اللهفان» (١/ ٢٠٥). وعلق البخاري الجملة الأولىٰ منه رقم (٧٠٦٧). وقال أحمد شاكر في «تحقيق المسند» رقم (٤١٤٣): إسناده صحيح. وصححه الألباني في «تحذير الساجد» ص(١٩).

(٢) أخرجه مسلم برقم (١٤٨)، عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) هذه الجملة جاءت في حديث عبد الله بن عمرو عند مسلم برقم (٢٩٤٠).

(٤) هذه الجملة جاءت في حديث النواس بن سمعان عند مسلم برقم (٢٩٣٧).

تعبد الأموات من دون الله.

وقد كثرت الأدلة في النهي عن الصلاة عند القبور، كقول النبي ﷺ: «**الأرض كلها مساجد إلا المقبرة والحمام**»[١]، رواه أحمد وأهل السنن، وروىٰ مسلم أن النبي ﷺ قال: «**لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها**»[٢]، وغير ذلك من الأدلة.

وقد ذكر بعض الفقهاء أن النهي عن الصلاة حولها؛ لأنها مظنة النجاسة بصديد الموتىٰ ورائحتهم، وأباحوا الصلاة عند القبر أو القبرين؛ لأن النص في القبور وهي جمع، وكل ذلك خطأ، فقد رجح شيخ الإسلام كما في اقتضاء «**الصراط المستقيم**»[٣]: أن النهي ليس لأجل النجاسة، وإنما هو خوف الغلو فيها، وصرف العبادة لأربابها، واستدل بأن النهي ورد عن قبور الأنبياء، ولعن من فعل ذلك، مع قوله ﷺ: «**إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء**»[٤]، أي: أن أجسادهم لم تُبْلَ في الأرض كغيرهم، فعرف بذلك أن النهي ليس لأنها مظنة نجاسة، وإنما هو لكون ذلك ذريعة إلىٰ تعظيم الأموات، وصرف العبادة لهم، وهي خالص حق الله تعالىٰ، لا يصرف منها شيء لغيره، لا لملك مقرب، ولا لنبي مرسل، فضلاً عن غيرها، والله أعلم.

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٨٣، ٩٦)، وأبو داود برقم (٤٩٢)، والترمذي برقم (٣١٧)، وابن ماجة برقم (٧٤٥). عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وصححه الألباني في «الإرواء» (٢٨٧)، و«أحكام الجنائز» ص (٢٧٠).

(٢) أخرجه مسلم برقم (٩٧٢)، عن أبي مرثد الغنوي رضي الله عنه.

(٣) انظر اقتضاء الصراط المستقيم ص(٣٣٢، ٣٣٣)، تحقيق محمد حامد الفقي.

(٤) أخرجه أبو دادو برقم (١٠٤٧). وابن ماجة برقم (١٦٣٦). والنسائي برقم (١٣٧٣)، عن أوس بن أوس رضي الله عنه.
وأخرجه ابن ماجة برقم (١٠٨٥)، عن شداد بن أوس رضي الله عنه.
وصححه الألباني في «السلسلة الضعيفة» رقم (٢٠١).

[٢٠]

باب:
ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثاناً تعبد من دون الله

روى مالك في الموطأ: أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد أشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد».

ولابن جرير بسنده، عن سفيان، عن منصور، عن مجاهد: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى﴾ [النجم: ١٩]، قال: كان يَلُتُّ لهم السويق فمات، فعكفوا على قبره.

وكذا قال أبو الجوزاء، عن ابن عباس: كان يلت السويق للحاج.

وعن ابن عباس، قال: لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور، والمتخذين عليها المساجد والسرج»، رواه أهل السنن.

■ ■ ■ ■ ■

● فيه مسائل:

الأولى: تفسير الأوثان.

الثانية: تفسير العبادة.

الثالثة: أنه ﷺ لم يتسعذ إلا مما يخاف وقوعه.

الرابعة: قرنه بهذا اتخاذ قبور الأنبياء مساجد.

الخامسة: ذكر شدة الغضب من الله.

السادسة: وهي من أهمها: صفة معرفة عبادة اللات التي هي من أكبر الأوثان.

السابعة: معرفة أنه قبر رجل صالح.

الثامنة: أنه اسم صاحب القبر، وذكر معنى التسمية.

التاسعة: لعنه زوارات القبور.

العاشرة: لعنه من أسرجها.

■ ■ ■ ■ ■

●● الشرح ●●

باب:
ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثاناً تعبد من دون الله

وهذا الباب أيضاً مثل البابين قبله، وهو النهي عن الغلو في القبور.

والغلو في القبور هو: تعظيم القبر بشيء أو بنوع من التعظيم، وهذا التعظيم يصيرها في النهاية أوثاناً معبودة من دون الله.

وقد تقدم قبل بابين قصة قوم نوح، وأنهم كانوا رجالاً صالحين، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوروا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم.

فأولاً: عكفوا على القبور حزناً عليهم.

وثانياً: نحتوا لهم صوراً.

وثالثاً: جاء الشيطان للمتأخرين، وقال لهم: اسألوهم واطلبوهم، فصاروا يحلفون بهم ويدعونهم مع الله، فيقولون: ياود، يايعوق، يايغوث، يانسر، فكان ذلك دعاءً لهم من دون الله، فكان عبادة.

فالحاصل أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثاناً وأصناماً معبودة، ولو كانوا صالحين.

فإذا أتيت مثلاً إلى قبر ورأيتهم يطوفون به، أو يتحرون الصلاة عنده، أو يسألون صاحبه، أو يحلفون به، ويقولون: يا سيدنا فلان! اشف مريضنا، أو ردَّ

غائبنا، أو اشفع لنا، أو يذبحون عنده، أو يأخذون من ترابه، أو ينذرون له، أو نحو ذلك.

فقل لهم: قد اتخذتم هذا المكان وثناً وصنماً يعبد من دون الله.

فإذا قالوا: كيف تجعل الولي وثناً؟! وكيف تجعل السيد صنماً؟! هل قبر هذا السيد الصالح المقبول عند الله يكون صنماً ويكون وثناً؟!

فقل لهم: نعم! حتىٰ ولو كان قبر الرسول ﷺ، أو قبر أحد من الرسل أو الأنبياء.

ثم قل لهم: لو كانت عبادة قبر الأنبياء لا تصيرها أوثاناً ما دعا الرسول ﷺ بهذا الدعاء الصريح، الذي قال فيه: «**اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»(١).

وقد كان أول تعظيم للقبور في المائة الرابعة، في دولة بني بويه، وفي دولة من يسمون أنفسهم كذباً وزوراً بالفاطميين، أي: انتساباً إلىٰ فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ، وهم بنو عبيد القدّاح، وكانوا كلهم رافضة، ولكن قسم منهم سكن العراق، وقسم سكن مصر والشام، وكانوا يزينون للناس تعظيم القبور وتشييدها، ورفع أمكنتها والصلاة عندها ونحو ذلك، إلىٰ أن وقع الشرك في المتأخرين وتمكّن.

---

(١) سيأتي تخريجه قريباً في هذا الباب.

■ **قوله: [روى مالك في الموطأ: أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد. أشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»**[1]]:

في هذا الحديث دعا النبي ﷺ أن لا يكون قبره وثناً يعبد، أي: يُطاف به كما يطاف بالبيت، ويُتمسح بترابه، أو يُذبح عنده، أو يُنذر له، أو يُحلَفُ به، أو يُركع أو يسجد له، أو نحو ذلك. يقول ابن القيم رحمه الله:

فأجاب رب العالمين دعائه

وأحاطه بثلاثة الجدران

ولما أن أبناء الصحابة رضي الله عنهم أدخلوا القبر في المسجد من أجل التوسعة، أرادوا أن لا يكون القبر مستقبلاً للمصلين، فجعلوه في زاوية مثلثة؛ حيث جعلوا حوله ثلاثة حيطان على هيئة زاوية مثلثة، جانبه الشمالي يلتقي فيه الجدران، حتى إذا كان أحدٌ يستقبل القبلة من جهة الشمال فإذا القبر لا يقابله، إنما يقابله هذان الجداران؛ لأن القبلة في جهة الجنوب.

والحاصل أنه لما دعا الله دل على أن من عكف على قبر رجل صالح، أو ولي، أو نحو ذلك، فقد اتخذ ذلك القبر وثناً، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام في هذا الحديث: «**اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»، يعني: قصدوها لأجل أن يصلوا

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ برقم (٢٦١)، وابن سعد في «الطبقات» (٢/ ٢٤٠)، عن عطاء بن يسار مرسلاً.
وأخرجه عبد الرزاق (١/ ١٠٦)، وابن أبي شيبة (٣/ ٣٤٥)، عن زيد بن أسلم مرسلاً. و لم يذكر عطاء.
ووصله أحمد في «المسند» (٢/ ٢٤٦)، والحميدي برقم (١٠٢٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٢٨٣، ٣١٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه.
وصححه البزار وابن عبد البر كما في تنوير الحوالك (١/ ١٨٦)، وشرح الزرقاني (١/ ٣٥١)، وقال أحمد شاكر في تحقيق «المسند» (٧٣٥٢): إسناده صحيح، وصححه الألباني في تحذير الساجد ص١٨، ١٩.

عندها، ويقصدون بذلك أن الصلاة عند قبر هذا النبي أو ذلك الولي أفضل من الصلاة في المساجد، وما أشبه ذلك.

وقوله ﷺ: «**اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»، فإن كل موضع يُصلىٰ فيه يسمىٰ مسجداً، سواء كان مبنياً أو غير مبني، فأي موضع قُصد للصلاة فيه فإنه يسمىٰ مسجد، فهؤلاء الذين قصدوا الصلاة عند القبر فإنهم اتخذوا هذا القبر مسجداً.

وقوله ﷺ: «**اشتد غضب الله على قوم**»، يعني: أن الله غضب عليهم عضباً شديداً؛ لأنهم وقعوا في الشرك، فأصبحوا مشركين.

فتبين لنا مما سبق أن عندنا في هذا الموضوع وسائل ومقاصد، والوسائل هي: الصلاة لله عند القبر، فمثلاً إذا قلت: أصلي عند هذا القبر، ولكن لله، وأجلس عنده، ولكن تعظيماً لله، نقول: لا شك أن هذا الفعل جائز إذا كان لله، ولكنك فتحت الباب؛ حيث أنك جعلته وسيلة، وهذه الوسيلة قد تجرك في النهاية إلىٰ أن تعتقد أن لهذا المكان ميزة وشرفاً وفضيلة، فتكون بذلك واقعاً في الشرك، ومتلبساً به؛ حيث اعتقدت أن هذا المكان أفضل من المساجد التي هي محل الطاعات، وبالتالي يتجرأ غيرك من الجهلة فيفعلون كما فعلت.

فالحاصل أنه عليه الصلاة والسلام ما دعا الله إلا وقد خاف أشد الخوف علىٰ أمته أن تتخذ قبره معبداً، كما عُبدت قبور الصالحين ونحوه.

وقد تقدم أنه ﷺ أخبر عن النصارىٰ ونحوهم، فقال: إذا مات فيهم الرجل الصالح بنو علىٰ قبره مسجداً، وصوروا فيه تلك الصور، وأخبر بأنهم شرار الخلق عند الله بهذا السبب(١).

---

(١) كما في قوله ﷺ، عن عائشة: أن أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة وما فيها من الصور، فقال: «**أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح، أو العبد الصالح، بنو على قبره مسجداً، وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله**».
أخرجه البخاري برقم (٤٣٤).

وهكذا أيضاً وقع في مشركي هذه الأمة مثل ذلك؛ فإنهم ما جرأهم على الشرك وأوقعهم فيه إلا تعظيم القبور ونحوها، فالروافض مثلاً لما أنهم عظموا قبر علي الموجود في ما يسمىٰ بـ(النجف) مع أن هذا كذب، فليس هناك قبر لعلي، وأيضاً عظموا قبر الحسين الموجود في ما يسمىٰ بـ(كربلاء)، وهذا أيضاً من الكذب.

والحاصل: أنه ما زال بهم التعظيم إلىٰ أن جعلوا قصده وزيارته أفضل من حج الفريضة، وقالوا: من زاره وصلىٰ وقام عنده فله كذا وكذا حجة، وما زال ذلك فيهم إلىٰ أن عبدوه، وعبدوا غيره من القبور، والله المستعان.

والحاصل أن الغلو في قبور الصالحين صيرها أوثاناً وأصناماً تقصد من دون الله.

■ **قوله: [ولابن جرير بسنده، عن سفيان، عن منصور، عن مجاهد: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ﴾** [النجم: ١٩]، **قال: كان يَلُتُّ لهم السويق فمات، فعكفوا على قبره**(١).

وكذا قال أبو الجوزاء، عن ابن عباس: كان يَلُتُّ السويق للحاج(٢)].

هكذا يكون الشرك، حيث يبدأ بالغلو في قبور الصالحين، ثم تصير أوثاناً تعبد من دون الله، وهكذا أيضاً في المشركين من العرب قبل الإسلام، كان من أسباب شركهم تعظيم أولئك الأموات.

* **فمثلاً اللات** التي ذكرت في القرآن، وهي صنم كان في الطائف، وهو صخرة مشهورة، وقد قيل في سبب عبادتهم لهذه الصخرة: أن تحتها قبر رجل

---

(١) أخرجه ابن جرير في «التفسير» (٢٧/ ٥٨).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٤٨٥٩) في «التفسير» عند تفسير قوله تعالىٰ: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ﴾.

صالح كان يخدم الحجاج إذا مروا عليه وافدين إلىٰ الكعبة، فيخدمهم ويطعمهم، ويلت لهم السويق الذي هو نوع من الطعام، يلته بإدام أو بدهن، أو بنحو ذلك، ويقدمه لهم.

واللّتّ هو: الخلط، يلت السويق للحاج، يعني: يخلطه، ويقدمه، ويؤدمه. وبذلك اعتقدوا فيه الصلاح.

فلما مات ودفن تحت تلك الصخرة صاروا يعكفون علىٰ قبره، ثم مع طول الزمان انمحىٰ قبره، وصاروا يعظمون نفس الصخرة، ويحلفون بها، فيقولون لمن حلّفهم: واللّات والعزىٰ.

ولما أسلم أهل الطائف اشترطوا أن تبقىٰ لهم الطاغية؛ التي هي اللات سنة يتمتعون بها، فامتنع النبي ﷺ أن يقرّها ولو يوماً، ولم يقبل منهم شرطهم، وأرسل إليها من يكسرها، وكانت صخرة عظيمة، ولما بدأ المغيرة وغيره في تكسيرها، اعتقدوا أن من يكسرها سيصيبه جنون أو ستنتقم منه، أو نحو ذلك، ولكنه لم يصبه شيء، فعند ذلك انمحىٰ أثرها.

عرفنا بذلك أن غلوهم في قبر ذلك الرجل أدىٰ بهم أن عبدوا تلك الصخرة، وصارت وثناً من الأوثان المشهورة.

أما العزى فهي شجرات بين مكة والطائف، كانوا يعظمونها ويحلفون بها ونحو ذلك، فأدىٰ بهم غلوهم في هذه الشجرات إلىٰ أن عبدوها من دون الله، فصارت وثناً وصنماً من الأصنام.

وهكذا كل من غلىٰ في بقعة، أو قبر، أو نحو ذلك، في النهاية يكون وثناً باتخاذ الناس له ملجأ وملاذاً يقصدونه، ويعكفون عليه، ويقدمون له النذور والقرابين، ويعظمونه ويعتقدون فيه النفع والضر.

■ **قوله: [وعن ابن عباس، قال: لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور، والمتخذين عليها المساجد والسرج»، (١) رواه أهل السنن]:**

فهو بهذا اللفظ عند الإمام أحمد، وأبي داود، والترمذي، والنسائي، ورواه ابن ماجه ولم يذكر آخره، وحسنه الترمذي، وسكت عنه أبو داود، وصحح

(١) أخرجه أبو داود برقم (٣٢٣٦)، والنسائي (٤ / ٩٥، ٩٦)، والترمذي رقم (٣٢٠).
وابن ماجه رقم (١٥٧٥)، وأحمد في «المسند» (١ / ٢٢٩، ٢٨٧، ٣٢٤، ٣٣٧)، وابن أبي شيبة (٣ / ٣٤٤)، وابن حبان (٧٨٨)، والطبراني في «الكبير» (١٢٧٢٥)، والحاكم في «المستدرك» (١ / ٣٧٤)، والبيهقي (٤ / ٧٨)، وأورده البغوي في «شرح السنة» (٢ / ٤١٦، ٤١٧).
قال الترمذي: حديث ابن عباس حديث حسن. وحسنه شيخ الإسلام ابن تيمية في «الفتاوىٰ» (٢٤ / ٣٥٠)، وقال البغوي: هذا حديث حسن.
وقال أحمد شاكر في «تحقيق المسند» (٢٠٣٠): إسناده صحيح. وقال في «تحقيق سنن الترمذي»: فهذا الحديث علىٰ أقل حالاته، حسن، ثم الشواهد التي ذكرناها في تأييده ترفعه إلىٰ درجة الصحة لغيره، إن لم يكن صحيحاً بصحة إسناده هذا أ. هـ.
وقال ابن حجر في «التلخيص» (٢ / ١٣٧): والجمهور علىٰ أن أبا صالح هو مولىٰ أم هانئ وهو ضعيف. أ. هـ، وقال الأرناؤوط في «تحقيق شرح السنة»: إسناده ضعيف لضعف أبي صالح، واسمه باذام مولىٰ أم هانئ. قال في «التقريب»: ضعيف مدلس، لكن الحديث حسن كما قال الترمذي، دون قوله: «والمتخذين عليها السرج» فإنها لم ترد في غير هذا الحديث.
وللحديث شاهد عن أبي هريرة قال: لعن رسول الله ﷺ: «زوّارات القبور»، أخرجه الترمذي برقم (١٠٥٦)، وأحمد في «المسند» (٢/ ٣٣٧، ٣٥٦)، وابن ماجة رقم (١٥٧٦). والطيالسي في «المسند» رقم (٢٣٥٨)، وابن حبان (٥ / ٧٢)، والبيهقي، قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وصححه ابن تيمية في «الفتاوىٰ» (٢٤ / ٣٦٠)، والبغوي في «شرح السنة» (٢ / ٤١٧) وقال أحمد شاكر في «المسند»: (٨٤٣٠): إسناده صحيح. وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٤٩٨٥).
وأخرجه من حديث حسان بن ثابت ابن ماجة رقم (١٥٧٤)، وأحمد في «المسند» (٣ / ٤٤٢، ٤٤٣). وابن أبي شيبة في «المصنف» (٣ / ٣٤٥)، والطبراني في «الكبير» رقم (٣٥٩١)، والحاكم في «المستدرك» (١ / ٣٧٤). والبيهقي (٤ / ٧٨). قال البوصيري في «مصباح الزجاجة» (١ / ٥١٦): إسناده صحيح ورجاله ثقات.

إسناده أحمد شاكر في تحقيق المسند برقم (٢٠٣٠، ٢٦٠٣، ٢٩٨٦، ٣١١٨)، وكذا في شرحه على الترمذي، وهو من رواية أبي صالح مولى أم هانئ عن ابن عباس، وقد اختلف فيه، وقد رجح الشيخ أحمد شاكر توثيقه، وأجاب عن الطعن فيه.

وللحديث شواهد؛ حيث رواه ابن ماجه عن أبي هريرة، وعن حسان، فهو حديث مروي عن جماعة من الصحابة، ودلالته واضحة في نهي النساء عن زيارة القبور، وقد رجح ابن القيم في حاشية سنن أبي داود رواية المنع مطلقاً لصحة أحاديث النهي، ولورود اللعن على ذلك، وهو يقتضي الإثم والذنب الكبير.

ومما يدل على النهي والمنع لهن الحديث الذي فيه قوله ﷺ: **«أرجعن مأزورات غير مأجورات»**، وزاد في بعض الروايات: **«فإنكن تفتن الأحياء وتؤذين الأموات»**[1].

وهكذا الحديث الذي رواه أحمد وأهل السنن، أن النبي ﷺ قال لفاطمة: **«لو بلغت معهم الكدى ما رأيت الجنة حتى يراها جد أبيك»**[2]، والمراد بالكدى أدنى المقابر.

وقد أجاب ابن القيم عن أحاديث الإذن بأنها خطاب للرجال.

ومن استدل بهذا الحديث من أجاز لهن الزيارة فلا دلالة فيه لوجود

---

(١) أخرجه ابن ماجه برقم (١٥٧٨)، والخطيب في تاريخ بغداد (٩/ ١٠٢)، وأبو يعلى في المسند (٤٠٥٦).

قال الهيثمي في المجمع (٣/ ٣١): رواه أبو يعلى، وفيه الحارث بن زياد، قال الذهبي: ضعيف.

(٢) أخرجه أبو داود برقم (٣١٢٣)، وأحمد في المسند (٢/ ١٦٨، ١٦٩)، والنسائي (٤/ ٢٧) رقم (١٨٧٨)، وأبو يعلى الموصلي في مسنده (٦٧٤٦).

وقال أحمد شاكر في تحقيق المسند (٦٥٧٤): إسناده حسن.

الاحتمالات الظاهرة، فالمنع هو الأصل للوعيد الشديد لهن على الزيارة، وهو يعم مسمى الزيارة قليله أو كثيره، وعلل ذلك بعدم صبرهن، وضعفهن، فيخشى من صدور ندب ونياحة وجزع، ونحو ذلك من أمور الجاهلية.

* **وأما لعن المتخذين عليها المساجد**: فالمراد من يتحرى الصلاة عندها، وذلك مخافة الاعتقاد فيها، مما يجر إلى عبادة الأموات، ودعائهم من دون الله تعالى، وهو يعم البناء عليها، أو دفن الميت في المسجد، أو بناء المساجد على القبور لقصد التبرك بالميت، واعتقاد أن تربته تؤل إلى كثرة الخير، وزيادة الأجر، أو قبول الصلاة عنده، ومضاعفة أجرها، أو تسببه في رفع العبادة، وذلك بلا شك تعظيم للمخلوق، ووسيلة إلى صرف شيء من العبادة له، وهي خالص حق الله تعالى.

* **وأما السرج**: فالمراد بها المصابيح المضيئة بالليل، وكذا الشموع والقناديل، ويلحق بها أيضاً الإضاءة الكهربائية، والمعنى: أنه لا يجوز تخصيص قبر بجعل السراج عليه طوال الوقت، فإن الجهال متى رأوا ذلك اعتقدوا أن هذا الميت له خصوصية ومزية على سائر الأموات حوله، فدعاهم ذلك إلى تعظيمه والغلو فيه، والعكوف حول قبره، ثم دعائه مع الله، وطلب الشفاعة منه، مما هو شرك ظاهر أو وسيلة إلى الشرك.

ولا يدخل في ذلك الإضاء الكهربائية العامة في المقابر، فإن القصد مها إنارة الطريق لمن زار القبور ليلاً، أو لمن أراد دفن ميت أو تشييعه بالليل، وذلك مقصد حسن، خال عن المحذور الذي هو تخصيص أحد القبور بالإسراج عليه طوال الليل، لما ذكرنا من التعليل، والله أعلم.

■ ■ ■ ■ ■

[٢١]

باب:
ماجاء في حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد وسده كل طريق يوصل إلى الشرك

وقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، ولا تجعلوا قبري عيداً، وصلُّوا علي، فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم»، رواه أبو داود بإسناد حسن، ورواته ثقات.

وعن علي بن الحسين، أنه رأى رجلاً يجيء إلى فرجة كانت عند قبر النبي ﷺ، فيدخل فيها فيدعو، فنهاه، وقال: ألا أحدثكم حديثاً سمعته من أبي، عن جدي، عن رسول الله ﷺ؟ قال: «لا تتخذوا قبري عيداً، ولا بيوتكم قبوراً، فإن تسليمكم يبلغني أين كنتم»، رواه في المختارة.

■ ■ ■ ■ ■

• فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية براءة.

الثانية: إبعاده أمته عن هذا الحمى غاية البعد.

الثالثة: ذكر حرصه علينا ورأفته ورحمته.

الرابعة: نهيه عن زيارة قبره على وجه مخصوص، مع أن زيارته من أفضل الأعمال.

الخامسة: نهيه عن الإكثار من الزيارة.

السادسة: حثه على النافلة في البيت.

السابعة: أنه متقرر عندهم أنه لا يصلي في المقبرة.

الثامنة: تعليله ذلك بأن صلاة الرجل، وسلامه عليه يبلغه، وإن بعد، فلا حاجة إلى ما يتوهمه من أراد القرب.

التاسعة: كونه ﷺ في البرزخ تعرض أعمال أمته في الصلاة والسلام عليه.

■ ■ ■ ■ ■

●● الشرح ●●

باب:
ماجاء في حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد وسده كل طريق يوصل إلى الشرك

هذا الباب عقدة المؤلف رحمه الله لبيان أن النبي ﷺ نهى أمته عما يوقعهم في الشرك، حتى أنه نهى عن اتخاذ قبره وثناً يعبد، وقد تقدمت أحاديث كثيرة فيها حمايته ﷺ لجناب التوحيد، وسده الطرق الموصلة إلى الشرك، ومن ذلك؛ تحذيره لهم أن يتخذوا القبورمساجد، حذّر من ذلك في آخرحياته، وأخبر بأن الذين يفعلون ذلك شرار الخلق، ولعن اليهود والنصارى، وهو في سياق الموت، يحذّر ما صنعوا، ولولا ذلك لأبرز قبره.

وكذلك من حمايته لجناب التوحيد تحذيره أن يتخذ قبره مزاراً بمنزلة العيد الذي يعتاد مجيئه ويتكرر، في قوله: «**لا تجعلوا قبري عيداً**»(١)، أي: لا تكرروا المجيء إليه، وتجعلوه فرضاً لازماً كالعيد الذي يعود كل عام، وذلك كله من حمايته لجناب التوحيد.

والمراد بجناب التوحيد: يعني: جرمه وماهيته، أو جوانبه وحافاته وأطرافه التي تحيط به من كل جانب، أي: أنه حافظ على التوحيد أتم المحافظة.

وحمايته؛ أي: جعل له حمى.

والحمى هو: الشيء الذي يحمى من الانتهاك، ومنه المراعي التي تحمى؛ كقوله عليه الصلاة والسلام: «**ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله**

---

(١) سيأتي تخرجه قريباً في هذا الباب.

محارمه»[١]، بعد قوله: «كالراعي يرعى حول الحمى»، فالراعي يرعىٰ حول الحمىٰ؛ أي: حول الأرض المحمية.

فكذلك التوحيد له حمىٰ، حتىٰ لا يقع الناس فيما يقدح في التوحيد، وسده كل طريق يوصل إلىٰ الشرك؛ سواء طرق الشرك الحسية، أو طرق الشرك المعنوية.

ولكن المراد هنا: طرق الشرك المعنوية، التي متىٰ فعلها الناس فإنهم يقعون في الشرك أو وسائل الشرك.

* **ومن الطرق التي توصل إلى الشرك**: شد الرحال إلىٰ القبور، واعتياد ذلك، وكذلك جعل القبور أعياداً؛ بحيث يعتاد مجيئها ويتكرر.

* **ومن الطرق التي توصل إلى الشرك أيضاً**: اتخاذ القبور مساجد، وإسراج القبور وإضاءتها، ورفع القبور وتشييدها، وتجصيصها والبناء عليها، وما أشبه ذلك، فإن هذه كلها من طرق الشرك التي إذا توسع الناس فيها في بادئ الأمر أوقعهم ذلك في النهاية في الشرك بالله.

وقد لا يكون أول الأمر شركاً؛ يعني: لا يقعون في الشرك متىٰ بنوا علىٰ القبور، وقد لا يشرك الذين بنوا علىٰ القبر، ولم يقصدوا تعظيمه ولا دعاءه، ولكن يصير فتنة لغيرهم، فمتىٰ رأىٰ غيرهم هذا القبر مشيداً ومجصصاً ونحو ذلك، اعتقدوا فيه وزاروه، وتمسحوا به، ودعوا صاحبه، أو متىٰ رأوا هذا القبر مسرجاً طوال الليل دون غيره من القبور، اعتقدوا فيه، وإن لم يكن الذي أوقد السراج يعتقد ذلك، أو لم يشرك بالله عز وجل، ولكنه صار سبباً.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٥٢)، ومسلم برقم (١٥٩٩)، عن النعمان بن بشير رضي الله عنه.

* كذلك الذي يزور القبر النبوي، أوغيره كل أسبوع، ويفعل ذلك قصداً للقبر نفسه، فإن هذا أيضاً من وسائل الشرك، وإن لم يقصد تعظيم القبر، لكنه قد يؤدي في النهاية إلىٰ الاعتقاد السيء أن لصاحب القبر ميزة، وأن له فضيلة تؤدي إلىٰ أنه يُعطىٰ شيئاً من حق الله، فيدعىٰ مع الله، أو يطاف به، كما يطاف ببيت الله، أو ما أشبه ذلك، فهذا ونحوه من حمايته ﷺ لجناب التوحيد.

* ومن طرق الشرك أيضاً: التي سدها عليه الصلاة والسلام الغلو، بقوله: «إياكم والغلو، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو»[1].

* ومن طرق الشرك أيضاً: زيادة مدح الرسول ﷺ، وإطراؤه، وإعطاؤه شيئاً لا يستحقه، وقد نبه علىٰ ذلك ﷺ بقوله: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم»[2].

* كذلك من طرق الشرك: التردد علىٰ القبر الشريف لمزية في نفس القبر، واتخاذه عيداً، لذلك نهىٰ عنه في هذه الأحاديث الصريحة.

■ **قوله: [وقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾** [التوبة: ١٢٨]]:

أمرنا الله تعالىٰ أن نقتدي بالرسول ﷺ، ونطيعه، وجعل طاعته من طاعة الله، فقال سبحانه: ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، ومتىٰ أطعناه فإننا صادقون في محبته، وإذا جاءنا أمره وعصيناه، فلسنا صادقين في ادعائنا محبته.

---

(١) سبق تخريجه في الباب الثامن عشر (باب ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو).
(٢) سبق تخريجه في الباب الثامن عشر (باب ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو).

لقد وصف الله تعالى الرسول ﷺ في هذه الآية الكريمة من آخر سورة التوبة، بهذه الصفات التي تقتضي شفقته على الأمة، فقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، أي: منكم، ومن جملتكم، أي: بشر مثلكم، أو من قبيلتكم، أو من جنس بني آدم، ولم يكن من الملائكة، ولا من الجن، أو نحوه، بل هو بشر مثلكم تتمكنون من مخاطبته، وتعرفون حسبه ونسبه: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾، يعني: أن من صفاته أنه يشق عليه الشيء الذي يكلفكم، وقوله: (عزيز): يعني: صعب وشاق، لا يريد الشيء الذي يعنتكم، والعنت، بمعنى: الصعوبة والشدة والقسوة، يعني: لا يحب ما يصعب عليكم، ويشق عليه صعوبتكم، فلا يريد تكليفكم بشيء تعجزون عنه: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾؛ يعني: حريص على هدايتكم: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾؛ أي: رؤوف بهم؛ بمعنى: أنه شفيق عليهم.

فالحاصل أن الله وصفه بهذه الصفات الأربع:

- **الأولى**: أنه يشق عليه الشيء الذي يكلف أمته، ويصعب عليها.
- **الثانية**: أنه حريص على هدايتهم أيما هداية.
- **الثالثة**: وصفه بالرحمة.
- **الرابعة**: وصفه بالرأفة، والرحمة والرأفة متقاربان في المعنى.

وهذه الأوصاف تقتضي منا أن نطيعه، وألا نخالفه؛ فإذا نهانا أن نتخذ قبره عيداً، فذلك من شفقته علينا، وكونه دعا الله ألا يتخذ قبره وثناً يعبد؛ فذلك من خوفه على أمته، وإذا لعن الذين يتخذون القبور مساجد؛ ليحذر أمته مما وقعت

فيه اليهود والنصارىٰ، أو نهىٰ عن ذلك، أو أخبر بأنهم شرار الخلق عند الله، فذلك من شفقته علىٰ أمته أن لا يقعوا في هذا الذنب العظيم، وإذا نهىٰ عن إطرائه، أو الغلو في الدين، فذلك من نصحه لأمته، ومن محبته لنجاتهم، وكذلك إذا لعن زوارات القبور، أو لعن الذين يسرجون القبور، فذلك كله من نصحه البليغ لأمته.

ومتىٰ عرفنا نصحه لأمته لنجاتها فلنحقق هذه النجاة، ومن تحقيقها أن نعمل بهذه الإرشادات، فنبتعد عن الأشياء التي تكون سبباً للوقوع في الشرك الذي حذر عنه، والذي قامت دعوته من أول ما قامت علىٰ التحذير من الشرك، من أول ما بعث إلىٰ أن توفي وهو يدور حول تحقيق التوحيد وتكميله، والتحذير من أسباب الشرك ووسائله.

والله تعالىٰ أمرنا أن نطيعه، كما في قوله: ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور: ٥٦]؛ فجعل الرحمة مترتبة علىٰ طاعته ﷺ.

وكذلك أمرنا أن نتأسىٰ به، بقوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١]؛ بمعنىٰ: أنه قدوتكم، فافعلوا كأفعاله، وهو عليه الصلاة والسلام كان حرباً علىٰ هذه البدع المتعلقة بالقبور، والتي هي وسائل من وسائل الشرك.

فالحاصل أن هذا الباب معقود لبيان حرصه عليه الصلاة والسلام علىٰ النصيحة لأمته ونجاتها، وأن من جملة ذلك حرصه ألا يتخذوا قبره عيداً، أو نحو ذلك، وبطريق الأولىٰ قبورغيره ممن هو دونه.

■ **قوله: [عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، ولا تجعلوا قبري عيداً، وصلُّوا علي؛ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم»[١]، رواه أبو داود بإسناد حسن، ورواته ثقات]:**

بين النبي ﷺ في هذا الحديث بعض الأمور، فمن ذلك:

* **أولاً: قوله: «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً»:**

وقعت هذه الجملة في حديث أبي هريرة، وفي حديث علي بن الحسين، ولهما شواهد، ذكر بعضها الشارح في تيسير العزيز الحميد، واتفق الشراح على أن المراد: أن لا تهجروا بيوتكم من الصلاة، فتجعلوها بمنزلة القبور، وكأنه تقرر عندهم أنه لا تجوز الصلاة في المقابر، أي: لا يتحرى الإنسان أن يصلي عند القبور، وليس ذلك لنجاستها بصديد الموتى، كما قال ذلك بعض المشايخ، وإنما هو خوف الغلو فيها بدعاء الأموات، والإشراك بهم، كما قرره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى[٢].

فكأنه يقول: إذا هجرتم بيوتكم، ولم تصلوا فيها أية صلاة، كانت بمنزلة القبور التي لا يصلى فيها، وهذا ليس بمستحب؛ بل اجعلوا فيها شيئاً من عباداتكم.

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٦٧)، وأبو داود رقم (٢٠٤٢) وابن أبي شيبة في «المصنف» (٢/ ٢٥٦)، وصححه النووي في «الأذكار» رقم (٩٧)، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في «الاقتضاء» (٢/ ٦٥٤): إسناده حسن ورواته ثقات مشاهير، لكن عبد الله بن نافع الصائغ الفقيه صاحب مالك فيه لين، لا يقدح في حديثه أ. هـ.

وحسنه ابن حجر كما في «الفتوحات» (٣/ ١٣٣)، والسخاوي في «القول البديع» ص (١٥٥)، وحسنه الألباني في «تحذير الساجد» ص(٩٦).

(٢) انظر «اقتضاء الصراط المستقيم» لشيخ الإسلام ابن تيمية ص(٣٣٢، ٣٣٣)، تحقيق محمد حامد الفقي.

وقد ورد ذلك في بعض الأحاديث مصرحاً به أنه عليه الصلاة والسلام قال: «**اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم، ولا تتخذوها قبوراً**»[١]، أي: لا تقطعوها من الصلاة فيها فتكون بمنزلة القبور.

والمراد هنا: صلاة النوافل التي هي رواتب الصلوات: كسنة الفجر، وسنة الظهر قبلها، أو بعدها، وسنة المغرب بعدها، وسنة العشاء بعدها، وصلاة الليل، والوتر، وصلاة الضحىٰ، والتهجد، وما أشبه ذلك، فإن الأفضل أن تكون في البيت، فقد ثبت عنه ﷺ أنه قال: «**أفضل صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة**»[٢]، والمكتوبة هي: الفريضة، فإن الفريضة يلزم أن تؤدىٰ في المساجد التي بنيت لها، ولا يجوز للرجال فعل الفريضة في المنزل إلا لعذر شرعي.

فأما النوافل: فالأفضل أن تكون في البيت، وذلك فيه فوائد:

أولاً: أن يعمر البيت بذكر الله، ولا يخلو البيت من ذكر الله، وإقامة شعائر الله وعبوديته.

ثانياً: أنه متىٰ عمر بالذكر، فإنه يكون مطردة للشياطين، ومأوىٰ للملائكة والخير.

ثالثاً: أنه يكون قدوة حسنة للزوجة، والصغار، ولأهله إذا رأوه يكثر من النوافل؛ اقتدوا به في هذه النوافل فأكثروا منها.

ورابعاً: تعليم الأهل والذرية كيفية الصلاة، فقد يكون بعض الأولاد، أو

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٣٢)، ومسلم برقم (٧٧٧)، عن ابن عمر رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري برقم (٧٣١)، ومسلم برقم (٧٨١)، عن زيد بن ثابت رضي الله عنه.

بعض النساء لا يحسن الصلاة، فلا يعرف مثلاً صفة الركوع الصحيح، أو صفة السجود الصحيح، فإذا صلىٰ ولي أمرهم أمامهم في البيت اقتدوا به وتعلموا صفة الصلاة، كما جاءت عن النبي ﷺ.

وخامساً: أنه يكون أقرب إلىٰ الإخلاص، وأبعد عن الرياء، فإن الذي يصلي مثلاً في المسجد قد يدخله شيء من الإعجاب، وقد يزيد في صلاته لأجل نظر أحد إليه، أو ما أشبه ذلك.

لكن علىٰ كل حال هذا جائز، أي: أن يصلي في بيته، وأن يصلي في المسجد، لأن المسجد محل للصلوات، لكن متىٰ تيسر له أن يجعل صلاة النوافل أو بعضها في البيت، فهو أفضل؛ لأنه ورد في حديث: «**اجعلوا من صلاتكم**»(١) أي: بعضاً منها.

*** ثانياً: قوله: «لا تتخذوا قبري عيداً»:**

العيد: اسم لكل ما يتكرر ويعود، إما بعود السنة، أو الشهر، أو الأسبوع من الاجتماع العام، والغالب أنه يعود بفرح وبسرور، ولكنه في الحديث أطلق، فقال: «**لا تتخذوا قبري عيداً**»؛ سواء كان عيداً يقترن به اجتماع عام، أو خاص، أونحو ذلك، الكل منهي عنه في هذا الحديث

والعيد هو: اسم لما يعود ويتكرر؛ فمثاله: عيد الأسبوع وهو يوم الجمعة، سميت بذلك؛ لأنها تعود كل أسبوع فتسمىٰ عيد الأسبوع.

والأعياد الإسلامية في السنة عيدان: هما عيد الفطر وعيد الأضحىٰ، يسمىٰ

---

(١) سبق تخريجه قريباً في هذا الباب.

كل منهما عيداً من العَوْدِ، وهو التكرار، وسمي عيداً؛ لأن الناس يغتبطون فيه، ويجتمعون، ويظهرون الفرح والسرور بإكمال عباداتهم.

ففي عيد الفطر يسرون ويفرحون بإكمال شهرهم، وتوفيقهم لصيامه، وقيامه، وإخراج زكاة فطرهم.

وفي عيد الأضحىٰ يسرون ويفرحون أيضاً بإكمال عباداتهم في عشر ذي الحجة؛ من صيام، وذكر وصدقة، وأضاحي ونحو ذلك، فيظهر لهم بذلك سرور.

وقد تقدم لنا أن أهل الجاهلية كان لهم أماكن يجتمعون فيها سنوياً، ويسمون ذلك الاجتماع عيداً من أعيادهم، للحديث الذي جاء فيه الرجل الذي نذر أن ينحر إبلاً ببوانة، قال له النبي ﷺ: «**هل فيها عيد من أعيادهم**»[1]، قالوا: لا، أي: هل يجتمع الجاهليون فيها كل سنة مرة، أو كل شهر، أو كل نصف سنة، أو أكثر أو أقل، ويحتفلون به أم لا؟

فدل علىٰ أن الاجتماع والاحتفال بذلك المكان يسمىٰ عيداً، فالنبي ﷺ قال: «**لا تتخذوا قبري عيداً**»؛ أي: لا تجعلوه مزاراً ومعتاداً تجتمعون فيه، وتحتفلون به، مخافة أنهم متىٰ فعلوا ذلك وقعوا في الغلو الذي هو طريق من طرق الشرك، وحذرهم أيضاً أن يرفعوا قبره ومقامه لكي لا يصبح وثناً من الأوثان المعبودة، لذلك قال: «**لا تتخذوا قبري عيداً**»، وقد نُهي أيضاً عن التشبه بأعياد الكفار.

لما قدم النبي ﷺ المدينة كان لهم عيدان يحتفلون فيهما، ويلعبون ويسرون ويفرحون، فأبدلهم الله بهذين اليومين عيدي الفطر والأضحىٰ، وأصبحتا هما

---

(١) سبق تخريجه في الباب العاشر (باب: لا يذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله).

عيدا الإسلام.

وثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**يوم الفطر ويوم الأضحى، وأيام التشريق، عيدنا أهل الإسلام**»[(١)]؛ يعني: أيام العيد.

وما دمنا عرفنا أن العيد هو الذي يحصل به اغتباط وسرور فإن المسلم قد يعد السنة كلهاعيداً إذا كانت أيامه اغتباط بطاعة ربه وسروراً به.

وفي ذلك يقول بعضهم:

عيدي مقيم وعيد الناس منصرف
والقلب مني عن اللذات منحرف
ولي قرينان مالي منهما خلف
طول الحنين وعين دمعها يكف

فقوله: (عيدي مقيم)؛ بمعنى: أن السنة كلها لي عيد.

وإذا كان الأصل أن العيد يكون فيه احتفال، ويغتبطون به، ويسرون ويبتهجون، فقد يكون بعضهم بخلاف ذلك؛ فقد أثر عن بعضهم أنه كان أيام العيد يُرى عليه الحزن، والخوف؛ ورؤي بعضهم يبكي في يوم عيد، فأنشد قوله:

---

(١) أخرجه أحمد (٤ / ١٥٢)، وأبو داود برقم (٢٤١٩)، والترمذي برقم (٧٧٣)، والنسائي برقم (٣٠٠٤). عن عقبة بن عامر رضي الله عنه بلفظ: «يوم عرفة ويوم النحر وأيام التشريق عندنا أهل الإسلام».

قال الترمذي: حديث حسن صحيح، وقال شعيب الأرناؤوط في «تحقيق شرح السنة» (٦ / ٣٥١): إسناده صحيح، وقال عبد القادر الأرناؤوط في «تحقيق جامع الأصول» رقم (٤٥٠٠): إسناده حسن، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٨١٩٢).

سـرور العيـد قـد عـم النواحي
وحـزني في ازدياد لا يبيـد
لئن كنت اقـترفت خـلال سـوءٍ
فـعـذري في الهـوى أن لا أعـود

وبهذا يعرف أن النهي عن اتخاذ القبر عيداً لا يلزم أن يكون اجتماعاً عاماً يحصل به احتفال وفرح واغتباط، بل يدخل في ذلك الزيارة الفردية التي يحصل بها هذا المقصود.

فالحاصل أنه ﷺ نهى عن أن يتخذ قبره عيداً نهياً صريحاً: «**لا تتخذوا قبري عيداً**»؛ فدل على أن من اعتاد المجيء إلى القبر الشريف، وجعل ذلك ديدنه وعادته؛ فإنه قد خالف هذا الحديث الصريح: «**لا تتخذوا قبري عيداً**».

أما زيارته تابعاً فهذا جائز، يعني: إذا أراد شخص الذهاب للمدينة فإنه ينوي زيارة المسجد النبوي الشريف، فقد يزور المدينة زائر فيذهب إلى المسجد الشريف الذي تضاعف فيه الصلاة، ولا تكون نيته زيارة القبر، فإذا جاء المسجد وصلى فيه فيمكنه أن يزور القبر، ويسلم على الرسول ﷺ، وصاحبيه، ويُسرّ بزيارته للمسجد، وبصلاته فيه، علماً بأنه لو صلى أو سلم على النبي ﷺ في أي مكان وفي أي زمان، فإن صلاته وسلامه على النبي تصل إليه ﷺ.

* **ثالثاً: قوله: «وصلوا عليّ؛ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم»:**

وهذا إخبار منه ﷺ بأن الصلاة والسلام عليه تصله مهما كان موقع من يسلم عليه، ويصلي عليه، في أي مكان في مشارق الأرض ومغاربها، فإنه يصل إليه صلاته وتسليمه، وفي هذا دليل على فضل الصلاة والسلام على الرسول ﷺ.

وقد أخبر النبي ﷺ بأن هناك من يبلغه، يقول ﷺ: «**إن في الأرض ملائكة**

سياحين يبلغونني من أمتي السلام»(١) ، أي : إذا قلت : عليك السلام يا رسول الله ، أو : السلام عليك أيها النبي ﷺ، وما أشبه ذلك ، فإن هناك من يبلغه من أمته السلام .

وهو أيضاً بدوره يرد السلام ، كما ثبت عنه ﷺ أنه قال : **«ما من مسلم يسلم علي إلا رد الله علي روحي حتى أرد عليه السلام»**(٢) ، فنحن متى سلمنا عليه في أي مكان فإن ذلك يبلغه من قريب أو من بعيد .

■ **قوله : [وعن علي بن الحسين ، أنه رأى رجلاً يجيء إلى فرجة كانت عند قبر النبي ﷺ ، فيدخل فيها فيدعو ، فنهاه ، وقال : ألا أحدثكم حديثاً سمعته من أبي ، عن جدي ، عن رسول الله ﷺ ؟ قال : «لا تتخذوا قبري عيداً ، ولا بيوتكم قبوراً ، فإن تسليمكم يبلغني أين كنتم»(٣) ، رواه في المختارة] :**

ذكروا أن عليًّا بن الحسين لما نصح ذلك الرجل الذي رآه يجيء إلى تلك

---

(١) أخرجه النسائي (٣/ ٤٣)، وأخرجه إسماعيل بن إسحاق القاضي في كتابه «فضل الصلاة على النبي ﷺ »، وصححه الألباني فيه، ص٣٤، وقال ابن القيم في «جلاء الأفهام» ص٢٣ : وهذا إسناد صحيح .

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٥٢٧)، وأبو داود برقم (٢٠٤١). والبيهقي في سننه (٥/ ٢٤٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه، وحسن الألباني إسناده في «السلسلة الصحيحة» رقم (٢٢٦٦)، والمشكاة رقم (٩٢٥)، «والسلسلة الضعيفة» رقم (٢٠١).

(٣) أخرجه الضياء المقدسي في «المختارة» رقم (٤٢٨)، وأبو يعلى في «المسند» رقم (٤٦٩)، وعبد الرزاق في «المصنف» رقم (٦٧٢٦). وابن أبي شيبة في «المصنف» (٢/ ٣٧٥).
قال الهيثمي في «المجمع» (٤/ ٣): رواه أبو يعلى وفيه جعفر بن إبراهيم الجعفري، وذكره ابن أبي حاتم ولم يذكر فيه جرحاً، وبقية رجاله ثقات أ. هـ.
ويشهد له الحديث الذي قبل هذا الذي ذكره «المصنف»، وقال في «فتح المجيد» (١/ ٤٢٨): هذا الحديث والذي قبله جيدان، حسنا الإسنادين.
وأخرجه إسماعيل بن إسحاق القاضي في كتابه «فضل الصلاة على النبي ﷺ»، وصححه الألباني فيه ص٣٤ .

الفرجة، ورأىٰ كأنه اعتاد أن يلجأ إلىٰ تلك الفرجة يوماً أو أسبوعياً، وهي فرجة كانت في الحجرة النبوية، فيدخل رأسه فيها ثم يتكلم بكلام أو نحوه، وتكرر هذا منه، فلما رآه علي بن الحسين، دعاه وهو في أحد بيوته، فلما دخل عليه وجده يتعشىٰ، فقال: هلم إلىٰ العشاء، فقال: لا أريده، فقال: لماذا رأيتك تدخل إلىٰ الحجرة، وتدخل رأسك في الفرجة؟ فقال: أسلم علىٰ رسول الله ﷺ، فقال له: ما أنت ومن بالأندلس إلا سواء.

أي: سلم عليه أينما كنت، فإنك إن سلمت من قرب، أو من بعد، فكل ذلك سواء، ومثّل بالأندلس؛ لأنه من أبعد الأمكنة التي دخلها الإسلام في ذلك الوقت.

والأندلس: هو الذي يسمىٰ الآن أسبانيا وما يتصل به، فيقول: لو أنك في ذلك المكان وسلمت عليه، لبلغه سلامك، أو صليت عليه لبلغته صلاتك، وكذلك إذا كنت عنده أو في مسجده، الجميع يبلغه، ويكتب لك الأجر، وهذا معنىٰ قوله: «**وصلوا علي؛ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم**»، أو: «**فإن تسليمكم يبلغني أين كنتم**».

فقد تبين من هذه الأحاديث أهمية وحرص النبي ﷺ علىٰ كل ما يبعد أمته عن أسباب الشرك، ووسائله، حيث نهاهم عن أن يترددوا إلىٰ قبره حتىٰ يجعلوه كالعيد المعتاد، بل أمرهم أن يصلوا عليه في أي مكان، وأن صلاتهم تبلغه أينما كانوا، وكذلك عرّفهم بأن الصلاة عند القبور لا تجوز، وأن البيوت محل للصلوات، فلا تجعل مهجورة كالقبور التي لا يصلىٰ فيها.

ففي الحديث الأول والثاني نهيه لهم عن اتخاذ القبر عيداً مخافة الغلو فيه

والذي يوقعهم في الشرك، وهو وسيلة وسبيل من أسباب الشرك.

وفي الحديث الثاني الثالث نهاهم أن يرحل أحدهم من أجل الصلاة عليه، أو من أجل السلام عليه عند القبر، أو الاعتقاد أنه لا يسمعه أو لا يبلغه الصلاة والسلام إلا إذا وصل إليه، وكل ذلك مع كونه مشتملاً على الإكثار من الصلاة والتسليم عليه، لكنه نهاهم عما يوقعهم في الشرك، أو في نوع من أنواع الغلو، الذي هو من وسائل الشرك.

■ ■ ■ ■ ■

[٢٢]

باب:
ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان

وقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٥١].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٦٠].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ [الكهف: ٢١].

وعن أبي سعيد: أن رسول الله ﷺ قال: «لتتبعنَّ سَنَن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة، حتى لو دخلوا جُحْرَ ضب لدخلتموه». قالوا: يا رسول الله! اليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟»، أخرجاه.

ولمسلم، عن ثوبان: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها. وأعطيت الكنزين: الأحمر والأبيض. وأني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة بعامة، وأن لا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتهم. وإن ربي قال: يا محمد، إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم

بسنة بعامة، وأن لا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها، حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً، ويسبي بعضهم بعضاً».

ورواه البرقاني في صحيحه، وزاد: «وإنما أخاف على أمتى الأئمة المضلين. وإذا وقع عليهم السيف لم يرفع إلى يوم القيامة. ولا تقوم الساعة حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين، وحتى تَعْبُدَ فئام من أمتي الأوثان. وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون، كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين، لا نبي بعدي، ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة، لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى».

■ ■ ■ ■ ■

• فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية النساء.

الثانية: تفسير آية المائدة.

الثالثة: تفسير آية الكهف.

الرابعة: وهي أهمها مامعنىٰ الإيمان بالجبت والطاغوت: هل هو اعتقاد قلبي؟ أو هو موافقة أصحابها مع بغضها ومعرفة بطلانها؟

الخامسة: قولهم: إن الكفار الذين يعرفون كفرهم أهدىٰ سبيلاً من المؤمنين.

السادسة: وهي المقصودة بالترجمة: أن هذا لابد أن يوجد في هذه الأمة كما تقرر في حديث أبي سعيد.

السابعة: التصريح بوقوعها: أعني عبادة الأوثان في هذه الأمة في جموع كثيرة.

الثامنة: العجب العجاب: خروج من يدعي النبوة مثل المختار مع تكلمه بالشهادتين، وتصريحه بأنه من هذه الأمة وأن الرسول ﷺ حق وأن القرآن حق، وفيه أن محمداً خاتم النبيين، ومع هذا يصدق في هذا كله مع التضاد الواضح، وقد خرج المختار في آخر عصر الصحابة وتبعه فئام كثيرة.

التاسعة: البشارة بأن الحق لا يزول بالكلية، كما زال فيما مضىٰ، بل لا تزال عليه طائفة.

العاشرة: الآية العظمىٰ: أنهم مع قلتهم لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم.

الحادية عشرة: أن ذلك الشرط إلىٰ قيام الساعة.

الثانية عشرة: ما فيهن من الآيات العظيمة.

منها: إخباره بأن الله زوىٰ له المشارق والمغارب، وأخبر بمعنىٰ ذلك، فوقع كما أخبر بخلاف الجنوب والشمال.

وإخباره بأنه أعطي الكنزين.

وإخباره بإجابة دعوته لأمته في الاثنتين.

وإخباره بأنه منع الثالثة.

وإخباره بوقوع السيف، وأنه لا يرفع إذا وقع.

وإخباره بإهلاك بعضهم بعضاً، وسبي بعضهم بعضاً، وخوفه علىٰ أمته من الأئمة المضلين.

وإخباره بظهور المتنبئين في هذه الأمة.

وإخباره ببقاء الطائفة المنصورة.

وكل هذا وقع كما أخبر مع أن كل واحدة منها من أبعد ما يكون في العقول.

الثالثة عشرة: حصر الخوف علىٰ أمته من الأئمة المضلين.

الرابعة عشرة: التنبيه علىٰ معنىٰ عبادة الأوثان.

■ ■ ■ ■ ■

الشرح

باب:
ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان

لاشك أن عبادة الأوثان شرك بالله، وأنها وقعت في الأمم السابقة الذين أرسلت إليهم الأنبياء، ليحذروهم من عبادتها، واعترفوا بأنهم يعبدون أوثاناً، كما قال الله تعالى عن إبراهيم، أنه قال لقومه: ﴿مَا تَعْبُدُونَ ۝٧٠ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾ [الشعراء: ٧٠، ٧١]، اعترفوا بتسميتها أوثاناً، وأصناماً.

والوثن: قيل: هو اسم لكل ما عبد من دون الله؛ سواء له صورة، أم ليس له صورة.

والصنم هو: المعبود الذي له شكل، وهيكل، وصورة، وقد يسمى كل منهما وثناً وصنماً.

وقد كان للمشركين قبل الإسلام أصنام وأوثان كثيرة يعبدونها بأنواع من العبادات، ثم محيت بالرسالة الإسلامية المحمدية، وكان ذلك من نعمة الله عليهم، ولكن مما يؤسف له أن يقع في هذه الأمة من يرجع إلى عبادة الأوثان، ومن يقع منه شيء من الشرك، ولو لم يعترف بأنه شرك، ولو لم يعترف بأنه وثن، لكن العبرة بما في نفس الأمر، لا بما يقوله هو، أويعتقده هو.

وقد وقع في هذه الأمة عبادة الأوثان، ولكنهم لم يسموها أصناماً، ولم يسموها أوثاناً، إنما سموها مثلاً: مشاهد، المشهد الفلاني، والمشهد الفلاني، وعملوا عندها ما يعمله المشركون عند أصنامهم، وقد يسمونها: مزارات، أي: المزار الفلاني حتى لا تشبه أسماء الأصنام، ولكن العبرة في الحقيقة بالمسمى لا

بالاسم، والمرجع إلى الأعمال التي تعمل عندها، فإذا بحثنا عن أعمالهم التي يعملونها عندها، وجدناها مطابقة لأعمال الأولين عند أصنامهم، فنقول لهم: قد أشركتم، وقد عبدتم غير الله، وقد اتخذتم هذه المعبودات أصناماً شئتم أم أبيتم، فسموها بما تيردون، فإن العبرة بما في نفس الأمر.

الأولون الذين اتخذوا أوثاناً وأصناماً كانوا يذبحون لأصنامهم، وهؤلاء يذبحون لهذه المزارات ولهذه المشاهد.

والأولون يطوفون بتلك الأوثان، وهؤلاء يطوفون بهذه القبور، التي يسمونها مزارات، ومشاهد، وقبور صالحين، وأولياء وسادة، ونحو ذلك.

والأولون يعكفون عند أصنامهم، كما قال تعالى عنهم: ﴿نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾، والمتأخرون يعكفون عندها، أي: يطيلون الإقامة عندها، فأصبحت أصناماً حقيقة، ولو لم تسم بذلك، حيث أنه يعكف عندها كما يعكف عند تلك الأصنام، ويطيلون الإقامة حولها.

والأولون يدعون تلك الأصنام مع الله، أو يدعونها من دون الله، وهؤلاء يدعون أولئك السادة وأولئك الأولياء، بقولهم: يا ولي الله، يا فلان، أنجنا، أعطنا، انصرنا، هب لنا ولداً صالحاً، هب لنا رزقاً، ونحو ذلك، فأصبحت أصناماً وأوثاناً، ولو لم يسموها باسم الوثن؛ فالعبرة بما في نفس الأمر.

كذلك الأولون يحلفون بأوثانهم كقولهم: واللات والعزى، وهؤلاء يحلفون بساداتهم، كقولهم، والسيد فلان، والولي، وما أشبهه، فقد اتخذوهم أوثاناً شاءوا أم أبوا.

فتبين بذلك أنه قد وقع في هذه الأمة شرك، ولو لم يسموه شركاً؛ حيث أنه

موافق ومطابق لشرك الأولين.

وقد أخبر الله تعالىٰ عن الأولين أنهم وقع فيهم الشرك، ولابد أن يقع في هذه الأمة مثل ما وقع في الأمم قبلها.

قد يقول هؤلاء: هذا ليس بشرك.

قلنا: لماذا لا يكون شركاً؟ أليس فعل هؤلاء وفعلكم سواء؟ فما دام الفعل متساوياً؛ فالحكم واحد.

وقد يقولون: إن من فضل هذه الأمة أن لا يقع فيها شرك، وقد يستدلون بحديث مروي بلفظ: «**إن الشيطان قد يئس أن يعبد في جزيرة العرب**»[1]، وهذا الحديث بهذا اللفظ فيه ضعف، وعلىٰ فرض صحته فلا يلزم من أن الشيطان يئس أن يُعبد أن يكون يأسه محققاً أو موافقاً، فإن الشيطان قد رأىٰ في صدر الإسلام قوة المسلمين، وشوكتهم، وتمسكهم، وتصلبهم، فيئس، ولكنه لا يعلم الغيب، فعاد إليه الرجاء بعدما حصل منه اليأس، ولا يلزم أن يكون يأسه موافقاً لما في نفس الأمر، فلا يكون في هذا دليل علىٰ أنه لا يقع في هذه الأمة عبادة للأوثان.

فعلىٰ كل حال لاشك أن عبادة الأوثان قد وقعت في هذه الأمة كما وقعت في الأمم قبلها، وأن الحكم الذي حُكم به علىٰ الأولين بالشرك ينطبق علىٰ المتأخرين سواء بسواء.

فإذا كان الأولون مشركين لكونهم عبدوا تلك المعبودات التي هي أوثان بتلك الأنواع من العبادات، فحلت بذلك أموالهم ودماؤهم، بعدما تقوم عليهم

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ١٢٦) بهذا اللفظ ضمن حديث طويل، وأيضاً أورده المنذري في الترغيب والترهيب (١/ ٥٠ ـ ٥٢)، وقد ضعفه العلامة الألباني في ضعيف الترغيب.

الحجة، وجاز أو شرع قتالهم إلىٰ أن يرجعوا ويتركوا ذلك الشرك، وحكم بأنهم إذا ماتوا مشركين فإنهم من أهل النار، ولا يغفر لهم؛ لقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢]، فهذا الحكم ليس خاصاً بالمشركين الأولين، الذين في الجاهلية، أو في عصر النبوة، بل هو أيضاً منطبق علىٰ المشركين في زماننا، والمشركين في كل زمان.

* **والمراد بقوله في عنوان الباب: (ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان):**

كلمة الأمة تطلق علىٰ أمة الإجابة، وعلىٰ أمة الدعوة.

● **أمة الدعوة:** الخلق كلهم فإنهم داخلون في وجوب الدعوة؛ أي: مدعوون إلىٰ اعتناق هذه الرسالة، وإلىٰ اتباع هذا النبي، وهم من أمة محمد ﷺ، أي: أنهم من جملة من كلفوا أن يدخلوا في دينه، سواء كانوا هوداً، أو نصارىٰ، أو مجوساً، أو وثنيين، أو منافقين عرباً وعجماً، من أي طبقات بني آدم، ومن أي لغاتهم بعيداً أو قريباً، كلهم داخلون في أمة الدعوة؛ فيلزم أن يدخلوا في الإسلام وتعمهم دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام.

● **أما أمة الإجابة:** فالمراد بهم الذين استجابوا للرسول عليه الصلاة والسلام ودخلوا في طاعته، واتبعوه، وتسموا بأنهم من أمته، سواء تسمياً مطابقاً، أو تسمياً ظاهراً.

هؤلاء أمة الإجابة الذين يتسمون بأنهم مسلمون، ولو تفرقت نحلهم، ومعتقداتهم، ولو قال هؤلاء: إننا معتزلة، وهؤلاء: إننا شيعة، وهؤلاء: إننا إسماعيلية، وهؤلاء: إننا كذا وكذا، الكل يقولون: نحن من أمة محمد المستجيبين له، فهؤلاء يسمون أمة الإجابة.

والشرك قد وقع في أمة الدعوة بلا شك، ووقع أيضاً في أمة الإجابة كثيراً، فهناك أناس يقولون: لا إله إلا الله محمد رسول الله، ويقرأون القرآن، ويصدقون به، ويؤمنون بالبعث، ويصلون ويصومون، ولكنهم وقعوا في الشرك، فعبدوا الأوثان، ولكنهم لا يعترفون بأن هذه أوثان، ولا بأن هذا شرك، ولا بأن أفعالهم عبادة، إنما لبس عليهم الشيطان، وغيروا أسماء الحقائق وسموا الأصنام والأوثان بأسماء مرتجلة أو مستحسنة في نظرهم حتىٰ لا ينكر عليهم، فيسمون أفعالهم تقرباً، أو يسمونها توسلاً، أو يسمونها تبركاً، أو يسمونها استشفاعاً، أوما أشبه ذلك، ولكنه في الحقيقة شرك، وعبادة غير الله شرك؛ حيث إنهم جعلوهم شركاء لله في استحقاق العبادة، وعبادة حيث إنهم عبدوهم؛ يعني: ذلوا لهم وخضوا وتواضعوا بين أيديهم، فأصبحوا مشركين.

فتحققنا بذلك، أنه وقع في هذه الأمة من يعبد الأوثان، وتدل علىٰ ذلك أيضاً النصوص التي ذكرت في هذا الباب.

■ **قوله**: [**وقول الله تعالى**: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ**﴾ [النساء: ٥١]]:

المراد بأهل الكتاب اليهود والنصارىٰ، ذكر الله أنهم: ﴿**يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ**﴾.

والجبت: السحر.

والطاغوت: الشيطان.

أو الجبت: كل شيء فيه فشل ولا خير فيه.

والطاغوت: هي الأوثان، كما قال تعالىٰ: ﴿**وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن**

يَعْبُدُوهَا﴾ [الزمر: ١٧]؛ يعني: الأوثان.

وسمي الوثن طاغوتاً، لأنه تجاوز حده، فالطاغوت: ما تجاوز به العبد حده، من معبود، أو متبوع، أو مطاع، ولهذا ذكر الله أن الكفار يعبدون الطاغوت، وأن أولياءهم الطاغوت، قال تعالىٰ: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

فإذاً اليهود قد عبدوا الطاغوت، أي: عبدوا الأوثان، وعبدوا الطواغيت الذين هم السحرة والكهنة ونحوهم، فتبين بذلك أن اليهود والنصارىٰ قد وقع فيهم عبادة الأوثان.

■ قوله: [وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٦٠]]:

فهؤلاء أيضاً أهل الكتاب من يهود ونصارىٰ، فإن اليهود فيهم من مسخ قردة وكذلك في النصارىٰ من مسخ خنازير، فلذلك قال: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾، يعني: وجعل منهم من عبد الطاغوت.

والمعنى: أن الله أمر نبيه أن يخبرهم بأشياء فعلوها، وكانوا بها شراً من المسلمين، ومما عليه المسلمون، لما ذكر الله أنهم يستهزئون بالمسلمين، فقال عنهم: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ [المائدة: ٥٨]، هذا من أعمالهم السيئة، أنهم يستهزئون بالنداء والصلاة، قال الله: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ﴾، بشر من أعمالنا التي نحن عليها، وبشر منا نحن: أنتم يا أهل الكتاب، فأنتم شر منا

ولو استهزأتم بنا ونقمتم منا هذه الخصال؛ لأنكم عملتم أعمالاً تستحقون عليها اللعن، الذي هو الطرد والإبعاد عن رحمة الله، ومن ذلك استحلالهم للسبت، وقد حرم صيد السمك فيه، ومن ذلك استحلالهم لقتل الأنبياء، كما ذكر الله أنهم يقتلون الأنبياء بغير حق، ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس، وما أشبه ذلك، فبذلك أصبحوا شراً، من كل ذي شر، فلهذا قال: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾.

وقد ذكر الله أن سمة الغضب في اليهود أغلب، وسمة الضلال في النصارىٰ أغلب، فذكر أن اليهود هم أهل الغضب، قال تعالىٰ: ﴿فَبَاءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ [البقرة: ٩٠]، والنصارىٰ أهل الضلال، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧]؛ فذكر أنهم هم الضالون.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾، أي: مسخ بعضهم قردة، وبعضهم خنازير.

قيل: إن هذا المسخ هو في الذين اعتدوا في السبت، عندما حرم الله عليهم الصيد يوم السبت ابتلاهم الله بالأسماك الكثيرة، تأتي إليهم يوم السبت، وتكثر ويسهل صيدها، فإذا كان يوم السبت الذي منعوا من الصيد فيه خرجت الأسماك علىٰ شواطئ البحر، وأخرجت خراطيمها؛ لأنها آمنة، قال تعالىٰ: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ﴾ [الأعراف: ١٦٣].

فإذا كان يوم الأحد لم تأتهم؛ بل انغمست في وسط الماء، وفي قعره، بحيث لا يستطيعون الحصول عليها، فأحزنهم ذلك وهالهم، عند ذلك تحايلوا

وحفروا حفراً في يوم الجمعة على شاطئ البحر، وملؤوها من ذلك الماء، فإذا جاء يوم السبت، وخرجت تلك الحيتان سقطت في تلك الحفر، فإذا كان يوم الأحد أخذوها، وقالوا: نحن لم نأخذها في يوم السبت، ولا استحللناها إلا في يوم الأحد، يقال لهم: إن هذه بمنزلة الشراك، وبمنزلة الحبائل التي جعلتموها لها في يوم السبت، فكأنكم نصبتم الشبكة يوم السبت، فوقع فيها الصيد يوم السبت، ولم تأخذوه إلا في يوم الأحد، فمعناه: أنكم قد اعتديتم في السبت فسماهم الله تعالى معتدين، فقال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ [البقرة: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ أي: يعتدون فيه، إلى قوله: فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [الأعراف: ١٦٦]، فمسخهم قردة خاسئين.

وقيل: إن كبارهم مسخوا خنازير، وشبابهم مسخوا قردة.

وقيل: إن الذين مسخوا خنازير هم النصارى، وهم الذين كفروا بالمائدة التي أنزلت عليهم؛ لأن الله توعدهم بقوله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ١١٥].

وعلى أي حال فإن الله أخبر بأن منهم: ﴿الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾؛ أي: ومنهم من عبد الطاغوت، أي: طائفة منهم كثيرة عبدوا الطاغوت.

فتبين من هذا أن المشركين من قبلنا من اليهود والنصارى قد عبدوا الأوثان.

■ **قوله: [وقوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾** [الكهف: ٢١]]:

وهذا دليل آخر على أن الذين قبلنا قد عبدوا الأوثان.

وقوله: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾؛ أي: على أهل الكهف، فعندما عثروا على أهل الكهف؛ الذين ماتوا قبل ثلاثمائة سنة وتسع سنين، ثم لما بعثوا جعلوا ذلك كرامة لهم، واعتقدوا أنهم أولياء، فقالوا: هؤلاء أولياء صالحون، فمن أجل صلاحهم نبني عليهم مسجداً نتعبد فيه، ونتبرك بهم وبآثارهم، فبنوا عليهم مسجداً.

وقد لعن رسول الله ﷺ الذين يتخذون القبور مساجد؛ لا سيما قبور الأنبياء والصالحين والأولياء أمثال هؤلاء، فهذا وجه الذنب أنه ذمهم لكونهم اتخذوا عليهم مسجداً من أجل التعبد فيه الذي يؤدي إلى عبادتهم من دون الله.

■ **قوله: [وعن أبي سعيد: أن رسول الله ﷺ قال: «لتتبعنَّ سَنَن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة، حتى لو دخلوا جُحْرَ ضب لدخلتموه». قالوا: يا رسول الله! اليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟»** [1]**، أخرجاه].**

عندما عرفنا أن المشركين واليهود والنصارى قد عبدوا الطاغوت الذي هو الأوثان، وقد بنوا مساجد على قبور الأولياء والصالحين، تحققنا أن هذه الأمة ستعمل مثل عملهم، والدليل على هذا حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

وقد تقدم بعض هذا الحديث في باب: من تبرك بشجرة، أو حجر، وهو قوله: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم**»، وهذا القول قاله رسول الله ﷺ للصحابة الذين هم حدثاء عهد بالإسلام، عندما قالوا: اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال رسول الله ﷺ: «**قلتم كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا**

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٤٥٦، ٧٣٢٠)، ومسلم برقم (٢٦٦٩)، وقوله: «حذو القذة بالقذة» لم تخرج في الصحيحين، وقد أخرجها أحمد في «المسند» (٤ / ١٢٥)، والمروزي في «السنة» رقم (٤٩)، والآجري في «الشريعة» (١٩).

لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، لتتبعين سنن من كان قبلكم»[١].

واللام في قوله: «لتتبعن»، موطئة القسم، كأنه قال: «والله لتتبعن سنن من كان قبلكم»؛ «سننهم»، أي: طرقهم، أي: تسيرون مسيرهم، وتفعلون أفعالهم، وفي رواية: «شبراً شبراً، وذراعاً ذراعاً»[٢]؛ أي: تسلكون مثلما سلكوا، وتفعلون كما فعلوا، وقد وقع مصداق ذلك في هذه الأمة مثل ما وقع في الأمم السابقة.

ففي الأمم السابقة من عبد الأوثان، وفي هذه الأمة كذلك من عبد الأوثان، ومن الأمم السابقة من عصى، ومن تحايل، ومن فعل، ومن فعل، ووقع في هذه الأمة مثل ذلك سواء بسواء، أو أعظم.

ورد في بعض الروايات أنه ﷺ قال: «حتى لو كان فهيم من يأتي أمه علانية لكان في هذه الأمة من يفعل ذلك»[٣]، مبالغة في تتبع طرقهم، والتشبه بهم، وفعل أفعالهم؛ ولذلك قال: «حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه».

وجحر الضب: هو ما يحفره ليختفي فيه.

والضب: هو هذه الدابة التي تكون في البراري.

والعادة أن جحر الضب أكثر تعرجاً من غيره؛ لأنه يجعله معوجاً من هنا، ثم من هنا، ثم من هنا، أي: أنكم تسيرون خلفهم، حتى ولو كان سيرهم في طريق معوجة كثيرة الانحرافات، وكثيرة التقلبات، فإنكم تفعلون كفعلهم.

---

(١) سبق تخريجه في الباب الثامن (باب: من تبرك بشجرة أو حجر ونحوهما).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٣٤٥٦)، ومسلم برقم (٢٦٦٩).

(٣) جزء من حديث أخرجه الترمذي برقم (٢٦٤١)، والحاكم في المستدرك (١/ ١٢٩) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، قال الترمذي: حديث غريب، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي رقم (٢١٢٩).

ومعلوم أن دخول جحر الضب صعب المنال، لا يمكن للإنسان أن يدخله، ولكن النبي ﷺ شبه بذلك الفعل مبالغة في تقليدهم وفعل أفعالهم.

ثم قال الصحابة: اليهود والنصارىٰ، أي: هل الذين نتبعهم هم اليهود والنصارىٰ؟ قال: «فمن؟»؛ أي: نعم هم اليهود والنصارىٰ الذين تتبعوهم.

ومعلوم أن أفعال الأمم الذين من قبلنا والذين في زماننا منها ما هو عادة، ومنها ما هو عبادة، منها ما يفعلونه علىٰ وجه القربة، ومنها ما يفعلونه علىٰ وجه العادات.

فالنهي إنما هو عن أن نقلدهم فيما هو من العبادات المنحرفة، أما إذا كانت العبادات سليمة، فإنا نفعلها لكونها عبادة، فكذلك إذا كانت الأفعال التي يفعلونها مباحة، فإنا نفعلها ولو أنهم فعلوها، وذلك لأنهم لم يختصوا بها، ولأنها أفعال عادية، فلا نمتنع عن كل ما فعلوه إذا كان مباحاً، بل الأشياء التي فعلوها وهي محرمة أو معاصٍ نبتعد عنها.

وكان النبي ﷺ يحرص علىٰ موافقة اليهود فيما لم يؤمر به، فإذاً أمر بشيء فيه مخالفتهم خالفهم، لكنه في الآخر حرص علىٰ مخالفتهم، وجعل مخالفتهم أمراً مقصوداً لذاته.

وحذّر من موافقتهم في الأشياء التي يفعلونها تديناً؛ فمن ذلك أن المجوس الذين يعبدون النار، من شريعتهم أنهم يستحلون نكاح المحارم، ينكح أحدهم أمه وأخته وابنته، ونحو ذلك، فيوجد من يتسمىٰ بالإسلام من ينكح محارمه في هذه الأمة، ولو لم يفعلوا ذلك نكاحاً علنياً.

كذلك ـ أيضاً ـ قد أمر النبي عليه الصلاة والسالم بمخالفتهم، كما في نهيه عن حلق اللحىٰ وإطالة الشوارب، بقوله: «اعفوا اللحى، واحفوا الشوارب، خالفوا المجوس»(١)، فجعل مخالفتهم أمراً مقصوداً للشرع، وهكذا كل ما يتقربون به، أو

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٦٠)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.
وأخرجه البخاري برقم (٥٨٩٢)، ومسلم برقم (٢٥٩)، عن ابن عمر رضي الله عنهما، بلفظ: «خالفوا المشركين، أحفوا الشوارب، وأوفوا اللحى».

يفعلونه تديناً، وجاء الشرع بمخالفتهم.

فالحاصل أنا عرفنا أن الشرع أمرنا بأن نستن ونقتدي بأفعال نبينا ﷺ الذي كمَّل الله له الدين، ونهانا عن أن نقلد أولئك فيما هو مخالف لهذه الشريعة، لا سيما إذا كان مخلاً بالعقيدة والتوحيد.

■ قوله: [**ولمسلم، عن ثوبان أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها. وأعطيت الكنزين: الأحمر والأبيض. وأني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة بعامة، وأن لا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتهم. وإن ربي قال: يا محمد، إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة بعامة، وأن لا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها، حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً، ويسبي بعضهم بعضاً»**(١)]:

هذا الحديث الذي ذكره المصنف علامة من علامات النبوة، فقد أخبر النبي ﷺ بهذه الأشياء؛ فكانت آية على صدقه، وأنه أخبر بما أخبره الله به، وأن الله أطلعه على الأمور التي لم تكن كيف تكون قبل أن تقع، وقد وقعت كما أخبر.

● **فالعلامة الأولى: قوله ﷺ: «إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها»:**

● زَوْيُ الأرض، معناه: تقريب قاصيها، زَوَيْتُ الشيء، بمعنى: عكفت أطرافه بعضها إلى بعض، وقربتها، وتقول مثلاً: انزوت الحلقة، إذا عكفت، ونحو ذلك.

● ومعنى زوى لي الأرض: أي: قربها، وأطلعني على ما هو بعيد منها، وهذا الفعل إما أن يكون تصويراً للأرض حتى كأنه يشاهدها؛ وإما كشفاً، بمعنى: أن

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٨٨٩).

الله صورها له، ولو كانت بعيدة، فأطلعه على قاصيها ودانيها، وعلى ما هو أمامه وخلفه من مواقع تلك البلاد ومواقع تلك الأمم، وبلادهم وسعتها وطولها وعرضها وسكانها، ونحو ذلك.

وقد يقال: لماذا خص المشارق والمغارب؟

قالوا: الحكمة في ذلك أن الإسلام امتد في المشرق والمغرب أكثر من امتداده في الشمال والجنوب، امتد في المشرق في عهد الصحابة ومن بعدهم، فقد فتحت بلاد الهند والسند، ووصل غزو المسلمين إلى بلاد الصين، وما اتصل بتلك البلاد دخلها الإسلام، وانتشر فيها وقوي، وخرج منها علماء وعباد.

كذلك أيضاً في المغرب فتحت بلاد أفريقيا، ووصل المسلمون إلى طنجة أقصى بلاد المغرب، وفتحوا الأندلس، وما اتصل به، وتمكن الإسلام من تلك البلاد، وبقي فيها متمكناً قروناً متطاولة، وذلك تصديقاً لما أطلع الله نبيه عليه من أن ملك أمته سيبلغ ما زوي له منها.

● **والعلامة الثانية: قوله ﷺ: «وأعطيت الكنزين: الأحمر والأبيض»:**

الأحمر: هو الذهب.

والأبيض: الفضة.

وعبر بذلك عن كنوز الدولتين العظيمتين في وقته؛ حيث كانت الأرض في زمن النبي ﷺ مملوكة لدولتين فقط، وهما: **دولة الفرس، ودولة الروم.**

والروم نصارى يملكون الشام، ومصر، وبلاد أفريقية، وما اتصل بها، أي: يملكون نحو نصف الأرض.

أما الفرس فهم مجوس، ويملكون العراق، والبحرين، والمشرق بأكمله، يعني: ما وراء النهر من الهند والسند، وما اتصل بها.

والأغلب على كنوز الروم الذهب، والأغلب على كنوز الفرس الفضة.

فأخبر في هذا الحديث بأنه سيُفتح ملكهم، ويملك المسلمون تلك الكنوز من ذهب وفضة، وما يتصل بها من جواهر وزمرد، ، وسائر المقتنيات بأنواعها، وفعلاً حدث ما أخبر به، ومن أجل هذا أخبر في حديث آخر بقوله: «**إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده**»، والمراد مَلِكَ الروم ومَلِكَ الفرس، ثم قال: «**والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله**»(١)، وفعلاً وقع ذلك بعد موته، فكان مصداقاً لما أخبر به في هذا الحديث وفي غيره، من أن أمته ستملك تلك الكنوز، وتنفقها في سبيل الله، وفي التوسع في نشر الإسلام، ونشر الدين في أقصى الأرض وأدناها، وقد فعل ذلك وقام به صحابته وتابعوهم رحمهم الله، هذا معنى قوله: «**أعطيت**»؛ أي: أعطيت أمتي.

ومن المعلوم أن الله تعالى قبض إليه نبيه بعد أن حصل منه البلاغ المبين، وأقام الحجة، وأوضح المحجة، وأنار السبيل، وبعد ما بلّغ ما أنزل إليه، وبعد ما أسلم أهل الجزيرة، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، أمره الله بالاستعداد للقائه، فأمره بالتسبيح والتحميد والاستغفار إشارة إلى قرب أجله، ، ولكن بعد أن تحملت الصحابة شريعته، وعرفوا المسئولية التي عليهم، قاموا بالجهاد في سبيله، فجاهدوا الفرس والروم، وفتحوا بلادهم في أقرب وقت، وتوسعوا في الفتوحات، وانتشر الإسلام، فصدق الله رؤيا رسوله عليه الصلاة و السلام، وما أطلع عليه رسوله من أن أمته سيبلغ ملكها تلك المشارق والمغارب.

● **والعلامة الثالثة: قوله ﷺ: «وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة بعامة، وأن لا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتهم، وأن ربي قال: يا محمد: إني إذا قضيت قضاءً فإنه لا يرد، وإني أعطيتك لأمتك: أن لا أهلكهم بسنة عامة، وأن لا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها،**

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٠٢٧)، ومسلم برقم (٢٩١٨)، عن أبي هريرة رضي الله عنهما.
وأخرجه البخاري برقم (٣١٢١). ومسلم برقم (٢٩١٩)، عن جابر بن سمرة رضي الله عنه.

حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً، ويسبي بعضهم بعضاً»:

● **وقع في هذه الجُمل آيات ودلالات وبينات:**

الأولى: إخباره بأن الله لا يهلك أمته بسنة بعامة، يعني: بعذاب سماوي، كما أُهلك من قَبْلَهم، أو بجدب عام، وقحط يعم البلاد، كلهم يهلكون مثلاً عطشاً وهزالاً، وقد أجار الله هذه الأمة من أن يهلكهم بهذا العذاب؛ كالسنة والقحط والجدب العام الذي يعم الأرض كلها حتى يهلكوا جهداً، أو يهلكوا بصيحة أو برجفة أو بصواعق أو بغرق وما أشبه ذلك، وقد أجار الله هذه الأمة لحرمة نبيها، واستجابة لدعوته، لما دعا لها أن لا يهلكهم بسنة تعمهم.

الثانية: إجارته أن لا يسلط عليهم عدواً من غيرهم، وهذه قيل: إنها مطلقة، وقيل: إنهامعلقة، فمعنى: كونه أجاره من أن لا يسلط عليهم عدواً من غيرهم، معناه: أنهم ما داموا على هذه الأمية التي هي اتباع شريعته، يعني: كونهم من أمته، أي: من أتباعه فإنهم آمنون أن يسلط عليهم عدواً من غيرهم، فيستبيح بيضتهم.

والمراد ببيضتهم: حوزتهم، والمراد ذراريهم، ونساؤهم ونحو ذلك، أو المراد بلادهم وأرضهم، وما فيها، كأنه قال: ما داموا متمسكين بكونهم من أمتك، وعلى طريقتك وسنتك، يقلدونك ويطيعونك فيما قلت وفيما جئت به؛ فهم آمنون من أن يسلط عليهم عدواً من غيرهم.

لكن متى وقع منهم أحد أمرين: إما الخروج عن الاتباع للرسول، وإما التسلط من بعضهم على بعض، فلا تأمن من أن يسلط عليهم عدواً من غيرهم، إما تسليطاً عاماً، أو تسليطاً خاصاً.

فالتسليط الخاص قد وقع، ولعل ذلك يصدقه الحديث القدسي: «**إذا عصاني من يعرفني، سلطت عليه من لا يعرفني**»، فقد وقع على كثير ممن يقول: إنه من أمة

محمد، ولكنهم لم يحققوا اتباعه، ولم يعملوا بسنته، بل عصوا الله معاصي ظاهرة، إما بالشرك وإما بالكبائر، وإما بإلغاء السنة ونشر البدعة، وبالحكم بغير ما أنزل الله، وما أشبه ذلك، فعند ذلك سلط الله عليهم بعض الأعداء من يهود ونصارىٰ وزنادقة وملحدين، ونحو ذلك.

ولكن إذا رجعوا إلىٰ السنة، وتحقيق الاتباع للرسول عليه الصلاة والسلام، ورجعوا إلي دينهم، فقاموا بالتوحيد في شئونهم كلها صغيرها وكبيرها، واجتنبوا الشرك، وحكّموا شرع الله في حياتهم، وتركوا القوانين الجاهلية، رجع لهم النصر والعزة والكرامة والتمكين في الأرض، والفوز في الآخرة.

وقيل: إن عدم التسليط مشروط بالتئامهم، وتآخيهم، وتعاضدهم، وتمسكهم بشريعتهم فيما بينهم، فإذا وقع من بعضهم علىٰ بعض التعذيب، والتقاتل، لم يأمنوا أن يسلط الله عليهم غيرهم، كأنه قال: (حتىٰ يكون بعضهم يهلك بعضاً، ويسبي بعضهم بعضاً)؛ بمعنىٰ: إذا وقع بينهم الشحناء، ووقعت بينهم الاختلافات والقتال، وصار بعضهم يغلب بعضاً، ويغير بعضهم علىٰ بعض، فإذا حصل منهم هذا الاحتلال وهذا القتال فلا يأمن أن يسلط عليهم من هو أكبر منهم فيجتاح الجميع، هذا هو تقدير الحديث.

فإذا أهلك بعضهم بعضاً فلينتظرون أن يسلط عليهم عدواً من غيرهم، يكون أقوىٰ منهم يستولي عليهم جميعاً، ويأخذ بلادهم، وهذا هو ما وقع في كثير من البلاد التىٰ استولىٰ عليها النصارىٰ ونحوهم، فسبب ذلك إما عدم اتباعهم لرسول الله ﷺ، وإما تقاتلهم فيما بينهم.

فإن بلاد الأندلس أسبانيا والبرتغال وماحولها كانت في غاية القوة، ولكنهم لما طغوا وبغوا، وتكبروا وتجبروا، وزادوا عن الحد، وأظهروا المعاصي؛ سلط الله عليهم الإفرنج والنصارىٰ، فاستباحوهم وقتلوهم قتلاً شنيعاً، كما يظهر ذلك لمن

قرأ التاريخ، وهكذا سنة الله في عباده، أنه كلما خرجت الأمة عن حدها وطورها لم يأمنوا أن يسلط الله عليهم عدواً من غيرهم، فهذا ونحوه وقع كما أخبر به النبي ﷺ.

■ **قوله: [رواه البرقاني في صحيحه، وزاد: «وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين. وإذا وقع عليهم السيف لم يرفع إلى يوم القيامة. ولا تقوم الساعة حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين، وحتى تَعْبُدَ فئام من أمتي الأوثان. وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون، كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين، لا نبي بعدي، ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة، لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى»[1]]:**

أخبر النبي ﷺ في هذا الحديث ببعض الأمور التي تدل على نبوته وأنه نبي صادق، وقد وقع وتحقق بعض ما أخبر به ﷺ.

أولاً: قوله ﷺ: **«وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين»**:

الأئمة: جمع إمام، وهوكل من يقتدى به، ويتبع على ما يقوله ويفعله، فإن كان على حق وصواب فهو من أئمة الهدى، ، وإن خالف الحق وابتدع في الدين وردّ أمر الله تعالى وشرعه فهو من أئمة الضلال، وقد قال الله تعالى لإبراهيم الخليل عليه السلام: **﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾** [البقرة: ١٢٤]، فقد جعله الله قدوة وأسوة لمن بعده، حتى أن اليهود والنصارى يدّعون أنهم على ملته، لكن الله برأه منهم، وقد قال تعالى: **﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا﴾** [النحل: ١٢٠]، وفسر الأمة بأنه: القدوة في الخير.

وقال تعالى: **﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾** الآية، [الممتحنة: ٤]، وقوله: **﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾**،

---

(١) هذه الزيادة أخرجها أحمد (٥/ ٢٧٨، ٢٨٤)، وأبو داود رقم (٤٢٥٢)، و ابن ماجه برقم (٣٩٥٢)، والبيهقي في الدلائل (٦ / ٥٢٦)، والحاكم في المستدرك (٤ / ٤٤٩)، وصححه على شرط الشيخين. وقال في النهج السديد (ص١٢٩): صحيح على شرط مسلم.

أي: أتباعه من ذريته وأنبياء الله ورسله، ومن نهج منهجهم، فهم أئمة في التوحيد والإخلاص، والتمسك بالدين مع قلة المعين، وكثرة المخالفين، وأئمة في البراءة من المشركين، والكفر بهم وبما هم عليه من الشرك والتنديد.

وقد قال الله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤]؛ أي: قدوة في الأعمال الصالحة، وفي توحيد الله تعالىٰ وعبادته، ودعاة إلىٰ الدين الصحيح.

وفي تخصيص المتقين دليل علىٰ أن هناك أئمة للكافرين والمشركين، وهم الأئمة المضلون، والدعاة بأقوالهم وأفعالهم إلىٰ الكفر والفسوق والمعاصي، وسواء كانوا من حملة العلم، أو من السادة والقادة، وأكابر القوم، وذوىٰ الوجاهة فيهم، ممن يحبون اللهو واللعب، ويهوون المعاصي، ويقلدون أئمة الضلال، فيتبعهم الرعاع والسفهاء، والضعفاء في العلم والرأي، معتقدين أنهم علىٰ صواب، معرضين عن الحق وأهله، وهم الذين يقولون في الآخرة: ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٧، ٦٨].

وهؤلاء السادة يضاعف لهم العذاب بقدر من أضلوه وصرفوه عن الصواب، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣]، وقال تعالىٰ: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥]، أي: مثلها دون أن ينقص شيء من أوزار الأتباع، فقد ورد في الحديث الصحيح: «**من دعا إلى هدى: كان له مثل أجور من تبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة: كان عليه من آثام من تبعه من غير أن ينقص من آثامهم شيئاً**»(١). رواه مسلم.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٦٧٤)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

ثم إن أئمة الضلال كل من نصب نفسه داعياً إلى بدعة، أو دين يخالف دين الإسلام، ويناقض شرع الله، فالدعاة إلى: اليهودية، والنصرانية، والبوذية، والهندوسية، ونحوهم، من دعاة الضلال، والدعاة إلى: التعطيل، أو التشبيه، أو الجبر، أو نفي القدرة، أو إلى الرفض، أو النصب، أو التصوف، أو التجهم، أو الاعتزال، أو الخروج على الولاة ونبذ الطاعة، ونحوهم، كلهم من الأئمة المضلين، وكذا الدعاة إلى الشرك الأكبر، أو الأصغر، باسم توسل أو تبرك، أو استشفاع، أو إلى البدع العملية: كإحياء ليالي الموالد، والصلوات المبتدعة، كلهم من الأئمة المضلين.

ولقد عظمت الفتنة بهم، واشتد الأمر واستفحل بأمثال هؤلاء المضلين، حيث حملوا مؤهلات عالية، ونظر إليهم العامة بعين الإكبار والاحترام، لما أعطوه من اللسن والفصاحة وقوة التعبير، ثم إنهم رأوا عامة الناس وأكثريتهم يعظمون أقوالهم، ويقتدون بأفعالهم، ورأوا جمهور الأمة قد نشؤا على الكثير من البدع والضلالات والشركيات، وتلقوا العمل بها عن الآباء والأجداد الذين عملوها عن تقليد وحسن ظن، جهل بالدين، فشق على العامة التخلي عن تلك المألوفات دفعة واحدة، لما في تركها من تضليل الآباء وانتقاد الأسلاف.

فرأى هؤلاء الأكابر التنزل على رغباتهم، وإقرارهم على عاداتهم، بل وتحسين حالهم، وإقرارهم على ما كانوا عليه، والتكلف في إقامة الحجة لهم ونصرهم، والتماس الأدلة ولو من بعيد لجواز تلك البدع والشركيات والمحدثات، ورأوا أنهم بذلك يحصلون على التوقير من الجماهير، والإعظام والإحترام، والقيام بالخدمة والإكرام، ويحصلون على مصالح دنيوية، بما يبذل لهم من المال، من أوقاف على تلك المشاهد، أو غلات على من يكون على تلك الطرق، وكذا ما يحصل لهم من المناصب الرفيعة، والوظائف العالية من قادتهم وملوكهم وسلاطينهم، فآثروا الدنيا على الدين، وخافوا إذا اختاروا الصواب،

وأعلنوا التوحيد، وأنكروا العادات المبتدعة أن ينبذهم الناس، وأن يسقطوا قدرهم، ويقطعوا عنهم المصالح، ويبعدوهم عن مناصبهم الرفيعة، فلا جرم تكلفوا في الرد على أهل الهدى، وركبوا الصعوبات والتأويلات البعيدة، ليردوا بها أدلة الكتاب والسنة، وبالغوا في التماس ما يبرر مواقفهم، مما سموه أدلة وبراهين، رغم أنها خرافات وخزعبلات، وحكايات باطلة، ومنامات خيالية، اعتمدوها واستدلوا بها على جواز ما هم عليه من الشرك، ودعاء الأموات والعمل بالبدع والمحدثات.

فهؤلاء أئمة الضلال الذين خافهم النبي ﷺ على أمته، لكثرة الانخداع بهم من العامة، الذين يظنون أنهم وصلوا إلى رتبة ومنصب يوافقهم الحق، ولا يحيدون عنه.

وعلى هذا فالواجب على كل فرد يحب الله ورسوله، ويريد النجاة من الكفر وأهله، أن يقصد طريق الهدى، وهو الصراط المستقيم، الذي نسأل ربنا الهداية إليه في كل صلاة وكل ركعة، وهو صراط: ﴿الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]، وهو ما ترك النبي ﷺ عليه أصحابه(١)، فمن تمسك بسنتهم فهو من الفرقة الناجية(٢)، ومن حاد

---

(١) وقد جاء معنى ذلك عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة». قيل: من هي يا رسول الله؟ قال: «ما كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي».

أخرجه الترمذي برقم (٢٦٤١)، والحاكم في المستدرك (١ / ٢١٨)، والآجري في «الشريعة» (١٥، ١٦)، وغيرهم.

قال الترمذي: حديث مفسر لا نعرفه مثل هذا إلا من هذا الوجه، وللحديث شواهد ترفعه لمرتبة الحسن. انظر «السلسلة الصحيحة» للألباني رقم (٢٠٣)، ورقم (١٤٩٢)، وظلال الجنة رقم (٦٣).

(٢) الفرقة الناجية هم: أهل السنة والجماعة من الصحابة والتابعين لهم والسلف الصالح على مدى =

عنهم، وخالف سنتهم، ولاّه الله ما تولى، وأصلاه جهنم، كما أخبر الله بذلك(١)، والله أعلم.

• ثانياً: قوله ﷺ: «وإذا وقع عليهم السيف لم يرفع إلى يوم القيامة»:

المراد بالسيف: القتال بين الأمة الإسلامية، وهو قتال الفتنة بين طائفتين من المسلمين، وقد قال تعالى: ﴿**وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ**﴾ [الحجرات: ٩].

وقد كان المسلمون في أول الإسلام كالإخوة، يحب بعضهم بعضاً، ويؤثر بعضهم بعضاً، يمثلون قول النبي ﷺ: «**مثل المؤمنين: في توادهم، وتراحمهم، وتعاطفهم، كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر**

= القرون، وهم أصحاب الحديث وأهل العلم والفقه، وهم أيضاً الدعاة في سبيله والمجاهدين لإعلاء كلمته، وهم الغرباء الذين يُصلحون إذا فسد الناس.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في العقيدة الواسطية: ثم من طريقة أهل السنة والجماعة اتباع آثار رسول الله ﷺ؛ باطناً وظاهراً، واتباع سبيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، واتباع وصية رسول الله ﷺ، حيث قال: «**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي، تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ**»، أخرجه الترمذي (٢٦٧٦)، وصححه.

ثم قال: وكل ما يقولونه ويفعلونه من هذا وغيره فإنما هم فيه متبعون للكتاب والسنة، وطريقتهم هي دين الإسلام الذي بعث الله به محمداً ﷺ. ولكن لما أخبر النبي ﷺ أن أمته ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحده وهي الجماعة، وفي حديث عنه أنه قال: هم من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي، وصار المتمسكون بالإسلام المحض الخالص عن الشَّوْب هم أهل السنة والجماعة.

وفيهم الصديقون والشهداء والصالحون، ومنهم أعلام الهدى ومصابيح الدجى، أولو المناقب المأثورة، والفضائل المذكورة، وفيهم الأبدال، وفيهم أئمة الدين الذين أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم، وهم الطائفة المنصورة أ. هـ.

وسيأتي في هذا الباب قريباً الكلام على الفرقة الناجية.

(١) لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

والحمى»[١]، وقوله ﷺ: **«المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً، وشبك بين أصابعه»**[٢]، متفق عليهما.

فمتى ضعفت هذه الأخوة في القلوب، ووقعت بدلها الشحناء، والبغضاء، والعداوة، والتقاطع، والغش، والخداع، والمقاطعة التامة، نتج عن ذلك القتال، وكثرت الحروب، وحدثت بينهم الفتن واستمرت، كما حدث أولاً بقتل عثمان الخليفة الراشد رضي الله عنه، ثم ما بعده من الملاحم التي أضعفت كيان المسلمين، فصار بعضهم يقتل بعضاً، ويسبي بعضهم بعضاً، ولم يزل القتال مستمرا من ذلك الوقت إلى زماننا هذا، وإلى يوم القيامة، كما أخبر بذلك الصادق المصدوق ﷺ.

ولاشك أن هذا من المصائب الكبيرة على المسلمين؛ حين يكون بأسهم بينهم، ينشغلون بذلك عن قتال أعدائهم، ولا ينافي ذلك ما يحدث في بعض الأحيان من الاجتماع والائتلاف، وتوقف القتال؛ حيث قد يتوقف في جانب ويكثر في جانب آخر، ومتى اجتمعت كلمتهم، وتوجهوا نحو أعدائهم، وأعدوا العدة للكفار؛ فإن الله ينصرهم ويقويهم، والله المستعان.

● **ثالثاً: قوله ﷺ: «ولا تقوم الساعة حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين»:**

هذا هو الشاهد، أنه عليه الصلاة والسلام أخبر بأن أمته سيقع فيها الشرك، وأنه سيوجد فيهم من يعبد الأوثان، وسيوجد فيهم من يرتد عن الإسلام، وينضم إلى طوائف المشركين، والكافرين، وقد وُجد هذا قديماً وحديثاً، فوجدت طوائف ارتدت عن الإسلام، فبعد موته عليه الصلاة والسلام ارتدت طوائف عن الإسلام وقاتلهم الصحابة حتى رجعوا إلى الإسلام.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٠١١)، ومسلم برقم (٢٥٨٦)، عن النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري برقم (٤٨١)، ومسلم برقم (٢٥٨٥)، عن أبي موسى رضي الله عنه.

وهذا الحديث يدل على أن هناك أعداداً كثيرة، يلحقون بالمشركين ينزحون عن بلاد المسلمين، وينضمون إلى المشركين، ويلحقون ببلادهم، وإذا كانوا معهم في بلادهم، فلابد أنهم يكونون مثلهم، فيشركون ويكفرون ويعبدون من الآلهة مع الله، أو من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم، وكما يفعل المشركون الذين هم معهم.

فإذا وجد أن هناك طوائف نزحوا وانتقلوا من بلاد أهلها مسلمون من أجل أمور دنيوية، ومصالح شخصية، أو مرفهات، ونعم دنيوية، أو ما أشبه ذلك، ونزلوا بين المشركين، وسكنوا بينهم؛ فإنهم قد عصوا في ذلك، ويدخلون في مثل هذا الحديث: «**ولا تقوم الساعة حتى يلحق حي**»، وفي رواية: «**أحياء**»؛ أي: قبائل: «**من أمتي بالمشركين**».

ولم يذكر أنهم يشركون، ويمكن أن يكون المراد: يلحقون بهم في الشرك، فيشركون كما أشركوا، ويمكن أن يكون المراد: يلحقون ببلادهم، فينتقلون من بلاد الإسلام، ويهاجرون من بلاد الإسلام إلى الكفار، وتلك وسيلة وذريعة إلى الكفر.

وقد ذكر لي كثير من المشايخ وغيرهم أن فئاماً وطوائف انتقلوا من بلاد كانت تحكمها الدول الإسلامية وسكنوا بين بلاد مشركة وكافرة، تمسك الآباء بالإسلام، ولكن ظهر أولادهم بين الكفار، فلم يعرفوا إسلاماً، فأصبحوا مع من هم بين أظهرهم مشركين وكفاراً وملاحدة ولا دينيين أو نصارى، أو ما أشبه ذلك، وهذه مفاسد الإقامة بين المشركين، فإنه لو تسمك الأب الذي يعيش مع الكفار بدينه، وحافظ على إسلامه، لم يتمسك ولده وولد ولده وهلم جرّاً.

● **رابعاً: قوله ﷺ: «وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان»:**

الوثن هو: كل ما عبد من دون الله، سواء كان له صورة أو ليس له صورة،

فإذا عبد أحدهم قبة فقد عبد وثناً له صورة، سواء كانت تلك القبة على قبر أو على بقعة أو تربة ترجى فيها البركة أو نحو ذلك. فإذا بُنيت القبة على تربة أو قبر وصار يُطاف بها أو يتمسح بها أو يتحرى الصلاة والاعتكاف عندها أو الذبح عندها؛ فإن ذلك كله عبادة لتلك القبة، ولو لم تسمى وثناً، وسواء كانت الاعتقادات في نفس البناية أو في نفس المبني عليه، يعني: المقبور، ولو كان ولياً أو صالحاً أو نحو ذلك، فإن هذا يعتبر وثناً، حتى ولو لم يسموه وثناً، وسموه مزاراً أو مشهداً؛ فإن الأسماء لا تغير من الحقائق شيئاً.

وهكذا لو عبدوا شجرة؛ فطافوا بها أو اعتكفوا عندها وذبحوا لها، وكذلك لو عبدوا عيناً واعتقدوا فيها بركة وشفاءً، وحملهم هذا الاعتقاد على السفر إليها والإقامة عندها والذبح لها والاعتكاف عندها وما أشبه ذلك؛ فإن هذا يعتبر وثناً ولو لم يسموه وثناً.

وهكذا لو عبدوا ميتاً ولو لم يكن مصوراً، يعني: لم ينحتوا له صورة، ولو لم يبنوا عليه قبة أو لم يرفعوا ضريحه، فما دام أنهم يهتفون باسمه ويدعونه ويعتمدون عليه، فإنهم يصدق عليهم أنهم ممن يعبد الأوثان.

والمعنى: أنه لا تقوم الساعة حتى يعبد فئام، أي: أعداد كثيرة من الأمة الأوثان والأصنام، وهذا لا شك مشاهد وملاحظ، حيث نرى الكثير من الناس اليوم في مشارق الأرض ومغاربها يعبدون القبور والأولياء والصالحين والأموات ونحوهم، فهم يعبدون أوثاناً، والله المستعان.

● **خامساً: قوله ﷺ: «وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون، كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين، لا نبي بعدي»:**

وهذا إخبار منه ﷺ عن الكذابين الذين يخرجون بعده ﷺ؛ حيث أخبر بأنه يوجد في أمته: ثلاثون كذاباً، كلهم يزعم أنه نبي، يدّعون النبوة، وهم كاذبون.

والمراد بهؤلاء الكذابين الثلاثين الذين يغتر بهم خلق كثير، ويعتقدون صدقهم، ويتبعونهم وينخدعون بهم.

أما من يدعي ذلك ثم لا يُلتفت إليه، ولا يتبع في دعواه، كأن يزعم مرة أو مرتين، ثم لا يجد رواجاً لبدعته، فهذا لا يدخل في هؤلاء الكذابين الثلاثين الذين أخبر عنهم رسول الله ﷺ في هذا الحديث.

وهذا حق؛ لأنه قد زعم النبوة وادعاها جمع غفير يزيدون عن المائة أو المئات، ولكن يغلب على أكثرهم ذلك من اختلال، أو جنون يكون بأحدهم، أو وسوسة شيطانية، أو خيالات، أو ما أشبهها، فيوسوس له الشيطان أنه نبي، ويقول له: إني أنا الملك، وأنزل إليك، وما أشبهه، أو يخيل إليه، ويصرح بذلك، وهذا وجد كثيراً، وليس المراد هؤلاء.

إنما المراد من يكون له شوكة، ويحصل به فتنة، كما حصل للأسود العنسي في اليمن، الذي ادعى النبوة في آخر العهد النبوي، وقتل قبيل موت النبي ﷺ، واستولى على جل أو كل البلاد اليمنية من نجران إلى صنعاء في نحو ثلاثة أشهر، وكما حصل لمسيلمة الكذاب لما ادعى النبوة وافتتن به خلق كثير، وهكذا.

وقد ذكر بعضهم أنه وجد نحو سبعة وعشرين ممن يصدق عليهم أنهم ممن انخدع بهم خلق كثير، ومن آخرهم ذلك الذي ادعى النبوة في الهند، الذي يقال له: أحمد مرزا غلام القادياني، ولا شك أنه قد انتشر مذهبه وتوسعت دعوته، وفشت، وتمكنت تمكناً شديداً، فكل دعوى للنبوة كهذه يعرف كذبها؛ لأنه ﷺ خاتم النبيين ليس بعده نبي ولا رسول، وشريعته خاتمة الشرائع.

● **سادساً: قوله ﷺ: «ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة، لا يضرهم من خذلهم، حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى»:**

ومما اشتمل عليه هذا الحديث البشارة النبوية، وهي إخباره ﷺ بأنه لا تزال

طائفة من أمته على الحق منصورة، لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم، حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى.

وهذه الطائفة هي: الطائفة الناجية، وهم أهل السنة والجماعة، فقد أخبر النبي ﷺ وبشر بهذه الطائفة، وبأنهم سيبقون إلى أن تقوم الساعة، ولا يلزم أن يكونوا في بلد واحد، بل يجوز أن يكونوا في بلاد متفرقة، لأنه بشرهم بأنهم لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم، وبأن الله ينصرهم، ويقويهم، وينجيهم، وقد يكونون في زمن من الأزمان في ناحية وقطر من الأقطار، ثم ينقرضون منه وينتقلون إلى قطر ثانٍ وناحية أخرى.

*** وقد اختلف في هذه الطائفة المنصورة من هي؟ وما صفاتها وما علامتها؟**

فقد روي عن أحمد أنه قال: (إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أعرفهم)، ففيه رجاء أن الذين يبحثون الحديث النبوي، ويعملون به، ويقرؤنه، ويهتمون بفقهه، وبتعلمه، وتعليمه، يرجى أن يكونوا هم الطائفة الناجية المنصورة.

ومن العلماء من يقول: (هم أهل السنة والجماعة)، ممن كان على عقيدة السلف الصالح، وممن كان على ما مثل ما عليه النبي ﷺ وصحابته؛ فإنهم هم الطائفة، وهم الجماعة، وهم أهل الحق.

وأخبر في هذا الحديث، بأنهم يبقون إلى أن يأتي أمر الله، وقد جاء في أحاديث أخرى معنى قوله: «أمر الله». فقد ثبت أنه ﷺ أخبر بأنه لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: «الله الله»(١)، وأن الخير يقل أو ينعدم قبيل قيام الساعة، وأن الله يرسل ريحاً طيبة قبيل الحشر، تقبض من كان مؤمناً صادق الإيمان، فيبقى رجالٌ أو أناس في خفة الطير، وأحلام السباع، لا يعرفون معروفاً، ولاينكرون

(١) أخرجه مسلم برقم (١٤٨)، عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

منكراً، يتهارجون كما تهارج الحمر الوحشية، وعليهم تقوم الساعة[١].

فالمراد بأمر الله حينئذ في هذا الحديث هو: هذه الريح، أو يأتيهم أمر الله الذي هو: قرب قيام الساعة.

ففيه أنهم يبقون منصورين ينصرهم الله على من خذلهم، ويعينهم على من قاتلهم، ويؤيدهم ويعزهم متى كانوا متمسكين، لكن إذا تخاذلوا، وتخلوا عن الحق، وعن العمل به، فلا يؤمن أن ينتزع الحق منهم، إلى غيرهم، لقوله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨].

وقد وقع هذا كثيراً، فهناك مثلاً طوائف وبلدان كان أهلها متمسكين بالحق، ولما تخلوا عنه، سلط الله عليهم من قتلهم أو قاتلهم، وفرق كلمتهم وفرقهم شذر مذر، وانتقل الحق إلى من قاموا به، وناصروه، وتمسكوا به غاية التمسك.

وهذه هي سنة الله تعالى في عباده: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ﴾ [الفتح: ٢٣]، أنه يخذل من خذله، وينصر من نصره.

وعلى كل حال فإن هذه بشارة عظيمة أن هناك من يبقى متمسكاً بالحق، ولعل السبب في ذلك قيام حجة الله على العباد، فإنهم متى حكموا شريعة الله، ونشروا دين الله تعالى لم يبق لأحد حجة ولا عذر في أن يعتذر بأنه ما بلغه الحق، ولا قامت عليهم الحجة، لقوله تعالى: ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، والله أعلم.

■ ■ ■ ■ ■

---

(١) وردت هذه الجمل عند مسلم برقم (٢٩٣٧)، ورقم (٢٩٤٠)، وغيرها.

الفهرس

الموضوع	الصفحة

السبك الفريد

شرح

كتاب التوحيد

للإمام المجدد شيخ الإسلام

محمد بن عبد الوهاب رحمه الله

(١٣٠٧هـ - ١٣٧٦هـ)

شرحه فضيلة الشيخ العلامة الدكتور

أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن إبراهيم الجبرين

(حفظه الله ورعاه)

اعتنى به وعزا آياته وخرج أحاديثه

أبو أنس علي بن حسين بن خليل أبو لوز

الجزء الثاني

دار الوطن للنشر

بسم الله الرحمن الرحيم

السبك الفريد

شرح

كتاب التوحيد

الطبعة الأولى

١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م

مدار الوطن للنشر - الرياض

هاتف: ٤٧٩٢٠٤٢ (٥ خطوط) فاكس: ٤٧٢٣٩٤١ - ص ب: ٣٣١٠
فرع السويدي: هاتف: ٤٢٦٧١٧٧ - فاكس: ٤٢٦٧٣٧٧

- البريد الإلكتروني: Pop@dar-alwatan.com

- موقعنا على الإنترنت: www.madar-alwatan.com

[٢٣]

باب:

ما جاء في السحر

وقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ﴾ [البقرة: ١٠٢].

وقوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٥١].

قال عمر: الجبت: السحر، والطاغوت: الشيطان.

وقال جابر: الطواغيت: كهان، كان ينزل عليهم الشيطان، في كل حي واحد.

وعن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات»، قالوا: يا رسول الله، وما هن؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات».

وعن جندب مرفوعاً: «حد الساحر: ضربة بالسيف»، رواه الترمذي، وقال: الصحيح أنه موقوف.

وفي صحيح البخاري، عن بجالة بن عبدة، قال: كتب عمر بن الخطاب: أن اقتلوا كل ساحر وساحرة، قال: فقتلنا ثلاث سواحر.

وصح عن حفصة: أنها أمرت بقتل جارية لها سحرتها، فقتلت.

وكذا صح عن جندب.

قال أحمد: عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية البقرة.

الثانية: تفسير آية النساء.

الثالثة: تفسير الجبت والطاغوت، والفرق بينهما.

الرابعة: أن الطاغوت قد يكون من الجن، وقد يكون من الإنس.

الخامسة: معرفة السبع الموبقات المخصوصات بالنهي.

السادسة: أن الساحر يكفر.

السابعة: أنه يقتل ولا يستتاب.

الثامنة: وجود هذا في المسلمين على عهد عمر فكيف بعده؟

■ ■ ■ ■ ■

•• الشرح ••

باب:
ما جاء في السحر

السحر في اللغة: عبارة عما خفي ولطف سببه.

وفي الشـــرع: عقد ورقى وتعويذات يتوسل بها إلى الإضرار بالمسحور ونحوه، فمنه ما يقتل، ومنه ما يمرض، ومنه ما يفرق بين المرء وزوجه.

ولا شك أن السحر معروف، وأنه واقع، وذلك لأمور:

أولاً: أن الله أمر بالاستعاذة من شره، بقوله: ﴿**وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ**﴾ [الفلق: ٤].

ثانياً: أن الله ذكر نوعاً من فعلهم، بقوله: ﴿**مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ**﴾ [البقرة: ١٠٢].

ثالثـــاً: وقوع ذلك من حيث الأصل، فإنه قد وقع منه قصص مشهورة ومعروفة، لا يسع المجال إلى ذكرها، ومن أراد الاطلاع عليها وجدها في بعض الكتب المطبوعة.

رابعاً: أن عمل السحر أو ضرره لا يخرج عن إرادة الله، لقوله تعالى: ﴿**وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ**﴾ [البقرة: ١٠٢]، والإذن هنا: هو الإذن الكوني القدري، لا الإذن الشرعي؛ لأن الله لم يأذن به شرعاً، ولم يحبه، ولكنه أرداه كوناً وقدراً؛ لأنه لا يكون في الوجود إلا ما يريد سبحانه وتعالى.

وهناك من ينكر وقوع السحر ويدعي أنه خيالات، وتوهيمات، مثل طائفة

من المعتزلة، أو أغلب المعتزلة ينكرون ذلك، وأكثر ما يتشبثون به قصة سحرة موسىٰ، لما ذكر الله نوعاً من عملهم في قوله تعالىٰ: ﴿**فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ**﴾ [طه: ٦٦]، قالوا: فهذا فيه ذكر خيال، ونحوه.

لكن لا مانع إذا كانت أعمال هؤلاء خيالية، أن يكون هناك سحرة يقع سحرهم ظاهراً، ويحدث منه تغيرات أو أضرار، ونحوها.

● **ولكن كيف يتمكن الساحر من الإضرار بالمسحور؟ وكيف يصل إليه؛ مع أنه بشر مثلنا، فكيف يعمل هذا العمل؟**

نقول: عمل السحر: إنما هو بواسطة الشياطين، فإن الشياطين هم الذين يعلِّمون هؤلاء هذا السحر، ويعينونهم، قال الله تعالىٰ: ﴿**وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ**﴾ [البقرة: ١٠٢]، فهم الذين يعلِّمونه، ثم فعله إنما هو أيضاً بإعانتهم، وتقويتهم، ومساعدتهم، فهم الذين يعينون الساحر علىٰ الإضرار بذلك المسحور، أو ذلك الإنسان إلىٰ أن يحصل: إما تغيراً في خلقته، وإما تغيراً في جبلته، أو في طبيعته، بأن يبغض محبوبه، أو يزداد في حبه، أو ما أشبه ذلك.

فمن إضرارهم كما أخبر الله تعالىٰ: ﴿**فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ**﴾ [البقرة: ١٠٢]؛ أي: أنهم قد يصلون إلىٰ أن يوقعوا الفرقة بين الزوجين، بأن يُبَغِّضُوا كل واحد منهما إلىٰ الآخر، أو يوقعوا بينهم محبة زائدة، وهو ما يسمونه: بالعطف: وهو تحبيب الزوجين أحدهما إلىٰ الآخر، ومنه ما يسمونه: بالتولة: التي هي شيء يصنعه السحرة، يزعمون أنه يحبب المرأة إلىٰ زوجها والرجل إلىٰ امرأته.

والعامل والمؤثر في ذلك هو الشيطان الذي يلابس الإنسان، فإن السحرة

استخدموا الشياطين، فخدمتهم، فصارت هي التي تعمل هذه الأعمال الغريبة العجيبة التي قد يظهر منها أنها مخالفة لقدرة البشر.

والسحرة لا تخدمهم الشياطين إلا بعد أن يطيعوها، فإن الشيطان يخدم من يطيعه؛ لذلك فالسحرة يعبدون الشياطين، ويطيعونهم في معصية الله، حتى تصير الشياطين طوع إشارتهم.

وعبادة الشياطين تتمثل في الذبح لهم؛ لأن كثيراً من السحرة يذبحون باسم الشيطان، إما ظاهراً، وإما خفيّاً، ، وقد يذبحون لهم ذبحة غير شرعية، بأن يذبحوا لهم من الخلف، أي: القفا، أو بطريقة مغايرة للذبح الشرعي، وقد يذبحون كبشاً أو طائراً أو نحو ذلك باسم هؤلاء الشياطين.

وكثير من السحرة لا تطيعه الشياطين إلا إذا عمل أشياء منكرة؛ فلذلك تجده يلابس النجاسات، ويلوث بدنه بالأبوال وبالعذرة، وما أشبه ذلك؛ لأن الشياطين تألف الأقذار ونحوها، فعند ذلك تطيعه، ولو أنه تظاهر بضد ذلك أمام الناس.

وكثير من السحرة يدعو الشياطين فيحفظ أسماءهم، ويدعوهم في مناسبات، وفي خفية؛ إما بقلبه، وإما بلسانه، فالشياطين تخبره بما يريد، إما صرفاً أو عطفاً وإما عقداً أو غير ذلك.

وكذلك - أيضاً - إذا حفظ أسماءهم طلبهم؛ إما بقلبه، وإما بلسانه، أن يطيعوه، وأن يفعلو لهذا أمراً ما يرضاه، أو يفعلوا ضد هذا أمراً ما يكرهه، أو ما أشبه ذلك.

ومعروف أن الشياطين والجن لهم قدرة على التشكل بصور مختلفة،

فيتشكل ويتمثل الشيطان في صورة وحش، وفي صورة وعل، وفي صورة حمار، وفي صورة حيوانات أخرىٰ، ويتمثل - أيضاً - في صورة جمادات من نخل أو شجر، أو نحو ذلك، فإذا لابس ذلك المسحور ونحوه، وهو بهذه الهيئة وتمكن منه وبقي علىٰ تلك الحال فقد يقلبه مثلاً حماراً أو نحو ذلك، ويبقىٰ علىٰ هذه الهيئة مدة، فنعرف بذلك أن هذا كله بسبب أنهم خدموا الشياطين فأطاعتهم، وما أطاعتهم إلا لما أشركوا بالله وعصوه.

وكثير من السحرة أيضاً لا تطيعه الشياطين إلا إذا ترك العبادات، وإذا أكل الحرام، وترك الصلوات وهجرها، وعكف علىٰ المحرمات، فعند ذلك تعرف الشياطين أنه من أوليائها وأنه ولي الشياطين، وليس بولي للرحمن.

● **ولكن كيف نتحصن من السحرة، ومن أعمالهم؟**

نقول: التحصن منهم إنما يكون بالعبادات، ويكون بطاعة الله وبتلاوة كتابه، وبالإكثار من ذكره، وبنحو ذلك.

فأولاً: قراءة السور الخاصة، كالمعوذتين، وسورة الإخلاص، وآية الكرسي، وأول سورة البقرة، وآخرها، وأول سورة آل عمران، وآخر سورة الحشر، وما أشبهها، وتكون قراءة هذه الآيات عن عقيدة وعن معرفة وتصديق.

وثانياً: الأدعية النبوية المأثورة، ولابد أيضاً مع ذلك من العمل بها، فلا تكفي مجرد قراءتها، بل لابد من العمل بها، وتطبيقها، ولابد أيضاً من العقيدة الصحيحة؛ والاعتقاد بصحة ما جاء به هذا الرسول ﷺ، وتطبيق ذلك في الأقوال والأعمال.

وبذلك يكون العبد مع هذه الأشياء من الذين حصنوا أنفسهم فلا يؤثر فيه

سحر السحرة، ولا شعوذة المشعوذين، ونحو ذلك؛ لأن الشياطين تنفر من ذكر الله، بل ربما تحترق من ذكر الله تعالىٰ.

فلو أن هؤلاء الضعفاء تحصنوا بالذكر من الأصل لما وصل إليهم ضرر هؤلاء المشعوذين والسحرة، ونحوهم، ولكن ما أصابهم شرهم وكيدهم إلا أنهم غفلوا عن الله، ونسوا الله فأنساهم أنفسهم، وسلط عليهم أعداءهم.

فهذا ونحوه من الأسباب التي تحصن الإنسان من أعمال الكفرة والسحرة، والله تعالىٰ أعلم.

وبعد هذه المقدمة نأتي على شرح الآيات والآثار في هذا الباب.

■ **قوله: [وقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ﴾** [البقرة: ١٠٢]]:

الضمير في قوله: ﴿لَمَنِ اشْتَرَاهُ﴾ يعود علىٰ السحر الذي يتعلمونه، ومعنىٰ: ﴿لَمَنِ اشْتَرَاهُ﴾؛ أي: من استبدله، أو من تحصل عليه، وعبر بالشراء كأن ذلك الذي يحصل عليه أو يتعلمه، كأنه باع به دينه وحظه؛ ولهذا قال: ﴿لَمَنِ اشْتَرَاهُ﴾، كأنه اشتراه بثمن، وذلك الثمن هو دينه، فاشترىٰ ذلك السحر بدينه، واشتراه بحظه من الآخرة، واشتراه بنصيبه، ولهذا قال: ﴿مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ﴾؛ أي: ليس له حظ ولا نصيب.

وهذا دليل علىٰ أن السحرة خاسرون في الأصل، ولو حصلوا من الدنيا علىٰ أوفر نصيب، ولكن الخسران هو خسران الدين، فقد خسروا آخرتهم، وخسروا عبادتهم، وخسروا ديانتهم، وذلك هو الخسران المبين.

■ **قوله: [وقوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾** [النساء: ٥١].

قال عمر: الجبت: السحر، والطاغوت: الشيطان[(١)].

وقال جابر: (الطواغيت: كهان، كان ينزل عليهم الشيطان، في كل حي واحد)[(٢)]]:

هذه من صفات اليهود؛ فاليهود هم الذين يؤمنون بالجبت والطاغوت، وقد تقدم تعريف الجبت بأنه: السحر، أو الشيء الردئ الذي لا حقيقة له، والطاغوت: الشيطان، أو الكاهن، أو المعبود من دون الله.

وقد جاء تعريف الجبت والطاغوت عن عمر رضي الله عنه فقال: الجبت: السحر، والطاغوت: الشيطان.

وإطلاق الجبت على السحر من إطلاق الكل على البعض، لأنه بعض منه، لا أنه كله؛ يعني: الجبت يدخل فيه أشياء غير السحر، ولكن جله وأكبره هو السحر.

والذين يؤمنون بالجبت والطاغوت هؤلاء معذبون، كما في الآية: **﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا (٥١) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾** [النساء: ٥١، ٥٢]، فهذا جزاء هؤلاء الذين يؤمنون بالجبت والطاغوت.

* وأما كلام جابر رضي الله عنه: (الطواغيت: كهان، كان ينزل عليهم الشيطان، في كل حي واحد).

(١) أخرجه ابن جرير (٣/ ١٣، ٥/ ٨٣)، وابن أبي حاتم وأبو القاسم والبغوي، كما في تفسير ابن كثير (١/ ٣١١)، وعلقه البخاري بصيغة الجزم، وقال ابن حجر في الفتح (٨/ ١٠٠): إسناده قوي.

(٢) أخرجه ابن جرير (٣/ ١٣). وابن أبي حاتم، كما في تفسير ابن كثير (١/ ٥١٢)، والدر المنثور (٢/ ٢٢)، وفتح الباري (٨/ ١٠٠)، وعلقه البخاري (٨/ ٢٥١).

يريد أن العرب قبل الإسلام كانوا يسمون الطاغوت: كاهناً، وعرافاً، وعارفاً، ونحو ذلك، وهو في الحقيقة طاغوت، أو كاهن، أو ما أشبه ذلك.

* **ثم ذكر المصنف عدة أحاديث:**

■ **الحديث الأول: قوله: [وعن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات»، قالوا: يا رسول الله، وما هن؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»(١)]:**

قوله: **«اجتنبوا السبع الموبقات»**، أي: ابتعدوا عنها، وهو أبلغ من قوله: اتركوا، والسبع: هي الكبائر السبع، والموبقة، أي: المهلكة، والإيباق: الإهلاك؛ أَوْبَقَتِ الشيء؛ أي: أهلكته، وأوبقتهم سيئاتهم، أي: أهلكتهم، وأوبقه كفره، يعني: أهلكه.

فالسبع الموبقات، يعني: المهلكات، وهي: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات.

● **وهذه السبع لا شك أنها من كبائر الذنوب:**

فأولاً: «الشرك بالله»:

بدأ ﷺ بذكر أول هذه الكبائر وهو: الشرك بالله؛ لأنه أكبر الكبائر، وهو الذنب الذي لا يغفر، قال تعالى: **﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾** [النساء: ١١٦]؛ ويعم الشرك كبيره وصغيره، خفيه وجليه، فإنه كله لا يُغفر، يعني: لا يغفر الله أن يُشرك به بشيء صغير أو كبير.

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٧٦٦)، ومسلم برقم (٨٩).

أما الدليل على أن الشرك بالله ذنب كبير، فقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢].

ثانياً: «والسحر»:

ذكرنا فيما مضى أن السحر من عمل الشيطان، وعرفنا أيضاً أن الساحر لابد أن يكون مشركاً؛ لأنه يعبد الشيطان ويتقرب إليه ويدعوه من دون الله، ونحو ذلك؛ لكن خصّه مع كونه داخلاً في الشرك؛ لأنه كان مشهوراً فنبه عليه، كأنه قال: إن الشرك هو ما تعرفونه من جعلكم لله شركاء، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٠]، وكقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيباً﴾ [الأنعام: ١٣٦]، فكان الشرك عندهم اسماً لما يقربونه إلى أوثانهم، وجعلهم شركاء لله، وكأن السحر عندهم هم هؤلاء السحرة الذين يتقربون إلى الشياطين، ويرون أن عملهم ظاهراً لا شيء فيه، ولكن هم في الباطن مشركون.

والدليل على أن السحر ذنب كبير هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ﴾ [البقرة: ١٠٢].

ثالثاً: «وقتل النفس»:

ودليله قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣]؛ حيث توعد الله القاتل بهذه الخصال:

أولاً: بالخلود في النار.

ثانياً: باللعن.

ثالثاً: بالغضب.

رابعاً: بالعذاب العظيم.

وهذا وعيد شديد.

ومن أجل هذه الآية ذهب بعض السلف إلىٰ أن القاتل في النار، وأنه لا تقبل توبته.

ولكن الصحيح: أنه تقبل توبته إذا تاب توبة صادقة نصوحاً، وإنما هذا في حق المستحل، أو من لم يتب، أو نحو ذلك.

وذكر بعض العلماء أن القتل يتعلق به ثلاثة حقوق: حق لله، وحق للمقتول، وحق لأولياء المقتول.

فأما حق الأولياء: فيسقط بالعفو، أو بأخذ الدية، أو بالقصاص.

وأما حق الله: فيسقط بالتوبة الصادقة.

ويبقى حق المقتول: فإن هذا القاتل اعتدىٰ علىٰ إنسان معصوم الدم، فأراق دمه، وأزهق روحه بغير حق، ولا شك أن له حقّاً علىٰ قاتله، كما ورد في بعض الأحاديث أنه يؤتىٰ بالمقتول فيتعلق بالقاتل يوم القيامة، ويقول: يا رب سل هذا فيم قتلني؟[١]، وأخبر النبي ﷺ أن أول ما يقضىٰ بين الناس يوم القيامة في الدماء[٢].

فحق المقتول إذا تاب العبد توبة صادقة، فإن الله تعالىٰ يتحمله عن عبده

---

(١) أخرجه النسائي برقم (٤٠٠٩)، عن جندب عن فلان ـ صحابي ـ، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي برقم (٣٧٣٢، ٣٧٣٣).
وفي الباب عن ابن عباس رضي الله عنهما، أخرجه الترمذي برقم (٣٠٢٩)، والنسائي برقم (٤٠١٠)، و(٤٨٨١)، وابن ماجه برقم (٢٦٢١)، وغيرهما.
قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

(٢) أخرجه البخاري برقم (٦٥٣٣)، ومسلم برقم (١٦٧٨)، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

التائب، ويرضي ذلك المقتول، ويدخل ذلك القاتل تحت واسع رحمته.

ومما يدل على أنه تقبل توبته، قول الله تعالى في سورة الفرقان: ﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦٨ ـ ٧٠]؛ فدل على أن من تاب من الثلاثة قبلت توبته.

رابعاً: «أكل الربا»:

فالربا من المحرمات شرعاً، المجمع عليها، المعلومة من الدين بالضرورة.

والربا عبارة عن: الزيادة في المعاملات على ما هو معروف، وقد دل على تحريمه القرآن، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾ [آل عمران: ١٣٠]. فهذا نهي عما كانوا يتعاطونه من مضاعفة الأموال على المدين، ونحوه.

ومما يدل على تحريمه، وعقوبة آكله، قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ... إلى قوله: فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ﴾ إلى آخر الآيات [البقرة: ٢٧٥-٢٧٩]، فدل هذا على عظم ذنب آكل الربا.

خامساً: «وأكل مال اليتيم»:

وقد دل على تحريمه قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠]، ولكن يجوز خلط أموالهم مع غيرهم إذا كان ذلك المخالط يقصد إصلاحاً، لقوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ

الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ [البقرة: ٢٢٠].

ولما نزل قول الله تعالىٰ: ﴿وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: ٣٤]، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ [النساء: ١٠]، عزل الصحابة أموال اليتامي، وصار اليتيم يأكل وحده، ويشترون له طعاماً وحده، ويصلحون له طعاماً وحده، فإذا بقي شيء من طعامه تركوه له حتىٰ يأكله مرة أخرىٰ أو يفسد، فشق ذلك عليهم، فسألوا، فقال الله: ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾.

سادساً: «والتولي يوم الزحف»:

وهذا خاص بالقتال، عندما يتقابل الصفان: المؤمنون والكافرون في القتال يجب الثبوت، ويحرم الانهزام، والذي يتولىٰ في أرض القتال يعاقبه الله بأن يغضب عليه، ويجعل مأواه النار، وبئس المصير، كما في قوله تعالىٰ في سورة الأنفال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ (١٥) وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الأنفال: ١٥، ١٦]، وذلك لأنه إذا انهزم وهرب، وفر من أرض المعركة، كان سبباً في هزيمة المؤمنين، وسبباً لوقوع الخلل في صفوف المسلمين، وسبباً لتمكين الكفار، وازدياد شوكتهم، فيتجرؤون علىٰ القتال والاقدام، ويقع فيما بين المسلمين الاختلاف والاختلال؛ فمن أجل ذلك يجب الثبوت عند تقابل الصفين.

سابعاً: «وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»:

وهذه أيضاً من الخصال التي توعد الله عليها بوعيد شديد في سورة النور، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٢٣،٢٥]، فهذا وعيد شديد، والمراد بالمحصنات: العفيفات، فالمحصنة هي: العفيفة، والمراد بقذفها: رميها بالفاحشة وارتكاب جريمة الزنا، وهي بريئة محصنة عفيفة شريفة.

وهذا ليس خاصاً بالإناث، بل يدخل فيه أيضاً قذف الرجل، فالذي يرمي بريئاً بأنه قد فعل الفاحشة، وأنه زانٍ أو لوطي، أو متظاهر بالفحش، أو ما أشبه ذلك، أو يرميه بالفحش في أهله، أو بأنه ديوث، أو بأن امرأته مثلاً زانية، أو ما أشبه ذلك، فمثل هذا إذا كان كاذباً فهو معرض لهذا الوعيد، وله عقوبة في الدنيا وعقوبة في الآخرة.

أما عقوبته في الدنيا فهو الجلد إذا طالب المقذوف بحقه من القاذف، أي: للمقذوف الحق في طلب إقامة الحد على القاذف بعد أن يُشهد على كلامه، والحد الشرعي مقرر في القرآن، كما في قوله تعالىٰ: ﴿فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٤]؛ فله أن يقيم عليه الحد، فإذا لم يطالب فلا يقام الحد، لأن الحد حق للمقذوف؛ سواء كان المقذوف رجلاً أو امرأة.

وعلىٰ كل حال هذه من السبع الموبقات المهلكات التي توقع في الإثم، وهي من كبائر الذنوب، وكبائر الذنوب هي: الذنوب التي توعد الله عليها بلعنة، أو بغضب، أو بعذاب، أو نحو ذلك.

■ **الحديث الثاني: قوله: [وعن جندب مرفوعاً: «حد الساحر: ضربة بالسيف»**(١)**، رواه الترمذي، وقال: الصحيح أنه موقوف]:**

الحدود: هي العقوبات التي شرعت على الذنوب زجراً لمن اقترفها، كحد الزنا الذي هو الرجم أو الجلد، وحد القذف، وهو رد الشهادة مع الجلد، وحد السرقة، وما أشبهه.

وكذلك حد المرتد في قوله ﷺ: **«من بدل دينه فاقتلوه»**(٢).

وكذلك حد الساحر، أي: عقوبة الساحر، فالساحر: له حد، ويدخل في الساحر كل من يتعاطى علم الغيب، من الكهنة والعرّافين والمنجمين، ونحوهم؛ لأن عملهم هذا يتوقف على الطاعة، واستخدام الشياطين، والشياطين لا

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (١٤٦٠)، والدارقطني في السنن (٣/ ١١٤)، والطبراني في «الكبير» (١٦٦٥)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ٣٦٠)، والبيهقي (٨/ ١٣٦).
قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، وإن كان الشيخان قد تركا حديث إسماعيل بن مسلم، فإنه غريب صحح. أ. هـ. ووافقه الذهبي، وقال ابن العربي في عارضة الأحوذي (٦/ ٢٤٦): حديث ضعيف، وقال الحافظ ابن حجر في «الفتح» (١٠/ ٢٣٦): ففي سنده ضعف، فلو ثبت لخص منه من له عهد. وقال الترمذي: هذا حديث لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه، وإسماعيل بن المكي يضعف في الحديث، وإسماعيل بن مسلم البصري؛ قال وكيع: هو ثقة، ويروى عن الحسن ـ أيضاً ـ، والصحيح عن جندب موقوفاً. أ. هـ. وقال الذهبي في «الكبائر» (٤٦): والصحيح أنه من قول جندب. وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» رقم (٢٦٩٨)، وفي الضعيفة (١٤٤٦).
وقد ثبت قتل السحرة عن جماعة من الصحابة، قال الشنقيطي رحمه الله بعد أن أورد جملة من الآثار، قال: (فهذه الآثار التي لم يُعلم أن أحداً من الصحابة أنكرها، مع اعتضادها بالحديث المرفوع المذكور، هي حجة من قال بقتله مطلقاً، والآثار المذكورة والحديث فيهما الدلالة على أنه يقتل، ولو لم يبلغ به سحره الكفر؛ لأن الساحر الذي قتله جندب رضي الله عنه كان سحره من نوع الشعوذة، والأخذ بالعيون، حتى أنه يخيل إليهم أنه أبان رأس الرجل، والواقع بخلاف ذلك. وقول عمر: «اقتلوا كل ساحر». يدل على ذلك لصيغة العموم). أ. هـ.
(٢) أخرجه البخاري برقم (٣٠١٧). عن ابن عباس رضي الله عنهما.

تخدمهم إلا إذا تقربوا إليها بالعبادة، والسجود، والذبح، وغير ذلك، فأصبحوا بذلك كفاراً عقوبتهم القتل.

وفي هذا الحديث أن جندب بن كعب رضي الله عنه دخل على الوليد بن عقبة فوجد بين يديه ساحر يعبث، وهذا الساحر كأنه يخيل إلى أعين الناس، فعمد إلى إنسان وقطع رأسه، والناس ينظرون، ثم أعاده كما كان في موضعه، فتعجبوا، وقالوا: كيف أماته ثم أحياه، فعرف جندب أنه ساحر، فعند ذلك دخل مرة أخرى، ومعه السيف قد أخفاه في ثوبه، أو في ردائه، فلما قرب منه ضربه بالسيف فقطع رأسه، وقال: «**حد الساحر ضربة بالسيف**»، ثم قال له: «**أحيي نفسك إن كنت صادقاً**»[1]؛ حيث إنهم يقولون: إنه قتل أو قطع رأس إنسان ثم رده، وإنما ذلك خيال، أو أنه شيطان تمثل له في صورة إنسان ليقطع رأسه، وليس هذا حقيقة، فعلى كل تقدير هذا صحابي لا يقدم على قتل إنسان إلا وعنده دليل على أنه يجب قتله.

أما قوله: «**حد الساحر ضربة بالسيف**»، إما أن يكون موقوفاً من كلام جندب، أو مرفوعاً، وإذا كان موقوفاً فله حكم الرفع؛ لأنه لا يتجرأ أن يقوله من قبل نفسه، ولا يتجرأ على أن يهرق دم إنسان بغير دليل، فلابد أن عنده إيقاف من الرسول عليه الصلاة والسلام.

---

(١) هذه القصة رواها البخاري في تاريخه (٢/ ٢٢٢)، عن أبي عمثان النهدي، عن جندب، قال: كان عند الوليد رجل يلعب فذبح إنساناً وأبان رأسه، فعجبنا، فأعاد رأسه، فجاء جندب الأزدي فقتله.
وقد روى القصة بتمامها البيهقي (٨/ ١٣٦)، ولها طرق كثيرة. ورواها الطبراني في الكبير برقم (١٧٢٥)، وعبدالرزاق في المصنف (١٠/ ١٨٢)، وقال الذهبي في «تاريخ الإسلام» (٣/ ٣): إسناده صحيح.
وقد صحح المصنف رحمه الله هذه القصة بقوله: وكذا صح عن جندب.

■ **الحديث الثالث: قوله: [وفي صحيح البخاري، عن بجالة بن عبدة، قال: كتب عمر بن الخطاب: (أن اقتلوا كل ساحر وساحرة)، قال: (فقتلنا ثلاث سواحر)**[١]]:

عمر بن الخطاب هو الخليفة الراشد، وهو ثاني الخلفاء، وقد أمر بقتل السواحر، حيث كتب إلىٰ بجالة بن عبدة: **(أن اقتلوا كل ساحر وساحرة)**، وكان بجالة علىٰ بعض الولايات، فتتبعوا السحرة، يقول بجالة: **(فقتلنا ثلاث سواحر)**، أي: بأمر عمر رضي الله عنه.

■ **الحديث الرابع: [وصح عن حفصة: أنها أمرت بقتل جارية لها سحرتها، فقتلت**[٢].

وكذا صح عن جندب[٣].

---

(١) أصل الحديث: أخرجه البخاري برقم (٣١٥٦)، وأخرج الحديث بتمامه أبو داود برقم (٣٠٤٣)، وأحمد في «المسند» (١/ ١٩٠، ١٩١)، وابن أبي شيبة في مصنفه (١/ ١٣٦)، والبيهقي (٨/ ١٣٦)، وعبدالرزاق في مصنفه (١٠/ ١٧٩، ١٨٠، ١٨١) رقم (١٨٧٤٦)، وعبدالله في مسائل الإمام أحمد (١٥٤٢).
قال أحمد شاكر في تحقيق المسند (١٦٥٧): إسناده صحيح.

(٢) أخرجه مالك في «الموطأ» (٢/ ٨٧١)، كتاب العقول، باب: (١٩)، عن محمد بن عبدالرحمن بن سعد الأزدي.
وأخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (١٠/ ١٨٠)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٩/ ٤١٦، ١٠/ ١٣٦)، وعبد الله في «مسائل الإمام أحمد» برقم (١٧٧٩) والبيهقي (٨/ ١٣٦)، وأخرجه الطبراني، كما في المجمع (٦/ ٢٨٠، ٢٨١). عن ابن عمر رضي الله عنهما..
قال الهيثمي في «المجمع» (٦/ ٢٨٠، ٢٨١): رواه الطبراني من رواية إسماعيل بن عياش عن المدنيين وهي ضعيفة وبقية رجاله ثقات. أ. هـ.
وصححه المصنف رحمه الله بقوله: «وصح عن حفصة...».

(٣) يشير المصنف رحمه الله إلىٰ القصة التي رويت عن جندب بأنه قتل ساحراً كان عند الوليد بن عقبة، وانظر تخريج هذه القصة ص ٢٨.
كذلك رُوي عن جندب قوله: «**حد الساحر: ضربة بالسيف**». وقد سبق تخريجه ص ٢٧.

قال أحمد: عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ[1]]:

كذلك أيضاً صح عن حفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنهما: أنها أمرت بقتل جارية لها سحرتها، فَقُتِلتْ، وكانت قد دبرتها؛ أي: علقت عتقها بموتها، قالت: (إذا مت فجاريتي هذه ـ يعني: مملوكتها ـ حرّة)، فكأن تلك الجارية استبطأت موتها، فعملت لها عملاً شيطانياً تريد أن تميتها، فاطلعت عليها حفصة وعلىٰ عملها فأمرت بها فقلت، فدل ذلك علىٰ أنه متفق علىٰ هذا الأمر عند الصحابة، أن قتل الساحر لازم لكونه من المفسدين في الأرض، ولكونه من المشركين.

ولم يُذكر أنهم يستتيبونهم، وأنهم كلما قبضوا علىٰ ساحر قالوا له: إما أن تتوب، وإلا قتلناك؛ بل يقتلونه متىٰ عرفوا أنه ساحر، ولو أظهر الندم والتوبة، وذلك لأنه يظهر دائماً أنه مع المسلمين، وأنه ليس من عمله ما يخفىٰ، فهو يُظهر دائماً خلاف ما يُبطن، ولو قيل له: تب، لأظهر التوبة، ولكن يظهرها ثم يعود إلىٰ ما كان عليه، فلا تقبل توبتة ظاهراً، ولا يستتاب؛ بل يقتل بكل حال، وهذا هو قول جمهور الأمة، ولا حاجة إلىٰ أن يؤخذ الساحر ويستتاب، ولا يقال له: صف لنا سحرك، وما أشبه ذلك، بل يحكم بكفره.

وعلىٰ كل حال؛ حيث قد تبين أن حكمه الكفر، وأن حده القتل، فإن علىٰ المسلم أن يحذر من القرب من أولئك المشعوذين، والسحرة، ولا ينخدع بأقوالهم، وإفكهم، وما يظهرونه من البهرج ومن الخيالات، فإنها كلها أعمال شيطانية، نسأل الله أن يعيذنا والمسلمين من الشرور كلها، خفيها وجليِّها. والله أعلم.

---

(١) قال في «فتح المجيد» (٢/ ٤٧٦): أي: صح قتل الساحر عن ثلاثة، أو جاء قتل الساحر عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ، يعني: عمر، وحفصة، وجندباً.

[٢٤]

باب:

بيان شيء من أنواع السحر

قال أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا عوف، حدثنا حيّان بن العلاء، حدثنا قَطَن بن قبيصة، عن أبيه: أنه سمع النبي ﷺ قال: «إن العيافة، والطَّرق، والطيّرة من الجبت».

قال عوف: العيافة: زجر الطير، والطَّرق: الخط يخط في الأرض، والجبت: قال الحسن: رنة الشيطان. إسناده جيد.

ولأبي داود، والنسائي، وابن حبان في صحيحه: المسند منه.

وعن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «من اقتبس شعبة من النجوم، فقد اقتبس شعبة من السحر، زاد ما زاد»، رواه أبو داود، بإسناد صحيح.

وللنسائي، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر، ومن سحر فقد أشرك، ومن تعلَّق شيئاً وكل إليه».

وعن ابن مسعود، أن رسول الله ﷺ قال: «ألا أنبئكم ما العضة؟ هي النميمة: القالة بين الناس»، رواه مسلم.

ولهما، عن ابن عمر، أن رسول الله ﷺ قال: «إن من البيان لسحراً».

■ ■ ■ ■ ■

● فيه مسائل:

الأولى: أن العيافة والطَّرْق والطيرة من الجبت .

الثانية: تفسير العيافة والطرق .

الثالثة: أن علم النجوم نوع من السحر .

الرابعة: أن العقد مع النفث من ذلك .

الخامسة: أن النميمة من ذلك .

السادسة: أن من ذلك بعض الفصاحة .

■ ■ ■ ■ ■

الشرح

باب:
بيان شيء من أنواع السحر

هذا الباب عقده المؤلف من أجل بيان بعض أنواع السحر، وهذه الأنواع: منها ما هو سحر عملي، ومنها ما هو اعتقادي، ومنها ما هو من السحر اللغوي، ومنها ما هو سحر من أصل السحر، الذي هو السحر الشيطاني، ومنها ما هو من أعمال السحرة، ومنها ما يسمى سحراً، أو يقرب من السحر من غير أن يكون سحراً في الحقيقة.

إذا تبين أن أصل السحر هو استخدام الكفرة للشياطين حتى تعطيهم مطلبهم، عُلم أن هذا هو أصل السحر، فإذاً هذه الأشياء التي في هذا الباب سميت سحراً لكونها من أعمال السحرة.

لكن للسحرة علامات، ومنها هذه الأشياء، فالسحر يطلق عليه الجبت، كما في قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٥١].

وقد تقدم قول عمر: الجبت: السحر، والطاغوت: الشيطان.

فإذا كان الجبت اسماً للسحر فإن الذين يعملونه، أو يؤمنون به، يعملون له كثيراً من المقدمات، ويعملون كثيراً من الأعمال التي تدخل فيه أو يعرفون بها.

■ **قوله: [قال أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا عوف، حدثنا حيّان بن العلاء، حدثنا قطن بن قبيصة، عن أبيه: أنه سمع النبي ﷺ قال: «إن العيافة، والطَّرق، والطيّرة من الجبت».**

قال عوف: العيافة: زجر الطير، والطَّرق: الخط يخط في الأرض، والجبت: قال الحسن: رنة الشيطان. إسناده جيد.

ولأبي داود، والنسائي، وابن حبان في صحيحه: المسند منه[1]]:

هذا الحديث الذي رواه الإمام أحمد فيه ثلاثة أنواع: العيافة، والطرق، والطيرة، وهي من أنواع السحر.

وقد أورد المؤلف الحديث بالسند، وذلك بسبب التشكيك في أحد الرواة.

● **الراوي الأول**: محمد بن جعفر، ويقال له: غندر، عالم مشهور، أكثر روايته عن شعبة بن الحجاج العالم المشهور.

● **الراوي الثاني**: عوف، ويقال له: ابن أبي جميلة، ويعرف: بعوف الأعرابي، وكان عالماً باللغة، وبغرائبها، ومفرداتها.

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤٧٧)، (٥/ ٦٠)، وأبو داود برقم (٣٩٠٧، ٣٩٠٨)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٨/ ٢٧٥)، وابن حبان برقم (١٤٢٦)، وعبد الرزاق في «مصنفه» رقم (١٩٥٠٢)، وابن أبي شيبة في مصنفه» رقم (٦٤٥٤)، والطبراني في «الكبير» رقم (٩٤١، ٩٤٢، ٩٤٣، ٩٤٥). وأورده البغوي في «شرح السنة» (١٢/ ١٧٧)، والبيهقي (٨/ ١٣٩).
والحديث صححه ابن حبان، وقال شيخ الإسلام في «المجموع» (٣٥/ ١٩٢): إسناده حسن، وحسنه النووي في «رياض الصالحين» برقم (١٦٧٠)، وقال المصنف: إسناده جيد، وقال ابن مفلح في «الآداب الشرعية» (٣/ ٣٦٧): إسناده جيد، وضعفه الألباني في «تخريج رياض الصالحين» رقم (١٦٦٨)، وفي غاية المرام (٣٠١)، وقال الأرناؤوط في «تخريج شرح السنة» (١٢/ ١٧٧): وحيان هو ابن العلاء، لم يوثقه غير ابن حبان، وباقي رجاله ثقات، وقد حسنه النووي.

● **الراوي الثالث**: حيان بن العلاء، ويقال: بن المخارق أبو العلاء، ذكره ابن حبان في الثقات، وهو تابعي ثقة مشهور.

● **الراوي الرابع**: قطن بن قبيصة، تابعي صدوق، وأبوه قبيصة بن المخارق صحابي مشهور.

قال المؤلف: إن إسناد الحديث جيد.

ثم فسر عوف ـ لكونه عارفاً باللغة ـ أصل معنى هذه الكلمات التي وردت في الحديث، فقال: العيافة: زجر الطير، والطرق: الخط يخط في الأرض، ولم يفسر الطيرة؛ لأنها مشهورة.

* **وقوله «العيافة»: قال عوف معناها: زجر الطير، وزجر الطير**: من أنواع الطيرة؛ لأن معناه إشارة إلى الطير حتى يطير ليتشاءم به أو يتفاءل به، فعندما يريد أحدهم أن يفعل فعلاً فإنه يذهب إلى طيور على الأرض ثم يزجرها حتى تطير، فإذا طارت فإن مرت عن يمينه تفاءل وفرح وفعل ما عزم عليه، ، وإن مرت عن يساره تشاءم وحزن وترك ما عزم عليه اعتماداً على هذه الطيور، هكذا أوحى إليهم الشيطان.

وقد قرأت في بعض الحكايات أن بعض الأعراب القدماء كان ولده مسافراً، ولما رجع إليه أخذ يسأله ماذا فعلت؟ فقال: في أثناء الطريق طار طائر، فقال لولده: ارمه وإلا فلست بابني، قال: نعم رميته، أي: عرف من ملامحه أنه رماه، وفي أثناء المكان الفلاني طار طائر، فقال لولده: اتركه وإلا فلست بابني، قال: نعم تركته، فمن الذي أخبره قبل أن يقص عليه ابنه أنه رمى هذا وترك هذا؟!

الجواب: أن هذا من زجر الطير، ومما يتشاءمون به أو يتفاءلون به. فإنهم متى زجروا الطير وحصل طيرانه من هنا أو من هنا عرفوا من واقع الحال أن هذا

حق وهذا خير، ويقع ذلك موافقاً كثيراً، فينخدعون بهذه الموافقات. ومن أجل ذلك يعتمدون هذا الزجر.

نقـول: إذا كان هناك شيء من الموافقات فإنه من وحي الشيطان، من أجل ذلك حَسُنَ إلحاق زجر الطير بالسحر، وإلا فله باب مستقل سوف يأتي إن شاء الله.

فالحاصل أن زجر الطير ليس من أنواع السحر، بل من الطيرة، لكن لما كانوا يعتمدون على ذلك أصبح كأنه سحر.

* وقوله: «**الطرق**»: **وقد فسر عوف الطرق**: بأنه الخط يخط في الأرض، وهذا أيضاً نوع من الكهانة.

والكهنة من السحرة، إلا أن الكاهن يعتمد الإخبار بالأمور المستقبلة، ويدعي علم الغيب، ويخبر بما في الضمير، ويدعي أنه يعلم الأمور المستقبلة قبل حدوثها، وما أشبه ذلك.

وإذا قدر إصابته فإن ذلك على وجه المصادفة، أو بسبب وحي شياطينه الذين يخدمهم.

وفي هذا الكتاب ـ كتاب التوحيد ـ باب مستقل يأتينا إن شاء الله في الكهان وحكمهم، وتقدم لنا حديث يتعلق بهم في باب: قول الله تعالى: ﴿**حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ...**﴾ الآية [سبأ: ٢٣].

والخـط: معناه أن الإنسان يأتي ذلك العراف، ويقول له: أخبرني بصفتك تعلم الغيب، أو بصفتك عرافاً: هل سفري هذا مفيد أو غير مفيد؟ أو هل شرائي هذا أو بيعي هذا فيه خير أم لا؟! أو هل انتقالي إلى كذا أو فعلي كذا هل فيه مصلحة أم لا؟! وغير ذلك.

والحاصل أن العرّاف يأتي إلىٰ أرض رملية، ويخط فيها بعصا خطوطاً كثيرة سريعة، حتىٰ لا يدري كم عددها، ثم يرجع إليها يمحوها اثنين اثنين، حتىٰ ينظر كم بقي، فإن بقي واحد من الآخرِ تفاءل، وقال: افعل، وإن بقي اثنان من الآخر تشاءم، وقال: لا تفعل، أو بالعكس، فكأنه يعتمد علىٰ هذا الخط الذي يخط بالأرض، وهذا نوع من عمل الكهنة.

ومثله ـ أيضاً ـ الضرب بالحصىٰ، فعندما يأتي أحد إلىٰ عرّاف أو كاهن ويستشيرهم يكون عندهم حصىٰ كثير، فيأخذ العراف الحصىٰ ويلقيه بسرعة في زاوية، حتىٰ يكثر ذلك الحصىٰ، ثم بعد ذلك يرجع فيأخذه اثنتين اثنتين حتىٰ ينتهي، فيتفاءل بالواحدة ويتشاءم بالاثنتين إذا بقيتا، أو بالعكس.

وهذا إذا أصاب فهو من وحي الشيطان، والغالب أنه يخطئ، فكثيراً ما يقول: افعل، ويكون ذلك الفعل غير مفيد، وكثيراً ما يقول: لا تفعل، ويستفيد لو فعل، أو افعل، ويستفيد لو لم يفعل.

فدل علىٰ أنهم يظنون ظناً، وإذا قدرت إصابتهم فهي من استخدامهم للشياطين التي قد تخبرهم بالأشياء التي تطلع عليها، بينما هم لا يطلعون.

* **وقوله «الطيرة»**: سوف يأتي إن شاء الله الكلام علىٰ الطيرة في باب مستقل(١).

* **وقوله: «الجبت»**: وقد سبق أن تكلمنا علىٰ معنىٰ الجبت بأنه: السحر، وقد فسره الحسن في هذا الحديث بأنه: رنة الشيطان، وكأنه يريد وحي الشيطان، أو عمل الشيطان، فإن الجبت هو السحر، والسحر هو من عمل الشيطان، فقوله: رنته، أي: صوته، ورنينه، ووسوسته، ووحيه إلىٰ أوليائه، كل ذلك من الجبت.

---

(١) سيأتي إن شاء الله الكلام علىٰ الطيرة في باب (٢٧): ما جاء في التطير.

ديث في المسند[١] : قال الحسن : إنه الشيطان ؛ أي : إن الجبت هو الشيطان ، ولكن نقله ابن كثير في التفسير عند قوله تعالى : ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ ، بلفظ : رنة الشيطان ولعله تصحيف .

■ **قوله : [وعن ابن عباس ، قال : قال رسول الله ﷺ : «من اقتبس شعبة من النجوم ، فقد اقتبس شعبة من السحر ، زاد ما زاد»[٢] ، رواه أبو داود ، بإسناد صحيح .] :**

هذا الحديث يتعلق بالتنجيم ، وللتنجيم باب في هذا الكتاب يأتينا إن شاء الله تعالى[٣] ، أورد فيه المصنف آثاراً ولم يورد هذا الأثر ؛ لأنه قد سبق .

وإنما أراد هنا أن التنجيم نوع من السحر ؛ لأنه قال : «**فقد اقتبس شعبة من السحر**» ، والاقتباس : الاقتطاع ، **من اقتبس** ؛ أي : من اقتطع وتعلم وأخذ .

والشعبة : البعض ، و«**شعبة من النجوم**» ؛ أي : بعضاً وقطعة من علوم النجوم ، والمراد به : علم التأثير .

ويأتينا إن شاء الله أن التنجيم قسمان : علم التأثير وعلم التسيير ، والممنوع هو : علم التأثير ، وهوالاعتقاد في النجوم أنها تؤثر في الكون أو في الأرض ، أو الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية ، فيستدلون بالنظر في

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند برقم (٥/ ٦٠) .

(٢) أخرجه أبو داود برقم (٣٩٠٥) ، وأحمد (١/ ٢٧٧ ، ٣١١) ، وابن ماجه برقم (٣٧٢٦) ، وابن أبي شيبة في المصنف (٨/ ٦٠٢) ، والطبراني في «الكبير» رقم (١١٢٧٨) ، والبيهقي (٨/ ١٣٨) . والحديث صححه النووي في «رياض الصالحين» رقم (٦٣٧) ، والذهبي في «الكبائر» (١٢٣) ، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية (٣٥/ ١٩٣) : إسناده صحيح ، وقال ابن مفلح في «الآداب الشرعية» (٣/ ٤٣٤) : إسناده جيد . وصححه العراقي في «تخريج الإحياء» (٤/ ١١٧) . وقال أحمد شاكر في تحقيق المسند رقم (٨٤١) : إسناده صحيح . وصححه المصنف رحمه الله . وصححه الألباني في السلسلة رقم (٧٩٣) .

(٣) سيأتي إن شاء الله تعالى الكلام على التنجيم في باب رقم (٢٨) : باب ما جاء في التنجيم .

النجوم على ما يحدث في الأرض، هذا هو التنجيم.

ولاشك أنه نوع من ا لسحر، لأن النجوم مسيرات ومسخرات، ولا تدل على شيء من علم الغيب، والمنجمون الذين يزعمون أنهم يعرفون بطلوع النجم الفلاني في وقت كذا، أو بخروجه في وقت كذا، أنه يحدث: كذا وكذا، يخطئون كثيراً، وأكثر إصابتهم على وجه المصادفة.

والشاهد أنهم عدوا التنجيم سحراً، أي: أن من أخذ بعضاً من علم النجوم فقد شارك في السحر، وأصبح من جملة السحرة، ولو لم يأخذ إلا قليلاً، ولكنه كلما ازداد تعلمه بالتنجيم ازداد حظه من السحر، هذا معنى قوله: **«زاد ما زاد»**؛ أي: كلما زاد من التنجيم زاد من السحر، وإذا توغل فيه أصبح اسمه ساحراً، ويطلق عليه هذا الاسم، ويستحق حد الساحر وهو الضرب بالسيف كما تقدم.

■ **قوله: [وللنسائي، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر، ومن سحر فقد أشرك، ومن تعلق شيئاً وكل إليه»**(١)]:

في هذا الحديث ثلاثة أمور:

الأمر الأول: قوله: «من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر»:

النفث في العقد من عمل السحرة، كما في قوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ

---

(١) أخرجه النسائي (٧/ ١١٢) رقم (٤٠٩٠)، وابن عدي في «الكامل» (٢/ ٢٣٨)، والمزي في «تهذيب الكمال» (٢/ ٦٥٤)، وعبد الرزاق في «المصنف» (١١/ ١٧)، وأخرجه ابن مردويه في «التفسير» كما في «الدر المنثور» (٦/ ٤١٩)، والطبراني في «الأوسط» (٢/ ٢٨٠) رقم (١٤٩٢). لكن بدون قوله: «ومن تعلق شيئاً وُكل إليه».

وحسنه ابن مفلح، كما في قرة عيون الموحدين ص(١٣٧)، وفتح المجيد» ص(٤٠٢)، وفي «الآداب الشرعية (٣/ ٧٨)، وقال المنذري في «الترغيب والترهيب» (٤/ ٣٢): رواه النسائي من رواية الحسن عن أبي هريرة، ولم يسمع منه عند الجمهور. أ.هـ.

وقال الذهبي في «الميزان» (٢/ ٣٧٨): هذا حديث لا يصح للين عباد وانقطاعه، وضعفه =

فِي الْعُقَدِ﴾ [الفلق: ٤]، فإن الساحر عندما تستحضر نفسه الشيطانية، ويلابسه شيطانه، يأخذ حبلاً أو خيطاً ويجعل فيه عقدة، ثم ينفث في تلك العقدة من ريقه ذلك الذي لابسه الشيطان الرجيم، فيخرج من ريقه أو من نَفَسِهِ نَفَسٌ شرير ملتبس بهذا الأمر الشيطاني، ويحدث منه الإضرار بالمسحور بإذن الله الكوني القدري، لا الديني الشرعي.

فالحاصل من عقد عقدة ثم نفث فيها قبل أن يحكمها، ثم أحكمها عقداً فقد أشبه السحرة، وأصبح ساحراً، لأن النفث في العقد خصيصة السحرة، وإن كان الساحر يعقد فيها على وجه خاص، وهو تلفظاته وتكلماته بكلمات ظاهرة في إضراره لمن يريد، كأن يقول ـ مثلاً حال نفثه: احكم بكذا، أو يا شيطان افعل كذا، أو أريد منك أن تطيعني في كذا، وما أشبه ذلك، يقول ذلك بالفعل واللفظ، أو يعزم عليه بالقلب فيحصل ما يحصل، فمن عقد تلك العقد ونفث فيها بريقه الشيطاني فقد سحر.

الأمر الثاني: قوله: «ومن سحر فقد أشرك»:

وهذا ظاهر فإن السحر عمل شيطاني، والذي يعمل عمل الشيطان يشرك،

= الألباني في «ضعيف الجامع» رقم (٥٧١٤).

وأما الجملة الأخيرة منه وهي قوله: «**ومن تعلق شيئاً وكل إليه**». فيشهد لها حديث عبد الله بن عكيم. أخرجه أحمد (٤/ ٣١٠، ٣١١)، والترمذي (٢٠٧٣)، والحاكم (٤/ ٤١٦). وابن أبي شيبة في «المصنف» (٨/ ١٣). والبيهقي في «السنن الكبرى» (٩/ ٣٥١).

قال الترمذي: حديث عبدالله بن عكيم إنما نعرفه من حديث أبي ليلى. أ. هـ. وقال ابن البنا في «الفتح الرباني» (١٧/ ١٨٨). قلت: هذا الحديث لا يقل درجته عن الحسن، لا سيما وله شواهد تؤيده. وقال الألباني في «غاية المرام» رقم (٢٩٧): حسن، وذكر أن له شاهداً عن الحسن البصري مرسلاً، أخرجه ابن وهب في «الجامع» ص١١٣: أخبرني جرير بن حازم أنه سمع الحسن يقول: فذكره مرفوعاً، وهذا إسناد مرسل صحيح.

وقد سبق تخريجه وشرحه في الباب السابع (باب ما جاء في الرقى والتمائم).

فالساحر لا يطيعه شيطانه إلا بعد ما يتقرب إليه بعبادته، وبمعصية الرحمن بأي نوع من أنواع المعصية التي يفعلها طاعة لذلك الشيطان، فيكون قد أطاع الشيطان، وعصى الرحمن، وذلك غاية الشرك، وقد سبق أن عبادة الشيطان واقعة لكل مشرك: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ [يس٦٠].

وقد تبين أن كل من عبد غير الله فما عبد إلا الشيطان منذ وسوس له، لكن هؤلاء السحرة عبدوه مباشرة، وأولئك عبدوه حقيقة؛ أي: في نفس الأمر، وإن لم يظهر منهم مباشرة عبادتهم، لكن هؤلاء السحرة لما تقربوا إليه بأنواع القربات أصبحوا بذلك كأنهم يعبدونه، فصاروا بذلك مشركين.

الأمر الثالث: قوله: «ومن تعلق شيئاً وكل إليه»:

فقد تقدم الكلام على التعاليق والحكم عليها في باب: (ما جاء في الرقى و التمائم).

ويبقى الكلام على موضوعين في هذا الباب لهما صلة بمعنى السحر، وسوف نتكلم عليهما من حيث العموم، ثم من حيث الخصوص.

الموضوع الأول: النميمة:

■ **قوله: [وعن ابن مسعود، أن رسول الله ﷺ قال: «ألا أنبئكم ما العضة؟ هي: النميمة: القالة بين الناس»[1]، رواه مسلم.]:**

أولاً: من حيث العموم:

يقول ﷺ: **«ألا أنبئكم ما العضة؟ هي: النميمة: القالة بين الناس»**، فسمى النميمة في هذا الحديث بالعضة.

والعضة من أسماء السحر، وشبهها به لكون النميمة سبباً في الفتن، وسبباً

(١) أخرجه مسلم رقم (٢٦٠٦).

في الشرور والوقائع والخلافات والاضطرابات ونحوها.

والنميمة هي: التحريش بين الناس، ولهذا ذكر أنها: «**القالة بين الناس**»، والقالة: يعني: المقال، والقول الذي يكون بين هذا وهذا.

وقد ورد في النمام وعيد شديد، ففي حديث حذيفة أن النبي ﷺ قال: «**لا يدخل الجنة نمام**»[(١)].

ويسمىٰ النمام ـ أيضاً ـ: قتاتاً، كما في رواية أخرىٰ: «**لا يدخل الجنة قتات**»[(٢)].

والنمام: هو الذي ينقل الكلام من هذا إلىٰ هذا علىٰ وجه التحريش والإفساد، ويحرص علىٰ أن يعبر بعبارة يفهم منها الشر أو سوء الظن بالمنقول عنه، فإذا سمع من شخص مقالاً في شخص، ولو لم يكن جارحاً نقله إليه، وعبر بعبارة من عنده تكون جارحة لشعوره، ومثيرة لغضبه، وقد يكذب ويقول ما لم يقل، ويقول علىٰ الإنسان ما لم يفعل. فمن أجل ذلك تقع بين الناس العداوات والشحناء، ونحو ذلك؛ بسبب هذه النميمة.

وفي الحديث المشهور أنه ﷺ أخبر بأن النميمة من أسباب عذاب القبر، ففي الصحيح لما مر بقبرين وقال: «**إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير، بلى أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة، وأما الآخر فكان لا يستبرئ من بوله**»[(٣)]، فجعل النميمة من أسباب عذاب القبر، كما جعلها شبيهة بالسحر في هذا الحديث، لأنها تفسد الإخاء بين الناس، وتوقع بينهم الشحناء، ونحو ذلك، حتىٰ قال بعضهم: (يفسد النمام في الساعة ما لا يفسد الساحر في السنة).

---

(١) أخرجه مسلم برقم (١٠٥)ـ(١٦٨).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٦٠٥٦). ومسلم رقم (١٠٥)ـ ١٦٩، ١٧٠. عن حذيفة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري برقم (٢١٦)، ومسلم برقم (٢٩٢)، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

ووقائع النمامين وما ينتج بسببهم كثيرة، فمن ذلك ما حكاه الذهبي في الكبائر وغيره: أن رجلاً رأىٰ غلاماً مملوكاً يباع فقال للمشترىٰ: إن فيه عيباً، إنه نمام ولكن المشتري اشتراه، وقال: لا أغتر بنميمته، ثم إنه لما مكث عند ذلك المشتري أياماً أوقع بينه وبين زوجته العداوة، وذلك أنه ذكر لها كذباً أن زوجك سيتزوج عليك، وأنه يريد فراقك، وقد ضجر منك وكل ذلك كذب، ثم قال لها: إذا كنت تريدين أن تتحققي فخذي من شعر حلقه شعرات، واستقري بها، ثم جاء إلىٰ زوجها وقال له: إن زوجتك قد اتخذت خلاً، وقد مقتتك، وما تريد إلا أن تقتلك، فقال له: ليس بيني وبينها عداوة، قال: بلىٰ، إن كنت تريد أن تتحقق فتناوم لها، فلما تناوم وأظهر أنه نام، جاءت بموسىٰ معها؛ لتحلق من شعر حلقه، فلما رآها أقبلت بالموسىٰ اعتقد صدق ذلك النمام، فوثب إليها وقتلها.

ثم جاء ذلك النمام إلىٰ أهلها ووشىٰ عندهم، وقال: إنه قتلها ظلماً بغير حق، فجاءوا فقتلوه فتشاور الحيان فوقع بينهم معارك عظيمة؛ بسبب هذه النميمة.

وهناك أمثلة مثل هذه كثيرة في أن النمام يحصل منه إثارة للفتن وقتل وقتال، هذا من حيث العموم.

ثانياً: من حيث الخصوص:

فالساحر يقلب الحقائق ويقلب الأمور عن ظاهرها، وعن ماهياتها، كما تقدم أن السحرة يشعوذون ويموهون علىٰ الأعين، ويجعلونها خيالات أمام الناظرين، كما حكىٰ الله عن سحرة موسىٰ بقوله: **﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾** [طه: ٦٦]، وبقوله: **﴿فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ﴾** [الشعراء: ٤٤]، يعني: أن

الحبال والعصي انقلبت في نظر الناس إلى حيات، وكل ذلك من الشعوذة.

فإذا عرفت أن الساحر يشعوذ على الأعين ويخيل ما ليس بحقيقة، فكذلك النمام يخيل ما ليس بحقيقة، ويجعل الوهم يقيناً، أو يجعل الظن حقّاً، ويصور ما لم يكن، ويهم أشياء غريبة ليست حقيقة، فبذلك أشبه الساحر في فعله، فأخبر النبي ﷺ بأنه ملحق بالسحرة، من حيث الشبه لا من حيث الحكم، **وأما من حيث الحكم فلا.**

وقد تبين فيما سبق أن الساحر حده القتل، لحديث: «**حد الساحر ضربة بالسيف**»، ولأن الصحابة قتلوا السحرة، فقتل جندب ساحراً، وعمر أمر بقتل السواحر، فقتل ثلاثة سواحر، وحفصة أمرت بقتل جارية سحرتها فقتلت، لكن النمام لا يصل إلى هذا الحد إلا إذا تسبب في قتل مسلم معصوم فإنه يقتل قصاصاً؛ لأن المتسبب له حكم المباشر، كما أن الساحر مشرك؛ لأنه يسجد لشيطانه، ويدعوه ويتقرب إليه، ويعصي الله طواعية لشيطانه، فأصبح مشركاً، وليس كذلك النمام، ولكن النمام يفعل هذا الذنب الكبير، فمن أجل ذلك ورد فيه الوعيد، وجعل ملحقاً بالسحر من حيث الفعل، ومن حيث الشبه المقارب.

الموضوع الثاني: الفصاحة والبيان:

■ **قوله**: [**ولهما، عن ابن عمر، أن رسول الله ﷺ قال: «إن من البيان لسحراً»**(١)]:

هذا جزء من حديث، لفظه: «**إن من البيان سحراً، وإن من العلم جهلاً، وإن من**

(١) أخرجه البخاري برقم (٥١٤٦، ٥٧٦٧)، عن ابن عمر رضي الله عنها.
وأخرجه مسلم برقم (٨٦٩)، عن عمار بن ياسر رضي الله عنهما، ولم أجده عند مسلم من حديث ابن عمر كما ذكر المصنف.

الشعر حكماً، وإن من القول عيالاً»[١] .

وسببه : أن رجلين وفدا إلى المدينة فتكلما، فعجب الناس من بيانهما، فقال النبي ﷺ : «**إن من البيان لسحراً**» .

والبيان : هو الفصاحة والبلاغة وحسن التعبير، وصياغة الكلمات بأسلوب بليغ جذاب للسامع .

وقد اختلف في هذا الحديث هل هو مدح للبيان أو ذم له؟

فالذين رأوا أنه مدح، قالوا : إن البيان نعمة عظيمة ؛ لأن الله امتن به على الإنسان، في قوله تعالى : ﴿**خَلَقَ الإِنسَانَ . عَلَّمَهُ الْبَيَانَ**﴾ [الرحمن : ٣، ٤]، فما يمتن الله إلا بما فيه فضل وخير، فيكون هذا من حاله، وكونه سحراً، بمعنى : أنه مباح وحلال ولهذا يسمون البلاغة السحر الحلال .

ولكن الصحيح أن الحديث ورد في الذم، وذلك لأن السحر ليس فيه ممدوح ولا محبوب، بل كلمة السحر كلمة ممقوتة ومبغضة في لسان الشرع، فليس فيه شيء ممدوح .

وإذاً فالبيان الذي ذكر في هذا الحديث ليس هو كل البيان ؛ لأن الرسول ﷺ لم يعمم، إنما خصص، بقوله : «**إن من البيان**»، ولم يقل : إن البيان كله، فإذا كان البيان والكلام في إيضاح الحق وتبيينه وإظهاره حتى يفهم، والدعوة إليه، واجتذاب الناس إليه، فهذا بيان ممدوح، وليس من السحر المذموم، وإذا كان بضد ذلك فهو مذموم .

فمن المذموم أن يكون صاحب البيان يستعمل بيانه وبلاغته لأخذ حقوق الناس، كما يقع ذلك عند الخصوم، عندما يكون الخصم لسناً، معبراً تعبيراً

(١) أخرجه أبو داود برقم (٥٠١٢) . عن بريدة رضي الله عنه .

قوياً، يجتذب القاضي إليه، ويموه عليه، فيعتقد أن الحق في جانبه، وقد أخبر النبي ﷺ عن شيء من ذلك، بقوله: «**إنكم تختصمون إلي فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له على نحو ما أسمع، فمن قضيت له بحق أخيه فإنما أقطع له قطعة من النار، فليأخذها أو ليدعها**»[1]؛ فجعل الفصاحة، ولحن القول، وقوة التعبير، سبباً في ميل أو في توهم القاضي، أن الحق في جانب الذي صارت قوة بيانه أبلغ.

فإذا كان البيان يستعمله صاحبه في بيان حقه، وإيضاحه، وأنه مستحقه، ويعلم ذلك من نفسه فهذا ليس من السحر المذموم، وأما إذا كان يعلم من نفسه أنه مبطل فيستعمل ذلك البيان ليوهم القضاة ونحوهم أن الحق في جانبه، فيقضون علىٰ نحوٍ من كلامه، فهذا بيان مذموم، وهو شبيه بالسحر الذي يخدع من يراه إذا كان السحر فيه تلبيس علىٰ من يرىٰ، وفيه إظهار للأشياء علىٰ غير حقائقها، فكذلك هذا البيان فيه إظهار للخصومة علىٰ غير حقيقتها، وكذلك أيضاً إذا استعمله ذلك الفصيح من أجل جعل الباطل حقّاً، والدعوة إلىٰ المنكر وتسويته وتحبيبه، وإظهاره بمظر لائق، مع كونه باطلاً، كالذين يدعون للمعاصي بأنواعها، والذين يزينون للناس نوعاً من الذنوب، وينشرون الباطل والفحش لكي يوقعوا الناس فيما وقعوا فيه من المعاصي، ونحوها، وهؤلاء ممن استعملوا البيان والتلاعب بالألفاظ والمحسنات البديعية، فيدخلون في هذا الوعيد؛ يعني: أنهم من أهل السحر.

ونحن نقول: إن هذا من حيث الإسم؛ لا من حيث الحكم؛ أي: لا نحكم علىٰ من كان هكذا بأنه ساحر، فيعطىٰ حكم الساحر بقتله أو تكفيره، أو ما أشبه

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٦٨٠). ومسلم برقم (١٧١٣)، عن أم سلمة رضي الله عنها.

ذلك ، وإنما نقول : مثلاً إذا لبس على القضاة استحق عقوبة وتعزيزاً في الدنيا ، وإثماً وعذاباً في الآخرة ، وكذلك إذا دعا إلى الباطل والمعاصي وسول للناس أنه على حق ، وأنه لم يقصد إلا حقّاً ، كالذين يدعون إلى عبادة القبور ، والأموات ونحوها ، ودعائهم من دون الله ، والذين يدعون إلى تعظيم المشاهد ، وتشييد البناء عليها ورفعها ، ويوردون كلاماً ينخدع به سامعه ، ويزهدون الناس في العبادات الشرعية ، ويتكلمون بعبارات شيقة جذابة سحرية ، فهؤلاء لاشك أنهم داخلون في هذا الوعيد ، ولكن لا نقول : إنهم سحرة يقتلون بهذا الفعل ، إنما يقتلون بعمل آخر ، إذا أشركوا وكفروا قتلوا بسبب الكفر ، كذلك إذا دعوا إلى الكفر ، كفروا بذلك ، فنحكم بكفرهم بمجرد الدعوة أو استحلال الكفر ، لا لمجرد الكلام الفصيح البليغ الذي يشبه السحر ، هذا من وجه الخصوص .

وبالجملة: فإن أنواع السحر منها ما هو سحر حقيقي ، كما تقدم في النفث في العقد ، وفي تعلم النجوم من أجل التأثير ونحو ذلك ، ومنها ما هو ملحق به في الاسم فقط ، لا في الحكم ، والله تعالى أعلم .

■ ■ ■ ■ ■

[٢٥]

باب

ما جاء في الكهان ونحوهم

روى مسلم في صحيحه عن بعض أزواج النبي ﷺ، عن النبي ﷺ، قال: «من أتى عرافاً فسأله عن شيء ـ فصدقه بما يقول ـ، لم تقبل له صلاة أربعين يوماً».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «من أتى كاهناً ـ فصدقه بما يقول ـ، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ»، رواه أبو داود.

وللأربعة، والحاكم ـ وقال: صحيح على شرطهما ـ، عن ...(1): «من أتى عرافاً أو كاهناً فصدقه بما يقول؛ فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ».

ولأبي يعلى ـ بسند جيد ـ، عن ابن مسعود مثله موقوفاً.

وعن عمران بن حصين، مرفرعاً: «ليس منا من تَطيَّر أو تُطيِّر له، أو تَكهَّن أو تُكهِّن له، أو سَحَر أو سُحِر له. ومن أتى كاهناً ـ فصدقه بما يقول ـ؛ فقد كفر بما أُنزل على محمد ﷺ، رواه البزار بإسناد جيد.

ورواه الطبراني بإسناد حسن، من حديث ابن عباس، دون قوله: «ومن أتى كاهناً ...» إلى آخره.

---

(١) قال الدكتور الوليد بن عبدالرحمن الفريان، محقق كتاب فتح المجيد: بياض في جميع الأصول الخطية التي اطلعت عليها من كتاب التوحيد وشروحه.

قال البغوي: العراف: الذي يدعي معرفة الأمور بمقدِّمات يستدل بها على المسروق، ومكان الضالة، ونحو ذلك.

وقيل: هو الكاهن. والكاهن: هو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل، وقيل: الذي يخبر عما في الضمير.

وقال أبو العباس ابن تيمية: العرّاف: اسم للكاهن والمنجم والرمال، ونحوهم، ممن يتكلم في معرفة الأمور بهذه الطرق.

وقال ابن عباس ــ في قوم يكتبون (أبا جاد)، وينظرون في النجوم ــ: ما أرى من فعل ذلك له عند الله من خلاقٍ.

■ ■ ■ ■ ■

• فيه مسائل:

الأولى: لا يجتمع تصديق الكاهن مع الإيمان بالقرآن.

الثانية: التصريح بأنه كفر.

الثالثة: ذكر من تُكهن له.

الرابعة: ذكر من تُطيِّر له.

الخامسة: ذكر من سُحر له.

السادسة: ذكر من تعلم أبا جاد.

السابعة: ذكر الفرق بين الكاهن والعراف.

■ ■ ■ ■ ■

•• الشرح ••

باب:
ما جاء في الكهان ونحوهم

من أنواع الشرك: تعاطي الكهانة، وسبب كونها شركاً أن الكاهن يعبد غير الله، أي: يعبد الجن والشياطين.

وقد يقول قائل: كيف يعبدهم؟

نقول: يعبدهم بأن يتقرب إليهم بأنواع القربات التي لا تصلح إلا لله: إما أن يطيعهم في معصية الله، أو يتقرب إليهم بشيء من حق الله، كالذبح أو الدعاء، أو طلب المدد والعون فيما لا يقدر عليه إلا الله، فيكون بذلك معظماً لهم. وقد يدعو الشيطاين، أو مردة الجن بأسمائهم.

ومن المعلوم أن الكاهن إنسان من البشر، ومع ذلك قد يتكلم بكلام ليس مثل كلامهم، أو قد يخبر عن شيء غائب لا يعرفه جنس الإنسان أو ما أشبه ذلك.

فكيف وصل إليه هذا العلم الذي هو من علم الغيب؟

نقول: وصل إليه بوحي الشياطين، فالشياطين قد تخبر وتوسوس لأوليائها، يقول الله تعالى: ﴿**هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ**﴾ [الشعراء: ٢٢١، ٢٢٣]، وقد مر بنا حديث أبي هريرة في مسترقي السمع[1]؛ حيث أخبر النبي ﷺ أن الملائكة يتكلمون بالأمر

---

(١) سبق تخريجه في الباب الخامس عشر، باب: (قول الله تعالى: ﴿حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق﴾).

الذي يكون، والذي يقدره الله في السماء، فيسمعه مسترقو السمع، ومسترق السمع وصفه سفيان بكفه، فحرفها، وبدد أصابعه، فيسمع الكلمة ثم يلقيها إلىٰ من تحته، ويلقيها الآخر إلىٰ من تحته، حتىٰ يلقيها علىٰ لسان الساحر أو الكاهن، فدل علىٰ أن السحرة والكهنة يتلقون من الشياطين وحيهم.

يقول تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٢١]؛ فالكهنة أولياء الشياطين، والشياطين توحي إليهم، وتوسوس لهم؛ لأن الشيطان قد يرىٰ ما لا يراه الإنسان، فيرىٰ الشيء البعيد ويوسوس إلىٰ وليه من الإنس بأن فلاناً سيقدم بعد يوم أو بعد أيام، وهو الآن في المكان الفلاني، أو يأتيه إنسان ويقول: ناقتي ضلت فأين هي؟ فيوسوس إليه شيطانه بأنها في الوادي الفلاني؛ لأن الشيطان له جولات لا تحصل للإنسان فيعرفها.

وإخبار الكاهن بمثل هذه الأمور الغيبية هو من وحي الشيطان، والشيطان لا يوحي إليه ولا يوسوس له إلا إذا تولاّه، وصار من حزبه وأتباعه.

ولكن متى يكون الإنسان من أولياء الشيطان؟

الجواب: يكون من أولياء الشيطان إذا عبده، فإن بعض الإنس يعبدون الجن، كما قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ [يس: ٦٠].

وعبادة الشيطان قد تكون بالقربات، بأن يذبح باسم الشيطان، أو يدعو الشيطان، أو يطلب المدد والعون من الشيطان، ونحو ذلك.

وقد تكون عبادة الشيطان بترك بعض العبادات، فتراه يترك الصلوات أياماً معدودة حتىٰ تخدمهم الشياطين وحتىٰ تلابسهم، وتقدم لهم المعونات والمساعدة، وتوحي لهم ببعض المغيبات.

وبعضهم يعبد الشيطان بأكل النجاسات والأقذار، وتلطيخ ثيابهم وأجسادهم بها؛ لأن الشياطين تحب النجاسات والأقذار.

والكاهن حكمه في الشرع أنه كافر، وكذلك من يصدقه فهو كافر، كما في هذه الأحاديث التي ذكرها المصنف رحمه الله.

■ **قوله: [روى مسلم في صحيحه عن بعض أزواج النبي ﷺ، عن النبي ﷺ، قال: «من أتى عرافاً فسأله عن شيء ـ فصدقه بما يقول ـ، لم تقبل له صلاة أربعين يوماً»**(١)]:

يقول عليه الصلاة والسلام: في هذا الحديث: **«من أتى عرّافاً فسأله عن شيء فصدقه بما يقول»**؛ يعني: صدقه في ذلك الشيء أو في تلك المسألة: **«لم تقبل له صلاة أربعين يوماً»**، وإذا كان هذا في حق السائل الذي صدق العرّاف في كلمة واحدة، فكيف بحال المسئول؟ فالمسئول يكون ذنبه أكبر، وإثمه أعظم؛ لأنه مشرك، ولأنه عبد غير الله، فهو عبد للشياطين ومردة الجن، ثم إن عدم قبول الصلاة بمعنى: عدم الثواب عليها، لكن لا يؤمر بالإعادة.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٢٣٠)، وقوله: «فصدقه بما يقول» ليست عند مسلم، وإنما هي عند أحمد (٤/ ٦٨)، (٥/ ٣٨٠).

■ قوله: [وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «من أتى كاهناً ـ فصدقة بما يقول ـ، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ»، رواه أبو داود[(١)].

وللأربعة،[(٢)] والحاكم[(٣)] ـ وقال: صحيح على شرطهما ـ، عن ...[(٤)]: «من أتى عرافاً أو كاهناً فصدقه بما يقول؛ فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ».

ولأبي يعلى ـ بسند جيد ـ، عن ابن مسعود مثله موقوفاً[(٥)]]:

هذا الحديث أفاد بأن من أتى عرّافاً أو كاهناً فسأله عن شيء فصدقه فحكمه أنه كافر؛ لأنه صدقه فيما يقول، وبكل ما يقول، واعتبر كلامه كله حقّاً، فقال عن هذا الكاهن: مكاشف، أو هذا عارف، أو لا يقول إلا حقّاً، أو هذا على حق، أو هذا على برهان، أو هذا على صواب، فيمدح الكاهن، ويثني عليه،

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (٣٩٠٤). والترمذي برقم (١٣٥). وابن ماجه برقم (٦٣٩)، وأحمد في «المسند» (٢/ ٤٠٨، ٤٧٦)، والدارمي رقم (١١٤٣)، والبيهقي (٧/ ١٩٨).
وصححه أحمد شاكر برقم (٩٢٧٥)، وصححه الألباني في «الإرواء» رقم (٢٠٠٦).

(٢) عزا المصنف ـ رحمه الله ـ هذه الرواية للأربعة وهي ليس كذلك، فلم يخرجها من أصحاب السنن الأربعة أحد.

(٣) أخرجه الحاكم (١/ ٨)، وصححه على شرطهما ووافقه الذهبي، وقال الذهبي في «الكبائر» (١٢٣): إسناده صحيح.
وأخرجه أحمد (٢/ ٤٢٩)، والبيهقي (٨/ ١٣٥)، وصححه الألباني في «الإرواء» (٧/ ٦٩).

(٤) قال الدكتور الوليد بن عبدالرحمن الفريان، محقق كتاب فتح المجيد: بياض في جميع الأصول الخطية التي اطلعت عليها من كتاب التوحيد وشروحه.

(٥) أخرجه أبو يعلى في «المسند» رقم (٥٤٠٨). وعبد الرزاق في «المنصف» (١١/ ٢١٠)، والبزار كما في «كشف الأستار» (٢/ ٤٤٣)، والطبراني في «الكبير» رقم (١٠٠٠٥).
قال المنذري في «الترغيب والترهيب» (٤/ ٣٦): رواه البزار وأبو يعلى بإسناد جيد موقوفاً.
وقال الهيثمي في «المجمع» (٥/ ١١٨): رواه الطبراني في «الكبير والأوسط» والبزار، ورجال الكبير والبزار ثقات. أ. هـ. وقال الحافظ في «الفتح» (١٠/ ٢١٧): إسناده جيد، وقال: مثله لا يقال بالرأي.

فإذا أقرّه ومدحه فقد ضاد الله وحادّه، وخالف الرسول ﷺ، وخالف الشريعة؛ فيكون بذلك قد كفر بما أنزل على محمد ﷺ كفراً مطلقاً أو مقيداً بما أنزل في شأن الكهان وعلم الغيب ونحوه، وهذا في من كان عارفاً بأن هذا كاهن، وأنه كذاب، وأنه موهم، وأنه موسوس، وأنه عابد للشيطان ومتقرب إليه، ومع ذلك يصدقه في ما يقول، فإنه يعتبر كافراً.

ثم إنه من المعلوم أن الكثير مما يقوله الكهنة ليس بحقيقة، لذلك فهم يظنون ظنّاً ويتخرصون تخرصاً، فإذا أخطأ أحدهم لم يلمه الناس، وقالوا: إنه قد أصاب في غير ذلك، كما في الحديث أنه يكذب مع الكلمة التي يلقيها إليه الشيطان مائة كذبة.(١)

فائدة: ما واجب المسلم تجاه هؤلاء الكهنة وهؤلاء العرافين وأفعالهم؟

الواجب: أن نوقن بأن الغيب لا يعلمه إلا الله، حتى الرسل لا يعلمون الغيب إلا ما أطلعهم الله عليه، يقول الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿**قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ**﴾ [الأعراف: ١٨٨]؛ فالرسول يقول: ﴿**وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ**﴾؛ فإذا كانت الرسل لا يعلمون الغيب، فكيف يعلمها هذا الكاذب؟ وهذا الكاهن الكافر؟

كذلك يقول تعالى: ﴿**قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ**﴾ [النمل: ٦٥].

وقد يطلع الله بعضاً من خلقه على شيء من غيبه، أو على جزئيات، كما في قوله تعالى: ﴿**عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ**

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٧٠١). عن أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧]، كالذي أخبر به الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ من الأمور الغيبية التي كانت مما أطلعه الله عليه ومما أوحاه الله إليه، فإخبار الرسل بالغيب هو من جملة الوحي الذي أوحي إليهم، ولا يعلمون كل شيء، ولا يعلمون ما في غد، ولهذا يقول النبي ﷺ لما سئل عن الأمور المغيبة، قال: «**خمس لا يعلمهن إلا الله**»[1]، ثم قرأ قوله تعالى: **﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾** [لقمان: ٣٤].

فتبين بذلك أن هؤلاء كهنة، ولا يجوز تصديقهم، ولا إقرارهم على ما يقولون، وإذا عرفنا حكم من يسألهم أنه كافر، فكذلك حكمهم بطريق الأولى أنهم كفرة، وتقدم أن الساحر حده القتل، فهؤلاء سحرة مثله، فحدهم كحده أن يقتلوا ويقام عليهم الحد.

وإنما واجبنا نحن أن نحذر طريقتهم، فلا نتعلم سحرهم، ولا كهانتهم، ولا نأتي بشيء من أعمالهم التي يعملون بها، حيث عرفنا أنهم كاذبون، وأنهم كافرون.

وعلينا كذلك: أن نبتعد عنهم، فإذا عرفنا أن هذا أو هذه يتكهن، أو يدعي علم الغيب، أو ما أشبه ذلك، فلا نأتي إليهم حذراً من أن نوصف بما ورد في هذه الأحاديث التي فيها هذا الوعيد، مثل: عدم قبول الصلاة، والحكم بالكفر.

كذلك: أن نحذِّر الناس منهم، ومن شرهم، وتلبيسهم، وتضليلهم، وكفرهم، وأن نبين للناس أنهم كاذبون، وأنهم كهنة وكفرة ماردون، وأن من جاءهم وصدقهم؛ فإنه متوعد بهذا الوعيد، ولو لم يكن إلا هذا الوعيد «**فقد كفر**

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٥٠)، ومسلم برقم (٩). عن أبي هريرة رضي الله عنه.

بما أنزل على محمد ﷺ» لكفى ذلك.

فالواجب الاقتصار على الشرع، والاقتصار على الوحي، وعلى الكتاب والسنة، وما جاء فيهما، وقد أنزل على نبيه أن الإنسان لا يعلم الغيب والمستقبل، ولا يعرف ما في الأمور المستقبلة، فإذا صدق هؤلاء الكهنة والعرافين، فقد كذب بما أخبر الله به في كتابه، وما أخبر به عنه رسوله ﷺ.

فالمسلم يحرص على إكمال دينه، ويبتعد عما ينقص دينه، أو يخل بإسلامه، أو يقدح في عقيدته.

■ **وقوله: [وعن عمران بن حصين، مرفوعاً: «ليس منا من تَطيَّر أو تُطيِّر له، أو تَكهَّن أو تُكهِّن له، أو سَحَر أو سُحِر له. ومن أتى كاهناً ـ فصدقه بما يقول ـ؛ فقد كفر بما أُنزل على محمد ﷺ»، رواه البزار بإسناد جيد(١).**

ورواه الطبراني بإسناد حسن، من حديث ابن عباس، دون قوله: «ومن أتى كاهناً...» إلى آخره.(٢)]:

الطيرة هي: التشاؤم بالطيور والوحوش ونحوها.

---

(١) أخرجه البزار رقم (٢٠٦٧)، والهيثمي في «المجمع» (٥ / ١١٧).
قال المنذري في «الترغيب» (٤ / ٣٦): «رواه البزار وأبو يعلى بإسناد جيد موقوفاً»، وقال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح، خلا اسحق بن الربيع وهو ثقة: أ. هـ. وقال الحافظ في «الفتح» (١٨ / ١٦٢): إسناده جيد.

(٢) أخرجه البزار (٣/ ٣٩٩). و الطبراني في «الأوسط» كما في «الترغيب» (٤ / ٣٣). والهيثمي في «المجمع» (٥ / ١١٧).
قال البزار: لا نعلمه روي عن النبي إلا من هذا الوجه بهذا الإسناد. وقال الهيثمي: رواه البزار والطبراني في «الأوسط»، وفيه زمعة بن صالح وهو ضعيف. وقال المنذري (٤ / ٣٣): إسناده حسن. وهو يتقوى بالحديث الذي قبله.

والكهانة هي: ادعاء معرفة المغيبات.

والسحر: هو الشعوذة ونحوها من المعاملات الشيطانية السحرية.

يخبر النبي ﷺ في هذا الحديث بأن من فعل هذه الأشياء فإنه (**ليس منا**)؛ أي: ليس من أهل ديننا، أو ليس من أهل شرعنا، وهذا وعيد شديد بأنه خارج عن حظيرة الإسلام، ووصف المسلمين.

فتوعد في هذا الحديث: (**من تطيَّر**) وهو الذي يتشاءم بنفس الطير، أو يثيره لأجل أن يتشاءم به، ومن (**تُطيِّر له**) هو الذي يرسل غيره ليزجر الطير ونحوه، وهذا متوعد بهذا الوعيد الشديد وهو قوله: «**ليس منا**».

ثم توعد في هذا الحديث الكاهن والمتكهن له على السواء، والفرق بينهما: **أن المتكهن له**: هو الذي يأتي إلى الكاهن، ويطلب منه أن يتكهن له، فيقول: تكهن لي وأخبرني بمكان الضالة، أو تكهن لي وأخبرني بكذا وكذا من أمور حدثت له، وما أشبه ذلك، وقد يكون هذا أيضاً مع السحرة، كأن يأتي إليه، ويقول: أخبرني بمن سحرني، ونحو ذلك، فالسائل والمسؤول كلاهما متوعد، فقال: «**ليس منا من تَكهَّن أو تُكهِّن له**»؛ فالكاهن متوعد؛ لأنه كما تقدم يستوحي من الشياطين، والشياطين لا توحي إليه إلا إذا تقرب إليها وعبدها من دون الله، وأما المتكهن له فهو أيضاً متوعد؛ لأنه أقر هذا الكاهن على كهانته، وشهد له بالحق وصَدَّقه.

ثم قال: «**أو سَحَر أو سُحِر له**»، وقد سبق لنا أن تكلمنا على السحر وأنواعه وحكمه، وحكم من أتى السحرة ونحو ذلك في باب: (ما جاء في السحر)، فليرجع إليه.

والحاصل: أنه ﷺ توعدهم في هذا الحديث بهذا الوعيد الشديد بقوله: «ليس منا»؛ أي: لا يكون من المسلمين، وليس من أهل الشريعة، بل هم من أعدائها، ومن الخارجين عليها المبدلين لها، الناقمين عليها، فهو من أحاديث الوعيد تجرىٰ علىٰ ظاهرها.

ثم ذكر في الحديث، قوله: **«من أتى كاهناً فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ»**. وقد ذكرنا أن معنىٰ قوله: **«فصدقه بما يقول»**، يعني: صدق الكاهن في كل ما يدّعيه، وفي كل ما يأتي به، أو في كل ما يزعم به من التكهنات والخوارق ونحو ذلك. وهو يعرف أنه عرّاف وكاهن، أي: يرىٰ أنه عارف وأنه علىٰ حق وأنه مصيب، فمثل هذا يكون والعياذ بالله متوعد بخروجه من الملة.

وقوله: **«كفر بما أنزل على محمد ﷺ»**:

قيل: المراد كَفَرَ بكل الشرع الذي أنزل علىٰ محمد ﷺ، فيكون كافراً كفراً مطلقاً.

وقيل: كفر بما أنزل عليه من تكذيب الكهنة، كقول الله تعالىٰ: **﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (٢١٠) وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (٢١١) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾**، إلىٰ قوله: **﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾** [الشعراء: ٢١٠، ٢٢٣].

فإذا عَرَفَ أن مما أنزل علىٰ محمد ﷺ تكذيب الكهنة، والإخبار بأنهم توحي إليهم الشياطين، بقوله تعالىٰ: **﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾** [الأنعام: ١٢١]، ثم أقرهم وصدقهم، فذلك تكذيب بما أنزل علىٰ محمد ﷺ، في مثل هذه الآيات.

■ وقوله: [قال البغوي: العراف: الذي يدعي معرفة الأمور بمقدّمات يستدل بها على المسروق، ومكان الضالة، ونحو ذلك(١).

وقيل: هو الكاهن. والكاهن: هو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل.

وقيل: الذي يخبر عما في الضمير.

وقال أبو العباس ابن تيمية: العرّاف: اسم للكاهن والمنجم والرمال، ونحوهم، ممن يتكلم في معرفة الأمور بهذه الطرق(٢).]:

أورد المصنف ـ رحمه الله ـ هذه الأقوال، وهي قول البغوي وقول شيخ الإسلام ابن تيمية في تعريف العرّاف.

* **والعراف**: مشتق من العُرف، كأنه عارف، وكأنه يعرف، وكأنه ذو معرفة، فيسمونه عرّافاً، فيقولون: أتينا العراف، وذهبنا إلى العراف.

فالعراف هو: اسم لمن يدعي معرفة الأمور الغيبية، ويدعي هذا بمقدمات، تلك المقدمات إما أنها أشياء أمام أعين الناس؛ كالضرب بالحصى؛ أي: يجمع حصى ثم يضرب ويجمع إلى أن يكوِّن كومة حجارة، ثم يأخذها حجرين حجرين حتى ينظر الباقي، هذا يقال له: الضارب بالحصى، وكالخط في الرمل؛ أي: يخط خطوطاً كثيرة، ثم يرجع إليها فيمحوها اثنتين اثنتين، حتى ينظر الباقي، فهذه من المقدمات.

وقد تكون تلك المقدمات خطوط في أوراق ونحوها، وقد تكون تلك المقدمات أسماء ينطق بها حتى يستحضر بها الشياطين.

فالحاصل أن هذه المقدمات هي أمور يستعملها ليستدل بها في نظره على

---

(١) انظر «شرح السنة» للبغوي (٢/ ١٨٢).

(٢) انظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٣٥/ ١٧٣).

المسروق أو على الغائب ونحو ذلك .

وقيل: أن العراف هو : الكاهن .

والكاهن هو: الذي يدعي معرفة المغيبات .

وقيل: هو الذي يعلم ما في الضمير ، فيقول لك مثلاً : أنت تحدّث نفسك بكذا ، أو يقول : سيحدث بعد يوم كذا وكذا ، أو سينزل كذا أو ما أشبه ذلك ، أو سيموت فلان بعد يوم أو بعد أيام ، هذه كلها من الخرافات ، ومن الأكاذيب المفتراة التي ما أنزل الله بها من سلطان .

وقد يكون منها ما يسمى بقراءة الكف ؛ فينظر في كفه ويقول : قرأت في كفك أنه يحصل لك كذا ، وما أشبهه ، وهذا كله من الأمور التي لا أصل لها .

وبهذا قد تبين أن الوعيد الذي في هذه الأحاديث واقع لهؤلاء الكهنة ، والسحرة ، والعرّافين ، وأهل الضرب بالحصى ، والخطاطين الذين يخطون في الرمل ، وما أشبه ذلك ، توعدوا جميعاً بهذا الوعيد ، في قوله : «**ليس منا**» ، وفي قوله : «**من أتى كاهناً فصدقه بما يقول ؛ فقد كفر بما أنزل على محمد**» ، وإذا كان الذي يصدقه كافراً ، فكيف بالكاهن نفسه؟ فإنه أولى بأن يكون كافراً .

■ **قوله** : [**وقال ابن عباس ــ في قوم يكتبون (أبا جاد) ، وينظرون في النجوم ــ: ما أرى من فعل ذلك له عند الله من خلاق**[1] .] :

ومن الوعيد أيضاً ما في هذا الأثر الذي ذُكر عن ابن عباس رضي الله عنه ،

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» عن ابن عباس مرفوعاً رقم (١٠٩٨٠) .

قال الهيثمي في «المجمع» (٥ / ١١٧) : وفيه خالد بن زيد العمري وهو كذاب ، وقال في فتح المجيد (ص : ٣٣٩) : هذا الأثر رواه الطبراني عن ابن عباس مرفوعاً ، وإسناده ضعيف .

وأخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (١١ / ٢٦) ، والبيهقي (٨ / ١٣٩) ، وابن عبد البر في «الجامع» (٢٥ / ٣٩) ، عن ابن عباس موقوفاً ، وسنده صحيح .

فقد سئل عن قوم يكتبون حروف (أبي جاد)، وينظرون في النجوم؟ فقال: ما أرىٰ من يفعل ذلك له عند الله من خلاق.

فهؤلاء يكتبون هذه الحروف ليستدلوا بها علىٰ الأمور الغيبية ونحوها، ويقولون: إذا اجتمع حرف فاء وحرف جيم، في كلمة مثلاً أو في شخص؛ فإنه يستنتج منه أنه يكون خُلُقه كذا، أو يصير إلىٰ كذا، أو يمرض بكذا، وهذا استدلال خاطئ ليس له أصل، فمن فعل ذلك فليس له عند الله من خلاق.

وكذلك الذين ينظرون في النجوم، أي: الذين يستدلون بالنجوم، **وتعريف التنجيم**: هو الاستدلال بالأحوال الفلكية علىٰ الحوادث الأرضية، وسيأتينا تفصيل ذلك في بابه إن شاء الله[1]، وقد تقدم قوله ﷺ: «**من اقتبس شعبة النجوم، فقد اقتبس شعبة من السحر، زاد ما زاد**»[2].

وقوله: «**ما أرى من فعل ذلك له عند الله من خلاق**»، أي: الذي يتعاطىٰ مثل هذه الأشياء، فيكتب (أبا جاد)، أو ينظر في النجوم، ليس له عند الله من خلاق؛ أي: ليس له حظ ولا نصيب عند الله تعالىٰ.

أما تعلم حروف (أبا جاد) من أجل الحساب، أي: حساب الجمل أو نحو ذلك، فهذا لا بأس به، فإذا استعمل للحساب مثلاً أن الألف للواحد، والباء للاثنين، والجيم للثلاثة، والدال للأربعة إلىٰ آخره، فهذا حساب.

وأما استعماله وتركيب حرف كذا، وحرف كذا، ليدل علىٰ شؤم، أو ليدل علىٰ نحس، أو ليدل علىٰ بؤس، أو علىٰ مرض، أو ما أشبه ذلك، كما يفعله قوم؛ فهذا هو المحرم، الذي لا أصل له في الشرع.

---

(١) في باب رقم (٢٨): باب ما جاء في التنجيم.

(٢) سبق تخريجه ص ٣٨.

فإذا عرفنا أن الكهانة وما يتصل بها من الأسباب التي تؤدي إليها كفر، فإن علينا أن نتجنب تلك الأسباب، ونمقت أهلها.

وقد يوجد بكثرة في البراري وفي البلاد من يتعاطون علم الكهانة وعلم الشعوذة ونحوهم، ويتوافد إليهم الخلق الكثير، يصدقون بعض قولهم أو كله، ولا يعتبرون بمثل هذه الأحاديث التي فيها الوعيد الشديد، ولا يعتبرون أن من صدقهم وأتاهم أو استعمل ما أعطوه أنه متوعد بهذا الوعيد.

فالمسلم يحرص على أن يحفظ عليه عقيدته، ويحذر الذين يراهم يذهبون إلى الكهنة، ويأخذون منهم من المسلمين، ويبين لهم أنهم كذبة مشعوذون، وأن ما يصدقون فيه فهو من وحي الشياطين، أو مما يأتي مصادفاً ليس حقيقة، ففي ذلك يكون قد حفظ إخوانه المسلمين مما حفظ به نفسه.

نسأل الله أن يحفظ علينا عقيدتنا وتوحيدنا، والله أعلم.

■ ■ ■ ■ ■

[٢٦]

باب:
ما جاء في النُشرة

عن جـابر، أن رسـول الله ﷺ سئل عن النشـرة؟ فقال: «هي من عمل الشيطان»، رواه أحمد بسند جيد، وأبو داود، وقال: سئل أحمد عنها؟ فقال: ابن مسعود يكره هذا كله.

وللبخاري، عن قتادة: قلت لابن المسيب: رجل به طب، أو يؤخذ عن امرأته، أيُحلّ عنه أو يُنشّر؟ قال: لا بأس به، إنما يريدون به الإصلاح، فأما ما ينفع لم ينه عنه.

ويروى عن الحسن، أنه قال: لا يَحُلُّ السحر إلا ساحر.

قال ابن القيم: النشرة: حل السحر عن المسحور، وهي نوعان:

أحدهما: حل بسحر مثله، وهو الذي من عمل الشيطان، وعليه يحمل قول الحسن، فيتقرب الناشر والمنتشر إلى الشيطان بما يُحب، فيبطل عمله عن المسحور.

والثاني: النشرة بالرقية، والتعوذات، والأدوية، والدعوات المباحة، فهذا جائز.

■ ■ ■ ■ ■

• فيه مسائل:

الأولى: النهي عن النشرة.

الثانية: الفرق بين المنهي عنه، والمرخص فيه مما يزيل الإشكال.

■ ■ ■ ■ ■

الشرح

باب
ما جاء في النُشرة

عرفنا أن السحر من عمل الشيطان، وأن السحرة يتقربون إلى الشياطين حتى تعينهم على عمل السحر الذي هو الإضرار بالمسحور ونحوه، فلا يحصل لهم التأثير في المسحور إلا بمساعدة الشياطين.

■ **قوله: [عن جابر: أن رسول الله ﷺ سئل عن النشرة؟ فقال: «هي من عمل الشيطان»[1]، رواه أحمد بسند جيد، وأبو داود، وقال: سئل أحمد عنها؟ فقال: ابن مسعود يكره هذا كله.]:**

النشرة: معناها حل السحر عن المسحور، وقد أخبر في هذا الحديث ـ حديث جابر ـ أن النبي ﷺ سئل عن النشرة، فقال: «**هي من عمل الشيطان**»، يعني: إذا كان الأصل وهو السحر من عمل الشيطان، فإن حلها المعروف من عمل الشيطان ـ أيضاً ـ؛ كما ذكره ابن القيم، فإذا وقع إنسان في سحر، أي: عمل له سحر ووقع فيه، فلا يجوز له أن يذهب إلى سحرة آخرين، ويقول لهم: حلوا عني السحر الذي أنا فيه، لأن ذلك يعد إقراراً لهم على شركهم، وأعمالهم السيئة،

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٢٩٤)، وأبو داود برقم (٣٨٦٨)، والمزي في «تهذيب الكمال» (٢/ ٩٤٨)، والبيهقي (٩/ ٣٥١).
قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» (١٠/ ٢٣٣): إسناده حسن. وقال ابن مفلح في «الآداب» (٣/ ٧٣): إسناده جيد.
وله شاهد عن أنس أخرجه البزار رقم (٣٠٣٤)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ٤١٨). والطبراني في «الأوسط» كما في «مجمع الزوائد» (٥/ ١٠٢).
وصححه الحاكم ووافقه الذهبي. وقال الهيثمي: ورجال البزار رجال الصحيح.

وذلك لأنهم لا يحلونه إلا بعد ما يستخدمون الشياطين.

فأصل السحر من عمل الشيطان، وحله على هذه الصفة من عمل الشيطان.

ولَمّا روى هذا الحديث أبو داود ذكر أن الإمام أحمد سئل عنه، فقال: ابن مسعود يكره هذا كله، يعني: ينهى عنه، وابن مسعود صحابي جليل عالم من علماء الصحابة، فلا يكرهه إلا وقد علم بالدليل أنه محرّم، وأنه لا يجوز.

وحيث علمنا أن الساحر كافر، وأن حده ضربة بالسيف، فكيف مع ذلك نقره ونشهد بصحة ما يأتي به؟ وكيف نأتي إليه ونطلب منه حل السحر عن هذا الشخص الذي سحره، أو نذهب إلى ساحر آخر، ونقول له: حل عن هذا الرجل السحر الذي قد أصابه؟!

بل متى عرفنا أن هذا الشخص يتعاطى السحر قتلناه بلا هوادة، فكيف مع ذلك نقره؟ ونقول له: عالج هذا الشخص، فالواجب ألا نقره، بل نحكم بقتله، كما بين رسول الله ﷺ حده، بقوله: «**حد الساحر ضربة بالسيف**»(١).

■ قوله: [**وللبخاري، عن قتادة: قلت لابن المسيب: رجل به طب، أو يُؤَخَّذُ عن امرأته، أيُحلّ عنه أو يُنشَّر؟ قال: لا بأس به، إنما يريدون به الإصلاح، فأما ما ينفع لم ينه عنه**(٢).]:

هذا الأثر ظاهره أنه يبيح علاج المسحور، وقد رواه قتادة، أنه قال لابن المسيب: رجل به طب، أو يُؤَخَّذُ عن امرأته، أيحل عنه أو ينشرّ؟ قال: (لا بأس

---

(١) سبق تخريجه في الباب الثالث والعشرون: (باب ما جاء في السحر).

(٢) أخرجه البخاري معلقاً بصيغة الجزم، انظر فتح الباري» (١٠ / ٢٣٢) في الطب، باب: هل يستخرج السحر.

ووصله ابن جرير الطبري في «التهذيب»، والأثرم في «السنن» كما في تعليق التعليق» (٥ / ٤٩).

به، إنما يريدون به الإصلاح، فأما ما ينفع فلم ينه عنه)؛ فهذا ابن المسيب تابعي جليل أباح علاج المسحور، ولكن يحمل كلامه على أن المراد النشرة الدينية، والعلاج الرحماني.

* وقوله: (رجل به طب)؛ أي: سِحْرٌ، فقد كانوا يسمون المسحور مطبوباً، تفاؤلاً بالطب، أو تفاؤلاً بالطيب.

* وقوله: (أو يُؤَخَّذُ عن امرأته)؛ يعني: يحال بينه وبينها، أو لا يقدر على وطئها، وهذا يسمى المعقود، ويسمى المحبوس، وهو أيضاً من عمل السحرة، حيث إن السحرة والمشعوذين ونحوهم يعملون أعمالاً يتقربون بها إلى الشيطان فيحولون بين ذلك الرجل وبين امرأته، بحيث إذا قرب منها بطلت همته، وبردت حركته، وذهبت شهوته، ولم يتمكن من إتيانها، وإذا بعد عنها تحركت فيه الهمة والشهوة، فهذا هو المعقود.

ومراد ابن المسيب كما قلنا أنه يُحلُّ عنه بالجائز من النشرة، فيجوز الحل بالرقية المباحة، ويجوز علاج المطبوب، وعلاج المعقود بالعلاجات الشرعية.

■ **قوله**: [**ويروى عن الحسن، أنه قال: لا يَحُلُّ السحر إلا ساحر**[1]]:

والحسن هو البصري، تابعي جليل من أجلاء التابعين، وقد قال: (لا يحل السحر إلا ساحر)؛ أي: إذا كنا نعرف أن هذا سحر من عمل الشيطان؛ فلا يحله على الهيئة المعروفة إلا ساحر مثله، فيحمل كلامه على أن المراد العلاج الشيطاني، وهو علاج السحرة ونحوهم.

والساحر لا يجوز إقراره، بل لا يجوز سؤاله أو الإتيان إليه كما تقدم، وقد

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في «التهذيب»، كما في «فتح الباري» لابن حجر (١٠/ ٢٣٣).

مرَّ بنا قول النبي ﷺ: **«ليس منا من تكهن، أو تكهن له، أو تطير، أو تطير له، أو سحر، أو سحر له»**.

والحاصل: هذه ثلاثة آثار، وهي: كلام ابن مسعود، وأثر ابن المسيب، وقول الحسن في النشرة.

■ **قوله: [قال ابن القيم: النشرة: حل السحر عن المسحور، وهي نوعان:**

أحدهما: حل بسحر مثله، وهو الذي من عمل الشيطان، وعليه يُحمل قول الحسن، فيتقرب الناشر والمنتشر إلى الشيطان بما يُحب، فيبطل عمله عن المسحور.

والثاني: النشرة بالرقية، والتعوذات، والأدوية، والدعوات المباحة، فهذا جائز(١).]:

أورد المصنف رحمه الله كلام ابن القيم في بيان حكم النشرة، فيقول ابن القيم: (**النشرة: حل السحر عن المسحور**)، يعني: كأن المسحور بعد ما كان مقيداً ومحتبساً، ينتشر ويطبب بعد ما كان مريضاً؛ فمن أجل ذلك سموه نشرة، كأنه ذهب يتنشر أو ينتشر، أي: يتعالج عند من ينشّره أو يطببه، وهو معنىٰ قول قتادة لابن المسيب: أيحل عنه أو ينشر، يعني: أيأتي إلىٰ من يعالجه بالنشرة.

ثم فصّل ابن القيم، فقال: إن حل السحر عن المسحور نوعان:

الأول: حلٌّ بسحرٍ مثله، وهو الذي من عمل الشيطان، وعليه يحمل قول الحسن، فيتقرب الناشر والمنتشر بما يجب، فيبطل عمله عن المسحور.

وهذه هي النشرة المحرمة وهي حل السحر بسحر مثله، وهو من عمل الشيطان، كما في حديث جابر: **«هي من عمل الشيطان»**، وعليه يحمل قول

(١) انظر «زاد المعاد» لابن القيم (٤/ ١٢٤، ١٨١)، والآداب الشرعية لابن مفلح (٣/ ٧٧).

الحسن: «**لا يحل السحر إلا ساحر**»؛ أي: المراد لا يحله بمثله إلا ساحر، فهذا النوع حرام؛ لأن فيه إقرار السحرة على كفرهم.

الثاني: النشرة بالرقية، والتعوذات، والأدعية، والدعوات المباحة، فهذا جائز.

وهذه تسمى النشرة الجائزة، وتكون بالرقي والأدوية والتعوذات وما أشبهها، وعليه يحمل كلام ابن المسيب؛ على أن المراد النشرة الدينية، والعلاج الرحماني، وذلك لأن الله تعالى أعطى الإنسان علاجاً يبطل به كيد الشيطان: ﴿**إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا**﴾ [النساء: ٧٦].

فالمسحور مثلاً لو تحصن من الشيطان بالأدعية والعبادات ما ضرته أعمال السحرة، ولا قدروا عليه، وذلك لأن الأدعية والعبادات حصن حصين يمنع من وصول الضرر، ولكن لما وجد الشيطان منه فرجة دخل منها، فأوصل إليه ذلك العمل الشيطاني.

فلا يبطل هذا السحر إلا بالأذكار وبالأدعية، فعليهم أن يذهبوا للرقية إلى إنسان عابد، قارئ، مخلص، موحد، تقي، نقي، بعيد عن الشبهات، بعيد عن أكل الحرام ونحوه، فإذا عالجه بالقرآن، وبالأدعية المأثورة؛ فإن عمل الشيطان يبطل ـ بإذن الله ـ، فإذا نفث عليه ولو مرة أو ساعة أو نصف ساعة، بطل عمل الشيطان في تلك اللحظة، وهذا مشاهد ومجرب، يقرأ الرجل التقي النقي آية من كتاب الله، فيبطل بها عمل الشيطان، ويبطل كل ما يتصل بالشيطان.

وهناك أدعية وآيات كثيرة مجربة لإبطال هذا العمل الشيطاني، ومنها مثلاً آيات السحر الثلاث، إذا قرأها الإنسان على المسحور بقلب صادق مخلص

نفعت ـ بإذن الله تعالى ـ.

وآيات السحر الثلاث، هي:

الآية الأولى: قول الله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ (١١٩) وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (١٢٠) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ [الأعراف: ١١٧ ، ١٢٢].

الآية الثانية: في سورة يونس، وهي قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (٨١) وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ٨١ ، ٨٢].

الآية الثالثة: قوله تعالى في سورة طه: ﴿قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَىٰ (٦٨) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٨ ، ٦٩].

ومثلها الآيات التي فيها إحقاق الحق وإبطال الباطل، كقوله تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]، وكقوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨]، وكقوله تعالى: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ: ٤٩]، وما أشبهها.

وكذلك قراءة سورتي المعوذتين، فإن فيهما تعوذ من الشيطان، فإنه الوسواس الخناس، وكذلك فيهما تعوذ من السحرة، فإنهم النفاثات: ﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ [الفلق: ٤].

وكذلك سورتي الإخلاص، فإن فيهما تحقيق العبادة، والتوحيد لله، فـ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ فيها تحقيق العبادة، و: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فيها تحقيق العقيدة.

كذلك آية الكرسي، فإنها جامعة شاملة لأنواع من التوحيد.

فإذا قرأ هذه الآيات مع إخلاصه، ومع عبادته، ومع ورعه وتقواه، ومع زهده وتقشفه، ومع تقلله من الشهوات، ومع بعده عن المحرمات، فإنه بإذن الله يقبل الله منه، ويحل ذلك السحر، ويبطل عمل الشيطان؛ لأن الشيطان لا يبقى له عمل مع الحق، والله تعالى أعلم.

■ ■ ■ ■ ■

[٢٧]

باب:
ما جاء في التطير

وقول الله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٣١].

وقوله: ﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [يس: ١٩].

عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «لا عدوى، ولا طيرة، ولا هامة، ولا صفر»، أخرجاه، زاد مسلم: «ولا نوء، ولا غول».

ولهما، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا عدوى، ولا طيرة، ويعجبني الفأل»، قالوا: وما الفأل؟ قال: «الكلمة الطيبة».

ولأبي داود ـ بسند صحيح ـ، عن عقبة[1] بن عامر، قال: ذُكرت الطيرة عند رسول الله ﷺ، فقال: «أحسنها الفأل، ولا ترد مسلماً، فإذا رأى أحدكم ما يكره، فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك».

وعن ابن مسعود، مرفوعاً: «الطيرة شرك، الطيرة شرك» وما منا إلا!، ولكن الله يذهبه بالتوكل. رواه أبو داود، والترمذي، وصححه، وجعل آخره من قول ابن مسعود.

ولأحمد، من حديث ابن عمرو: «من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك»، قالوا: فما كفارة ذلك؟ قال: «أن تقول: اللهم لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك، ولا إله غيرك».

وله، من حديث الفضل بن عباس: «إنما الطيرة ما أمضاك أوردك».

---

(١) قال في فتح المجيد (١/ ٥٢٠): هكذا وقع في نسخ التوحيد، وصوابه: عن عروة بن عامر، كذا أخرجه أحمد وأبو داود وغيرهما، وسيأتي تخريجه قريباً.

● فيه مسائل:

الأولى: التنبيه على قوله: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ﴾، مع قوله: ﴿طَائِرُكُم مَّعَكُمْ﴾.

الثانية: نفي العدوى.

الثالثة: نفي الطيرة.

الرابعة: نفي الهامة.

الخمسة: نفي الصفر.

السادسة: أن الفأل ليس من ذلك بل مستحب.

السابعة: تفسير الفأل.

الثامنة: أن الواقع في القلوب من ذلك مع كراهته لا يضر بل يذهبه الله بالتوكل.

التاسعة: ذكر ما يقول من وجده.

العاشرة: التصريح بأن الطيرة شرك.

الحادية عشرة: تفسير الطيرة المذمومة.

■ ■ ■ ■ ■

●● الشرح ●●

باب:
ما جاء في التطير

من الأمور الشركية التي كانت فاشية قبل الإسلام، وبقي لها بقية الآن، ما يسمى بالتطير، وهو عبارة عن التشاؤم بالمرئي، أبو بالمسموع، واعتقاد الشؤم فيها، وقلة البركة، واعتقاد أنها تجلب السوء والفشل والمشكلات، فقد كان الأولون يتشاءمون بالطيور وبالوحوش، والمتأخرون يتشاءمون بالأشخاص ويتشاءمون بالأوطان ونحوها.

والأولون كانوا إذا أرادوا سفراً أو أمراً ذهب أحدهم يزجر الطير حتى تطير، فإذا طارت نظر: هل تمر عن يمينه أم عن شماله؟ فإذا مرت عن يمينه فرح بذلك وتفاءل، وقال هذا سفر مبارك، ومضى فيه، أما إذا مرت عن يساره فإنه يتشاءم، ويعتقدها فشلاً وشراً، ويترك ما قد عزم عليه من الفعل.

وكأن تلك الوحوش أو تلك الطيور هي التي تدله على الغيب، وهي التي تخبره بالأمور الخفية، وهي التي لها يمتثل ويترك، فيكون بذلك قد عظم هذه الوحوش، وقد ادعى أن مرورها هذا دليل على العلم الخفي، أو على أمر الغيب الذي لا يعلمه إلا الله.

هكذا كان الأولون يفعلون، ويسمون ما مر عن اليمين سانحاً، وما مر عن الشمال بارحاً، وما ذهب أماماً يسمونه ناطحاً، وما مر من الخلف يسمونه قعيداً، هكذا كانت عاداتهم السيئة، سواء كانت مع الطيور، أو مع الوحوش كالظباء، والوعول ونحوها، إذا أثاروها نظروا أين تذهب يميناً أو يساراً، فيتفاءلون أو يتشاءمون، فهذه من أفعالهم السيئة.

ويشبهها في هذه الأزمنة تشاؤم كثير من الناس بالأشخاص، بأن يكون أحدهم كما حُكي لنا كثيراً إذا رأىٰ إنساناً معيباً أو ناقص الخلقة لم يقبل معاملته، فإذا رأىٰ مثلاً أعمىٰ أو أعور أو أعرج أو مشلولاً أو ناقص عضو من الأعضاء، قال: هذا فأل شؤم، أو هذا شيء غير مبارك، فلا يقبل معاملته، ولا يقبل البيع له، أو الشراء منه، أو نحو ذلك، يعتقد أن فيه فشلاً وشراً وخسراناً. وهذا من آثار أهل الجاهلية.

كذلك أيضاً يتشاءمون بالمساكن، فإذا سكن في دار أو في بلدة ثم أصيب بمرض، أو بموت أحد من أهل بيته في تلك الدار، أو في تلك البلاد، أو خسرت تجارته، أو نحو ذلك، نسب ذلك إلىٰ البلد أو إلىٰ البيت، وقال: هذا منزل شؤم ولا خير فيه، منذ أن أتيناه ونحن في شر وما أشبه ذلك، فيتشاءم بتلك الأماكن، أو بتلك البقع التي لا ذنب لها، والأمر والتصرف كله بيد الله تعالىٰ فهذا هو التطير.

وسموه تطيراً لأنه اعتماد علىٰ الطيور غالباً، ويسمون فعله زجر الطير، وقد تقدم لنا تسميته بالعيافة، والعيافة: زجر الطير حتىٰ يثور، وينظر في مسيره، وبعضهم - أيضاً - يتشاءمون بأصوات الطيور، فإذا نعق الغراب عندهم فإنهم يُجيبونه بأن يقولوا: خير، وحكي عن طاووس أن رجلاً خرج معه في سفر، فمر غرابٌ ينعق، فقال: خير، فقال: لا تصحبني، أي خير عند هذا الطائر؟[1]

وكذلك كانوا إذا سمعوا من يقول خيراً، قالوا: لا خير ولا شر، كما نقل عن ابن عباس، أي: إنما هو طائر مسخر، فماذا يدل عليه طيرانه أو نعيقه؟ لا يدل علىٰ خير ولا علىٰ شر، إنما هو مسير ومسخر، ومتصرف فيه.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (١٠ / ٤٠٦).

وهذا التطير قديم كان في الأمم السابقة، حكاه الله تعالىٰ عن قوم صالح، وحكاه عن أصحاب ياسين، وحكاه عن آل فرعون، كما سيأتي.

■ **قوله:** [وقول الله تعالى: **﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾** [الأعراف: ١٣١]]:

هذا حكاه الله عن آل فرعون، قال تعالىٰ: **﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾** [الأعراف: ١٣١]. فكانوا إذا أصابتهم الحسنة، وهي الخير والخصب، وكثرة الأموال، وسعة الرزق، قالوا: هذا بحظنا، وهذا بأفعالنا وجدهنا وفضلنا، وهذا لنا، وهذا ما نستحقه، و هذا فألنا. فإذا أصيبوا بجدب أو بمرض أو بقلة مطر أو بقلة رزق أو بضيق في المعيشة، قالوا: هذا بشؤم موسىٰ وقومه، هذا بشؤمهم وبقلة بركتهم، فمنذ أن جاءنا موسىٰ ومن معه، ونحن في شر، وفي ضيق، ولم يأتنا بخير، فيتطيرون بموسىٰ ومن معه، يقول الله تعالىٰ: **﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ﴾**، أي: شؤمهم وما أصابهم من الله، وبسبب أفعالهم.

والحق أن ما أصابهم هو بسبب ذنوبهم لا بسبب موسىٰ، فموسىٰ عليه السلام ما جاء إلا برسالة ربه، وما جاء إلا بالخير، وإنما هذا من قبل أنفسهم، كما قال الله تعالىٰ: **﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ﴾**، أيْ: ألا إن ما أصابهم هو من عند الله، فالجدب والخصب كله من الله، والصحة والمرض كله من الله، والسعة والضيق والغنىٰ والفقر كل ذلك تسخير وتدبير الله، لا تصرف لأحد فيه البتة، فهذا هو المراد من كونه عند الله: **﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ﴾**.

* أما ما حكىٰ الله عن قوم صالح؛ فذكر الله أنهم تطيروا بصالح، قال تعالىٰ: **﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ﴾** [النمل: ٤٧]؛ أي: أنهم لما

أصابهم ما أصابهم قالوا لصالح: تطيرنا بك أنت، ما جئتنا إلا بشر، فمنذ أن قدمت علينا وأظهرت أنك نبي ونحن مصابون بأمراض وبعاهات، وبفقر وبضيق في العيش، ونكد في الحياة، وبكذا وكذا، فنحن متطيرون بك، ولكنه أجابهم بأن: ﴿طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ﴾؛ أي: ما أصابكم، وما أنتم فيه فهو من الله لا مني، فلا تتطيروا بفعلي ولا بمجيئي لكم.

■ **قوله**: [وقوله: **﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾** [يس: ١٩]]:

وهذا ما حكاه الله عن أصحاب ياسين؛ حيث حكى عن الرسل الذين أرسلهم إلى تلك القرية، بقوله: **﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾**، إلى قوله: **﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾** [يس: ١٣، ١٩] طائركم؛ أي: شؤمكم بسبب أفعالكم، وما أصابكم الذي أصابكم إلا بكفركم، وبسيئاتكم وبذنوبكم، فلا تدّعوا كذباً وزوراً أن ما أصابكم بسببنا نحن، ما أيتناكم إلا بخير فكيف تنيطون بنا هذا الفعل السيء القبيح.

فهذا ونحوه من التطير المذموم الذي دل على أنه سنة قبيحة، وعادة قديمة ورثت من الأزمان القديمة، وتناقلتها الأجيال تلو الأجيال في غياب شرائع السماء.

■ **قوله**: [**عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «لا عدوى، ولا طيرة، ولا هامة، ولا صفر»**[١] **أخرجاه، زاد مسلم: «ولا نوء، ولا غول»**[٢]]:

يقول النبي ﷺ في هذا الحديث: «**لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر**»، وفي

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٥٧٥٧)، ومسلم برقم (٢٢٢٠).

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٢٢٠)(١٠٦)، من حديث أبي هريرة، بزيادة: «ولا نوء».
وأخرجه مسلم برقم (٢٢٢٠)(١٠٧)، من حديث جابر، بزيادة: «ولا غول».

رواية: «ولا نوء ولا غول».

لقد اختلف في المراد بهذا الحديث، أهو لنفي هذه الأشياء أو للنهي عنها؟

فالقول الأول: إنه للنهي، والذين قالوا بهذا، قالوا: معنىٰ قوله: «**لا عدوى ولا طيرة**»؛ أي: لا تعتقدوا العدوىٰ، ولا تفعلوا الطيرة، وكذلك لا تفعلوا النوء والغول، ولا الهامة والصفر.

والقول الثاني: وهو الصحيح أنها للنفي، والنفي يدل علىٰ الإبطال، فالتقدير: ليس هناك عدوىٰ، وليس هناك طيرة ولا هامة ولا صفر ولا نوء ولا غول، فلا حقيقة لهذه الأشياء، إنما هي خيالات وأوهام يظنها الجهال، ويتأثرون بها ويعتقدون فيها.

● **وقوله: «لا عدوى»**:

العدوىٰ معناها: انتقال المرض من المريض إلىٰ السليم، وقد كان الجاهليون يعتقدون أن الأمراض تنتقل بطبيعتها لا بتقدير الله، فبين النبي ﷺ: أنها من الله تعالىٰ لا تنتقل إلا بإذن الله، والله تعالىٰ هو الذي أحدث وخلق هذه الأمراض، وهو الذي يمرض السليم، ويصح المريض، وليس للمرض نفسه طبيعة في انتقاله أبداً، أو تأثير في الناس بمعزل عن قدر الله وأمره.

فمن أجل ذلك قال: «**لا عدوى**»؛ أي: ليس هناك عدوىٰ حقيقية، وإنما مرض السليم من الله تعالىٰ، كما أنه سبحانه هو الذي أمرض الأول.

روي أن أعرابياً سمع النبي ﷺ يقول: «**لا يعدي شيء، قالها ثلاثاً**»، فقال الأعرابي: يا رسول الله، إن النّقبة[1] من الجرب تكون بمشفر البعير أو بذنبه في الإبل العظيمة فتجرب كلها؟ فقال رسول الله ﷺ: «**فمن أجرب الأول؟ لا عدوى**

---

(١) النُقبة: أول شيء من الجرب؛ لأنها تنقب الجلد، أي: تخرقه.

ولا طيرة ولا هامة ولا صفر، خلق الله كل نفس وكتب حياتها ومصائبها ورزقها»[(١)].

هذا الأول الذي هو مصاب بالجرب من الذي أعداه ومن أين جاءه؟ أليس من الله تعالىٰ؟ هو الذي أنزل المرض بهذا، وهو الذي أنزل بالأول والآخر، فإذاً الحكم كله بخلق الله تعالىٰ وتقديره، لكن من حكمته تعالىٰ أن جعل مقاربة المريض والأجرب ونحوه سبباً في انتقاله، لا أنه هو السبب الرئيس، أو تنتقل بطبعها وبخلقتها، بل الله تعالىٰ هو الذي جعل المقاربة سبباً لخلق هذا المرض.

ودليل ذلك أنه ﷺ نهىٰ عن مقاربة المرضىٰ، فقال: **«فرّ من المجذوم فرارك من الأسد»**[(٢)]، لأن الجذام مرض شديد، وهو عبارة عن قروح تكون في الأنف، وفي الوجه، ومن ثم تكون مقاربة المجذوم بإذن الله سبباً في انتشار المرض، وانتقاله إلىٰ غيره، ولكنه بإذن الله، لذلك قال: **«فر من المجذوم فرارك من الأسد»**،

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٤٤٠)، والترمذي برقم (٢١٤٣)، وأبو يعلىٰ في «المسند» برقم(٥١٨٢). من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

قال أحمد شاكر في «تحقيق المسند» (٤١٩٨): إسناده ضعيف، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣/ ١٤٣).

وأخرجه أحمد في «المسند» (٢/ ٣٢٧)، وابن جرير الطبري في «تهذيب الآثار» رقم (٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال أحمد شاكر في المسند (٨٣٢٥): إسناده صحيح.

قال الشيخ ابن جبرين حفظه الله: وأصله في البخاري في «الطب» في مواضع برقم (٥٧١٧، ٥٧٧٠، ٥٧٧٥)، ومسلم في السلام برقم (٢٢٢٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري تعليقاً، رقم (٥٧٠٧)، في «كتاب الطب» ووصله أحمد في «المسند» (٢/ ٤٤٣)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٩/ ٤٤)، وابن جرير الطبري في «الآثار» رقم (٣٨،٣٩).

وله شاهد من حديث عائشة عند ابن خزيمة في «كتاب التوكل» كما في «فتح الباري» (١٠/ ١٥٩).

ومع ذلك متىٰ قوي التوكل جاز أن يقارب المجذوم ويجالسه، فإنه قد ثبت أنه ﷺ أخذ بيد مجذوم وألقاها ودلاّها في القصعة، وقال: «**كل بسم الله ثقة بالله وتوكلاً عليه**»[1]، فأكل ﷺ مع المجذوم، ولكن النبي ﷺ خاف علىٰ الناس أن تكون نفسوهم ضعيفة، فإذا خالطوا المجذوم، وأصابهم الجذام، اعتقدوا اعتقاداً سيئاً في أن الأمراض تنتقل بطبعها، فمن أجل ذلك نهىٰ عن مقاربتها، حتىٰ لا يتطرق إليه هذا الظن السيء.

وكذلك في الإبل نهىٰ أن يورد الممرض علىٰ المصح[2]، والممرض هو صاحب الإبل المريضة، نهىٰ أن يورد علىٰ المصح؛ أي: علىٰ صاحب الإبل الصحيحة، مخافة أن تحتك الإبل المريضة بالإبل الصحيحة فتصاب الصحيحة بالجرب، ويعتقدون أن المرض ينتقل بطبيعته، لا أنه بتقدير الله تعالىٰ، وهذا اعتقاد خطأ، فإن كل أمر يحدث كبيراً كان أو صغيراً فهو بقضاء الله وبقدره، لا بطبع المرض ولا بنفسه.

والحاصل: فقد عرفنا أن العدوىٰ وهو انتقال المرض من المريض إلىٰ السليم، هو في الأصل من الله تعالىٰ، ولكن هناك أسباب، وهي أن مقاربة المريض سبب في انتقال المرض، قد يخلقه الله تعالىٰ فيمرض، وقد يتخلف ولا يمرض، وكثيراً

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (٣٩٢٥)، والترمذي برقم (١٨١٨). وابن ماجه برقم (٣٥٤٢)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٨/ ٣١٨)، وأبو يعلىٰ في «المسند» رقم (١٨٢٢). وابن حبان (٧/ ٦٤١). والحاكم في «المستدرك» (٤/ ١٣٦).
وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وقال ابن حجر في «الفتح» (١٠/ ١٦٠): فيه نظر، وقال ابن القيم في «زاد المعاد» (٤/ ١٥٣): لا يثبت ولا يصح، وقد روي عن عمر بن الخطاب وابنه عبد الله بن عمر وسلمان رضي الله عنهم، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» رقم (٤٢٠٠).

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٢٢١)، ولفظه: «**لا يورد ممرض علىٰ مصح**». من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ما يحصل الاختلاط بين الصحيح والمريض ولا يمرض الصحيح، وكثيراً ما يمرض الإنسان وهو بعيد عن المرضى، وقد يتحفظ الإنسان كثيراً ويتوقى ويتجنب أسباب المرض، ومع ذلك يصاب بالمرض، وهكذا.

إلا أن الله تعالى أمر بفعل الأسباب التي تكون سبباً في الوقاية، فمثلاً الطاعون نُهي عن أن يُقدم عليه في بلده، قال الرسول ﷺ: «**إذا سمعتم بالطاعون في بلد فلا تقدموا عليه، وإذا وقع وأنتم ببلد فلا تهربوا فراراً منه**»(١).

وذلك أن الله تعالى جعل هذا المرض وهذا الوباء الذي هو عبارة عن طعن في الكف أو غيره يفشو في البلد بإذن الله، فإذا سمع به إنسان بعيد وقدم فكأنه يدفع نفسه إلى الموت بنفسه ويخاطر بها، لكن متى وقع في البلد وهو فيها فهرب فكأنه يعتقد أن هربه وفراره سبب في نجاته، وليس كذلك بل هذا إلى الله تعالى، فهذا معنى قوله: «**لا عدوى**». فالشاهد أنه عليه السلام نفى أو نهى عن العدوى.

● **أما قوله: «ولا طيرة»:**

وهذا نهي من النبي ﷺ عن الطيرة التي هي: التشاؤم بالطيور وبالوحوش ونحوها، وأبطل ما كان عليه الجاهليون من الاعتقاد من أنها تدل على شيء أو تفيد شيئاً، وما كان عليه ورثتهم في غير الطيور ـ أيضاً ـ؛ سواء في الأشخاص أو نحوهم، وقد سبق الكلام على الطيرة في أول الباب.

فينبغي ألا يعتقد الإنسان أشياء من هذه الأمور التي تخل بعقيدته، والتي تنقص توحيده، فإنه متى اعتقد أن الطيرة ذات تأثير فقد جعل المخلوق سبباً في التأثير، والأسباب كلها من الله.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٥٧٢٨)، ومسلم برقم (٢٢١٨)، عن أسامة بن زيد رضي الله عنه.

● **أما قوله: «ولا هامة»:**

الهامة فيها خلاف، ، والراجح أنها اسم لنوع من الطيور، ويزعم العرب أنه يجلس على قبر المقتول ظلماً حتى ينتصر له، فإذا قتل شخص ظلماً زعموا أن الهامة تقف على قبره، وتقول: اسقوني، اسقوني، حتى يقتل القاتل، وهذا لا حقيقة له، وقد ذكروا هذا في شعرهم، وكان مشهوراً بينهم أن الهامة تشبه البومة أو هو البومة، ومتى وقعت على بيت أحد قالوا: نعت إليه نفسه، ولا حقيقة لذلك.

وقد قال بعضهم:

يا عمرو إلا تدع سبي ومنقصتي

أضربك حتى تقول الهامة اسقوني

● **وقوله: «ولا صفر»:**

صفر، **قيل**: إنه شهر صفر، وكانوا يتشاءمون بشهر صفر، فلا يسافرون فيه، ولا يتزوجون، ولا يتاجرون فيه، ويقولون: إنه شهر شؤم، وبعضهم يعتقد أنه في شهر صفر تنزل الأمراض والعاهات فيتحفظون فيه ويبالغون في التحفظ خوفاً من المرض، وكل ذلك لا حقيقة له، وهو شهر كسائر الشهور.

ومنهم من يقول: إن المراد ما يفعلونه من النسيء القديم، فقد كان أهل الجاهلية في موسم الحج يقولون: إنا قد أحللنا المحرم وحرمنا بدله صفراً، ويسمونه نسيئاً، كما في قوله تعالى: **﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا﴾** [التوبة: ٣٧]؛ فالنسيء أبطله الإسلام، وأخبر بأنه زيادة في الكفر.

وهناك قول ثالث: وهو أن المراد بصفر مرض، وليس هو الشهر المعروف، ويكون منه صفرة في البدن، ويزعمون أنه أعدىٰ من الجرب.

ومنهم من يقول: إن الصفر هو حية تكون في البطن، وأنها تسبب مرضاً وتكون سبباً في انتقال مرضها أو المرض الناشئ عنها إلىٰ الأصحاء.

ولقد أبطل الإسلام تلك الاعتقادات الفاسدة، والخرافات الجاهلية، وبين أنه لا حقيقة لشيء من ذلك، هذا معنىٰ هذه الأشياء الأربعة.

• **أما قوله: «ولا نوء»:**

فالنوء: واحد الأنواء، وهي النجوم التي تطلع وتغرب، ناء النجم من هنا؛ أي: طلع، وناء من هنا؛ أي: غرب، ناء: أي: طلع أو غرب.

فقد كانوا يزعمون أنه إذا ناء النجم الفلاني حصل الغيث والخصب، أو قد يحصل جدب وقحط إذا ناء نجم آخر، أو إذا ناء النجم الفلاني في المنزل الفلاني، أو في الساعة الفلانية، كان سبباً لكذا أو كذا، وما أشبه ذلك، وهذا مما أبطله الإسلام، وسوف يأتينا باب حول هذا الموضوع إن شاء الله اسمه باب: (الاستسقاء بالأنواء)(١).

• **أما قوله: «ولا غول»:**

الغول: هو واحد الغيلان، والغيلان هي: السعالي، جمع سعلاة، وهي: متشيطنة الجن، وقد ورد إثبات أن الجن تتشكل في صور حيوانات ويسمونها السعلاة، ويسمون الجن إذا ظهروا في صور أشخاص غيلان، ويزعمون أنها تتمكن من إضلال هذا، وهداية هذا، وتخاطب هذا وتخاطب هذا، وهذا ليس بحقيقة، ولكن ليس ببعيد أنها تتشكل، فقد ورد ما يدل علىٰ ذلك، ففي الحديث

---

(١) انظر باب رقم (٢٩).

أنه ﷺ قال: «إذا تغوَّلت الغيلان فنادوا بالأذان»[١]، لأنهم شياطين الجن، والشياطين يهربون من الأذان[٢].

فالحاصل أن الغيلان موجودون، وقد رآهم الناس، ولكن كونهم مثلاً يتمكنون مما تزعمه الجاهلية من إضلال وهداية ومخاطبة الناس، وما أشبه ذلك، فهذا كله ليس بصحيح، بل يتمكنون من الإضرار أحياناً، ويطردهم ذكر الله تعالىٰ.

---

(١) جزء من حديث أخرجه أحمد (٣/ ٢٨٢، ٣٠٥، ٣٨١، ٣٨٢)، وأبو يعلىٰ في «المسند» رقم (٢٢١٩)، وابن خزيمة رقم (٢٥٤٨)، والنسائي في «عمل اليوم واليلة» رقم (٩٥٥) من حديث جابر رضي الله عنه.
قال الهيثمي في «المجمع» (٣/ ٢١٣): رواه أبو يعلىٰ ورجاله رجال الصحيح.
وله شاهد من حديث سعد بن وقاص أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٥/ ١٦٣)، والبزار في «المسند» رقم (٣١٢٩).
قال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ١٣٤): رواه البزار ورجاله ثقات إلا أن الحسن البصري لم يسمع من سعد فيما أحسب أ. هـ.
وله شاهد آخر من حدث أبي هريرة أخرجه ابن خزيمة رقم (٢٥٤٩)، والطبراني في «الدعاء» رقم (٢٠٠٩).
وأخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (٥/ ١٦٠). عن الحسن مرفوعاً، وأصله عند مسلم رقم (١٩٢٦)، دون اللفظ المذكور.
وضعف الألباني حديث جابر الذي رواه أحمد في «ضعيف الجامع» رقم (٥٣٥).
قال الشيخ ا بن جبرين معقباً على تضعيف الألباني: لأنه من ر واية الحسن البصري عن جابر، وهو لم يلقه، لكنه أدركه وأدرك تلامذته، وجزم بالرواية عنه، وصرح بالتحديث عنه، مما يدل علىٰ تأكده لما رواه عنه.

(٢) لحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «**إذا نودي بالصلاة أدبر الشيطان، حتى إذا قضى التثويب أقبل، حتى يخطر بين المرء ونفسه، يقول: أذكر كذا، أذكر كذا، لما لم يكن يذكر، حتى يظل الرجل لا يدري كم صلى**». أخرجه البخاري برقم (٦٠٨)، ومسلم برقم (٣٨٩).
وفي الباب عن جابر رضي الله عنه عند مسلم برقم (٣٨٨).

ومن المعلوم أن الجان الذين هم مشيطنة الجن لا يجرأون على من هو شجاع القلب، أما شجاع البدن ونحو ذلك فإن هذا لا يتأثرون به، فإذا أفزعوه وخوفوه وبقي ثابتاً شجاعاً، لا يتزعزع ولا يخاف ولا يفزع، واطمأن وذكر اسم الله، فهذا هو الذي لا يقدرون أن يفعلوا معه شيئاً.

وقد بالغ بعض العلماء في نفي وجود الغيلان اعتماداً على الحس والمشاهدة، وقال: ليس للغيلان حقيقة، كما يقول بعضهم:

فعلى عقولكم العفاء فإنكم

ثلثتم العنقاء والغيلانا

ويقول بعضهم:

الجود والغول والعنقاء ثالثة

أسماء أشياء لم توجد ولم تكن

فالصحيح أن الغول موجودون، ولكن لا يتمكنون من الإضلال والإضرار الذي تزعمه العرب إلا بإذن الله تعالى.

■ قوله: [**ولهما، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا عدوى، ولا طيرة، ويعجبني الفأل»، قالوا: وما الفأل؟ قال: «الكلمة الطيبة»**(١)]:

سبق الكلام على العدوى والطيرة في الحديث السابق، وبقي الكلام على الفأل في هذا الحديث.

الفأل هو: التفاؤل بالكلمات الحسنة التي يحصل بها ثبات القلب وقوته،

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٥٧٧٦)، ومسلم برقم (٢٢٢٤).

والفأل الذي يحبه النبي ﷺ، والذي يعجبه، هو التفاؤل بالأسماء الحسنة، ويكره الأسماء القبيحة، وكذلك الأفعال ونحوهما.

فالنفوس مجبولة على حب الأسماء الطيبة، والمحبوبات ونحوها، فتحب أن تسمع السلامة والتهنئة والخير والرزق والفلاح والفوز والصلاح، ونحو ذلك، وتحب أن تسمع اسم سالم وصالح وسعد أو سعيد وما أشبه ذلك من الأسماء الطيبة، وتكره أن تسمع أضدادها كشقي وفاسد، وما أشبه ذلك، لكن السماع لهذا إنما هو مجرد تقوية، والتفاؤل بالأسماء الطيبة تقوية للنفس، ولهذا كان النبي ﷺ يحب الأسماء الحسنة، وينهى أو يغير الأسماء القبيحة ونحوها، فثبت عنه أنه قال: «**أحب الأسماء إلى الله: عبد الله وعبد الرحمن، وأصدقها: حارث وهمام، وأقبحها: حرب ومرة**»[1].

ولما أمر مرة بحلب شاة فجاءه شخص ليحلبها، فقال: «**ما أسمك؟**» فقال: مُرَّة، فقال له: «**اجلس**»، وجاء آخر فقال له: «**ما اسمك؟**»، فقال: حرب، قال: «**اجلس**»، وجاء آخر قال: «**ما أسمك؟**» قال: يعيش، فقال: «**احلب**»[2].

وكذلك غير كثيراً من الأسماء القبيحة، فقد غير اسم العاص، وعتلة،

---

(١) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» برقم (٨١٤)، وأحمد (٤/ ٤٤٥)، وأبو داود برقم (٤٩٥٠)، عن أبي وهب الجشمي رضي الله عنه.
وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٠٤٠)، و«الإرواء» (١١٧٨)، و«صحيح الأدب المفرد» (٦٢٥).
والشطر الأول من الحديث أخرجه مسلم برقم (٢١٣٢)، عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) رواه مالك في «الموطأ» مرسلاً (٢/ ٩٧٣).
قال المحقق: وصله ابن عبد البر من طريق ابن وهب، عن ابن لهيعة، عن الحارث بن يزيد، عن عبد الرحمن ابن جبير عن يعيش الغفاري.

وشيطان، والحكم، وغراب، وحباب، وما أشبهها، وذلك لكونها أسماء قبيحة، ينفر الطبع منها، ولكن مع ذلك لا يُعتقد أن كل مسمىٰ فإنه يتأثر باسمه، سواء كان صالحاً أو غير ذلك، فليس كل من سمي صالحاً يكون من أهل الصلاح، ولا كل من سمي زاهداً يكون من أهل الزهد، وليس كل من سمي سعيداً يسعد في الدنيا أو الآخرة، وبضد ذلك أيضاً الأسماء التي ليست كهذه الحال.

هذا معنىٰ قوله: «**ويعجبني الفأل**»؛ أي: الكلمة الطيبة، كأن تسمع كلمة سالم فتتفاءل بالسلامة، أو تسمع كلمة واجد فتتفاءل بوجدان ما أنت تطلبه، أو ما أشبه ذلك، ولكنك لاتعتقد ذلك يقيناً، بل إنما هو مجرد تقوية ومجرد جبر للقلب ونحوه، وهذا لا يكون من الطيرة المذمومة؛ فالطيرة كما ذكر في آخر الباب هي قول: «**ما أمضاك أو ردك**»؛ ومعناه: أنك إذا كنت ماضياً في السير فجاءك مثلاً وحش أو طير فمر عن يسارك فرجعت بعد ما كنت سائراً من أجل هذا الوحش أو هذا الطائر، فهذا ردك فتطيرت بذلك، أو كنت متوقفاً وعازماً علىٰ الرجوع فمر عن يمينك طائر أو نحوه، فمضيت من أجل ذلك الطير، واعتمدت علىٰ خبر أو فعل هذا الطائر.

فالحاصل إذا مضيت من أجل هذا الطير أو هذا الوحش، أو رجعت من أجل هذا الطير أو هذا الوحش؛ فأنت بهذا قد تطيرت، ووقعت في الطيرة الشركية.

■ **قوله: [ولأبي داود ـ بسند صحيح ـ، عن عقبة[١] بن عامر، قال: ذُكرت الطيرة عند رسول الله ﷺ، فقال: «أحسنها الفأل، ولا ترد مسلماً، فإذا رأى أحدكم ما يكره، فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك»[٢]]:**

كأنهم ذكروا الطيرة وشأنها، فقال: «**أحسنها الفأل**»؛ يعني: إنما يستحسن منها ويباح الفأل، الذي هو التفاؤل بالكلمة أو بالاسم الحسن أو نحو ذلك.

وقوله: «ولا ترد مسلماً»:

دل على أن من ردته الطيرة عن حاجته وقصده فإنه قد نقص اتصافه بالإسلام، فيكون عاصياً أو مشركاً أو كافراً، أو نحو ذلك، على حسب ما يقوم بقلبه، وهذا معنى قوله: «**ولا ترد مسلماً**»، بل المسلم ولو رأى ما يكره، ولو رأى الطير قد برح عن يساره لا يرده ذلك، بل يمضي قدماً، فيعتمد على الله، وإذا رأى ما يكره من مرور هذه الطيور، أو الوحوش، ونحوها اعتمد على الله، ودعا بمثل هذا الدعاء: «**اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولاحول ولا قوة إلا بك**»، فإنه دعاء في غاية المناسبة.

---

(١) قال في «فتح المجيد» (١ / ٥٢٠): هكذا وقع في «نسخ التوحيد»، وصوابه: عن عروة بن عامر، كذا أخرجه أحمد وأبو داود وغيرهما، وسيأتي تخريجه قريباً.

(٢) أخرجه أبو داود برقم (٣٧١٩)، وابن أبي شيبة في «المصنف» برقم (٦٤٤٣، ٩٥٩٠، ٩٥٩١)، والبيهقي (٨/ ١٣٩).

قال النووي في «رياض الصالحين» (٦٣٩): رواه أبو داود بإسناد صحيح، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» رقم (١٩٩).

وله شاهد مرسل من طريق عبد الرحمن بن سابط الجمحي به، أخرجه أبو داود في المراسيل رقم (٥٣٩).

وشاهد آخر عن الأعمش به، أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (١٠ / ٤٠٦).

وقوله: «**اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت**»:

الحسنات: هي الخيرات، ويدخل في الحسنات، الأرزاق الحسنة، يعني: لا يأتي بالرزق إلا أنت، ولا يأتي بالصحة غيرك، ولا يأتي بالفتح والنصر إلا أنت، ولا يأتي بالتقوية إلا أنت، فكل الحسنات المحبوبة إنما هي من الله تعالىٰ، والطيور والوحوش والخلق ليس إليهم شيء من ذلك، وقد يدخل في الحسنات الأعمال الصالحة؛ يعني: لا يوفق للأعمال الحسنة إلا أنت، أنت الذي تعيننا علىٰ أن نفعل الحسنات، وعلىٰ أن نكثر من الأعمال الصالحة.

وقوله: «**ولا يدفع السيئات إلا أنت**»:

و**السيئات**: هي المصائب والشرور والعاهات، يعني: لا يدفع الفقر غيرك، ولا يدفع المصيبة إلا أنت، فأنت القادر علىٰ أن تدفع عنا المصائب والعاهات، وأنت القادر علىٰ أن تدفع عنا الأعداء، وكيدهم، وأنت القادر وحدك علىٰ أن تدفع الشرور والأمراض، ونحوها، وأنت القادر علىٰ أن تدفع عنا كيد كل كائد، فلا يدفع السيئات إلا أنت.

وقد يراد بالسيئات الأعمال السيئة، كالمعاصي والذنوب والكفر والشرك، يعني: لا يحمينا من الذنوب غيرك، فنحن نستعيذ بك من السيئات، ونسألك الحفظ منها، فهذا دعاء في غاية المناسبة، كأنه يقول: نحن معتمدون علىٰ تصرفك لنا يارب؛ فإنك الذي تأتي بالخير، وتدفع الشر وحدك.

وقوله: «**ولا حول ولا قوة إلا بك**»:

الحول: هو التحول من حال إلىٰ حال، ليس لنا استطاعة علىٰ أن ننتقل من حال إلىٰ حال إلا بتقويتك، وإمدادك، لا نقدر أن نتحول من صحة إلىٰ مرض إلا بفضلك، ولا نقدر علىٰ أن نتحول من فقر إلىٰ غنىٰ إلا بعطائك، ولا نقدر

علىٰ أن نتحول من ذل إلىٰ عز إلا بعطائك وإعزازك، وهكذا لا حول ولاقوة إلا بك.

وهذه الكلمة كلمة عظيمة: (**لا حول ولا قوة إلا بالله**)، وهي كنز من كنوز العرش[(١)]، وفيها الدلالة علىٰ الاعتماد علىٰ الله، وفيها الدلالة علىٰ أن الله وحده هو الكافي عباده، وأنهم لا يقدرون علىٰ أن يصلحوا من أحوالهم ولا من أمورهم شيئاً إلا بتدبير الله وتوفيقه، وعطاءه وإمداده.

■ **قوله: [وعن ابن مسعود، مرفوعاً: «الطيرة شرك، الطيرة شرك»، وما منا إلا!، ولكن الله يذهبه بالتوكل[(٢)]. رواه أبو داود، والترمذي، وصححه، وجعل آخره من قول ابن مسعود.]:**

ومعنىٰ كونها شركاً: أن الذي يتطير كأنه يعتمد علىٰ خبر الطيور

---

(١) كما ثبت ذلك في الحديث عن أبي ذر قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟**» قلت: بلىٰ، قال: «**لاحول ولا قوة إلا بالله**».
أخرجه أحمد (٥ / ١٥٦). وابن ماجه برقم (٣٨٢٤، ٣٨٢٥)، وابن حبان في «صحيحه» (٢٣٣٩). وابن السني رقم (٤٤). والطبراني في «الكبير» رقم (١٦٤٢).
وقد ثبت ذلك أيضاً في حديث أبي موسىٰ الأشعرىٰ رضي الله عنه، أخرجه البخاري برقم (٤٢٠٥)، ومسلم برقم (٢٧٠٤).

(٢) أخرجه أبو داود برقم (٣٩١٠)، والترمذي برقم (١٦١٤)، وابن ماجه برقم (٣٥٣٨)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٩٠٩)، وأحمد في «المسند» (١ / ٣٨٩، ٤٣٨، ٤٤٠)، وابن حبان (١٤٢٧)، والحاكم (١ / ١٧، ١٨)، والبيهقي (٨ / ١٣٩)، وأورده البغوي في «شرح السنة» (١٢ / ١٧٧، ١٧٨).
قال الترمذي: حسن صحيح، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي. قال أحمد شاكر في المسند (٣٦٨٧): إسناده صحيح. وصححه الألباني في «صحيح الأدب المفرد» رقم (٦٩٨). وفي «السلسلة الصحيحة» رقم (٤٢٩).
وأخرجه أبو يعلىٰ في «المسند» برقم (٤٣٠، ٤٣١)، من حديث علي رضي الله عنه.
وأخرجه أبو يعلىٰ أيضاً برقم (٢٨٧٠)، من حديث أنس رضي الله عنه. =

والوحوش؛ وكأنه يعترف بأن هذا الطير هو الذي أمره، أو نهاه، وهو الذي دله وهداه، وهو الذي أرشده إلىٰ ما يقول أو يفعل، فقد جعل للطير تصرفاً، ومن ثم فقد جعل مع الله متصرفاً، وبذلك يكون شركاً.

ثم قال: «وما منا إلا»، وهذا من كلام ابن مسعود رضي الله عنه، يعني: ما منا إلا من وقع في قلبه شيء من الوحشة عندما يرىٰ سانحاً أو بارحاً، أو من سمعه أو لقيه مما يكره أو نحو ذلك.

ثم قال: «ولكن الله يذهبه بالتوكل»؛ والتوكل: هو الاعتماد علىٰ الله؛ يعني: إنما يقع في القلب من ارتجاف عندما يري شيئاً يكرهه، يزول ويذهب إذا مضىٰ وتوكل علىٰ الله، والتوكل هو: التفويض والاعتماد؛ تفويض الأمور إلىٰ الله والاعتماد بالقلب عليه، والرضىٰ به حسيباً ووكيلاً، فإذا توكل علىٰ الله، ووثق بطلبه، فإنه سيذهب ما في قلبه من ذلك التطير ونحوه، ويكفِّر الله عنه ما وقع فيه.

■ **قوله: [ولأحمد، من حديث ابن عمرو: «من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك»، قالوا: فما كفارة ذلك؟ قال: «أن تقول: اللهم لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك، ولا إله غيرك»**(١)**.]:**

بمعنىٰ أنه جعل الطائر متصرفاً، فجعل له نوعاً من علم الغيب أو التدبير،

= وأخرجه أيضاً أبو يعلىٰ برقم (٧٦٦)، من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

وزيادة: «وما منا إلا...إلخ» مدرجة، كما نص علىٰ ذلك البخاري وغيره، وهي من كلام ابن مسعود، راجع «الترغيب والترهيب» (٤/ ٦٤)، والترمذي (٥/ ٣٣٧)، و«مفتاح دار السعادة» لابن القيم (٢/ ٢٣٤)، و«موارد الضمآن» (ص٣٤٥)، و«فتح الباري» (١٠/ ٢١٣).

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢٢٠)، والطبراني كما في «المجمع» (٥/ ١٠٥)، وابن السني في «عمل =

فيكون قد وقع في الشرك.

فمثلاً من كان سائراً في طريقة، ثم مر به سانح أو بارح من الطيور فرجع، وردته عن حاجته التي كان يقصدها فقد أشرك، ووقع فيما هو شرك واضح أو خفي، فسألوا النبي ﷺ: إذا خافوا أو رأوا ما يخيفهم ماذا يقولون؟ فأرشدهم إلىٰ هذا الدعاء العظيم، بأن يقول أحدهم: «**اللهم لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك، ولا إله غيرك**»، وهذا ـ أيضاً ـ دعاء شاف كاف.

وقوله: «**ولا خير إلا خيرك**»؛ يعني: أنت الذي تعين علىٰ الخير، وأنت الذي تدل عليه، وترشد إليه، فالخير خيرك، وأنت الذي تخلقه، وأنت الذي تيسر أسبابه، وليس الطير بمتصرف، وليس منه خير، ولا شر؛ ولهذا كان كثير من العرب إذا سمعوا الطائر ينعق، يقول أحدهم: خير خير، أو يقول: خير يا طير، وهذا خطأ، ولذلك لما سمع بعض الصحابة، كابن عباس قائلاً يقول: خير، قال: وأي خير عند هذا الطائر، لا خير ولا شر، الخير خير الله:

وقوله: «**ولا طير إلا طيرك**»، هذا الطير، وهذا الوحش، وهذا المار ونحوه السانح والبارح ليس يملك من نفسه شيئاً، إنما هو مدبر، بل هو مملوك لله تعالىٰ، فإن الله هو الذي يحرك هذه الطيور؛ فهو سبحانه متصرف فيها، وهي لا تتصرف في شيء من أمر نفسها، فضلاً عن أمر غيرها، كما أن الإنسان لا يتصرف من

= اليوم والليلة» (٢٩٣).

قال الهيثمي في «المجمع» (٥ / ١٠٥): فيه ابن لهيعة، وحديثه حسن، وفيه ضعف، وبقية رجاله ثقات.

وله شاهد من حديث بريدة، أخرجه الطبراني في الدعاء رقم (١٢٧٠)، والبزار في «المسند» برقم (٣٠٢٨).

وصحح الشيخ أحمد شاكر إسناده في تعليقه على المسند رقم (٧٠٤٥)، وصححه الألباني في الصحيحة رقم (١٠٦٥).

قبل نفسه، بل الله تعالىٰ هو الذي يصرف القلوب ويصرف الأعمال.

وقوله: «ولا إله غيرك»، وهذه كلمة التوحيد، فيها تجديد التوحيد، كأنه يقول: أخاف أن ما بنفسي، أو بما وقع في قلبي، أنني قد أخللت بشيء من توحيد الإلهية، فأنا أحب أن أجدد التوحيد، فيقول: «ولا إله غيرك».

ففي هذا ونحوه بيان حقيقة التوكل، وكل ما ينافي التوحيد، وأن له كفارة، وهي مراجعة التوحيد، وتجديد العبودية لله تعالىٰ، وتجديد الإيمان، حتىٰ يكون بذلك العبد محافظاً علىٰ ما يكون سبباً في بقاء توحيده، ومحافظاً علىٰ عقيدته.

ولا شك أن عقيدة السلف الصالح هي الاعتماد علىٰ الله تعالىٰ، والرضىٰ به رباً ومدبراً ومتصرفاً، فينبغي أن تكون هذه عقيدة كل مسلم، وأن مما ينافيها أو ينقصها اعتقاده أن لبعض المخلوقات شيئاً من التصرف، أو شيئاً من علم الغيب، الذي هو من خصائص علم الرب تعالىٰ، وذلك كله مما ينافي التوحيد، أو مما ينافي كماله، أو مما ينقصه، فإذا شعر الإنسان بأنه فعل شيئاً من ذلك، أو قارب شيئاً منه، فعليه أن يبادر بتجديد عقيدته، ويجتهد فيما يكون سبباً لإزالة ذلك الذي عرض بقلبه، حتىٰ تبقىٰ له عقيدته صافية خالصة.

فمن ذلك: الطيرة التي هي التشاؤم من رؤية بعض الطيور أو رؤية بعض الناس، أو من أصواتها، أو ما أشبه ذلك، فإنها كما ذكر في هذا الباب شرك، وإن كان من الشرك الأصغر.

لكن الشرك الأصغر قد يكون أكبر؛ إذا اعتمد الإنسان عليه، واعتقد فيه، أو جعل له شيئاً من التصرف الخاص بالله تعالىٰ، فإنه يرتقي إلىٰ الشرك الأكبر حسب الاعتقاد، ولكن الشرك الأكبر والشرك الأصغر يكفرهما التوحيد، ودعاء الله تعالىٰ بما يزيل ذلك النقص الذي حصل في التوحيد، والله تعالىٰ أعلم.

■ قوله: [وله، من حديث الفضل بن عباس: «إنما الطيرة ما أمضاك أوردك»[(١)]]:

هذا الحديث رواه الإمام أحمد في المسند برقم (١٨٢٤) وفي إسناده انقطاع ضعفه به المحقق، وذكر أنه لم يجده في موضع آخر، وقد ساقه الشارح بإسناده، وفيه قصة.

ومعناه: أن حقيقة التطير المنهي عنه والذي هو شرك هو ما مضيت لأجله، أو رجعت بسببه، وذلك أن العرب كانوا يتشاءمون بالطير والوحوش، فيمضي أحدهم إذا سنح له طائر أو ظبي ونحوه، ويرجع إذا برح له ذلك، فهذا هو التطير الذي هو من الشرك، فأخبر في هذا الحديث أن حقيقة الطيرة الشركية ما أمضاك وسرت من أجله بعد أن كنت متردداً، أو ردك فرجعت من أجله بعد أن كنت سائراً؛ فإن ذلك اعتقاد أن هذا الطائر أو الوحش يعلم الغيب، ويخبر بما في هذا المسير من فائدة أو مصيبة، وذلك مما لا يعلمه إلا الله تعالىٰ، والله أعلم.

■ ■ ■ ■ ■

---

(١) أخرجه أحمد (١ / ٢١٣).

قال ابن مفلح في «الآداب» (٣ / ٣٦١): في إسناده انقطاع، وقال في «فتح المجيد»: إسناده ضعيف، وكذا ضعفه الشيخ أحمد شاكر في تعليقه علىٰ «المسند» رقم (١٨٢٤).

وأخرجه أبو يعلىٰ كما في «المطالب العالية» (٢ / ٣٥٤) من حديث أبي أمامة.

[٢٨]

باب:
ما جاء في التنجيم

قال البخاري في صحيحه: قال قتادة: خلق الله هذه النجوم لثلاث: زينة للسماء، ورجوماً للشياطين، وعلامات يهتدى بها، فمن تأول فيها غير ذلك أخطأ، وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به».

وكره قتادة تعلم منازل القمر، ولم يرخص ابن عيينة فيه، ذكره حرب عنهما، ورخص في تعلم المنازل: أحمد، وإسحاق.

وعن أبي موسى، قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يدخلون الجنة: مدمن خمر، وقاطع رحم، ومصدق بالسحر»، رواه أحمد، وابن حبان في صحيحه.

■ ■ ■ ■ ■

• فيه مسائل:

الأولى: الحكمة في خلق النجوم.

الثانية: الرد على من زعم غير ذلك.

الثالثة: ذكر الخلاف في تعلم المنازل.

الرابعة: الوعيد فيمن صدق بشيء من السحر، ولو عرف أنه باطل.

■ ■ ■ ■ ■

●● الشرح ●●

باب:
ما جاء في التنجيم

التنجيم: هو الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية، هكذا عرفه شيخ الإسلام ابن تيمية.

والمراد **بالأحوال الفكلية**: دوران الشمس والقمر، وكذلك سائر النجوم، طلوعاً وغروباً، واجتماعاً، وافتراقاً، والاستدلال بذلك على الحوادث الأرضية هذا هو التنجيم.

والمنجم: هو الذي يقول: باجتماع هذا النجم وهذا النجم يحصل في الأرض كذا وكذا، وبطلوع هذا النجم متأخراً سيحدث ريح فيها كذا، وسيحدث عواصف فيها كذا، أو مثلاً بطلوع هذا النجم في الشتاء أو في الصيف أو ما أشبه ذلك سيحدث في الأرض وباء، أو يحدث خصب أو جدب وقحط، أو ما أشبه ذلك، هذا هو التنجيم.

والتنجيم بلا شك تدخل في علم الغيب؛ لأن علم الغيب لا يعلمه إلا الله: **﴿قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾** [النمل: ٦٥]، وفي الحديث: **«خمس لا يعلمهن إلا الله»**(١)، أي: مفاتح الغيب المذكورة في قوله: **﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾** [لقمان: ٣٤] الآية.

فالذي يدعي معرفة الحوادث بالنجوم يكون قد تدخل في علم الغيب،

---

(١) سبق تخريجه في الباب الخامس والعشرين، (باب ما جاء في الكهان ونحوهم).

فيكون بذلك منازع لله فيما هو خاص به، فيحدث بذلك النقص في توحيده، وهذا هو سبب إدخال هذا الباب في كتاب التوحيد.

فالذي يدعي علم الغيب قد ادعىٰ أن هذا يصلح له ولو ادعىٰ ذلك بتلك القرائن، وبتلك الأحوال الفلكية، مع أنها لا تدل علىٰ ذلك، ولكنه يتخرص، أو يستوحي من الشيطان، أو نحو ذلك.

نقول بعد ذلك: كيف نعامل المنجمون؟ وماذا نعمل معهم؟

نقول: إما أن يكون ما يقولونه وقع صدفة، وظنوا ذلك مجرد الظن، فصادف ما قالوه، وحدث كما أخبروا، وذلك لا يدل علىٰ صدقهم، أو علىٰ صحة ما يقولونه.

وإما أن نقول: إنهم يستوحون من الشيطان شيئاً من الأمور التي يطلع عليها، ويقولون استدللنا عليه بالنجم الفلاني، أو بالحال الفلانية، أو ما أشبه ذلك، وهم كاذبون وإنما استدلوا عليه باسم الشيطان، فيكونون مثل الكهان الذين توحي إليهم الشياطين؛ قال تعالىٰ: **﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾** [الشعراء: ٢٢١ ـ ٢٢٣]، وهذا هو الموقف منهم.

وبالجملة فإن الاستدلال بعلم النجوم، وسيرها واجتماعها وافتراقها علىٰ أنه يحدث كذا وكذا، هذا لا نعتقده، لأن في اعتقاده إبطالاً للحكمة، وحكمة الله أنه هو سبحانه الذي يتصرف في العباد، قال تعالىٰ: **﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا﴾** [الإسراء: ٤١]؛ أي: يعني: قد صرفنا بينهم المطر، فيكون تارة عند هؤلاء، وتارة يكون عند أولئك، وتارة يكون علىٰ هذه البلاد، وتارة علىٰ تلك، فهو تصرف من الله، فلو أسندنا إلىٰ هذه النجوم وهؤلاء المنجمين الأمطار

والقحط والجدب لبطلت بذلك حكمة الله وتصريفه، وأدىٰ بذلك الاعتقاد إلىٰ أن الأفلاك هي التي تنشيء السحاب، وهي التي تثير الرياح، وهي التي تنزل المطر، وأدىٰ الأمر بعد ذلك إلىٰ أنه طبيعة، وليس لله تصرف في شيء من ذلك، وهذه هي عقيدة الكفرة والطبائعيين، وهذا هو السبب في إنكار السلف، وحملهم بشدة علىٰ أن ينكروا الانكار الشديد علىٰ من ادعىٰ علم الغيب بواسطة التنجيم.

أما ما يقال عن الأرصاد الجوية الفلكية؛ فهي عبارة عن أدوات كهربائية تحدث إشارات تدل علىٰ اتجاهات هبوب الرياح جنوباً أو شمالاً، شرقاً أو غرباً، فمثلاً إذا قاسوها وقالوا: هبوب الرياح تكون كذا وكذا فهو حساب تقريبي قد يقع كما قالوا وقد لا يقع.

فالحاصل أن علم الغيب في الأمور المستقبلة خاص بالله، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ [لقمان: ٣٤]، فكذلك إثارة السحب وإنزال المطر وما أشبه ذلك، هذا علمه عند الله، ولو مثلاً قال أحدهم: بالآلآت التي تسمىٰ الأرصاد الجوية التي يعرف بإشاراتها، أو برموز فيها، بأنه يكون غداً أمطار أو كذا وكذا، فإنها لا تدل يقيناً ومطابقة علىٰ ذلك، إنما هو حساب تقريبي، بل الله تعالىٰ هو الذي يرسل الرياح وينزل الغيث ونحو ذلك.

وقد تقدم لنا حديث في باب: شيء من أنواع السحر، وهو قوله ﷺ: **«من اقتبس شبعة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد»**(١)، ومعنىٰ اقتبس: يعني تعلم وأخذ، كأنه من القبس، والقبس: هو النار الصغيرة التي تؤخذ ليوقد بها نار أخرىٰ، وهو المذكور في قوله تعالىٰ: ﴿آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ

---

(١) سبق تخريجه في الباب الرابع والعشرين (باب شيء من أنواع السحر).

تَصْطَلُونَ﴾ [النمل:٧]، وقوله تعالىٰ: ﴿لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ [طه:١٠] فالقبس: هو ما يستضاء به، أو ما يوقد به.

فقوله: «اقتبس»، يعني: أخذ قبساً وقطعة فأخذ شيئاً منه، والشعبة: القطعة، **فمن اقتبس شعبة**، يعني: من أخذ وتعلم شعبة وقطعة من النجوم، يعني: من علم التنجيم، فقد اقتبس شعبة من السحر، «**زاد ما زاد**»، أي: كلما زاد المنجم فقد زاد حظه من السحر.

وقد مر بنا قول ابن عباس في المنجمين: «ما أرى من فعل ذلك له عند الله من خلاق»(١)، والمنجمون يستدلون بالنجوم على الأمور الغيبية، فينظرون في النجوم نظراً يستدلون به على الأمور المستقبلة، فيكونون بذلك مشركين وكهنة، وليس لهم عند الله من خلاق، فابن عباس أراد الذين تدخلوا في علم الغيب بالنظر في النجوم، وبكتابة أبي جاد، كقولهم: إذا اجتمع الحرف هذا مع الحرف هذا دل على كذا وكذا، كأن يدل على شقائه، أو يدل على سعادته، أو يدل على ملك، أو يدل على سلب، أو ما أشبهه، فهؤلاء ليس لهم عند الله من خلاق، وشبههم بالسحرة، وقد وصفهم الله بأنهم لاخلاق لهم في الآخرة في قوله تعالىٰ: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ﴾ [البقرة:١٠٢].

فمن هذا نعرف أن التنجيم نوع من التدخل في علم الغيب يلحق بالكهانة، وإذا تظاهر بعلم الغيب فإنه يكفر بذلك، فالإنسان الذي يصدق الكاهن بما يقول قد كفر، فكذلك المدعي الذي يتعاطى الكهانة أولى أن يلحق به.

---

(١) في البالب الخامس والعشرين (باب ما جاء في الكهان ونحوهم).

وقد كثر المنجمون في القرون الوسطى، القرن الثالث والرابع والخامس في العصر العباسي، وصاروا مقربين من الملوك، وصار الملوك يسترشدون بهم ويستشيرونهم، فإذ أراد أحدهم أمراً سأل منجمه هل هذا الأمر ليّ أم عليّ؟ هل فيه خير لي أم لا؟ والمنجم يجيبه بكذا وكذا، ويعمل الملك بما يقوله المنجم، فتارة يصيبون من باب المصادفة وكثيراً ما يخطئون، ولكن الملوك وعوام الناس لا يعتبرون بأخطائهم، ومع الأسف أن حكاياتهم تنشر كثيراً في كتب التأريخ والقصص والتراجم، فتجد أن الملك فلان يقول له منجمه: إنك تحصل على كذا، أو سيحصل في هذه السنة غرق كغرق نوح ونحو ذلك.

وهذا دليل على أن المؤرخين يحشدون في كتبهم كل ما يجدون من حكايات وقصص وروايات غالبها قائم على التنجيم، ويعتمد على أقوال المنجمين دون تمحيص وتدقيق، فيكون فيها الكذب والتلبيس والتدليس.

لكن ابن القيم رحمه الله في كتابه مفتاح دار ا لسعادة تعرض لذلك في الجزء الأخير، وبين أكاذيبهم، ووقائعهم، وسرد شيئاً من الحكايات التي قالوها ووقع بخلافها، مما يدل على أنهم كاذبون أفاكون، وأنهم يظنون ظناً، وليسوا على يقين.

فمن هذا نعرف أن المنجمين ليس عندهم يقين، وليس لديهم أثارة من علم؛ بل هم تعلموا من أساتذتهم وسحرتهم أن اجتماع النجم الفلاني مع النجم الفلان، أو طلوع حمرة على النجم الفلاني يحدث به ويحصل به كذا وكذا، وتعلموا من كتب أكثر ما فيها ضلالات وجهالات عكفوا عليها فاعتقدوها يقيناً وواقعاً، فكان ذلك السبب في معرفتهم تلك التخرصات التي لا تسمن ولا تغني

من جوع؛ بل ثمرتها وبال وعار ونار عليهم يوم القيامة، يوم تبلىٰ السرائر، وينكشف الغطاء، ويبرزون لله الواحد القهار.

■ قوله: [**قال البخاري في صحيحه: قال قتادة: خلق الله هذه النجوم لثلاث: زينة للسماء، ورجوماً للشياطين، وعلامات يهتدى بها، فمن تأول فيها غير ذلك أخطأ، وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به»**[1]]:

قتادة؛ هو ابن دعامة، عالم مشهور من سادة التابعين، ومن تلامذة الصحابة، ولد أعمىٰ، ولكن كان فهمه حاداً، وذاكرته قوية، فإذا سمع من صحابي وحدثه بحديث، حفظ ما حدثه به؛ حيث رزقه الله ذاكرة حادة، وقد ذكروا أن قتادة تتلمذ علىٰ أحد الصحابة أياماً قليلة، فقال بعد ذلك الصحابي: نزفت ما عندي يا أعمىٰ.

وهذه الثلاثة التي ذكرها قتادة استنبطها من القرآن؛ لأن الله تعالىٰ ذكر الحكمة في خلق النجوم في عدة آيات، تعود تلك الحكم والمصالح إلىٰ ثلاثة أشياء:

أولاً: زينة للسماء: قال الله تعالىٰ: ﴿**وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ**﴾[الملك: ٥]، والمصابيح: هي هذه النجوم، وقال تعالىٰ: ﴿**وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ**﴾ [فصلت: ١٢]، فأخبر أنه جعلها زينة للسماء الدنيا التي تلينا، فإذا كانت الليلة مظلمة ليس فيها قمر، وظهرت هذه النجوم في السماء كان ذلك زينة لها.

---

(١) أخرجه البخاري تعليقاً في كتاب بدء الخلق، باب في النجوم (٦/ ٢٩٥).
وأخرجه عبد الرزاق في «التفسير» كما في «الدر المنثور» (٣/ ٣٢٨)، وعبد بن حميد في «التغليق» (٣/ ٤٨٩) موصولاً. و ابن جرير الطبري في «التفسير» (١/ ٩١، ٢٩/ ٣)، وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ كما في «الدر المنثور» (٣/ ٣٢٨) مطولاً.

ولاشك أنها مركبة، كل نجم مركب في فلك يسير به ذلك الفلك، أو يسير وهو معلق بذلك الفلك، كما يشاء الله تعالىٰ، خلافاً لمن يزعم أن النجوم ثابتة ولا تتحرك، وأن الأرض هي التي تتحرك، فإن هذا خلاف ما هو مشاهد؛ لأننا نشاهد نجوماً ثوابت، لا تتزعزع، ولا تتحرك، فنجم الجدي الذي هو القطب ثابت، كما ثبته الله في مكانه، فلو كانت الأرض هي التي تدور بأهلها لغاب عنا هذا النجم في وقت من الأوقات، فإنا نشاهده أول الليل وآخره في موضعه.

كذلك أيضاً النجوم السُّبَّع، والتي تسمىٰ بنات نعش، هذه أيضاً تدور حول ذلك النجم، ولكنها دورة خاصة، ولا تغيب عن البلاد الشمالية، فأهل البلاد الشمالية يشاهدونها تدور، ولا تغيب أول الليل ولا آخر الليل، فلو كانت الأرض هي التي تدور لغابت عنهم وخفيت.

كذلك النجمان اللذان يسميان بالفرقدين لا يغيبان عنا، ويدوران حول نجم الجدي، ويسمىٰ الجميع القطب، والقطب بمعنىٰ: أنه ثابت في موضعه.

وكذلك أيضاً من النجوم الخنس التي ذكرها الله بقوله: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ﴾ [التكوير: ١٥]، هذه الخنس هي خمس نجوم، وهي عطارد وزحل والمشتري والمريخ والزهرة، هذه النجوم الخنس سميت بذلك لأنها لا تتوسط السماء، بل تخرج في المشرق ثم ترتفع، يعني: في أول الشهر تجد نجم المريخ يطلع مع الفجر، ولكن بعد شهر أو بعد شهر ونصف تجده وقت الفجر قد ارتفع، أي: طلع قبل الفجر بثلاث ساعات، ثم يبدأ في التأخر حتىٰ يغيب، يعني: يبدأ يطلع قبل الفجر بساعتين إلا دقيقتين مثلاً، ثم ساعتين إلا أربع دقائق، ثم ساعتين إلا ست دقائق، إلىٰ أن يطلع مع الفجر، ثم يطلع بعد الفجر، إلىٰ أن يغيب.

وهذا دليل علىٰ أن جهته خاصة، ولهذا فهو ليس كالنجوم الأخرىٰ، فكل

نجم يتقدم غالباً، فنجم الثريا إذا طلع في هذا اليوم مع الفجر يطلع غداً قبل الفجر بخمس دقائق، ويطلع في اليوم الثالث قبل الفجر بعشر دقائق، وهكذا إلى أن يطلع قبل الفجر بساعة، ثم بساعات، وربما يطلع وقت المغرب، وربما يطلع وقت العصر، ويطلع وقت الظهر، ونحو ذلك، كل يوم يتقدم.

وهذا دليل على أنها تسير، وأن سيرها أسرع من سير الشمس، فالشمس تقطع هذا الفلك في أربع وعشرين ساعة، وهذا النجم يسبقها فيقطعها في أربع وعشرين إلا خمس دقائق، فدل على أنها كلها سائرة وسيرها يختلف إسراعاً وتأخيراً، فبعضها يطلع من الجانب الأيمن، وبعضها من الجانب الأيسر.

فهذا كله دليل على أنها في أفلاك، قال تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠].

ثانياً: رجوماً للشياطين؛ أي: ترجم بها الشياطين، فهذه الشهب التي نشاهدها والتي تسمى النيازك هي التي ترجم بها الشياطين، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦) وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ (١٧) إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ [الحجر: ١٦-١٨]، وهذا دليل على أن الشياطين تصعد إلى السماء لاستراق السمع، ولكن تتبعها هذه الشهب التي هي النيازك، وترجم بها فتحرقها.

وقال تعالى: ﴿لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلإِ الأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ (٨) دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (٩) إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ٨-١٠]، فدل على أنهم يحرصون على استراق السمع، ولكن يرجمون بهذه الشهب التي تحرقهم أو تبعدهم حراسة للسماء من هذه الشياطين المسترقة، وذلك لكي لا يلتبس الحق بالباطل، ولكي لا يكثر الدجالون، ومع ذلك فإن الشيطان قد يوصل

ما استرقه إلى وليه من الإنس، سواء كان ساحراً أو كاهناً، فيفشي تلك الكلمة التي سمعت من السماء كما تقدم فيكذب معها كذباً كثيراً.

فالحاصل أن من الحكم في خلق النجوم كونها رجوماً للشياطين.

ثالثاً: علامات يهتدى بها: فيستدل بها المسافرون في الليل، فإنها علامات واضحة، قال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٥، ١٦]، فجعل النجم من جملة ما يهتدون به، يعني: مما يستدلون به في سيرهم، وهي فائدة عظيمة، يستدلون بها في البر وفي البحر وفي الجو.

وكذلك قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٧]، فدلنا على أن هذه النجوم خلقت لفوائد عظيمة، ومنها كونهم يستدلون بها على جهة سيرهم حتى لا يضلوا الطرق.

فأما إذا استدل بها مُستدلٌ على الحوادث، وعلى الوقائع التي تقع في الأرض، أو على أنه سيحدث في نجم كذا قحط، أو موت، أو طوفان، أو ما أشبه ذلك، فإن هذا خطأ وضلال مبين، ومن تأول فيها غير ذلك، واعتقد أنها دالة على علم الغيب أخطأ، وأضاع نصيبه من العلم، وأضاع حياته، وأضاع نصيبه من الدين، وتكلف ما لا علم له به، أي: تدخل فيما لا يعنيه، فإن هذا مما لا يعلمه إلا الله: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]، أما إذا كان ذلك الاستدلال بأجهزة وبأدوات محسوسة فإن هذا يدخل فيما يدرك بالاحساس.

▪ **قوله: [وكره قتادة تعلم منازل القمر، ولم يرخص ابن عيينة فيه، ذكره حرب عنهما، ورخص في تعلم المنازل: أحمد، وإسحاق**(١)]:

قال الله تعالىٰ: **﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾** [يس: ٣٩]، وقال تعالىٰ: **﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾**[يونس: ٥].

وقد ذكر الشارح في تيسير العزيز الحميد أن علم التنجيم **ثلاثة أقسام:**

فالأول: القول بأن الموجودات في العالم السفلي مركبة علىٰ تأثير الكواكب والروحانيات، وأن الكواكب فاعلة مختارة، قال: وهذا كفر بإجماع المسلمين.

الثاني: الاستدلال علىٰ الحوادث الأرضية بمسير الكواكب، واجتماعها وافتراقها، ونحو ذلك، ويقول: إن ذلك بتقدير الله ومشيئته، ولا ريب في تحريم ذلك، واختلف المتأخرون في تكفير القائل به، وينبغي أن يقطع بكفره، لأنه دعوىٰ لعلم الغيب الذي استأثر الله تعالىٰ بعلمه بما لا يدل عليه.

إلىٰ أن قال بعد ذكر كلام الماتن في علم المنازل: **هذا هو القسم الثالث من علم التنجيم:** وهو تعلم منازل الشمس والقمر للاستدلال بذلك علىٰ القبلة، وأوقات الصلاة، والفصول... إلخ.

وقد أخبر الله تعالىٰ أنه جعل القمر منازل، وهي التي ينزل فيها كل ليلة من الشهر، وبين الحكمة، وهي العلم بعدد السنين والحساب، وهذا العلم بحاجة إلىٰ تعلم.

وقد ذكر أهل الحساب أن المنازل أربعة فصول وهي: الشتاء، والربيع،

---

(١) ذكره ابن رجب في «كتاب فضل علم السلف علىٰ الخلف» (٣١، ٣٢).

والصيف، والخريف، ولكل فصل سبعة أنجم، وأيام كل نجم ثلاثة عشر يوماً، ومجموع أيام السنة الشمسية ثلاثمائة وخمسة وستون يوماً، مقسمة على اثني عشر برجاً، جمعها بعضهم بقوله:

حمل الثور جوزة السرطان
ورعى الليث سنبلة الميزان
ورمت عقرب بالقوس جدياً
وارتوى الدلو من بركة الحيتان

وإذا كان قتادة وهو من أئمة التابعين كره تعلمها، ولم يرخص فيه الإمام سفيان بن عيينة، فإن ذلك دليل على كراهة السلف لكل ما يقرب من علم التنجيم الذي هو علم التأثير، و هو اعتقاد تأثير النجوم في العالم السفلي، فكرهوا علم التسيير، وهو تعلم سير القمر والنجوم، مع ما فيه من الفائدة التي هي معرفة القبلة، والمواقيت للصلوات ونحوها، وكذلك معرفة أوقات البذور والحصاد والغراس الذي يحتاج إليه الفلاحون، فلذلك رخص الإمام أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهوية فيه، وهما قدوة في الدين، ومن الأئمة المشهورين، فمن تعلم المنازل لمعرفة الحساب والمواقيت، والجهات في السير، فهو جائز، لقوله تعالى: ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦].

وقوله تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾ [يس: ٣٩]. أي: أن للقمر منازل، وهذه المنازل ثمانية وعشرون منزلاً، وسميت: منازل؛ لأن القمر ينزل في كل ليلة في واحدة حتى يتم ثمانية وعشرون ليلة، ثم يستتر ليلة إذا كان الشهر ناقصاً، أو يستتر ليلتين إذا كان الشهر كاملاً.

وهذه النجوم الثمانية والعشرون مقسمة على أربعة فصول، لكل فصل سبعة أنجم:

فالشتاء: سبعة أنجم، وهي: الإكليل، والقلب، والشولة، والنعايم، والبلدة، وسعد الذابح، وسعد بلع.

والربيع: سبعة أنجم، وهي: سعد السعود، وسعد الأخبية، والمقدم، والمؤخر، والرشا، والشرطين، والبطين.

والصيف: سبعة أنجم، وهي: الثريا، والدبران، والهقعة، والهنعة، والذراع، والنثرة، والطرف.

والخريف: سبعة أنجم، وهي: الجبهة، والزبرة، والصرفة، والعواء، والسماك، والغفر، والزبانا.

■ **قوله**: [**وعن أبي موسى، قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يدخلون الجنة: مدمن خمر، وقاطع رحم، ومصدق بالسحر»**(١)**، رواه أحمد، وابن حبان في صحيحه**]:

وهذا وعيد شديد لهؤلاء بأنهم لا يدخلون الجنة جزاء لهم، وعقوبة لهم، وإذا لم يدخلوا الجنة، فإنهم من أهل النار، إما دائماً وإما مؤقتاً.

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٣٣٩)، وابن حبان(١٣٨١،٣٨٠)، وأبو يعلى في «المسند» رقم (٧٢٤٨)، والطبراني كما في «المجمع» (٥/ ٧٤)، والحاكم (٤/ ١٤٦).
قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي: رواة أحمد وأبو يعلى والطبراني، ورجال أحمد وأبي يعلى ثقات، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» رقم (٢٥٩٧).
ويشهد له حديث ابن عمرو، أخرجه النسائي (٨/ ٣١٨)، وابن حبان (١٣٨٣).
ويشهد له أيضاً حديث أبي سعيد الخدري، أخرجه أحمد (٣/ ١٤، ٨٣)، والبزار كما في «المجمع» (٥/ ٧٤).
والحديث حسن بمجموع الطرق والشواهد.

أولهم: **مدمن الخمر**، يعني: المستمر على شربها، والخمر هي كل ما يخمر العقل، أي: يغطيه من الأشربة التي تشرب للتلذذ بها، وهي محرمة شرعاً، والعقوبة عليها كما شرع الله على لسان رسوله ﷺ أنه قال: «**إذا شرب فاجلدوه، ثم إن شرب فاجلدوه، ثم إن شرب فاجلدوه، ثم إن شرب الرابعة فاقتلوه**»[1].

إذا لم يتأثر الإنسان بالجلد ويترك شرب الخمر فإنه يقتل، وذلك لأنه قد ألف هذا المنكر وصار عادة وطبعاً له يصعب جداً أن يتخلص منها، فالراحة أن يقتل هذا المدمن حتى ترتاح منه البشرية، وذلك لأنه قد يفسد على الناس حياتهم، لأنه بتعاطيه لهذا الشراب يزول عقله، وبزوال عقله يحصل منه أضرار ومفاسد على نفسه، وعلى المجتمع.

الثاني: قاطع الرحم، والرحم هم القرابة، وقطعهم معناه هجرانهم، يعني: مقاطعتهم من السلام والزيارة والكلام والحقوق، وما أشبه ذلك، سواء كانوا من أقارب الأب، أو من أقارب الأم، سواء كانوا من الأصول، أو الفروع، من الأجداد، أو من الأبناء أو البنات، أو أولادهم، أو نحو ذلك.

هؤلاء لهم حق القرابة، وقد قال الله تعالى: ﴿**وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ**﴾ [الإسراء: ٢٦]، فالذي لا يؤتيهم حقهم، ويزيد على ذلك، أنه يسيء إليهم ويسبهم،

---

(١) أخرجه أحمد (٤ / ٩٣)، والترمذي برقم (١٤٦٩)، وأبو داود برقم (٤٣١٧)، وابن ماجة برقم (٢٥٧٣)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٦٣٠٩).

قال الشيخ ابن جبرين: وله طرق وشواهد ذكرها الشيخ أحمد محمد شاكر في «تحقيق المسند» برقم (٦١٩٧)، ثم طبعه في رسالة مفردة.

وأكثر العلماء على أن القتل نسخ، وروى أبو داود برقم (٤٣٢٠)، من حديث قبيصة بن ذؤيب أن النبي ﷺ أتي بالشارب في المرة الرابعة فلم يقتله.

والحديث مرسل كما ذكر الحافظ في «الفتح»، ورجال الحديث ثقات.

قال الشيخ ابن جبرين: والصحيح عدم النسخ، لكثرة طرق الحديث وشواهده.

ويوصل إليهم أضراراً، متوعد بهذا الوعيد، أنه لا يدخل الجنة، كما في هذا الحديث.

الثالث: وهو الشاهد هنا مصدق بالسحر: ولم يقل: ساحر، بل قال: مصدق بالسحر، وإذا كان هذا حال المصدق فكيف بالمتعاطي؟ لاشك أن ذنبه أكبر، فإن الذي يفعل نفس السحر ويتعاطاه ذنبه أكبر من الذي يصدقه، فالذي يصدقه هو الذي يصوب حال هذا الساحر، ويقول هذا صادق، وهذا محق، وهذا على صواب، ونحو ذلك، وهو متوعد بهذا الوعيد، ويدخل في السحرة المنجمون، فإنهم من السحرة.

والدليل على أن المنجم ساحر، الحديث الذي تقدم، قوله ﷺ: **«من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد»**[1]، فإن الساحر يعم المنجم الذي يتعاطى علم التنجيم كذلك، والله أعلم.

■ ■ ■ ■ ■

---

(١) سبق تخريجه في الباب الرابع والعشرين (باب بيان شيء من أنواع السحر).

[٢٩]

باب:
ما جاء في الاستسقاء بالأنواء

وقول الله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾[الواقعة: ٨٢].

وعن أبي مالك الأشعري، أن رسول الله ﷺ قال: «أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر بالأحساب، والعطن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة».

وقال: النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة، وعليها سربال من قطران، ودرع من جرب»، رواه مسلم.

ولهما، عن زيد بن خالد، قال: صلى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية، على إثر سماء كانت من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس، فقال: «هل تدرون ماذا قال ربكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب».

ولهما، من حديث ابن عباس، معناه. وفيه: قال بعضهم: لقد صدق نوء كذا وكذا، فأنزل الله هذه الآيات: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٧٥، ٨٢].

• فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية الواقعة.

الثانية: ذكر الأربع التي من أمر الجاهلية.

الثالثة: ذكر الكفر في بعضها.

الرابعة: أن من الكفر ما لا يخرج من الملة.

الخامسة: قوله: «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر»، بسبب نزول النعمة.

السادسة: التفطن للإيمان في هذا الموضع.

السابعة: التفطن للكفر في هذا الموضع.

الثامنة: التفطن لقوله: لقد صدق نوء كذا وكذا.

التاسعة: إخراج العالم للتعليم للمسألة بالاستفهام عنها، لقوله: «**أتدرون ماذا قال ربكم؟**».

العاشرة: وعيد النائحة.

■ ■ ■ ■ ■

الشرح

باب:
ما جاء في الاستسقاء بالأنواء

ليس هناك فرق بين هذا الباب والباب الماضي، فهذا الباب هو باب: ما جاء في الاستسقاء بالأنواء، والباب الماضي هو باب: ما جاء في التنجيم، والتنجيم هو: النظر في النجوم، والأنواء هي: مطالع النجوم ومغاربها، فلماذا لم يجعلها باباً واحداً؟!

والجواب: أن الباب الماضي في الذين يستدلون بسير النجوم اجتماعاً وافتراقاً على الحوادث، فيتدخلون في علم الغيب، وهذا الباب في الذين ينسبون نزول المطر إلى النوء الفلاني، طلوعاً أو غروباً، إما أنهم ينسبون إليه إحداث المطر، أو أنهم يستدلون بطلوعه على وجوب نزول المطر أو نحو ذلك.

وعلى كلٍ فالأصل أن بين البابين فرقاً يسيراً، و هو اعتقادهم أن طلوع هذا النجم أو غروبه يستدل به على حدوث مطر، ومنهم من ينسب إليه المطر بأنه الذي أثار الرياح وأثار السحب، وأنزل المطر، فالله تعالى هو المتصرف، وهو الذي ينشئ السحب، وهو الذي ينزل المطر، وهو الذي ينبت النبات، فليس للنجوم أثر، وإنما النجوم مسيَّرة، والأنواء مسخَّرة، ليس لها تأثير، ولو اعتقد فيها من اعتقد.

وقد ذكرنا أن علم التنجيم، يعني: الاستدلال بالنجوم مشتهر منذ القدم قبل الإسلام، وأن أهله الذين يعتمدونه يُسمون: المنجمين، وأنهم متمكنون قبل الإسلام، حتى في الأمم السابقة، كقوم إبراهيم فقد كانوا حزائين، والحزاء: هو

الذي ينظر في النجوم ليستدل بها، وإبراهيم خالفهم في ذلك إلا أنه وافقهم مرة حيلة، وقد حكى الله عنه شيئاً من ذلك، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ (٨٣) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥) أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (٨٦) فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٧) فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (٨٨) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٣، ٨٩].

فيذكرون أنه نظر في النجوم، فقال: إن هذا النجم دل على أنه سيصيبني سقم، أو استدللت على أنه سيصيبني سقم؛ أي: مرض، وذلك بقرب مناسبة خروجهم فتأخر بعض الوقت ليكسر أصنامهم، بعذر أنه سقيم، فهو لم ينظر في النجوم إلا مجاراة لهم، أو حيلة.

وأما نظره في النجوم مرة أخرى، فهو من باب المناظرة، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٧٦، ٧٨]، فنظره هذا في هذه الكواكب من باب المناظرة، كأنه قال: انظروا إذا كنتم مثلاً تنظرون في النجوم وتستدلون بها، انظروا هذا النجم، هل يبقى؟ فلما أفل، قال: هذا لا يصلح، وكذلك القمر أفل؛ يعني: غاب، وكذلك الشمس لما أفلت، أعلمهم أن هذه الأشياء التي تغيب لا تصلح أن تكون معبودة، فعند ذلك قامت عليهم الحجة، فقال: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[الأنعام: ٧٨، ٧٩].

فإذا كان النظر في النجوم من أجل الاستدلال على مطالعها ومغاربها، ومعرفتها لكي يُهتدى بها في السير، ولكي يعرف الغروب والشروق، وتعرف

نجوم الشتاء، ونجوم الصيف، ونجوم الربيع، ونجوم الخريف، ولكي يعرف بذلك أوقات الشتاء والصيف والخريف والربيع، وأوقات إنبات البذور، وأوقات غرس الأشجار، وما أشبهه، فهذا لا بأس به.

فأما إن كان النظر فيها نظر استدلال بها على أمور مستقبلة فهذا تدخل في علم الغيب، مثل الاستدلال بها على نزول أمطار، أو الاستسقاء بها، فإن اعتقد أن النجم نفسه هو الذي يثير السحب فقد جعل مع الله متصرفاً، وقدجعل مع الله مدبراً ورازقاً، فيكون ذلك شركاً في الربوبية يستدعي الشرك في الإلهية، وكذلك إن اعتقد أن طلوع هذا النجم أو غروبه دلالة وأمارة على أمور مستقبلة؛ فذلك أيضاً تدخل في علم الغيب، وهو لا يجوز: ﴿**قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ**﴾ [النمل: ٦٥].

وبذلك نكون قد عرفنا الفرق بين البابين.

ولما كان هناك أناس يتعلمون النجوم للاستدلال بها على الحوادث صاروا منجمين، وهناك أيضاً أناس يستسقون بالأنواء، وليس معناه أنهم يقولون للنجم: اسقنا، أو يطلبون من النوء أو النجم أن يسقيهم، ولكن ينسبون السقيا إليه، فيقولون: هذا المطر بسبب النجم الفلاني، أو النوء الفلاني، كما في حديث ابن عباس الذي سيأتينا في هذا الباب حيث جاء فيه: «**لقد صدق نوء كذا وكذا**»(١)، وكذلك في حديث زيد بن خالد الذي سيأتينا في هذا الباب أيضاً، وقد جاء فيه: «**وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب**»(٢). فدل هذا على أنهم ينسبون السقيا إلى الكوكب، فيقولون: صدق

---

(١) سيأتي تخريجه قريباً في هذا الباب.

(٢) سيأتي تخريجه قريباً في هذا الباب.

نوء كذا، وهذا بسبب نوء كذا، أو ظننا في نوء كذا أنه سيثير مطراً فصدق ظننا.

والأنواء: واحدها نوء، وهو النجم إذا طلع أو إذا غرب، وتسمى الأنواء، لأنه كلما غرب واحد ناء واحد مقابله، فإذا غرب هذا في الفجر طلع هذا في الفجر، والطلوع يسمى نوءاً، ناء النجم؛ يعني: طلع؛ أي: بدا وظهر، فلذلك سميت أنواء، من ناء؛ يعني: ظهر وبرز، ثم بعد ذلك أطلق على واحد النجوم: نوء.

وقد جاء في حديث أبي هريرة: «**لا عدوى، ولا طيرة، ولا هامة، ولا صفر**»(١)، وفي رواية: «**ولا نواء، ولا غول**»(٢)، يعني: ليس للنوء حقيقة، وليس للنوء تأثير، وليس للاعتقاد أن الأنواء تثير الرياح وتثير السحب أصل أبداً، إنما هو من خرافات الجاهلين وتخرصاتهم.

والاستسقاء بالأنواء أو نسبة المطر إلى الأنواء لا يزال باقياً، كما في حديث أبي مالك الذي سيأتينا في هذا الباب؛ حيث أخبر النبي ﷺ بأن من جملة ما يبقى في أمته ولا ينقطع الاستسقاء بالأنواء.

■ **قوله: [وقول الله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾** [الواقعة: ٨٢]]:

ذكر في حديث ابن عباس(٣) أن هذه الآية نزلت في المشركين الذين ينسبون الرزق إلى الأنواء، وينسون أنها من الله تعالى، فأنكر الله تعالى عليهم، حيث بدلوا نعمة الله كفراً، وجعلوا جزاء الخير والرزق من السماء التكذيب، والإنكار لفضل الله تعالى.

---

(١) سبق تخريجه، ص.

(٢) سبق تخريجه، ص.

(٣) حديث ابن عباس أورده المصنف في آخر هذا الباب وسيأتينا تخريجه.

والمعنى: أنكم تجعلون شكر الرزق الذي هو المطر والغيث من الله تعالىٰ أنكم تكذبون بكونه من رزق الله وتيسيره، ثم تنسبونه إلىٰ المخلوقات، وتقولون: لقد صدق نوء كذا وكذا. أو: مطرنا بنوء كذا وكذا، مع أن الأنواء مخلوقة مدبرة، ليست هي التي تنزل المطر، ولا قدرة لها علىٰ إنشاء غيم، أو إرسال ريح، أو إحداث مطر، بل المدبر لذلك كله هو الله وحده، كما قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الأعراف: ٥٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾ [الروم: ٤٦] فهذه الأنواء من صنع الله، فلا تقدر علىٰ إرسال الرياح، ولا إنشاء السحب، ولا إنزال المطر، بل الذي يخلق ذلك كله هو الله وحده، فمن ادعىٰ أن الأنواء التي هي النجوم تحدث هذا المطر فقد كفرت نعمة الله، وأشرك به حيث جعل لغير الله شيئاً من التصرف والتدبير، والله أعلم.

■ **قوله: [وعن أبي مالك الأشعري، أن رسول الله ﷺ قال: «أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة».**

وقال: النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة، وعليها سربال من قطران، ودرع من جرب»[1]، رواه مسلم]:

أخبر النبي ﷺ في هذا الحديث عن أمور سوف تقع في أمته، وقد وقعت كما أخبر، ويمكن أنها موجودة من أول الإسلام، فأخبر بأن الأمة لا تتركها.

والمراد بالأمة: أمة الإجابة، وهم الذين صدقوه وشهدوا له بالرسالة، فهذه الأمور ونحوها مما نهىٰ عنه النبي ﷺ في دين الإسلام.

وقد أخبر أنها من أمور الجاهلية التي هي ما قبل الإسلام، وسموا جاهليين

(١) أخرجه مسلم برقم (٩٣٤).

لكثرة جهلهم، أو لأن أعمالهم كلها صادرة عن جهل، وقد علم بأن وصف الجهل وصف ذم وعيب، فكل ما أضيف إلى الجاهلية من الأخلاق فهو منهي عنه، كقوله تعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ [الأحزاب: ٣٣]، وقوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [الفتح: ٢٦].

وقد جمع الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى مسائل الجاهلية المذمومة في جزء، فبلغت نحو مائة وثلاثين مسألة، وهي بحاجة إلى شرح وإيضاح أوسع وأوفق من شرح الألوسي.

* ومنها: **الفخر بالأحساب**، الذي هو ذكر مآثر الآباء والأجداد، والتمدح بما لهم من: شجاعة، وكرم، وشهرة، و مناقب مذكورة؛ سواء تتعلق بالدين أو بالدنيا، كالعلم، والزهد، والعبادة، والكرم، والجود، والسخاء، والأخلاق والآداب، والشيم الحسنة، والعفو، والصفح، والبر والصلة، إلخ.

وقد علم أن هذه الأخلاق إنما يدمح بها من تحلى بها، ولا يتعدى أثرها إلى الفروع والذرية، وإنما يفتخر الإنسان بأفعاله وأعماله، ولا ينفعه شرف الآباء والأجداد، كما قال الشاعر:

إذا افتخرت بأقوام لهم شرف

قلنا صدقت ولكن بئس ما ولدوا

وقد ورد في الحديث عنه ﷺ قال: «**إن الله أوحى إلي أن تواضعوا، حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد**»، رواه مسلم[1].

وروى أبو داود والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٨٦٥)ـ(٦٤)، عن عياض المجاشعي رضي الله عنه.

«لينتهين أقوام يفتخرون بآبائهم الذين ماتوا... أو ليكونن أهون على الله من الجعل الذي يدهده الخراء بأنفه، إن الله قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية، وفخرها بالآباء، إنما هو مؤمن تقي، أو فاجر شقي، الناس كلهم بنوا آدم، وآدم من تراب»(١)، قال الترمذي حديث حسن.

* **وأما الطعن في الأنساب**: فيراد به عيب الرجل واتهامه بأنه ليس من القبيلة الفلانية، أو ذكر مساوئ آباء الرجل وأجداده ومثالبهم، والتنويه بالمساوئ والنقائص.

ولا شك أن ذلك يؤذي الإنسان ولو كان صحيحاً، فإن كانوا من الكفار فأمرهم إلىٰ الله تعالىٰ، ولا يضر أولادهم المسلمين كفرهم ولا نقصهم، وإن كانوا من المسلمين فلا يجوز ذكر مساوئهم بعد موتهم، لقوله ﷺ: **«لا تسبوا الأموات فتؤذوا الأحياء»**(٢)، رواه الترمذي، وقوله: **«لا تسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا»**(٣)، رواه البخاري، وفي الصحيح قوله ﷺ لأبي ذر: **«أعيرته بأمه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية»**(٤)، فلا يجوز الطعن في نسب أحد، أو تعييره بما في غيره.

* **وأما الاستسقاء بالنجوم**: فيراد به: نسبة المطر إلىٰ النجم، فإن كان باعتقاد أن النجوم هي المؤثرة في إحداث المطر وهي تنشيء السحب، وتنزل الماء منها،

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (٥١١٦)، والترمذي برقم (٣٩٥٥)، وقال: هذا حديث حسن غريب. وحسنه الأرناؤوط في تحقيق «شرح السنة» (١٣/ ١٢٤). وانظر «صحيح سنن الترمذي» (٣١٠٠).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٤/ ٢٥٢)، والترمذي برقم (١٩٨٢)، عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري برقم (١٣٩٣)، عن عائشة رضي الله عنها.

(٤) أخرجه البخاري برقم (٣٠). ومسلم برقم (١٦٦١). عن أبي ذر رضي الله عنه.

فهو كفر صريح، لأن الله تعالىٰ هو الخالق لذلك والمحدث له، وذلك باعتراف مشركي العرب، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦٣].

أما إذا كان الاستسقاء بالنجوم هو نسبته إلىٰ طلوع النجم، أو غروبه، وأنه مجرد زمن أجرىٰ الله العادة فيه بنزول المطر، فهذا قد يدخل في المنهي عنه من أمر الجاهلية، و هو معنىٰ قولهم: مطرنا بنوء كذا وكذا، أي: أنه زمنه، ولا شك أن الأزمنة والأنواء لا تأثير لها، ولا اختصاص لشيء منها بنزول المطر، بل الله تعالىٰ ينزل المطر متىٰ شاء.

والمشاهد أن البلاد تختلف، فبعضها ينزل فيه المطر كل وقت، وبعضها لا ينزل إلا في الشتاء، أو الربيع، وبعضها ينزل في الصيف، وهذه سنة الله تعالىٰ في خلقه.

* **وأما النياحة**: فالمراد بها ما يحصل من بعض النساء أو الرجال من الندب والصياح عند المصيبة، بذكر محاسن الميت بصوت رفيع، كقولهم: وامطعماه، واكاسياه، واكفلاه، أو بذكر قرابته بقولهم: واأبواه، واأخواه، واولداه، أو بذكراسمه كقولهم: واسعداه، وا زيداه، واخالداه.

ويدخل في ذلك شق الجيوب، ونتف الشعر، ونحو ذلك، وكله من أمر الجاهلية، مع أنه لا يرد فائتاً بل يفوب به أجر الصبر علىٰ المصيبة، الذي ذكره الله تعالىٰ بقوله: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥]، والله أعلم.

ثم ذكر عقوبة النياحة في الدار الآخرة، فقال ﷺ: **«النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها: سربال من قطران، ودرع من جرب»**:

وخص بالذكر النائحة؛ لأن الأكثر في النياحة وقوعها من النساء، وقد

تستأجر لذلك، وإن كانت أجنبية من أهل المصيبة لأجل أن تنوح وتنعىٰ ذلك الميت لاعتيادها ومعرفتها بالنياحة، وإن وقع من الرجال دخلوا في الوعيد.

ثم ذكر أنها إن تابت قبل الموت قبلت توبتها كسائر الذنوب، فإن التوبه تمحو الذنب، وكذا تقبل توبة الكافر، والمشرك، والقاتل، ونحوهم بشروطها المعروفة.

وقوله: «**تقام يوم القيامة... إلخ**»: ظاهره أنها تبعث من القبر في الآخرة علىٰ هذه الحالة، ويمكن أنها تبقىٰ وعليها سربال من قطران، ودرع من جرب، طوال زمن الحساب، حتىٰ يُقضىٰ بين الناس، فيرىٰ سبيلها، إما إلىٰ الجنة، وإما إلىٰ النار، ويمكن أن المراد أنها تبقىٰ بهذا اللباس، وتدخل النار كذلك، سواء كانت مخلدة، أو دخولاً مؤقتاً إلىٰ أن يكفر عنها ما اقترفت من الذنب.

والصحيح أن مثل النياحة لا يحصل به الكفر والخروج من الدين إلا مع الاستحلال، وإنكار النصوص الصحيحة في تحريم ذلك، مع أن هذا الحديث من نصوص الوعيد التي تجرىٰ علىٰ ظاهرها ليكون أبلغ في الزجر عن المحرمات، مع اعتقاد أن أهل التوحيد لا يخلدون في النار.

وقد ذكر الله تعالىٰ هذا النوع من عذاب الكفار، فقال تعالىٰ: ﴿**سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ**﴾ [إبراهيم: ٥٠]، وهو مادة شديدة الحرارة، تطلىٰ به الإبل من جربها، فينسلخ منه شعر الجلد، من شدة حرارته.

وقد روي عن ابن عباس أن المراد به النحاس المذاب(١)، وقد علم أنه لا يذوب إلا بعد أن ينصهر بالنار، فيكون شديد الحرارة؛ بحيث يمزق ما مسه من اللحم والجلد.

---

(١) انظر «تفسير ابن كثير» (٢/ ٥٤٥).

والأصل أن السربال هو اللباس الذي يستر البدن، كقوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ [النحل: ٨١] أي: لباساً يقي من الحر والبرد ونحوه، فالمعنىٰ: أنها تبعث وعليها شبه اللباس الذي يعم البدن، ولكن حرارته شديدة كالقطران.

وأما **قوله: «ودرع من جرب»**: فإن الدرع هو أيضاً ما يلبس في الحرب ليقي من وقع السلاح، والمعنىٰ: أنها تبعث وعليها ما يلتصق ببدنها من جنس الدروع، ولكنه جرب، أي: مرض وحكة شديدة، والجرب معروف، وهو: المرض الذي يكون في الإبل، بحيث يمزق الجلد، ويحصل منه موتها والألم الشديد، والله أعلم.

■ **قوله: [ولهما، عن زيد بن خالد، قال: صلى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية، على إثر سماء كانت من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس، فقال: «هل تدرون ماذا قال ربكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب»**(١)]:

في هذا الحديث ـ وهو حديث زيد بن خالد ـ ذكر هذه القصة التي وقعت في الحديبية، وكانت سنة ست من الهجرة؛ حيث نزلوا بها وهم محرمون بالعمرة، ينتظرون أن يأذن لهم أهل مكة في إكمال عمرتهم، فذات يوم نزل في الليلة قبله مطر، فلما صلىٰ بهم النبي ﷺ صلاة الصبح، ذكر لهم من شَكَرَ الله تعالىٰ بعد هذا المطر ومن كَفَرَهُ، وحكىٰ لهم كلام الله تعالىٰ بعد نزول مثل ذلك المطر، حيث أخبر بأن من اعترف بأنه فضل الله ورحمته، أنعم به علىٰ عباده، وأقر بأن الخلق

(١) أخرجه البخاري برقم (١٠٣٨). ومسلم برقم (٧١).

محتاجون دائماً إلى عطاء ربهم ومنِّه وكَرَمِهِ، ولا غنىٰ بهم عن ربهم طرفة عين، وأن المخلوقات لا تأثير لها في إنزال الغيث سواء الكواكب أو غيرها، فهؤلاء هم المؤمنون بالله وحده، المصدقون بكمال تصرفه، الكافرون بما سواه من النجوم والأفلاك ونحوها.

أما من نسب ذلك المطر إلىٰ الكواكب واعتقد أنها هي المؤثرة في إحداثه، أو أن لها سبب في إنزاله، فهذا قد كفر بالله وآمن بالكواكب، واعتقد أنها تتصرف في الكون بدون إذن الله.

فقوله في الحديث: «صلى لنا»، أي: صلىٰ بنا صلاة الصبح، أو صلىٰ معلماً لنا، ومذكراً لنا.

والحديبية بتخفيف الياء الثانية، وقيل: بتشديدها، وهو موضع قرب مكة، خارج عن حدود الحرم، ويعرف الآن بالشميسي، وفيه وقعت بيعة الرضوان، والصلح مع أهل مكة المعروف بصلح الحديبية.

وقوله: «على إثر سماء كانت من الليل»؛ أي: علىٰ إثر مطر وقع في الليلة الماضية، ويطلق علىٰ المطر (السماء) لنزوله من السماء.

وقوله: «فلما انصرف»، أي: سلم من الصلاة أو انحرف وأقبل علىٰ المصلين بوجهه، فقال: «**أتدرون... إلخ**»، وفيه إلقاء السؤال علىٰ المخاطبين حتىٰ ينتبهوا للجواب.

والمعنى: هل تدرون بما قاله ربنا تعالىٰ بعد هذه المناسبة؟ فقالوا: الله ورسوله أعلم، فردوا العلم إلىٰ عالمه، ثم أخبرهم بكلام الله تعالىٰ، وهو من الأحاديث القدسية، والأقرب أنها نزلت علىٰ النبي ﷺ بالمعنىٰ بواسطة الملك أو بالإلهام، ولذلك لا يكون لها حكم القرآن في التعبد بتلاوتها، ولاتصح الصلاة بقراءتها.

وقوله: «**أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر**»، المراد بالعباد جنس البشر، فكلهم عبيد الله، أي: ملكه وخلقه، وتحت تصرفه وتقديره، فيدخل فيهم المؤمن والكافر، وأما قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، فالمراد المؤمنون الذين عبدوا الله طوعاً واختياراً.

وقوله: «**فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب**»، أي: من اعترف بأن الغيث فضل من الله تعالى، ورحمة لعباده، ورزق منه، تفضل به عليهم، ولا تأثير لغيره فيه، بل هو وحده الذي أنشأه، وأنزله لحاجة العباد، ودفع ضرورتهم، فهذا قد أقر لله تعالى بالمن والعطاء، وآمن بتصرفه وحده، وكفر بما سواه، فهو موحد لله، مخلص له في عبادته، وكافر بالكواكب والأفلاك؛ لأنها مخلوقة لله، لا تملك نفعاً ولا ضراً، ولا تحدث خلقاً ولا أمراً.

وقوله: «**وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب**»، أي: من نسب المطر إلى الأنواء وهي الكواكب، واعتقد أنها هي المؤثرة في إنشاء السحب، وإنزال الماء من السماء، فهذا قد كفر بالله تعالى، وآمن بالكوكب، حيث جعله خالقاً ومتصرفاً، مع أنه مخلوق مسير، لا صنع له ولا تدبير، وهذا يدل على كفر من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فإن اعتقد أن النوء هو الخالق للمطر والمنزل له، فهذا كفر أكبر، وشرك بالله تعالى، سواء نطق به، أو اعتقد ذلك ولم يتكلم به، فإن الله تعالى هو الخالق لكل شيء، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الأعراف: ٥٧]، فالرياح مخلوقة لله تعالى، وكذا السحب، والماء الذي تحمله، وهو الذي يصرفه كيف يشاء، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا﴾ [الفرقان: ٥٠].

أما إن اعتقد أن الكوكب وقت وزمان لنزوله، أو أن الله أجرىٰ العادة في هذا النوء أن ينزل فيه المطر من غير اعتقاد أن الكوكب له تأثير، وإنما يحصل بالتجربة نزول المطر في هذا الوقت، فهذا لا يصير كفراً، ولكن لا ينبغي التلفظ به، بل يقول مثلاً: هذا فضل الله ورحمته، أنزله في وقت كذا وكذا، حتىٰ لا يشبه مقالة الكفار، سواء كان كفرهم شركاً أو كفر نعمة.

وموقف المسلم أن يعتقد أن الله عز وجل هو مصرف أمر الكون، وأمر الكائنات، ولا يقع شيء في الكون إلا من بعد إذنه وتدبيره، فلا تهب الرياح، ولا يسقط مطر، ولا يأفل نجم، ولا يبزغ نجم إلا بعلمه وقدره سبحانه، وإذا وقع وحدث ما قالوه فهو مجرد مصادفة لا أقل ولا أكثر، والله أعلم.

فائدة:

جاء في حديث زيد قوله ﷺ: «**وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب**».

فهل الكفر هنا هو كفر مخرج من الملة، أم أنه كفر نعمة؟

الجواب: قيل: أنه كفر مخرج من الملة، وقيل: أنه كفر نعمة، فقوله: «**كافر بي**»، قد يكون كفراً مخرجاً من الملة، وقد يكون كفر نعمة، وذلك حسب القائل.

فإذا كان القائل يعتقد متيقناً أن هذا الكوكب هو سبب إثارة الرياح، أي: جعل النوء أو النجم منشئاً، ومثيراً ومسبباً، فهذا قد كفر كفراً مخرجاً من الملة.

أما إذا كان القائل لا يعتقد ذلك؛ بل جعله آية ودليلاً وعلامة، فهذا كفر نعمة، منقص للتوحيد، وليس مخرجاً من الملة.

■ **قوله: [ولهما، من حديث ابن عباس، معناه. وفيه: قال بعضهم: لقد صدق نوء كذا وكذا، فأنزل الله هذه الآيات: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ (٧٨) لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٨٠) أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ (٨١) وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾(١)** [الواقعة: ٧٥، ٨٢]]:

حديث ابن عباس المشار إليه: رواه مسلم وحده في كتاب الإيمان، باب بيان كفر من قال: مطرنا بالنوء، ولفظه قال: مطر الناس على عهد النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «**أصبح من الناس شاكر ومنهم كافر، قالوا: هذه رحمة الله، وقال بعضهم: لقد صدق نوء كذا وكذا**»، قال: فنزلت هذه الآية: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾، حتى بلغ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٧٥-٨٢].

والظاهر أن هذه قصة قديمة؛ لأن الآيات المذكورة من سورة الواقعة وهي مكية، ويمكن أن المراد الاستشهاد بها.

وفي هذه الآيات أن الله تعالى أقسم بمواقع النجوم، أي: مطالعها ومغاربها وأفلاكها، وهي خلقه وإبداعه، والله تعالى يقسم من خلقه بما يشاء، فهذه النجوم من آيات الله تعالى، فهو الذي يسيرها ويدبرها، كما قال تعالى: ﴿وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ [النحل: ١٢].

وقد أخبر بأن هذا قسم عظيم، يدل على أهمية المقسم عليه، وهو قوله: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٧]؛ أي: هذا القرآن المنزل على قلب النبي ﷺ كريم وشريف، وله مكانته وفضله، لأنه كلام الله تعالى، فهو أفضل الكتب، والمهيمن عليها.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٧١)، وهذا الحديث ليس عند البخاري كما عزاه المؤلف هنا بقوله: (ولهما).

وقوله: ﴿فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ﴾ [الواقعة: ٧٨]، أي: في اللوح المحفوظ، ثم في صحف الملائكة، كما في قوله تعالىٰ: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ⑬ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ⑭ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ⑮ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١٣ ـ ١٥]؛ ثم كتب في المصاحف التي بأيدي البشر.

وقوله: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٩]، خبر عن الكتاب المكنون، أو عن الصحف المكرمة، ثم عن ما نسخ من القرآن، وكتب في مصاحف المسلمين؛ أي: لا يسمه إلا الملائكة السفرة، وهكذا يجب أن لا يمسه إلا المؤمنون، الذين طهروا أنفسهم بالإيمان، وكذا ينبغي أن لا يمسه، إلا المتطهرون من الأحداث والأخباث، لشرفه ومكانته، ولهذا قال: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الواقعة: ٨٠]؛ أي: أن هذا القرآن الذي لا يمسه إلا المطهرون هو منزل من الله تعالىٰ، فيجب احترامه والعمل به.

ثم قال: ﴿أَفَبِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾، أي: بهذا القرآن أو بخبر الله عنه.

والإدهان: المداراة والمداهنة، وكتمان الحق خوفاً علىٰ ا لنفس أو المال، أي: الواجب الصدع بالحق، وترك المداهنة في دين الله؛ سواء في أمر القرآن، أو في ما اشتمل عليه من الأحكام والعقائد، والله أعلم.

■ ■ ■ ■ ■

[٣٠]

باب:

قول الله تعالى:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾

قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

وعن أنس: أن رسول الله ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من: ولده، ووالده، والناس أجمعين»، أخرجاه.

ولهما عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه، كما يكره أن يقذف في النار»، وفي رواية: «لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى...» إلى آخره.

وعن ابن عباس، قال: «من أحب في الله، وأبغض في الله، ووالى في الله، وعادى في الله، فإنما تنال ولاية الله بذلك، ولن يجد عبد طعم الإيمان، وإن كثرت صلاته وصومه، حتى يكون كذلك، وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا، وذلك لا يجدي على أهله شيئاً»، رواه ابن جرير.

وقال ابن عباس، في قوله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾[البقرة: ١٦٦]، قال: المودة.

• فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية البقرة.

الثانية: تفسير آية براءة.

الثالثة: وجوب محبته ﷺ على النفس، والأهل، والمال.

الرابعة: أن نفي الإيمان لا يدل على الخروج من الإسلام.

الخامسة: أن للإيمان حلاوة قد يجدها الإنسان، وقد لا يجدها.

السادسة: أعمال القلب الأربع التي لا تنال ولاية الله إلا بها، ولا يجد أحد طعم الإيمان إلا بها.

السابعة: فهم الصحابي للواقع أن عامة المؤاخاة على أمر الدنيا.

الثامنة: تفسير: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾.

التاسعة: أن من المشركين من يحب الله حباً شديداً.

العاشرة: الوعيد على من كان الثمانية أحب إليه من دينه.

الحادية عشرة: أن من اتخذ نداً تساوي محبته محبة الله فهو الشرك الأكبر.

■ ■ ■ ■ ■

●● الشرح ●●

باب:

قول الله تعالى:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾

هذا الباب معقود للمحبة؛ أي: أن من الشرك: الشرك في المحبة، وذلك كأن يحب غير الله مثل محبة الله.

يقول ابن القيم في نونيته:

والشرك فاحذره: فشرك ظاهر
ذا القسم ليس بمقابل الغفران
وهو اتخاذ الند للرحمن أيّاً
كان من حَجَرٍ ومن إنسان
يدعوه أو يرجوه، ثم يخافه
ويحبه كمحبة الديان

فدل على أن هناك شرك في المحبة، والمحبة عمل القلب، فهي شيء خفي، ولا يظهر للناس إلا أثر هذا الشيء الذي في القلب، فلابد وأن تظهر آثاره على البدن، أو على اللسان، ولكن لما كان من الأعمال القلبية وكل فيه الأمر إلى الشخص، وأمر بأن يُخلص محبته التي في قلبه ويجعلها لله.

وفي الحقيقة أن هذا باب عظيم يستحق أن يولى عناية ويفهم، وذلك لكثرة

الأخطاء التي يقع كثير من الناس فيها في موضوع هذا الباب، فقد ذكر لي بعض الإخوة: أن بعض المدرسين ـ الذين لا يقومون بحق العلم ـ اعترف أمام الطلاب بأنه لا يصلي، ولكنه يحب الله، قال: أنا لا أصلي، ولكني أحب الله، أي: إذا كنت أحبه فيكفي ما في قلبي من المحبة.

نقول له: كذبت، لست تحب الله، وإن كنت تحبه فمحبة مزورة، ومحبة كاذبة، فإن المحبة التي في القلب تظهر آثارها على البدن، فكيف تعصي الله وأنت تحبه؟!

يقول بعض الشعراء:

تعصي الإله وأنت تزعم حبه
هذا لعمري في الخصال شنيع
لو كان حبك صادقاً لأطعته
إن المحب لمن يحب مطيع

فالذي يحب، تنطلق أعضاؤه وجوارحه لما يحبه مولاه.

ونقول لهذا وأمثاله: الله يحب منك أن تعبده، فلماذا لا تعبده؟

الله يحب منك أن تترك معاصيه، فلماذا ترتكبها؟

الله يحب منك أن تتبع شريعته، فلماذا لا تحبها ولا تتبعها؟

فإذا كنت صادقاً في أنك تحب الله، فمحبة الله التي في القلب تظهر آثارها على البدن.

وقد جعل الله لها علامة ظاهرة، كما حكى الله عن اليهود والنصارى أنهم ادعوا محبة الله في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾

[المائدة:١٨]، فقد كذبهم الله، وأنزل آية تسمى: آية المحبة، وهي قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١].

فالذي يحب الرسول يتبعه، والذي يحب الله يطيعه، والذي يكون صادقاً في محبة الله يتبع شرع الله، وذلك هو الأصل، فأما إذا لم يكن كذلك فلا تنفعه هذه الدعاوى، بل هي دعاوى كاذبة.

روي عن بعض السلف أنه قيل له: متى أحب ربي؟ قال: إذا كان ما يبغضه أمرّ عندك من الصبر، كان ما يحبه أحلى من العسل.

وقال ذو النون المصري وهو أحد العباد: من ادعى محبة الله ولم يوافقه فدعواه كاذبة باطلة.

ومن علامات محبة الله بغض ما يبغضه الله، فلابد وأن يكون الإنسان مبغضاً لمعاصي الله، وتكون المعاصي عنده مرة بشعة حتى ولو كانت النفوس تميل إليها أو تهواها، فلا تكون المحبة صادقة إلا إذا أبغض تلك المعاصي واستبشعها.

ومن علامات محبة الله بغض الكفرة والمشركين ونحوهم؛ لأن الله يبغضهم، فلا يكون الإنسان محباً لله إلا إذا أبغض الكفرة ونحوهم، وإلا كيف يكون الإنسان محباً لله وهو مع ذلك يحبهم؟

يقول ابن القيم:

أتحب أعداء الحبيب وتدعي
حباً له ما ذاك في إمكان
حب الكتاب وحب ألحان الغناء
في قلب عبد ليس يجتمعان

أعداء الحبيب، أي: أعداء الله الذين أنت تحبهم، فلا تحبهم؛ بل أبغضهم، فإن من أحب ما يبغضه المحبوب لم يوافق المحبوب، أما الذين يحبهم المحبوب فمحبتهم من محبته، محبوب المحبوب محبوب، ومحبوب المبغض مبغض.

فكيف تدعي محبة الله، وأنت تحب أعداءه؟

وكيف تحب كلامه، وتحب ضد كلامه؟

وضد كلامه مثل الأغاني والملاهي ونحوها، فلهذا يقول ابن القيم: حب الكتاب، يعني: القرآن، وحب ألحان الغناء في قلب عبد ليس يجتمعان، لابد أن يكون أحدهما هو الغالب، وأن يُخرج الغالب المغلوب.

فبذلك تبين أن محبة الله أمر قلبي، ولكن يظهر أثرها على الجوارح، فإذا لم يظهر فهي دعوىٰ باطلة.

فهذه المحبة لها آثار، ولهذا أسباب، وقد ورد في الحديث القدسي سبب من أسباب محبة الله للعبد، وهو كثرة النوافل، ففي صحيح البخاري يقول الله تعالىٰ: «**ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه**»[1] فجعل من أسباب محبة الله تعالىٰ للعبد أن يكثر من النوافل، ومعلوم أن الذي يكثر من النوافل والقربات لم يكثر منها إلا بعد ما أحب الله، والله تعالىٰ يحب من أحبه، وهي خصلة شريفة عظيمة، أي: حصول محبة الله تعالىٰ للعبد.

ومن علامات محبة الله للعبد اتباع الرسول ﷺ كما في آية المحبة[2].

ومن آثار محبة الله للعبد توفيقه، بأن تكون حركاته كلها لله وبالله، كما في

---

(١) جزء من حديث الأولياء، أخرجه البخاري برقم (٦٥٠٢)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) وهي قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١].

قوله تعالىٰ في الحديث القدسي: «إذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ورجله التي يمشي بها، ويده التي يبطش بها»[(١)]، بمعنىٰ: أن حركاته كلها تكون لله، وفي مرضاة الله، فلا ينظر إلا إلىٰ ما يحبه الله، ولا يجتمع إلا إلىٰ ما يحبه، ولا يمد يده إلا إلىٰ شيء محبوب، ولا يحرك قدميه إلا إلىٰ طاعة الله، فيحفظ الله تعالىٰ في جوارحه، هذا من فوائد محبة الله للعبد.

والمحبة قسمان: محبة طبيعية، ومحبة فطرية قلبية.

والمحبة التي قصدت في هذا الباب هي المحبة القلبية، أي: محبة السر، فإنها التي لا يجوز أن يُحبَّ فيها مخلوق مع الله.

ومحبة السّر هي: المحبة القلبية الخفية التي تحمل القلب علىٰ أن يذل، وأن يتبعه بالذل سائر البدن وسائر الجوارح.

ومعلوم أن من أحب شيئاً ـ كما يقولون ـ أكثر من ذكره؛ فمن أحب شخصاً أطاعه وعظّمه، ومن أحب طاعة أكثر من فعلها، فمن أحب الصلاة أَلِفَها، وخشع وتواضع فيها، وتمنىٰ طولها ونحو ذلك، وكذلك من أحب القرآن ـ يعني: محبة سرّية ـ أحب تلاوته والْتَذَّ به، ومن أحب الله أحب ذكره، وأحب شكره ودعائه، وجعله دائماً علىٰ لسانه، فهذه كلها وغيرها محبة سرِّيَّة، علاماتها الاتباع، وهذا هو ضابط المحبة السرية.

فإذا رأيت إنساناً يحب شخصاً استدللت علىٰ محبته بأفعاله؛ لكونه مثلاً يكثر من زيارته، ويكثر من إعطائه وإيوائه وإيثاره علىٰ نفسه، ويتعصب له في غيبته، ويحامي عنه، ويذب عنه كل من يؤذيه، وما أشبه ذلك، فيستدل من ذلك

---

(١) جزء من حديث الأولياء الذي سبق تخريجه.

على محبته له، فإذا وصلت به هذه المحبة إلى أن يجعل سيئاته حسنات وحسناته سيئات؛ فإن تلك محبة زائدة لا تصلح.

وهكذا إذا أحب شخصاً غير الله؛ كميت أو ولي - كما يزعم -، أو قبر أو حجر أو شجر، ووصلت به محبة هذا المخلوق إلى أن خشع عند قبره وذل، وأطرق برأسه وأخبت له وأناب، أو وصلت به محبته إلى أن يهتف باسمه، ويدعوه مع الله أو من دون الله أو ما أشبه ذلك، فهذه محبة شركية أوقعته فيما لا يجوز، أي: أوقعته في أن دعا هذا المخلوق مع الله، أو عظّمه كتعظيم الله، أو حلف به، أو ما أشبه ذلك.

أما المحبة الطبيعية فهذه غريزة في القلب، فقد جعل الله في غريزة الإنسان أنه يحب أولاده، وأنه يحب أهله وأقاربه، ونحو ذلك، ويحب أيضاً بعض المتاع، ولا يلام على ذلك.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨]، والخير هو كل ما فيه منفعة: إما عاجلة أو آجلة، وعبر به هنا عن المال ونحوه، فقد جعل الله ذلك غريزة، فمثل هذا لا يلام إلا إذا وصلت تلك المحبة الطبيعية إلى حال يُؤْثِرُ فيها محبة هذا العرض العاجل على محبة الله، فمثلاً إذا أطاع قريباً له من أجل محبته، وعصى الله، أو حملته محبة المال على كسبه من محرم، أو حملته محبة الأولاد ونحوهم على ترك شيء من الواجبات، أو حمله حب المال على أن يخل بالواجبات كالزكوات والنذور ونحو ذلك، أو حملته محبة أهله، ومحبة أمواله، ومحبة أولاده على ترك بعض الواجبات، كالجهاد وكالنفقة في سبيل الله وما أشبه ذلك، فمثل هذه محبة مذمومة؛ حيث أنها أدت إلى ما هو مذموم أو ما هو محرم.

فالمحبة الطبيعية التي لا يلام عليها هي حب الإنسان المتاع محبة لا تصل به إلىٰ شيء يوقعه في الحرام، أو في ترك الواجب، فمثلاً عند النفقة فإنه يؤثر ولده علىٰ ولد غيره، وينفق علىٰ أهله دون أهل غيره، وينصر أقاربه ويؤويهم دون غيرهم، ويفرح بزيارتهم دون غيرهم، وما أشبه ذلك، ويجمع ماله ويحرزه دون مال غيره، وهكذا، فذلك لا يلام عليه إذا لم تصل به هذه المحبة إلىٰ شيء يوقعه في سخط الله.

علامات من يحبهم الله:

لا شك أن محبة من يحبهم الله واجبة، كمحبة أولياء الله ومحبة عباده الصالحين، ومحبة الرسل، والملائكة، والأنبياء، والصحابة، ونحوهم.

وعلامة محبتهم أن نتبعهم ونقتدي بهم، فإذا كنت تحب الرسول فاتبعه، وإذا كنت تحب الصحابة فاقتدي بهم وقلدهم، وإذا كنت تحب الصالحين فأصلح نفسك لتكون صالحاً مثلهم، وإذا كنت تحب أهل الخير فاعمل الخير حتىٰ تكون منهم، وهكذا.

ولا شك أن هذه المحبة هي المحبة الصادقة، أما من يقول: أنا أحبهم ومع ذلك لا يعمل مثل عملهم؛ بل يخالفهم، فإن هذه المحبة لا تفيده، وإن كانت هذه المحبة يُرجىٰ بها الخير، ولذلك يروىٰ عن الشافعي رحمه الله أنه قال:

أحب الصالحين ولستُ منهم

وأرجو أن أنال بهم شفاعة

وأبغض من بضاعته المعاصي

ولو كنت من أهل تلك البضاعة

فقال له الإمام أحمد رحمه الله:

تحب الصالحين وأنت منهم
وحبهم يلحق بالجماعة
وتبغض من بضاعته المعاصي
وحاشاك من تلك البضاعة

وقول الشافعي رحمه الله: (ولستُ منهم): من باب التواضع، وإلا فهو من الصالحين، وسيرته رحمه الله تدل على صلاحه، ومحبته للصالحين دفعته بلاشك إلى إصلاح نفسه، لذا فقد أُثر عنه من الأعمال الصالحة التي جعلته من الصالحين ومن الأئمة في الدين.

وقد استبشر الصحابة رضي الله عنهم لما جاء رجل يسأل عن الأعمال الخيرية، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله: متى الساعة؟ قال: «**وما أعددت للساعة؟**»، قال: حب الله ورسوله، قال: «**أنت مع من أحببت**»(١).

فاستبشر الصحابة لما سمعوا هذا الحديث، لذلك قال أنس في تمام هذا الحديث: فما فرحنا بعد الإسلام فرحاً أشدّ من قول النبي ﷺ: «**فإنك مع من أحببت**».

وقال أيضاً ـ أي: أنس ـ: فأنا أحب الله ورسوله وأبا بكر وعمر، فأرجو أن أكون معهم، وإن لم أعمل بأعمالهم.

وجاء في حديث آخر: «**المرء مع من أحب**»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٦٨٨)، ومسلم برقم (٢٦٣٩) ـ (١٦٤).
(٢) أخرجه البخاري برقم (٦١٦٨)، ومسلم برقم (٢٦٤٠). من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

وفي حديث آخر: «من أحب قوماً حشر معهم»[١].

ولا شك أن محبتهم ـ أي: محبة الأنبياء والصحابة والصالحين ـ تحمل على العمل مثل عملهم، فالذي يعمل مثل عملهم صادق في أنه يحبهم، فأما من لم يكن كذلك فليس بصادق ـ كما ذكرنا ـ، فبذلك نعرف أن محبة الله واجبة، وأنها تستدعي محبة ما يحبه.

وليس من علامات محبة الصالحين تعظيمهم أو الاعتقاد فيهم بما ليس من خصائصهم، بل هو من خصائص الله، فمن فعل ذلك فإنه قد غلى، وقد أشرك، يعني: من جعل محبتهم لا تتم إلا بدعائهم، أو بالحلف بهم، أو بتعظيمهم؛ فقد أشرك، وهذا ما يعيب به المشركون من ينهى عن ذلك.

فإذا قيل لهم: لا تتوسلوا بالصالحين، ولا تدعوا الرسول، ولا تدعو فلاناً ولا فلاناً، قالوا: أنت لا تحب الرسول!! أنت لا تحب الصحابة!! أنت لا تحب الأولياء!! أنت لا تحب السادة!! فكأنهم جعلوا الذي ينهى عن إعطائهم حق الله مبغضاً لهم! وجعلوا الذي يعظمهم إلى أن يعطيهم حق الله محباً لهم.

ولا شك أن الصالحين أنفسهم رحمهم الله ما كانوا يوصلون أنفسهم مرتبة يزاحمون بها الله أبداً في شيء من خصائصه، بل هم بأنفسهم يبكون ويخافون الله خوفاً شديداً، ويحتقرون أنفسهم ويحتقرون أعمالهم ونحو ذلك، فإذا كان كذلك دل على أنهم أعرف بالله من هؤلاء الذين جعلوا علامة محبتهم ودعائهم مع الله.

مسألة:

معلوم أنه لا يجوز محبة معاصي الله، ولكن ما حكم الرجل الذي يحب

---

(١) انظر تفسير ابن كثير (٤/ ٢٤)، وانظر كشف الخفاء للعجلوني (٢/ ٣٨٠).

نوعاً من المعاصي، ولكنه لا يفعلها، أي: يميل إليها فقط؟ فهل يقع في المحبة الشركية؟

الجواب:

نقول: مثل هذا الرجل إن شاء الله لا يدخل تحت هذه المحبة ما دام أنه قهر نفسه وغلبها وجاهدها لما وجد من نفسه ميلاً للمعاصي، بل له أجر المجاهد، فإن جهاد النفس أبلغ من جهاد الأعداء.

ومعروف أن النفس أمارة بالسوء، وميالة إلىٰ البطالة وإلىٰ الكسل، وإلىٰ حب الشهوات المحرمة ونحوها، ولكن إذا قهرها وغلبها كان مثاباً علىٰ هذا العمل إن شاء الله.

ولأهمية هذا الباب فقد أورد المصنف رحمه الله فيه آيتين، ثم ذكر حديثين عن أنس، ثم ذكر حديثين وأثرين عن ابن عباس.

■ قوله: [**قول الله تعالى**: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ**﴾ [البقرة: ١٦٥]]:

هذه الآية قد تقدمت في (باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله)، وأوردها هنا كدليل علىٰ أن المحبة عبادة من أجل العبادات وأفضلها، فمن عرف نعمة الله عليه وما مَنّ به عليه من الهداية والتوفيق، واستحضر أن فضل الله عليه لا ينقطع من بدء خلقه إلىٰ نهايته، فإنه يحب ربه تعالىٰ بكل قلبه حتىٰ يهديه ويسدده، ويعينه علىٰ طاعته، أما إذا صرف هذه المحبة للأنداد والأصنام، وعلق قلبه بغير ربه، وعظم المخلوق الذي يحبه، وخافه ورجاه، واعتقد أنه ينفعه ويفيده، فإنه قد اتخذه نداً لله، حيث أخبر تعالىٰ بأن من الناس من يجعل لله أنداداً يسوىٰ بينهم وبين الله تعالىٰ في المحبة، وأخبر بأن محبة المؤمنين لربهم أقوىٰ من محبة أولئك لأندادهم، أو من محبتهم لله تعالىٰ، حيث أن أندادهم قد أخذت

جزءاً من محبتهم، فضعفت محبتهم لله تعالىٰ، بخلاف المؤمنين فإن محبتهم لله تعالىٰ خالصة، والمحبة الخالصة أقوىٰ من المحبة المشتركة.

والأنداد واحدها (ند) وهو: الشبيه والنظير، فالمعنىٰ: أنهم يجعلون أندادهم وأوثانهم ومعبوداتهم تستحق من المحبة ما يستحق الله تعالىٰ، أو شبيهة لله تعالىٰ في وجوب المحبة والتعظيم، مع اعترافهم أنها مخلوقة مربوبة، يأتي عليها الفناء والعدم، ولكن أكثرهم لا يعلمون، والله أعلم.

■ **قوله: [وقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾** [التوبة: ٢٤]]:

وردت هذه الآية في سياق الإنكار علىٰ الذين يوالون الكفار ويحبونهم ويقربونهم، ويقدمون رضاهم علىٰ رضا الله تعالىٰ ورسوله ﷺ، فأمر الله تعالىٰ نبيه ﷺ أن يخاطب المؤمنين ويلقي عليهم هذا السؤال، فإن المؤمنين حقاً يقدمون محبة ربهم ودينهم علىٰ محبة كل شيء علىٰ وجه الأرض.

فالآباء والأجداد وإن علوا لهم حق البر والإحسان والمحبة والطاعة والاحترام.

وكذا الأبناء والذرية لهم حق الحنان والحب والإنفاق، والتعليم والشفقة والعطف، والدفاع عنهم.

وللإخوان حق القرابة والصلة والمودة والإحسان والتودد والإكرام.

وهكذا للأزواج ذكوراً وإناثاً حق العشرة، وحسن الصحبة، والقيام بالخدمة، والوداد والطاعة.

وللعشيرة الذين هم الأقارب من قبل الأب والأم حق الرحم والنصرة، والتأييد والتقوية، والمواساة والإحسان، وليس لأحد منهم الطاعة في معصية الله مهما كانت قرابتهم، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق(١)، ولا يجوز تقديم رضاهم على رضى الله، ولا تترك الواجبات والفرائض التماساً لرضاهم، فإن من أمر بمعصية الله فلا سمع له ولا طاعة.

فمتى كان أقارب المسلم من أعداء الله تعالى، أو من الكفار المعادين للدين، والمحاربين لأهل الإسلام، فإن عليه أن يقاطعهم ويتبرأ منهم بعد أن يدعوهم إلى الإسلام، ويرغبهم فيه، ويحرص على تقريبهم، فإن أبوا وعاندوا وجب عليه هجرهم والبعد عنهم، كما حكى الله عن إبراهيم الخليل ومن معه أنهم: ﴿قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة: ٤].

وأما الأموال المكتسبة والتجارة التي يخشى كسادها، والخسارة فيها، والمساكن

---

(١) جاء في الحديث عن النواس بن سمعان، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق».
أورده البغوي في «شرح السنة» (١ / ٤٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢ / ١٧٧)، وإسناده ضعيف. ولكن للحديث شواهد:
فعن علي عن النبي ﷺ قال: «لا طاعة لمخلوق في معصية الله عز وجل».
أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (١ / ١٣١)، وهو من زيادات ابنه عبد الله، وصححه أحمد شاكر (١٠٩٥).
وشاهد آخر عن عمران بن حصين قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا طاعة لأحد في معصية الله تبارك وتعالى».
أخرجه الإمام أحمد (٥ / ٦٦)، والطيالسي (٨٥٦)، وصححه الحاكم (٢ / ٤٤٣)، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٧٩).
وفي الصحيحين عن علي رضي الله عنهما قال: «لا طاعة في معصية الله، إنما الطاعة في المعروف».
أخرجه البخاري برقم (٤٣٤٠)، ومسلم برقم (١٨٤٠).

التي يرضونها فهي من متاع الدنيا ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، فلا يقدم الاشتغال بها على طاعة الله تعالى، والجهاد في سبيله.

ففي هذه الآية الكريمة أن الله خاطب المؤمنين على لسان رسوله ﷺ أنهم إذا كان أقاربهم وأموالهم أحب إليهم من الله ورسوله، ومن الجهاد في سبيل الله، فليتربصوا وينتظروا ما يحل بهم من العذاب، وما يأتيهم مما يأمر الله به.

وأخبر بأن الله لا يهدي القوم الفاسقين، وهو إشعار بأن من قدم محبة أقاربه أو ماله أو ولده على محبة الله تعالى، ورسوله ﷺ، والجهاد في سيبل الله فهو مهدد بالعذاب، وهو من الفاسقين؛ حيث أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق(١)، والله أعلم.

■ **قوله: [وعن أنس: أن رسول الله ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من: ولده، ووالده، والناس أجمعين»(٢)، أخرجاه]:**

هذا الحديث يدل على وجوب محبة الرسول ﷺ، فإنه ﷺ أكد ذلك بنفي الإيمان عن من لم يفعله، فقال: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من: ولده، ووالده، والناس أجمعين**».

وقد ذكروا أن عمر رضي الله عنه قال للنبي ﷺ: «**والله لأنت أحب إلي من كل شيء، إلا من نفسي**»، فقال: «**لا يا عمر حتى أكون أحب إليك من نفسك**»، فقال: والله لأنت أحب إلي من كل شيء حتى من نفسي، فقال: «**الآن يا عمر**»(٣).

هكذا صدق الصحابة رضي الله عنهم، وهكذا قالوا، فإنهم لما أحبوا الله،

---

(١) انظر التخريج السابق.

(٢) أخرجه البخاري برقم (١٥)، ومسلم برقم (٤٤).

(٣) أخرجه البخاري برقم (٦٦٣٢)، من حديث عبدالله بن هشام رضي الله عنه.

وأحبوا الرسول عليه الصلاة والسلام، التمسوا رضىٰ الله، والتمسوا ما جاء به رسوله ﷺ، وصدقوا في ذلك، فكان هذا هو العلامة الصادقة لمحبتهم لما يحبه الله، فالذي لا يقدم محبة الرسول يكون ناقص الإيمان، أو لا يؤمن؛ أي: لا يكون مؤمناً صادقاً في إيمانه، أو لا يكون مؤمناً كامل الإيمان، أو لا يكون معه أصل الإيمان، بل يكون إيمانه ضعيفاً إذا لم يقدم محبة الرسول ﷺ علىٰ محبة المال، وعلىٰ محبة النفس، وعلىٰ محبة الولد، وعلىٰ محبة أي شخص من الناس.

ومحبة الرسول عليه الصلاة والسلام محبة قلبية، ولكن من آثارها اتباعه، فإذا كان المسلم يحب الرسول ﷺ فإن عليه أن يتبعه، وليس كما يزعم القبوريون أن محبته هي دعاؤه، أو محبته هي الحلف به، أو محبته هي التمسح بجدار حجرته، أو محبته هي السفر إليه، أو ما أشبه ذلك.

بل محبته: هي اتباع سنته، ومحبته: هي اتباع شريعته التي جاء بها، ومحبته: هي الحرص علىٰ موافقته، ومحبته: هي طاعته أتم الطاعة والرضىٰ بشريعته، وتحكيمه في كل شيء.

من حقوق الرسول ﷺ الواجبة على المسلم:

وقد ذكر الله تعالىٰ بعض الحقوق الواجبة للرسول ﷺ علىٰ كل مسلم، فمن ذلك:

* **الإيمان به**، قال تعالىٰ: **﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾** [التغابن: ٨]، آمنوا به؛ أي: صدقوا به أنه مرسل من ربه.

* **وكذلك ذكر من حقوقه اتباعه** في قوله تعالىٰ: **﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾** [الأعراف: ١٥٨]، ولا يتم اتباعه

حقاً إلا بالسير على طريقته، فالذي يحبه هو الذي يسير على سنته، وهو الذي يتبعه بالأعمال، وليس بالأقوال، فيحرص على أن يعمل مثل عمله، ويقتدي به في كل أمر، فهذا هو علامة محبته.

* **وكذلك طاعته التي أمر الله بها**، ورتب عليها الثواب، ورتب على معصيته العقاب، قال تعالى: **﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ...﴾**، إلى قوله: **﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا﴾** [النساء: ١٣، ١٤].

وجعل الله أيضاً من علامة محبته التأسي به واتخاذه أسوة في الأفعال، قال تعالى: **﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾** [الأحزاب: ٢١]، فالأسوة: هي القدوة؛ أي: تتأسون وتقتدون به.

فإذا كان الإنسان صادقاً في محبته للرسول فعليه أن يأتي بمثل هذه الأشياء: طاعته، واتباعه، وتقبل كل ما جاء به، وما أشبه ذلك.

* **وكان في حياته ﷺ له حقوق خاصة**، وهي أيضاً من علامة محبته، فكان الصحابة رضي الله عنهم يحبون الرسول ﷺ، وكانوا يحرصون على القرب منه، ويتبركون بكل ما جاء عنه، وذلك شيء خاص به في حياته، ولم يفعلوه بعد مماته.

فمن ذلك: أنهم إذا خاطبوه خفضوا أصواتهم، وذلك من محبته، قال تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾** [الحجرات: ٣].

ومن ذلك: أنهم لا يذهبون إلا بعد إذنه، قال تعالى: **﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن**

شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ [النور: ٦٢].

ومن حقوقه ﷺ ما أمر الله به في قوله: **﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٨) لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾** [الفتح: ٨، ٩]. قيل: إن التعزيز والتوقير للرسول ﷺ، والتسبيح لله تعالىٰ، وتعزير الرسول ﷺ وتوقيره هو احترامه.

وإذا كانت هذه الأشياء خاصة بحياته، فإنها تمتد لِسُنَّتِهِ بعد وفاته، فإذا كان المسلم يحب الرسول ﷺ فعليه أن يحترم سنته، واحترامها هو عدم تقديم شيء عليها: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾** [الحجرات: ١]، فلا يقدم علىٰ سنته سنة فلان أو علان، ولا يقدم علىٰ سيرته أو مما جاء عنه، أو علىٰ شريعته أية شريعة تهواها نفسه، فإذا كان كذلك، فإنه من أهل الإيمان الذين وصفهم في هذا الحديث بقوله: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من: ولده، ووالده، والناس أجمعين**»؛ أي: من قدم محبة الرسول عليه الصلاة والسلام علىٰ هوىٰ نفسه فإنه من أهل الإيمان، أما الذي إذا هويت نفسه شيئاً مع كراهة الله تعالىٰ والرسول له فهذا قد خدش إيمانه، وقد نقص إيمانه، وقد نقصت محبته لرسول الله عليه الصلاة والسلام.

كذلك الذي رأىٰ شيئاً عليه الناس وقد أَلِفُوهُ، وكان مخالفاً لسنة الرسول عليه الصلاة والسلام، فقدم موافقة الناس، وقدم محبة الناس علىٰ ما يحبه الرسول عليه الصلاة والسلام، أو علىٰ ما يأمر به، أو مثلاً خاف من الناس إذا عيروه أو عابوه بأمر كان مقتدياً فيه بالرسول عليه الصلاة والسلام، كإعفاء اللحية، مثلاً، أو أمر من الأمور التي يعرف أنها من سنة الرسول عليه الصلاة والسلام.

فنقول لهؤلاء ولكل من يخالف سنة ﷺ: ألست تحب الرسول عليه الصلاة

والسلام؟ فكيف لا توافقه؟ ألست مأموراً بأن تمقت الناس في محبة الله والرسول، وأن تقدم محبة الرسول على محبة كل الناس؟ فكيف توافق الناس إذا عيروك مثلاً أو إذا لمزوك أو همزوك فتطيعهم، وتخالف أمر الله، وتخالف الرسول عليه الصلاة والسلام؟! لقد نقصت محبتك، ولم تصدق في هذه المحبة.

فهذا أو نحوه دليل على أن محبة الرسول لها أمارات وعلامات، وكل واحد يختبر نفسه، ويعرف من نفسه هل هو مطبق لهذه المحبة، أم ليس مطبقاً لها؟ فأما مجرد الدعوى فلا تقبل إلا إذا كانت عليها بينات.

■ **قوله: [ولهما عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه، كما يكره أن يقذف في النار»**(١)**، وفي رواية: «لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى...»**(٢)** إلى آخره]:**

هذا الحديث فيه أسباب حلاوة الإيمان، وأسباب ذوق حلاوة الإيمان، وقد ورد بلفظ الحلاوة، وورد بلفظ الطعم، أي: **«ثلاث من كن فيه وجد بهن طعم الإيمان...»**.

وهذا يدل على أن للإيمان حلاوة، وأن للإيمان طعماً.

واختلف في هذه الحلاوة: هل هي حلاوة محسوسة، أو حلاوة معنوية؟:

فالقول الأول: وعليه الأكثرون أنها حلاوة معنوية، لأن الحلاوة الحسية هي ما يذاق بالفم الذي يكون طعمه لذيذاً كالطعام الحلو، فالعسل مثلاً والتمر ونحوه هذا هو الذي يكون عادة له حلاوة، فيقول هؤلاء: الإيمان أعمال وليست تذاق

---

(١) أخرجه البخاري برقم (١٦)، ومسلم برقم (٤٣).

(٢) أخرجها البخاري برقم (٦٠٤١).

بالفم، وليست طعمها يحس بالريق، فالحلاوة في الحديث حلاوة معنوية.

والقول الثاني: أنها حلاوة حسية، ولعل هذا أقوىٰ القولين: أن للإيمان حلاوة حسية، وقد يقال: ما كيفية تلك الحلاوة الحسية؟ فنقول: وجدان نشوة في الجسم، ووجدان أريحية وفرح واستبشار وسرور بمثل هذه الأعمال، حيث يجد الإنسان في بدنه كله ارتياحاً والْتذاذاً، وقوة وحلاوة بالأعمال، ويبتهج بالأعمال الصالحة أعظم من الملذات الدنيوية.

ومن المعلوم أن هناك ملذات دنيوية يلْتذ بها أهلها الذين يركنون إليها، وقدتكون معنوية، فمثلاً الأصوات قد تكون منبوذة، ومع ذلك قد تكون حلوة ولذيذة في مسامع كثير من الناس، فمن الناس من يرتاح لسماع الملاهي والأغاني والأصوات الموسيقية ونحوها، فيجد في نفسه نشاطاً، ويجد في قلبه إقبالاً، ويجد في بدنه قوة، ويجد من نفسه إقبالاً كلياً عليها، فيكون ذلك هو أثر هذه الحلاوة؛ أي: ذاق أو ارتاح لطعم حلاوة هذه الأصوات.

ومن الناس من يكون ارتياحه والْتذاذه بالأصوات الشيقة الطيبة، فيرتاح مثلاً لسماع آيات الله، ولسماع كلامه، ولسماع كلام نبيه ﷺ، ويجد في سمعه التذاذاً وارتياحاً، فيكون هذا حلاوة سمعية؛ أي: يلْتذ السمع بالصوت كما يلْتذ الفم بالطعم، فيلتذ تارة بالخير والأصوات الطيبة، وتارة بالشر والأصوات الخبيثة، كأن يستحسنها ويلْتذ بها ولو كانت محرمة.

وكذلك هناك أناس يلْتذون بالبصر، أي: يلْتذون برؤية الأشياء، سواء في الدين أو في الدنيا أو في الشهوات أو نحو ذلك.

فمن الناس من يلْتذ برؤية الصور المحرمة، ويلْتذ بالنظر إلىٰ النساء الأجنبيات، ويجد في قلبه ارتياحاً وفرحاً وسروراً متىٰ نظر إليها وقلَّب أحداقه

فيها .

وهكذا قد يلْتذ في أمور دنياه التي متعه الله بها ، فيلْتذ مثلاً بالنظر إلىٰ بساتينه وقصوره وتجاراته ونحو ذلك .

وقد يلْتذ بالمباحات التي رُزِقَها فيلْتذ مثلاً بالنظر إلىٰ زوجه التي أبيحت له ، كما جاء في الحديث : «**إن نظر إليها سرّته ، وإن غاب عنها حفظته**»[1] . فيجد لذلك إلْتذاذاً وسروراً .

وهناك أمور إذا نظر إليها والْتذ بها كان له بذلك أجر ومثوبة ، فمثلاً النظر في كتاب الله وكتب العلم ، فإذا قرأ فيها ابتهج وسرَّ بذلك وقوي قلبه ، وكذلك إذا نظر في آيات الله الكونية وفي ملكوته وفي العالم العلوي والسفلي نظر تدبر واعتبار قوي قلبه بذلك وزاد إيمانه ، وذاق حلاوته ، فدل علىٰ أن للإيمان حلاوة حسية .

وكذلك هناك أناس يلْتذون بالكلام ، فبعضهم يلتذ بالكلمة التي يقولها ، فإن كان خيراً حمد عقباها ، وإن كانت شراً فيذم عقباها ، يقول أحدهم : إنه يستحلي الكلمة التي يسب بها أو يشتم أو يلعن أو يقذف بها ، ويجد في ذلك حلاوة .

---

(١) جزء من حديث أخرجه بهذا اللفظ أبي داود برقم (١٦٦٤) ، عن ابن عباس .
وأخرجه ابن ماجه بلفظ قريب برقم (١٨٥٧) عن أبي أمامة .
وأخرجه الإمام أحمد (٢/ ٢٥١) عن أبي هريرة .
قال محقق سنن ابن ماجه الشيخ محمد فؤاد عبدالباقي معلقاً علىٰ حديث أبي أمامة : قال في الزوائد : في إسناده علي بن يزيد ، قال البخاري : منكر الحديث . وعثمان بن أبي العاتكة مختلف فيه ، والحديث رواه النسائي من حديث أبي هريرة ، وسكت عليه ، وله شاهد من حديث عبدالله بن عمر .
وقال أحمد شاكر في تعليقه علىٰ حديث أبي هريرة برقم (٧٤١٥) : إسناده صحيح .

وضد ذلك أهل الخير الذين متىٰ ذكروا الله أو قرأوا كلامه أو دعوه أو أمروا بخير أو نهوا عن شر؛ فإنهم يسرّون بذلك، ويجدون لذلك حلاوة ولذة وابتهاجاً ونشاطاً في قلوبهم وأبدانهم.

وهكذا الأعمال نفسهاكثيراً ما يحصل فيها التفاوت، فتجد مثلاً الفسقة يلْتذون بتناول أو بعمل المحرمات، فيلْتذون بشرب الخمور مثلاً، ويلْتذون بالزنا أو اللواط وما أشبهه، ويلْتذون باختلاس الأموال وانتهابها، وأكل المال بغير حق، والاغتصاب، ويلْتذون بغير ذلك.

ذكروا أن الحجاج بن يوسف المشهور كان أعظم ما يلْتذ به وأعظم ما يبتهج به ويطرب له إذا رأىٰ الدماء تراق، وإذا رأىٰ هذا يقتل أمامه، ولو كان مظلوماً، فيجد لذلك ابتهاجاً وسروراً في قلبه، لذلك زين له وحبب إليه هذا العمل، ولو كان محرماً.

كذلك أهل الطاعة يلْتذون بالطاعة، روي عن بعض السلف رحمهم الله أنه قال: (أهل الليل في ليلهم ألذ من أهل اللهو في لهوهم)، والمراد بأهل الليل: أهل التهجد، وأهل الصلاة طوال الليل؛ بمعنىٰ: أنهم يقطعون ليلهم في قيام وقعود وركوع وسجود، وتضرع وتواضع وخشوع بين يدي ربهم، فهم في غاية اللذة، وفي غاية السرور ينشطون فيها كما ينشط أهل اللهو في لهوهم أو أشد، وقدوتهم في ذلك نبيهم ﷺ الذي يقول لبلال: **«أرحنا يا بلال بالصلاة»**[1]، فدل علىٰ أنه يحس في الصلاة براحة متىٰ دخلها، فيحس كأنه ارتاح بدنه، ويحس

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (٤٩٨٥)، وأحمد في «المسند» (٥/ ٣٦٤)، عن سالم بن أبي الجعد عن رجل من أصحاب النبي ﷺ.
وأخرجه أبو داود برقم (٤٩٨٦)، عن عبدالله بن محمد بن الحنفية رضي الله عنه.
قال الأرناؤوط في «تحقيق جامع الأصول» (٦/ ٢٦٣)، رقم (٤٣٨٥): إسناده صحيح.

كأنه فرح ومسرور، ويحس كأن بدنه قد قوي، ويحس لذلك لذة وإقبالاً؛ لأنها عبادة محبوبة للنفس المطمئنة وللنفس المؤمنة.

وكذلك قوله ﷺ: «**وجعلت قرة عيني في الصلاة**»(١)، فإنها إذا كانت قرة عينه دلّ على أن للصلاة لذة وحلاوة وراحة.

والإيمان له نتائج وله ثمرات، وهي الأعمال، فالذي يتلذذ بالأعمال الصالحة هو الذي يذوق حلاوة الإيمان، هذا معنى قوله: «**وجد بهن حلاوة الإيمان**»، **وكفى بهذه الثلاثة، أي: الثلاثة خصال**:

فالخصلة الأولى: قوله: «أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما»:

وقد ذكرنا أن محبة الله ومحبة رسوله يجب تقديمها على كل شيء، كما في قوله: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من: ولده، ووالده، والناس أجمعين**»(٢)، وفي رواية: «**ونفسه**»(٣)، وأن لذلك علامة، وليست بمجرد الدعاوى؛ بل لابد للدعوى من بينة.

يقول بعضهم:

والدعاوى إن لم يقيموا عليها

بينات أصحابها أدعياء

فإذاً نقول لمن يقول: أنا أحب الله وأحب رسوله: أقم على ما تقوله البينة، والبينة ما يبين الحق ويظهره؛ فالبينة على هذا هي مبادرتك أيها المحب إلى طاعة محبوبك، وابتعادك أيها المحب عن معاصي محبوبك، فإذا كنت كذلك فإنك

---

(١) أخرجه النسائي (٧/ ٦١) رقم (٣٩٤٩)، وأحمد في المسند (٣/ ١٢٨، ١٩٩، ٢٨٥)، عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢)، (٣) سبق تخريجه في هذا الباب.

صادق المحبة، وإلا فهذه الدعوىٰ لا حقيقة لها.

* **الخصلة الثانية: قوله: «وأن يحب المرء إلا يحبه لا لله»:**

وهذا أيضاً قد تقدم معناه، وعرفنا أن المحب لشيء يحب كل ما يحبه، ومن أحب شخصاً أحب محبوبات ذلك الشخص، ومن أحب الله أحب ما يحبه الله من الأقوال والأعمال والأشخاص؛ فإذا كنت صادقاً بأنك تحب الله فإنك تحب من يحبه، وتحب ما يحبه.

فالله تعالىٰ يحب الخير، والله يحب الأعمال الصالحة، والله يحب الحسنات والإكثار منها، والله يحب الإيمان وخصال الإيمان، فإن كنت صادقاً فإنك تحب هذا الذي يحبه الله، والله يحب المؤمنين، ويحب المتقين، ويحب التوابين، ويحب المتطهرين، ويحب المحسنين، ويحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص، ونحو ذلك.

فإذا كان الله يحبهم فإنك تحبهم؛ لأن الله يحبهم، فمحب المحبوب محبوب، تحبهم أولاً لصلاحهم، وتحبهم لأنهم يحبون الله، وتحبهم لأن الله تعالىٰ يحبهم.

والناس في محبة الصالحين ثلاثة أقسام:

القسم الأول: يحبونهم، ولا يفعلون شيئاً من أفعالهم، فيقولون: نحن نحب الصالحين، ونحن نحب المؤمنين، وأفعالهم تخالف أقوالهم تلك، فهؤلاء ليسوا بصادقين.

القسم الثاني: اعتقدوا أن من تمام محبتهم الاستشفاع بهم، ودعاءهم والتوسل بهم، وقالوا: إذا كنا نحبهم والله يحبهم فمن آثار محبتنا أن نعظمهم، ونذبح لهم، وننذر لهم، ونحلف بهم، وندعوهم، ونتوجه إليهم، ونتوسل بهم

وما أشبه ذلك، فهؤلاء أفسدوا محبتهم، حيث إنهم زادوا وغلوا وأعطوهم ما لا يستحقون.

القسم الثالث: الذين لما أحبوهم اقتدوا بهم، وهؤلاء هم الناجون، فإن محبتهم الصحيحة تحمل على أن تبحث عن الأسباب التي كانوا بها صالحين، وكانوا بها مؤمنين ومستقيمين فتفعلها، فإذا فعلتها كنت منهم، فإذا فعلت ما كانوا فيه من الصلاح؛ أصلحت نفسك وأصلحت أعمالك، وإذا فعلت أسباب التقوى التي تحبهم من أجلها كنت من المتقين، وإذا فعلت أسباب الإحسان كنت من المحسنين، وهكذا فتحملك محبتهم على أن تقتدي بهم، وهذا هو الحب النافع.

وضد ذلك لابد منه، لابد أن تبغض من يبغضه المحبوب، فإذا أحببت من يحبه الله، وأحببت ما يحبه الله، فلابد أن تبغض من يبغضه الله، وتبغض ما يبغضه الله.

فالله تعالى يحب الطاعات، ويبغض المعاصي، ويحب الواجبات والمستحبات ويبغض المحرمات؛ فلابد أن تبغض المعاصي، وتبغض سائر المحرمات، وبغضك لها أن تبتعد عنها، وأن تتركها وتتجنبها حتى تكون محبتك صادقة.

أما من يقول: أنا أبغض المعاصي، وهو مع ذلك يعصي الله، فيشرب الخمر، أو يشرب الدخان، أو يزني، أو يسرق، أو يقتل، أو ما أشبه ذلك؛ فذلك لم يصدق في قوله: أبغض ما يبغض الله.

كذلك أيضاً يبغض في الله، فالله يبغض الكافرين، ويبغض المنافقين، والعصاة والمارقين، والملحدين، والزنادقة، والمكذبين، ونحوهم؛ فلابد أن

تكون مبغضاً لهم، كما أن مولاك مبغض لهم.

ويقع هذا حتى في الأمور الدنيوية، فإذا أحب إنسان إنساناً لأمر دنيوي فإننا نراه يحب أحبابه ويبغض أعداءه، ويعادي من عاداه، ويوالي من والاه.

وكذلك أيضاً يحرص على أن يعمل كأعماله خيراً أو شراً، فتراه يقلده ويتبعه حتى إنه قد يسير مثله في مشيته، ويفعل كما يفعل من معصية أو طاعة، ذلك لأن قدره في قلبه عظيم.

فإذا كان هذا مشاهداً محسوساً في الأحوال الدنيوية فإنه بطريق الأولى يكون في محبة الله تعالى.

ويقع هذا أيضاً فيمن يحبون شخصاً على أمر غير جائز، ذكر بعض أهل الكتب: أن رجلاً أحب امرأة محبة عشق، ولما أحبها رآها وقد اشترت ثوباً مخططاً فاشتاق إليها، ونظر إليها وهي تحمل ذلك الثوب المخطط، ولم يرها إلا في ذلك الوقت، ولم يرها بعد ذلك، فكان كلما رأى ثوباً مخططاً تذكرها واشتراه، حتى أنه لما مات وجدوا عنده أكثر من سبعين ثوباً من ذلك اللون، ذلك لأنه أحب ما تحب تلك المرأة، فدل على أن من أحب شخصاً أحب ما يحبه.

*** الخصلة الثالثة: قوله: «أن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه، كما يكره أن يقذف في النار»:**

هذه الخصلة مكملة للخصلة التي قبلها؛ لأن من أحب الله وأحب أولياء الله أبغض ما يبغضه الله، والله تعالى يبغض لعباده الكفر: قال تعالى: ﴿**إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ**﴾ [الزمر: ٧]، فإذا كان الله لا يرضى لعبده الكفر، فإنه من الضروري أن يبغض الكفر أشد البغض، ويتعد عنه أشد

الابتعاد، ويمقته ويمقت أهله، ويبتعد بكل ما يستطيع، ويصبر على الأذى ولو عذب وناله ما ناله؛ فإنه يؤثر ذلك على أن يعصي بكلمة تسخط مولاه، وهذا قد وقع محسوساً لكثير ممن وقر الإيمان في قلوبهم قديماً وحديثاً.

فمن الأقدمين من عذب في ذات الله، ذكر النبي ﷺ: أن بعضاً من الأمم قبلنا من أهل الإيمان، من كان يشق نصفين من مفرق رأسه حتى يشق نصفين على أن يكفر فلا يكفر، وكان يمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، أي: يمشط بأمشاط لها رؤوس محدبة يغرزونها في لحمه على أن يكفر، ولا يصده ذلك عن إيمانه ولا يكفر[1]، وكل ذلك لأنهم قد ذاقوا حلاوة الإيمان واستطعموه، فلا يصدهم عنه صاد ولا يردهم عنه راد.

وذكر النبي ﷺ قصة أصحاب الأخدود في حديث صهيب الذي في صحيح مسلم[2]، وأن أصحاب الأخدود عذبوا المؤمنين، فأولاً عذب الملك جليساً له كان أعمى فرد الله عليه بصره بواسطة دعاء ذلك الغلام، فقيل له: ارجع عن دينك فلم يرجع، فشق نصفين بالمنشار ولم يرجع.

وكذلك عذب الراهب الذي كان سبباً في إيمان ذلك الغلام، فلما أحضروه قالوا له: ارجع عن دينك، فلم يرجع، فشقوه ـ أيضاً ـ نصفين فصبر، ولم يرجع

---

(١) جاء ذلك في حديث خباب بن الأرت، قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة، فقلنا: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو لنا، فقال: «**قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض، فيجعل فيها، فيجاء بالميشار فيوضع على رأسه، فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد، ما دون لحمه وعظمه، فما يصدُّه ذلك عن دينه، والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون**».
أخرجه البخاري برقم (٦٩٤٣).

(٢) قصة أصحاب الأخدود أخرجها مسلم بطولها برقم (٣٠٠٥).

عن دينه.

وهكذا أيضاً عذبوا ذلك الغلام فحاولوا إلقاءه في البحر فأنجاه الله، وحاولوا إلقاءه من شاهق جبل فلم يضره ذلك وأنجاه الله، فقال لهم: ارموني حتىٰ تقتلوني بعدما تقولون: بسم الله رب الغلام، فرموه بسهم، وقالوا: بسم الله رب الغلام، فمات وآثر الموت، ولكن كان من آثار ذلك أن آمن الحاضرون كلهم، وقالوا: آمنا برب الغلام.

ولذلك شق الملك أخدوداً وأوقد فيه ناراً، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ① وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ② وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ③ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ④ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ⑤ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ⑥ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ [البروج: ١ ـ ٧]، وجعلوا كلما جاءهم شخص قالوا له: ارجع عن دينك وإلا قذفناك في هذه النار فيصبر، فصبروا حتىٰ أُلقوا جميعاً في النار وما صدهم ذلك عن دينهم.

كذلك أيضاً وقع مثل هذا في هذه الأمة، ويَعْرفُ ذلك من تتبع التاريخ، فخلق كثير من هذه الأمة قديماً وحديثاً عذبوا وأوذوا علىٰ يد بعض الملوك عندما ظفروا بهم، فآذوهم وأحرقوهم، وما صدهم ذلك عن دينهم.

ذلك كله لأنهم عرفوا أنهم علىٰ الحق، وصبروا علىٰ ما هم عليه؛ وكرهوا العودة إلىٰ الكفر، كما في قوله ﷺ: «**أن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه، كما يكره أن يقذف في النار**»، أي: نار الدنيا؛ لأنه يعرف أنه إذا تخلص من نار الدنيا وكفر ما نجىٰ من نار الآخرة.

■ **قوله: [وعن ابن عباس، قال: «من أحب في الله، وأبغض في الله، ووالى في الله، وعادى في الله، فإنما تنال ولاية الله بذلك، ولن يجد عبد طعم الإيمان، وإن كثرت صلاته وصومه، حتى يكون كذلك، وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا، وذلك لا يجدي على أهله شيئاً»(١) رواه ابن جرير]:**

يحث هذا الحديث على أن تكون المحبة لله، والبغض لله، وكذلك الذي يتبع المحبة من الموالاة، والذي يتبع البغض من المعاداة، فإن من أحب شخصاً والاه، ومن أبغض شخصاً عاداه.

فالموالاة: هي اتخاذ وليٍّ والقرب منه ومؤازرته وزيارته ومؤانسته ومجالسته

---

(١) لم أجده عند ابن جرير كما ذكر المصنف.
وقد أخرجه ابن المبارك في الزهد رقم (٣٥٣)، عن ابن عباس موقوفاً، والطبراني في «الكبير» رقم (١٣٥٣٧)، عن ابن عمر موقوفاً، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٣١٢)، عن ابن عمر مرفوعاً.
والحديث مداره على ليث ابن أبي سليم وهو ضعيف مختلط كما في «تهذيب التهذيب» (٨/ ٤٦٧)، و«تقريب التهذيب» (٢/ ١٣٨).
والحديث له شاهدان وهما:
الشاهد الأول: عن أبي أمامة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«من أحب في الله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله، استكمل الإيمان»**.
أخرجه أبو داود برقم (٤٦٨). والطبراني في «الكبير» رقم (٧٦١٣، ٧٧٣٧، ٧٧٣٨)، والبيهقي في «السنن» (٣/ ١١)، وأورده البغوي في «شرح السنة» (١٣/ ٥٤).
وصححه الألباني في «صحيح أبي داود، وحسنه الأرناؤوط في «تحقيق شرح السنة».
الشاهد الثاني: عن معاذ ابن أنس الجهني رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«من أعطى لله تعالى، ومنع لله، وأحب لله، وأبغض لله، وأنكح لله، فقد استكمل إيمانه»**.
أخرجه أحمد في «المسند» (٣/ ٤٣٨، ٤٤٠)، والترمذي رقم (٢٥٢١)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ١٦٤).
قال الترمذي: هذا حديث حسن، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، وأقره الذهبي.

ومواساته وإعطاؤه، وما أشبه ذلك، هذا من آثار محبته، فمن آثار المحبة الصادقة الموالاة؛ هذا معنىٰ قوله: أحب في الله، ووالىٰ في الله.

والمعاداة: هي المقاطعة، تعادي فلاناً، أي: تتخذه عدواً، وتهجره، وتمقته، وتبغضه، وتبتعد عنه، وتحذره ولا تقترب منه، لأنه عدوٌ لك، ومعلوم أنه إذا أبغض إنسان شخصاً فإنه عادة يقاطعه،

فيجب أن تكون محبة المسلم لله، فلا يحب إلا الشخص الذي يحبه الله، ولا يحبه إلا لله وفي الله، ويحبه من أجل ديانته، ويحبه من أجل صلاحه، ويحبه من أجل تقواه وإيمانه، ويحبه من أجل أن الله يحبه، ويحبه لأنه يحب الله.

كذلك إذا أحبه اقترب منه، فيخبره بأنه يحبه لذات الله، روي أن رجلاً مر بإنسان عند النبي ﷺ، فقال ذلك الجالس: إني أحب هذا لله، فقال النبي ﷺ: «**هل أخبرته؟**» قال: لا، قال: «**أخبره**»، فقام فقال له: إني أحبك في الله، فقال: أحبك الذي أحببتني له[1]، دعا له بهذه الدعوة الصالحة؛ لأنه أحبه لله.

هذا معنىٰ قوله: «**من أحب في الله، وأبغض في الله، ووالى في الله، وعادى في الله**».

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (٥١٢٥)، وأحمد (٣/ ١٤٠، ١٤١، ١٥٠)، وابن حبان بترتيب ابن بلبان (٢/ ٣٣٠) رقم (٥٧١)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ١٧١)، والبغوي في «شرح السنة» (١٣/ ٦٧)، من طرق عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وحسن إسناده الأرناووط في «تحقيق صحيح ابن حبان» (٢/ ٣٣١)، وفي «تحقيق شرح السنة» (١٣/ ٦٧)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١/ ٧٧٨)، رقم (٤١٨)، وقال: وهذا سند صحيح علىٰ شرط مسلم.

ويشهد له حديث المقدام بن معدي كرب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إذا أحب أحدكم أخاه فليعلمه**».

أخرجه أبو داود برقم (٥١٢٤)، والترمذي برقم (٢٣٩٣). وأحمد (٤/ ١٣٠). والبخاري =

وأما قوله: «فإنما تنال ولاية الله بذلك»، ولاية الله، يعني: أن يكون الشخص من أولياء الله، وأولياء الله هم أحبابه، وأولياء الله هم الأتقياء، وأولياء الله هم المؤمنون، قال تعالى: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ من هم؟ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣].

فإذا أراد المسلم أن يكون من أولياء الله فما عليه إلا أن يحب من يحبه الله، ويوالي من يواليه الله، ويبغض من يبغضه الله، ويعادي من يعاديه الله؛ ليكون من أولياء الله؛ فتنال بذلك ولاية الله.

ثم قال: «**ولن يجد عبد طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصومه، حتى يكون كذلك**»، يعني: أن من أسباب وجود طعم الإيمان هذه الأشياء التي ذكرت في الحديث، وهي: الحب في الله، والبغض في الله، والموالاة في الله.

وقد ذكرنا أن للإسلام وللإيمان طعم ولذة، وحلاوة حسية فيشعر بها

= في «الأدب المفرد» (٥٤٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦ / ٩٩)، والحاكم في «المستدرك» (٤ / ١٧١)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٢٠٦)، وابن السني (١٩٦)، والبغوي في «شرح السنة» (١٣ / ٦٧).

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وصححه الألباني في «الأدب المفرد» برقم (٤٢١)، وفي «السلسلة الصحيحة» برقم (٤١٧)، وصححه الأرناؤوط في «شرح السنة» (١٣ / ٦٧).

* وفي الباب عن أبي ذر رضي الله عنه، أخرجه أحمد (٥ / ١٤٥، ١٤٧).

قال الهيثمي (١٠/ ٢٨١، ٢٨٢): رواه أحمد وإسناده حسن. وقال الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (٤١٧): وهو كما قال، أي: الهيثمي أو أعلى، وصحح إسناده الأرناؤوط في «شرح السنة» (١٣ / ٦٧).

* وعن أبي عمر أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٣٣٦١)، وفي الأوسط (٤٩١)، وابن حبان بترتيب ابن بلبان (٥٦٩)، قال الهيثمي في «المجمع» (١٠ / ٢٨٢): ورجالهما رجال الصحيح. وصححه الأرناؤوط في «تحقيق صحيح ابن حبان».

* وعن رجل من أصحاب النبي ﷺ، أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٥٤٣)، وصححه الألباني في الأدب المفرد برقم (٤٢٢)، وفي «السلسلة الصحيحة» رقم (٤١٨).

الإنسان، أي: يشعر بنشوة وبلذة وبقوة في بدنه، وأن ذلك مرتبط بالأعمال الصالحة، فكل عمل صالح يعمله الإنسان يظهر له فيه الْتذاذ وفرح، روي عن بعض الصالحين أنه قال: «إنه ليمر بالقلب أوقات يرقص فيها طرباً، أقول: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب». تلك الأوقات التي يرقص فيها القلب طرباً هي التي يجد فيها لذة الطاعة، ويجد الارتياح للطاعة، والأنس بالله تعالىٰ.

كذلك الالتزام بالأعمال الصالحة، ولاشك أن الأعمال الصالحة تؤثر علىٰ البدن نشاطاً، كما أن الأعمال السيئة تؤثر عليه كسلاً، وقد أثر عن ابن مسعود أنه قال: (إن للحسنة ضياءً في الوجه، ونوراً في القلب، وقوة في الجسم، وسعة في المعيشة، ومحبة في قلوب الناس، وإن للسيئة ظلمة في الوجه، وسواداً في القلب ووهناً في الجسم، وضنكاً في المعيشة، وبغضاً في قلوب الناس).

وقال بعضهم: (ليتق الله أحدكم، أن تلعنه قلوب الناس، وهو لا يشعر، يخلو بمعاصي الله، فيلقي الله في قلوبهم له البغضاء).

فإذاً طعم الإيمان ولذته إنما يحصل بكونه يحب أولياء الله، ويبغض أعداء الله، ويوالي من يواليهم الله، ويعادي من عاداه الله، هذا هو الذي يجد به المسلم لذة الإيمان وطعمه.

وأما من لم يكن كذلك؛ فإنه لا يجد للإيمان طعماً، ولو كثرت صلاته وصومه، ولو كان يكثر التنفلات من الصلوات، ـ مثلاً ـ وهو يتهجد في الليل، ويصلي الضحىٰ، ويصلي النوافل، ويحافظ علىٰ الفرائض، ويؤدي الرواتب، ويخشع في صلاته حيث أنه لا يحب من يحبه الله، ولا يبغض من يبغضه الله، ولا يقترب من أولياء الله، ولا يبتعد من أعداء الله؛ فإنه لايجد للإيمان حلاوة، ولايظهر للإيمان في قلبه لذة وارتياح.

ثم يقول ابن عباس: «وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا، وذلك لا يجدي على أهله شيئاً»:

والمواخاة معناها: المصافاة والمصادقة والمحبة والموالاة، يقول ابن عباس في زمانه: إن المؤاخاة على أمر الدنيا، فكيف لو رأى زماننا؟ زماننا هذا أهله إلا ما شاء الله أشد حبّاً للدنيا، وأشد مؤاخاة لأهلها، وقرباً لأهلها، وتهالكاً عليها، فإنا نشاهد أن أغلب الناس يتحابون، فنجد اثنين متحابين برهة من الزمان، فكل منهما صَالَحَ لنفسه، ثم نجدهم بعد مدة متباغضين متماقتين، وكل منهما قد عادى الثاني وفارقه.

وإذا سألت عن الأسباب وجدتها أموراً دنيوية، بأنه كان يقرضه، أو كان يهدي إليه، أو كان ينفعه، أو كان يعطيه، أو كان، أو كان، أو ما أشبه ذلك، ولما قطع عنه مصلحة، أو قطع عنه منفعة، مقته وأبغضه، وعاداه وقاطعه؛ فيكون أصل محبته من أجل الدنيا، وأصل بغضه ومعاداته من أجل الدنيا، فخليت تلك المحبة من أصلها النافع، وخلي البغض أيضاً من أصله النافع.

لذا قال رضي الله عنه: «**لا يجدي على أهله شيئاً**»، أي: لا يبقى؛ بل يضمحل وتنقطع آثاره.

■ **قوله:** [**وقال ابن عباس، في قوله تعالى:** ﴿**وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ**﴾ [البقرة: ١٦٦]، **قال: المودة**(١)]:

وهذا تفسير قوله تعالى: ﴿**إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ**﴾، أي: أن هناك في الدنيا أتباعاً، وهناك متبوعين.

---

(١) أخرجه ابن جرير (٢/ ٤٣)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٢٧٢)، وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (١/ ٤٠٢)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

والأتبــاع هم: عامة الناس وهم الضعفاء؛ الذين كانوا يتبعون رؤساءهم وأكـابرهم؛ لأن أولئك الكبـراء كـانوا يؤوونـهم ويعطونهم، ويكرمـونـهم، ويضيفونهم، وينصرونهم، ويواسونهم، ويهدون لهم، لكنهم لا ينصحونهم في ذات الله، ولا يرشدونهم إلى الخير، ولا يأمرونهم بالمعروف، ولا ينهونهم عن المنكر، بل ربما يوقعونهم في المنكر، فإذا فعل الرؤساء المنكر فإنهم يتبعونهم فيه ويطيعـونهم فيه، فـإذا جاء يوم القيـامة فإن السـادة والكبـراء يتبـرءون منهم، ويقولون: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاْ (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٧، ٦٨].

وفي يوم القيامة، كل منهم يتبرأ من الآخر، يتبرأ المتبوع من التابع، يقول المتبوع (الرئيس): إني بريء منك، فإني لم أضلك، ولـم أَدْعُكَ، ولم أوقعك في الباطل، ويقول التابع: بل أنت الذي أوقعتني، وأنت الذي زينته لي، وأنت الذي أرديتني، و لكن لا يفيد كل منهم الآخر، وتتقطع بينهم الأسباب، وتتبدل المحبة والمودة بالبغضاء، ويمقت كل منهم الآخر، كما في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨]، فإذاً في يوم القيامة تتقطع المودة حتى لو كانت مودة نسب.

فمودة النسب ومودة السبب إذا لم تكن مودة في ذات الله تتقطع يوم القيامة، والمودة في ذات الله والمحبة في الله هي التي تبقى، قال تعالى: ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

الأخلاء: هم المتخالون، بمعنى: المتحابين، كما في قوله ﷺ: «المرء على دين

خليله، فلينظر أحدكم من يخالل»[(١)]، فالخلة هي المحبة، والخليل بمعنى: الحبيب، يقول: ﴿**الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ**﴾ ؛ أي: يوم القيامة، ﴿**بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ**﴾، كل منهم يسب الثاني ويتبرأ منه، ﴿**إِلاَّ الْمُتَّقِينَ**﴾.

كذلك ـ أيضاً ـ الأقارب، فالأقارب كل منهم يفر من قريبه، كما في قوله تعالى: ﴿**فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ**﴾ [المؤمنون:١٠١]، أي: ليس بينهم قرابات، وكما في قوله: ﴿**يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ**﴾ إلى آخره [عبس:٣٤،٣٦].

فتتقطع بينهم المودة، ولا ينفع أحد منهم الآخر، وكل منهم يتبرأ من الآخر، لكن أهل الإيمان تبقى مودتهم ﴿**إِلاَّ الْمُتَّقِينَ**﴾، فالمتقون هم الذين يبقون، لأنهم تحابوا في ذات الله على غير أرحام بينهم، فبقي أثر هذه المحبة، فهم في الجنة يتزاورون، ويتذاكرون حالهم في الدنيا، ويتذاكرون ما كان منهم، وكلما ذكروا ذلك ازدادوا غبطة، وازدادوا شكراً لربهم، وازدادوا اعترافاً بفضله وهكذا، فهؤلاء هم المتحابون في الله.

وفي قوله ﷺ: يقول الله تعالى: «**وجبت محبتي: للمتحابين في، وللمتزاورين في، والمتباذلين فيّ**»[(٢)]، فهذا ونحوه يحملنا على أن تكون محبتنا لله، ولمن يحبه

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (٤٨٣٣)، والترمذي برقم (٢٣٧٨)، والحاكم في «المستدرك» (٤ / ١٧١)، وأحمد في «المسند» (٢ / ٣٠٣، ٣٣٤)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.
قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، وقال أحمد شاكر في «تحقيق المسند» (٨٠١٥): إسناده صحيح، وانظر السلسلة الصحيحة للألباني (٢ / ٦٣٤)، رقم (٩٢٧).

(٢) أخرجه أحمد (٥ / ٢٢٩، ٢٣٣، ٢٣٧، ٢٣٩، ٣٢٨)، ومالك في الموطأ في الشعر رقم (١٦)، والبغوي في «شرح السنة» (١٣ / ٥٠)، وابن حبان بترتيب ابن بلبان (٢ / ٣٣٤)، رقم (٥٧٥)، والطبراني في «الكبير» (٢٠ / ١٥٠)، والحاكم في «المستدرك» (٤ / ١٦٨، ١٦٩)، وأورده المنذري في «الترغيب والترهيب» رقم (٤٤٢١)، من طرق كلهم عن معاذ بن جبل =

الله، وألا نحب من أجل أمور دنيوية عاجلة لا بقاء لها، لأن الأمور الدنيوية زائلة، ولا ينافي هذا أن نعترف بفضل من تفضل علينا، ولكن لانحبه مع فساده.

فلو أن إنساناً أسدىٰ إليك معروفاً، أو نفعك بنفع دنيوي، مع أنه فاسق، فلا تحبه، ولكن تعترف بفضله وبعطائه، مع بغضك له علىٰ معصيته، وتنصحه بأن يتوب من تلك المعصية، فإن لم يرجع فلا مؤاخاة، ولا مصاحبة، ولا موالاة.

وأيضاً لو أن إنساناً صالحاً رفض أن يعطي شخصاً مالاً أو منفعة معينة لم يكن واجباً عليه أن يفعلها فلا يشنع عليه، ولا يذم علىٰ ذلك، بل يوالىٰ ويؤاخىٰ لصلاحه، فالمدح والذم لا يكون علىٰ الأمور الدنيوية، ولا يكون إلا في الله، كما أن الحب لا يكون إلا لله.

■ ■ ■ ■ ■

= رضي الله عنه.

وصححه الحاكم علىٰ شرط الشيخين ووافقه الذهبي، وصححه الأرناؤوط في تحقيق ابن حبان (٢ / ٢٣٥)، رقم (٥٧٥)، وقال في تحقيق «شرح السنة» (١٣ / ٥٠): إسناده صحيح، وقال ابن عبد البر: هذا إسناد صحيح. وقال المنذري: رواه مالك بإسناد صحيح، وابن حبان في صحيحه.

[٣١]

باب:

قول الله تعالى:

﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾

قوله الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

وقوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ فَعَسَىٰ أُوْلَئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨].

وقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠].

عن أبي سعيد مرفوعاً: «إن من ضعف اليقين: أن ترضي الناس بسخط الله، وأن تحمدهم على رزق الله، وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله، إن رزق الله لا يجره حرص حريص، ولا يرده كراهية كاره».

وعن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: «من التمس رضى الله بسخط الناس، رضي الله عنه وأرضى عنه الناس، ومن التمس رضى الناس بسخط الله، سخط الله عليه وأسخط عليه الناس»، رواه ابن حبان في صحيحه.

■ ■ ■ ■ ■

• فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية آل عمران.

الثانية: تفسير آية براءة.

الثالثة: تفسير آية العنكبوت.

الرابعة: أن اليقين يضعف ويقوىٰ.

الخامسة: علامة ضعفه ومن ذلك هذه الثلاث.

السادسة: أن إخلاص الخوف لله من الفرائض.

السابعة: ذكر ثواب من فعله.

الثامنة: ذكر عقاب من تركه.

■ ■ ■ ■ ■

●● الشرح ●●

باب:
قول الله تعالى:
﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾

هذا الباب معقود لبيان أن الخوف عبادة، وأنه لا يصلح إلا لله، وأنه يحصل الشرك بالخوف، كما يحصل الشرك بالدعاء، ويحصل بالرجاء، ويحصل في المحبة كما تقدم في الباب الذي قبله، كذلك يحصل شرك في الخوف.

والخوف: عبادة قلبية، ولكن تظهر على البدن آثارها.

والخوف أصله الوجل والحذر، وقد ورد في مواضع عديدة في القرآن الكريم وبألفاظ عديدة، فورد بلفظ الخوف في مواضع عديدة في القرآن، كما في هذه الآية، وورد بمعنى الخشية في مواضع عديدة أيضاً، كما في قوله تعالى: **﴿فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾** [المائدة: ٤٤]، وقوله تعالى: **﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ﴾** [النساء: ٧٧]، وورد أيضاً بمعنى الرهبة في مواضع كثيرة، كما في قوله تعالى: **﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾** [البقرة: ٤٠]، وقوله: **﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾** [الأنبياء: ٩٠].

وحيث أن الخوف عبادة قلبية، فإنه سرٌّ بين العبد وبين ربه، فلا يطلع على ما في قلب العبد من الخوف إلا الله.

والخوف يجب أن يكون من الله وحده، ولذلك أسباب:

* **فمن ذلك**: تذكر عظمة الله، فإن من تذكر عظمة الله خافه.

* **ومن ذلك**: تذكر عقوباته التي وقعت للأمم قبلنا، فمن تذكرها خاف من الله أن يعاقبه.

* **ومن ذلك أيضاً**: تذكر عذابه الأخروي، وما في الآخرة من العذاب بعد الموت إلى دخول النار ونحوه، فإن من تذكر ذلك حصل له أيضاً خوف كبير.

وغير ذلك مما هو موسع في موضعه.

والخوف تارة يكون من الله أصلاً؛ أو ما له صلة به، فتارة يقال لك: خف الله، وتارة يقال لك: خف النار، وتارة يقال لك: خف العذاب، والأصل واحد، فالمسلم يخاف الله؛ لأنه يحصل منه العذاب لمن عصاه، ولأنه الذي يعذب بالنار من يستحق التعذيب، فالمرجع واحد، سواءً قيل: خف الله، أو خف عذاب الله، أو خف ناره، أو ما أشبه ذلك.

وقد اختلف هل على الإنسان أن يُغلِّب جانب الخوف أو يغلِّب الرجاء؟ أم على الإنسان في الدنيا أن يسوي بينهما؟

والصحيح: أنه يجمع الإنسان بين الخوف والرجاء، ويكون الخوف والرجاء له كجناحي الطائر، متى كان أحدهما ناقصاً اختل الطيران، فيكون الخوف والرجاء متساويين، وهذا قول كثير من العلماء.

ومنهم من يقول: بل على الإنسان في الصحة أن يُغلِّب جانب الخوف حتى لا يحتقر النعمة ويزدريها، ويستكثر من الطاعة، فيقول: أنا ماذا قدمت! إنَّ عذاب الله شديد، وأعمالي قليلة، لا تساوي أصغر نعمة من نعم الله علي، فكيف مع ذلك آمن؟ وكيف مع ذلك أغترُّ بها وأفتخر؟ ينبغي أن أتشبه بفلان وفلان من الصالحين المجدّين، وما أشبه ذلك، فتنظر إلى الذين هم أشد منك اجتهاداً، وأكثر منك عملاً، فتحتقر عملك عندهم، ويحملك ذلك على أن تخاف من تقصيرك، فهذا حال وقت الصحة.

أمـا عند المرض والخوف من الموت فإنه يُغلِّب جانب الرجاء، ويكون واثقاً متذكراً سعة رحمة الله، وسعة فضله، حتى يقدم عليه وهو محسن الظن به، لما ورد في الحديث: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه»[1]، فمن أجل ذلك يكون هذا التفريق.

وعلى كل حال فالإنسان مأمور بأن يخاف الله ويرجوه، فالذين غلّبوا جانب الرجاء فتحوا لأنفسهم أبواب الشهوات، وتساهلوا في المنافسة في الطاعات، فانهمكوا في المعاصي ووقعوا في المحرمات التي يجر بعضها بعضاً، وتراهم واثقين، يقول أحدهم: أنا ليس عندي عمل إلا رحمة الله، فالله يرحمنا، إن الله غفور رحيم وهكذا.

نقول لهم: لا تتعلقوا بالرحمة، الرحمة واسعة، والله تعالى يرحم عباده، وهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها، ولكن ائتوا بأسباب الرحمة.

وأسبابها هي الأعمال الصالحة، قال الله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧].

فانظر كيف جعل هؤلاء هم الذين تكتب لهم الرحمة التي كتبها الله على نفسه في قوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤].

وأما إذا كان الإنسان منهمكٌ في الذنوب، ومتوسعٌ فيها، ثم يقول: (اللهم ارحمني، أنا متعلق بهذه الرحمة)، وما أشبه ذلك؛ فإن هذا قد لا يستحقها؛ لأنه يعتبر متهاوناً بنظر الله، ومتهاوناً بعقوبته، ومتهاوناً بآثار معصيته.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٨٧٧)، من حديث جابر رضي الله عنه.

والله تعالىٰ حين يذكر الرحمة في آية ما فإنه يتبعها بآية فيها عذاب، كما في قوله تعالىٰ: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠]، وكما جمعهما في آية واحدة، كقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦]، وكقوله تعالىٰ: ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ [غافر: ٣]، وأشباه ذلك كثير، فجمع بين الرحمة والعذاب في موضع واحد ليكون الإنسان خائفاً راجياً.

فلا يغلّب جانب الخوف، ولا يغلب جانب الرجاء، بل يكون خائفاً راجياً، فمن غلب جانب الخوف وصل به الأمر إلىٰ اليأس والقنوط، كما في الباب الذي بعده، ومن غلب جانب الرجاء وصل به إلىٰ الأمن من مكر الله الذي قال الله فيه: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩].

والحاصل أن الخوف عبادة قلبية من أرفع العبادات التي أمر الله بها.

■ **قوله: [قوله الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ آل عمران: ١٧٥]:**

هذه الآية نزلت في قصة غزوة حمراء الأسد، فقد ذُكر أن النبي ﷺ لما رجع من أحد، وأقام في المدينة بعدما رجع المشركون إلىٰ مكة، بعد ذلك أمر أصحابه الذين رجعوا من أحد أن يخرجوا في أثر المشركين ليوقع الرعب في قلوبهم، فخرج معه من خرج علىٰ ما به من الجراح والمصائب حتىٰ بلغ حمراء الأسد، ثم ذُكر له أن المشركين فاتوهم فرجعوا، وأنزل الله تعالىٰ: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ - أي: خافوهم - فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ

اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٢ ـ ١٧٥].

والمعنىٰ: أن الشيطان يخوفكم بأوليائه، فيعظمهم في نفوسكم، ويقول: إنهم أكثر منكم عدداً، وأقوىٰ منكم عدة، وأجرأ منكم وأشجع، يريد بذلك تخذيل المؤمنين. ﴿فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

فالذي يخافهم ولا يخاف من الله لا يكون مؤمناً، بل يكون ناقص الإيمان، وكذلك الذي يخافهم ويخاف الله علىٰ حد سواء يكون قد أشرك، وقد جعل خوفه مشتركاً، بعضه لله وبعضه لغير الله، فيجب أن يكون الخوف من الله وحده.

والمراد هنا: خوف السر، لأن هناك خوفٌ طبيعيٌ فطري جُبِلَ الإنسان عليه لا يؤاخذ به، فإذا خاف سَبُعاً مثلاً تحصن منه، أو خاف من عدو له ضرر شديد، وعنده عدة وقوة، تحصن منه وتحرز، فمثل هذا خوف طبيعي لا يلامُ عليه.

إنما المراد خوف القلب السري الذي يكون خفيّاً، هذا الذي ينبغي ألا يكون إلا من الله تعالىٰ.

فعرفنا بهذا أن الخوف من أجلِّ العبادات، فعلىٰ الإنسان أن يكون عارفاً بأسبابه، حتىٰ يحصل له الخوف من الله، وعدم التساهل بحقوقه وبحرماته، وعدم الجرأة علىٰ محارمه.

والحاصل أن الشاهد من قوله: ﴿فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، أن الله اشترط في الإيمان الخوف من الله وحده، وَتَرْكِ الخوف من غيره، وأفاد أن الخوف عبادة، وأن خوفَ غير الله نقص في الإيمان ينافي كمال الإيمان، أو ينافي أصل الإيمان.

فإن كان الخوف خوفاً من المخلوق، فيخاف منه كما يخاف من الله، ويعتقد

فيه أنه يضر وينفع، ويعاقب وينتقم، فهو خوف يبطل التوحيد.

وإن كان الخوف خوفاً قلبيّاً، ولكن لم يصل إلىٰ تعظيم المخلوق واعتقاد انتقامه، فهو ينافي كمال التوحيد.

فمثلاً: إذا خاف من ميتٍ ما، واعتقد أنه إذا حلف به وحنث فإنه سينتقم منه، وسيعاقبه هذا الولي، لذلك خاف منه هذا الخوف، وقد عظمه ورفع قدره، وهذا واقع في كثير من المشركين، فإذا قيل لأحدهم: احلف بالله وهو كاذب حلف عشرات الأيمان، ولم يخف من الله أن ينتقم منه، أما إذا قيل له: احلف بالولي فلان لم يحلف إلا وهو صادق؛ لأنه يظن أنه إذا حلف به وهو كاذب أن ذلك الولي ينتقم منه ويعاقبه، فبهذا يكون قد خاف من غير الله أشد من خوفه من الله.

كذلك إذا اعتقد أن المخلوق إذا لم يتقرب إليه غضب وثار، فكثير من الناس يعتقدون في الأموات أو في الأولياء أنهم إذا لم يقربوا إليه، أو لم يذبحوا له، أو لم ينذروا له، أو لم يهريقوا دماً علىٰ قبره، سيغضب عليهم، أو يمرضهم، أو يصرف قلوبهم، أو يتلف مالهم، فتراهم يخافون من أولئك الأولياء، ويحملهم خوفهم علىٰ أن يرفعوهم ويعظموهم أشد التعظيم.

فمثل هذا ـ أيضاً ـ يعتبر قد خاف المخلوق أشد من خوف الله، فيكون منافياً لأصل التوحيد.

■ **قوله: [وقوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ فَعَسَىٰ أُوْلَئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾** [التوبة: ١٨]]:

فكما نهىٰ الله تعالىٰ عن خوف الناس، وكذلك نهىٰ عن خشيتهم، والخوف والخشية بمعنىٰ واحد، وقد تقدم أن الخوف عبادة قلبية، وأن من أسماء الخوف: الخشية. والخشية هي: شدة الخوف، أي: الخوف الشديد.

والخشية من أجلِّ العبادات التي يتعبد بها المؤمنون، بل إنما يتقرب بها العارفون بالله، الذين عرفوا الله، وعرفوا حدوده وحقوقه، وعلموا ما لهم وما عليهم، هؤلاء هم حقّاً الذين يخشون الله، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، أي: العلماء بالله، والعلماء بحقوقه وحدوده، وما يجب له.

وقد جعل الله الخشية أيضاً عبادة لا تصلح إلا له، لقوله تعالى: ﴿فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٣]، وقوله تعالى: ﴿فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٤٤]، فأفاد أن خشية الناس لا تجوز، وأن الخشية حقٌّ لله لا تصلح لغيره.

فالآية فيها دليل على أن الخشية عبادة، وهي قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ﴾ [التوبة: ١٨]، وعمارة المسجد تكون بالطاعة والعبادة والذكر ونحوه، هذه هي العمارة الحقيقية، وليست التشييد والرفع ونحوه مع تعطيلها من العبادة، إنما يعمرها من اتصف بهذه الصفات:

أولاً: الإيمان بالله: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾.

ثانياً: الإيمان والتصديق باليوم الآخر، والاستعداد له: ﴿وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾.

ثالثاً: إقامة الصلاة: ﴿وَأَقَامَ الصَّلاةَ﴾.

رابعاً: إيتاء الزكاة: ﴿وَآتَى الزَّكَاةَ﴾.

خامساً: الخشية من الله وحده: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ﴾.

وهذا هو الشاهد، أي: خشي الله وحده، ولم يخش غيره، فدل على أن خشية غير الله تُنقص الإيمان وتنقص حقيقة الأعمال.

وقد ذكرنا أن خشية الله إنما تحصل لأهل الإيمان، ولأهل المعرفة بالله، ودليله

قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، أي: لا يخشاه حقّاً إلا العلماء، أي: العارفون بالله، وما يجب له، والعارفون بعظمته وكبريائه وجلاله، والعارفون بحقوقه وحدوده، والعارفون بأسمائه وصفاته، والعارفون بوعده ووعيده، هؤلاء تحملهم المعرفة علىٰ أن يخشوه.

ومتىٰ خشوه فإن لهم الأجر الكبير الذي هو الجنة وما فيها، ولا يحصل ذلك إلا لهم، ودليله قوله تعالىٰ: ﴿جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ [البينة: ٨]، أي: هذا الجزاء كله ليس إلا لأهل الخشية.

■ **قوله**: [وقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠]]:

هذه الآية تدل علىٰ أن هناك من يخاف من الناس كما يخاف من الله، فتحمله مخافة الناس علىٰ أن يترك حق الله، ويعصي الله، ويطيع غيره.

وهذه الآية نزلت في أناس آمنوا إيماناً ضعيفاً، فلما آذاهم المشركون بأنواع من الأذىٰ تركوا الإيمان، ورجعوا إلىٰ الكفر، ويخافون من الناس كما يخافون من الله، يجعلون فتنة الناس كعذاب الله، وربما أشد؛ حيث إنهم لم يتصوروا عذاب الله؛ ولأجل ذلك تهاونوا به، فقالوا: نطيع الناس علىٰ ما أمروا، ونسير معهم كيفما أرادوا، وهذا لا يجوز؛ بل هو مداهنة في حقوق الله، وتهاون فيها، وتهاون بعذابه.

فالواجب علىٰ المؤمن في مثل هذا أن يصبر علىٰ الأذىٰ في الله، والصبر علىٰ الأذىٰ في الله من خصال المؤمنين، وقد ذكر الله أن أهل الإيمان حقّاً لابد أن يبتلوا، وهذه الابتلاءات التي تصيبهم اختبار وامتحان ليظهر من يصبر ممن

يجزع، وليظهر من يكون خوفه من الله شديداً؛ ولا يخاف من الناس، أو خوفه من الناس أشد من خوفه من الله.

يقول الله تعالىٰ: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾ [آل عمران: ١٨٦]، أخبر تعالىٰ بأنكم إذا آمنتم فلا بد وأن تبتلوا بأي شي، إما بالفقر والفاقة والحاجة، وإما بالأذىٰ من الناس؛ والضرب والسجن؛ ونحو ذلك، وإما بالاستهزاء والتنقص لحالاتكم وما أشبه ذلك.

هذا الابتلاء وتسلط هؤلاء الأعداء ليظهر صادق الإيمان الذي يعرف أنه متىٰ صبر زاد أجره عند الله، وازداد حظه في الآخرة، ومتىٰ جزع ما زاده جزعه إلا بعداً عن الله ولو عمل ما عمل.

ولو أن الإنسان داهن الناس في حق الله، وأعطاهم ما أرادوا فرضوا عنه، وأعطوه مالاً، أو أخرجوه من السجن مثلاً، أو سلم من السخرية والاستهزاء؛ فإنه خاسر والحال هذه، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

ولما وصف الله أهل النجاة، وصفهم بالتواصي بالصبر في قوله تعالىٰ: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ [البلد: ١٧]، وفي قوله تعالىٰ: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣]، أي: أوصىٰ بعضهم بعضاً، وعلموا أنه من صدق في إيمانه وأعماله لابد أن يناله أذىً فلا يكون كمن ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾، وفتنة الناس ابتلاؤهم وامتحانهم.

ومن الناس من لا يصبر، ويداهن الناس ليسلم من الأذىٰ، ومنهم من لا يزيده استهزاء الناس إلا صلابة وقوة في الحق، ومضياً وثباتاً، كما في هذه الآية:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠].

فمن فتنة الناس هذه الأمور الثلاثة؛ أي: حرمان الإنسان من المصالح الدنيوية مثلاً إذا أسلم، فعلى سبيل المثال كثير من العمال يسلمون وهم نصارى أصلاً، فإذا أسلم العامل من هؤلاء حرمه من العمل زملاؤه وشركاؤه، أو طردوه، فهذا من الابتلاء.

أو إذا كان لهم استطاعة ـ مثلاً ـ أو لهم عليه ولاية، ولهم عليه سيطرة ضرّوه، أو استهزءوا به، وانتقصوا من حال ديانته، أو من صلاته وركوعه وسجوده.

والتنقص بحاله ولباسه وهيئته من الابتلاء، فبعض الناس لا يصبر، فيقول: لا أستطيع أن أترك نفسي للناس يستهزءون بي، فيمشي مع الناس، ويعطيهم ما طلبوا، وهذا داخل في هذه الآية: ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾.

ومن الناس من يكون إيمانه قوياً، فلا يزيده ذلك إلا صلابة، ولا يضره هذا الأمر منهم.

والله تعالى قد يبتلي العبد ليقوي إيمانه، أو ليظهر للناس ضعف إيمانه، فبعض الناس إذا كانوا في رخاء وسعة لم يتبين لنا من هو صادق الإيمان ممن هو كاذب، ومن هو مؤمن ممن هو منافق.

ولكن إذا جاءت المحن والفتن والابتلاءات من الله تبين لنا ذلك، والله عالم بالقلوب، وعالم بضعيف الإيمان وقوي الإيمان، لكن ليتبين لنا نحن حتى نوالي الصادق، ونعادي الكاذب.

والدليل على ذلك قصة الأحزاب، فقبل وقعة الأحزاب التي تحزبت على

أهل المدينة كان المنافقون مختفون بين المؤمنين، وبعض الناس يعدونهم من المؤمنين، ويعتقدون أنهم إخوانهم، وأنهم معهم يجاهدون ويقاتلون، ولكن بعد أن وقعت تلك الواقعة تبين الصادق من المنافق، قال تعالىٰ: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً﴾ [الأحزاب: ١٠، ١١].

لكنهم ثبتوا، كما أخبر تعالىٰ عنهم: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيماً﴾ [الأحزاب: ٢٢].

أما المنافقون فإنهم ذُعِروا: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً (١٢) وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَاراً﴾ [الأحزاب: ١٢، ١٣].

فالابتلاء من الله يكون تارة بتسليط الأعداء، وتارة يكون بتسليط الأمراض والعاهات البدنية؛ وتارة يكون الابتلاء من الله بالفقر وقلة ذات اليد والإعواز، ليظهر من يصبر ممن يجزع، وكل ذلك ابتلاء من الله، فمن صبر نال الأجر، ومن جزع وارتد خسر.

ومن الأدلة علىٰ ذلك ـ أيضاً ـ من القرآن، قول الله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ﴾ [الحج: ١١].

فمن يعبد الله علىٰ حرف، إن أصابه خير اطمأن به، فمتىٰ كان في صحة ورفاهية ونعمة وثروة، ومال وولد، اطمأن ولم يعلم به الناس.

وإن أصابه ضر ومرض وفتنة انقلبت على وجهه، وأخذ يسب الدين، ويقول: منذ دخلت في الإسلام، وأنا مصاب بكذا وكذا، هذا دين لا خير فيه، أصابني فيه الفقر، وأصابتني فيه العاهة، وأصابتني فيه الشدة، منذ فارقت ديني الأول، وأنا مبتلى بكذا وكذا، ما حصلت على كذا؛ لا على رفاهية، ولا على خير ونحو ذلك.

فيتبين للناس أنه يعبد الله على حرف؛ ولم يكن مطمئن القلب بالإيمان، فهذا ونحوه داخل في هذه الآية: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ**﴾ [العنكبوت: ١٠]، فليس هذا مؤمناً حقاً، فالمؤمن هو الذي لا يخاف إلا من الله، ولا يراقب إلا الله؛ ويجعل فتنة الناس ابتلاءً من الله فيصبر، ويزيده ثباتاً في أمره.

وقد استثني من ذلك المكره على كلمة الكفر مع اطمئنان قلبه بالإيمان، فإن مثل هذا يجوز فعله، لقوله تعالى: ﴿**إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ**﴾ [النحل: ١٠٦]، فإذا أوذي المسلم، وحبس، واضطهد، وظن أن في إعطائه للكفار ما يطلبونه سبباً في تخليصه، مع أن قلبه مطمئن بالإيمان، جاز أن يعطيهم طُلبتهم.

وقد قيل: إن هذه الآية نزلت في عمّار لما أكرهه المشركون على سب الرسول ﷺ حتى يخلصوه، فقال ما يكره أو ما يحبون، فقال النبي ﷺ: «**كيف تجد قلبك؟**»، قال: مطمئناً بالإيمان، قال: «**إن عادوا فعد**»، أو كما قال[1].

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره، ونقله عنه ابن كثير في تفسير القرآن العظيم (٢/ ٥٨٧)، وأورده السيوطي في الدر المنثور (٤/ ١١٤، ١٣٢)، وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٨/ ٢٠٨) رقم (١٦٦٧٣)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٣٨٩) رقم (٣٣٦٢)، عن محمد بن عمار بن ياسر وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

■ **قوله: [عن أبي سعيد مرفوعاً: «إن من ضعف اليقين: أن تُرضي الناس بسخط الله، وأن تحمدهم على رزق الله، وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله، إن رزق الله لا يجره حرص حريص، ولا يرده كراهية كاره»[1]]:**

هذا حديث عظيم، يدل على أنه ﷺ أوتي جوامع الكلم، والحكم الجامعة المانعة.

واليقين هو: الإيمان القلبي، وضده الشرك.

والموقن هو: الذي أيقن بالآخرة، وبما فيها، وأيقن بالله وبوعد الله، وبأمره ونهيه، أي: تيقن ذلك وصدق به، وليس يتطرق إلى قلبه شك ولا ريب.

وهذا اليقين قد يضعف، وقد يتلاشى ويضمحل، حتى لا يبقى منه شيء، ومن أسباب ضعفه **هذه الخصال الثلاث**:

الخصلة الأولى: أن ترضي الناس بسخط الله:

وهذا عام في كل شيء يسخط الله، فالله تعالى حرم عليك المعصية، فلا ترض الناس بمعصية الله، ولو رضي عنك الناس في زمن أو فترة من الفترات، فإن رضى الناس لا يقابل أدنى شيء من سخط الله؛ لأنهم يرضون فترة ثم يسخطون.

لكن متى علم المرء أن القصد الأصلي هو رضى الله؛ فقصد رضاه، واستقام

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٥/ ١٠٦)، (١٠/ ٤١)، والبيهقي في الشعب (١/ ١٥١، ١٥٢) رقم (٢٠٣). وضعفه الألباني في ضعف الجامع برقم (٢٠٠٧).

قال الشيخ ابن جبرين: ولكن يشهد لمعناه الحديث الذي بعده الذي أورده المصنف.

وقال الشيخ سليمان بن محمد في فتح المجيد (٢/ ٥٨٠): والحديث وإن كان في إسناده من ذكر، فمعناه صحيح.

علىٰ أمره، وعصىٰ من دعاه إلىٰ معصيته، ولم يخش إلا الله، فليعلم أن الناس سيعرفون قصده ونيته، وسيحبونه، ويعذرونه.

أما إذا أطاعهم، واتبع أهواءهم، وكان ذلك في سخط الله، فإنه والحال هذه قد أسخط الله أشد السخط، ولا ينفعه رضىٰ الناس، وهذا واقع مع الأسف.

إن كثيراً من الناس لا يهتمون برضىٰ الله، فإذا رضي عنه الناس قدم ذلك، مع علمه بأن رضىٰ الناس أمر مؤقت، فقد يرضون في وقت ثم يسخطون بعد قليل إذا خالف مطلبهم، ومع علمه بأن رضىٰ الناس لا يفيده، ولو رضوا عنه لما حصلت له مقاصده، ولا حصلت له المصالح المحبوبة.

نرىٰ بعض الناس يتركون كثيراً من العبادات إرضاءً لزملائهم وخلطائهم ورؤسائهم، ومن أشبههم، أو يتعاطىٰ معصية الله، إذا ـ مثلاً ـ رأوه قد رفع ثيابه إلىٰ نصف الساق، أو إلىٰ فوق الكعب، عابوه بذلك، فهو يرضيهم ويسبل ثيابه.

أو إذا رأوه قد وفر لحيته، عابوه، فهو يرضيهم فيحلق لحيته إرضاءً للناس.

أو إذا رأوه يحافظ علىٰ الصلوات، عابوه، ولقبوه بألقاب شنيعة، فهو يرضيهم، ويترك الصلاة، أو يترك الجماعة.

أو إذا رأوه يتنزه عن شرب الخمر، أو شرب الدخان أو نحو ذلك، عابوه، وسموه بخيلاً، أو متزمتاً أو متعصباً، أو ما أشبه ذلك، فهو يرضيهم ويوافقهم ويشرب كما يشربون.

أو إذا رأوه يبعد نفسه عن الملهيات، وعن الصور المحرمة، والأفلام الخليعة، والإصغاء إلىٰ الأغاني ونحوها، عابوه وتنقصوه، فهو يقول: لا أصبر علىٰ عيبهم، بل أفعل كما يفعلون، فأعكف علىٰ ما يعكفون عليه من الملاهي،

وأجلس في مجالسهم، فهو يرضيهم بذلك، حتىٰ يندمج ويكون معهم، فهو بذلك قد أرضىٰ الناس بسخط الله.

وهكذا يقاس علىٰ ما تقدم؛ كل الأمور التي فيها معصية الله، وهكذا ـ أيضاً ـ في فعل الطاعات ونحوها.

فالحاصل أن الذي يفعل المعصية التي فيها سخط الله من أجل أن يماشي الناس، ويرضيهم، فهذا ضعيف اليقين.

الخصلة الثانية: وأن تحمدهم على رزق الله:

اعلم أن ما يسر الله لك من الرزق، وما أوصل إليك من سبب فهو من الله، فلا تحمد الناس علىٰ ذلك، ولا تقل: هؤلاء هم الذين رزقوني، أو هم الذين أعطوني، أو هم الذين رفعوني، أو هم الذين مكنوني، لا تحمدهم علىٰ ذلك، بل احمد الله.

لا تحمد الناس علىٰ الشيء الذي هو من الله أصلاً، ولكن قل: الله تعالىٰ هو الذي سخر قلوبهم، وهو الذي يسر هذا الرزق بواسطتهم، وإن كان عليك أن تعترف بفضل من شفع لك، أو نفعك، ولكن اعلم أن الأصل من الله؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: **«من لا يشكر الناس لا يشكر الله»**(١)، أي: من لا يشكر ذا الفضل وذا النعمة والمنة والشفاعة والمنفعة لم يشكر الله.

لكن لا تجعلهم هم الأصل والسبب الأكيد، بل اعتقد أن الله تعالىٰ هو الذي

(١) أخرجه أبو داود برقم (٤٨١١)، والترمذي برقم (١٩٥٤)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.
وأخرجه أحمد في المسند (٣/ ٧٤)، والترمذي برقم (١٩٥٥)، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.
وقال الترمذي عن حديث أبي هريرة وأبي سعيد: هذا حديث حسن صحيح. وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٦٤٧٧).

يسرّ لك هذا الرزق، وقل: ﴿هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: ٤٠]، فمن حمد الناس على رزق الله، وأخذ يمدحهم ويقول: هم الذين أعطوني، وهم الذين فعلوا، وهم الذين نفعوا، فإن ذلك من ضعف اليقين.

الخصلة الثالثة: وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله:

إذا لم يتيسر لك الرزق فلا تذم الناس، أي: إذا لم يتيسر للمرء مصلحة من المصالح الدنيوية أرادها، فلا يذم الناس على ما لم يؤته الله، فمثلاً إذا طلب شراء سلعة، فحال بينه وبينها فلان، أو طلب وظيفة، فحال بينه وبينها شخص، أو طلب أرضاً أو حرثاً، أو نحو ذلك، ولم يتيسر له ذلك؛ لأن فلاناً منعه منها، أو نحو ذلك؛ فليعلم أن الله لم يقدر له ذلك، ولو قدره لوصل إليه.

فلا يذمهم على الرزق الذي ما أوصله الله إليه، ولا يسلط أذاه عليهم ولسانه، فيقول: فلان هو الذي حرمني هذا العمل، فلان هو الذي حرمني هذا الرزق، فلان هو الذي أخذ رزقي، فلان هو الذي حال بيني وبين هذه المصلحة، ونحو ذلك؛ بل يرضى بما قدر الله، ويعلم أن رزقه لابد أن يصل إليه، لقوله عليه الصلاة والسلام: «**واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك**»، وفي رواية: «**واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لك لم ينفعوك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يضروك**»(١).

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٢٥١٦)، وأحمد في المسند (١/ ٢٩٣، ٣٠٣)، والحاكم في المستدرك (٣/ ٦٢٤)، وأبو يعلى في المسند (٤/ ٤٣٠) رقم (٢٥٥٦)، والطبراني في الكبير (١١/ ١٢٣، ٢٢٣) رقم (١١٢٤٣، ١١٥٦٠)، عن ابن عباس رضي الله عنهما.
قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وقال أحمد شاكر (٢٦٦٩): إسناده صحيح.

فإذاً الاشتغال بسب الناس وعيبهم، بأنهم هم الذين حالوا بين الإنسان وبين هذا الرزق، هذا من ضعف اليقين، بل ينبغي أن يقول المرء: لو قدر الله هذا الرزق لكان، ولو كتبه لي لحصل.

وتمام الحديث يدل على هذا، وهو قوله ﷺ: «**إن رزق الله لا يجره حرص حريص، ولا يرده كراهية كاره**»، أي: متى قدّر الله تعالى لك رزقاً حلالاً جَعَلَ له أسباباً ووسائل حتى يصل إليك ما كتبه لك، فقد أخبر النبي ﷺ: أن الملك ينفخ الروح في الجنين وهو في الرحم، ثم يكتب بأمر الله تعالى: رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد[1]، فإذا قدر الله تعالى للعبد شيئاً من الرزق فلا يجره حرص حريص؛ سواء صاحبه أو غيره.

فقد يبذل المرء أسباباً وحيلاً وأعمالاً، ويحترف حرفاً ويتوسل بغيره في الحصول على نفع أو مال، ومع ذلك يخفق في سعيه؛ حيث أن الله تعالى لم يقدره له، رغم حرصه وشدة طلبه وبذله في ذلك الجهد الجهيد غير المفيد.

وهكذا قد يصل إلى الإنسان رزق حلال وهو لم يسع في تحصيله ولو حسده الحاسدون، وكرهوا أن يصل إليه خير أو نفع فلا يقدرون على رد ما قسمه الله تعالى، وقد قيل:

لقد علمت وما الإشراف من خلقي
إن الذي هو رزقي سوف يأتيني
أسعى إليه فيُعْيِيني تَطَلُّبُهُ
ولو قعدت أتاني لا يُعَنِّيني

---

(١) وذلك في حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: «**إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد...**» إلخ. أخرجه البخاري برقم (٣٢٠٨)، ومسلم برقم (٢٦٤٣).

ومع ذلك فالإنسان مأمور ببذل العمل وفعل الأسباب التي قدر الله بها الحصول على الرزق، مع العلم أن الله تعالى هو مسبب الأسباب، كما قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣، ٦٤]، وقال النبي ﷺ: «**لو أنكم توكلون على الله حق توكله؛ لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً، وتروح بطاناً**»(١). فأخبر بأن الطير تفعل الأسباب، فهي تذهب وتجيء وتلتمس الرزق، فكذا الإنسان يفعل الأسباب مع توكله على الله تعالى في إنجاحها.

■ **قوله**: [**وعن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: «من التمس رضى الله بسخط الناس، رضي الله عنه وأرضى عنه الناس، ومن التمس رضى الناس بسخط الله، سخط الله عليه وأسخط عليه الناس»**(٢)**، رواه ابن حبان في صحيحه**]:

هكذا رواه بسنده كما في الإحسان (١/ ٥١٠) برقم (٢٧٦)، ورواه الترمذي كما في التحفة (٧/ ٩٧) في آخر الزهد عن عائشة، ولفظه: سمعت رسول الله

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٢٣٤٤)، وابن ماجة برقم (٤١٦٤)، وأحمد (١، ٣٠، ٥٢)، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.
قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح؛ لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وأبو تميم الجيشاني اسمه عبدالله بن مالك. وقال الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٣١٠): صحيح على شرط مسلم، وقال أحمد شاكر في تحقيق المسند رقم (٢٠٥): إسناده صحيح.

(٢) أخرجه الترمذي برقم (٢٤١٤)، وابن حبان في صحيحه كما في الإحسان برقم (٢٧٦، ٢٧٧)، وابن المبارك في الزهد (١٩٩)، وأبو نعيم في الحلية (٨/ ١١٨)، وابن أبي شيبة في المصنف (١٣/ ٤٣٦، ٥٧٣)، والبيهقي في الزهد رقم (٨٨٥). والمنذري في الترغيب (٣/ ٢٠٠)، والهيثمي في المجمع (١٠/ ٢٢٥).
قال المنذري: رواه الطبراني بإسناد جيد قوي، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٥٩٧٣)، وفي صحيح الترمذي (٢/ ٢٨٨)، وحسن إسناده الأرناؤوط في شرح السنة (١٤/ ٤١١)، وفي تحقيق صحيح ابن حبان برقم (٢٧٦).

ﷺ يقول: **«من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس»**، ثم رواه من طريق أخرىٰ موقوفاً.

وقد أفاد هذا الحديث أن الواجب علىٰ المسلم أن يقدم رضا ربه، ويقصده بفعل ما وجب عليه، وأداء حقوق الله تعالىٰ، وترك المحرمات، والجهر بالحق، وإظهار شعائر الدين، وأن يقصد رضا الله تعالىٰ، ولو سخط عليه الناس في أول الأمر، ولو كرهوا ما جاء به، أو عابوه وغمزوه وتنقصوه؛ فإن رضا الله تعالىٰ في طاعته، فمن اهتم بأوامر الله وأعلن الحق وجهر به؛ فإن الله تعالىٰ يرضىٰ عنه، ويرضىٰ عنه الناس.

ولكن لا يلزم رضا الجميع، فإن من علم قصده ونيته وأنه لا غرض له يخصه وإنما تكلم بالحق وصدع به من غير أن يكون له هدف في نفسه كانت النهاية أن يرضوا عنه ويعذروه، ويمدحه أهل الإنصاف والعقل، ولا يضره من ذمه، أو غمزه، أو عابه بما هو بريئ منه.

أما من التمس رضا الناس، وتنزل علىٰ رغبتهم، وفعل ما يريدونه، وأفتاهم بما يهوون، فأحل لهم الحرام، أو تغاضىٰ عن أفعالهم، والتمس لهم الأعذار ليبرر مواقفهم، ويبيح لهم ما يفعلونه، أو يتعاطونه من كلمات أو جنايات أو معاملات يزعمون شدة الحاجة إليها، فإنهم قد يرضون عنه ظاهراً، ولكن الجماهير يلومونه ويسخطون فعله مع سخط الله عليه وغضبه؛ حيث أنه قدم رضا المخلوق علىٰ رضا الخالق، وصار كالعبد والعابد الذليل لغير ربه، وخاف من المخلوقين أن يسخطوا عليه، ويقطعوا صلته، أو يحتقروه ويذلوه، فقدم الخوف من غير الله علىٰ الخوف من الله تعالىٰ، فكان جزاؤه أن يسخط الله عليه، وأن

يكله الله إلىٰ الناس، ولن يغنوا عنه من الله شيئاً.

فعرف أن الواجب علىٰ المسلم وبالأخص حامل العلم الشرعي أن يصدع بالحق ويظهر أمر الله، ويعلن الإنكار علىٰ من خالف الحق، أو ركب الحرام، أو تعامل بما حرمه الله فلا يبالي بسخط أحد متىٰ حصل له رضا ربه تبارك وتعالىٰ.

■ ■ ■ ■ ■

[٣٢]

باب:

قول الله تعالى:

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾

قول الله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣].

وقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤].

وقوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٢].

وعن ابن عباس، قال: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، قالها إبراهيم ﷺ حين أُلقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا له: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، رواه البخاري.

■ ■ ■ ■ ■

فيه مسائل:

الأولى: أن التوكل من الفرائض.

الثانية: أنه من شروط الإيمان.

الثالثة: تفسير آية الأنفال.

الرابعة: تفسير الآية في آخرها.

الخامسة: تفسير آية الطلاق.

السادسة: عظم شأن هذه الكلمة، وأنها قول إبراهيم عليه السلام ومحمد ﷺ في الشدائد.

■ ■ ■ ■ ■

●● الشرح ●●

باب:
قول الله تعالى:
﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾

هذا الباب في التوكل، وبيان أن التوكل عبادة، فإذا كان عبادة فلا تصلح إلا لله، وصرفها لغير الله شرك.

والتوكل عبادة قلبية، أي: من عبادات القلوب، ولكن تظهر آثارها في الأعمال على الجوارح.

وتعريف التوكل: أنه التفويض والاعتماد.

أي: تفويض الأمور إلى الله، والاعتماد بالقلب عليه، والرضا به حسيباً ووكيلاً، هذا هو حقيقة التوكل.

فمعناه: أن العبد يكل أموره إلى الله، كما حكى الله عن يعقوب أنه قال: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: ٦٧]، وعن مؤمن آل فرعون: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾ [غافر: ٤٤].

وتفويض الأمر إلى الله، أي: أن ترضى بتقديره وتصريفه للأمور، فالعبد يرضى بما قضاه الله وبما قدره، فكأنه وكل الأمر إلى الله، ووكل أموره وتصرفه إلى الله، ومنه سمي الوكيل، والوكيل: هو الذي ينوب عن غيره في أمر من الأمور، لأنه وكله بهذا الأمر.

تقول: وكلت فلاناً بأن يشتري لي أو يبيع لي، وفوضته في هذا الأمر، إن رأى فيه مصلحة تصرف وإلا فلا، فكذلك العبد مع ربه، كأنه فوض إليه

التصرف في نفسه فيرضىٰ بما قدره وقضاه له، ولكن مع ذلك كله فالعبد مأمور بمباشرة الأسباب سواءً أسباباً دينية، أو أسباباً دنيوية، لأن مباشرتها لا ينافي التوكل، وفعل الأسباب لا ينافي كون العبد متوكلاً علىٰ الله.

ويظهر ذلك في اعتماده علىٰ الله في أن يُنجح الأسباب التي عملها، فمثلاً الزارع إذا زرع، وإذا ألقىٰ بذره في الأرض، فمعلوم أنه يحرث الأرض، ثم يلقي بها البذر، ثم يدفنه، ثم يسقيه، ثم يعود فيسقيه مرة ومرة إلىٰ أن يثمر، ثم بعد ذلك يحصده، ثم يذروه، ثم يعمل العمل الذي يمكن الانتفاع به بعد ذلك، لكنه واثق بأن إنباته من الله، يقول: أنا أفعل هذا السبب والله هو الذي يكمل ويتمم الأسباب.

فلو شاء الله ما أنبتت الأرض، ولو شاء الله ما وجد الماء الذي أسقي به، ولو شاء الله ما تحركت الأدوات والآلات التي أسقي بها، ولو شاء الله ما أثمر بعدما ينبت، ولكني معتمد علىٰ الله في أنه الذي ينبته، وأنه الذي يثمره، وأنه الذي ينميه إلىٰ أن يتم، معتمداً في ذلك علىٰ الله، وهذا من التوكل في مثل هذه الحال. هذا بالنسبة إلىٰ الأعمال الدنيوية.

وهكذا - أيضاً - الأعمال الدينية، فإن الإنسان يعمل الأعمال، ويتوكل علىٰ الله في أن يرزقه تمامها، فهو - مثلاً - يتطهر ويستقبل الصلاة، وكذلك في التجهد، أو في القراءة يعتمد علىٰ الله في نيته علىٰ إكمالها، وأن يتقبلها منه.

فيفعل سبباً والله تعالىٰ هو الذي يثيبه إذا علم من قبله أنه توكل عليه، وأنه صادق التوكل لكي يعينه علىٰ إتمام ذلك العمل، ثم إذا كان عمله خالصاً من قلبه تقبله منه، فيعينه مثلاً علىٰ إتمام الصيام أو يقويه عليه، ويعينه علىٰ إتمام الحج أو العمرة، ويعينه علىٰ إتمام ما تصدىٰ له من الجهاد مثلاً أو من الصدقات التي يريد

أن يتبرع بها لينتشر الخير مثلاً، ويعينه على إتمام ما تصدىٰ له من قراءة، ومن تأليف، أو من نفع عام للمسلمين، أو ما أشبه ذلك.

فإذا اعتمد على الله؛ لأنه الذي يسدد خطاه، وهو الذي يعينه كان ذلك هو معنىٰ التوكل.

وهكذا من معاني التوكل؛ التصرف في البدن، فالإنسان مأمور أن يعالج نفسه إذا ألم به مرض، ولكن توكله علىٰ الله في هذا الباب معناه: أنه يرضىٰ بما قدر الله، ويعتمد علىٰ الله في أنه إن شاء جعل هذا العلاج نافعاً مؤثراً، وإن شاء لم يجعله كذلك.

والإنسان يعرف أن نفسه ملك لله، وأن الله هو الذي سلط عليه هذا المرض أو هذا الألم، ولكنه تعالىٰ أمره بأن يتعاطىٰ علاجاً، فهو يتعاطىٰ هذا العلاج، ولكن هل هذا العلاج مفيد ومؤثر أو غير مفيد ومؤثر؟ هذا من الله، ولكن يقول: أستعمل هذه الأدوية أو العقاقير أو الأشربة أو نحو ذلك معتمداً علىٰ الله في أن يجعلها مفيدة، فإن شاء جلب في سببها نفعاً وصحة، وإن شاء فلا.

فالحاصل أن التوكل يكون في القلب، ولا ينافي فعل الأسباب، وقد عرفنا أن الأسباب تنحصر أو تنقسم إلىٰ ثلاثة أقسام: سبب يتعلق بالمال، وسبب يتعلق بالبدن، وسبب يتعلق بالدين، والكل مأمور أن يفعله العبد.

هذه الأسباب التي هي أفعال مأمور بأن يفعلها، ومعنىٰ توكله فيها اعتماده علىٰ الله في أن يجعلها مؤثرة.

كذلك بالنسبة إلىٰ التروك؛ فالعبد منهي عن أسباب الردىٰ لما فيها من التعرض للهلاك، لكن قد يقوىٰ توكل العبد وقلبه فيقبل عليها، ويعينه الله ويجعل ما فيها من الهلاك له نجاة، كما وقع ذلك لكثير من المتوكلين، ولكن

العبد من حيث العموم منهي عن أن يتعرض لما فيه ضرر على نفسه، أو ضرر على بني جنسه.

قلنا: إن حقيقة التوكل هي: تفويض الأمور إلى الله، والاعتماد بالقلب عليه، والرضا به حسيباً ووكيلاً، وهذا يعني: أن صرفه لغير الله شرك، ومعنى صرفه لغير الله: أن يتوكل على مخلوق.

فمثلاً الذين يفوضون أمورهم إلى الأموات، وإلى الغائبين، أو إلى الأضرحة، أو أولياء الأضرحة، ويسمونهم - مثلاً - أولياء أو سادة، أو شهداء، أو نحو ذلك، ثم يعتمدون بقلوبهم عليهم، ويقول أحدهم: تصرف لي يا ولي الله، اختر لي كذا وكذا، أنا بجوارك، اصرف عني كذا، اصرف كيد الكائد فلان، قد اعتمدت عليك، فلا يقول: اعتمدت على الله، وإنما اعتمد عليك؛ وقد فوضت أمري إليك، وهذا معناه: أنه قد توكل على غير الله.

ومثل هذا لاشك أنه شرك، ولا يدخل في ذلك وكالة الإنسان للإنسان فيما يقدر عليه؛ لأنها وكالة حسب القدرة، فيوكل المرء إنساناً يقدر أن يباشر هذا العمل الذي هو يريد توكيله فيه، فمثلاً يفوضه ويقول له: قد أنبتك، أو أنت بالنيابة عني بأن تشتري لي كذا، أو أن تبيع لي كذا، أو أن تطلب حقي من فلان، أو نحو ذلك، وهذا في وسعه وفي إمكانه، فهذه الوكالة مباحة ومعمول بها.

ولذا فإننا نجد في كتب فقهاء جميع المذاهب باباً اسمه (باب الوكالة)، ويعرِّفونها بأنها: استنابة جائز التصرف غيره فيما تدخله النيابة.

فالأمور الدنيوية عادة تدخلها النيابة، وأما الأمور الدينية فلا تدخلها إلا في بعض منها، فالعبادات لا تدخلها النيابة، فلا يصح أن تقول: وكلتك تصلي عني، ولا وكلتك تصوم عني، أو تحج عني، وأنت قادر، أما العاجز فيجوز أن

يُحج عنه لمانع، بجزء من ماله، وهكذا العبادات القولية كالأذكار، والقرآن، والأدعية، لا تدخلها الوكالة.

فالوكالة خاصة في الأمور الدنيوية، والدينية لما يعجز الإنسان عن توليه كالحج، والعبادات التي تتعلق بالمال كذبح الأضاحي، والهدي، والعقيقة ونحوها، فهذه عبادة مالية، وإن كان لها تعلق بالدين، فتدخلها النيابة، فتقول: وكلتك تذبح الأضحية، أو الهدي، أو نحو ذلك.

ولا تدخل النيابة في الأمور المختصة بالإنسان فيما بينه وبين من يختص به، وتدخل فيما سوىٰ ذلك، فتدخل في النكاح، وتدخل في الطلاق، فيجوز للمرء أن يوكل من يعقد له النكاح، أو يوكل من يعقد لابنته النكاح، ويجوز له أن يوكل من يطلق زوجته، أو من يراجعها أو ما أشبه ذلك، وكذلك يجوز أن يوكل من يقيم الحد، أو من يثبت الحدود ويتولاها، أو ما أشبهه.

فهذه الوكالة في أمور يستطيع الموكَّل أو الوكيل أن يتولاها، ولا يكون الاستناد فيها أو التوكيل فيها قادحاً في العقيدة، فلا يكون متوكلاً علىٰ مخلوق، لأن فعله لها كفعل صاحبها لها، كما أن فعل صاحبها لها لا ينافي التوكل، فكذلك فعل الوكيل لا ينافي التوكل؛ بل إنه من تمام التوكل.

وقد استحب كثير من العلماء ترك بعض العلاجات توكلاً علىٰ الله، كما في قوله ﷺ في تفسير السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ـ كما تقدم ـ: «**هم الذين: لا يسترقون، ولا يكتوون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون**»(١).

فذكر النبي ﷺ أنهم الذين: لا يسترقون، ولا يكتوون، ولا يتطيرون، وعلىٰ ربهم يتوكلون، كأنهم الذين يتورعون عن ترك الأشياء المحسوسة، يعني: حتىٰ

(١) سبق تخريجه في الباب الثاني (باب: من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب).

الأسباب المحسوسة يتركونها توكلاً على الله، فالعلاج مثلاً قد يكون مفيداً، ولكن تقوىٰ قلوبهم علىٰ ترك العلاج إذا مرضوا، فلا يكتوون، ولو كان فيه الشفاء، ولا يطلبون من يرقيهم توكلاً علىٰ الله، ولو كان ذلك مفيداً.

أما الآيات التي في الباب:

■ **قوله: [قول الله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾** [المائدة: ٢٣]]:

هذه الآية نزلت في قصة بني إسرائيل لما حاصروا بيت المقدس زمن التيه، قال لهم موسىٰ: ادخلوا البيت المقدَّس فإن الله كتب لكم النصر، فهابوا أن يدخلوه، فقالوا: **﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢) قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾** [المائدة: ٢٢، ٢٣].

ففي هذه الآية وجوب التوكل علىٰ الله وحده؛ حيث جعله شرطاً للإيمان، وعلامة ظاهرة عليه، أي: فمن لم يتوكل علىٰ الله أو توكل علىٰ غيره فليس بمؤمن، أو هو ناقص الإيمان، وذلك أن التوكل عبادة قلبية يظهر أثرها علىٰ الجوارح، بحيث لا يلتفت إلا إلىٰ الله تعالىٰ، ولا يعبد سواه، فيفوض إليه أمره، ويرضىٰ بتصرفه، كما قال تعالىٰ عن مؤمن آل فرعون: **﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾** [غافر: ٤٤]، ويعتمد بقلبه علىٰ ربه، ويرضىٰ بالله حسيباً ووكيلاً، فهذا هو حقيقة التوكل الذي يتصف به المؤمنون.

■ **قوله: [وقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ الآية** [الأنفال: ٢]]:

في هذه الآية وصف الله تعالىٰ المؤمنين حقاً بخمس صفات:

الأولى: وَجَلِ القلوبِ إذا ذُكِرَ الله تعالى، أي: الخوف والإرجاف من شدة

الهيبة، واستحضار العظمة.

الثانية: زيادة الإيمان إذا تليت عليهم الآيات القرآنية، أو ذكرت لهم الآيات الكونية، فيقوىٰ الإيمان ويتضاعف بكثرة الأعمال الصالحة التي تحصل بعد سماع الآيات، ويقوىٰ ما في القلب من التصديق والتمكين فيه.

الثالثة: التوكل على الله تعالى، والاعتماد بالقلب عليه وحده، والصدود عن غيره.

الرابعة: إقام الصلاة، أي: المحافظة عليها وإكمالها كما فرضت علىٰ العباد.

الخامسة: الإنفاق مما رزقهم الله في وجوه البر، وفي أهل الصدقة.

والشاهد من الآية صدقهم في التوكل علىٰ الله وحده دون غيره.

■ **قوله: [وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾** [الأنفال: ٦٤]]:

أي: أن الله تعالىٰ كافيك وكافي من اتبعك من المؤمنين متىٰ توكلوا عليه، وعلقوا رجاءهم به سبحانه، ووثقوا بكفايته ونصره وتأييده، فهو ينصرهم ويقويهم، ويعينهم ويظهرهم علىٰ من عاداهم، وشرط ذلك صدق التوكل عليه، والثقة بكفايته وتوفيقه.

■ **قوله: [وقوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾** [الطلاق: ٣]]:

هذه آية سورة الطلاق، وهي قول الله تعالىٰ: **﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾** [الطلاق: ٢-٣].

الحسب: الكافي، والتوكل تقدم أنه: التفويض والاعتماد، وفيه دليل علىٰ أن صدق التوكل علىٰ الله سبب في الكفاية.

ومعنىٰ: **﴿فَهُوَ حَسْبُهُ﴾**، أي: كافية ونافعة، فيكفيه أموره، ويكفيه ما يهمه، وما يريد أو ما يهتم له من أمور حياته، ومن أمور معاشه أو معاده، وإذا كفاه الله توفرت له الخيرات، وسهلت عليه، وهانت عليه الصعوبات التي يلاقيها، فلم

يلق أية صعوبة، وتكون عليه تلك الصعوبات سهلة، ويلْتذ بالجد والنشاط كما يلْتذ غيره بالنعم والراحات.

■ **قوله: [وعن ابن عباس، قال: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾، قالها إبراهيم ﷺ حين أُلقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا له: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، رواه البخاري(١)]:**

نزلت هذه الآية في غزوة حمراء الأسد لما رجع المسلمون إلى المدينة بعد غزوة أحد، وبهم جراح، وقد تأثروا بمن أصيب منهم وبمن قتل منهم ومن جرح، وانصرف المشركون فرحين بما حصل لهم من القتل للمسلمين، وانصرفوا إلى بلادهم وتوجهوا إليها، فأذن مؤذن بالمدينة أن الحقوا بأولئك المشركين وأدركوهم واغزوا في آثارهم، ولا يخرج معنا إلا من حضر معركة أحد.

فعند ذلك استجاب له المسلمون وخرجوا، واجتمعوا على ما بهم من آثار الجراح، وعلى ما بهم من آثار المصائب، وتوجهوا نحو العدو، وبلغوا حمراء الأسد، وفي أثناء سير المشركين تلاوموا، وقالوا: لم نَقْضِ عليهم كلهم لنستريح منهم؟ ولماذا عندما انتصرنا لم نحاصرهم حتى نقضي عليهم ونستريح منهم؟

فعزموا على أن يرجعوا إلى المدينة ليقاتلوا بقية المسلمين، فعند ذلك لما عزموا مر بهم رجل يقال له: معبد بن أبي معبد الخزاعي، وكان قد رأى النبي ﷺ هو وصحابته خرجوا متوجهين فخذلهم، وقال للمشركين: إن محمداً وأصحابه قد ساروا في آثاركم، وقد خرج معهم من قد تخلف، وقال: إنهم قد قربوا وساروا ولم يبق إلا قليل، ما أظنكم ترحلون حتى تروا نواصي الخيل، فأفزعهم ما ذكر أن الرسول وصحابته قد ساروا نحوهم.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٥٦٣، ٤٥٦٤)، والنسائي في الكبرى كما في التحفة (٥/ ٢٣٨).

فعند ذلك تخاذلوا ورجعوا، فرجع المشركون وألقى الله في قلوبهم الرعب، أما المسلمون فإنهم ساروا في آثار المشركين، ومر بالمشركين بعض من الركبان، وقالوا له: قل لمحمد وأصحابه، إنا قد رجعنا لنستأصل بقيتهم، فجاء ذلك الراكب، وبلغهم مقالة أبي سفيان ومن معه، وقال لهم: إن أبا سفيان وأصحابه قد أجمعوا أمرهم ليأتوكم ويستأصلوكم، فازداد الصحابة ثباتاً وإيماناً، وقوة يقين، وقالوا: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾، ولما ساروا وعلموا أن المشركين قد رجعوا، وأنهم لن يعودوا إليهم، رجعوا وانقلبوا كما ذكر الله: ﴿فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤) إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٤، ١٧٥].

فالصحابة ظلوا في سيرهم ولم ينخذلوا بقول من قال: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾، أي: خافوهم؛ بل ازدادوا علماً ويقيناً وثباتاً، وقالوا: الله حسبنا وكافينا، فدل ذلك على أنه من أسباب قوتهم: ﴿فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ﴾.

فالحاصل أن توكل الصحابة لم يناف خروجهم لمقاتلة الأعداء، ولم يناف أخذهم عدتهم وخيولهم، ولم يناف محاولة ذل المشركين، كل هذه الأفعال والأسباب لم تنافِ كونهم متوكلون على الله.

لأن معنى توكلهم على الله: ثقتهم بالنصر، كأنهم قالوا: نحن نغزو ونسير في آثارهم، ونحاول أن نقتلهم، ونعتمد على الله، ونتوكل عليه بأن ينزل علينا النصر، وأن ينزل عليهم الرعب وأن يقوينا عليهم، فبذلك نكون من المتوكلين.

هذه هي حقيقة التوكل، الثقة بالله، والثقة بوعده، وكذلك بنصره والاعتماد بالقلب عليه، هكذا فعل الصحابة، وفعلها أيضاً قبلهم، أو قالها قبلهم

إبراهيم ـ خليل الرحمن ـ عندما ألقي في النار، فإنه قال: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾، وذكر الله أن قومه حاولوا تحريقه، ولكن الله نجاه لما حكى عنه أنه كسر أصنامهم، قال تعالى: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلا يَضُرُّكُمْ (٦٦) أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٦٧) قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٦-٦٨].

فجمعوا حطباً كثيراً، وأججوا فيه ناراً ليلقوه فيها، ثم إنهم لم يقدروا على أن يقربوا من النار من حرها ومن شدة لهبها، فجعلوه في المنجنيق، وقذفوه به حتى سقط في وسطها، والمنجنيق هو: آلة تدفع من بعيد، تدفع الرصاصة الكبيرة، ونحوها.

وفي أثناء الطريق في أثناء الهوي يقولون: جاءه جبريل، فقال: ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا، وأما إلى الله فبلى، فأمر الله النار أن تكون عليه برداً وسلاماً، وروي أن الله لما قال للنار: كوني برداً، صارت كالثلج، أو أشد برودة من الثلج امتثالاً لأمر الله، أي: طفئت وانقلبت من الحرارة إلى غاية البرودة، ثم قال: وسلاماً، أي: لا ضرر فيه على إبراهيم.

فإبراهيم وثق بالله، وقال: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾، قالها ثقة بالله.

ومعنى قوله: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ﴾، أي: هو الذي يكفينا وحده، ويبطل كيد الأعداء، ويردهم خائبين خاسرين.

وقوله: ﴿وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾، أي: نعم الموكول إليه الأمور، أي: وكلت أمري إليه، وفوضت أمري إليه، يتصرف لي بما هو الأفضل، وبما هو الأنسب لي؛ واختياره لي خير من اختياري لنفسي، فأنا واثق باختياره، فهو الحسيب وهو الكافي، ونعم الموكول إليه، ومن توكل عليه فنعم الوكيل.

فإبراهيم عليه السلام صَدَقَ في هذا التوكل فكفاه الله كيد الأعداء، ونصره عليهم، وهكذا يكون كل من توكل على الله.

فالعبد الصادق في توكله، إذا صدق نصره الله على الأعداء؛ ولهذا كان المؤمنون كلما تصافوا مع عدوهم، وثقوا بعهد الله وبوعده، وصدقوا النية، واعتمدوا على الله فنصرهم ورد كيد الأعداء في نحورهم، وقوّى الأولياء المؤمنين، وأنزل عليهم النصر والثبات، كل ذلك من أسباب ثقتهم بالله، واستنزالهم النصر من عنده.

وكثير من الناس لم يعتمدوا عليه، بل اعتمدوا على حولهم وقوتهم، أو اعتمدوا على أسلحتهم وعتادهم وما معهم، فوكلهم الله إلى ذلك الذي اعتمدوا عليه، فلم ينفعهم ولم ينصرهم.

وانظر إلى أقرب مثل، ماذا قال الله تعالى عن الصحابة رضي الله عنهم في غزوة حنين؟! قال تعالى: ﴿**لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا**﴾ [التوبة: ٢٥، ٢٦]، فلما أعجبوا بكثرتهم واعتمدوا على قوتهم، واحتقروا أعداءهم، وقالوا: لا نخشى من الأعداء الذين نقاتلهم، نحن اثنا عشر ألفاً كيف يغلبوننا؛ نحن أقوى وأكثر، واعتمدوا على هذه القوة، فلم تغن عنهم قوتهم شيئاً، ولم يصبروا على الصمود أمام الأعداء بل انهزموا، ولكن ثبّت الله أهل الإيمان، فثبّت الله رسوله، ومن معه، وصاروا يمضون قدماً، وما ثبت إلا عدد قليل، فحصل لهم النصر، فما رجع أولئك الذين انهزموا إلا والأسرى قد أسروا والأعداء مقتولون ومتفرقون، فنصرهم الله مع كونهم فئة قليلة، فدلنا على أن الاعتماد على نصر

الله لا على قوة، ولا سلاح، ولا كثرة، ولا عتاد، ولا شجاعة، ولا مرونة، ولا فراسة، إنما هو على الثقة بالله وحده.

ونحن لا نقول: إن هذه الأشياء لا ينبغي استعمالها، بل الله أمرنا بأن نستعمل من القوة ما نقدر عليه: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وثبت في الحديث تفسير القوة بالرمي، فقال ﷺ: «**ألا إن القوة الرمي**»(١).

لكن لا تتخذ هي السبب، ولا يعتقد العبد أنها هي الوسيلة للنصر، فالذين - مثلاً - يقولون: إن أعداء المسلمين الآن يملكون قنابل، ويملكون الطائرات القاذفة، ويملكون من القوة ما لا يملكه المسلمون، وعندهم وعندهم، ويخافون أولئك الأعداء ويعظمونهم في نفوسهم، إنما هذا من الشيطان. ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

لكن لو كانوا صادقين في إيمانهم ومضوا مقبلين على ربهم، واثقين بنصره، فإنهم لن يخذلوا، ولن ينهزم لهم جيش إذا كانوا صادقين مستعملين ما معهم من القوة، ومع ذلك واثقين بأن النصر بالله تعالى لا بالقوة، بل بالله ثم بقوة الإيمان، ثم الأسلحة والعتاد والقوة، فهذه مكملة لا أنها أساس في القوة، أو في النصر.

فإذاً على العبد أن يكون اعتماده وتوكله على الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]، والله أعلم.

■ ■ ■ ■ ■

---

(١) أخرجه مسلم برقم (١٩١٧) من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه.

(٣٣)

باب: قول الله تعالى:

﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾

قول الله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩].

وقوله: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦].

وعن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ سئل عن الكبائر؟ فقال: «الشرك بالله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله».

وعن ابن مسعود، قال: أكبر الكبائر: الإشراك بالله، والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله»، رواه عبدالرزاق.

■ ■ ■ ■ ■

• فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية الأعراف.

الثانية: تفسير آية الحجر.

الثالثة: شدة الوعيد فيمن أمن مكر الله.

الرابعة: شدة الوعيد في القنوط.

■ ■ ■ ■ ■

•• الشرح ••

باب: قول الله تعالى:

﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾

من العبادات التي تجب على العباد الخوف من الله، وقد تقدم باب في الخوف، ووجوب الخوف من الله، والأسباب التي تجعل العبد خائفاً من الله.

ومن العبادات عبادة الرجاء، وهي ـ أيضاً ـ حق لله لا تصلح إلا له، وأسبابها الأدلة التي تدل على سعة فضل الله وكرمه ومغفرته ونحو ذلك، وهاتان العبادتان: الخوف والرجاء، متقابلتان، ولا بد أن يجمع العبد بينهما.

وأسباب الخوف كثيرة، ومنها ـ مثلاً ـ أحاديث الوعيد التي رتب الله فيها، أو رتب النبي ﷺ فيها العقوبة على بعض الذنوب، فإذا عرفها العبد خاف خوفاً شديداً.

فالمرء عندما يسمع الأحاديث التي فيها أن الله يعاقب على الذنوب القليلة، وأنه شديد العقاب، وأنه عزيز ذو انتقام، وأنه يأخذ الظالم، فإذا أخذه لم يفلته، ويسمع الأحاديث التي فيها وعيدٌ على الظلم، ووعيد على الكذب، ووعيد على البهتان، ووعيد بالنار، ووعيد بالغضب، ووعيد بالسخط، ونحو ذلك، فكل ذلك يحمله على الخوف من الله.

كذلك يسمع الأحاديث التي فيها أن الله واسع المغفرة، وأنه عفوٌ غفور، وأنه يتجاوز عن الذنوب العظام، وأنه وسع كل شيء رحمة وعلماً، وأنه لا يتعاظمه ذنب، وأنه يغفر لمن لم يشرك به شيئاً، وأنه خلق الرحمة مائة جزء، يرحم بها

عباده، فذلك مما يحمله على الرجاء لرحمة الله، ولكن ينبغي للمرء أن يجمع بين الخوف والرجاء.

■ **قوله: [قول الله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾** [الأعراف: ٩٩]]:

هذه الآية في الترجمة للتنبيه على عظم هذا الذنب، وهو الأمن من مكر الله تعالى، ومعناه: الإصرار على الذنوب والمخالفات، وارتكاب السيئات، مع التهاون بها، وعدم المبالاة بالوعيد الشديد المرتب على المعاصي، بحيث لا يتأثر العاصي بالمواعظ، ولا يخاف من العقوبات السماوية، ويستمر على ما هو فيه من ترك الطاعات، وفعل المحرمات، دون أن يرعوي، أو يقبل نصيحة، أو يسمع سماع قبول لمن يعظه ويرشده، وكأنه آمن مطمئن، مع علمه بأن هذه الذنوب قد توعد الله تعالى عليها بوعيد شديد، وقد أوقع بمن عصاه أنواع العقوبات، وأحل بهم المثلات، كما قال تعالى: **﴿فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾** [العنكبوت: ٤٠]. وهكذا توعد الله على المعاصي في الآخرة بالوعيد الشديد.

وقد أخبر الله تعالى بأنه يمكر بمن عصاه، كما قال تعالى: **﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾** [آل عمران: ٥٤]، وقال تعالى: **﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾** [الأنفال: ٣٠]، والمراد بمكرهم، احتيالهم وحرصهم على الإضرار برسول الله ﷺ، فالله تعالى يملي لهم، ويمهلهم، ويعطيهم من الخيرات، حتى يتمادوا في الطغيان، ويستهينوا بوعيد الله تعالى، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر، وذلك أن الله تعالى يبتلي بالسراء لِيُشْكَرَ، وبالضراء لِيَمْتَحِنَ قوة الإيمان، كما قال

تعالىٰ: ﴿فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢]، أي: رجاء أن يرعووا ويخافوا من العقاب العاجل والآجل.

ثم أخبر بأنهم لما قست قلوبهم أنعم الله عليهم، قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٤٤]، أي: لما أعرضوا عن قبول النصح والمواعظ، وأصروا علىٰ المعاصي أعطاهم الله من أنواع الرزق، ويسر لهم أسبابه، ولكنه استدراج بهم.

ثم قال تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤].

قال الحسن البصري رحمه الله: من وسع عليه لم ير أنه يمكر به فلا رأي له، ثم قرأ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٤٤]، قال: مكر بالقوم ورب الكعبة، أعطوا حاجاتهم ثم أخذوا.

وقال قتادة: بغت القوم أمر الله تعالىٰ، وما أخذ الله قوماً إلا عند سكرتهم وغرتهم وغفلتهم. ذكره ابن كثير في تفسير سورة الأنعام.

وقد أخبر الله تعالىٰ في سورة الأعراف[1] أن أهل القرىٰ كذبوا فأخذهم الله، وأنهم أمنوا مكر الله، مع قدرة الله تعالىٰ علىٰ أخذهم بياتاً، أي: في الليل، أو ضحىٰ في حال لعبهم، وأن لا يأمن مكر الله إلا الخاسرون الذين خسروا أنفسهم وأهليهم، وذلك أن من تهاون بعذاب الله تعالىٰ، وتمادىٰ في غيه، واحتقر العقوبة السماوية أو كذب بها، فقد تنقص الرب تعالىٰ، وتهاون ببطشه وعذابه،

---

(١) وهي قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف، الآيات: ٩٦-٩٩].

أو توهم أنه قادر على أن يرد أمر الله، أو يتحفظ عن العقوبات، أو ظن أن الله لا يقدر على أخذه والانتقام منه، وكل ذلك مما ينقص التوحيد.

فالواجب على المسلم أن يخش الله، ويحذر من بطشه وانتقامه، فإنه سبحانه يمهل ولا يهمل، وفي الحديث: «**إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته**»[(١)]، وفي الحديث أيضاً: «**إذا رأيت الله يعطي العبد وهو مقيم على المعاصي فاعلم أنه استدراج**»[(٢)]، يعني: قول الله تعالى: ﴿**سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ**﴾ [الأعراف: ١٨٢، ١٨٣]، أي: أمهلهم وأخرهم إلى أجل، ثم بعد ذلك ينتقم الله منهم، نعوذ بالله من الاغترار بإمهاله، والتمادي على العصيان.

وقد ورد في بعض الأحاديث، أن قوماً تجرءوا على الذنوب، وأكثروا من السيئات، فقال: مكر بالقوم ورب الكعبة، مكر بهم؛ بمعنى: أن الله أمهلهم وأخرهم، ولكن ذلك على وجه المكر، ومكر الله كما يليق به.

فمن مكر الله أنه يمهل ويعطي ويؤخر، ولكنه متى أخذهم أخذهم أخذ عزيز مقتدر، فلم يأخذ الله قوماً إلا على غرتهم وغفلتهم وسلوتهم.

فالذين يتهاونون برؤية الله، ويعصون الله إذا خلوا، فإذا خلا أحدهم في برية أو في أقصى داره أغلق عليه الأبواب، وبارز الله بالمعاصي، وكأنه لم يستحضر أن الله يراه، فيشرب الخمور المحرمة، أو يأكل المخدرات المحرمة، ونحوها، أو يزني ويفجر، أو يقتل أو ينهب ويسرق، أو يخدع أو نحو ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير برقم (٤٦٨٦). ومسلم برقم (٢٥٨٣)، عن أبي موسى رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ١٤٥)، وابن أبي الدنيا في كتاب الشكر، ص (١٦) رقم (٣٢)، والطبراني في المعجم الكبير (١٧/ ٣٣٠) رقم (٩١٣).

فهذا يعتبر قد أمن مكر الله، والأمن من مكر الله يقدح في التوحيد، لأنه متهاون بالله، متهاون بعذابه، متهاون بنقمته، كأنه يعتقد أن له منجىً، وأن له مفراً، وأن له مهرباً، وأنه يستطيع أن ينتصر على عذاب الله، وأنه يستطيع النجاة بنفسه، ويتهم الله بالعجز، كأن الله عاجز عن أن ينتقم منه، فيعتبر بذلك ناقص التوحيد، أو مختل التوحيد، فهذا هو معنى قوله: ﴿فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩].

وسمو خاسرين لأنهم خسروا عقائدهم، وخسروا أعمالهم، وخسروا حياتهم وخسروا أبدانهم وأموالهم، وخسروا دنياهم وآخرتهم، لأنهم ما عقلوا، ولو عقلوا لما تغافلوا عن نقمة الله، وعن قدرته وقوته، بل يعتقد العبد أن الله يراه، وأنه قد حرم عليه هذه المعاصي، فإذا عرف ذلك تجنب هذه المعاصي، ولو كان خالياً.

وهذا قد يكون سرّاً، وقد يكون علناً، أي: قد يكون بعض العصاة والعياذ بالله يتهاون بالمعاصي علناً، فيظهر الفجور، ويشهد الزور، ويعلن المعاصي ونحوها، ولا يبالي بذلك، وإذا نصح مثلاً وقيل له: لا ترفع صوت الأغاني ونحوها، أو لا تعكف على الملاهي، أو ما أشبه ذلك، زاد في شره، وتطاول عليك، كأنه لم يحترم قدرة الله، ولا قوته، فَاعتُبِر بذلك ناقص العقيدة، وناقص التوحيد، حيث إنه لم يراع الله.

روي عن بعض الأعراب، أنه كان يحب امرأة ويتمنى لقاءها، فقيل له: لو لقيتها في مكان خال لا يراكما إلا الله، ماذا أنت فاعل؟ فقال: لا أجعل ربي أهون الناظرين، أي: أني لا أتهاون برؤية الله، وأستحي من الناس.

■ **قوله: [وقوله: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ﴾** [الحجر: ٥٦].

وعن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ سئل عن الكبائر؟ فقال: «الشرك بالله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله»[(١)].

وعن ابن مسعود، قال: أكبر الكبائر: «الإشراك بالله، والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله»[(٢)] **، رواه عبدالرزاق]**:

في هذه الآية وهذين الحديثين - حديث ابن عباس، وحديث ابن مسعود - بيان أن اليأس من روح الله، والقنوط من رحمة الله، والأمن من مكر الله، كلها من الكبائر، وقرنهما بالشرك بالله.

وقد سبق شرح قوله: «**الشرك بالله**»، في أول الكتاب، وأيضاً سبق شرح قوله: «**الأمن من مكر الله**» في أول الكتاب، ونأتي الآن على شرح الجمل الباقية:

أولاً: قوله: «اليأس من روح الله»:

اليأس من روح الله هو: قطع الرجاء، وقد جعله الله كفراً، في قوله: **﴿إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾** [يوسف: ٨٧]، أي: لا يقطع رجاءه إلا القوم

---

(١) أخرجه البراز برقم (١٠٦) كما في كشف الأستار، وابن حاتم في التفسير كما في الدر المنثور (٢/ ١٤٧)، والطبراني في الأوسط كما في مجمع الزوائد (١/ ١٠٤).
قال الهيثمي: رواه البزار والطبراني ورجاله موثوقون، وحسنه السيوطي في الدر المنثور، وقال ابن كثير رحمه الله في التفسير (١/ ٤٨٥): وقد رواه البراز عن عبدالله بن إسحق العطار، عن أبي عاصم النبيل، عن شبيب بن بشر، عن عكرمة، عن ابن عباس، ثم ساق الحديث... ، ثم قال: وفي إسناده نظر، والأشبه أن يكون موقوفاً، فقد روي عن ابن مسعود نحو ذلك، كما رواه ابن جرير (٥/ ٤١)، وحسنه العراقي في تخريج الإحياء (٤/ ١٧)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم (٤٤٧٦).

(٢) أخرجه عبدالرزاق (١٠/ ٤٥٩، ٤٦٠)، وابن جرير (٥/ ٢٦)، والطبراني في الكبير (٨٧٨٣، ٨٧٨٤).
قال ابن كثير في تفسيره: وهو صحيح بلا شك، وقال الهيثمي في المجمع (١/ ١٠٤): وإسناده صحيح.

الكافرون.

والروح هنا هي: الفَرَج؛ فالمعنى: أن الإنسان إذا وقع في شدة، فلا يقطع رجاءه بالله، بل يبقى راجياً أن يفرج الله عنه كربه، وشدته.

والرجاء عبادة من أجل العبادات، ومن أقواها، قال تعالى: **﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ﴾** [الكهف: ١١٠]، أي: يأمل في ذلك ويعلق قلبه به.

فاليأس هو: قطع الرجاء، بحيث إن الإنسان ييأس، وكأنه لا يستحضر سعة فضل الله، وسعة قدرته، وكأنه إذا وقع في شدة يئس من زوالها، فإذا وقع مثلاً في فقرٍ أو سجن ظلماً، أو ما أشبه ذلك، قطع رجاءه، ولم يبق مؤملاً للنجاة، واعتقد أن ربه تعالى لا يقدر على نجاته أو لا ينجيه، أو أنه لا يستحق النجاة، أو ما أشبه ذلك.

فقطعه للرجاء يعتبر ذنباً كبيراً يتهم الله تعالى فيه بالعجز، ويكذِّب بالنصوص التي وردت في إزالة الكروب، والشدائد والمشقات ونحوها، كقوله تعالى: **﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾** [الشرح: ٥، ٦]، وقوله: **﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾** [البقرة: ١٨٥].

وكذلك الحديث الذي يقول فيه النبي ﷺ: «**فاعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً**»(١)، وفي الحديث يقول ﷺ: «**لن يغلب عسر يسرين**»(٢)، أي: أن الله ذكر اليسر مرتين نكرة، وذكر العسر معرّف، والمعرّف

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه: (٧/ ٩)، والحاكم في المستدرك(٢/ ٣٢٩) موقوفاً على عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقال: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه، قال: وعن علي أيضاً.
وذكره الحاكم عن الحسن مرسلاً في (٢/ ٥٧٥).
وأورده البخاري في تفسير سورة الشرح، ورواه عن ابن عيينه (٤/ ١٨٩٢).
وأخرجه الإمام مالك في الموطأ عن عمر رضي الله عنه (٢/ ٤٤٦).
وضعفه الألباني في ضعيف الجامع رقم (٤٧٨٧).

واحد، والمنكر متعدد، فلذلك قال: «**لن يغلب عسر يسرين**».

فالذي وقع - مثلاً - في شدة، ثم قطع رجاءه من زوالها، هذا قد اتهم الله بالعجز عن إزالة هذه الكربة ونحوها، وذلك تنقص لله تعالىٰ، وقد قضىٰ الله أن العسر يتبعه اليسر.

وقد ورد في بعض الآثار: «إن العسر لو دخل جحر ضب لدخل معه اليسر»(١)، وهذا يعني أن قطع الرجاء يعتبر إساءة ظن بالله تعالىٰ، وتنقصاً له، هذا من جهة اليأس من روح الله.

وكما تقدم، فالروح هو الفرج: وهو ما يجلب المسرة والبهجة، تقول: جاءني روح، أي: ما أرتاح له، وما أفرح به، فالروح هو إزالة الشدائد والصعوبات التي يقع فيها العبد، واليأس من ذلك ذنب كبير.

والآيس: هو الذي لا طمع له في شيء من ذلك، وقد أيس منها، أي: لم يطمع، ولم يعتقد أن تناله هذه الرحمة، أو هذا الروح.

ثانياً: قوله: «القنوط من رحمة الله»:

أما القنوط فهو أشد وأعلىٰ من اليأس، والقنوط من رحمة الله ذنب أكبر من اليأس، وقد ذكر الله عظمة هذا القنوط، لما حكىٰ الله عن ضيف إبراهيم أنهم بشروه بغلام فاستبعد ذلك، فقالوا: ﴿**بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ (٥٥) قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ**﴾ [الحجر: ٥٥، ٥٦].

أي: أني ما أنكرت ذلك قنوطاً، ولست بقانط، وإنما ذلك علىٰ وجه

---

(١) أخرجه بنحوه البزار في مسنده، كما ذكر ابن كثير في تفسيره (٤/ ٥٢٧).

التعجب أن يولد لي مولود، وقد بلغت هذا الكبر، كما حكىٰ الله عن امرأته أنها قالت: ﴿أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [هود: ٧٢، ٧٣]، إلىٰ آخره.

فالقنوط هو: أشد اليأس، وهو يبلغ درجة ينقطع فيها رجاؤه انقطاعاً كلّيّاً، ولكن القنوط متعلق بالرحمة، وقد يكون قنوطاً مبدئياً، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾ [الشورىٰ: ٢٨]، أي: من بعد ما انقطع رجاؤهم من نزول المطر، فينزل الله الغيث بعد قنوطهم. فإن كثيراً من الناس إذا تأخر المطر يئسوا وقنطوا، وانقطع رجاؤهم انقطاعاً كلّيّاً.

فالله تعالىٰ ينزل الغيث عادة، ولو كانوا قد قنوطوا ﴿مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾، فلا يجوز لهم أن يقنطوا، بل يعتقدون أن الله قادر علىٰ أن ينزل الغيث الذي هو المطر في أية وقت، ولا يقنطون، ولكن قد يستبعدون ذلك، وهذا القنوط نوع من أنواع الرحمة، وهو فضل الله الذي هو المطر ونحوه.

لكن كثيراً من الناس قد يقنط قنوطاً آخر، ويحمله هذا القنوط والعياذ بالله علىٰ الاستمرار علىٰ ما هو عليه من الكفر والمعاصي، وأنواع الضلالات، ويبقىٰ علىٰ ذلك، وإذا نصح لم يقبل، واعتقد أنه لا تناله الرحمة، وما أشبه ذلك.

وكثيراً ما ينصح بعض الناس من الذين توغلوا في الذنوب، وأكثروا من السيئات، وأنواع الكبائر والمعاصي كالزنا أو شرب الخمر، أو أكل المال الحرام، أو قتل النفس، وما أشبه ذلك، ثم زين لهم الشيطان أن أعمالهم هذه لا تنالها الرحمة، واستمروا علىٰ ذلك.

فإذا نصح أحدهم بالتوبة، قال: أنا ذنوبي كبيرة وكثيرة، لا تنالها الرحمة، أنا قد فعلت من الذنوب ما يعظم أن يغفره الله، فالله لا يغفر مثل هذه الذنوب

الكبيرة، كيف يغفرها وأنا قد فعلت وقد فعلت؟ لا تنالني الرحمة، الآن انقطع رجائي من الرحمة، سأبقى على ما أنا عليه، وأصبر على النار، وأصبر على العذاب، وأستمر فيما أنا عليه، فأنا قد يئست من أن تنالني أو تصل إلي رحمة الله، ولو كانت ما كانت.

يقولون هذا بألسنتهم، والله أعلم هل يقولونه بقلوبهم أم لا؟ وما علموا أن الله تعالى يقبل التوبة عن عباده، ويعفو عن السيئات، وأنه يفرح بتوبة التائب، وما علموا أن التوبة تجبُّ ما قبلها من الذنوب وتمحوها، وما علموا - أيضاً - أن الله لا يتعاظمه ذنب، فإذا عَلِمَ من قلب صاحبه الصدق والإقبال، غفر له على ما كان منه.

فاستمرارهم على المعاصي، وبقاؤهم عليها، وقطع رجائهم من الرحمة، واستخفافهم بالله، واستخفافهم برحمة الله تعالى، هو اتهام الله تعالى أنه لا يقدر.

والله تعالى قد أخبر أنه واسع الرحمة، وأنه يرحم عباده، وأنه يفرح بإقبالهم وتوبتهم إليه، قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، وفي الحديث: «**إن الله كتب كتاباً فهو عنده على العرش، إن رحمتي تغلب غضبي**»(١).

فإذاً هذا الذي قطع رجاءه من رحمة الله وقنط يعتبر فعله ذنباً عظيماً؛ حيث إنه استهزأ بالله وأتى بهذا الإفك العظيم الذي هو تنقص لله واستصغار لقدره، واستصغار لرحمته، فيكون بذلك ناقص التوحيد.

هذه الثلاثة المتقدمة متقاربة في كون كلٍ منها منافياً للتوحيد، أو منافياً

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣١٩٤)، ومسلم برقم (٢٧٥١).

لكماله :

فالأولى : الأمن من مكر الله الذي هو : الاستخفاف بعذابه وغضبه .

والثانية : اليأس من روح الله ؛ الذي هو بقطع الرجاء من إزالة الشدائد والمحن التي يقع فيها العبد .

والثالثة : القنوط من رحمة الله الذي هو أشد اليأس ، وهو أن لا يبقى أهلاً للرحمة التي وسعت كل شيء فيبقى مستمراً ومصراً على الذنوب .

فكل منهم قد استخف بالله تعالى ، وتنقصه ، وأصبح فعله منافياً للتوحيد ، أو منافياً لكماله ، والله أعلم .

■ ■ ■ ■ ■

[٣٤]

باب:
من الإيمان بالله: الصبر على أقدار الله

وقول الله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١١].

قال علقمة: هو الرجل تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله؛ فيرضى ويسلم.

وفي صحيح مسلم، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في النسب، والنياحة على الميت».

ولهما، عن ابن مسعود، مرفوعاً: «ليس منا من ضرب الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية».

وعن أنس: أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه، حتى يوافي به يوم القيامة».

وقال النبي ﷺ: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضى، ومن سخط فله السخط»، حسنه الترمذي.

■ ■ ■ ■ ■

• فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية التغابن.

الثانية: أن هذا من الإيمان بالله.

الثالثة: الطعن في النسب.

الرابعة: شدة الوعيد فيمن ضرب الخدود وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية.

الخامسة: علامة إرادة الله بعبده الخير.

السادسة: إرادة الله به الشر.

السابعة: علامة حب الله للعبد.

الثامنة: تحريم السخط.

التاسعة: ثواب الرضا بالبلاء.

■ ■ ■ ■ ■

الشرح

باب:
من الإيمان بالله: الصبر على أقدار الله

الإيمان بالله، بمعنى: التصديق بإلاهيته، والتصديق بكمال تصرفه، ومن تصرفه أقداره التي يقدرها على عباده في هذه الحياة، فمن الإيمان به الصبر عليها، فإن المؤمن يلزمه أن يصدق بكل ما بلغه عن الله تعالى، فإذا بلغه أن الله تعالى هو المتصرف في العباد فوض إليه التصرف، وإذا بلغه أن الله تعالى هو الذي يحيي ويميت، وهو الذي يمنع ويعطي، صدق بذلك واستسلم لذلك.

وإذا عرف أن ربه هو الذي سلبه ما أعطاه، رضي بذلك واستسلم، وإذا علم أن الله هو الذي أمرضه بعد أن كان سليماً، أو أتلف ماله بعد أن كان غنياً، أو أمات حبيبه أو ولده أو نحو ذلك؛ علم أن هذا مقدَّر فَرَضِيَ بذلك واستسلم.

فالله تعالى قد كتب قبل أن يخلق الخلق ما هو كائن إلى يوم القيامة، وقدر في أم الكتاب المقادير التي تقع، والمصائب والأمراض والموت والحياة، فقال تعالى: **﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾** [الفرقان: ٢]، وقال: **﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾** [القمر: ٤٩].

وقد كان النبي ﷺ يعد الإيمان بالقدر من جملة أركان الإيمان، فقد قال: «**وأن تؤمن بالقدر خيره وشره**»(١)، وفي رواية: «**لا يؤمن أحدكم حتى يؤمن بقدر الله خيره وشره، وحلوه ومره**»(٢).

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٨)، عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه ابن ماجة في المقدمة، برقم (٨٧)، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٤١٣)، وقال في آخره: رواه الطبراني، وفيه عبدالأعلى بن أبي المساعد، وهو متروك، وضعفه الألباني في ضعيف سنن ابن ماجة رقم (١٧)، وقال: ضعيف جداً. =

وسوف يأتينا إن شاء الله في آخر هذا الكتاب، باب: ما جاء في منكري القدر، يعني: بيان من لم يؤمن بأقدار الله تعالىٰ[(١)].

والقصد من هذا الباب الصبر، وهو أن الإنسان يصبر علىٰ ما أصابه في هذه الحياة الدنيا من المصائب؛ فكأنه قال: باب: بيان الصبر، وحال من لا يصبر، فمن صبر فإنه مؤمن بأقدار الله، ومن لم يصبر فإنه متهم لله بسوء التصرف، أو أنه منتقد لله، كأنه يعتب علىٰ الله في تصرفه، ويقول: هذا التصرف ليس بلائق، وليس بحسن، لا يليق بالله أن يتصرف به.

وذكر الله الصبر في القرآن في أكثر من تسعين موضعاً، يمدح أهله ويأمر به، ويذكر ثوابه وما أشبه ذلك، ولو لم يكن إلا قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، هذا في الثواب، أما في الأمر، ففي قوله تعالىٰ: ﴿اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

وجعله في آية أخرىٰ مما يستعان به علىٰ هذه الحياة، في قوله تعالىٰ: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥].

وبشر أهله، بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]، وبقوله: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥]، وما أشبه ذلك، فهذا دليل علىٰ فضل الصبر.

وقد ورد أيضاً في بعض الآثار: «الصبر نصف الإيمان»[(٢)]، فإذا كان الصبر

= قال الشيخ ابن جبرين: ولكن له شاهد ذكره في مجمع الزوائد للطبراني ورجاله ثقات.

(١) انظر باب رقم (٥٩).

(٢) رواه ابن الأعرابي في معجمه (٥٦/ ٢)، وأبو نعيم في الحلية (٥/ ٣٤)، والطبراني في التفسير (٢١/ ٨٤)، وقال: حدثنا ابن حميد قال ثنا جرير عن مغيرة، قال: (الصبر نصف الصبر...)، ورواه الطبراني في التفسير أيضاً (٢١/ ٨٤) عن مغيرة عن الشعبي في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾. وأورده القرطبي في تفسيره (١٤/ ٧٩) عن الشعبي. وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٥٧)، عن الطبراني في الكبير، عن عبيد الله وقال: رجاله رجال الصحيح. =

نصف الإيمان، فهو أعظم من أن يستهان به.

وينقسم الصبر إلى ثلاثة أقسام:

صبر على طاعة الله، وصبر عن معاصي الله، وصبر على أقدار الله، فالأعمال كلها داخلة في الصبر بهذا التقسيم.

الأول: الصبر على طاعة الله:

وهو صبر النفس على الأمور المأمور بها، فإن الله تعالى أمرنا بأمور، فلا بد أن نصبر نفوسنا عليها، فنصبر مثلاً على الوضوء والطهارة، ولو كان فيه مشقة لأنه مما أمر الله به، وقد يكون فيه صعوبة ومخالفة النفس التي تميل إلى الكسل وإلى حب الراحة، ولكن متى صبر الإنسان نفسه على ذلك فإنه يكون من الصابرين.

كذلك الصبر على أداء الصلوات، فقد يكون الذهاب إلى المساجد ثقيلاً على النفس، وقد تميل النفس للنوم، أو الراحة في البيت ونحوه، ولكن متى صبر الإنسان، عُدَّ من الصابرين.

كذلك الصبر على طول القيام في الصلاة، والصبر على طول الركوع

= ورواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٨٤) عن عبدالله بن مسعود، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ورواه القضاعي في مسند الشهاب (١/ ١٢٦) رقم (١١١) عن عبدالله، عن رسول الله ﷺ، والطبراني في الكبير (٩/ ١٠٤) عن عبدالله، والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٧٤)، وقد أورده ابن الجوزي في العلل المتناهية، وقال: تفرد بروايته محمد بن خالد عن الثوري، ومحمد بن خالد (مجروح)، والنسائي يعقوب بن محمد (ليس بشيء).
وقال الألباني في الضعيفة (١/ ٥٠٦) رقم (٤٩٩): منكر.

قال الشيخ ابن جبرين: ولكنه صحيح عن بعض السلف، فقد ذكره ابن رجب في جامع العلوم والحكم في شرح حديث: «**الطهور شطر الإيمان**»، عن ابن مسعود موقوفاً، وعن أنس مرفوعاً.

والسجود، وما أشبه ذلك، وهذا كله من الصبر على طاعة الله.

وقد ورد في بعض الأحاديث تسمية شهر رمضان بشهر الصبر؛ لأنه صبر عن بعض الشهوات المباحة والمحبوبة للنفس؛ فمن أجل ذلك يكون الصوم من الصبر.

كذلك الحج من الصبر؛ لما فيه من التكلفة.

وكذلك إيتاء الزكوات والنفقات الواجبة، والنفقات في سبيل الله من الصبر؛ لأن الإنسان يصبر نفسه عليها، وعلى إخراجها، وهذا أيضاً كله من الصبر على طاعة الله.

الثاني: الصبر على معصية الله:

قد تدفع الإنسان نفسه إلى بعض المعاصي التي تحبها وتميل إليها، فإذا حبس نفسه فإنه قد صبرها، فإذا دعته نفسه أو حاولت أن تشوقه إلى سماع الأغاني ونحوها، فحبس نفسه، عدّ صابراً، وإذا تمنت نفسه أن تتطلع إلى العورات، أو إلى النساء المتبرجات ونحوهن، ولكنه صبر نفسه ومنعها، فعد من الصابرين، وكذلك إذا تمنت نفسه وحاولت أن تدفعه إلى محرم، كالزنى والخمر والكبر والسرقة وغير ذلك، وتيسرت أسبابه، ولكن منع نفسه وحبسها، فإذا فعل ذلك عد من الصابرين.

فمتى قوي الإنسان على نفسه وقهرها وتغلب عليها، عد من الصابرين، وهذا هو الصبر عن معاصي الله، فهو قهر النفس والتغلب عليها حتى لا تقع في هذه المعاصي.

الثالث: الصبر على المصائب:

وهي التي تصيب الإنسان بقضاء الله وقدره، فإذا أصابته فإن واجبه أن يصبر

عليها، فإذا صبر عليها فإنه يعد من الصابرين.

وتعريف الصبر في اللغة: الحبس، ومنه قولهم: قتل فلان صبراً؛ أي: حبساً، فيمسك به إلىٰ أن يموت، ومنه قول النبي ﷺ: «**لا تصبر البهائم**»[1]؛ أي: لا تحبس وتمنع وترمىٰ محبوسة حتىٰ تموت. قال ابن حجر في الفتح (٩/ ٥٥٩): المصبورة هي التي تربط وتجعل غرضاً للرمي.

وتعريف الصبر على المصائب: حبس النفس عن الجزع، وحبس اللسان عن التشكي والتسخط، وحبس الجوارح عن لطم الخدود وشق الجيوب ودعوىٰ الجاهلية.

فواجب الإنسان عندما تحدث له مصيبة أن يصبر نفسه ويمنعها، وإذا اشتكىٰ فلا يشتكي إلا إلىٰ ربه، فلا يشتكي إلىٰ مخلوق، فيقول له: أصبت بكذا، وفقدت من مالي كذا، ومات لي من الولد كذا؛ كأنه يشتكي الله تعالىٰ لعباده، يقول بعضهم:

وإذا أتتك مصيبة فاصبر لها
صبر الكريم فإنه بك أرحم
وإذا شكوت إلى ابن آدم إنما
تشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم

فكأنه يشكو الله إلىٰ عباد الله، ويشكو من هو أرحم به إلىٰ من لا يرحمه، ولكن واجبه عند المصيبة أن يرضىٰ ويسلم.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٥٥١٣)، ومسلم برقم (١٩٥٦)، عن أنس رضي الله عنه، ولكن بلفظ: «نهىٰ رسول الله ﷺ أن تصبر البهائم».

■ قوله: [وقول الله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١١]، قال علقمة: هو الرجل تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله؛ فيرضى ويسلم(١)]:

أي: يعلم أن هذه المصيبة من الله فيسلم لذلك وينقاد ويرضى، ويقول: قدّر الله وما شاء فعل، رضينا بالله وبما جاء من عند الله.

ويقول كما قال النبي ﷺ: «إن لله ما أخذ، وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى»(٢)، هذا هو الرضى والتسليم.

■ قوله: [وفي صحيح مسلم، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في النسب، والنياحة على الميت»(٣)]:

وقد ثبت - أيضاً - في حديث آخر أنه ذكر أربعاً، فقال: «أربع في أمتي من أمر الجاهلية: الطعن في الأنساب، والفخر في الأحساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة على الميت، وقال: والنائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة، وعليها سربال من قطران، ودرع من جرب»(٤).

وكانت النياحة كثيرة في العرب وغيرهم، فإذا مات ميت قاموا ينعون

---

(١) رواه ابن جرير في التفسير (٢٨/ ١٢٣)، وابن أبي حاتم في تفسيره، كما في تفسير ابن كثير (٨/ ١٦٣)، وأخرجه عبدالرزاق في التفسير (٣/ ٩٥)، وعبد بن حميد وابن المنذر، كما في الدر المنثور (٨/ ١٨٣).

وأخرج نحوه البخاري معلقاً (٨/ ٦٥٢) عن ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري برقم (١٢٨٤)، ومسلم برقم (٩٢٣)، ولكن بدون قوله: «شيء».

وأخرجه البخاري برقم (٧٣٧٧)، ومسلم برقم (٩٢٣)، بهذا اللفظ، وكلاهما عن أسامة بن زيد رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم برقم (٦٧)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه مسلم برقم (٩٣٤)، عن أبي مالك الأشعري.

وينوحون ويصيحون، ويسمون نداءهم له ندباً، ويقول قائلهم: واولداه، واأبواه، واأخواه، وما أشبه ذلك، أو قد يذكرونه باسمه فيقولون: وامحمداه، واسعداه، واإبراهيماه، وما أشبه ذلك.

أو يذكرونه بأفعاله، فيقولون: وامطعماه، واساقياه، واكاسياه، وما أشبه ذلك، وكأنه هو الذي يفعل ذلك، وكأنه هو الذي يدبرهم ويكسوهم، وذلك إساءة للظن بالله تعالى.

فجاء الإسلام ونسخ ذلك وجعله من خصال الكفار، وسمى ذلك نياحة لأنهم ينوحون، أي: ينوح بعضهم ويصيحون بأعلى أصواتهم، وسواء كانت النائحة رجلاً أو امرأة فيسمى نائحة، فيقولون: قامت نائحة فلان، أي: قام نوحه.

وتوعد هذه النائحة رجلاً أو امرأة بهذا الوعيد، بقوله: «**النائحة إذا ماتت قبل أن تتوب تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران، ودرع من جرب**»[1]، بمعنى أنها: يلازمها العذاب إلى حين البعث قبل أن تدخل في النار والعياذ بالله، فيكون ذلك العذاب لها بمنزلة الجلد.

والقطران: هو المادة المعروفة التي تشتعل فيشتد اشتعالها وحرارتها على البدن.

وقد ذكره الله من جملة عذاب النار، بقوله تعالى: ﴿**سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ**﴾ [إبراهيم: ٥٠]، فكذلك هذا الناتج، يجعل عليه سربال، أي: ثوب سابغ من قطران، وعليه درع من جرب، والجرب معروف: وهو هذا الذي يتأذى منه الجسد ويكون فيه حكة شديدة وحرارة بليغة، فمثل هذا عقوبة عاجلة.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٩٣٤)، عن أبي مالك الأشعري.

وقوله: «اثنتان في الناس هما به كفر»، أي: يسمى كفراً، لكونها من خصال الكفر، وإن لم تكن ناقلة عن الملة، لكنها من شعب الكفر، فشعب الكفر من الكفر، كما أن شعب الإيمان من الإيمان.

■ **قوله: [ولهما، عن ابن مسعود، مرفوعاً: «ليس منا من ضرب الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية»**(١)]:

ذكرنا أن الجاهليين، وكذلك الجهلة من العرب، ومن غيرهم؛ كانت من عاداتهم السيئة أنهم إذا مات فيهم الميت قاموا ينعون وينوحون عليه، فيضربون الخدود، ويشقون الجيب وغير ذلك، فجعل النبي ﷺ أفعالهم هذه مخرجة لهم عن تحقيق الاتباع للرسول عليه الصلاة والسلام، فقال ﷺ: «**ليس منا**»، وهذا وعيد كبير: أي: الذي يفعل هذا لا يكون من أتباع الرسول، بل قد تبرأ من أفعالهم هذه، فلا يحظون بشفاعته ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ولا يكونون من أتباعه حق الاتباع؛ لأنهم خالفوه؛ وذلك في أمرين:

أولاً: أنهم لم يرضوا بقضاء الله وقدره، حيث قدر عليهم هذه المصائب التي أصابتهم في أنفسهم، أو في أموالهم، أو في أهليهم، أو ما أشبه ذلك.

ثانياً: لم يحتسبوا الأجر، ففاتهم الأجر والثواب الذي رتبه الله تعالى على الصبر، وكذلك فاتهم الرضى بالقضاء والقدر؛ فبدلوا أمر الله الذي أمر به، وفعلوا ضده وهو الجزع وعدم الصبر، ففعلوا هذه الأعمال التي هي من عادتهم، فإذا مات عندهم الميت أخذوا يضربون الخدود ويشقون الجيوب، فلذلك قال ﷺ: «**ليس منا من ضرب الخدود، وشق الجيوب**».

---

(١) أخرجه البخاري برقم (١٢٩٤)، ومسلم برقم (١٠٣)، عن عبدالله بن مسعود.

وليس الأمر خاصاً بالخد، فالخد: هو صفحة الوجه، ولا يخص ضرب الوجه؛ بل لو ضرب صدره، أو ضرب فخذه، أو ضرب يده، أو ضرب عضده؛ كل ذلك يدخل إذا كان ضربه على وجه التسخط لقضاء الله وقدره.

كذلك ـ أيضاً ـ إذا أضاف إلى ذلك ما بعده، من ينتف الشعر ونحوه، أي: أن بعضهم من شدة ألم النفس، ومن عدم صبره قد ينتف الشعر، كأن تنتف المرأة شعرها، أو ينتف الرجل شعر رأسه، أو شعر لحيته، أو ما أشبه ذلك، فهذا من ضعف اليقين.

وكذلك ـ أيضاً ـ شق الثياب، لقوله: «**وشق الجيوب**»، والجيب هو: مدخل الرأس، فالفتحة التي في الثوب يدخل منها الرأس تسمى الجيب، قال الله تعالى في أمر النساء: ﴿**وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ**﴾ [النور: ٣١].

فعادة المرأة أو الرجل إذا أصيب بمصيبة أو سمع بها مسك ثوبه من جيبه وشقه؛ لأنه أقرب شيء إليه، لكن ليس ذلك خاصاً بالجيب، فلو شق الثوب من كمه، أو من أسفله، أو من وسطه، أو أمسكه بقوة حتى شقه، دخل في هذا الوعيد.

وبالجملة فإن هذه الأفعال كلها من أفعال الجاهلية التي جاء الإسلام بنسخها والنهي عنها، وقد ثبت أنه ﷺ قال: «**بريء من الصالقة والشاقة والحالقة**»(١)، **والصالقة هي**: التي ترفع صوتها عند المصيبة، **والحالقة**: التي تحلق رأسها أو تنتف شعرها، **والشاقة**: التي تشق ثوبها، وليس ذلك خاصاً بالإناث، بل إذا فعله الذكور فإنهم يدخلون في هذا الوعيد.

وكذلك قوله: «**ودعى بدعوى الجاهلية**»، أي: ليس منا من فعل ذلك، أي:

---

(١) أخرجه البخاري برقم (١٢٩٦)، ومسلم برقم (١٠٤)، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

ليس منا من تمسك بهذه الدعاوىٰ الجاهلية، فإذا دعا الإنسان بدعوىٰ الجاهلية الذي ذكرنا، بأن قال: ـ مثلاً ـ واوالداه أو واأبواه فإنه يدخل في هذا الوعيد، وكذلك إذا قال: وامطعماه، واساقياه، أو قال: وامحمداه، واسعداه، وما أشبه ذلك فإنه داخل فيمن دعا بدعوىٰ الجاهلية.

فالواجب علىٰ المسلم في مثل هذه الأحوال أن يرضىٰ ويسلم، كما في قول علقمة الذي سبق ذكره: (**هو الرجل تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله، فيرضى ويسلم**)؛ وذلك لأن الله قد قدر مقادير الخلق، وقد كتب علىٰ الإنسان ما هو واقع فيه، قال تعالىٰ: ﴿**مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ**﴾ [الحديد: ٢٢].

أي: إن هذا الفعل يسير علىٰ الله تعالىٰ، وكيف لا يكون يسيراً عليه، وهو عالم بالخلق قبل أن يوجدهم؟ فكونه كتب علىٰ المرء ما هو عامل، وما هو واقع فيه من قديم الزمان يسير عليه، وهذا من حكمته سبحانه وتعالىٰ أن يؤمن العباد بقدره بخيره وشره.

والواجب علىٰ المرء إذا وقع في مصيبة، أو حدث له حادث، أو مرض، أو مات له قريب، أو غير ذلك، فعليه أن يقنع بما أصابه، وأن يتذكر:

أولاً: أن هذا من تقدير الله تعالىٰ، وأن تصرفه لعباده أتم من تصرفهم لأنفسهم.

ثانياً: يعلم أن الله تعالىٰ يبتلي العباد ليظهر من يشكر ومن يجزع، وليظهر من يصبر ومن لا يصبر.

ثالثاً: يعرف أن في صبره علىٰ ذلك أجراً كبيراً، كما ذكر الله ذلك بقوله: ﴿**وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ**﴾ [البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٧].

فالصلوات هي: الثناء على عباده ومغفرته لهم، وإعطاؤه لهم الأجر الكبير، **وأما الرحمة فهي**: أن يتغمدهم برحمته، وأن يعطيهم من فضله، **وأما الاهتداء فهو**: أن يهديهم لأتم الطريق، ذلك لأنهم استقاموا على أمره ورضوا بما قدره وقضاه.

أما إذا جزع فإنه يفوته ذلك كله، وهذا الذي يجزع ويصيح ويندب، هل يرد عليه غائباً؟ أم هل يحيي ميتاً؟ أو يشفي مريضاً؟ الجواب: لا. إنما ذلك كله من الجزع وعدم الصبر.

والحاصل: أن الجزع ونحوه ينافي كمال التوحيد؛ لأن فيه طعن في تصرف الله سبحانه وتعالى، واعتراض عليه، فعلى المسلم أن يرضى بما أصابه وما قدّره الله تعالى عليه، وأن لا يشتكي إلا إليه، حتى يحصل على الأجر والثواب العظيم الذي أعده الله للصابرين.

■ **قوله**: [**وعن أنس: أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه، حتى يوافي به يوم القيامة»**(١).

وقال النبي ﷺ: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم،

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٢٣٩٦)، والحاكم في المستدرك (١/ ٣٤٠)، وابن حبان (١/ ٢٧٨)، والبيهقي في الأسماء والصفات (١٥٤).
قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، ووافقه الأرناؤوط في تحقيق شرح السنة (٥/ ٢٤٥).
والحديث له شاهد عن عبدالله بن مغفل أخرجه أحمد في المسند (٤/ ٨٧)، والحاكم في المستدرك (١/ ٣٤٩، ٤/ ٣٧٦)، والطبراني كما في المجمع (١٠/ ١٩١)، وأبو نعيم في الحلية (٣/ ٢٥).
قال الهيثمي: ورجال أحمد رجال الصحيح، وكذا أحد إسنادي الطبراني.
وشاهد آخر عن أبي هريرة أخرجه ابن عدي في الكامل (٣/ ١١٩٢).
وشاهد آخر عن عمار بن ياسر أخرجه الطبراني كما في مجمع الزوائد (١٠/ ١٩٢). وقال الهيثمي: إسناده جيد.
وشاهد آخر عن ابن عباس أخرجه الطبراني في الكبير (١١٨٤٢). =

فمن رضي فله الرضى، ومن سخط فله السخط»(١) **، حسنه الترمذي]**:

هذان الحديثان رواهما الترمذي في موضع واحد عن صحابي واحد.

فقوله: «**إن الله إذا أراد بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا**»؛ المراد بالخير هنا: الخير الأخروي، أي: إذا أراد الله بالعبد خيراً أخروياً قدر له الحسنات حتىٰ يرفع له الدرجات، ويحط عنه الخطيئات، فإنه يعجل له العقوبة في الدنيا.

والعقوبة هنا: هي العقوبة علىٰ ما اقترف من السيئات والذنوب، فالعبد ولا بد في الدنيا أن يذنب، ولا بد أن يقترف خطايا، ولا بد أن يرتكب سيئات، ولا بد أن يقصر في واجبات، وهذه الأشياء يستحق عليها عقوبة، فالمؤمن تعجل عقوبته في الدنيا.

وأما الكافر فتجمع عقوبته إلىٰ الآخرة ليعاقب بها في النار، من أجل ذلك كان كثير من السلف يفرحون بالبلاء؛ لأنهم يعتقدون مكفراً لما وقعوا فيه من الأخطاء، ويعتبرونه من إرادة الله الخير بالعبد.

والعقوبة الدنيوية: تارة تكون في البدن، وتارة تكون في الولد، وتارة تكون

= والحديث صححه الألباني في الصحيحة رقم (١٢٢٠).

(١) أخرجه الترمذي برقم (٢٣٩٦)، وابن ماجه برقم (٤٠٣١)، وأبو يعلي في مسنده (٧/ ٢٤٧) رقم (٤٢٥٣)، عن أنس رضي الله عنه.

قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، وقد ضعفه حسين أسد في تحقيق مسند أبي يعلي، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي وصحيح ابن ماجه.

وله شاهد عن محمود بن لبيد أخرجه ابن ماجه برقم (٤٠٢١)، وأحمد في المسند (٥/ ٤٢٧، ٤٢٩)، وأورده المنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ٢٨٣). وقال: رواته ثقات. وبه قال الهيثمي في المجمع(٢/ ٢٩١)، وابن حجر في الفتح: (١٠/ ١٠٨)، وانظر المشكاة (١/ ٤٩٣). والسلسلة الصحيحة للألباني رقم (١٤٦).

في الأهل، وتارة تكون في المال.

* **فالتي تكون في البدن**: تارة تكون بالهموم والأحزان، فيسلط الله على الإنسان الهم والحزن الذي يقلق راحته، وذلك لإرادة الخير له ليكون ذلك أقوى لإيمانه إذا صبر واحتسب، فيكون ذلك مكفراً لخطاياه وسيئاته التي اقترفها إذا احتسب وصبر.

وتارة يكون الابتلاء في البدن بالألم والمرض، بأن يمرض، أو تعتاده الأمراض في رأسه، أو في عينيه، أو في جوارحه، أو في بطنه، أو ظهره، أو أعضائه، أو جلده، أو غير ذلك.

فتكون هذه الأمراض التي يبتلى بها مكفرة لسيئاته إذا احتسب وصبر، وتكون من إرادة الله به خيراً، حيث عجل له العقوبة في الدنيا.

* **وكذلك إذا ابتلي العبد بالمصائب في أهله**، بأن ابتلي بفقد ولد أو والد أو أخ أو قريب أو صديق وما أشبه ذلك، فصبر واحتسب، كان ذلك أعظم لأجره، وعلامة على قوة إيمانه، وكان ذلك مكفراً لسيئاته ومكثراً لحسناته، فيكون ممن أراد الله به خيراً حيث عجل له العقوبة في الدنيا.

* **وهكذا إذا أصيب في ماله**، بأن أصيب بكساد تجارته أو بتلف في ماله؛ كحرق أو غرق أو ضياع وما أشبه ذلك، فصبر واحتسب، فإن ذلك دليل على أن الله أراد به خيراً.

وأما من جزع واشتكى إلى الخلق، وتنقص تصرف الله، ولم يرض بقضائه وقدره فإن هذا لا يكون ممن أراد الله به خيراً، ويكون ابتلاؤه بذلك ليظهر صبره أو جزعه.

وقوله: «**إذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه، حتى يوافى به يوم القيامة**»: إذا

أراد الله أن تكون عقوبة العبد مؤخرة في الآخرة، وسيئاته متراكمة في الآخرة، فإنه يعجل له الحسنات، وتدخر له في الآخرة السيئات، فتجده منعماً مرفّهاً قد أعطي صحة في بدنه، وقوة في جسمه، وكمالاً في جوارحه، وكثرة في ماله، وأمناً ورخاءً وسعة رزقٍ، وتماماً أيما تمام، ولم يصب بمصائب ونحوها، فيكون ذلك ابتلاءً.

فإن الله تعالىٰ يبتلي بالخير كما يبتلي بالشر، فإذا أعطي ذلك لكنه لم يعترف بأن هذا العطاء ابتلاء وامتحان، ولم يقض حق ما أعطي، ولم يستعن بماله علىٰ طاعة ربه، ولم يصرفه في طاعته، بل صرفه في معاصيه، فإنه يكون كافراً بنعم ربه، وتكون سيئاته قد عجلت له، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ [الأحقاف: ٢٠].

فقوله: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ﴾، أي: أذهبتم حسناتكم، فأنتم قد أحسنتم، وقد عملتم صدقات، وقد عملتم أنواعاً من البر، وقد عملتم أنواعاً من الصدق، وقد تعاملتم المعاملة الحسنة، فتلك الأمور الحسنة، والحسنات والطيبات تعجلتم ثوابها في الدنيا، وتوفرت لكم سيئاتكم.

وذلك من إرادة الله بعبده الشر، يمسك عنه بذنبه حتىٰ إذا وافاه فإذا سيئاته قد توافرت، وإذا حسناته قد تلاشت واضمحلت.

وأما قوله في الحديث الثاني: **إن عظم الجزاء مع عظم البلاء»**:

عظم البلاء، أي: كثرة المصائب دليل علىٰ عظم الجزاء، فالبلاء العظيم يحصل معه الجزاء العظيم، أي: الأجر والثواب، وذلك مع الاحتساب كما تقدم.

وعظم الجزاء، أي: في الآخرة، فالله يجازي الذي ابتلاه في الدنيا ابتلاء كثيراً

عظيماً، يجازيه في الآخرة جزاءً وافراً عظيماً.

فعظم الجزاء هو: عظم الأجر والثواب في الآخرة، أو يكون مع عظم البلاء، يعني: البلاء الدنيوي.

ثم قال: «**وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم**»، فإذا ابتلى الله قوماً فاعلم أن ذلك دليل محبة الله لهم حيث ابتلاهم.

وقد وردت أحاديث تدل على أن أولياء الله هم المبتلون، فثبت أنه ﷺ قال: «**أشد الناس بلاءً: الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على قدر دينه، فإن كان في دينه صلابة شدد عليه، وإلا خفف عنه**»(١). فكلما كان أشد وأقوى ديانة كان البلاء عليه أكثر.

روي أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: إني أحبك، فقال ﷺ: «**إن كنت صادقاً فأعد للبلاء تجفافاً؛ فإن البلاء أسرع إلى من يحبني من السيل إلى منحدره**»(٢)، فإذا كان الإنسان صادقاً في حب الله وحب الرسول، فإنه لا بد أن يبتلى، فإن صبر فإن ذلك دليل على قوة إيمانه، وإن جزع فذلك دليل على ضعف إيمانه.

والله تعالى ذكر أنه يبتلي الأمم ليظهر من يشكر ممن يكفر، قال تعالى: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ**﴾ [الحج: ١١]. فالابتلاء للعبد في الدنيا من أجل أن يظهر إيمانه

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ١٧٢، ١٧٤، ١٨٠، ١٨٥)، والترمذي رقم (٢٣٩٨).
قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وقال أحمد شاكر في تحقيق المسند رقم (١٤٨١): إسناده صحيح.

(٢) أخرجه الترمذي برقم (٢٤٦٨)، عن عبدالله بن مغفل رضي الله عنه، وضعفه الألباني في الضعيفة رقم (١٦٨١).
ورواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٣٦٧) رقم (٧٩٤٤). عن أبي ذر رضي الله عنه.

إن كان قوّياً أو ضعيفاً.

ولكن قد يقال: إن الكفار ـ أيضاً ـ قد يبتلون، نقول: إن الله تعالىٰ له الحكمة في ذلك، فبعض البلاد الكفرية ممتعة بالرفاهية، وبالعيش، وكثرة الأرزاق، وكثرة الأمطار، وكثرة الأعشاب والدواب ونحوها، فإن خدع بعض الناس وقال: هذهِ أمريكا يأتيها الرزق والمطر صباحاً ومساءً، وهذه البلاد الفلانية كافرة وبلادها نظيفة، وأرضها كلها خضراء، فنقول له: ليس ذلك دليلاً علىٰ كرامتهم، بل إن ذلك من تعجيل طيباتهم، وإن ذلك من الابتلاء والامتحان.

وقد يكون هناك ـ أيضاً ـ بلاد كفرية في ضيق وفي فتن ومحن، ولكن ذلك من تعجيل العقوبة أيضاً، ويكون الله تعالىٰ جمع لهم بين العقوبتين لغلظ كفرهم، بأن فاتهم نعيم الدنيا ولذتها وحيوا حياة تعيسة، وفي الآخرة عذاب النار، فجمع الله لهم بين العذابين.

وكذلك بالنسبة إلىٰ أهل الإيمان هناك مؤمنون دخلوا في الإيمان فوسع الله عليهم، وجمع الله لهم بين الحسنيين؛ حسنة الدنيا ولكنهم شكروا وقاموا بحقها، وأعطوا كذلك من حسنة الآخرة التي هي الجنة.

وقوم ابتلوا بالدنيا، وكان ذلك تكفيراً لسيئاتهم وتوفيراً لحسناتهم، فلهم في الآخرة الأجر الجزيل.

فالناس في الابتلاء أربعة أقسام:

القسم الأول: مؤمنون ممتعون في الدنيا بالخير وبالرزق، ولا ينقص بذلك مرتبتهم بالآخرة.

والقسم الثاني: مؤمنون مبتلون في الدنيا بالمصائب والفقر والفاقة ونحو ذلك، وذلك من ابتلائهم، ومن إرادة الله تعالى بهم خيراً.

والقسم الثالث: كافرون ممتعون في الدنيا قد قدر لهم العيش الهنيء والسعة، والأمن، وكثرة المال، فهؤلاء مما عجلت لهم طيباتهم، ولا يدل ذلك على كرامتهم.

والقسم الرابع: كفار جمع الله لهم بين الأمرين، بين ضيق الدنيا، وعذاب الآخرة، والكل فيها تحت أمر الله تعالى، والله تعالى أعلم.

■ ■ ■ ■ ■

[٣٥]

باب:
ما جاء في الرياء

وقول الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ١١٠].

وعن أبي هريرة، مرفوعاً: «قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه»، رواه مسلم.

وعن أبي سعيد، مرفوعاً: «ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال؟»، قالوا: بلى، قال: «الشرك الخفي: يقوم الرجل فيصلي فيُزيِّنُ صلاته، لما يرى من نظر رجل»، رواه أحمد.

■ ■ ■ ■ ■

• فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية الكهف.

الثانية: الأمر العظيم في رد العمل الصالح إذا دخله شيء لغير الله.

الثالثة: ذكر السبب الموجب لذلك وهو كمال الغنىٰ.

الرابعة: إن من الأسباب أنه تعالىٰ خير الشركاء.

الخامسة: خوف النبي ﷺ علىٰ أصحابه من الرياء.

السادسة: أنه فسر ذلك بأن يصلي المرء لله، لكن يزينها لما يرىٰ من نظر رجل إليه.

■ ■ ■ ■ ■

●● الشرح ●●

باب:
ما جاء في الرياء

من أنواع الشرك الرياء، والمراد به: الرياء في الأعمال، أي: مراءاة الإنسان الناس بعمله؛ سواء كان قولياً أو فعلياً، فكأنه أراد منهم مالاً، أو أراد منهم مدحاً، أو ما أشبه ذلك، فأطلق على عمله أنه رياء، وأنه مراء.

وقد يفرق بين الرياء القولي والرياء الفعلي:

فالقولي: تسميعاً وسمعةً.

والفعلي: رياءً.

فيقال: هذا يحب الرياء والسمعة.

وقد ورد التفريق بينهما في بعض الأحاديث، كقوله ﷺ: **«من سمع سمع الله به، ومن رآى رآى الله به»**(١).

وقد ورد ذم الله للذين يراءون بأعمالهم، فقال تعالى: ﴿**فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ**﴾ [الماعون: ٤-٦]. فتوعدهم الله بالويل مع كونهم يصلون، ولكن صلاة مع رياء وصلاة مع سهوٍ، أي: يسهون عنها حتى تفوت، ولا يهتمون بها، وإذا صلوها فإنهم يراءون.

وكذلك - أيضاً - ذم الله الذين يراءون بالنفقات ونحوها، قال الله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ**﴾ [النساء: ٣٨]، أي: مراءاة للناس، وهذا فيمن

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٤٩٩)، عن جندب رضي الله عنه.
وأخرجه مسلم برقم (٢٩٨٦)، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

لم يكن يحمله على النفقة طلب رضا الله، وإنما يريد محمدة الناس ومدحهم والثناء منهم عليه، فإذا أنفق لله سراً كانت نفقته قليلة، وإذا أنفق علانيةً زاد في النفقة وضاعفها؛ وذلك دليل على أنه يحب المحمدة والثناء فيكون مرائياً، نسأل الله العافية.

وكذلك - أيضاً - ورد ذم المنافقين لمراءاتهم في الصلاة، قال الله تعالى: ﴿**وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ**﴾[النساء: ١٤٢]، أي: يراءونهم بصلاتهم، كأنهم لا يصلون، إلا من أجل أن يراهم الناس، وأن يمدحهم الناس بهذا الفعل، فذلك هو الرياء بالصلاة.

وكذلك قوله تعالى: ﴿**وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ**﴾ [التوبة: ٥٤]، فهم يراءون بنفقاتهم، وبصلواتهم، وما أشبه ذلك.

والرياء يعتبر شركاً، وذلك لأن المرائي كأنه يطلب من الناس الثناء، أو كأنه يعمل من أجل أن يمدح ويثنى عليه، فبذلك بطل عمله، وبطلت عباداته، حيث لم يقصد بها الله وحده؛ بل قصد فيها غير الله، فكأنه يعبد غير الله في ذلك العمل، أي: كأنه يقول بلسان الحال: لا أصلي إلا من أجل الناس يرونني ويمدحونني، ولا أنفق ولا أتصدق إلا من أجل مدح الناس؛ فهذا كأنه قد عبدهم ولم يعبد الله، وأطاعهم وعظمهم ولم يطع ولم يعظم ربه؛ هذا سبب جعل الرياء شركاً.

وقد سماه النبي ﷺ شركاً أصغر، وشركاً خفياً.

فهو شرك أصغر بالنسبة إلى الأكبر الذي هو: السجود للأصنام وعبادتها من دون الله، ولكنه كبير وعظيم، والعقوبة عليه أنه يحبط الأعمال التي اقترن بها،

فإذا اقترن بعمل أحبطه من أصله.

وهو شرك خفي لأن الناس ينظرون إلىٰ أعماله في الظاهر فتكون حسنة، ولكن قلبه بعكس ذلك، فتكون أعماله في الحقيقة لغير الله، فلذلك يكون مشركاً بالله شركاً خفياً لا يطلع عليه إلا الله.

■ **قوله:** [وقول الله تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً**﴾ [الكهف: ١١٠]]:

أمر الله تعالىٰ نبيه محمداً ﷺ أن يخبرهم بأنه بشر مثلهم، أي: واحد منهم، فهو لم يدع النبوة من نفسه، وإنما ربه هو الذي أوحىٰ وأرسله إلىٰ الناس كافة، ليخبرهم بأن ربهم وخالقهم إله واحد متفرد بالعبودية، لا يستحق العبادة غيره، فهو الإله الحق، وما سواه من المألوهات فباطل، فالإله الحق هو الله الواحد الأحد، الذي خلقهم ورزقهم، وأنعم عليهم، فيجب أن يفردوه بالعبادة.

وقوله: ﴿**فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ**﴾، أي: من أيقن بأنه سيلقىٰ الله غداً في الآخرة، وسوف يجد كل ما قدم من الأعمال في الآخرة، فعليه أن يجتهد في العمل الصالح، ويخلص ذلك لله تعالىٰ، ولا يشرك فيه أحد، برياء أو سمعة، أو تمدح، أو طلب ثناء من الناس.

وقد فسر اللقاء في الآية بالرؤية، أي: من كان مؤمناً بأنه سيلقىٰ الله تعالىٰ ويراه، وأنه سوف يحاسبه علىٰ ما عمل في الدنيا.

وقد أخذ من الآية ما يشترط لقبول العمل، وهو الإخلاص والمتابعة، حيث نهىٰ أن يشرك العبد أحداً من المخلوقات في عبادة ربه، أو يقصد بعض المخلوقات بأن يحسن العمل، أو يزيد فيه لمراءات البشر، أو طلب الثناء منهم،

وهذا شرط الإخلاص.

وحيث أمر الله بإصلاح العمل وإتمامه، وذلك بمتابعة النبي ﷺ في ذلك العمل وعدم الابتداع، وعدم المخالفة، وبذلك يرجى قبول الأعمال، وهو معنى ما روي عن الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى أنه قال في قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الملك: ٢]، قال: أخلصه وأصوبه. ثم قال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواب ولم يكن خالصاً لم يقبل، حتى يكون خالصاً صواباً.

والخالص أن يكون لله تعالى وحده، والصواب أن يكون على السنة.

وقال في ذلك الصنعاني رحمه الله تعالى:

فللعمل الإخلاص شرط إذا أتى

وقد وافقته سنة وكتاب

فالإخلاص أن يريد بعمله وجه الله تعالى، فلا يكون فيه شيء لغير الله، وقد روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال في دعائه: (اللهم اجعل عملي صالحاً، واجعله لوجهك خالصاً، ولا تجعل فيه لأحد شيئاً)، والله أعلم.

وقد تكاثرت الأحاديث في ذم الرياء وبيان خطره وأنه يحبط العمل ومن ذلك:

■ **قوله: [وعن أبي هريرة، مرفوعاً: «قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه»[(١)]، رواه مسلم]:**

وفي رواية: «وأنا منه بريء»[(٢)]. وفي بعض الأحاديث: إن الله يقول للذين

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٩٨٥)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجها ابن ماجه برقم (٤٢٠٢)، عن أبي هريرة رضي الله عنه، وصححها الألباني برقم (٣٣٨٧)، في صحيح سنن ابن ماجه.

يــراءون: **«اذهبوا إلى الذين كنتم تراءونهم بأعمالكم، انظروا هل تجدون عندهم من جزاء أعمالكم شيئاً؟»**[(١)]، أي: هل يجازونكم؟ انظروا هل يعطونكم ثواباً على تلك الأعمال؟ أنتم لم تصلوا لله، ولم تنفقوا لله، إنما أنفقتم للناس، فاذهبوا إلى أولئك الناس الذين كنتم تراءونهم، واطلبوا منهم جزاء أعمالكم، وحيث أنهم في ذلك اليوم الذي هو يوم القيامة فقراء مثلهم، لا يجدون عندهم جزاء، فكيف يطلبون منهم جزاء؛ فذلك دليل على حبوط الأعمال، وأنه لا ثواب فيها، حيث داخلها ما أبطلها.

■ **قوله: [وعن أبي سعيد، مرفوعاً: «ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال؟» قالوا: بلى، قال: «الشرك الخفي: يقوم الرجل فيصلي فيُزيِّنُ صلاته، لما يرى من نظر رجل»[(٢)]، رواه أحمد]:**

في هذا الحديث سمى النبي ﷺ الرياء شركاً خفياً؛ وذلك لأن الناس ينظرون إلى عمله ظاهراً حسناً، ولكن قلبه يضمر أنه لغير الله، فهو مشرك بالله شركاً خفياً، وشركاً قلبياً، لا يطلع عليه إلا ربه الذي يعلم نياته، ويعلم ما قام في ضميره، فأما الناس فلا ينظرون إلا إلى عمله الصالح، وهم لا يشعرون به، وما يضمره في قلبه، فيرون هذا الإنسان ـ مثلاً ـ يصوت بالقراءة، ويتغنى في قراءته،

---

(١) أخرجه بنحوه أحمد (٣/ ٤٦٦) و(٤/ ٢١٥)، والترمذي برقم (٣١٥٤)، وقال: حسن غريب، وابن ماجه برقم (٤٢٠٣)، ولفظه: **«إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة ليوم لا ريب فيه، نادى منادٍ: من كان أشرك في عملٍ عَمِلَهُ لله فليطلب ثوابه من عند غير الله...»**.

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٣٠)، وابن ماجه برقم (٤٢٠٤)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٣٢٩)، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

وصححه الحاكم، وقال البوصيري في مصباح الزجاجة (٣/ ٢٩٥): إسناده حسن، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم (٢٦٠٤).

وله شاهد عن محمود بن لبيد أخرجه ابن خزيمة رقم (٩٣٧) وصححه، والبيهقي (٢/ ٢٩٠) رقم (٣٤٠٠)، وحسن الذهبي إسناده في المهذب (٢/ ٢٦١).

ويتدبر ويتخشع، ولا يطلعون على ما في قلبه من أنه ما قرأ إلا من أجل التمدح، وما قرأ إلا من أجل السمعة واشتهار الذكر عند الناس.

كذلك - أيضاً - يرونه - مثلاً - يتصدق، وينفق في سبيل الله، وفي وجوه الخير، فيحسنون به الظن، وهو لم ينفق إلا من أجل المدح، ومن أجل الثناء، ومن أجل الذكر الحسن، والشهرة عند الناس، فلا يطلع على هذه النية في قلبه إلا ربه؛ فمن أجل ذلك صار شركاً خفياً.

وهكذا في الأعمال الأخرى، كالطهارة والصلاة، فتجد أحدهم يرائي في الوضوء بأن يحسن وضوءه أمام الناس، وإذا كان لوحده لم يتوضأ الوضوء الكامل، وكذلك في الصلاة، فتجده ينقرها نقر الغراب إذا كان لوحده، كما جاء في بعض الأحاديث(١)، أما أمام الناس فتجده يتخشع ويطمئن فيها ونحو ذلك، فهذا كله من الرياء الذي يحبط الأعمال.

وعلامة المرائي هي: أنه إذا عمل العمل أمام الناس زاد فيه وحسنه، وإذا عمله خالياً لم يحسنه؛ بل أساء فيه والعياذ بالله.

وهناك قسم من الناس - والعياذ بالله - شرٌ منه، وهو الذي يعمل من أجل الناس، فيصلي إذا رآه الناس، فإذا لم يروه ترك الصلاة، ولا يقرأ إلا إذا كان بمسمع من الناس، فإذا لم يكن بمسمع لم يهتم بقراءة، ولا ينفق إلا إذا كان الناس ينظرون إليه، فإذا دعي إلى وجوه الخير، والناس ينظرون أنفق، وإذا عرف أو رأى وجوه الخير وهو خالٍ لم ينفق، ولم يهتم بالنفقة في هذا المشروع الخير، وما أشبهه. فمثل هذا لم يعمل إلا للناس ولم يعمل لله أصلاً، فيعاقب على فعله؛ لأنه عبد الناس، ولم يعبد الله.

---

(١) كما في حديث عبدالرحمن بن شبل الذي قال فيه: «نهى رسول الله ﷺ عن افتراش السبع، ونقرة الغراب، وأن يوطّن الرجل المكان كما يوطن البعير».
أخرجه أبو داود برقم (٨٦٢)، والنسائي (٢/ ٢٤١) رقم (١١١١)، وابن ماجه برقم (١٤٢٩)، والدارمي برقم (١٣٢٣)، وأحمد (٤٢٨).

وقد اشتهر أن النبي ﷺ أخبر بأن الذين يراءون الناس بأعمالهم، ولا يعملون إلا للناس؛ هم أول من تسعر بهم النار، كما في حديث الثلاثة الذين هم أول من تسعر بهم النار كما رواه أبو هريرة[1]؛ وذكر فيه: أنه يجاء بهؤلاء الثلاثة، فيقال لأحدهم: ماذا عملت؟ فيقول: جاهدت في سبيلك حتىٰ قتلت، فيقول الله: كذبت، ولكنك قاتلت ليقال جريء، فقد قيل، ويؤتىٰ بصاحب القرآن والعلم، فيقول: قد تعلمت فيك القرآن، وتعلمت فيك العلم، فيقول الله: كذبت، ولكنك تعلمت ليقال: عالم، وقرأت ليقال: قارئ، فقد قيل، ويقال مثل ذلك للمنفق، فيقول: ما تركت وجهاً تحب أن ينفق فيه إلا أنفقت فيه، فيقول الله: كذبت، ولكنك فعلت ذلك ليقال: فلان جواد، فقد قيل، فيؤمر بهم فيسحبون في النار علىٰ وجوههم والعياذ بالله؛ لأنهم عملوا للناس ولم يعملوا لله؟ فالذي يعمل لله هو الذي يقصد بعمله وجه الله وطاعته.

وقد سئل النبي ﷺ عن الرجل يقاتل حمية، ويقاتل شجاعة، ويقاتل رياءً، أو ليرىٰ مكانه، ويقاتل للمغنم، أي: ذلك في سبيل الله، فقال: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**»[2]، أي: ما عداه فليس في سبيل الله، بل في سبل النفس والشيطان والهوىٰ.

فهكذا يكون الرياء محبطاً للأعمال، ومبطلاً للثواب، ومسبباً لدخول النار، كما في حديث الثلاثة، ومبطلاً لما اقترن به من الأعمال، وهذا سبب تسميته شركاً. والله تعالىٰ أعلم.

■ ■ ■ ■ ■

(١) أخرجه مسلم رقم (١٩٠٥)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري برقم (١٢٣)، ومسلم برقم (١٩٠٤)، عن أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه.

[٣٦]

باب:
من الشرك: إرادة الإنسان بعلمه الدنيا

وقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥، ١٦].

في الصحيح عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة، تعس عبد الخميلة، إن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش. طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله، أشعث رأسه، مغبرة قدماه، إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة، إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفع».

■ ■ ■ ■ ■

• فيه مسائل:

الأولى: إرادة الإنسان الدنيا بعمل الآخرة.

الثانية: تفسير آية هود.

الثالثة: تسمية الإنسان المسلم عبد الدينار والدرهم والخميصة.

الرابعة: تفسير ذلك بأنه إن أُعطي رضي، وإن لم يعط سخط.

الخامسة: قوله: «**تعس وانتكس**».

السادسة: قوله: «**وإذا شيك فلا انتقش**».

السابعة: الثناء على المجاهد الموصوف بتلك الصفات.

■ ■ ■ ■ ■

●● الشرح ●●

باب:
من الشرك: إرادة الإنسان بعلمه الدنيا

المراد بالعمل هنا: العمل الأخروي، أي: الأعمال التي يُبتغىٰ بها ثواب الآخرة، فهذه لا يجوز للإنسان أن يريد بها حظاً دنيوياً؛ بل يفعلها إرادة لوجه الله، لا لطلب منصب، ولا لطلب مالٍ، أو طلب كسبٍ، أو ما أشبه ذلك.

والباب الذي قبله: (باب الرياء)، أخص من هذا الباب؛ لأن ذلك الباب فيمن يعمل من أجل مدح الناس وثنائهم له، أما هذا الباب: ففيمن يعمل العمل من أجل المصلحة العاجلة، من مال أو نحوه.

والمراد بالأعمال هنا: الأعمال التي يتقرب بها إلىٰ الله، ذلك لأن الله لم يأمرنا بها إلا لنخلصها له، لا لنقصد بها حظاً عاجلاً، ولا لنقصد بها مدحاً وثناءً، ولا لنحصل بها علىٰ شهرة أو جاه، وإنما نفعلها نقصد بها وجه الله من أجل الثواب الأخروي؛ هذه هي الحكمة في فرضها، ولا نبالي بمدح الناس، أو ذمهم، ولا نبالي بعطائهم، أو حرمانهم.

ومما يدل علىٰ هذا الباب حديث أبي موسىٰ ـ المتقدم ـ في المجاهد، لما سئل النبي ﷺ عن الرجل يجاهد للمغنم، ويجاهد شجاعة، ويجاهد حمية، ويجاهد أو يقاتل ليرىٰ مكانه، فقال ﷺ: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**»(١)، فجعل من الذين يقاتلون من أجل الدنيا من يقاتل من أجل المغنم.

أي يكون قصده من القتال الحصول علىٰ الغنيمة، أي: الأجر الدنيوي،

---

(١) سبق تخريجه.

فأصبح هذا عملاً أخروياً يراد به أجر دنيوي، وهو الغنيمة التي هي عرض دنيوي.

وكذلك ـ أيضاً ـ سائر الأعمال التي تتخذ قربات كالحج، فهو عمل أخروي، وعمل طاعة وبر، ولكن قد يقصد بعض الناس منفعة دنيوية، كالذي يحج ولا يقصد من وراء حجه سوىٰ التجارة والربح، ولم يقصد أداء الفرض، فهذا حجه ليس لله، وإنما من أجل الدنيا.

وكذلك من يأخذ أموال الناس ويحج، وهو لا يقصد الحج، وإنما يقصد أن يأخذ الأموال مع أنه غني قادر، ولكنه يطمع في المزيد، وقد رخص العلماء للفقير فحسب أن يأخذ المال من أجل تحصيل الحج، أما الغني القادر فلا.

وقد ثبت أنه ﷺ قال لرجل أوصاه: «**أن اتخذ مؤذناً لا يأخذ على أذانه أجراً**»(١). فإذا كان المؤذن مثلاً، أو الإمام أو العالم، إنما يتعلم هذه العلوم، أو يقوم بهذه الإمامة، أو نحوها، أو يقوم بهذا الأذان، أو بهذا العمل الأخروي، الذي هو عمل شريف من أجل منصب دنيوي، أو لأجر دنيوي، فإنه يدخل في هذا الباب؛ لأن هذه أعمال شريفة يثاب عليها، فمعلم الناس الخير يثاب علىٰ تعليمه، وكذلك الذي يؤمهم لقصد وجه الله تعالىٰ يثاب علىٰ إمامته، وكذلك المؤذن يثاب علىٰ أذانه إذا احتسب، فيكون أخذه الأجر علىٰ ذلك من المصلين أو غيرهم يعتبر تعجيلاً للأجر وإبطالاً للعمل من أصله.

ورخصوا إذا أخذ رزقاً من بيت المال، فإنه يستعين بذلك علىٰ قيامه بالعمل؛

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٢٠٩)، وأبي داود برقم (٥٣١)، وابن ماجه برقم (٧١٤)، عن عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه، وقال الترمذي: حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي وابن ماجه، وقال في صحيح أبي داود: صحيح دون قوله: «**واتخذ مؤذناً لا يأخذ على أذانه أجراً**».

لأنه قد يحبس نفسه، ويتفرغ لهذا العمل، فإذا أخذ رزقاً من بيت المال الذي فيه حق لكل ذي عمل من الأعمال المهمة، كالقضاة، والمعلمين، ونحوهم، فإن ذلك جائز؛ حيث إنه لم يأخذ إلا شيئاً مستحقاً، وموقوفاً على أمثاله؛ ولكن الذي يأخذ أجره من المصلين، هو الذي يكون قد تعجل نصيبه.

وقد سئل الإمام أحمد عن رجل قال لجماعة: أصلي بكم بكذا وكذا، فقال أحمد: أسأل الله العافية، ومن يصلي خلف هذا؟ يعني: أنه لم يُصَلِّ لله، إنما فرض على المصلين فرضاً، كأنه قال: اجمعوا لي من أموالكم كذا وكذا، وأنا أصلي بكم، فهذا قد عمل عملاً للدنيا، وهذا في الأعمال العامة.

ومثلها - أيضاً - الأعمال الخاصة، فإن الإنسان إذا دخل في الإيمان من أجل أن يحصل على مال، فإذا لم يحصل عليه ترك الإسلام، فهذا لم يعمل لله.

وقد وُجد كثير من الكفار الذين رُغِّبوا في الإسلام، وقيل لهم: ستحصلوا على مال أو منصب أو مصلحة دنيوية إذا دخلت في الإسلام، فإذا دخل في الإسلام ولم يعط ما وُعد به ترك الإسلام وارتد والعياذ بالله، فهذا ما عبد الله، وإنما عبد المادة وعبد الدنيا.

وهكذا الذي يحافظ على صلاة الجماعة في المسجد من أجل مصلحة دنيوية، فإذا انتهت هذه المصلحة، أو لم تحقق له أصلاً؛ ترك الصلاة مع الجماعة، فهذا ما عمل العمل إلا لأجل الدنيا، نسأل الله العافية.

وهكذا في سائر الأعمال؛ سواء كانت أعمالاً شخصية أو أعمالاً اجتماعية عامة؛ فهذا هو المراد بإرادة الإنسان بعمله الدنيا، ففرق بينه وبين الباب الأول.

والحاصل أن هذين البابين فيمن يعمل الأعمال الأخروية من أجل مصالح

عاجلة، إما مخصوصة كالأموال ونحوها، أو معنوية كالجاه والمنصب، ويعمل للشهرة بين الناس، ومتى تجنبها المسلم فإن عمله يكون خالصاً.

والله تعالى قد مدح أهل الإخلاص، ولا يكون العمل خالصاً إلا إذا سلم لله دون أن يكون فيه شائبة، يقول الله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، والإخلاص: هو الصفاء، أي: خالصة أعمالهم ليس فيها أية شائبة تجعلها لغير الله.

وكان بعض الصحابة يدعو بقوله: (اللهم اجعل عملي صالحاً، واجعله لوجهك خالصاً، ولا تجعل لأحد فيه شيئاً)(١).

ويجب على الإنسان أن يتفقد نفسه، هل هو مراءٍ؟ وهل هو طالب لمصالح دنيوية أم لا؟

ولكن كيف يعرف ذلك من نفسه؟!

يعرف ذلك بالفرق بين قراءته عند الناس، وقراءته وحده، فإذا كانتا سواء فهو مخلص.

وكذلك الفرق بين صلاته وحده، وصلاته عند الناس، فإذا صلى وحده خشع في صلاته، وصلى عند الناس صلاته التي يصليها منفرداً فهو مخلص.

وكذلك يتفقد قلبه إذا تصدق والناس ينظرون، أو تصدق صدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، فمتى كانت صدقته هذه وتلك سواء فإن ذلك دليل على إخلاصه.

---

(١) سبق ذكره في الباب السابق، وقال الشارح الشيخ ابن جبرين: أنه مروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

فإن كان الأمر بالعكس، بأن كانت صدقته في السر قليلة، وفي العلانية كثيرة، وكذلك صلاته في السر وفي الخفية والخلوة صلاة بلا خشوع، وبلا طمأنينة، بل صلاة مع عجلة، وصلاته أمام الناس فيها خشوع وتواضع وطمأنينة وأشباه ذلك، فإن في عمله شيئاً من الخلل، فعليه أن يتفقد نفسه، وأن يحرص على إخلاص عمله، ويعمل بما أمر الله به في قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]، والله أعلم.

■ قوله: [وقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ ⑮ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥، ١٦]]:

استدل المؤلف رحمه الله بهذه الآية على هذا الباب، فقوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ﴾، الإرادة هنا: هي النية، أي: من كان يريد بأعماله الظاهرة ﴿الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾، أي: لا يعمل إلا للدنيا، سواء عمل بتحصيلها مباشرة، أو بواسطة عمل أخروي، ﴿وَزِينَتَهَا﴾، أي: ما عليها من المتاع، ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾، أي: نعجل لهم جزاءَ أعمالهم في الدنيا ﴿وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ﴾، أي: لا يظلمون، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ﴾، وعدهم أنهم لما متعوا بأعمالهم في الدنيا جاءوا في الآخرة ليس لهم أعمال ولا حسنات، حيث تمتعوا بها في الدنيا، فجاءوا مفاليس، فليس لهم إلا النار، ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، فأعمالهم قد استوفوها في الدنيا، فأصبحت حابطة وباطلة يوم القيامة، والكلمتان: حبط وباطل بمعنى واحد.

ومثل هذه الآية قول الله تعالى في سورة الشورى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ

الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورىٰ: ٢٠]، والمراد بالحرث: المتاع، والمراد بالإرادة: النية، أي: من كان يريد بأعماله الآخرة فإن الله تعالىٰ يرزقه في الدنيا، ويعطيه في الآخرة الحظ الأوفر، ويضاعف له الثواب.

أما من كان يريد الدنيا ومتاعها وحرثها وما عليها فإن الله تعالىٰ يؤتيه منها حظاً علىٰ قدر ما كتب له، وفي الآخرة ليس له حظ ولا نصيب.

وقوله: **﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾**، فظاهرها أن كل الكفار يوفون أعمالهم في الدنيا، وأنهم يمتعون ويعطون أعمالهم كلها في الدنيا، لكن كثيراً من الكفار ليس لهم أي أعمال أخروية، فلا يعطون لا في الدنيا ولا في الآخرة، فهذه الآية قد تكون مقيدة بآية سورة الإسراء، وهي قول الله تعالىٰ: **﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾** [الإسراء: ١٨]، أي: أن من أراد الله أن يعجل له أجره في الدنيا عجّله له، ومن أراد حَرَمَهُ خيري الدنيا والآخرة.

فقد يوجد كثير من الكفار محرومين في الدنيا، وفي الآخرة بطريق الأولىٰ؛ حيث إنهم كفار، فيكونون فقراء وعالة، فيصابون بالفتن والمرض، وما أشبه ذلك، وبذلك يعاقبون في الدنيا وفي الآخرة.

ومن الكفار من يمتعون في الدنيا، وتعجل لهم طيباتهم وبهجتهم وسرورهم في الدنيا ـ وهذا هو الغالب ـ، وهو معنىٰ قوله: **﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ﴾**، من أجل ذلك سميت الدنيا أو وصفت بأنها: «**سجن المؤمن، وجنة الكافر**»(١)، فالمؤمن فيها كأنه سجين إلىٰ أن ينفصل منها ويذهب إلىٰ الآخرة،

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٩٥٦)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

فحينئذ ينتقل من ذلك السجن.

أما الكافر، فإنه قد اتخذها دار قرار، فهي جنته التي يتنعم فيها، وليس له في الآخرة جنة.

ومن أجل ذلك ذكر الله أنه قد يعطي الكفار من متاع الدنيا ما يعطيهم، ولكن قد يمنعهم من بعض الذي يتمتعون به مخافة أن يرتد الآخرون، وأن يفعلوا كفعلهم، وألا يبقى على الأرض أحد إلا كافر.

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾، أي: على الكفر، ﴿لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾، أي: لجعلنا سقوف بيوتهم كلها من فضة، ﴿وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾، أي: ونجعل درجها الذي يرقون عليه من فضة، ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا﴾، أي: من فضة، ﴿وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ﴾، أي: من فضة يتكئون عليها، ﴿وَزُخْرُفًا﴾، أي: ذهباً، ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٣٣-٣٥].

فلو قدر أن بعض الكفار يُعطى هذا، فليعلم أن هذا كله متاع الحياة الدنيا، وثواب الآخرة عند الله تعالى هو الباقي، الذي يثيب به المؤمنين.

فعلى كل حال فإن المؤمن يحتسب ما زوي عنه من متاع الدنيا وبهجتها ولذتها، ويحتسب ذلك عند الله، ولا يفرح بنقص الشهوات والمتاع عليه، سيما إذا خشي أن تفتنه وأن تصده عما هو مخلوق له، فإن الفرح بهذه الشهوات وهذا المتاع فيه مشابهة للكفار الذين عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا، والذين يوفون جزاء أعمالهم فيها، وهم فيها لا يبخسون.

أما إذا كان الإنسان يريد وجه الله بأعماله الصالحة، وحصل له مصلحة

دنيوية، وغير مقصودة، وليست هي الأساس، ولا جعلها كأنها الأصل، وأخذها ليستعين بها على حياته فإنه إن شاء الله لا يدخل في هذه الآية، كما تقدم.

▪ قوله: [**في الصحيح عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة، تعس عبد الخميلة، إن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش، طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله، أشعث رأسه، مغبرة قدماه، إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة، إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفع»**[1]]:

دلالة هذا الحديث على الباب من جهتين في أوله وفي آخره، والدلالة في أوله أظهر وأوضح، وذلك:

أولاً: سماه عبداً لهذه الأشياء.

وثانياً: بين معنى كونه عبداً لها.

وثالثاً: أضاف عبوديته إليها.

ورابعاً: دعا عليه بالتعس وبالانتكاس، وبعدم الخروج من المضائق والشدائد.

فقوله: **«تعس»**، افتتح بكلمة (تعس)، أي: سقط على وجهه، وهذا دعاء عليه بأن لا يوفق، وأن لا ينجح في أموره، وفي سيره، ونحو ذلك، بل ينقلب على وجهه؛ والمراد هنا: السير المعنوي في أمور حياته.

وقوله: **«تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة، تعس عبد الخميلة، إن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط»**.

الدينار، والدرهم: معروفان، وهما من أنواع العملات التي يتعامل بها،

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٨٨٧)، عن أنس رضي الله عنه.

والدرهم: قطعة من الفضة، **والدينار**: قطعة من الذهب، **والخميصة**: نوع من اللباس، وكذلك **الخميلة**: نوع من اللباس، وهذا مثال على أمور الدنيا، أي: أن هذه الأشياء من الأمتعة التي يقصدها الناس غالباً، ويحرصون عليها، واقتصر عليها لأنها مثال لغيرها، أو يقاس عليها متاع الدنيا.

أما كونه عبداً لهذه الأشياء، فقد فسره بقوله: «**إن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط**»، أي: أنه يرضى من أجل الدرهم، ويسخط ويغضب من أجل الدرهم، وكأنه يحب من أجل الدرهم، ويبغض من أجله، ويرضى من أجله، ويغضب من أجله، ويوالي من أجله، ويعادي من أجله، وهكذا الدينار.

فهو بذلك كأنه عبد له، وعبد الشيء هو ما يتذلل له، والإنسان مأمور بأن يكون عبداً لله ومتعبداً ومتذللاً لله، فإذا تعبد لهذه الأمور من الدنيا أصبح كأنه عابد لها؛ لأن من تعبد لشيء فقد عبده، أو قد يعظمه كتعظيم الله.

ويدخل في ذلك جميع أنواع المتاع، وجميع أنواع المقاصد، كمن يحب شخصاً لا لدينه، وإنما أحبه لمصلحة جاءت من قبله، فإن هذا عبد لتلك المصلحة التي جاءته.

والمطلوب أن تحب الإنسان لتقواه وورعه وديانته، سواء أحسن إليك أو أساء، فإذا حصل لك منه إساءة فإنك لا تقاطعه بسبب هذه الإساءة إذ أنك تحبه من أجل حب الله له، وتلك الإساءة التي أصابتك بسببه قد يكون معذوراً فيها.

فالواجب عليك ألا تقاطع الرجل الصالح، وإن أساء إليك، وإنما تقاطع عدو الله والمعادي لشرعه، هذا هو الأصل في العطاء والمنع، والرضى والسخط، والولاء والبراء، والحب والبغض، وما أشبهها.

فيجب على الإنسان أن تكون هذه الأشياء لله لا من أجل الدنيا، ولا من أجل الدرهم والدينار.

ثم قوله: «تعس وانتكس»، فالتعس: هو السقوط على الوجه، والانتكاس: هو الانقلاب على الرأس، فكأنه سقط على وجهه ولم يكتف بذلك، بل انقلب على رأسه إلى أن انقلب على قفاه.

وذلك تمثيل لسقوط الإنسان في المهالك والمهاوي والمضائق التي بعد الوقوع فيها يصعب التخلص منها، أو سقوطه في الشدائد التي تعوقه والتي تؤرقه في حياته.

وقوله: **«وإذا شيك فلا انتقش»**، أي: إذا أصابته شوكة فلا يقدر على إخراجها بالمناقيش، والمنقاش هو: الحديدة التي لها طرفان يلتقيان ويقبضان على الشوكة في القدم، أو في اليد، أو نحو ذلك.

وهذا أيضاً تمثيل؛ أي: أنه دعا عليه بأنه إذا وقع في شدائد أو محن لم يقدر على التخلص منها، ولا شك أن هذه الدعوة النبوية ستصيبه لا محالة إما عاجلاً وإما آجلاً.

ثم دعا في آخر الحديث لمن لم يكن كذلك، فقال: «طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله، أشعث رأسه، مغبرة قدماه» إلى آخر الحديث.

وطوبى: قيل إنها شجرة في الجنة يسير الراكب في ظلها مائة عام، وقيل: إنها اسم للجنة، وقيل: المراد: الحياة الطيبة في الدنيا والآخرة؛ أي: طابت حياته وطاب عيشه، وطاب مأواه ومثواه ومنقلبه، أو رزق بدخول طوبى التي هي هذه

الجنة أو التي هي هذه الشجرة.

فتكون الأعمال التي عملها هذا العبد الصالح حتى يستحق دعوة النبي ﷺ هي:

أولاً: أنه أخذ بعنان فرسه في سبيل الله، أي: جاهد وخرج في سبيل الله على فرسه التي هي من خالص ماله.

ثانيـــاً: أنه في سبيل الله، أي: لم يكن في سبيل الوطن، ولا في سبيل العروبة، ولا في سبيل النفس، ولا الهوىٰ، إنما هو في سبيل الله؛ وذلك دليل علىٰ الإخلاص.

وقد قيل للنبي ﷺ عن الرجل يقاتل حمية، ويقاتل شجاعة، ويقاتل لمغنم، ويقاتل ليُرىٰ مكانه، أي ذلك في سبيل الله؟ فقال: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**»[1]، فهذا الرجل الذي دعا له بطوبىٰ يقاتل لتكون كلمة الله هي العليا.

ثالثـاً: وصفه بأنه أشعث أغبر ، أي: أنه حقير عند الناس، لكنه ليس حقيراً عند الله؛ فالناس يحتقرونه لمظهره، فإن المظهر هو الذي يدل علىٰ فضوله ويدل علىٰ عدم اهتمامه بنفسه، ولعل ذلك من باب التواضع؛ حتىٰ لا يكون له شهرة.

وقيل: إنه أشعث أغبر لانشغاله بالقتال علىٰ العناية بنفسه، والشعث والغبرة تكون في الشعر والجلد في ظاهره، أي: أن جلده وبشرته عليها من الغبار ومن الأتربة وما أشبهها.

ورأسه متشعث، أي: منتشر الشعر، لم يتفرغ لغسله ولا لتسريحه، ولا

(١) سبق تخريجه.

لذهنه، ولا العناية به، فرأسه دائماً شعث، إما كما قلنا: لعدم التفرغ، وإما تعمداً من أجل التواضع حتىٰ لا يعرف مكانه بين الناس، ولذلك كان هذا دليلاً علىٰ إخلاصه.

وقوله: «**إن كان في الحراسة كان في الحراسة**»، والحراسة: هي حراسة الجيش عن أن يفجأه العدو، أي: إذا وكل إليه أن يحرس، - مثلاً - المقاتلين أو يحرس الأسلحة والذخائر فإنه يقوم بذلك أتم قيام؛ لأن عمله لله، وليس للنفس فيه حظ ولا مطمع، إنما هو من أجل الله، ومن أجل ثوابه.

وكذلك قوله: «**وإن كان في الساقة كان في الساقة**»، والساقة: هي ساقة الجيش، أي: إذا أسند إليه أن يمشي في مؤخرة الناس حتىٰ يحثهم علىٰ السير، ولا يترك أحداً يتخلف، فإنه يفعل ذلك ويحثهم ويزجرهم، ويؤزهم أزاً إلىٰ الاندفاع وعدم التثاقل والتباطؤ مخلصاً في عمله.

فقوله: «**إن كان في الساقة كان في الساقة**»، أي: كان فيها بإخلاص، وكان فيها بلطفٍ، وبقوة وعدم توانٍ؛ وسبب ذلك عدم إرادة الدنيا، وإنما يريد ثواب الله.

ثم وصفه أخيراً بما يدل علىٰ عدم شهرته عند الناس، فقال: «**إن استأذن لم يؤذن له**»، أي: إن استأذن علىٰ أمير الجيش مثلاً، أو علىٰ أمير البلاد، فإنه لا يؤذن له؛ لأنه لا يعرف وليس مشهوراً، فمظهره يدل علىٰ تواضعه، وعلىٰ عدم اهتمامه بنفسه، وعلىٰ عدم اهتمامه بالناس، وإنما هو مشغول بإصلاح نفسه، ودينه، وعقيدته، وهمه إرادة وجه الله تعالىٰ.

فإذا استأذن علىٰ الملوك، أو علىٰ الأمراء، فجاء علىٰ الأبواب فهو كما ورد

في الحديث: «**رب أشعث أغبر ذي طمرين مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره**»(١)، أي: قد يوجد شخص فيه هذه الصفة، ذو طمرين، أي: ثوبين خلقين، أشعث رأسه، مغبر بدنه، ومع ذلك يدفع بالأبواب، إذا دخل أو أراد الدخول دفعه الحراس والشرط وطردوه، وقالوا له: ابتعد لست من أهل هذه الأماكن.

فهكذا هذا الرجل الذي هذه أخلاقه، إذا استأذن ليدخل، أو ليتكلم مع أحد لم يؤذن له؛ لأنه لا يُعرف، وليس بمشهور، بل هو حريص على إخفاء ذكره، وعدم إشهار نفسه، ولا حاجة له بذلك ليكون عمله لله تعالى.

وكذلك قوله: «**وإن شفع لم يشفع**»، فإنه إن شفع لأحد من الجيش - مثلاً -، أو للناس، قام لطلب منفعة، أو مصلحة، أو عطاءٍ أو نحو ذلك، لم تقبل شفاعته؛ لأن عادة الملوك والأمراء إنما يشفِّعون من يعرفون.

فأما الذي لا يعرفونه فلا يقبلون شفاعته، أو إنما يشفعون من له وجاهة وله مكانة، فأما سائر الناس الذين من عوام الناس، فإنهم لا يشفعونهم، ولا يقبلون شفاعتهم، لعدم حاجتهم إليهم، وإنما يقبلون شفاعة من هو ذو وجاهة، وذو مكانة عندهم، ويرجون نصحه.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٦٢٢)، عن أبي هريرة رضي الله عنه، ولفظه: «**رب أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره**».

وأخرجه مسلم برقم(٢٨٥٣)، عن حارثة بن وهب رضي الله عنه بلفظ: «**ألا أخبركم بأهل الجنة؟ كل ضعيف متضعف، لو أقسم على الله لأبره، ألا أخبركم بأهل النار؟ كل جواظ زنيم متكبر**».

وأخرجه مسلم برقم (٢٨٥٤)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

فيستفاد من هذا الحديث:

أولاً: أنه ﷺ دعا عليه بقوله: تعس عبد الدينار، والدرهم، والقطيفة، والخميلة.

ثانياً: أنه سماه عبداً لها.

ثالثاً: أنه ذكر هذه الأمثلة، والمراد إلحاق غيرها بها.

رابعاً: أنه فسر هذه العبودية بقوله: إن أعطي رضي، وإن لم يعط لم يرض، أي: سخط على من منعه، ولم يكن رضاه وسخطه لله.

والمؤمن حقّاً هو الذي يحب أهل الخير، ويرضى عنهم؛ سواء أعطوه أو منعوه، حيث أنهم من أهل الدين والصلاح فيحبهم ويواليهم ويقترب منهم، ويعادي العصاة ولو أعطوه، ولو أكرموه وقربوه، ورفعوا من شأنه، فيعاديهم أتم عدواة، فحينئذ يكون من الذين يحبون لله، ويبغضون لله.

■ ■ ■ ■ ■

[٣٧]

باب:

من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله، أو تحليل ما حرم الله، فقد اتخذهم أرباباً من دون الله

وقال ابن عباس: (يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء، أقول: قال رسول الله ﷺ، وتقولون: قال أبوبكر وعمر).

وقال الإمام أحمد: عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته، يذهبون إلى رأي سفيان، والله تعالى يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، أتدري ما الفتنة؟ الفتنة: الشرك، لعلَّه إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك.

عن عدي بن حاتم: أنه سمع النبي ﷺ يقرأ هذه الآية: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]، فقلت: إنا لسنا نعبدهم، قال: «أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه؟ ويحلون ما حرم الله فتحلونه؟»، فقلت: بلى، قال: «فتلك عبادتهم»، رواه أحمد والترمذي وحسنه.

■ ■ ■ ■ ■

• فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية النور.

الثانية: تفسير آية براءة.

الثالثة: التنبيه على معنى العبادة التي أنكرها عدي.

الرابعة: تمثيل ابن عباس بأبي بكر وعمر وتمثيل أحمد بسفيان.

الخامسة: تغير الأحوال إلى هذه الغاية حتى صار عند الأكثر عبادة الرهبان هي أفضل الأعمال، وتسمى الولاية. وعبادة الأحبار: هي العلم والفقه، ثم تغيرت الحال إلى أن عبد من دون الله من ليس من الصالحين، وعبد بالمعنى الثاني من هو من الجاهلين.

■ ■ ■ ■ ■

●● الشرح ●●

باب:
من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله، أو تحليل ما حرم الله، فقد أتخذهم أرباباً من دون الله

من أنواع الشرك؛ شرك الطاعة، أي: طاعة المخلوق في معصية الخالق تعظيماً لذلك المخلوق، وذلك فيما إذا أطاعه المرء خائفاً من سطوته فوافقه على ذلك، ولم يكن مكرهاً، أو نزل على رغبته، فأحل الحرام، وحرم الحلال، أو عظمه بهذه الطاعة، واعتقد أنه أهل أن يطاع، ولو فيما هو معصية، فإن هذا سبب تعظيم المخلوق.

وقد يكون أكبر من الشرك؛ لأنه قد يجعله مشرعاً، وهو أكبر من أن يعبده، فيجمع بين الأمرين، فيجعله مشرعاً وحاكماً في أمره من قبل نفسه، ثم مع ذلك يعظمه بقبول ذلك الشرع الذي شرّعه، فيطيعه في المعصية، ويعصي الله، ويخالفه في الواجب، فيعصي الله، فيفعل الحرام طاعة لمخلوقٍ، ومعصية للخالق، ويرتكب المنهيات ويترك الواجبات، وما أشبه ذلك.

وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق**»(١)، أياً كان هذا المخلوق، حتى ولو كان هذا المخلوق عالماً، أو أستاذاً، أو موجهاً، أو والياً وحاكماً، أو قاضياً، أو مرشداً، أو مثل ذلك، فلا يجوز له أن يأمر بمعصية، ولا

---

(١) رواه أحمد (١/ ١٣١، ٤٠٩)، وابن حبان في «صحيحه» رقم (٤٥٦٨ـ٤٥٦٩). عن علي رضي الله عنه. قال أحمد شاكر (١٠٩٥): إسناده صحيح. وصححه الألباني في «الصحيحه» رقم (١٧٩)، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح.

يجوز للمسلم أن يطيعه، وهو يعرف أن أمره هذا معصية، ولو لم يظهر له دليل، ولكن لم يتضح له وجاهة ما أمر به، فلا يطيعه حتىٰ يعرف أنه لا يخالف أمره نصّاً أو شرعّاً.

ومعلوم بأن الله أمر بطاعة ولاة الأمر، ولكن في حدود، قال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، وأولو الأمر هم: الذين لهم الأمر، كالعلماء، والقضاة، والولاة، والحكام، والأمراء ونحوهم، وقد أمر الله بطاعتهم، ولكن طاعتهم مسبوقة بطاعة الله ورسوله، فقدم طاعة الله وطاعة رسوله، ثم أتبع ذلك بطاعة أولي الأمر؛ فدل ذلك علىٰ أن طاعة الله ورسوله مقدمة علىٰ طاعة كل أحد، وهذا معنىٰ قوله: «**لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق**».

ولما أرسل النبي ﷺ جيشاً وأمّر عليهم عبد الله بن حذافة؛ أمرهم بأن يطيعوه فامتثلوا ذلك، فغضب مرة، فأوقد ناراً وأججها، وقال لهم: ادخلوها، فَهَمَّ بعضهم أن يدخلها، ولكن فكروا، وقالوا: ما اعتنقنا الإسلام ولا دخلنا فيه إلاهرباً من النار، فكيف ندخلها؟ فعند ذلك تحاجزوا مع بعضهم البعض حتىٰ خمدت النار، وسكن غضبه، فلما أُخبر النبي ﷺ، قال: «**ولو دخلوا لما خرجوا منها**»(١)؛ لأنهم عظموه تعظيماً زائداً يقرب أن يكونوا عاونوا في قتل أنفسهم، ثم قال ﷺ: «**إنما الطاعة في المعروف**»(٢)، وهذه كلمة جامعة شاملة.

فطاعة الولاة ونحوهم إنما تكون في المعروف لا في المنكر؛ إذ أن من أطاعهم بتحليل الحرام، أو تحريم الحلال فقد اتخذهم أرباباً كما سيأتي في الآية، وكما

(١) أخرجه البخاري برقم (٧١٤٥)، ومسلم برقم (١٨٤٠)، عن علي رضي الله عنه.
(٢) سبق تخريجه في الحديث السابق وهو جزء منه.

سيأتي في حديث عدي بن حاتم، فإن الله تعالىٰ سماهم أرباباً، والنبي ﷺ فسر عبوديتهم بطاعتهم بتحليل الحرام، وتحريم الحلال.

■ قوله: [**وقال ابن عباس: (يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء، أقول: قال رسول الله ﷺ، وتقولون: قال أبوبكر وعمر)**(١)]:

هذا الكلام قاله فيمن يخالف في متعة الحج، فكان ابن عباس يذهب إلىٰ وجوب المتعة في الحج، فيقول: إن من قدم مكة حاجّاً، فطاف بالبيت، وسعىٰ بين الصفا والمروة فقد تحلل، شاء أم أبىٰ، أي: قد انتهىٰ من عمرته، ولو بقي علىٰ إحرامه، وقال: أنا مفرد، أو أنا قارن؛ فإنه قد حلّ شاء أم أبىٰ.

ويقول: إنه قد أخذه من أمر النبي ﷺ، حيث أمر أصحابه ـ لما طافوا وسعوا ـ من لم يكن معهم هدي أن يتحللوا ويجعلوها عمرة، ولكن نُقل له أن أبا بكر وعمر يأمران بالإفراد، وينهيان عن المتعة، فقال: هذا أمر الرسول ﷺ، فكيف نطيع أبا بكر وعمر، ونخالف أمر النبي ﷺ؟!!

فأمر الرسول يقدم علىٰ أمر كل أحد؛ فإذا رجحتم قول أبي بكر وعمر علىٰ قول النبي ﷺ فقد تعرضتم للعقوبة، وتستحقون أن تنزل عليكم الحجارة عقوبة من الله تعالىٰ؛ حيث أطعتم من ليس برسول، وعصيتم الرسول، هكذا توعدهم: (**يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء**)، أي: عقوبة لكم، (**أقول: قال**

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» رقم (١ / ٣٣٧)، وأبو بكر الأثرم في «السنن» كما في «المغني شرح مختصر الخرقي» (٥ / ٩١)، وإسحاق بن راهوية كما في «المطالب العالية» (١ / ٣٦٠)، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١ / ١٤٥)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (٢ / ١٩٦)، والضياء في «المختاره» كما في «الآداب لابن مفلح» (٢ / ٦٦)، عن سعيد بن جبير.
وله شاهد من طريق عروة أخرجه الطبراني في الأوسط كما في مجمع الزوائد (٣/ ٢٣٤) بإسناد حسن. وصحح إسناده أحمد شاكر في «المسند»: (٣١٢١).

رسول الله ﷺ)، يعني: هذا قوله وهذا أمره وهو التمتع، (**وتقولون: قال أبو بكر وعمر**)، أي: قالا: لا يجوز التمتع، بل يلزم الحاج الإفراد أو القران.

والمسألة فيها خلاف: فذهب الإمام أحمد إلىٰ أفضلية التمتع.

وذهب المالكية ونحوهم كالشافعية إلىٰ أنه لا يجوز التمتع، وهو فسخ الحج إلىٰ عمرة، وقالوا: إن ذلك التمتع خاص بالصحابة في ذلك الزمان.

وللمسألة فروع ليس هذا محل بسطها، إنما الكلام في أن ابن عباس توعد من يخالف أمراً صحيحاً نبويّاً، ويقدم عليه قول أي مخلوق، توعدهم بالحجارة تنزل عليهم من السماء، فكيف بمن قدم من هو دون أبي بكر وعمر، حيث يوجد بعدهم أناس يقدمون أقوال أئمتهم، مثل أتباع أبي حنيفة، وأتباع أبي يوسف، ومحمد بن الحسن، وكذلك أتباع زفر، وأتباع الربيع والشافعي، والمزني ونحوهم.

يقدمون أقوال هؤلاء، وقد تقول لهم: إن السنة واضحة ولا يتقبلونها، فهؤلاء متعرضون ومستحقون لما توعد به ابن عباس أولئك.

■ **قوله**: [**وقال الإمام أحمد: (عجبت لقوم عرفوا الإسناد، وصحته، يذهبون إلى رأي سفيان، والله تعالى يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾** [النور: ٦٣]، **أتدري ما الفتنة؟ الفتنة: الشرك، لعلَّه إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك**)(١)]:

والمراد بسفيان: سفيان الثوري، وهو من أهل الكوفة، والإمام أحمد من أهل بغداد، فكلاهما من أهل العراق، ولم يدرك أحمد سفيان الثوري، ولكن أدرك تلامذة له يذهبون إلىٰ رأيه، ويقلدونه ويتبعونه كإمام لهم.

---

(١) أخرجه ابن بطة في «الإبانة الكبرىٰ» رقم (٩٧).

ومعلوم أن كثيراً من أقواله إنما هي آراء استحسنها مع كونه عالماً ومحدثاً، وحافظاً كبيراً وجليلاً، ولكن قد تضطره الحال في بعض الأحيان إلىٰ القول برأيه، فإذا قلدته واتبعت رأيه وأنت تعرف أنه مخالف للحديث الفلاني فقد تعرضت لرد قول النبي ﷺ، ولتقديم قول عالم غير معصوم علىٰ قول الرسول في رسالته.

فإذا اتضح لك أن قوله موافق للسنة، فإنك تعمل بالسنة، ويكون قوله مرجحاً لفهمك، وأما إذا اتضح لك أن السنة تخالف قول هذا العالم، ولو تمذهبت بمذهبه، فيجب عليك أن تتبع السنة.

فلو قال قائل: أنا علىٰ مذهب أحمد، ثم اتضح له أن فتواه مخالفة للسنة، أو: أنا علىٰ مذهب مالك، أو الشافعي، أو أبي حنيفة أو نحو ذلك، ثم اتضح له: أن هذه المسألة التي قال بها هذا الإمام مخالفة لنص صريح، أو حديث صحيح، لم يجز له تقديم قوله علىٰ قول النبي ﷺ مخافة أن يدخل في هذه الآية، فإن فيها الوعيد الشديد.

والإمام أحمد رحمه الله رأىٰ بعض تلاميذ الإمام سفيان الذين عاصرهم يقلدون رأيه ويتبعونه، وقد تكون بعض هذه الآراء مخالفة لأحاديث صحيحة وصريحة، ولكن مع ذلك يأخذون برأي إمامهم ويقلدونه، فغضب الإمام أحمد لهذا الصنيع، وقال: «عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته، يذهبون إلىٰ رأي سفيان». ثم استدل بهذه الآية التي من آخر سورة النور: **﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾**، أي: أمر النبي ﷺ، **﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾**، ثم قال: أتدري ما الفتنة؟ الفتنة: الشرك.

ففسر الفتنة هنا: بالشرك، كأنه يقول: أن يقع في قلبهم تعظيم لذلك المخلوق

فيكونون بذلك من المشركين.

والشرك قد يكون في الطاعة، وهو طاعة المخلوق في معصية الخالق، وتعظيم المخلوق في تقديم قوله على قول النبي ﷺ، فيكون شركاً في التشريع، وشركاً في الطاعة، وشركاً في التعظيم، وكل هذه لا تصلح إلا لله.

وطاعة الرسول إنما هي طاعة لله، ليست تعظيم للرسول، وإنما لأنه مرسل من الله، ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

فأما المخلوق الذي قد يصيب ويخطئ فلا يجوز اتباع أقواله، أو تقديمها على قول كل أحد، والتشدد في نصرتها، والتعصب لها، وإطراح سائر الأدلة، والانتصار للمذهب؛ فإن ذلك من صفات المتعصبين الذين قد يعاقبون بمثل هذا الوعيد في هذه الآية: ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

فإذا ردوا بعض قول النبي ﷺ فليحذروا أن يكونوا من الزائغين أو ممن أزاغ الله قلبه، والعياذ بالله، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: ٥]، والزيغ هو: الانحراف عن قول الرسول وتعظيمه، واتباع ما جاء به، إلى تعظيم قول من ليس بمعصوم، أياً كان هذا الشخص.

■ **قوله: [عن عدي بن حاتم: أنه سمع النبي ﷺ يقرأ هذه الآية: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]، فقلت: إنا لسنا نعبدهم، قال: «أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه؟ ويحلون ما حرم الله فتحلونه؟»، فقلت: بلى، قال: «فتلك عبادتهم»[١]، رواه أحمد والترمذي وحسنه]:**

(١) أخرجه الترمذي برقم (٣٠٩٥)، وأصله عند أحمد (٤/ ٣٧٨)، وحسنه الألباني في «غاية المرام» ص٢٠، وفي صحيح سنن الترمذي (٣/ ٥٦)، رقم (٣٣٠٦)، وقد حسنه شيخ الإسلام في «الإيمان» ص٦٤

وعزاه في الشرح[1]، لابن جرير[2]، وابن أبي حاتم[3]، وابن المنذر[4]، وعبد بن حميد[5]، وابن سعد[6]، والبيهقي[7]، فهو حديث مشهور.

وقد ذكر فيه أنه قدم على النبي ﷺ لما أُسرت أخته فمنّ عليها النبي ﷺ فرغبته في الإسلام، وكان قد تنصّر في الجاهلية، وكان رئيساً في قومه، وأبوه حاتم المشهور بالكرم، فلما قدم عاتبه النبي ﷺ على هروبه، فلما أسلم استبشر بإسلامه، فسمع النبي ﷺ وهو يقرأ هذه الآية من سورة التوبة: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾، فأنكر أن يكونوا يعبدونهم، وظن أن العبادة هي الركوع والسجود لهم، فبين له النبي ﷺ أن العبادة هنا هي الطاعة في تغيير شرع الله، حيث يحلون لهم المحرمات، ويحرمون عليهم بعض ما أحل الله لهم، فكأنهم أرباب مطاعون، كما قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]، وذلك من القول على الله تعالى بلا علم، وقد قال بعض المشايخ: إنه أكبر من الشرك، لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

فبدأ بالأسهل وهو الفواحش، ثم بالإثم وهو أكبر منها، ثم البغي وهو أعظم من الإثم، ثم بالشرك وهو أشد من البغي، ثم بالقول على الله بغير علم؛ فدل على أنه أكبر من الشرك لأنه اعتراض على الله تعالى في تشريعه، وتدخل في الأحكام، فالفاعل لذلك مضاد لله في حكمه، معترض عليه في شرعه

(١) يشير الشيخ إلى «فتح المجيد» شرح كتاب التوحيد.
(٢) انظر تفسير ابن جرير (١٠ / ٣٥٤) رقم (١٦٦٤٦، ١٦٦٤٧، ١٦٦٤٨).
(٣)، (٤)، (٥)، (٦) كما في «الدر المنثور» للسيوطي (٣ / ٢٣٠).
(٧) انظر البيهقي في «السنن الكبرى» (١٠ / ١١٦).

وأمره، قد رفع نفسه فوق مرتبة العبودية إلىٰ مرتبة الربوبية.

وقوله: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]، الأحبار: هم العلماء، والرهبان: هم العباد، فالأحبار من اليهود، والرهبان من النصارىٰ.

وقد كان اليهود يعظمون علماءهم، و علماؤهم مداهنون، يتنزلون علىٰ رغبة أمرائهم، فيحلون لهم الحرام، ويحرمون عليهم الحلال، ويغيرون لهم الشريعة، ويسقطون عنهم الحدود، وكانت العامة أيضاً يطيعونهم في ذلك، وهم يعلمون أنه خلاف الشريعة، فسماهم الله أرباباً في فعلهم معهم؛ أي: مشرعين، فالرب؛ هو المالك، فكأنهم جعلوا أحبارهم يملكون الشرع، ويملكون السيادة، ويملكون الأمر والنهي، يمكلون مع الله، والملك كله لله.

واشتهر عند أحبار اليهود أنهم كانوا يتساهلون ويداهنون من أجل مناصبهم، ويتبعون رغبة ملوكهم، فيفتونهم في إسقاط الحدود.

فعلىٰ سبيل المثال: كانت الخمور محرمة عليهم، ولكن رأوا ملوكهم قد شربوها، ورأوا الناس قد شربوها، فعند ذلك حكموا بحلها.

وكذلك الرشا كانت محرمة في دينهم، ولكن عندما رأوا الكثير يأخذون تلك الرشا فقالوا بجوازها وإباحتها لهم، فعملوا بإباحتهم وبفتواهم، أي: عمل أولئك الذين يرتشون بفتوىٰ أولئك المحلين والمبيحين، وما حملهم علىٰ هذا إلا الحفاظ علىٰ مناصبهم ورئاساتهم، فإن أحدهم يقول: إن امتنعت وتكلمت بالحق عُزلت عن منصبي ومُنعت مما يُصرف لي، وسقط جاهي ومنزلتي، لذلك اتنزل علىٰ رغبة عوام الناس وافتي بما يناسبهم وما يوافقهم، فأفتىٰ بتحريم الحلال، وتحليل الحرام، وتغيير الحكم الأصلي.

فإذا رأيت الناس مثلاً قد وقع منهم شرب الخمر، فإن كان قوياً: غُيرت العقوبة، أو لا يعاقب كل الناس، أو تخفف لكثرتها، أو تسقط للعذر، أو يقام الحد على الضعيف ويترك الشريف، وقد ثبت أنه ﷺ قال: «**إنما هلك من كان قبلكم، أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد**»(١)، فجعل هذا سبباً في هلاكهم، والسبب أن ملوكهم يحولون بينهم وبين الشرفاء وأهل الرفعة دون أن تقطع أيديهم.

وكذلك أيضاً في حد الزنا، كان حده في كتبهم رجم الزاني المحصن حتى يموت، ولكن وقع منهم في عهد النبي ﷺ أن اثنين زنيا فجاءوا إلى النبي ﷺ، وقالوا: إن أفتانا بالتحميم اتخذناه حجة عند الله، وقلنا: هذه فتوى نبي من أنبيائك، وإن أفتانا بالرجم لم نقبله، فلم يفتهم النبي ﷺ بشيء، لا بهذا ولا بهذا، ولكن قال: هاتوا التوراة فاتلوها إن كنتم صادقين، فجاءوا بالتوراة ونشروها ووضع أحدهم يده على آية الرجم، فقال عبد الله بن سلام: ارفع يدك، فلما رفع يده فإذا فيها آية الرجم، فقال النبي ﷺ: «**كيف تركتموه وغيرتموه؟**»، قالوا: إنه كثر في أشرافنا؛ أي: الزنا، فزنى مرة واحد من أقارب الملك فلم يقم عليه الحد لشرفه، ثم زنى بعد ذلك إنسان من أطراف الناس فأرادوا أن يقيموا عليه الحد بالرجم، فحال دونه عشيرته، وقالوا: لا يقام عليه الحد حتى يقام على فلان الذي هو أخو الملك أو قريبه، قالوا: فاصطلح علماؤنا على عقوبة تكون وسطاً تقام على هذا وعلى هذا وألغينا عقوبة الرجم.

فاصطلحوا على الجلد والتحميم، أن يجلدوا جلدات خفيفة، وأن يحمموا، أي: تسود وجوههم وتطلى بشيء أسود، ويطاف بالزاني والزانية على

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٧٨٧)، ومسلم برقم (١٦٨٨)، عن عائشة رضي الله عنها.

حمار أو بغل منكسي الرؤوس، فكانت هذه عقوبة لهما اصطلحوا عليها، وألغوا الحد الشرعي، فكان هذا من تغيير شرع ا لله، فأطاعهم في ذلك عوامهم، فجعلهم الله متخذين لهم أرباباً.

كذلك الربا قد حُرم عليهم، قال الله تعالىٰ: ﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ [النساء: ١٦١]، أي: بالرشوة، فحرم الله عليهم الربا وحرم عليهم الرشا؛ ولكن كانوا مع هذا يأخذون ذلك ويبيحونه، فكأنهم غيروا شرع الله، فأحلوا الربا وقد حرمه الله، وأحلوا أخذ الرشوة، وأكل الأموال بالباطل وقد حرمها الله تعالىٰ، فكان ذلك منهم تغييراً لشرع الله.

لذا فكل من أطاع عالماً في تغيير شرع الله، وهو يعرف أنه مغير له، أو أطاع مثلاً عابداً، أو أميراً، ويعلم أنه قد غير شرع الله؛ فإنه يعتبر أطاعه في معصية الله، ويكون داخلاً في هذه الآية: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]، وهذا هو شرك الطاعة.

■ ■ ■ ■ ■

[٣٨]

باب قول الله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾

قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيدًا (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا (٦١) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ [النساء: ٦٠-٦٢].

وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١].

وقوله: ﴿وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦].

وقوله: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

عن عبد الله بن عمرو: أن رسول الله ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به»، قال النووي: حديث صحيح، رويناه في كتب الحجة بإسناد صحيح.

وقال الشعبي: كان بين رجل من المنافقين ورجل من اليهود خصومة، فقال

اليهودي: نتحاكم إلى محمد، عرف أنه لا يأخذ الرشوة. وقال المنافق: نتحاكم إلى اليهود لعلمه أنهم يأخذون الرشوة، فاتفقا أن يأتيا كاهناً في جهينة فيتحاكما إليه، فنزلت: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ الآية [النساء: ٦٠].

وقيل: نزلت في رجلين اختصما، فقال أحدهما: نترافع إلى النبي ﷺ، وقال الآخر: إلى كعب بن الأشرف، ثم ترافعا إلى عمر بن الخطاب، فذكر له أحدهما القصة، فقال للذي لم يرض برسول الله ﷺ: أكذلك؟ قال: نعم، فضربه بالسيف فقتله].

■ ■ ■ ■ ■

● فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية النساء وما فيها من الإعانة على فهم الطاغوت .

الثانية: تفسير آية البقرة : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ﴾ [البقرة: ١١].

الثالثة: تفسير آية الأعراف : ﴿وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦].

الرابعة: تفسير : ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

الخامسة: ما قاله الشعبي في سبب نزول الآية الأولى .

السادسة: تفسير الإيمان الصادق والكاذب .

السابعة: قصة عمر مع المنافق .

الثامنة: كون الإيمان لا يحصل لأحد حتى يكون هواه تبعاً لما جاء به الرسول ﷺ .

■ ■ ■ ■ ■

الشرح

باب: قول الله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾

هذا الباب له صلة بالباب الذي قبله، فالباب السابق فيه بيان حكم من أطاع العلماء والأمراء في تحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحل الله. أما هذا الباب ففيه بيان حكم من أراد أن يتحاكم إلىٰ غير حكم الله ورسوله.

وقد ذكر المصنف رحمه الله في هذا الباب أربع آيات وحديث.

■ قوله: [قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً (٦١) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَاناً وَتَوْفِيقاً﴾ [النساء: ٦٠-٦٢]]:

هذه الآية نزلت في قوم من المنافقين يفضلون حكم الطاغوت علىٰ حكم الشرع، فأنزل الله فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً﴾ [النساء: ٦٠]، وإذا دعوا إلىٰ حكم الله، وحكم رسوله امتنعوا، ويطلبون التحاكم إلىٰ الطواغيت: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ﴾.

والله قد أمرهم بالكفر بالطاغوت، بقوله: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

والطاغوت هو: كل ما عبد من دون الله، أو كل من تجاوز حده من الناس، ومن جملتهم من نصب نفسه يحكم بغير شرع الله وبغير ما أنزل الله فهو طاغوت، فالحكم بغير ما أنزل الله حكمٌ بالطاغوت.

فالواجب على الإنسان إذا دعي إلى حكم الله أن يلبي ذلك الطلب، يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾، يعني: إذا قيل لهم: تعالوا إلى حكم الله، وإلى حكم رسوله، وهم يخافون أو يعرفون أن الحق عليهم، ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾، أي: أعرضوا وامتنعوا، ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ [النور: ٤٨، ٤٩]، أي: إذا عرفوا أن الحق لهم جاءوا إلى الحكم الشرعي مذعنين منقادين، أما إذا كانوا يعرفون أن الحكم عليهم، أي: ضدهم، فإنهم يمتنعون؛ بل لا يقبلون بالحكم إذا حكم عليهم، ويذهبون إلى من يحكم حكماً جائراً، ولو بأخذ رشوة، فمن كان كذلك فإنه متصف بهذه الصفة؛ التي هي صفة المنافقين.

* وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾، أي: يدّعون كذباً أنهم مؤمنون بالله واليوم الآخر، ﴿يُرِيدُونَ﴾، أي: يتمنون أو يطلبون، ويدعون: ﴿أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾؛ فقد تمكن منهم الشيطان، فهو يريد أن يوقعهم في الظلال البعيد ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ﴾، أي: تعالوا إلى الرسول ليحكم بيننا، وتعالوا إلى ما أنزل الله، وتعالوا إلى شرع الله وكلامه، لنتحاكم إليه: ﴿رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾، يصدون عن

شرع الله، ويميلون إلىٰ غيره.

فمن هذا نأخذ أن كل من حكم بغير ما أنزل الله، أو تحاكم إلىٰ غير ما أنزل الله؛ فقد وافق المنافقين بهذا الوصف الذميم.

ويدخل في ذلك من يفضل حكم غير الله علىٰ حكم الله، بل من يفضل تحكيم القوانين الوضعية التي هي نجاسة أذهان وزبالة أفكار، والتي هي من وضع الإنسان القاصر، الذي يصادم بها شرع الله، الذي هو أحكم الحاكمين.

ونأخذ من هذا أيضاً أن التحاكم إلىٰ غير شرع الله كفر ونفاق وضلال بعيد، وأنه من وحي الشيطان.

فمن رضي بالتحاكم إلىٰ تلك القوانين الوضعية، وصد عن التحاكم إلىٰ الشرع السماوي؛ فإنه منافق داخل في قول الله تعالىٰ في هذه الآية: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيدًا (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا (٦١) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (٦٢) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا﴾ [النساء: ٦٠-٦٣].

■ **قوله: [وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾** [البقرة: ١١]. **وقوله: ﴿وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا﴾** [الأعراف: ٥٦]]:

وهاتان الآيتان أيضاً في المنافقين، ومن إفسادهم تحاكمهم لغير الشرع، فإن تحكيم غير شرع الله تعالىٰ إفساد، فالله تعالىٰ هو الحكيم، وحكمه هو الذي يصلح به العباد والبلاد، فإذا حُكم بغير شرع الله فإن في ذلك إفساداً في الأرض.

وإذا قال الله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾، فمعناه: لا تشرعوا فيها شرعاً يفسد أهلها بعدما أصلحهم الله بهذا الشرع المطهر.

■ قوله: [وقوله: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]]:

فإن هذا ذم لمن يبتغي حكم الجاهلية، والمعنى: أن أهل الجاهلية عندهم عادات اتخذوها عن الآباء والأجداد، فإذا تحاكموا إليها ونفذوا هذه الأحكام فيُعَدُّ هذا رضىً منهم.

والحكم الجاهلي أصله مشتق من الجهل، والإنسان لا يترك ما هو علم يقيني ويتبع الجهل، فإن الجهل يوقع في الضلال.

فإذا فضّل الإنسان حكم الجاهلية مع علمه بأنه ضلال؛ فإنه ضالٌ واقع في المخالفة الشرعية.

فالحاصل أن حكم الجاهلية يدخل فيه كل ما يخالف شرع الله تعالى، وأنه يلزم كل عبد أن يكون حكمه وتحاكمه إلى الله، وإلى رسوله ﷺ.

وقد أمر تعالى بالتحاكم إلى الرسول عليه الصلاة والسلام والرجوع إليه، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]، أي: إلى الكتاب والسنة.

وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: يجعلوك حكماً في كل ما وقع بينهم من الاختلاف، ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، أي: يرضون ويسلمون، ولا يكون في أنفسهم حرجٌ ولا ضيق ولا تعنت ولا انتقاد لحكمك وقضائك، فهذا

قسم من الله، أقسم بنفسه الشريفة أنهم لا يكونون مؤمنين حتى يكون هذا هو وصفهم.

وقد أمر الله تعالى بتقبل كل ما جاء به الرسول ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: ٧].

والحاصل أن في هذه الآيات التي ذكرها المصنف ـ رحمه الله ـ بيان حال المنافقين، وأنهم يدّعون أنهم من المؤمنين، ولكن تظهر عليهم أعمال تدل على أنهم غير ذلك، وأن هذا ادعاء، وزعمٌ كاذب، ومن أدلة ذلك أنهم لا يرضون بحكم الله، ولا يتحاكمون إلى شرعه، ويفضلون حكم غير الله على حكمه، وذلك دليل على أن قلوبهم لم تدرك حقيقة الإيمان، فهم كاذبون في الحقيقة.

■ **قوله: [عن عبد الله بن عمرو: أن رسول الله ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به»[1]، قال النووي: حديث صحيح، رويناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح]:**

في هذا الحديث بيان أن المسلم يلزمه قبول كل ما جاء به الرسول ﷺ والميل إليه.

---

(١) أخرجه البغوي في «شرح السنة» (١/ ٢١٣)، وابن أبي عاصم في «السنة» (١/ ١٢)، رقم (١٥)، وهو أحد أحاديث الأربعين النووية رقم (٤١)، وأورده الخطيب البغدادي في تاريخه (٤/ ٣٦٩).

قال النووي: حديث حسن صحيح، رويناه في كتاب «الحجة» بإسناد صحيح، وأعله الحافظ ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» بثلاث علل، وضعفه الألباني في «تخريج المشكاة» (١/ ٥٩)، وضعفه الأرناؤوط في «تحقيق شرح السنة» (١/ ٢١٣).

وأورد الحافظ ابن حجر هذا الحديث في فتح الباري (١٣/ ٣٠٢)، وقال: «حديث أبي هريرة. . . .، أخرجه الحسن بن سفيان وغيره، ورجاله ثقات.

فقوله: «**لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لماجئت به**»، أي: حتىٰ يكون ميله واختياره موافقاً لما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام، وذلك أنه جاء بهذه الشريعة الغراء السمحة التي فيها صلاح المجتمعات، وصلاح العباد والبلاد، فالذي يكون هواه خارجاً عنها يكون ناقص الإيمان أو مضمحل الإيمان.

أما الذي يكون هواه متابعاً للشرع الشريف، فكلما رأىٰ من نفسه ميلاً عنه ردها إليه، ووقفها عليه؛ فهذا هو المؤمن حقاً الذي يكون هواه متابعاً لما جاء به النبي ﷺ.

وقد يكون فيما جاء به ﷺ شيء من الشرع قد تستثقله النفوس، وقد لا تستمرئه لضعف إيمانها، لكن يلزم قبوله، سواء واءم، أو لم يوائم، سواء وافق ميل الهوىٰ، أو لم يوافقه، بل يتقبل الإنسان كل ما جاء عن الله تعالىٰ، وعن رسوله ﷺ.

أما مَنْ قبله إذا كان في مصلحته، ورفضه إذا لم يكن كذلك، فإنه بهذا يكون مخالفاً لشرع الله ولأمره.

وعلىٰ كل حالٍ فالمسلم والمؤمن حقاً هو الذي يكون كما وصفه الرسول عليه الصلاة والسلام: يكون هواه تبعاً لماجاء به النبي ﷺ، وذلك مثل قول الله تعالىٰ: ﴿**إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا**﴾، أي: سواء كان الحكم لهم، أو الحكم عليهم: ﴿**إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾، فهذا هو قول المؤمنين: ﴿**إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا**﴾ [النور: ٥١]، أي: سمعاً وطاعة لله ولرسوله ولما يحكم به.

وليس هذا خاصّاً بالأمور التي يقع فيها النزاع بين الناس، بل هو عام في الأمور الشرعية، فإن الذي لا يقبل إلا ما خف عليه ويترك ما يثقل عليه فهذا ليس هواه تبعاً لما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام.

فالذي مثلاً يدين بالصيام، ويقول: إنه سهل ولا يتكرر، ويستثقل الصلاة، وينفر منها ويتركها؛ لأنها بزعمه متكررة وثقيلة، هذا لم يكن هواه تبعاً لما جاء به النبي ﷺ.

أو مثلاً يخل بشيء من العبادات مثل الطهارة ونحوها، هذا لم يكن هواه تبعاً لما جاء به النبي ﷺ.

أو يبخل بحقوق الله الواجبة من زكوات ونفقات وكفارات وما أشبهها، لكونها حقّاً ثقيلاً على النفس، هذا لم يكن هواه تبعاً لما جاء به النبي ﷺ.

أو يجد من نفسه ميلاً إلى الشهوات المحرمة فلا يقمع نفسه عنها ولا يطيع الشرع في نهيه وتحريمه لها، فهذا ليس هواه تبعاً لما جاء به النبي عليه الصلاة والسلام.

فالإنسان يقيس نفسه بهذا الميزان، فإذا وجد نفسه منساقة إلى الشريعة، ما يوافق هواه وما لا يوافقه، فإن هذا من علامات الإيمان، وإذا وجد نفسه تتقبل وتفرح بكل الشريعة، ولا تنفر من شيء منها، فهذا من علامات الإيمان، ومن نقص شيئاً من ذلك فقد نقص إيمانه.

■ **قوله: [وقال الشعبي: كان بين رجل من المنافقين ورجل من اليهود خصومة، فقال اليهودي: نتحاكم إلى محمد، عرف أنه لا يأخذ الرشوة، وقال المنافق: نتحاكم إلى اليهود لعلمه أنهم يأخذون الرشوة، فاتفقا أن يأتيا كاهناً في جهينة فيتحاكما إليه، فنزلت: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ الآية** [النساء: ٦٠][(١)].

وقيل: نزلت في رجلين اختصما، فقال أحدهما: نترافع إلى النبي ﷺ، وقال الآخر: إلى كعب بن الأشرف، ثم ترافعا إلى عمر بن الخطاب، فذكر له أحدهما القصة، فقال للذي لم يرض برسول الله ﷺ: أكذلك؟ قال: نعم، فضربه بالسيف فقتله[(٢)]]:

تدل هذه القصة على كذب المنافقين، وهي أنه كان بين رجل يهودي ورجل منافق خصومة، ودعوى في أمر من الأمور، وكأن اليهودي هو المحق والحق له، أما المنافق فإنه ظالم والحق عليه، وقد عرف من نفسه أنه مبطل، فلما اختلفوا في ذلك الحق وتنازعوا فيه واختصموا، أرادوا من يحكم بينهم، فلما كان اليهودي عارفاً أن الصواب معه طلب الحكم إلى النبي ﷺ، مع كونه لا يعترف له بالشهادة، فقال: نتحاكم إلى محمد؛ لأنه عرف أن محمداً ﷺ يحكم بالحق لمن هو له، وأنه لا يميل ولا يظلم ولا يجور، بل يحكم بحكم الله، لأن الله تعالى قد أمره أن يحكم بما أنزل الله عليه، سواءً كان المتحاكمان مسلمين، أو غير

---

(١) أخرجه ابن جرير في «التفسير» عن عامر رقم (٩٨٩١، ٩٨٩٢، ٩٨٩٣)، وابن المنذر كما في «الدر المنثور» (٢/ ٥٨٠)، و اسحق بن راهوية في «التفسير» بإسناد صحيح كما قال ابن حجر في «الفتح» (٥/ ٣٧).

(٢) أخرجه الثعلبي كما في «الدر المنثور» (٢/ ٥٨٢)، والكلبي كما في «الفتح» (٥/ ٣٧)، عن ابن عباس، قال ابن حجر: وهذا الإسناد وإن كان ضعيفاً لكن تقوى بطريق مجاهد أخرجه الطبري في «التفسير» رقم (٩٩٠١)، بإسناد صحيح.

وعلقه الواحدي في أسباب النزول ص(١٠٧، ١٠٨)، والبغوي في «معالم التنزيل» (١/ ٥٥٢).

مسلمين، قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩].

وعرف أن الرسول ﷺ لا يأخذ الرشوة التي هي مال يدفع للحاكم ليجور في الحكم.

أما المنافق لما علم أنه مبطل وأن الحق عليه طلب التحاكم إلىٰ اليهود؛ لأنه إذا أعطاهم رشوة مالوا معه وأعطوه الحكم، وجلعوه هو المحق ولو لم يكن محقاً؛ فقال: نتحاكم إلىٰ اليهود لعلمه أنهم يأخذون الرشوة، ولكنهم لم يتحاكموا إلىٰ الرسول ﷺ، ولا إلىٰ اليهود، ولم يرض أحدهم بقول الآخر، فذهبا إلىٰ كاهن من جهينة، والكاهن: هو الذي يدّعي علم المغيبات، ولا شك أن الكاهن طاغوت، من أجل ذلك قال تعالىٰ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٦٠]، حيث لم يرضوا بحكم الله ورسوله الذي يمثله الكتاب والسنة، وترافعوا إلىٰ ذلك الطاغية الطاغوت، وهو الكاهن الذي في جهينة.

فدل ذلك علىٰ أن كلاً منهم لما عدل عن الرسول وعن الحكم الشرعي، لم يكن من المؤمنين، وأن الشيطان قد صدهم ولعب بهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً﴾ [النساء: ٦٠].

فنزلت فيهم هذه الآيات التي فيها بيان أنهم زاعمون وليسوا بمحقين، وجاء فيها بيان أنهم يصدون صدوداً عن حكم الله ورسوله، وفيها بيان تمكن الشيطان منهم، وإضلاله لهم، وإبعادهم عن الحق وأهل الحق.

ولما نزلت جاءوا معتذرين، وقالوا: ما قصدنا بغضاً لك، ولا ارتداداً، إنما قصدنا الإصلاح، ما أردنا إلا الإصلاح، فأنزل الله هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا

﴿أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ [النساء: ٦٢]، ما أردنا إلا الحسنىٰ، وما أردنا إلا التوفيق بيننا وبينكم، وبيننا وبين اليهود، وبيننا وبين الكهنة ونحو ذلك.

وقد كذبهم الله تعالىٰ بقوله في هذه الآية: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾، يعلم الله أن ما في قلوبهم خلاف ما يقولونه بألسنتهم، ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا﴾ [النساء: ٦٣].

وذكروا أيضاً في سبب نزولها قصة أخرىٰ، وهو أن رجلين من المنافقين حصل بينهما خصومة ومنازعات، فطلب أحدهما وهو محق التحاكم إلىٰ النبي ﷺ ليحكم بينهما بالحق، لأنهم، أي: المنافقين كانوا إذا علموا أن الحق لهم جاءوا إليه، قال تعالىٰ: ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ﴾ [النور: ٤٩، ٥٠]، أي: أن يميل ويزيغ ويجور.

فهذا الذي عرف أن الحق له طلب التحاكم إلىٰ النبي ﷺ، أما الثاني الذي عرف أن الحق عليه فقد طلب التحاكم إلىٰ كعب بن الأشرف، وكان من الأعراب فتهود، ثم بقي علىٰ يهوديته، وصار شريفاً في اليهود بالمدينة، وقد سماه الله تعالىٰ طاغوتاً: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾، وهو كعب بن الأشرف.

ولكن بعدما اختلفوا فطلب هذا التحاكم إلىٰ النبي ﷺ، وطلب الآخر التحاكم إلىٰ كعب بن الأشرف، ترافعا اتفاقاً إلىٰ عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهو الغيور علىٰ حكم الله وشرعه ودينه، فلما ترافعا إليه وقص عليه كل منهما ما قال، وقال: أنا طلبت منه أن يتحاكم إلىٰ الرسول فامتنع، وقال: أنا لا أريد حكم الرسول، و إنما أريد حكم كعب بن الأشرف، فاعترف أمام عمر: أنه لا

يحب ولا يرغب أن يتحاكم إلىٰ النبي ﷺ، عند ذلك دخل عمر رضي الله عنه بيته وخرج شاهراً سيفه فضرب هذا المنافق فقتله، جزاءاً لعدم رضاه بحكم الله وحكم رسوله.

وهكذا جزاء كل من رغب عن شرع الله ودينه أن يعاقب بهذه العقوبة، التي هي ضرب عنقه بالسيف، وذلك دليل علىٰ أنه مرتد وكافر ومنافق، أما المؤمنون فإنهم الذين إذا دعوا إلىٰ الله ورسوله ليحكم بينهم جاءوا إليه ولم يتأخروا؛ هكذا يكون المؤمن، وتلك حال من ليس بمؤمن.

■ ■ ■ ■ ■

[٣٩]

باب:
من جحد شيئاً من الأسماء والصفات

وقول الله تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ [الرعد: ٣٠].

وفي صحيح البخاري: قال علي: حدثوا الناس بما يعرفون؛ أتريدون أن يكذب الله ورسوله.

وروى عبد الرزاق، عن معمر، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن ابن عباس: أنه رأى رجلاً انتفض لما سمع حديثاً عن النبي ﷺ في الصفات، استنكاراً لذلك، فقال: ما فَرَقُ هؤلاء؟ يجدون رِقَّةً عند محكمه، ويهلكون عند متشابهه.

ولما سمعت قريش رسول الله ﷺ يذكر: الرحمن، أنكروا ذلك، فأنزل الله فيهم: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾، [الرعد: ٣٠].

■ ■ ■ ■ ■

• **فيه مسائل**:

الأولى: عدم الإيمان بجحد شيء من الأسماء والصفات.

الثانية: تفسير آية الرعد.

الثالثة: ترك التحديث بما لا يفهم السامع.

الرابعة: ذكر العلة أنه يفضي إلى تكذيب الله ورسوله، ولو لم يتعمد المنكر.

الخامسة: كلام ابن عباس لمن استنكر شيئاً من ذلك، وأنه أهلكه.

■ ■ ■ ■ ■

●● الشرح ●●

باب:
من جحد شيئاً من الأسماء والصفات

موضوع هذا الكتاب ـ أي: كتاب التوحيد ـ هو توحيد العبادة، ولكن يُحتاج إلى ذكر ما ينقص توحيد العبادة، ومن جملة ما ينقصه جحد أسماء الله وصفاته أو جحد بعضها، فإن ذلك يخل بتوحيد العبادة، وإن كان توحيداً مستقلاً.

وتوحيد الأسماء والصفات؛ معناه: الإيمان بأن أسماء الله ليس له شبيه فيها، وأن صفات الله ليس له شبيه فيها، وأنه واحد في صفاته، لا تشبه صفاته صفات خلقه، هذا هو توحيد الأسماء والصفات.

لكن لابد قبل ذلك من إثباتها، لابد للمسلم من أن يثبت الأسماء والصفات، وبعدما يثبتها ينفي عنها المماثلة؛ ليكون بذلك موحداً لله في صفاته، فهو ليس فيها شبيه؛ بل هو متفرد ومتوحد في صفاته، ليس في خلقه من يشابهه.

فإذا لم يؤمن الإنسان بالصفات سمي جاحداً معطلاً، وإذا أثبتها ولكن زاد في صفاتها وجعلها كصفات الخلق سمي مشبهاً ممثلاً، وذلك شرك في الصفات.

فالموحد حقّاً هو الذي يثبتها كما جاءت، وينفي عنها التشبيه، فمن نفاها اختلت عقيدته، واختل توحيده العملي.

وقد جاء الشرع وجاءت الأدلة بتأصيل الأسماء والصفات، وأمر المسلمين أن يصدقوا بها، وذكرها بأسمائها، فوصف الله نفسه بأنه عليم بكل شيء، وبأنه

سميع بصير، وبأنه قريب مجيب، وبأنه على كل شيء قدير.

فإذا آمن العبد بهذه الصفات فعليه أن يعطيها حقها، فمثلاً إذا آمن بقدرة الله خاف منه، فقال: أخاف سطوته، وأخاف عقوبته، وإذا آمن بسمعه وبصره وبقربه راقبه أشدّ المراقبة، وقال: كيف لا أراقب من يراني؟ وكيف أعصي من أنا بمرأى منه ومسمع؟ وكيف أخالف أمره، وهو قريب مني؟ فيحمله ذلك على قوة الأعمال وكثرتها، هذه فائدة الإيمان بالصفات، ويوجد غير ذلك من الفوائد.

كذلك الجحد والإنكار تعطيل، فمع أنه تعطيل لصفات الله وأسمائه؛ فإنه تعطيل للكمال لمن يستحق الكمال.

■ **قوله: [وقول الله تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾** [الرعد: ٣٠]]:

في هذه الآية يبين الله تعالى أن المشركين لما جحدوا اسم الرحمن أطلق على فعلهم كفراً، ولم يقل: وهم ينكرون، بل قال: **﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾**؛ أي: باسم الرحمن.

فهم ينكرون الاسم وينكرون الصفة، وينكرون أن يكون الرب متسمياً بالرحمة، أو بالرحمن، أو متصفاً بالرحمة، وذلك كفر، فمن أنكر اسم الله، أو أنكر صفته فإنه قد جحد شيئاً وردت به الأدلة الصريحة.

■ **قوله: [وفي صحيح البخاري: قال علي: حدثوا الناس بما يعرفون؛ أتريدون أن يكذب الله ورسوله**(١)]:

هذا الأثر ردٌّ على طوائف من المتكلمين الذين غالوا في ذكر الكيفيات والهيئات، وفصلوا في ذلك؛ فإنه أوقع كثيراً منهم في الحيرة، وأوقع العوام

---

(١) أخرجه البخاري برقم (١٢٧).

منهم في التشكيك، لأنهم إذا قالوا لهم: كيف يكون كذا وكذا؟ صاروا يشغلون أذهان الناس بما لا تصل إليه أفهامهم.

فقال: «حدثوا الناس بما يعرفون»؛ فلا تخرجوا بهم عن مقتضى الأدلة، وتتوغلوا بهم، وتتسعوا في أشياء لم تصل إليها إدراكاتهم، أتريدون أن توقعوهم في التكذيب وفي الإنكار؟! فإن من توغل وأنكر صدق عليه أنه ردّ عن الله ورسوله، وذلك كفر.

■ **قوله: [وروى عبد الرزاق، عن معمر، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن ابن عباس: أنه رأى رجلاً انتفض لما سمع حديثاً عن النبي ﷺ في الصفات، استنكاراً لذلك، فقال: ما فَرَقُ هؤلاء؟ يجدون رِقَّةً عند محكمه، ويهلكون عند متشابهه[1]]:**

ذكر في هذا الأثر أن رجلاً ممن لم تتمكن معرفة الله ومعرفة صفاته في قلوبهم، انتفض حين سمع حديثاً في الصفات مستنكراً ذلك، وأحاديث الصفات مثل أحاديث الرؤية، أو أحاديث العجب، أو أحاديث المجيء لفصل القضاء، أو أحاديث إثبات اليدين، والقبض، والبسط، ونحوها.

فإذا سمع كثير من المبتدعة مثل هذه الأحاديث فإنهم يفرّون من ذلك ويستنكرونه ويستبشعونه؛ بل تجدهم ينتفضون عند سماع هذه الأحاديث، فقال ابن عباس: (ما فَرَقُ هؤلاء؟) فيكون انتفاضهم بعد الفَرَقْ، والفَرَقُ هو: الفزع والخوف؛ استنكاراً أن يثبت لله شيءٌ من ذلك، فقال: ما فَرَقُهم؟ أي: ما هذا الفَرَقْ؟ وقرأه بعضهم: ما فَرّقَ هؤلاء؟ أي: ما فَرّقوا بين ما يؤمن به مجملاً، وما يؤمن به مفصلاً، فالآيات المحكمة يجب الإيمان بها مفصلاً، والآيات المتشابهة نؤمن بها مجملة، فلا نتوغل في الكيفيات، ولا نسأل عن الماهيات ونحو ذلك.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» رقم (٢٠٨٩٥)، وابن أبي عاصم في «السنة» رقم (٤٨٥).

فكما أن المسلم لا يسأل عن كيفية وماهية الذات، فكذلك لا يسأل عن كيفية وماهية الصفات، فلا يجب عليه أن يكثر من معرفة هذه المسألة ويبحث فيها، ولا أن يستنكر ويفرق، بل يؤمن بما علمه من ذلك إيماناً مجملاً، ويكون المتشابه في هذا هو الذي يخفى علينا إدراك كيفيته وكنهه وماهيته؛ لأن المحكم هو الذي نعرف ظاهره، ونعرف تفسيره، ونعرف مآله.

فالحاصل أن الذين إذا سمعوا شيئاً من الصفات فزعوا، وانتفضت أعضاءهم، وارتعدت فرائصهم، وأنكروا ذلك واستبشعوه، فهؤلاء يصدق عليهم أنهم معطلة.

أما الذين يقبلون ويتقبلون ذلك كما هو، ويقولون كما قال الراسخون: ﴿آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧]، فهؤلاء لا يفزعون، ولا يخافون من شيء من ذلك.

■ **قوله: [ولما سمعت قريش رسول الله ﷺ يذكر: الرحمن، أنكروا ذلك، فأنزل الله فيهم: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾**(١) ،[الرعد: ٣٠]]:

ذكروا أنه ﷺ لما كان في صلح الحديبية قال النبي ﷺ لعلي رضي الله عنه: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم»، فقالوا: لا نعرف إلا رحمن اليمامة، يعني: مسيلمة، وكان يسمي نفسه الرحمن، وقالوا: لا نعرف الرحمن، فأنزل الله تعالى في سورة الرعد: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: ٣٠].

ولما سمعوه يدعوا الله، وأحياناً يقول: اللهم، وأحياناً يدعوه بالرحمن،

---

(١) أخرجه ابن جرير (١٣ / ١٥٠)، عن مجاهد وقتادة مرسلاً.

قالوا: محمد يدعو إلاهين، وهو يقول: لا إله إلا الله، فعند ذلك أنزل الله تعالىٰ: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: ١١٠][١].

فالله يُسمّىٰ بهذه الأسماء كلها، وهو واحد، ذاته واحدة، وله الأسماء الحسنىٰ، وتعدد أسمائه وصفاته لا يستلزم تعدد الذات، بل يؤمن العبد أن لله تعالىٰ صفات، وأنها لا تدل علىٰ التعدد كما يزعم ذلك من أنكرها.

والإيمان بالصفات وإقرارها كما هي، وإمرارها من غير تحريف لها، مما يزيد العبد إيماناً، ومما يحمله علىٰ الأعمال الصالحة، والله تعالىٰ أعلم.

■ ■ ■ ■ ■

(١) انظر هذه القصص وغيرها عند ابن جرير في «التفسير» (١٥/ ١٨٢) رقم (٢٠٣٩٧)، و(٢٠٣٩٨)، والقرطبي (٩/ ٣٢٦) و(١٠/ ٣٤٢)، والدر المنثور (٤/ ٦٥٠)، (٥/ ٣٤٨)، وخلق أفعال العباد للبخاري ص ٨٢ عن ابن عباس وعن مكحول.

[٤٠]

باب:

قول الله تعالى:

﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾

قول الله تعالى: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ [النحل: ٨٣].

قال مجاهد ما معناه: هو قول الرجل: هذا مالي، ورثته عن آبائي.

وقال عون بن عبد الله: يقولون: لولا فلان لم يكن كذا.

وقال ابن قتيبة: يقولون: هذا بشفاعة آلهتنا.

وقال أبو العباس ـ بعد حديث زيد بن خالد، الذي فيه: «أن الله تعالى قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر»، الحديث، وقد تقدم ـ: وهذا كثير في الكتاب والسنة، يذم سبحانه من يُضيفُ إنعامه إلى غيره، ويشرك به.

قال بعض السلف: هو كقولهم: كانت الريح طيبة، والملاح حاذقاً، ونحو ذلك مما هو جارٍ على ألسنة كثير.

■ ■ ■ ■ ■

• فيه مسائل:

الأولى: تفسير معرفة النعمة وإنكارها .

الثانية: معرفة أن هذا جار على ألسنة كثير .

الثالثة: تسمية هذا الكلام إنكاراً للنعمة .

الرابعة: اجتماع الضدين في القلب .

■ ■ ■ ■ ■

●● الشرح ●●

باب:

قول الله تعالى:

﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾

من كمال التوحيد أن تضاف نعم الله إليه؛ حيث أنه هو المتفرد بالإنعام، فإن على المسلم أن يعترف بها لمسديها ومُوليها.

فإذا أضافها إلى غيره فقد جعل ذلك الغير متصرفاً، وجعل له حقّاً من الشكر، وحقّاً من الجزاء، وحقّاً من العبادة؛ مع أنه وسيلة وسبب، والله تعالى هو مسبب الأسباب.

■ **قوله: [قول الله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [النحل: ٨٣]. قال مجاهد ما معناه: هو قول الرجل: هذا مالي، ورثته عن آبائي، وقال عون بن عبد الله: يقولون: لولا فلان لم يكن كذا، وقال ابن قتيبة: يقولون: هذا بشفاعة آلهتنا]:**

وقد فسرت هذه الآية بكل هذه التفاسير، بعضها ذكره المصنف كقول مجاهد: إن كفرهم لنعم الله، هو جعلها من كسبهم، ومن كدحهم، ومن عملهم، فنسوا أنها من الله وبتوفيقه وبتسديده وبعطائه.

فإذا قال أحدهم: هذا مالي ورثته عن آبائي نسي أن الله هو الذي رزقه إياه، ونسي أن الله هو الذي رزقه آباءه، وأن آباءه لا يملكون لأنفسهم ضرّاً ولا نفعاً.

فنسي أن الله تعالى هو مسبب الأسباب، ونسي مشيئة الله من أنه لو شاء أهلكه وأخذ ما في يده، قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ

أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ﴾، الجواب: لا، ﴿أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾ [الزمر:٣٨]، الجواب: لا.

وكذلك قول النبي ﷺ في الحديث المشهور: «واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، ولو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك»(١)، وهذا يقابله كفر النعمة؛ لأن الله قد ختم الآية بكفر، ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾.

وهذه الآية التي ذكرها المصنف وردت في سورة تسمىٰ سورة النعم، وهي سورة النحل، ذكر الله فيها كثيراً من نعمه، من أولها إلىٰ قرب آخرها، وهو يعدد فيها النعم.

فأولها خلق الإنسان من سلالة من طين، فإذا هو خصيم مبين، والأنعام خلقها لكم فيها دفءٌ ومنافع، إلىٰ آخر الآيات، ثم يذكر الله فيها أنه سخر لنا كذا وكذا، وسخر لكم الفلك، وسخر لكم القمر، والنجوم مسخرات بأمره، وألقىٰ في الأرض رواسي أن تميد بكم.

فقوله تعالىٰ: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ﴾، أي: تُعدد عليهم هذه النعم، وهم يعرفونها و لكن ينكرونها، أي: يعلمون أن الله هو المنعم حقاً، ولكن ينكرونها، فإذا قال قائلهم: هذا مالي ورثته عن آبائي كان هذا إضافة النعم إلىٰ غير المنعم أصلاً وهو الله تعالىٰ.

وقد يدخل في ذلك أيضاً إذا أضاف النعم إلىٰ حوله وقوته، أو إلىٰ صنعته، حذقه مثل قارون الذي أخبر الله تعالىٰ عنه أنه قال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص: ٧٨]، أي: ما أوتيت هذا المال إلا علىٰ علم عندي بوجوه المكاسب، فاكتسبت وحصلت علىٰ المال بحيلي وبمعرفتي وبحذقي في الأمور، وبجدي

ونشاطي، وباجتهادي في التصرف.

ونسي أنه من الله، وأن الله يقدر أن ينتزعه منه، ولا يرده له، ولا يبقي له شيئاً، ولا يقدر أن يرد قدر الله وتصرفه.

* كذلك قول عون بن عبد الله، يقول: **(لولا فلان لم يكن كذا)**: وهذا فيه إضافة النعم إلى فلان، ومنه: لولا فلان لما حصل لنا هذا الربح؛ لأن الذي أدخلنا في هذا السهم فلان، والذي باع لنا هذا برخص فلان، أو فلان الذي حَمَلنا على أن نشتري كذا، لولا فلان ما حصل لنا هذا الرزق؛ لأنه هو الذي شفع لنا، وتوسط لنا عند فلان، حتى أعطانا، وما أشبه ذلك.

وينسى أن ذلك من الله، والواجب عليه أن يضيفه إلى الله أصلاً، ويقول: هذا من فضل الله علينا ثم بواسطة فلان، أو لولا الله ثم فلان ما حصل لنا كذا وكذا، فيبدأ بأن ذلك من الله تعالى، وذلك من إضافة النعمة أصلاً إلى المنعم.

* وأما قول ابن قتيبة: **(يقولون: هذا بشفاعة آلهتنا)**، فإن هذا خاص بالمشركين من المتقدمين أو المتأخرين، الذين يضيفون الرزق إلى غير الله، ومن الرزق مثلاً ما ينزل من السماء مطراً، وما ينبت من الأرض من النبات، فإن المشركين قد يدّعون أنه بشفاعة آلهتهم، يعني: أن آلهتهم شفعت لهم حتى رزقوا بهذا الرزق، فهم يقولون: هو من عند الله أصلاً، ولكنه بشفاعة آلهتهم، ويعترفون بأن أصل الخلق والرزق من الله ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ﴾، ولكنهم يعللونه بشفاعة آلهتهم المزعومة، فهم بذلك ينكرون النعمة بهذه المقولة ﴿ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾.

■ **قوله: [وقال أبو العباس ـ بعد حديث زيد بن خالد، الذي فيه: «أن الله تعالى قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر»، الحديث، وقد تقدم ـ: وهذا كثير في الكتاب والسنة، يذم سبحانه من يُضيفُ إنعامه إلى غيره، ويشرك به.**

قال بعض السلف: هو كقولهم: كانت الريح طيبة، والملاح حاذقاً، ونحو ذلك مما هو جارٍ على ألسنة كثير]:

أبو العباس هو شيخ الإسلام ابن تيمية، وقد تكلم على هذا الحديث الذي تقدم في (باب: الاستسقاء بالأنواء)، وهو حديث زيد بن خالد الذي قال فيه النبي ﷺ: «**أن من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب**».

وقوله: «**مؤمن بالكواكب**»، يعني: أنه أضاف المطر إلى الكواكب، أي: أنه ينزل بواسطة الكواكب، فأضاف النعمة إلى المخلوق وهو الكوكب أو الريح أو النجم مع أنها مسخرة مذللة مسيرة بأمر الله، كما في قوله تعالى: ﴿وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ [النحل: ١٢]. فمن فعل ذلك، ـ أي: من أضاف النعمة إلى غير الله ـ فقد كفر بنعمة الله.

فقال شيخ الإسلام ـ معلقاً على هذا الحديث ـ: (وهذا كثير في الكتاب والسنة، يذم سبحانه من يضيف إنعامه إلى غيره، ويشرك به).

فلما كانت النعم من الله تعالى، كان الأصل أن تضاف إليه، فلا تضاف إلى أحد من خلقه.

فالله تعالى يذم من أضاف النعم إلى أحد من خلقه فهو بذلك يكون جاحداً للنعمة، وقديماً كان الذين يسافرون في السفن إذا نجوا من الغرق أو الأمواج جعلوا ذلك بأسباب مؤثرة، كأن يقولوا: كانت السفينة جديدة، وكانت الريح طيبة، أو كان الملاح حاذقاً، فهذا سبب نجاتنا.

وكذلك ـ أيضاً ـ الذين يستعملون مثل هذه الألفاظ في المراكب الحديثة، يقولون: ـ مثلاً ـ وصلنا بسرعة، أو نجونا من الأخطار لحذق سائقنا، أو ملاحنا في الطائرة ونحوها، أو كان الملاحون أو القائدون حذاقاً وعارفين يحسنون القيادة، ونحو ذلك؛ فيضيفون نعمة النجاة ونعمة الوصول بسرعة وبسهولة ونعمة السلامة من الأخطار إلىٰ هؤلاء، وذلك من كفران النعم وهي كلها من الله، فهو الذي يسر لهم أسبابها.

فالواجب أن يجعل هذه الأمور تابعاً لا مؤثراً، فيقال: نجونا بسلامة الله ثم بحذق السائق، وهبطنا بتوفيق الله وسلامته وبمنته، ثم بمعرفة القائد، أو الملاح أو نحو ذلك، فإذا أعقبوا «بثم» كان ذلك جائزاً.

وقد ورد النهي عن أن تنسب الأشياء لغير الله تعالىٰ، كأن يقال: لولا كذا لكان كذا وكذا مما هو جار علىٰ ألسنة كثير من الناس في القديم والحديث، ولكن الصحيح أن يقال: «لولا الله ثم كذا»، هكذا علّم النبي ﷺ أمته أن تقول حفاظاً منه علىٰ جناب التوحيد، وسلامة الاعتقاد، والله أعلم.

■ ■ ■ ■ ■

[٤١]

باب:

قول الله تعالى:

﴿فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون﴾

قول الله تعالى: ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢].

وعن ابن عباس، في الآية: الأنداد: هو الشرك، أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل، وهو أن تقول: والله وحياتك يا فلانه، وحياتي، وتقول: لولا كليبة هذا لأتانا اللصوص، ولولا البط في الدار لأتانا اللصوص، وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت، وقول الرجل: لولا الله وفلان، لا تجعل فيها فلاناً؛ هذا كله به شرك. رواه ابن أبي حاتم.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك»، رواه الترمذي وحسنه، وصححه الحاكم.

وقال ابن مسعود: لأن أحلف بالله كاذباً أحب إلي من أن أحلف بغيره صادقاً.

وعن حذيفة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «لا تقولوا: ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان»، رواه أبو داود بسند صحيح.

وعن إبراهيم النخعي: أنه يكره أن يقول الرجل: أعوذ بالله وبك. ويجوز أن يقول: بالله ثم بك. قال: ويقول: لولا الله ثم فلان، ولا يقول: لولا الله وفلان.

• فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية البقرة في الأنداد.

الثانية: أن الصحابة رضي الله عنهم يفسرون الآية النازلة في الشرك الأكبر أنها تعم الأصغر.

الثالثة: أن الحلف بغير الله شرك.

الرابعة: أنه إذا حلف بغير الله صادقاً فهو أكبر من اليمين الغموس.

الخامسة: الفرق بين الواو وثم في اللفظ.

■ ■ ■ ■ ■

●● الشرح ●●

باب:
قول الله تعالى:
﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

هذا الباب معقود لبيان الشرك في الأقوال، وأنه كما يقع الشرك في الأعمال يقع في الأقوال؛ أي: في الألفاظ والكلمات.

والشرك في الأقوال قد يكون أكبر، وقد يكون أصغر.

* **فالشرك الأكبر في الأقوال**: كدعاء غير الله؛ مثل الذين يقولون: يا حسين، يا بدوي، أو نحو ذلك، أعطنا وأغثنا وانصرنا؛ فهذا شرك في الأقوال، ولكن هو أيضاً شرك في الأفعال، وذلك لأنهم في هذا النداء، وفي هذا الدعاء يخشعون ويخضعون ويتواضعون ويتذللون، وذلك كله عبادة، فيكون شركاً في الأقوال ظاهراً، وشركاً في الأعمال باطنًا، وشركاً أيضاً في العقائد؛ حيث إنهم يعتقدون في هذه المخلوقات أنها تفيدهم وتنفعهم، أو تضر وتعطي وتمنع، فيكونون قد جمعوا بين الشرك في الاعتقاد، والشرك في الأقوال، والشرك في الأعمال.

فيكون هذا الفعل مخرجاً من الإسلام، وموجباً للخلود في النار؛ لأن فيه رفعاً للمخلوق إلىٰ منزلة الخالق، وتمليكه ما لا يملكه إلا الله؛ فإن هذه الأشياء ملك الله تعالىٰ حقّاً، ولا يملك المخلوق منها شيئاً، مهما علت مرتبته، وسما قدره.

* **وأما الشرك الأصغر في الأقوال فهو**: كالحلف بغير الله، وقول الرجل: ما شاء الله وشئت، أو أعوذ بالله وبك، أو لولا الله وفلان، أو لولا الله وأنت، أو لولا فلان لم يكن كذا، وغير ذلك، وتقدم أن ذلك من التنديد.

■ **قوله: [قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]:**

نهىٰ الله تعالىٰ أن يتخذ الناس لله أنداداً، أي: شركاء ونظراء، وأشباهاً يعبدون مع الله، أو يصرف لهم شيء من حق الله، أو يُشَبَّهُونَ بالله تعالىٰ في شيء من خصائصه، فكل من رفع مخلوقاً فوق رتبته فقد جعله لله نداً في شيء من التعظيم أو التبجيل الذي لا يستحقه إلا الرب سبحانه.

فبعد أن أمر الله تعالىٰ الناس عموماً بعبادته وحده؛ لأنه خالقهم وخالق من قبلهم، وهو الذي جعل لهم الأرض كفراش يتقلبون فيها، والسماء رفعها فوقهم بناء، وأنزل لهم الماء من السماء، وأخرج به الأشجار والنبات رزقاً لهم، فإذا اعترفوا بذلك كله لله وحده، فلا يجعلون له أنداداً في العبادة والمحبة كحب الله والدعاء ونحوه؛ لأن لا ند له في الملك والرزق والتصرف.

■ **قوله: [وعن ابن عباس، في الآية: الأنداد: هو الشرك، أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل، وهو أن تقول: والله وحياتكِ يا فلانه، وحياتي، وتقول: لولا كليبة هذا لأتانا اللصوص، ولولا البط في الدار لأتانا اللصوص، وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت، وقول الرجل: لولا الله وفلان، لا تجعل فيها فلاناً؛ هذا كله به شرك، رواه ابن أبي حاتم(١)]:**

بين ابن عباس أن مثل هذه الكلمات يتهاون بها الناس، ولكنها من أنواع الشرك، وذلك لأن فيها نوع تسوية المخلوق بالخالق فتكون رفعاً للمخلوق، وتعظيماً له، فإذا قال: لولا فلان لم يكن كذا؛ كأنه جعله سبباً مستقلاً، وجعل له تصرفاً ذاتياً؛ مع أن فلاناً وغيره ليس لهم التصرف الذاتي، ولا يستطيعون أن يتصرفوا من قبل أنفسهم؛ بل هم مصرّفون، وإن التصرف الحق لله تعالىٰ.

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره (١/ ٥٧)، وابن أبي حاتم في «التفسير» رقم (٢٣٠)، عن ابن عباس، وسنده حسن. ويشهد له ما رواه الإمام أحمد (٤/ ٤٠٣) عن أبي موسىٰ الأشعري.

وهذه الكلمة وهي قولهم: لولا فلان لم يكن كذا تقع كثيراً على الألسن؛ وهذا فيه اعتماد على فلان، والله هو مسبب الأسباب، والواجب أن يقول: لولا الله ثم فلان، أو لولا الله أمدنا بفلان أو سخر لنا فلاناً، أو يسر لنا سبباً بواسطته، أو نجاة بوسطة فلان، وما أشبه ذلك، حتى يسند الأمر إلى الله الذي هو مسبب الأسباب، فلا يتساهل العباد بمثل هذه الكلمات.

■ **قوله: [وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك»**[1]**، رواه الترمذي وحسنه، وصححه الحاكم]:**

وثبت عن عمر رضي الله عنه أن النبي ﷺ أدركه، وهو يحلف بأبيه، فقال: **«لا تحلفوا بآبائكم، من كان حالفاً فليحف بالله أو ليصمت»**[2].

الحلف بالآباء كأن يقول: بأبي أو بأمي، أو نحو ذلك، أو يحلف بنفسه، كأن يقول: ونفسي، أو وحياتي، أو وشرفي، أو ونسبي، أو ومنصبي، أو وقبيلتي، أو ما أشبه ذلك.

والحلف بالمخلوق شرك كما في هذا الحديث: **«من حلف بغير الله؛ فقد كفر، أو أشرك»**، أو كذلك الحلف بالأمانة، فقد ورد النهي عن الحلف بالأمانة في قول النبي ﷺ: **«من حلف بالأمانة فليس منا»**[3].

والسبب في ذلك أن الحلف بالمخلوق تعظيم له، فإذا حلف المرء بمخلوق فإنه

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (١٥٣٥)، وأبو داود برقم (٣٢٥١)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ١٨، ٤/ ٢٩٧)، وأحمد في «المسند» (٢/ ٣٤، ٤٧، ٦٧، ٨٧، ١٢٥)، وابن حبان في صحيحه (١٠/ ٢٠٠) رقم (٤٣٥٧)، والطيالسي في «المسند» رقم (١٨٩٦)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٦٠٨٠).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٦٦٤٦)، و مسلم برقم (١٦٤٦).

(٣) أخرجه أبو داود برقم (٣٢٥٣)، وأحمد في «المسند» (٥/ ٣٥٣). قال الألباني في صحيح أبي داود: صحيح عن بريدة رضي الله عنه.

يعظم هذا المخلوق، والتعظيم لا يصلح إلا لله، فلا يعظم المرء إلا الله، وكونه تعظيماً للمحلوف به ظاهر، فإنه لا يحلف إلا بشيء عظيم، والمحلوف له قد لا يقبل إلا حلفاً بشيء عظيم، والعظمة هذه عظمة في النفس، والعظمة أصلاً لله تعالىٰ، ومن أسمائه العظيم، فالعظمة والكبرياء والجلال له وحده؛ فهو المستحق أن يعظم، فلا يعظم بالحلف غير الله تعالىٰ، هذا هو الأصل.

أما الربّ تعالىٰ فإنه يحلف بالمخلوقات، وبما يشاء، بياناً لعظمتها، ولكونها دالة علىٰ عظمة خالقها، فالله تعالىٰ يقسم بما شاء من مخلوقاته، كقوله: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا﴾ [الصافات: ١]، إلىٰ آخره: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا﴾ [الذاريات: ١]، ﴿وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفًا﴾ [المرسلات: ١]، ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ [العاديات: ١]، فأقسم بهذه الأشياء.

وكقوله: ﴿وَالطُّورِ﴾ [الطور: ١]، ﴿وَالْفَجْرِ﴾ [الفجر: ١]، ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ [الليل: ١]، ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ [الشمس: ١]، ﴿وَالضُّحَى﴾ [الضحىٰ: ١]، ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾ [التين: ١]، وما أشبهه.

وكقوله: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ [الواقعة: ٧٥]، ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لا تُبْصِرُونَ﴾ [الحاقة: ٣٨، ٣٩]، هذا أيضاً قسم بهذه الأشياء.

والله تعالىٰ له أن يقسم من خلقه بما يشاء، أما المخلوق فلا يقسم بمخلوق حتىٰ لا يكون معظماً له، ولكن يقسم بالخالق ليكون ذلك التعظيم خاصّاً به(١).

وكثير من العامة يقعون في الشرك من حيث لا يشعرون، فيحكىٰ عن كثير منهم أنه يحلف بالله عدة أيمان وهو كاذب، وإذا قيل: احلف بالولي فلان لم

(١) قال الشيخ ابن جبرين: أما قول بعض الصحابة للرسول ﷺ: بأبي أنت وأمي، فهذا ليس من الحلف في شيء، إنما هو فداء، أي: فديتك يا رسول الله بأبي وأمي، والحلف يؤتىٰ به لتأكيد الأمر، يعني: يؤتىٰ به للتقوية، فإذا قلت: وحياتي فعلت كذا أو: والنبي فعلت كذا، فأنت تؤكد فعلك بهذا الحلف، أما قولك: بأبي أنت وأمي، فليس فيه تأكيد لأمر.

يتجرأ، يخشىٰ أنه إذا حلف به انتقم منه، وعجل له العقوبة؛ لأنه حلف به وهو كاذب.

وإذا قيل له: قل بحرمة السيد البدوي، أو بحرمة السيد عبد القادر، أو بحرمة فلان الولي، أو نحوهم من المعبودات الباطلة، فإنه لا يحلف؛ بل يقر بما كان منه ويعترف ولا يتجرأ علىٰ الحلف، وهذا دليل علىٰ أنهم عظموا المخلوق أكثر من تعظيمهم للخالق، حيث لا يحلفون بالمخلوق إلا وهم صادقون.

وكذلك يحلف أحدهم بشرفه، أو بحياته، أو ما أشبه ذلك، فإذا نُهوا عن ذلك، يقول أحدهم: ليس هذا حلفاً، فنقول: إن سياقه يدل علىٰ أنه حلف، فلا تستعمله.

ويفهم بعضهم أن الحلف بغير الله جائز، وأن فيه مندوحة عن الحلف بالله؛ حتىٰ سمعنا بعضهم يقول: إن الله نهانا عن الحلف، فقال: ﴿**وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ**﴾ [البقرة: ٢٢٤]، أي: لاتحلفوا بالله، فإذا نهانا الله أن نحلف به، فإننا نحلف بغيره، هكذا يقولون.

فنقول: إن هذا كذب؛ لأن الآية معناها: لا تحلفوا بالله إلا وأنتم صادقون، أو لا تكثروا الحلف بالله فتقعوا في الكذب وفي اليمين الغموس وأنتم لا تشعرون.

■ **قوله**: [**وقال ابن مسعود: لأن أحلف بالله كاذباً أحب إلي من أن أحلف بغيره صادقاً**(١)]:

فإنه اختار الحلف بالله كاذباً؛ لأنه تعظيم لله، والكذب كبيرة من الكبائر، والحلف بالله تعظيم لله، وأما الحلف بغيره فإنه شرك، ولو اشتمل علىٰ حسنة الصدق.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (٨/ ٤٦٩)، والطبرني في «الكبير» رقم (٨٩٠٢)، والديلمي في «مسند الفردوس» رقم (٧٨٧١)، قال الهيثمي (٤/ ١٧٧): ورواته رواة الصحيح، وهو تابع للمنذري في «الترغيب» (٣/ ٦٠٧)، وقد رواه أبو نعيم في «الحلية» مرفوعاً (٧/ ٢٦٧).

فعندنا سيئة الشرك، وحسنة الصدق، والشرك أعظم جرماً من الكذب، ومن ثم اختار أن يفعل الكبيرة ويصبح موحداً، خير من أن يشرك بالله ويصدق.

■ **قوله: [وعن حذيفة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «لا تقولوا: ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان»(١)، رواه أبو داود بسند صحيح]:**

تقدم أن قول الرجل: ما شاء الله وشاء فلان أنه من شرك الأقوال، وأن سبب تسميته شركاً أن الواو تقتضي المساواة، فإذا قلت: ما شاء الله وشئت فكأن مشيئتك ومشيئة الله متساوية، ومعلوم أن مشيئة الله سابقة، وأن مشيئة المخلوق لاحقة ومتعلقة بها، ولا تحصل إلا بها.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [التكوير: ٢٩]، فإذا قال المرء: ما شاء الله ثم شاء فلان، فمعناه: أن مشيئة فلان حصلت بعد مشيئة الله عز وجل، أما إذا قال: ما شاء الله وشاء فلان، فمعناه: أن الله شاء وفلان شاء، كلاهما على حدٍ سواء، مشيئتان متساويتان، فتسوية المشيئة شرك، والعطف «بثم» يقتضي التعقيب والترتيب، بخلاف الواو فإن العطف بها يقتضي المساواة، ولا يفيد الترتيب.

■ **قوله: [وعن إبراهيم النخعي: أنه يكره أن يقول الرجل: أعوذ بالله وبك. ويجوزٌ أن يقول: بالله ثم بك. قال: ويقول: لولا الله ثم فلان، ولا يقول: لولا الله وفلان(٢)]:**

هكذا ذكر عن إبراهيم، وهو أحد تلامذة ابن مسعود من التابعين، ومراده

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (٤٩٨٠)، ولكن بلفظ: «ما شاء الله وشاء فلان»، وأحمد في «المسند» (٥/ ٣٨٤، ٣٩٤، ٣٩٨). والطيالسي في «المسند» رقم (٤٣٠)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٠/ ٣٤٦)، والبيهقي في «السنن» (٣/ ٢١٦)، عن حذيفة رضي الله عنه.
قال النووي في «الأذكار» (٣٠٨): إسناده صحيح. وقال الذهبي في «المهذب» (٣/ ١٩٠): إسناده صالح، وصححه الألباني في الصحيحة رقم (١٣٧).
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الصمت رقم (٣٤٧).

بالكراهة: التحريم، فإن السلف يطلقون لفظ الكراهة ويريدون به التحريم، وذلك لما تقدم من أن العطف بالواو يقتضي المساواة، فمن قال: لولا الله وفلان لم يكن كذا، فقد جعل المخلوق فاعلاً كفعل الخالق، مع أن المخلوق لا يفعل إلا ما أقدره الله عليه، كما في الآية الكريمة: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [التكوير: ٢٩].

وهكذا الاستعاذة عبادة لله، فمن عاذ بالله وبالمخلوق فقد سوىٰ بنيهما، وهذا كما ذكرنا من الشرك الأصغر في الأقوال، وهو يجري كثيراً علىٰ الألسن، ولا ينتبه له إلا القليل، فيجب علىٰ من سمع من ذلك شيئاً أن ينبه من يقوله علىٰ المنع منه، وعلىٰ العطف بثم التي تقتضي الترتيب، وهوكون فعل العبد مرتبطاً بفعل الله، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن. والله أعلم.

■ ■ ■ ■ ■

[٤٢]

باب:

ماجاء فيمن لم يقنع بالحف بالله

عن ابن عمر : أن رسول الله ﷺ قال : «لا تحلفوا بآبائكم، من حلف بالله فليصْدُق، ومن حُلف له بالله فليرضَ، ومن لم يرضَ فليس من الله»، رواه ابن ماجه بسند حسن.

■ ■ ■ ■ ■

● فيه مسائل:

الأولى: النهي عن الحلف بالآباء.

الثانية: الأمر للمحلوف له بالله أن يرضى.

الثالثة: وعيد من لم يرض.

■ ■ ■ ■ ■

الشرح

باب:
ماجاء فيمن لم يقنع بالحف بالله

الذي يحلف بالله عادة لا يحلف إلا على شيء مهم، وحتى يؤكد صدقه فيما قاله، فالذي يسمعه قد حلف بالله وأقسم به عليه أن يصدقه، وعليه أن يقنع به، ويقول: رضيت بالله، فنعم محلوف به.

وإذا لم يصدقه فكأنه احتقر اسم الله، واحتقر الحلف به، فالذي لا يقنع يعتبر غير قانع بالله وبأسمائه، فكأنه منتقص لحرمات ربه؛ لذلك ورد فيه هذا الوعيد الذي في هذا الحديث الذي ذكره المصنف.

■ **قوله: [عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: «لا تحلفوا بآبائكم، من حلف بالله فَلْيَصْدُقْ، ومن حُلف له بالله فليرض، ومن لم يرض فليس من الله»[1]، رواه ابن ماجه بسند حسن]:**

اشتمل هذا الحديث على أربعة جمل:

الجملة الأولى: قوله ﷺ: «لا تحلفوا بآبائكم»:

وكانوا يحلفون بآبائهم، ويقول أحدهم: بأبي أو بأبويّ، أو بتربة أبي

(١) أخرجه ابن ماجه برقم (٢١٠١)، البيهقي في «الكبرى» (١٠ / ١٨١)، رقم (٢٠٥١٢).
قال ابن حجر في «الفتح» (١١ / ٥٣٥): سنده حسن. وقال البوصيري في «المصباح» (٢ / ١٣٠): هذا إسناد صحيح، رجاله ثقات. وصححه الألباني في «الإرواء» رقم (٢٦٩٨).
ولها شواهد عديدة:
ما رواه ابن ماجه برقم (٢٠٩٤)، والترمذي برقم (١٥٣٣، ١٥٣٤)، والنسائي في المجتبى رقم (٣٧٦٥، ٣٧٦٦، ٣٧٦٧)، ومالك في الموطأ (٢ / ٤٨٠) رقم (١٩).

لأفعلن كذا، أو لأذهب إلىٰ كذا، أو ليس عندي كذا، يؤكدون بالحلف بآبائهم.

فبين النبي ﷺ: أن الحلف بغير الله كالأب والأم وغيرهما شرك وكفر، كما تقدم في قوله ﷺ: «**من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك**»(١). فأصبح الحلف بالآباء، أو بالأمهات، أو بالنفس، أو بالشرف، أو بالأصل، أو نحو ذلك، شركاً منهياً عنه في هذا الحديث.

أما الجملة الثانية: وهي قوله ﷺ: «**من حلف بالله فَلْيَصْدُقْ**»:

فإنه أمر بالصدق في اليمين، لأن الذي يحلف بالله يعظم الله، فلا يعظمه ولا يؤكد باسمه إلا بعد أن يكون متيقناً لما قال، وصادقاً فيما نطق به، فإذا كان كاذباً فقد احتقر أسماء الله، وقد امتهن الله تعالىٰ، وذلك ذنب كبير.

فالحلف بالله تعالىٰ يستدعي أن يكون الحالف صادقاً فيما حلف به، لأنه مأمور بأن يَصْدُقَ الحديث حتىٰ ولو لم يؤكده بالحلف، فإذا أكده بالحلف ازدادت مرتبة التصديق وأهميته وشدته، ومرتبة الصدق وأهميته.

وإذا حلف بالله كاذباً فإنه معرض نفسه للعذاب، سيما إذا ترتب علىٰ حلفه ذلك أَخْذٌ للمال وغير ذلك بغير حق، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَٰئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ [آل عمران: ٧٧].

وهذه الآية نزلت فيها قصة، وفيها أن رجلاً أراد أن يحلف، فقال مخاصمه: إنه كذاب، فقال النبي ﷺ: «**من حلف على يمين هو فيها كاذب ليقتطع بها مال امرئ مسلم لقي الله وهو عليه غضبان**»(٢)، وقال: «**من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه فقد**

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري رقم (٦٦٧٦)، ومسلم برقم (١٣٨)، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة». فقال رجل: وإن كان شيئاً يسيراً، قال: «**وإن كان قضيباً من أراك**»[1]، أي: وإن كان عوداً من أراك (وهو السواك)، فإنه يسبب غضب الله تعالى عليه.

أما الجملة الثالثة: فهي قوله ﷺ: «**من حُلِفَ له بالله فليرض**»:

وهي الشاهد للباب، وذلك لأن المرء إذا حُلِفَ له بالله فيجب عليه أن يقبل، وأن يرضى، ويقول: رضيت بالله، ورضيت باليمين التي أكد فيها اسم الله، فإذا رضي بالله كان ذلك تعظيماً لأسماء الله وصفاته التي حلف بها الحالف، وأكد بها يمينه.

فإذا لم يرض الإنسان فإنه يكون محتقراً لأسماء الله تعالى ولذلك بيّنها في الجملة التالية.

أما الجملة الرابعة: التي قال فيها ﷺ: «**ومن لم يرض فليس من الله**»:

أي: ليس من الله في شيء، أي: أن الله تعالى بريء منه، وبريء من فعله، حيث سمع أسماء الله تعالى تعظم فلم يرض، ولم يقنع بها، وكأنه يريد من الحالف أن يحلف بغير أسماء الله، كأن يحلف باسم ولي، أو باسم سيد، أو غير ذلك، وكأنه رأى أن غير الله أحق بالتعظيم من الله، وذلك كفر والعياذ بالله.

وهذا الوعيد الذي في قوله ﷺ: «**ومن لم يرض فليس من الله**»؛ ورد فيمن لم يقبل الحلف بالله، لأنه لم يقنع بأسماء الله، ولم يقع في قلبه تعظيم لله، ولم يصدق من عظم الله، بل قد يطلب منه أن يحلف بغير الله تعظيماً للمحلوف به، لذا أصبح قدر الله في قلبه ناقصاً، وأصبح قدر المخلوق في قلبه أعظم من الخالق.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (١٣٧)، عن أبي أمامة رضي الله عنه.

وهذا يقع كثيراً والعياذ بالله في الذين يعظمون الأولياء والأموات، حيث أن أحدهم يحلف بالله أيماناً كثيرة وهو كاذب، ولكن إذا قيل له: احلف بالولي الفلاني أو السيد الفلاني لم يجرأ على الحلف به إلا وهو صادق.

وهكذا أيضاً في السادة؛ حيث أن بعضهم لو حُلف له بالله أيماناً كثيرة لم يقبل، ويقول له: لا أتركك ولا أعفو عنك؛ حتى تحلف لي بالولي الفلاني أو بالسيد الفلاني، فيكون قدر المخلوق في قلبه أرفع من الخالق.

ولا شك أن هذا احتقار لله تعالى وتعظيم للمخلوقات، ومن عظم المخلوق أكثر من تعظيم الخالق، أو رفع المخلوق فوق قدر الخالق، استحق بذلك أن يكون من الذين يعظمون غير الله، ومن عظم غير الله حتى يكون بمنزلة الله فيه نوع من أنواع الشرك وهو شرك التعظيم؛ لأن التعظيم حق لله تعالى، فلا يعظم غير الله بما يستحقه الله.

والحاصل أن الحلف تعظيم للمحلوف به، وهذا يعني أن قبوله تعظيم للمحلوف به، فإذا قبل الحلف بالله فإنه يعتبر معظماً لله، أما إذا لم يقبل الحلف بالله فإنه يعتبر معظماً للمحلوف به.

والواجب على المسلم في هذا المقام أمور:

أولاً: عليه أن يحفظ لسانه، فلا يكثر من الحلف مخافة أن يقع في خطأ أو كذب.

ثانياً: وعليه أن يحلف بالله، ولا يحلف بغيره من المخلوقات.

ثالثاً: وإذا حلف بالله عليه أن يكون متحرياً للصدق، فلا ينطق بأسماء الله حالفاً بها إلا صادقاً وعلى يقين.

رابعاً: وإذا حُلف له بالله عليه أن يقنع، ويقول: رضيت باسم الله، ورضيت بالله، فنعم المحلوف به، فكيف لا نرضىٰ به وهو ربنا المعظم في نفوسنا وقلوبنا؟ فإذا فعل ذلك فإنه من الذين يستحقون الجزاء الأوفىٰ، وإذا لم يفعل ذلك فإنه يستحق العذاب الوبيل والعياذ بالله، وخرج من ذمة الله، وهذا معنىٰ قوله ﷺ: «**ومن لم يرض فليس من الله**».

نعوذ بالله من الحرمان، ونسأله سبحانه الهداية، إنه سميع مجيب، والله أعلم.

■ ■ ■ ■ ■

[٤٣]

باب:

قول: ما شاء الله وشئت

عن قُتَيْلَة : أن يهودياً أتى النبي ﷺ ، فقال : إنكم تشركون، تقولون : ما شاء الله وشئت ، وتقولون : والكعبة . فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا : ورب الكعبة ، وأن يقولوا : ما شاء الله ثم شئت . رواه النسائي وصححه .

وله ـ أيضاً ـ عن ابن عباس : أن رجلاً قال للنبي ﷺ : ما شاء الله وشئت ، فقال : «أجلعتني لله نداً ؟ بل ما شاء الله وحده» .

ولابن ماجه عن الطفيل ـ أخي عائشة لأمها ـ ، قال : رأيت كأني أتيت على نفر من اليهود ، قلت : إنكم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون : عزير ابن الله . قالوا : وإنكم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون : ما شاء الله وشاء محمد .

ثم مررت بنفر من النصارى، فقلت : إنكم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون : المسيح ابن الله . قالوا : وإنكم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون : ما شاء الله وشاء محمد .

فلما أصبحت ، أخبرت بها من أخبرت . ثم أتيت النبي ﷺ فأخبرته ، فقال : «هل أخبرت بها أحداً» ، قلت : نعم . قال : فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : «أما بعد : فإن طفيلاً رأى رؤيا أخبر بها من أخبر منكم ، وإنكم قلتم كلمة كان يمنعني كذا وكذا أن أنهاكم عنها ، فلا تقولوا : ما شاء الله وشاء محمد ، ولكن قولوا : ما شاء الله وحده» .

• فيه مسائل:

الأولى: معرفة اليهود بالشرك الأصغر.

الثانية: فهم الإنسان إذا كان له هوىً.

الثالثة: قوله ﷺ: «**أجعلتني لله نداً**» فكيف بمن قال: مالي من ألوذ به سواك، والبيتين بعده؟.

الرابعة: أن هذا ليس من الشرك الأكبر، لقوله: «يمنعني كذا وكذا».

الخامسة: أن الرؤيا الصالحة من أقسام الوحي.

السادسة: أنها قد تكون سبباً لشرع بعض الأحكام.

■ ■ ■ ■ ■

●● الشرح ●●

باب:
قول: ما شاء الله وشئت

هذا من حماية النبي ﷺ لحمى التوحيد؛ وهو أنه علّمهم الأقوال السليمة، ونهاهم عن الأقوال المبتدعة التي توقعهم في الشرك، أو توقعهم في وسائل الشرك.

ومن ذلك الشرك بالأقوال، وإن لم يقترن به نية؛ فيسمى هذا الشرك بالأقوال، وهو من الشرك الأصغر، وأمثلته كثيرة.

وقد تقدم فيه قول ابن عباس: (١) إنه أخفى من دبيب النملة السوداء على الصفاة السوداء في ظلمة الليل، وهو أن تقول: والله وحياتك يا فلان، وحياتي وتقول: لولا فلان لم يكن كذا، ولولا كليبة هذا لأتانا اللصوص، ولولا البط في الدار لأتى اللصوص، وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت.

فمن أنواع الشرك، قول: (ما شاء الله وشئت)، وقد أفرده في هذا الباب منفصلاً بأدلة، وأورد فيه هذه الأحاديث، وسبب كونه شركاً؛ لأنه جعل فيه المشيئة مستوية، أي: سوى بين مشيئة الخالق ومشيئة المخلوق، ومعلوم أن الأصل في «الواو» أنها تقتضي المساواة، أو تقتضي الاشتراك.

فقوله: (ما شاء الله وشئت)، أي: مشيئتك ومشيئة الله على حدّ سواء، ومعلوم أن مشيئة الله أسبق، والمسلمون يقولون: ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فلا يكون في الوجود إلا ما شاءه، لو شاء الناس كلهم أمراً ولم يشأه الله لم

---

(١) سبق تخريجه.

يحصل ولم يقع حتى يشاءه الله.

والعباد لهم مشيئة واختيار، ولكنها مسبوقة بمشيئة الله، فلا تقع إلا بعد ما يقع مقتضى مشيئة الله، ولذلك قال تعالى: ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير:٢٨، ٢٩]، وكذلك قوله: ﴿فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (٢٩) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان:٢٩، ٣٠]، وكذلك قوله: ﴿فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ (٥٥) وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [المدثر:٥٥، ٥٦].

فمشيئة الله سابقة وغالبة ومتقدمة على مشيئة العبد، فالواجب في هذا أن تعطف مشيئة العبد على مشيئة الله بـ«ثم» التي تقتضي الترتيب والتعقيب، فتقول: أعطني ما شاء الله «ثم» شئت.

■ **قوله: [عن قُتَيْلَة: أن يهودياً أتى النبي ﷺ، فقال: إنكم تشركون، تقولون: ما شاء الله وشئت، وتقولون: والكعبة. فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: ورب الكعبة، وأن يقولوا: ما شاء الله ثم شئت**(١)**. رواه النسائي وصححه]:**

في هذا الحديث الذي ذكره المصنف رحمه الله، أن يهودياً أتى النبي ﷺ فقال له: إنكم تشركون بالله، تقولون: ما شاء الله وشئت، وتقولون: والكعبة، يعني: تشركون بالحلف بغير الله، فتحلفون بالكعبة وهي مخلوقة، وتشركون في المشيئة، فتجعلون مشيئة الله مساوية لمشيئة محمد، أي: تعطفونها بالواو.

فعند ذلك أمرهم النبي ﷺ: أن يتركوا ذلك الشرك، وهو قولهم: ما شاء الله

(١) أخرجه النسائي (٧/ ٦)، وأحمد في «المسند» (٦/ ٣٧١، ٣٧٢)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ٢٩٧)، والبيهقي في «السنن» (٣/ ١٢٤).
والحديث صححه الحاكم ووافقه الذهبي، قال ابن حجر في «الإصابة» (٤/ ٣٨٩): حديث صحيح، وصححه الألباني في «الصحيحة» رقم (١٣٦).
ولفظ النسائي: (إنكم تنددون وإنكم تُشركون..).

وشئت، وأن يقتصروا على قول: ما شاء الله وحده، أو: ما شاء الله ثم شئت، هذا بالنسبة للمشيئة.

أما بالنسبة للحلف، فيقولون: ورب الكعبة، فالله هو المحلوف به، فلا يُحلف بالكعبة التي هي مخلوقة من مخلوقات الله، ولو أضيفت إلى الله وجعلت بيته، كقوله تعالى: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ﴾ [البقرة:١٢٥]، وقوله تعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ [الحج:٢٦]، فهذه الإضافة إضافة تشريف، أما الحلف فهو تعظيم كتعظيم الله.

■ **قوله: [وله ـ أيضاً ـ عن ابن عباس: أن رجلاً قال للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئت، فقال: «أجلعتني لله نداً؟ بل ما شاء الله وحده»(١)]:**

وفي ر واية: «**أجلعتني والله نداً**»، أي: أجعلتني أنا والله ندين متساويين، فالله تعالى هو الذي له المشيئة وحده، وأنا لا مشيئة لي، أي: ليست لي مشيئة مستقلة، وليس لأحد من الخلق مشيئة مستقلة، بل مشيئتهم مرتبطة بمشيئة الله.

والنبي ﷺ خاف على أمته من أن تعطيه ما ليس من حقه حتى في المشيئة، فعندما قال له الرجل: ما شاء الله وشئت؛ لذا ردّ عليه النبي ﷺ وقال له: «**أجعلتني لله نداً؟ بل: ما شاء الله وحده**».

ويقال هذا في كل من غلى في حق الرسول ﷺ، وجعل له شيئاً من حق الله؛

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢١٤، ٢٢٤، ٣٤٧)، وابن ماجه رقم (٢١١٧)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٧٨٣)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٠/ ٣٤٦، ٣٤٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٩٩)، والبيهقي في «السنن» (٣/ ٢١٧).
ولفظ الإمام أحمد: «**أجعلتني والله عدلاً؟**».
قال أحمد شاكر في «تحقيق المسند» (١٨٣٩): إسناده صحيح، وحسنه الألباني في «الصحيحة» رقم (١٣٩)، وقال في صحيح الأدب المفرد (٦٠١): صحيح.

سواء في الأقوال، أو في الأفعال أو في الاعتقادات، فمن ادعى أنه ﷺ يعلم الغيب فإنه قد جعله لله نداً، ومن ادعى فيه أنه يملك الاقطاع من الجنة أو نحوه، أو أنه يعلم ما لم يطلعه الله عليه، أو نحو ذلك؛ فقد جعله والله نداً، وهكذا من صرف له شيئاً من الدعاء، أوحلف به، أو دعاه مع الله أو ما أشبه ذلك، فقد جعله والله نداً.

فالرسول ﷺ صفته العبودية مع الرسالة، فصفته التي وصفه الله بها هي أنه عبد الله، وهو وصف تشريف وفخر، فنقول له: عبد الله ورسوله، وهذا من كمال توحيده ﷺ لربه عز وجل أنه يحمي أمته من مثل هذا الشرك الذي قد لا يلاحظه الكثيرون ويقعون فيه.

■ قوله: [**ولابن ماجه: عن الطفيل ـ أخي عائشة لأمها ـ، قال: رأيت كأني أتيت على نفر من اليهود، قلت: إنكم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون: عزير ابن الله. قالوا: وإنكم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد. ثم مررت بنفر من النصارى، فقلت: إنكم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون: المسيح ابن الله. قالوا: وإنكم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد. فلما أصبحت، أخبرت بها من أخبرت. ثم أتيت النبي ﷺ فأخبرته، فقال: «هل أخبرت بها أحداً»، قلت: نعم. قال: فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعد: فإن طفيلاً رأى رؤيا أخبر بها من أخبر منكم، وإنكم قلتم كلمة كان يمنعني كذا وكذا أن أنهاكم عنها، فلا تقولوا: ما شاء الله وشاء محمد، ولكن قولوا: ما شاء الله وحده»**(١)]:

(١) أخرجه ابن ماجه رقم (٢١١٨)، وأحمد في «المسند» (٥/ ٧٢، ٣٩٣)، والدارمي برقم (٢٦٩٩)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٨/ ٦٥٤)، والطبراني في «الكبير» رقم (٨٢١٤)، وأبو يعلى في «مسنده» (٨/ ١١٨)، رقم: (٤٦٥٥).
قال البوصيري في «المصباح» (٢/ ١٥١)، هذا إسناد صحيح رجاله ثقات على شرط مسلم، وصححه الألباني في «الصحيحة»، لشواهده برقم (١٣٨).

في هذا الحديث دليل على نهيه ﷺ عن الكلمات التي توقع في الشرك من تعظيم المخلوق، أو إشراكه في شيء من خصائص الرب تعالى، ومن ذلك قول القائل: (ما شاء الله وشاء محمد)، أو: (ما شاء الله وشئت)، فإن هذا من الشرك بالأقوال.

وقد تقدم ذكر بعض الأدلة في أول الباب، وبيان أن الواجب أن يقال: ما شاء الله وحده، أو يقال: ما شاء الله ثم شئت، أو ما شاء الله ثم شاء محمد، ولا يجوز أن يقال: ما شاء الله وشئت، أو ما شاء الله وشاء محمد، فإن العطف بالواو يقتضي التسوية بين المشيئتين، ومعلوم أن المشيئة النافذة هي مشيئة الله وحده، وأن مشيئة العباد حتى ولو كانوا أنبياء لا تحصل إلا بعد مشيئة الله، لعموم قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠].

وقد كان الصحابة في أول الأمر، يقولون: (ما شاء الله وشئت)، أو: (ما شاء الله وشاء محمد)، وقد سمعهم النبي ﷺ، ولكن لم يتجرأ على نهيهم لعدم الوحي إليه بذلك، فحدث أن الطفيل أخا عائشة لأمها رأى رؤيا في المنام، فرأى كأنه مر على نفر من اليهود، فمدحهم، وقال: إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: عزير ابن الله، قالوا: وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد.

ومعنى: أنتم القوم، أي: أنتم الأفاضل، وأنتم المتقدمون، وأنتم الفائزون بقصب السبق، وأنتم الأتقياء الأبرار، وإنما يعيبكم يا معشر اليهود أنكم تجعلون لله ولداً، وهذا شرك بالله سبحانه.

فقالوا له: أنتم كذلك أفاضل وأتقياء وبررة، ولكن فيكم عيب، وهو أنكم تجعلون مشيئة محمد مثل مشيئة الله، وهذا كله في النوم.

ثم مرّ في المنام أيضاً على نفر من النصارى، ومدحهم قائلاً لهم: إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: المسيح ابن الله، قالوا: وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد.

فمدح النصارى بأنهم هم الأفاضل وهم الاتقياء ونحو ذلك، ولكن يعيبهم أنهم جعلوا المسيح ابن الله، وهذا بلاشك شرك يحبط الأعمال، حيث جعلوا لله ولداً، والله تعالى لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، وما اتخذ صاحبة ولا ولداً.

فردّ النصارى وقالوا: أيضاً أنتم أيها المسلمون أفاضل واتقياء وأبرار، ولكن فيكم عيب وهو أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد، وهو نفس العيب الذي قاله اليهود.

فلما أصبح الطفيل حدّث بها بعض أهله، وحدّث بهذه الرؤيا أيضاً بعض الناس، وجاء إلى النبي ﷺ وحدّثه بها، فسأله فأخبره: بأنه أخبر بها بعض الناس، فقام النبي ﷺ على رؤوس الأشهاد وخطب الناس، فحمد الله وأثنى عليه كما كان يبدأ خطبه.

ثم ذكر هذه الرؤيا، وقال: إن طفيلاً قد رأى رؤيا، أخبر بها من أخبر منكم، وإني والله لم أتجرأ أن أنهاكم إلا بعد الوحي، «**فلا تقولوا: ما شاء الله وشاء محمد**»، ولكن قولوا: «**ما شاء الله وحده**»، وفي رواية قال لهم: «**قولوا: ما شاء الله ثم شاء محمد**»؛ لأن «**ثم**» تقتضي الترتيب والتعقيب.

والحاصل أن مشيئة الرسول ﷺ حاصلة، ولكن بعد مشيئة الله تعالى، فمشيئة الله هي السابقة، فهو الفعال لما يريد، ولا يكون في الوجود إلا ما يريد، وقد دلّ على ذلك قول النبي ﷺ لابن عباس: «**واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن**

ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك»[1]، وهذا يعني: أن الله لو شاء شيئاً جعل له أسباباً وحرك له مشيئة هذا الإنسان ونحوه، وإذا لم يشأ الله فلا يحصل.

وفي الأذكار النبوية أنه ﷺ كان يقول: **«ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن»**، أي: ما شاءه الله وأراده إرادة كونية فإنه يحصل ويقع ولو لم يشأ الناس، وهكذا ما لم يشأه الله فإنه لا يحصل ولا يقع ولو شاءه الناس.

فالإنسان عليه أن يعتقد عموم مشيئة الله لما في الوجود، وأن كل ما في الوجود من حركات فإنها ما حصلت إلا بمشيئة الله، فتقول: لو شاء الله ما آمن فلان، ولو شاء الله ما حصل كذا، وتقول أيضاً: هذا لم يحصل إلا بإرادة الله، فما وُلد لفلان كذا من الولد إلا بإرادة الله ومشيئته، وما رزق فلان كذا إلا بمشيئة الله وإرادته.

وهكذا كل ما يحصل في هذا الكون هو بمشيئة الله وإرادته الكونية القدرية الأزلية، التي لا مبدل ولا مغير لها، وهو العزيز الحكيم، فإذا اعتقد العبد أن كل ما في الوجود حاصل بمشيئة الله فعليه أن يحتاط وأن يتحفظ في كلماته، فلا يجعل للإنسان مشيئة مستقلة، ولا يساويه بمشية الله، حفاظاً على جناب التوحيد، والله تعالى أعلم.

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٢٥١٦). وأحمد في المسند (١/ ٢٩٣)، وأورده النووي في الأربعين النووية برقم (١٩)، من حديث عبدالله بن عباس رضي الله عنهما.
قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وصححه أحمد شاكر في تحقيق المسند برقم (٢٦٦٩). وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٧٨٣٤)، وقال شعيب الأرناؤوط في تحقيقه على رياض الصالحين ص ٧٠: إسناده صحيح. وانظر السلسلة الصحيحة رقم (٢٣٨٢)، وكتاب السنة تحقيق الألباني ص: ٣١٦. ورياض الصالحين تحقيق الألباني رقم (٦٣)، ومسند الإمام أحمد تحقيق أحمد شاكر رقم(٢٦٦٩)، (٢٧٦٣)، (٢٨٠٤).

[٤٤]

باب:
من سب الدهر فقد آذى الله

وقول الله تعالى: ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ ﴾ [الجاثية: ٢٤].

في الصحيح: عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «قال الله تعالى: يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر، وأنا الدهر، أقلِّب الليل والنهار».

وفي رواية: «لا تسبوا الدهر، فإن الله هو الدهر».

■ ■ ■ ■ ■

• فيه مسائل:

الأولى: النهي عن سب الدهر.

الثانية: تسميته آذىً لله.

الثالثة: التأمل في قوله: «فإن الله هو الدهر».

الرابعة: أنه قد يكون سابّاً ولو لم يقصده بقلبه.

■ ■ ■ ■ ■

●● الشرح ●●

باب:
من سب الدهر فقد آذى الله

الدهر: هو الزمان، أي: الليل والنهار، وهو: الأيام، والليالي، والأسابيع، والأشهر، والسنوات، التي جعلها الله زماناً يقطع الناس فيه أعمارهم.

ولاشك أن الدهر مخلوق، فالأيام والليالي والأشهر والسنوات مخلوقة، وأن الله هو المتصرف فيها، فما يحدث في الأيام والليالي من الأمراض، ومن المصائب، ومن النكبات والعاهات ونحوها، كل ذلك بتصريف الله وتدبيره.

فلا يجوز سب الأيام والليالي، ولا أن يسند إليها المصائب، فلا يجوز أن يقال: واخيبة الدهر، أو أفناكم الدهر، أو أضرَّ بنا الدهر، أو أفنتهم الأيام، أو نحو ذلك، فإن نسبة التصرف إلى الأيام أو الليالي أو السنوات نسبة إلى غير المتصرف، والمتصرف هو الله تعالى الذي يصرف ويقلب الليل والنهار، ويقلب الزمان.

فتارة يكون الزمان سعيداً، وتارة يكون نحساً، وذلك بتقدير الله، وتارة تكون فيه النعم والخيرات، والعيش الرغيد، وتارة يكون فيه الضيق والضنك والمصائب ونحو ذلك، وتارة يكون على هؤلاء ضد ما على أولئك، والله هو المتصرف بالعباد.

فإذا سبوا الأيام والليالي، فالسب في الحقيقة يقع على المتصرف فيها؛ فكأنهم يسبون الله؛ ولهذا قال الله تعالى: «**يؤذيني ابن آدم؛ يسب الدهر**، وأنا

الدهر، أقلب الليل والنهار»(١).

■ قوله: [وقول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]]:

حكى الله تعالى عن المشركين أو عن الجاهليين: أنهم ينسبون الحركات وما في الأفلاك إلى الدهر، فقال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾، أي: الزمان والأيام هي التي تهلكنا وتقضي علينا.

فكأنهم جعلوا الأيام هي التي تتصرف في الكون، وهل الأيام إلا طلوع الشمس وغروبها؟ إظلام الليل وإسفار النهار؟ فهذه مخلوقة، ومدبرة، والله تعالى هو الذي يأتي بها.

يقول الله تعالى مخبراً عن إبراهيم أنه قال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ﴾ [البقرة:٢٥٨]، فالله هو الذي يأتي بها من المشرق، ويذهب بها إلى المغرب، ويأتي بالليل ويذهب به، ويأتي بالنهار ويذهب به، ويطيل هذا ويقصر هذا، كما في قوله تعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ [فاطر: ١٣]، وقوله تعالى: ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: ٥]، وقوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، أي: مذللات تسير بأمر الله وتحت تصرفه.

فليس لأحد فيها تصرف، وليس لها بأنفسها تصرف؛ بل هي مُتصرَّف فيها، فكيف ينسب إليها إحياء أو إماتة؟ وكيف ينسب إليها خير أو شر؟

فمن فعل ذلك فقد نقص توحيده، حيث إنه جعل مع الله من يتصرف بالكون، أو أضاف إلى خلق الله، أو إلى شيء مما في الوجود غير الله شيئاً من

(١) سيأتي تخريجه قريباً.

الإحياء، أو الإماتة، أو العطاء، أو المنع، أو النفع، أو الضر، أو غير ذلك من أنواع التصرف، فيكون قد نقص بذلك توحيده.

وقد يصلح أن يكون مراد المشركين هو كون الدهر هو المتصرف كليّاً، لهذا قالوا: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾، فأنكروا أن يكون لله شيءٌ من التصرف.

فالذي ينسب الحركات إلى الطبائع، وينكر أن يكون لله شيء من التصرف هذا جاهل، ولقد كان المشركون الأولون وربما أيضاً بعض المشركين المتأخرين من هذه الأمة من ينسب إلى الدهر شيئاً من التصرف، وأكثرهم يسب الدهر ويذمه إذا أصابته فيه مصائب، حتى يقول بعضهم:

يا دهر ويحك ما أبقيت لي أحداً

فأنت والد سوء تأكل الولدا

فهذا يخاطب الدهر، ولكن ما ذنبه إلا لأن فيه هذه المصائب، ونسي ما فيه من الخيرات طوال حياته.

فالحاصل أن الذين يسبون الدهر يقع سبهم على الله.

■ قوله: [**في الصحيح: عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «قال الله تعالى: يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر، وأنا الدهر، أقلب الليل والنهار»**(١)، وفي رواية: «**لا تسبوا الدهر، فإن الله هو الدهر**»(٢)]:

يقول الله تعالى في هذا الحديث القدسي: «**يؤذيني ابن آدم**»، والأذى هنا ليس معناه أن الله تعالى يتأذى التأذي الحقيقي، وإنما معناه: أنه يقع الشتم على

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٨٢٦)، ومسلم برقم (٢٢٤٦).

(٢) أخرجها مسلم رقم (٢٢٤٦) (٥).

الله، والسب على الله، وكأنه يعامله معاملة من يتأذى.

فقوله: «يؤذيني»، أي: يعاملني معاملة من يهدي الأذى، أو من يعمل الأذى، فيعتبر ذلك أذى لله.

والله تعالى قد حذر أو ذم المؤذين له بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ [الأحزاب:٥٧]، فكل من عصى الله أو سبه، أو سب شيئاً من تصرفه فقد آذى الله عز وجل.

فإذا عرف المسلم أن ما في الكون كله من تصرف الله وحده، وليس للمخلوقين فيه تصرف، أضاف الأمر إليه، فإذا أصابته سراء شكر، واعترف بأن فضلها لله، وإذا أصابته ضراء صبر، وعرف أنه من الله، ورضي بذلك واستسلم، كما في قول علقمة: «الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم»، وذلك لأنه يعترف أن الله لا يسلط على العباد شيئاً إلا لحكمة ولمصلحة، إما بسبب سيئات اقترفوها، أو بغير ذلك من المصالح.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]؛ فجعل مصائبنا التي تصيبنا من الله، ولكنها تأتي عقوبة على بعض السيئات، أو تكفيراً أو محواً لبعضها، فإذا آمن العبد بذلك أرجع ذلك لله، ولم يسب شيئاً من خلقه، والله أعلم.

■ ■ ■ ■ ■

[٤٥]

باب:
التسمي بقاضي القضاة ونحوه

في الصحيح: عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إن أخنع اسم عند الله رجل تسمى ملك الأملاك، لا مالك إلا الله».

قال سفيان: مثل شاهان شاه.

وفي رواية: «أغيظ رجل على الله يوم القيامة وأخبثه».

قوله: «أخنع»؛ يعني: أوضع.

■ ■ ■ ■ ■

• **فيه مسائل:**

الأولى: النهي عن التسمي بملك الأملاك.

الثانية: أن ما في معناه مثله، كما قال سفيان.

الثالثة: التفطن للتغليظ في هذا ونحوه، مع القطع بأن القلب لم يقصد معناه.

الرابعة: التفطن أن هذا لأجل الله سبحانه.

■ ■ ■ ■ ■

•• الشرح ••

باب:
التسمي بقاضي القضاة ونحوه

تَدَخَّلَ الشرع في كل ما يمس التوحيد، ويمس العقيدة، وأمر بما هو كمال للتوحيد، ونهىٰ عما فيه نقص للعقيدة والتوحيد حتىٰ في الأسماء.

والأسماء التي هي أعلام لمبادئ الإنسان حتىٰ يعرف بها تَدَخَّلَ الشرع فيها، وغيّر ونهىٰ عن أسماء، إما لقبحها، وإما لتعالي أصحابها؛ ومن ذلك هذا الباب (التسمي بقاضي القضاة ونحوه)، مثل حاكم الحكام، وسلطان السلاطين، وملك الملوك، وما أشبهها.

وذلك لأن هذا في الحقيقة إنما ينطبق علىٰ الله، فالله تعالىٰ هو ملك الملوك، وملك الأملاك، وهو قاضي القضاة الذي يقضي بين عباده، وهو الحاكم بين عباده، وعباده كلهم محكومون، وهو الحاكم بينهم.

فلا يجوز أن يسمىٰ أحدهم، ولا حتىٰ رئيسهم بملك الملوك، فلو قدر مثلاً أن في هذه الدولة ملكاً، وبالعراق ملكاً، وفي خراسان ملكاً، وفي الشام ملكاً، وفي مصر ملكاً، وفي اليمن ملكاً، ثم ترأس عليهم جميعهم واحد مثلاً، فلا يجوز أن يسمىٰ ذلك ملك الملوك، ولكن يقال: هذا ملك، وهذا ملك، وهذا قد تملك عليهم جميعاً.

ولا يجوز أن يقال له: حاكم الحكام، ولا يجوز أن يقال له: سلطان السلاطين، ولو أن كلاً منهم يسمىٰ سلطان بلاده، وهذا رئيس عليهم يصدق

عليه أن يقال له: ملك، ولكن لا يقال: ملك الملوك، ويصدق عليه أن يقال: حاكم وسلطان، ولا يقال: سلطان السلاطين، وحاكم الحكام؛ وذلك لأن فيه مزاحمة لأسماء الرب وصفاته؛ ولأن فيه نوع رفع لهذا المخلوق، كأن هذا المخلوق رفع نفسه، وأعطى نفسه ما لا يستحقه من التصرف العام في هذه الممالك وفي هذه البقاع بأكملها.

مع أن تصرف الملوك محدود، لأن ملكهم مؤقت، ولأنه مخصصٌ، فمن أجل ذلك لا يجوز التسمي بهذا.

■ قوله: [**في الصحيح: عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إن أخنع اسم عند الله رجل تسمى ملك الأملاك، لا مالك إلا الله»**(١).

قال سفيان: مثل شاهان شاه.

وفي رواية: «أغيظ رجل على الله يوم القيامة وأخبثه»(٢).

قوله: «أخنع»؛ يعني: أوضع]:

في هذا الحديث يقول النبي ﷺ: «**إن أخنع اسم عند الله رجل تسمى ملك الأملاك**»، يعني: أوضعه، أي: جعله وضيعاً، بمعنى: أنه حقير، أي: أحقر اسم، و أذله، وأهونه، وأخبثه عند الله، والمعنى: أن هذا الشخص الذي يسمي نفسه ملك الملوك، أو ملك الأملاك فإنه حقير ووضيع عند الله.

وقوله: «**تسمى**» سواء تسمى هو، أو سُمي بذلك، فإذا سماه الناس بذلك ورضي فإنه يدخل في هذا الوصف الذي جاء في الحديث، فيكون حقيراً

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٢٠٥، ٦٢٠٦)، ومسلم برقم (٢١٤٣).
(٢) أخرجها مسلم رقم (٢١٤٣)، (٢١).

ووضيعاً عند الله تعالىٰ، ولو كان في أعين الناس رفيعاً، ولو كان معظماً ومبجلاً عند الناس، ولكن ذلك لا يزيده إلا ذلة وقلة عند الله، فهو رفيع عند الناس ونفسه، ووضيع عند الله تعالىٰ في دنياه وآخرته؛ لأنه زاحم الرب تعالىٰ بأخص صفاته.

فتكون هذه المزاحمة فيها رفع الإنسان إلىٰ مرتبة لا يستحقها إلا الخالق وحده، وتكون منقصة للتوحيد ومنافيه لكماله.

ثم لا فرق بين أن يكون ذلك باللغة العربية، أو بغيرها من اللغات التي تؤدي إلىٰ هذا المعنىٰ، ففي لغة الفرس مثلاً يسمون ملك الملوك بلغتهم شاهنشاه، وهذه كلمة ممنوعة لا يجوز أن يسمىٰ بها، ولو أصبحت مستعملة عند بعض الناس، فإن معناها بلغة العرب: ملك الملوك، فالذي تسمىٰ شاهنشاه يكون قد رفع نفسه، وقد أعطاها ما لا تستحقه، وهو أخص وصف لله، وهو التصرف في ملوك الدنيا، فيستحق بذلك الإهانة، أي: أنه ولا بد سوف يهينه الله إذا تسمىٰ بذلك، إما عاجلاً في الدنيا، وإما آجلاً في الآخرة، بأن يظهر ذله، وحقارته أمام الناس، لأنه رفع نفسه وزاحم الرب تعالىٰ في صفاته وخواص أفعاله.

وقد اختلف العلماء في: قاضي القضاة، وأكثر العلماء نهىٰ عنه، قالوا: لا يجوز أن يسمي (قاضي القضاة)، وذلك لأن فيه رفعاً لقدر هذا القاضي، ولو أن هناك قضاة هو الذي يقضي بينهم إذا قام بينهم خصومة أو نحو ذلك.

كالذي في بلادنا هذه قد يكون فيها من القضاة ما يبلغ الألوف، فلو عين قاضي مختص بمسائل القضاة، بحيث لا يتقاضىٰ إليه إلا قضاة قد وقع بينهم خصومة، فهذا الرئيس لا يسمىٰ: بقاضي القضاة، ولو أنه مختص بالقضاء بين

القضاء، ولكن يسمىٰ بغير هذا مثل رئيس القضاة، أو قاض مختص للقضاة، أو القاضي الذي يفصل بين القضاة، ونحو ذلك.

ومن العلماء من يقول: إنه لا يلحق قاضي القضاة بملك الملوك، وذلك لأن القاضي مجاله خاص، وإنما يقضي في مسائل النزاع، بخلاف الملوك فإن مجال الملك أوسع، لأن الملوك يتصرفون بممالكهم في سائر أنواع التصرف من الإعطاء، والمنع، والعزل، والتولية، والغزو، والفتح، وما أشبه ذلك، بخلاف القضاء، فإن القاضي محدود العمل.

من أجل ذلك قالوا: إن القاضي يجوز تسميته: بقاضي القضاة إذا كان مجال عمله مخصصاً، ولكن الصواب - إن شاء الله -: أنه لا يجوز، وأنه يمتنع حتىٰ لو كان هذا الرئيس خاصاً بمسائل ومشاكل القضاة لما قد يحصل بسبب هذه التسمية من المحظورات مثل: إعجابه بنفسه، ورفعه لقدرها، واعتقاده أنه صار رفيعاً عند الناس، وأن قضاة البلاد بشرقها وغربها يتحاكمون إليه، ويرجعون إلىٰ قوله ليفصل بينهم مع اتساع البلاد، وكثرة المحكومين، فيزدري الناس، ويحتقرهم، ويتكبر عليهم، فيؤدي ذلك إلىٰ الشموخ بنفسه ورفعه إلىٰ ما لا يستحقه؛ فيكون في ذلك مزاحماً للرب تعالىٰ بأخص صفاته، وهي كمال التصرف، وكمال الملك، وكمال الكبرياء، والله تعالىٰ يقول في الحديث القدسي: «**العظمة إزاري، والكبرياء ردائي، فمن نازعني فيهما عذبته**»[1].

ولا شك أن تلقيب الإنسان بالألقاب التي فيها تفخيم لشأنه، ورفع لمكانته، وإعزاز له، وفيها أيضاً مزاحمة لصفات الله تعالىٰ الخاصة به، كل ذلك قد يكسب الإنسان ترفعاً علىٰ الناس واحتقاراً لعامهم وخاصهم، وإذا ترفع الإنسان علىٰ

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٦٢٠)، عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما.

الناس فقد يؤدي ذلك إلى أنه يملك التصرف في أشياء خاصة لا يملكها إلا الله تعالى.

ومتى اعتقد أنه يتصرف بشيء من خواص ملك الله تعالى نقص بذلك توحيده، ونقصت عقيدته، وازداد زهوه في نفسه، وترفعه على الله، وتكبره وتجبره؛ فيكون بذلك داخلاً في المتكبرين.

ولا شك أن التكبر؛ سواء كان في الأقوال أو الأفعال محرم، وأن مآل المتكبرين إلى العذاب، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [النحل: ٢٩]، فنسأل الله أن يرزقنا حسن العمل، والتواضع لعظمة الله وهيبته، إنه على كل شيء قدير.

■ ■ ■ ■ ■

[٤٦]

باب:
احترام أسماء الله تعالى وتغيير الاسم لأجل ذلك

عن أبي شريح: أنه كان يكنى، أبا الحكم، فقال له النبي ﷺ: «إن الله هو الحَكَم، وإليه الحُكم»، فقال: إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني فحكمت بينهم، فرضي كلا الفريقين. فقال: «ما أحسن هذا. فما لك من الولد؟» قلت: شريح، ومسلم، وعبد الله. قال: «فمن أكبرهم؟» قلت: شريح. قال: «فأنت أبو شريح»، رواه أبو داود وغيره.

■ ■ ■ ■ ■

• فيه مسائل:

الأولى: احترام أسماء الله وصفاته، ولو لم يقصد معناه.

الثانية: تغيير الاسم لأجل ذلك.

الثالثة: اختيار أكبر الأبناء للكنية.

■ ■ ■ ■ ■

●● الشرح ●●

باب:
احترام أسماء الله تعالى وتغيير الاسم لأجل ذلك

قصد المؤلف من هذا الباب أن أسماء الرب تعالىٰ تختص به، ألفاظها ومعانيها، فلا يسمىٰ بها عموماً أحد من البشر، ولو كان ذلك المسمىٰ قد ينطبق عليه بعض معاني تلك الأسماء من حيث الظاهر؛ لأن تسمية المخلوق بشيء من أسماء الله تعالىٰ يوهم أن ذلك الشخص يستحق أن يوصف بما هو من خصائص الرب تعالىٰ، فلا يسمىٰ الإنسان باسم من أسماء الله تعالىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، أي: لا أحد يستحق أن يسمىٰ باسمه.

فمن أسماء الله تعالىٰ الحكم والحكيم وهو الذي يضع الأشياء مواضعها اللائقة بها، فينزه الرب أن يشاركه أحد في أسمائه وخصائصه، فإنه سبحانه لا شريك له، ولا سمي له، ولا ند له، ولا يقاس بخلقه، ولا يلحق به المخلوق، فيلزم تغيير الأسماء التي فيها مزاحمة الرب تعالىٰ في خصائصه؛ حماية للتوحيد، وبعداً عن رفع المخلوق إلىٰ الاتصاف بصفة الخالق.

■ **قوله: [عن أبي شريح: أنه كان يكنى أبا الحكم. فقال له النبي ﷺ: «إن الله هو الحَكَم، وإليه الحُكم»، فقال: إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني فحكمت بينهم، فرضي كلا الفريقين. فقال: «ما أحسن هذا. فما لك من الولد؟» قلت: شريح، ومسلم، وعبد الله. قال: «فمن أكبرهم؟» قلت: شريح. قال: «فأنت أبو شريح»[(١)]، رواه أبو داود وغيره]:**

في هذا الحديث غير النبي ﷺ كنية أبي شريح احتراماً لأسماء الله تعالىٰ، لما

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (٤٩٥٥)، والنسائي (٨/ ٢٢٦، ٢٢٧)رقم (٥٤٠٢)، والبخاري في =

قال: «إن الله هو الحكم»، فلا يتسمىٰ بأبي الحكم، لأن الله هو الحكم، والله هو الذي يحكم في الأمور، ومن أسمائه العزيز والحكيم.

وهو الذي يضع الأشياء في مواضعها اللائقة بها، وإليه الحكم، فهو الذي يحكم بين عباده فيما اختلفوا فيه، وهو الذي إليه مرجع الأشياء والحكم فيها.

فمن أجل ذلك اختص بالأسماء التي تناسب هذا المعنىٰ، فمن أسماء الله تعالىٰ الحكيم.

وقوله: «وإليه الحكم»، أي: مرجع الأشياء إليه، والحكم بين العباد إليه.

فلا يجوز التسمي بأبي الحكم، أو بالحكم، أو الحكيم أو نحو ذلك؛ لأن في ذلك مزاحمة لله تعالىٰ في الأسماء الخاصة به؛ ولأن فيه شيئاً من تزكية النفس، ومدحها بشيء من خصائص الله، فالذي يتسمىٰ بالأسماء الخاصة بالله كأنه زاحم الله في صفاته، وفيما هو من صفاته.

من أجل ذلك غير النبي ﷺ كنيته، وكنّاه بأكبر أولاده، مع أنه اعتذر عن هذه التسمية، وقال: أنا لم أسم نفسي، إنما سماني قومي؛ لأنهم يتحاكمون إلي، أي: إذا اختلفوا في شيء جاءوني فحكمتُ بينهم، فرضي كلا الفريقين بحكمي، واستسلموا لي، فأنا أفصل بينهم عندما يتنازعون، وعندما يختلفون في قضية أو في دعوىٰ.

= «التاريخ» (٨/ ٢٢٧، ٢٢٨)، وفي «الأدب المفرد» (٨١١)، والبيهقي (٣/ ٤٦٦) رقم (٥٩٤٠)، وابن حبان في «الصحيح» (٢/ ٢٥٧)، الطبراني في «الكبير» (٢٢/ ١٧٩) رقم (٤٦٤) عن هاني بن يزيد.

والحديث صححه الألباني في صحيح أبي داود وصحيح النسائي، وفي صحيح الأدب المفرد رقم (٦٢٣)، وفي السلسلة الصحيحة رقم (١٩٣٩)، وفي الإرواء رقم (٢٦١٥)، وقال شعيب الأرناؤوط في تحقيق صحيح ابن حبان: إسناده جيد.

وأقره النبي ﷺ على هذا، وقال: «**ما أحسن هذا**»، أي: ما أحسن صلحك بينهم، لأن هذا من باب الصلح وفك النزاع والخصومات بين بني قومه.

فيجب على الذي يعرف الحق أن يسلمه لصاحبه، فهذا من باب الصلح، ومن باب الإصلاح الذي مدحه الله، في قوله تعالى: ﴿**لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ**﴾ [النساء: ١١٤].

وقد حث النبي ﷺ على الصلح بين الناس، حتى أنه أباح في ذلك الكذب، فلم يرخص في شيء من الكذب إلا في الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديث الزوجين[١]، فجعل ذلك مسبباً لإجازة ما كان منهياً عنه، وذلك لأن الإصلاح يترتب عليه مصالح كثيرة، من فك النزاع والخصومات، ورجوع الأخوة بين الناس.

لكن مع ذلك كله، و مع كونه يصلح بين الناس، ويرضون بصلحه، أو بحكمه، ليس له أن يتسمى بأبي الحكم، ولا يتكنى به، إنما الأولى أن يتكنى بأكبر أولاده.

لذلك سأله النبي ﷺ عن أولاده؟ فأخبر: بأن له من الأولاد، أي: الذكور ثلاثة، فسأله عن أكبرهم؟ فأخبره: بأن أكبرهم شريح، فقال: «**أنت أبو شريح**».

وفي هذا أن الكنُية تكون بالابن أو بالبنت، وقد تكنى كثيرٌ من الصحابة بأبنائهم، أو ببناتهم، وكذلك أيضاً يختار الأكبر؛ لأنه الأقدم والأولى.

---

(١) لحديث أم كلثوم في الصحيحين مرفوعاً: «**ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس؛ فينمي خيراً أو يقول خيراً**»، وزاد مسلم في رواية: «قالت أم كلثوم: ولم أسمعه يرخص في شيء مما يقول الناس إلا في ثلاث: تعني: الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل لامرأته، وحديث المرأة زوجها»، صحيح مسلم رقم (٢٦٠٥).

وكذلك أقره النبي ﷺ على الإصلاح بين الناس، ولم يجعل ذلك مسوغاً لتكنيه بهذه الكنية، ولكن كناه بغير ما كان يكنى به من أبي الحكم، وصار بعد ذلك يكنى بأبي شريح.

وفي هذا تغيير أسماء الناس التي هي أعلام؛ سواءً كانت أسماء أو كنى إذا كان فيها مزاحمة لأسماء الله تعالى، أو لشيء من صفاته، وذلك احتراماً لأسماء الله، والله أعلم.

■ ■ ■ ■ ■

[٤٧]

باب:
من هزل بشيء فيه ذكر الله
أو القرآن أو الرسول

وقول الله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [التوبة: ٦٥].

عن ابن عمر، ومحمد بن كعب، وزيد بن أسلم، وقتادة ـ دخل حديث بعضهم في بعض ـ: أنه قال رجل في غزوة تبوك: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطوناً، ولا أكذب ألسُناً، ولا أجبن عند اللقاء، يعني: رسول الله ﷺ وأصحابه القراء.

فقال له عوف بن مالك: كذبت، ولكنك منافق؛ لأخبرن رسول الله ﷺ.

فذهب عوف إلى رسول الله ﷺ ليخبره، فوجد القرآن قد سبقه، فجاء ذلك الرجل إلى رسول الله ﷺ، وقد ارتحل وركب ناقته، فقال: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونتحدث حديث الركب، نقطع به عنا الطريق.

قال ابن عمر: كأني أنظر إليه متعلقاً بنِسْعَة ناقة رسول الله ﷺ، وإن الحجارة تنكب رجليه، وهو يقول: إنما كنا نخوض ونلعب، فيقول له رسول الله ﷺ: ﴿ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ (٦٥) لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾. ما يلتفت إليه، وما يزيده عليه.

■ ■ ■ ■ ■

• فيه مسائل:

الأولى: وهي العظيمة أن من هزل بهذا فإنه كافر.

الثانية: أن هذا تفسير الآية فيمن فعل ذلك كائناً من كان.

الثالثة: الفرق بين النميمة وبين النصيحة لله ولرسوله.

الرابعة: الفرق بين العفو الذي يحبه الله، وبين الغلظة على أعداء الله.

الخمسة: أن من الاعتذار ما لا ينبغي أن يقبل.

■ ■ ■ ■ ■

الشرح

باب:
من هزل بشيء فيه ذكر الله
أو القرآن أو الرسول

الـهَزْلُ: الاستهزاء والتهكم والتنقص بالأمر على وجه الإنكار، أو على وجه التنقص والسخرية، أو البحث عن عيب فيه أو نحو ذلك، ومن فعل ذلك في حق الله، كأن استهزأ بالله، أو بآياته، أو بشرعه، أو برسله؛ فاستهزأ برسول من الرسل، أو استهزأ بشيء من سننهم، أو من أفعالهم، أو من شرائعهم، أو استهزأ بالكتب السماوية، أو ببعضها، أو استهزأ بشيء مما اشتملت عليه، أو ما أشبه ذلك؛ فإنه قد كفر بمقتضى هذه الآية وهذه القصة التي سيأتي الكلام عليها.

وفي القرآن آيات كثيرة تبين أن هذا الاستهزاء من سُنن وعادات أعداء الإسلام، وأعداء الرُسل، وأعداء أتباع الرسل.

فهم دائماً وأبداً يسخرون ويستهزئون بأتباع الرسل، وينتقصونهم، ويبحثون عن كل عيب فيهم، ويصفونهم ويعيبونهم بما هم أولى به، فكفروا من أجل ذلك، ولقبوا بالألقاب السيئة، وكذلك استحقوا العذاب الوبيل.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين: ٢٩]؛ فهؤلاء قد ضحكوا منهم من أجل عباداتهم، فإذا رأوا المصلي يصلي ضحكوا واستهزؤوا بصلاته، ومن انعكافه ومن انحنائه راكعاً وساجداً، ومن إحرامه وطول مقامه.

وكذلك - أيضاً - يستهزئون من وضوئه، ومن تطهره، ومن جلوسه في انتظار

الصلاة، ويسخرون كذلك من استعماله السواك.

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ [المطففين: ٣٠]، أي: يشير بعضهم إلىٰ بعض بالعين، أو باليد، أو بالأصبع ونحوه، أن انظروا إلىٰ هذا الضعيف، وهذا المسكين، وهذا المتخلف، وهذا المتزمت، وهذا المتعصب، هذا وهذا، فيرمونه بأحداقهم، ويشيرون إليه بأعينهم ويضحكون منه.

ثم قال: ﴿وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾ [المطففين: ٣١]، أي: إذا خرج الكفار من مجالسهم وعادوا إلىٰ أهلهم، انقلبوا فكهين، أي: رجعوا معجبين باستهزائهم بالمؤمنين ومتلذذين بالطعن فيهم.

ثم قال: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين: ٣٤]؛ فجزاء فعلهم في الدنيا أن يضحك منهم المؤمنون في الآخرة، فكان الجزاء من جنس العمل.

وكان من عادة الكفار وعادة الفساق أنهم يسخرون من أولياء الله، والله تعالىٰ سوف يذكرهم بذلك، ويقول لهم وهم في النار، بعد قولهم: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾، يقول الله: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾، اخسئوا في هذه النار، ولا تكلمون، ثم يذكرهم فيقول: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي﴾، وهم المؤمنون، ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١٠٩) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا﴾، أي: سخرتم منهم: ﴿وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾.

ثم قال: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا﴾ علىٰ ضحككم وعلىٰ استهزائكم، وجزاء مضيهم في طريقهم، وصبرهم علىٰ ما هم فيه من السخرية والبلاء ﴿أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٧، ١١١].

وذكر الله ـ أيضاً ـ أنهم يتذكرون ذلك، وهم في النار، كما في قوله تعالىٰ عنهم: ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ (٦٢) أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ

زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ﴾ [ص: ٦٢، ٦٣]؛ فأين أولئك الذين كنا نسخر منهم في الدنيا؟ وأين أولئك الذين نعدُّهم أشقياء؟ ونعدُّهم مبعدين؟ما رأيناهم معنا في العذاب.

فالحاصل كان جزاؤهم ـ أي: الكفار والفساق ـ أن يعذبوا جزاء الاستهزاء الذي فعلوه بعباد الله الصالحين في الدنيا.

وبكل حال فإن أهل الكفر، والنفاق، وأهل الشقاق، وأهل المعاصي، من سيماهم أنهم يسخرون من أهل الإيمان، ومن أهل التمسك، وسخريتهم هذه ليست خاصة بالمؤمنين، بل لأنهم استهزؤوا بالله سبحانه وبأوامره ونواهيه، بل ربما استهزؤوا أيضاً بأسماء الله وصفاته، وأنكروا آياته في مخلوقاته؛ فكانوا بذلك كفاراً؛ كما في هذه الآيات ونحوها.

قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [البقرة: ٢١٢]، أي: أنهم زينت لهم الدنيا، وزين لهم متاعها، وركنوا إليها، واطمأنوا بها، وَجَعَلُوا مع هذا الركون للدنيا والغفلة عن الآخرة أنهم يسخرون من الذين آمنوا في الدينا، فكان ذلك سبباً في عذابهم يوم القيامة.

ثم يذكرهم الله أن الذين أمنوا فوقهم يوم القيامة، ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [البقرة: ٢١٢]، فكان جزاء المؤمنين لما سخر منهم الكفار أنهم يرفعون يوم القيامة عليهم.

وبهذا يتبين لنا أن السخرية بالله، وبآيات الله، وبشيء من شرعه ودينه موقعة في الكفرة.

■ **قوله: [وقول الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾** [التوبة: ٦٥]]:

وهذا من عادة المنافقين أنهم يسخرون من المؤمنين، وهكذا كل من رأيته أو

سمعته يسخر أو يستهزئ بشيء من صفات المؤمنين فاتهمه بأنه منافق، حتى ولو كان استهزاؤه عن طريق الإشارة والغمز واللمز ونحو ذلك.

ومن أمثلة ذلك من إذا مر بهم الذي يأمر بالخير أو يدعو إليه تغامزوا بأعينهم، أو أخرجوا ألسنتهم على وجه التنقص له، أو أشاروا بأيديهم إلى أنه ضعيف الحال، أو أنه قد فاته الركب كما يقولون، أو نحن أهل السبق، وأهل القدم وأهل المعرفة، أو نحن أعرف منه، وهو وهو... إلخ، فهذا - أيضاً - استهزاءٌ بالله وبآياته.

وقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ [التوبة: ٦٥]، أي: يعتذرون عن استهزائهم بقولهم: إنما كنا نخوض ونلعب، والله تعالى هو المطلع على ما في قلوبهم: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٧]، والحساب عند الله على ما في القلب لا على ما يقال بالألسن فحسب.

ثم قال: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ (٦٥) لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦]. فهذا تصريح في أن كلماتهم هذه وقعوا بها في الكفر، وبيان أنهم قد كانوا مؤمنين، ثم كفروا، فكأنهم كفروا بهذا الاستهزاء: ﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾، وهذا دليل على أنه كان هناك إيمان، ولكن لما تكلموا بهذه الكلمة وقعوا فيما يرد هذا الإيمان وهو الكفر.

فالكفر هو إنكار شيء من أوامر الله تعالى إنكاراً صريحاً أو إنكاراً خفياً، فإذا كان القلب منكراً له ظهر ذلك في الإشارات والدلالات الظاهرة، ومن ذلك تلك الاستهزاءات والسخريات، فهي دليل على الإنكار وعلى الجحود والكفران.

فالذي يؤمن بالله تعالى، ويعرف أنه يراقبه، لا يمكن أن يستهزئ به ولا بأسمائه ولا بصفاته، وكذلك الذي يؤمن ويصدق بأن الرسل من الله، مبعوثون

منه، وأنهم لم يأتوا إلا بشرعه؛ لا يمكن أن يستهزئ بهم، ولا يمكن أن يتنقص شيئاً مما جاءوا به؛ بل كيف يستهزئ بهم وهو يعرف ويوقن ويؤمن بأنهم صادقون مصدقون، وأن ما جاءوا به حق من عند الله وشرعه؟

وهكذا أيضاً الذي يؤمن بجميع ما شرع الله عز وجل من صلاة ووضوء وصيام وغيره؛ لا يمكن أن يستهزئ بشيء من هذه الأمور التي شرعها الله تعالىٰ.

كيف يستهزئ بالصلاة أو بالمصلين أو بركوعهم وسجودهم من يؤمن ويوقن بقلبه أن هذه الصلاة فريضة الله، وأنها شعيرة من شعائر الإسلام، بل هي ركن من أركانه؟! وكيف يستهزئ ويسخر بالوضوء مثلاً، أو بالطهارة، أو بشيء من خواص الصلاة من يوقن ويتحقق أنها عبادة الله التي فرضها وألزم بها عباده؟!

وهكذا كيف يستهزيء بمن يترك المحرمات أو ينهىٰ عنها، أو يفعل السنن والواجبات ويحافظ عليها؟!

لا شك أن من آمن بجميع ما شرع الله لا يمكن أن يستهزيء ويسخر بها.

هذا ويجب علىٰ المسلم أن يكون حذراً أن لا يقع في شيء من هذا وهو لا يشعر، فإذا عرف الإنسان أنه قد يصير كافراً بموجب كلمة يقولها، وقد لا يلقي لها بالاً، وقد لا يظن أن تبلغ ما بلغت، وجب عليه الحذر، فقد ورد في الحديث: «**إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله، لا يلقي لها بالاً، أو قال: لا يظن أن تبلغ ما بلغت، يهوي بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب**»(١).

فعلىٰ المسلم أن يتنبه لذلك، فإذا سمع من يتكلم بذلك يبين له أن هذه الكلمة خطر كبير، وأنها دليل علىٰ أن في قلبه شيئاً من الضغينة والبغض لله ولشرعه، ودليل علىٰ نفاق أو علىٰ بغض للخير دلالة ظاهرة، ولو كان بخلاف ذلك ما

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٤٧٧، ٦٤٧٨)، ومسلم برقم (٢٩٨٨)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

استطال في هذا الكلام.

ويذكِّره بأن الكلمة الواحدة قد يقع بها في الكفر، وأنها دليل عليه، وأنها قد تكون سبباً لعذابه، فإذا تذكر ذلك ربما يرتدع؛ سيما إذا أقنعته بتذكيره بما هو يدين به إذا كان يدين بالإسلام، ويفتخر بأنه من المسلمين.

والحاصل: أن هذا الموضوع خطير، ويجب على المسلم أن يكون حذراً في نفسه، ومحذراً لغيره من الوقوع في هذا الشر وهذا النفاق وهو لا يشعر.

■ **قوله: [عن ابن عمر، ومحمد بن كعب، وزيد بن أسلم، وقتادة ـ دخل حديث بعضهم في بعض ـ أنه قال رجل في غزوة تبوك: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطوناً، ولا أكذب ألسُناً، ولا أجبن عند اللقاء، يعني: رسول الله ﷺ، وأصحابه القراء. فقال له عوف بن مالك: كذبت، ولكنك منافق؛لأخبرن رسول الله ﷺ. فذهب عوف إلى رسول الله ﷺ ليخبره، فوجد القرآن قد سبقه، فجاء ذلك الرجل إلى رسول الله ﷺ، وقد ارتحل وركب ناقته، فقال: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونتحدث حديث الركب، نقطع به عنا الطريق، قال ابن عمر: كأني أنظر إليه متعلقاً بنِسْعَة ناقة رسول الله ﷺ، وإن الحجارة تنكب رجليه، وهو يقول: إنما كنا نخوض ونلعب، فيقول له رسول الله ﷺ: ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾. ما يلتفت إليه، وما يزيده عليه[1]]:**

هذه القصة عبارة عن واقعة وقعت من منافقين كانوا يتَّسِمُونَ بسمة الإيمان،

---

(١) أورد هذه القصة ابن كثير في تفسيره (٢/ ٣٦٧)، وابن جرير الطبري في التفسير رقم (١٦٩١١، ١٦٩١٢، ١٦٩١٤، ١٦٩١٥، ١٦٩١٦)، وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردوية كما في «الدر المنثور» (٤/ ٢٣٠).
وحسن إسناده الشيخ مقبل الوادعي كما في «الصحيح المسند» من أسباب النزول ص١٢٢، ١٢٣، وقال أخرجه الطبري من طريقه (١٠/ ١٧٢)، وله شاهد بسند حسن عند ابن أبي حاتم(٤/ ٦٤)، من حديث كعب بن مالك.

ويخرجون مع المؤمنين في جهادهم وغزوهم، ويقاتلون معهم، ولكن ليس قتالاً مخلصاً؛ بل إرجافاً وتثبيطاً، كما في قوله تعالىٰ: ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦٠].

وهذه عادة ضعفاء الإيمان أنهم يرجفون بأهل الإيمان، ويقولون مثلاً كما في زماننا هذا: ما أنتم يا مسلمون؟ أنتم الضعفاء، وأنتم المهزومون، والأعداء قد أحاطوا بكم من كل جانب، والأعداء معهم القوة ومعهم السلطة، وبأيديهم الذخائر ويملكون الطائرات والقاذفات والدبابات ونحوها، وأنتم لا تملكون شيئاً، وأنتم مجردون من كل شيء، فإذا تعرضتم لهم اختطفوكم، واقتطعوكم، وقتلوكم، واستباحوكم، والأولىٰ لكم أن تثبتوا في بيوتكم، وألا تجاهدوا، وألا تقاتلوا، وألا تفعلوا كذا وكذا؛ وهذا نوع من الإرجاف.

وقد ذكر الله أيضاً نوعاً من ذلك، بقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ۝٤٦ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ [التوبة: ٤٦، ٤٧]، أي: ما زادوا المؤمنين إلا تخذيلاً، يخذلون المؤمنون إذا كانوا معهم، ويعظمون الأعداء في أنفسهم، ويقولون لنا: أنتم القليل وهم الكثير، وعدتهم أقوىٰ من عدتكم، وأسلحتهم أقوىٰ من أسلحتكم، وهم أكثر منكم، وهم أقوىٰ، وهم أشد بأساً، وهكذا، فهذا نوع من التخذيل.

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾، أي: لأسرعوا المشي بينكم بالنميمة والبغضاء والفتنة، وتخللوكم بهذا الإيضاع الذي هو نوع من الإرجاف والتثبيط والتخذيل عن القتال.

فإذا كانوا كذلك فإن هذه سمة النفاق، وعلامة علىٰ بغضهم للحق، وعلىٰ أن إيمانهم ليس بصادق، وإنما هو دعوىٰ ادعوها، وإلا فالمؤمنون الصادقون يثبتون

على ذلك.

ومن علامة النفاق أيضاً أن أهله يستهزئون بالمؤمنين، فهم يرتدون ويكفرون بذلك الاستهزاء وذلك التنقص، وقد ذكرنا أن المنافقين كثيراً ما يتقلبون، فهم يؤمنون ثم يكفرون، ويؤمنون ثم يكفرون، واقرأ قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا﴾ [النساء: ١٣٧].

فإذا رأوا الإسلام انتصر وقوي آمنوا، ودخل الإيمان في قلوبهم، ولكن إذا ابتلوا ببلية أو بمصيبة تخاذلوا ورجعوا وكفروا، وأنكروا بقلوبهم، كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ﴾، أي: نصر أو فتح أو غلبة، ﴿قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤١].

فيقولون للمؤمنين: ألم نكن معكم؟ أي: ظاهراً، ويقولون للكفار: ألم نستحوذ عليكم؟ أي: كنا ننصركم، ونحول بينكم وبينهم، ونمنعكم من المؤمنين، فهذا من كثرة التقلب.

وذكرهم الله تعالى في وصف آخر، بقوله: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾ [النساء: ١٤٣].

ولما كان هذا هو الوصف الذي استقروا عليه ظهر ذلك منهم أحياناً، فظهر النفاق منهم في غزوة أحد، كما حكى الله عنهم قولهم: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٧]، وقولهم: ﴿لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٦].

وظهر ذلك النفاق منهم أيضاً في غزوة الخندق، وقد ذكر الله ذلك بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ

ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً﴾، إلىٰ قوله: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً﴾ [الأحزاب: ١٠، ١٢]، إلىٰ آخر الآيات.

وهكذا ـ أيضاً ـ نجم النفاق في غزوة تبوك التي هي غزوة العسرة، وهي غزوة في آخر حياة النبي ﷺ، في سنة تسع، لما غزا الشام قاصداً الروم، وكان ذلك بعد أن دخل العربُ في الإسلام، وتوسعت دائرة ورقعة الإسلام، وتمكن الإسلام من أهل الجزيرة، فما بقي إلا أن النبي ﷺ يغزو البلاد الكافرة التي لم تدخل الإسلام.

فغزا الروم، وخرج معه في جيشه بعض من المنافقين، الذين لم يتمكن الإيمان من قلوبهم، وتخلف آخرون أيضاً من المنافقين، وهم الذين حلفوا له عليه الصلاة والسلام لما رجع في قوله تعالىٰ: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ [التوبة: ٩٥].

والذين خرجوا معه أيضاً وقع منهم وقائع، فوقع أن طائفة منهم هموا بقتل النبي ﷺ، فتواعدوا أن يقفوا في رأس عقبة، وقالوا: إذا رقت به ناقته في رأس هذه العقبة نفَّرناها لعلها أن تلقيه، ثم إذا سقط من هذه العقبة الطويلة تردىٰ فمات فاسترحنا منه، هذا همّ لهم، قال الله تعالىٰ: ﴿وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ [التوبة: ٧٤]، ولما فعلوا هذه الفعلة ثبته الله، وأطلعه علىٰ أناس منهم، وأسر بهم إلىٰ حذيفة بن اليمان، وأخبره ببعض منهم.

وهذه الواقعة التي ذكرها المصنف رحمه الله وقعت منهم، وهي أنهم استهزءوا بالصحابة، وبمن مع الرسول عليه الصلاة والسلام؛ حيث قالوا هذه المقالة الشنيعة، قالوا: «**ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطوناً، ولا أكذب ألسناً، ولا أجبن عند اللقاء**»، يعنون النبي ﷺ، ومن معه من الصحابة، وقد كذبوا في ذلك

كله.

* ومعنى: «**أنهم أرغب بطوناً**»: أي: ليس لهم همّ إلا الأكل في بطونهم، مع أن هذا خلاف الواقع؛ فإنهم لا يهتمون بشأن أنفسهم، إنما يأكلون العلقة من الطعام، وكثير منهم يبقىٰ يوماً أو يومين لا يأكل الطعام؛، حتىٰ أنهم لقوة إيماناهم ليصبرون الشهر والشهرين لا يوقد في بيوتهم نار، إنما هما الأسودان: التمر والماء، مع أن الله تعالىٰ فتح عليهم وأعطاهم، ولكن ذلك لم يكن قصدهم، إنما قصد الرسول والصحابة إظهار الإسلام، وليس قصدهم التمتع بالشهوات والملذات.

* **وأما قولهم**: «**ولا أكذب ألسناً**»: نقول: بل إنهم أصدق الناس لهجة، وأبعد الناس عن سمات الكذب والنفاق، وأن هذه الصفة تليق بالمنافقين الذين شهد الله بكذبهم في قوله تعالىٰ: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١].

والكذب جعله النبي ﷺ من علامات المنافقين، بقوله: «**آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان**»(١)، فأبرز صفاتهم الكذب في الحديث، وكذلك الكذب في المعاملات.

وليس الكذب من سمات الصحابة، ولا من سمات وصفات أتباعهم والسائرين علىٰ نهجهم.

* **وأما قولهم**: «**ولا أجبن عند اللقاء**»: فنقول ـ أيضاً ـ: هذا من الكذب والزور، والجبن: هو الضعف والخور عند القتال، وضده الجرأة والشجاعة، ولاشك أن الصحابة رضي الله عنهم من أشجع الناس، وهم أقوىٰ الناس قلوباً، وهم أصبر عند اللقاء، ومن أجل ذلك صبروا حتىٰ قتل كثير منهم في المعارك،

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٦٨٢)، ومسلم برقم (٥٨، ٥٩)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

كما قال تعالىٰ: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

فصبروا وفدوا نبيهم ﷺ بأنفسهم، وهو أيضاً لم يكن جباناً، ولم يكن ضعيفاً، ولا خواراً؛ بل كان ـ أيضاً ـ شجاعاً وجريئاً ويتعرض لحومات القتال، ويدخل بنفسه في المعارك، ويصبر صبراً ثابتاً مشهوراً، كما صبر في غزوة حنين.

ففي غزوة حنين لما انصرف الكثير ثبت، وسار نحو العدو وهو راكب علىٰ بَغْلِهِ يسير حتىٰ أنزل الله تعالىٰ نصره عليهم، وهو مع هذا ينادي بأعلىٰ صوته بقوله: «**أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب**»[1]، وذلك دليل علىٰ أنه عليه الصلاة والسلام بعيد عن صفات الجبن، والضعف والخور، وإنما الجبن من صفات المنافقين الذين رموا المؤمنين بالجبن والهلع.

ولا شك أن الذي حملهم علىٰ هذه المقالة هو ما أضمروه في قلوبهم من النفاق والكفر والطعن في المسلمين.

والحاصل أن هؤلاء المنافقين وقع منهم هذا القول في هذه الغزوة في جلسة من الجلسات، وهم يعتقدون أن أحداً لا يراهم، ولا يطلع عليهم، وكان بينهم رجل من أجلاء الصحابة، وهو عوف بن مالك، فلما تكلموا بهذه الكلمة، وسمعها منهم أعلن كذبهم، وقال لهذا القائل: (كذبت ولكنك منافق) فأنت أولىٰ بها، وتعهد أن يخبر النبي ﷺ بما قالوا.

ولما ذهب عوف ليخبر الرسول ﷺ بكلامهم وجد القرآن قد سبقه، وقد أنزل الله عليه هذه الآيات: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٨٦٤)، ومسلم برقم (١٧٧٦)، عن أبي عمارة رضي الله عنه.

وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ (٦٥) لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦].

ولما علموا أن الخبر قد بلغ النبي ﷺ جاءوا معتذرين، وجاء ذلك القائل متنصلاً متبرئاً يرجو أن يقبل عذره، ولكن الله تعالىٰ عالم بما في ضمائرهم، ولم يقبل عذرهم، فقال: ﴿لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً﴾ [التوبة: ٦٦]؛ فمنهم من أناب وتاب فتاب الله عليه، ومنهم من بقي علىٰ ضلاله وكفره إلىٰ أن أتته منيته.

فهذا المنافق جاء إلىٰ النبي ﷺ ليعتذر، وكان النبي ﷺ قد ركب ناقته، وقد ارتحل، وسار من معه، فجاء ذلك المنافق، وتعلق بنسعة ناقة النبي ﷺ، وهي الوقاية التي يجعل عليها رجليه إذا مدهما علىٰ الرحل، فتعلق بها هذا المنافق، وجعل يكلم الرسول ﷺ رافعاً رأسه، وجعلت الحجارة تنكب رجليه، أي: تصيبهما، وذلك لأنه رافع بصره ولا ينظر في طريقه، وجعل يقول: إننا في حديثنا هذا إنما نتكلم بكلام لا نريد معناه، وإنما نتحدث أحاديث الركب، نقطع بها عنا الطريق.

كأنه يقول: قلنا هذا الكلام عن غير عقيدة، إنما قلناه علىٰ وجه المزاح، وعلىٰ وجه التسلية، نتسلىٰ بمثل هذه الكلمات، وهذه المُضحكات، حتىٰ لا نشعر بكلفة، ولا بمشقة السير، ولا بطول الطريق، ولا الجهد الذي أضنىٰ بنا، وكان هذا عذره.

ولكن لما علم الله تعالىٰ أنهم ليسوا صادقين لم يقبل عذرهم، بل قال: ﴿لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾، فأخذ النبي ﷺ يردد هذه الآية: ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾.

فظهر أنهم يستهزئون بالله، أي: بأحكامه وبشرعه وبأمره ونهيه،

ويستهزئون بآياته، أي: بما جعله آيات ودلالات على وحدانيته، وعلى كمال قدرته، ويتسهزؤون ـ أيضاً ـ برسوله الذي أرسله رحمة للعالمين، فكانوا بذلك كفاراً، ولو كان منهم من قال هذه المقالة مازحاً غير جاد، ولكن لم يعذرهم الله.

ففي هذه القصة ومثيلاتها خطر كبير على الذين يطلقون ألسنتهم ويتكلمون بكلمات يزعمون أنهم قالوها على وجه المزاح، فيتكلمون بكلمات في أهل الخير، وفي أهل الدين والصلاح، يعيبونهم ويسمونهم بأوصاف وبمسميات، ويقولون: هؤلاء المصلون أو هؤلاء الدعاة والملتزمون الذين شغلوا أوقاتهم، وشغلوا أنفسهم وأتعبوها بهذه العبادات، ماذا استفادوا؟ وماذا أفادتهم طهارتهم؟ ماذا نفعهم تسوكهم، أو قراءتهم وترتيلهم؟ ماذا استفادوا من كذا وكذا؟ فمثل هذا أيضاً يعتبر نفاقاً وردة.

فبهذا يتبين أن الإنسان قد يخرج من الإسلام بكلمة يقولها، ويتلفظ بها، ولو كان مازحاً، وقد لا يعذر بها؛ بل توقعه في النفاق، فعلى المسلم أن يحذر ويحفظ لسانه، وعليه أن ينتبه لمثل هذه الكلمات التي تصدر كثيراً من الجهلة، وهي في الحقيقة دليل على ضعف الإيمان، وعلى أنهم لم يكونوا متحققين به، وذائقين لحلاوة الإيمان وطعمه، ولو كانوا كذلك لعرفوا أن أهل الخير وأهل الديانة والصلاح هم الذين على هدىً وحق، وهم الذين يستوجبون أن يمدحوا، لا أن تُصَبَّ عليهم الكلمات البشعة، ويتنقص ويستهزأ بشيء من عباداتهم وخصائصهم، فإذا عرف المؤمن ذلك أخذ حذره، نسأل الله أن يرزقنا الحفظ والحماية، والله أعلم.

■ ■ ■ ■ ■

[٤٨]

باب:

ما جاء في قول الله تعالى:

﴿ولَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾

قول الله تعالى: ﴿ولَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [فصلت: ٥٠].

قال مجاهد: هذا بعملي، وأنا محقوق به. وقال ابن عباس: يريد من عندي.

وقوله: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص: ٧٨].

قال قتادة: على علم مني بوجوه المكاسب. وقال آخرون: على علم من الله أني له أهل. وهذا معنى قول مجاهد: أوتيته على شرف.

وعن أبي هريرة، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن ثلاثة من بني إسرائيل: أبرص، وأقرع، وأعمى. فأراد الله أن يبتليهم، فبعث إليهم ملكاً:

فأتى الأبرص، فقال: أي شيء أحبُّ إليك؟ قال: لون حسن، وجلد حسن، ويذهب عني الذي قد قذرني الناس به. قال: فمسحه، فذهب عنه قذره، فأعطي لوناً حسناً وجلداً حسناً، قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: الإبل أو البقر ـ شك إسحاق ـ، فأعطي ناقة عُشَراء، فقال: بارك الله لك فيها.

قال: فأتى الأقرع، فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: شعر حسن، ويذهب عني الذي قد قذرني الناس به، فمسحه، فذهب عنه، وأعطي شعراً حسناً. قال: أي المال أحب إليك؟ قال: البقر أو الإبل، فأعطي بقرة حاملاً، فقال بارك الله لك فيها.

فأتى الأعمى، فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: أن يرد الله علي بصري، فأبصر به الناس، فمسحه، فرد الله إليه بصره، قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: الغنم. فأعطي شاة والداً.

فأُنْتجَ هذان، وولّد هذا. فكان لهذا وادٍ من الإبل، ولهذا وادٍ من البقر، ولهذا وادٍ من الغنم.

قال: ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته، فقال: رجل مسكين وابن سبيل، قد انقطعت بي الحبال في سفري هذا، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن، والجلد الحسن، والمال بعيراً أتبلغ به في سفري، فقال: الحقوق كثيرة!، فقال له: كأني أعرفك! ألم تكن أبرص يقذرك الناس، فقيراً فأعطاك الله المال؟ فقال: إنما ورثت هذا المال كابراً عن كابر، قال: إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت.

قال: وأتى الأقرع في صورته وهيئته، فقال له مثل ما قال لهذا، ورد عليه مثل ما رد عليه هذا، فقال: إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت.

قال: فأتى الأعمى في صورته وهيئته، فقال: رجل مسكين وابن سبيل، قد انقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك. أسألك بالذي رد عليك بصرك شاة أتبلغ بها في سفري، فقال: قد كنت أعمى فرد الله عليَّ بصري، فخذ ما شئت، ودع ما شئت، فوالله لا أجهدك اليوم بشيء أخذته لله، فقال: أمسك مالك، فإنما ابتليتم، فقد رضي الله عنك، وسخط على صاحبيك». أخرجاه.

■ ■ ■ ■ ■

● فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآية.

الثانية: ما معنى: ﴿لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾.

الثالثة: ما معنى قوله: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾.

الرابعة: ما في هذه القصة العجيبة من العبر العظيمة.

■ ■ ■ ■ ■

•• الشرح ••

باب:
ما جاء في قول الله تعالى:
﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾

من واجب المسلم الاعتراف بنعم الله، ونسبتها إليه، والبراءة من الحول والقوة، والاعتراف بأن ما به من نعمة فمن الله، وإذا لم يكن كذلك فإنه ليس شاكراً للنعمة، ولا مؤدياً لحقها.

وهو ما قصد به هذا الباب، فهذا الباب معقود لبيان وجوب الإقرار والاعتراف بالنعم التي تصيب الإنسان، ونسبتها إلى الله، وعدم نسبتها إلى الأسباب، أو إلى القوة، أو إلى القدرة، أو إلى الشرف، ونحو ذلك، فإذا فعل ذلك نقص توحيده.

■ **قوله: [قول الله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [فصلت: ٥٠]، قال مجاهد: هذا بعملي، وأنا محقوق به. وقال ابن عباس: يريد من عندي]:**

هذه الآية مثل الآيات التي في سورة هود، وهي قوله تعالى: **﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ⑨ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾** [هود: ٩، ١٠]، فإذا أصابه ضراء، ثم زالت تلك الضراء، وأعطاه الله صحة وقوة وغنى وخيراً؛ اعتقد أن ذلك دليل على شرفه، وقال: **﴿ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾**، فهذا دليل على كرامتي عند الله.

وهذه الآية أيضاً مثل قول الله تعالىٰ في سورة الزمر: ﴿فَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ [الزمر: ٤٩]، فإذا أصيب ذلك الإنسان بالمرض، أو الفقر، تذكر حاجته إلىٰ ربه عز وجل، وأخذ يتضرع ويدعو ربه، ولكنه متىٰ زالت تلك الضراء، ومتىٰ تبدلت أحواله، وجاءه خير وعافية؛ نسي ما كان يدعو إليه من قبل، وجعل لله أنداداً، واعتبر ذلك دليلاً علىٰ شرفه، وقال: إنما أوتيته علىٰ علم، أي: ما أوتيت هذا المال إلا علىٰ علم من الله أني أستحقه.

ففي هذه الآيات وعيد لمن كفر نعمة الله، ونسي حاجته إلىٰ ربه، وذلك أن الكثير من الناس في حالة الضراء والفقر والمرض والشدة يتضرعون إلىٰ الله، ويدعونه، وينيبون إليه، ويعترفون بحاجتهم إلىٰ الله، وأنه الذي يشكف السوء، ويزيل البأساء، ثم متىٰ أذاقه الله تعالىٰ رحمة منه بعد الضر الذي مسه، أنكر فضل الله عليه، وقال: هذا لي، وقال: ﴿مَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ [فصلت: ٥٠]، ومعناه ما فسره به مجاهد، أي: أنا أستحق هذا العطاء وهذه الرحمة لصلاح عملي، فلي علىٰ الله حق، وهذا فرض حق له علىٰ ربه، وليس علىٰ الله حق لأحد، وفيه إنكاره لقيام الساعة، ومن كذب بالبعث كفر.

ثم قال: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾[فصلت: ٥٠]، وهذا تخرص وظن كاذب، فكيف تكون له عند الله الحسنىٰ مع شكِّه في قيام الساعة.

ثم أخبر تعالىٰ بأنه سوف ينبئهم بما عملوا، وأنهم قد كفروا بمثل هذه المقالة التي من ضمنها الشك في قيام الساعة، وأنه سوف يذيقهم العذاب الغليظ أي: الشيد الأليم.

فمعنىٰ قوله: ﴿هَذَا لِي﴾ [فصلت: ٥٠]، أي: هذه الرحمة بسبب عملي

استحقها، أو من عندي، كما قاله ابن عباس، مع أن رحمة الله أوسع من الأعمال، فمن أدلىٰ بعمله وأنكر فضل الله عليه فقد زكىٰ نفسه، واعترض علىٰ تصرف الله تعالىٰ، وذلك مما ينافي كمال التوحيد، والله أعلم.

■ **قوله: [وقوله: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾** [القصص:٧٨]، **قال قتادة: على علم مني بوجوه المكاسب. وقال آخرون: على علم من الله أني له أهل. وهذا معنى قول مجاهد: أوتيته على شرف]:**

هذه الآية نزلت في قارون، فإن قارون لما أتاه الله مالاً كثيراً انخدع بذلك، واعتبر ذلك دليلاً علىٰ فضيلته، وعلىٰ رفعة منزلته، فقال تعالىٰ: **﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾** [القصص:٧٨]، أي: ما أعطيت هذا المال، إلا لأن الله علم أني أهل له، وأني استحقه، فأنا كريم علىٰ الله، وأنا شريف علىٰ الله، وأنا لي قدر عند الله؛ فمن أجل ذلك أعطاني، ووسع لي، وفتح لي، ويسر لي، ونحو ذلك، هذا قول.

وهناك من يقول: إن معناه أوتيته علىٰ علم مني بوجوه المكاسب، فأنا عارف وأنا عالم كيف أدبر الأموال؟ وكيف أصرفها؟ وكيف تنمىٰ؟ فأعرف السلعة التي فيها ربح، وأعرف كيف أكتسب وكيف أشتري، فنتيجة لمعرفتي وحنكتي وقوتي، وإدراكي؛ حصلت علىٰ هذه الأرباح، وجمعت هذه الأموال، فلم يعترف لله بفضل، ولم يعترف بأن الله هو الذي رزقه، وهو الذي أعطاه، ونسي أن الله هو الذي يسر له وقواه، فكان لذلك منكراً لنعمة الله عليه.

فإذا قال: **﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾**، أي: علىٰ شرف وعلىٰ فضيلة، أي: أني فاضل، وشريف، وكريم علىٰ الله، فقد مدح نفسه، وقد اعتبر نفسه مستحقاً لهذا المال،

واعتبر المال دليلاً علىٰ الشرف؛ وليس كذلك؛ فإن المال ليس دليلاً علىٰ الفضل، فليس كل من وسع له في دنياه يكون فاضلاً أو سعيداً، ونحو ذلك.

فسواء أراد القائل بقوله: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾، أي: أنه أهل لهذا المال، أو لهذه النعمة، أو: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾، بمعنىٰ: علىٰ شرف وفضيلة، وأنه يستحق ذلك بسبب منزلته الرفيعة عند الله، أو أن المراد علىٰ معرفة بطرق الكسب، وما أشبه ذلك، كل ذلك منقص للتوحيد، أومثبت لعدم الاعتراف بنعمة الله؛ وذلك لأن الإنسان عليه أن يعترف دائماً وأبداً بفضل الله عليه، فإذا اعترف بذلك زاده الله خيراً، لقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧]، ولو مع ما مُتع به في الدنيا، فإنه يلقىٰ العذاب الشديد في الآخرة.

فلا يغتر الإنسان بأهل الدنيا، فإن ذلك ليس دليلاً علىٰ شرفهم، ولا علىٰ كرامتهم، ولا علىٰ رفعة منزلتهم، فقد يغتر بعض الناس بهذا كثيراً، فإذا رأوا إنساناً مثلاً قد وسعت عليه دنياه، وقد ضحكت له الدنيا، وأقبلت عليه بزخرفها، وفتح عليه باب المشتهيات والملذات وتنعم في الحياة الدنيا، فإذا رأوه انخدعوا، وقالوا: هذا سعيد، وهذا مكتوب من السعداء، وهذا له حظ، وحظه طيب، وهذا له حظوة عند الله، فما أعطاه ولا فتح عليه إلا لأن له منزلة عند الله.

لذلك قال الله تعالىٰ لافتاً النظر إلىٰ ذلك: ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾، أي: لم نعطه ما أعطيناه لفضلة، بل هي فتنة، ولو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقىٰ كافراً منها شربة ماء، كما جاء في الحديث(١).

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٢٤٣٦)، عن سهل بن سعد رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» رقم (١٨٨٩).

فليس فتحها علىٰ من فتحت عليه من أجل الشرف، وإنما من أجل الابتلاء، فهو ابتلاء وامتحان، فيرىٰ أيعترفون بها لله، ويستعملونها لرضاه، أم يبسطون ويفرحون ويمرحون ويأشرون ويبطرون؟ أم يستعملونها في معاصيه، وفيما يبعدهم عنه وعن رضاه؟ فيكون ذلك ابتلاءً وامتحاناً، هذا معنىٰ قوله: ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ .

فيجب علىٰ المسلم إذا فتح الله عليه ما فتح من الدنيا أن يكون متبرئاً من الحول والقوة، ويقول: أنا ليس لي سبب إلا ما يسر الله، فالله هو الذي قواني، وهو الذي فهمني، وعلمني وأعطاني، وكذلك يقول: أنا لا أستحق هذا، وإنما هو ابتلاء ابتلاني الله بما فتح علي ليظهر ما أفعله، وينبغي أن يكون خائفاً وجلاً من هذا الابتلاء، وكذلك يكون حريصاً علىٰ الاستعانة بها علىٰ طاعة الله، ولا تكون شاغلة له عما يقربه إلىٰ الله.

هذا هو حال المسلم مع النعم مع دوام الشكر، وبذلك يكون قد نجح في اختبار الله له، وابتلائه إياه.

أما قارون فإنه لما لم يعترف بذلك، وادعىٰ أن ذلك دليل علىٰ شرفه أو دليل علىٰ حركته ومعرفته للمكاسب ووجوهها؛ عوقب بأن خسف به وبداره الأرض، وقال الله: ﴿أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ [القصص: ٧٨].

أي: قد أهلك الله قبله من هو أقوىٰ منه وأكثر مالاً، ومن قد جمع مالاً أكثر من ماله؛ ومع ذلك ما رده عن إهلاكهم لما أتوا بأسباب الهلاك.

■ قوله: [وعن أبي هريرة، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن ثلاثة من بني إسرائيل: أبرص، وأقرع، وأعمى. فأراد الله أن يبتليهم، فبعث إليهم ملكاً:

فأتى الأبرص، فقال: أي شيء أحبُّ إليك؟ قال: لون حسن، وجلد حسن، ويذهب عني الذي قد قذرني الناس به. قال: فمسحه، فذهب عنه قذره، فأعطي لوناً حسناً وجلداً حسناً، قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: الإبل أو البقر ـ شك إسحاق ـ، فأعطي ناقة عُشرَاء، فقال: بارك الله لك فيها.

قال: فأتى الأقرع، فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: شعر حسن، ويذهب عني الذي قد قذرني الناس به، فمسحه، فذهب عنه، وأعطي شعراً حسناً. قال: أي المال أحب إليك؟ قال: البقر أو الإبل، فأعطي بقرة حاملاً، فقال بارك الله لك فيها.

فأتى الأعمى، فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: أن يرد الله علي بصري، فأبصر به الناس، فمسحه، فرد الله إليه بصره، قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: الغنم. فأعطي شاة والداً.

فأُنْتِجَ هذان، وولَّد هذا، فكان لهذا وادٍ من الإبل، ولهذا وادٍ من البقر، ولهذا وادٍ من الغنم.

قال: ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته، فقال: رجل مسكين وابن سبيل، قد انقطعت بي الحبال في سفري هذا، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن، والجلد الحسن، والمال بعيراً أتبلغ به في سفري، فقال: الحقوق كثيرة!، فقال له: كأني أعرفك! ألم تكن أبرص يقذرك الناس، فقيراً فأعطاك الله المال؟ فقال: إنما ورثت هذا المال كابراً عن كابر، قال: إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت.

قال: وأتى الأقرع في صورته وهيئته، فقال له مثل ما قال لهذا، ورد عليه مثل ما رد عليه هذا، فقال: إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت.

قال: فأتى الأعمى في صورته وهيئته، فقال: رجل مسكين وابن سبيل، قد انقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك. أسألك بالذي رد عليك بصرك شاة أتبلغ بها في سفري، فقال: قد كنت أعمى فرد الله عليَّ بصري، فخذ ما شئت، ودع ما شئت، فوالله لا أجهدك اليوم بشيء أخذته لله، فقال: أمسك مالك، فإنما ابتليتم، فقد رضي الله عنك، وسخط على صاحبيك»[1]. أخرجاه]:

هذا الحديث عبارة عن قصة وقعت في بني إسرائيل، ذكرها النبي ﷺ لأمته ليعتبروا بها، وليعرفوا نعم الله عليهم، وليعترفوا بها، وليحذروا من إنكار النعم ونسبتها إلىٰ غير المنعم بها.

وأول هؤلاء النفر الثلاثة: هو الأبرص: الذي قد ابتلي بالبرص؛ وكان جلده كله أبرص، فيه البقع البيضاء التي توجد في كثير من الناس المصابين بهذا المرض، والبرص معروف، وفيه ينبت الشعر أبيض، بدل ما كان أسود، حتىٰ ولو كان شاباً يكون شعره أبيض، ويبقىٰ علىٰ هذه الحال، وليس له علاج، وقد ذكر الله أن عيسىٰ عليه السلام كان يبرئ الأكمه والأبرص.

والثاني: هو الأقرع: الذي أصاب رأسه ذلك القرع، وهو عبارة عن مرض وقروح ووسخ يكون في الرأس يتمزق منه الشعر، وعلاجه صعب.

والثالث: هو الأعمى: الذي ذهب بصره، ومن الصعوبة ـ أيضاً ـ رد بصره.

* وقد ابتلىٰ الله تعالىٰ هؤلاء الثلاثة بالنعم ليظهر من يشكر ومن يكفر، فأرسل إليهم ملكاً، فجاء إلىٰ الأبرص، وذكر له ما يريد وما يتمنىٰ، وما هو أحب شيء إليه، فذكر أن أحب شيء إليه العافية من ذلك المرض الذي قذره

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٣٤٦٤)، كتاب «أحاديث الأنبياء»، ومسلم رقم (٢٩٦٤)، كتاب «الزهد والرقاق».

الناس به، وقد كان الناس قد قذروه، وكانوا يهربون وينفرون منه ولا يقربه أحد، فتمنى أن يشفى من ذلك البرص، وأن يعطيه الله شعراً حسناً، وجلداً حسناً، ولوناً حسناً، فمسحه ذلك الملك، فأعطي جلداً حسناً، وشعراً حسناً، ولوناً حسناً، وأصبح معافىً قد زال عنه ذلك القذر، ثم قال له الملك: وأي المال أحب إليك؟ فتمنى الإبل، فأعطي ناقة عشراء، أي: حاملاً، ودعا له بالبركة فيها.

* **وهكذا جاء إلى الأقرع**، فسأله: ماذا تحب؟ فذكر أنه يحب العافية، وزوال القذر، وحصول الشعر الحسن بدل ذلك الشعر المتقطع، فمسحه الملك فزال عنه قذره، ونبت لرأسه شعر حسن كأحسن ما يكون، وسأله: ماذا يتمنى من المال؟ فذكر أنه يتمنى البقر، فأعطاه بقرة حاملاً، ودعا له بالبركة فيها.

* **وجاء إلى الأعمى**، وسأله: ماذا يحب؟ فتمنى رد بصره، فسمحه فأبصر، فعاد بصيراً كما كان ليس بعينيه داء، فسأله: ماذا يحب من المال؟ فتمنى الغنم، فأعطي شاة والداً، معها ولدها، ودعا له بالبركة فيها.

فأصبح لهذا وادٍ، أي: شيء كثير من الإبل، ولهذا وادٍ من الغنم، ولهذا وادٍ من البقر.

والتعبير بكلمة (الوادي) إما لأنه يسيل كسيلان الوادي، أو كالسيل لكثرته، أو ما يملأ الوادي لكثرته.

وبعد أن مضت مدة ظهر منهم الأشر والبطر، وعدم الاعتراف بالنعم، وعدم أداء الحقوق، بل منع حقوق المال، عند ذلك أرسل الله إليهم ذلك الملك أو غيره.

فجاء إلى الأبرص في صورة أبرص، أي: في صورته وهيئته قبل أن يعطى

المال، وتلطف إليه، وذكر أنه: رجل مسكين يستحق الصدقة لمسكنته وحاجته وفاقته، وأنه ابن سبيل مسافر من بلاد بعيدة، وأنه قد انقطعت به الأسباب التي يتوصل بها إلىٰ مُراده، وليس له قوة ولا حيلة إلا بالله تعالىٰ ثم بك أيها الرجل الذي قد أعطاك الله هذا المال.

فعند ذلك أنكر، قال: الحقوق كثيرة، إذا أعطيتك جاءني الثاني وأعطيته، وجاءني الآخر وأعطيته، فيذهب مالي كله، فنسي نعمة الله، ونسي فضله عليه، فلم يرحم ذلك المسكين الذي ظهر له كسائل، وهو مُبْتَلٍ له مختبر، فلم يرحمه، ولم يعطف عليه، ومنع وتعلل بأن الحقوق كثيرة.

عند ذلك ذكَّره، وقال له: ألست كنت أبرص؟ ألست كنت ينفر منك الناس؟ ألست كنت فقيراً وأعطاك الله وعافاك؟ أما تذكر نعمة الله؟ ولكنه مع ذلك كله لم يتذكر، بل أنكر، ونسب فضل الله إلىٰ قوته، وقال إنما ورثت هذا المال، كابراً عن كابر، أي: ورثته عن آبائي وآبائي عن أجدادي وأجدادي عن آبائهم كابراً عن كابر، فتسلسل إلي من أب بعد أب، فأنكر أن يكون من الله ونسبه إلىٰ الوراثة.

وذلك هو الكفران بالنعم، والعياذ بالله، عند ذلك دعا عليه، ولا شك أن دعوته استجيبت، فقال: إن كنت كاذباً فصيرك الله إلىٰ ما كنت، أي: ردك إلىٰ فقرك، وإلىٰ برصك، وأذهب ما أعطاك من المال، وأذهب عنك بركته، حيث لم تشكره، ولم تعترف له بفضله، ولم تؤد حقوق هذا المال.

وهكذا جاء إلى الأقرع الذي عنده ذلك البقر، ولكنه أيضاً لم يفهم، ولم يتذكر، بل قال: مثل ما قال الأول، ونسب النعمة إلىٰ نفسه، وادعىٰ أنه ورث هذا المال كابراً عن كابر، وأنكر أنه كان أقرع، وأنه كان فقيراً، وأنه كان مستقذراً

عند الناس.

وأما الأعمى فلما أتاه وذكَّره نعمة الله عليه، وذكّره أن الله رد عليه بصره، وذكّره أن الله أعطاه هذا المال، فتذكر، واعترف بأنه كان ضرير البصر، وبأنه كان فقيراً، وأن الله وحده هو الذي رد عليه بصره؛ فأبصر الناس، وبأن الله تعالىٰ وحده هو الذي أعطاه هذا المال، وهو الذي بارك فيه ونماه.

ولما تذكر نعمة الله عليه، واعترف بها، خوله في ماله، وقال: سمحت لك بأن تأخذ ما تريد فخذ من المال ما تشاء.

فأخبره بأن ذلك كان ابتلاء واختباراً، فحيث اعترفت بنعمة الله تعالىٰ، ولم تنكر، فإنك قد حظيت برضوان الله تعالىٰ، وقد رضي الله عنك، وسخط علىٰ صاحبيك اللذين كفرا نعمة الله.

فعلىٰ العبد أن يعرف مقدار نعمة الله عليه، وعليه أن يعرف أن ما به من نعمة فمن الله، لأن الكثير من الناس لا يذكرون الله إلا عند الضراء وينسونه عند السرّاء وعند الخيرات والصحة والعافية، وينسون ما كانوا فيه من الفقر والفاقة والمرض. فإذا ألمت بهم الملمات والمصائب عند ذلك رجعوا إلىٰ الله وتذكروا ودعوا الله.

أما ما داموا في رغد العيش والصحة والعافية فإنهم يتمادون في غيهم وينسون حق الله تعالىٰ عليهم، وما هكذا يكون المؤمن الذي يعرف حق الله في كل أحواله، في السرّاء والضرّاء. ففي السرّاء يكون شاكراً لنعم الله، وفي الضرّاء يكون صابراً محتسباً.

والواجب على المسلم تجاه نعم الله ما يلي:

أولاً: عليه أن يعرف أن ما هو فيه من خير فمن الله، أي: أن الله هو الذي أعطاه وامتن عليه بهذا الخير، يقول تعالىٰ: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا

مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ [النحل: ٥٣]، أي: تنادونه وتدعونه.

وثانياً: عليه أن يستعمل هذه النعم في ما يقربه إلى الله؛ سواء كانت نعم بدنية أو مالية، ويبتغي بها رضا الله تعالى، ويستعين بها على طاعته.

وثالثاً: عليه أن يتذكر حاله من الفقر والفاقة والمرض ونحو ذلك قبل أن تحصل له هذه النعم، فيتذكر يوم كان فقيراً فأغناه الله، ويتذكر يوم كان مريضاً فشفاه الله، فلا ينسى إخوانه الفقراء أو المرضى فيعطف عليهم ويساعدهم ويحمد الله على الغنى والصحة، ويعرف أن الذي أفقرهم قادر أن يفقره ويسلبه المال الذي أعطاه، ويعرف أن الذي شفاه وأعطاه الصحة قادر على أن يمرضه ثانية.

والحاصل أن من عرف نعم الله وأعطاها حقها وتذكر إخوانه وعطف عليهم كان من الذين يشكرون نعمة الله، ولا شك أن شكر النعم سبب لبقائها وزيادتها كما قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

وعلى كل حال عرفنا بذلك مقدار نعمة الله على العباد، وأن من نسب نعمة الله إلى الحول أو القوة أو الذكاء أو الفطنة ونحو ذلك من الأسباب، ونسي نسبتها إلى مسببها وهو الله تعالى مسبب الأسباب؛ فإن ذلك يكون سبباً في سلبها، وتكون هذه عقوبة عاجلة له في الدنيا.

وإذا مُتِّع بهذه النعم التي لم يشكرها، ولم يعترف بحقها، ولم يقم لله بما يجب عليه فيها، فإنه سوف يحاسب عليها في الآخرة حساباً شديداً قد يعاقب عليه، ومن نوقش الحساب فقد عذب[1]، والله أعلم

(١) لحديث عائشة، قالت: قال رسول الله ﷺ: «من حوسب يوم القيامة عذب»، فقلت: أليس قد قال الله عز وجل: ﴿فسوف يحاسب حساباً يسيراً﴾، فقال: «ليس ذاك الحساب، إنما ذاك العرض، من نوقش الحساب يوم القيامة عذب».
أخرجه البخاري برقم (٤٩٣٩)، ومسلم برقم (٢٨٧٦).

[٤٩]

باب:
قول الله تعالى:
﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٠].

قال ابن حزم: اتفقوا على تحريم كل اسم معبد لغير الله؛ كعبد عمرو، وعبدالكعبة، وما أشبه ذلك. حاشا عبدالمطلب.

وعن ابن عباس في الآية، قال: «لما تغشاها آدم حملت، فأتاهما إبليس. فقال: إني صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة، لَتُطيعُنني أو لأجعلن له قَرْنَيِ إيَّلٍ، فيخرج من بطنك فيشقه. ولأفعلن ولأفعلن، يخوفهما. سمِّياه عبدالحارث، فأبيا أن يطيعاه، فخرج ميتاً.

ثم حملت، فأتاهما، فذكر لهما. فأدركهما حب الولد، فسمَّياه عبدالحارث، فذلك قوله: ﴿جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾، رواه ابن أبي حاتم.

وله بسند صحيح، عن قتادة، قال: شركاء في طاعته، ولم يكن في عبادته.

وله ـ بسند صحيح ـ، عن مجاهد في قوله: ﴿لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا﴾ [الأعراف: ١٨٩]، قال: أشفقا أن لا يكون إنساناً.

وذُكر معناه عن الحسن، وسعيد، وغيرهما.

• فيه مسائل:

الأولى: تحريم كل اسم معبد لغير الله.

الثانية: تفسير الآية.

الثالثة: أن هذا الشرك في مجرد تسمية لم تقصد حقيقتها.

الرابعة: أن هبة الله للرجل البنت السوية من النعم.

الخامسة: ذكر السلف الفرق بين الشرك في الطاعة والشرك في العبادة.

■ ■ ■ ■ ■

●● الشرح ●●

باب:
قول الله تعالى:
﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

هذا الباب قد ذكره المصنف رحمه الله لبيان تحريم التعبد لغير الله تعالى، وذلك لأن الخلق كلهم عبيد الله، أي: أذلاء له، ومعبدون له، ومطيعون له وحده، هذا من حيث الأصل.

ومن حيث الاسم الظاهر ـ أيضاً ـ فالإنسان معبد لله، فمن أجل ذلك لا يجوز أن يعبد مخلوق لغير الله، كما ذكر ذلك ابن حزم، يقول: (اتفقوا على تحريم كل اسم معبد لغير الله).

ويوجد في هذه الأزمنة وما قبلها من يُعبّد لغير الله باسمه، كأن يُسمَّي أحدهم: عبدالرسول، أو عبدالنبي، أو عبدالكعبة، ونحو ذلك، فهذا يجب تغييره، وذلك بأن يضاف إليه لفظة (رب)، فإذا كان اسمه (عبدالرسول)، يضاف إليه كلمة (رب)، فيصير (عبد رب الرسول)، وإذا كان اسمه عبدالحسين، قيل له: غير اسمك، أو قل: عبد رب الحسين، حتى تكون صادقاً، فلست عبداً للحسين؛ لأنه إذا أصبح ينادى: يا عبدالحسين، فكأنه يعبد الحسين، أو كأنه مملوكاً ملكاً أصلياً للحسين، أو لعلي، أو لغيرهما من المخلوقين.

وهذا فيه تعظيم لهذا المخلوق، وجعله شريكاً لله في ملكية العباد، وكذلك فيه تذلل لهذا الإنسان؛ حيث جعل نفسه مملوكاً لغير ربه.

والله تعالى هو مالك الخلق، يقول تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١ مَلِكِ النَّاسِ﴾ [الناس: ١، ٢]، فإذا كان هو المالك للناس، فكيف يكون المخلوق شريكاً له

في الملكية؟ هذا هو السبب في عدم جواز تعبيد المخلوق لغير الخالق، فيقال مثلاً: عبدالرحمن، وعبدالعزيز، وعبدالرحيم، وعبدالرقيب، وعبدالمهيمن، وعبدالتواب، وعبدالغفور، ونحوها، هذه كلها أسماء الله.

وإذا أطلق شيء من الأسماء التي قد تطلق على المخلوق، فإنه يجب أن يكون منصرفاً إلى الخالق وحده؛ لأن إطلاقها على المخلوق إطلاق صفة؛ كالملك، فالملك - مثلاً - تكون صفة غير لازمة للمخلوق.

فإذا عبدنا للملك فقلنا: عبدالملك؛ فالمراد به الله تعالى الذي من أسمائه الملك، فهو الملك القدوس، مالك الملك، ملك الناس، مالك يوم الدين، ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ [الملك: ١]، فإذا قلنا: عبدالملك، انصرف ذلك إلى الله تعالى، أما إطلاقها على ملوك الدنيا إنما هو من باب الصفة لا من باب الاسم.

فصح أن يعبد لله تعالى بأي اسم من أسمائه التي لا تنطبق حقًا إلا عليه، وأسماؤه كثيرة، وليست منحصرة في التسعة والتسعين التي وردت[1] في الحديث، بل لا حصر لها.

ويجوز أن يعبد إلى كل ما هو اسم خاص لله، لا يشاركه فيه غيره، ويحرم أن يطلق على المخلوق شيء من أسماء الخالق إطلاقاً مستمراً.

فمثلاً يتساهل كثير من الناس فينحتون بعض الاسم المعبد، ويقتصرون على جزئه الأخير، فيقولون مثلاً في عبدالعالي، يطلقون عليه: عالي، وعبدالهادي، يطلقون على المسمى: هادي، وعبدالمحسن مثلاً، يطلقون على المسمى: محسن، وهكذا، وهذا لا يجوز، وإن كانوا لم يعرِّفوه، أي: لم يقولوا: المحسن

---

(١) سيأتي تخريج حديث: «إن لله تسعة وتسعين اسماً...»، الحديث في باب: (٥٠).

أو الهادي أو العالي، ولكن فيه نوع تشبيه، فلا يجوز أن يُسمىٰ الإنسان رحماناً ولا رحيماً اسماً مطلقاً، ولا عزيزاً ولا العزيز اسماً مطلقاً.

وهكذا ـ أيضاً ـ ما يقع من كثير من الناس من تحريف بعض الاسم، فيحرف الاسم عندما يريدون تصغيره، فيصغرون ـ مثلاً ـ عبدالرحمن، بأن يقولوا: رُحيِّم، أو دُحيِّم ونحوه، أو يصغرون عبدالعزيز، يقولون: عُزيز أو نحوه، هذا تحريف لأسماء الله. فإذا أريد التصغير فإنه يصغر اسم العبد، ولا يصغر ما يختص بالله، فيقال مثلاً: عبيد الرحمن، كما يقال: عبيد الله، وعبيدالعزيز، ونحو ذلك، فيصغر ما يختص بالمخلوق، لا ما يختص بالخالق.

أما إضافة الاسم كصفة إلىٰ الله فهذا جائز، لأن ليس فيه ما يدل علىٰ العبودية والملكية، فمثلاً يُسمي بعض العامة أبناءهم أسماء غير معبَّدة صراحة، كأن يسمي: غرم الله، أو رزق الله، أو إكرام الله، أو نور الله، أو عطية الله، أو هبة الله، فهذه الاسماء ليس فيها تعبد لله؛ لأن إضافة العبد لله تكسبه شرفاً ورفعة فكان ذلك مما يمدح به.

فكون الشخص يوصف بأنه رزق الله أو عطاء الله أو إكرام الله أو ما أشبه ذلك، فهذا ليس فيه شيء مما يقتضي الملكية، وإنما فيه شيء من المنة علىٰ والديهم وأهليهم، يعني: أنه منة من الله عليهم أو عطية من الله أو هبة من الله، أو ما أشبه ذلك، فكأن أهله يعترفون بأنه من الله فسموه عطية الله ونحوه، أما الاسم بنفسه لا يكتسب شيئاً يدل علىٰ الذل.

والإنسان يتأثر بالاسم، فينبغي أن نختار الأسماء التي فيها معنىٰ العبودية لله عز وجل، وهذه هي الأسماء الفاضلة الشريفة، كما جاء في الحديث: «أحب

الأسماء إلى الله: عبدالله وعبدالرحمن، وأصدقها: حارث وهمام»[1]. فتسميته بعبدالله أو عبدالرحمن أو بعبد العزيز أو نحو ذلك فيه ما يكسبه عبودية وذلاً لله تعالىٰ، فلأجل ذلك لا يجوز أن تضاف هذه العبودية إلىٰ مخلوق؛ بل يجب تغييره إذا كان معبداً لغير الله.

وقد كان أهل الجاهلية يسمون ويعبِّدُون لأصنامهم، ومن معبوداتهم اللآت والعزىٰ، فيسمون عبداللآت، وعبد العزي، وعبد مناة، ويسمون أيضاً عبد الكعبة، وعبد عمرو، وعبد ود، وما أشبه ذلك.

ولما جاء الإسلام نسخ تلك الأسماء وأقرَّهم أن يعبِّدُوا لله تعالىٰ وحده لا لغيره.

ومن الأسماء المشهورة في الجاهلية التسمية بعبد المطلب وقد اختلف بعضهم في جواز هذه التسمية، والصحيح أنه لا يجوز التسمية في الإسلام بعبد المطلب، ولو أن النبي ﷺ انتسب إليه، بقوله: أنا ابن عبدالمطلب، لما قال في حنين: «**أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبدالمطلب**»[2]، إنما هو للتعريف، وليس ذلك لإقرار هذه التسمية في الإسلام، فإنه لما كان يُعرف بابن عبدالمطلب أخذه علىٰ وجه التعريف.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢١٣٢)، عن ابن عمر رضي الله عنهما، دون قوله: «وأصدقها: حارث وهمام».
وهذه الزيادة أخرجها البخاري في الأدب المفرد رقم (٨١٤)، وأحمد (٢/ ٢٤، ١٢٨-٤/ ١٧٨، ٣٤٥))، وأبوداود برقم (٤٩٤٩) و(٤٩٥٠)، والترمذي برقم (٢٨٣٣)، عن أبي وهب الجشمي.
قال الألباني: صحيح دون قوله: «تسموا بأسماء الأنبياء»، وانظر صحيح الأدب المفرد، رقم (٦٢٥)، والسلسلة الصحيحة رقم (١٠٤٠)، والإرواء رقم (١١٧٨)، وتخريج الكلم الطيب، ص: ٢١٨.
(٢) سبق تخريجه.

كما أن كثيراً من المسلمين ظلوا ينتسبون إلىٰ آبائهم دون أن تغير أسماء آبائهم، ولو كانوا في الإسلام لغيرها النبي ﷺ؛ فقد ثبت أنه ﷺ غير أسماء أناس أسلموا، فغير اسم العاص ولم يغير اسم أبي عمرو، بل صار يُدعىٰ عمرو بن العاص، وغير اسم الحُباب، ولم يأمرهم ألا يقولوا: أبو الحباب، وغير اسم شيطان، وغير اسم غراب، وما أشبه ذلك.

فكونه انتسب إلىٰ جده عبدالمطلب، لا يدل علىٰ أنه يجوز في الإسلام اسم عبدالمطلب.

وسبب انتشار تسمية عبدالمطلب عند كثير من الناس في زماننا هذا؛ لأنه اسم جد النبي ﷺ، فهذا خطأ ولا يجوز.

ونقول لهؤلاء: وأيضاً من أجداد النبي عبد مناف وعبدالعزي ونحو ذلك، فهل نسمي بهذه الأسماء؛ لأن النبي ﷺ ينتسب إليها؟!

الجواب: لا يجوز أيضاً أن يسمي عبد مناف، ولا يجوز أن يسمي عبد العزىٰ ونحو ذلك.

والمطلب عم عبدالمطلب جاء به وهو صغير من عند أخواله بالمدينة، ولما وصل من المدينة وكان اسمه شيبة الحمد، فلما وصل رأوا عليه آثار السفر فاعتقدوه مملوكاً للمطلب، فقالوا: هذا عبدالمطلب، واشتهر بعد ذلك ونسي اسمه الذي هو شيبة.

فعلىٰ كل حال لا يجوز أن يعبد اسم لغير الله، بل يكون تعبيد المخلوقين بأسماء الله تعالىٰ، لما في ذلك من استحضار التذلل والخضوع له وحده دون غيره.

■ قوله: [قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٠].

قال ابن حزم: اتفقوا على تحريم كل اسم معبد لغير الله؛ كعبد عمرو، وعبدالكعبة، وما أشبه ذلك. حاشا عبدالمطلب[(١)].

وعن ابن عباس في الآية، قال: «لما تغشاها آدم حملت، فأتاهما إبليس. فقال: إني صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنّة، لَتُطيعُنني أو لأجعلن له قَرْنَي إِيّلٍ، فيخرج من بطنك فيشقه. ولأفعلن ولأفعلن، يخوفهما. سمِّياه عبدالحارث، فأبيا أن يطيعاه، فخرج ميتاً.

ثم حملت، فأتاهما، فذكر لهما. فأدركهما حب الولد، فسمَّياه عبدالحارث، فذلك قوله: ﴿جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾، رواه ابن أبي حاتم[(٢)].

وله بسند صحيح، عن قتادة، قال: شركاء في طاعته، ولم يكن في عبادته[(٣)].

وله ـ بسند صحيح ـ، عن مجاهد في قوله: ﴿لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا﴾ [الأعراف: ١٨٩]، قال: أشفقا أن لا يكون إنساناً.

وذُكر معناه عن الحسن، وسعيد، وغيرهما[(٤)]]:

هذه الآية روي فيها آثار عن الصحابة، ولعلهم أخذوها عن بعض أهل

---

(١) انظر ابن حزم في مراتب الإجماع ص ١٥٤.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير (٢/ ٢٧٥). والدر المنثور (٣/ ٦٢٤).
وأخرجه سعيد بن منصور (٢/ ١٣٨٧) ذكر ذلك الشيخ صالح آل الشيخ.
وأخرجه ابن المنذر كما في الدر المنثور (٣/ ٦٢٤).
وانظر تفسير ابن جرير (٩/ ٩٨ـ ١٠/ ٩٨، ٩٩).
والحديث ضعيف مرفوعاً كما أفاد ذلك الشيخ عبدالله بن جبرين وفقه الله، حيث قال: بل إن القصة لا تثبت.

(٣) أخرجه ابن جرير الطبري في التفسير رقم (١٥٥٢١).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير كما في الدر المنثور (٣/ ٦٢٦).

الكتاب، والآية ليست صريحة، وهي قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٨٩) فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٩، ١٩٠].

فإن قوله: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، يدل على أنهم جمع، وأن المراد جنس الأبوين، أي: أن كل رجل وامرأته إذا حملت دعوا الله أن يرزقهما صالحاً، فإذا رزقهما صالحاً أشركا معه، كما أنهم في حال ركوب البحر يدعون الله ويخلصون أن ينجيهم، فإذا نجاهم أشركوا معه.

وهكذا إذا وقع المخاض بالمرأة يدعو الرجل وامرأته الله أن يرزقهما ولداً صالحاً كامل الأعضاء، فإذا رزقا ولداً صالحاً جعلا له شركاء، فتعالى الله عما يشركون.

وعلى هذا لا تكون في آدم وحواء، وقد استبعد ذلك كثير من العلماء، وقالوا: إن آدم عليه السلام أعقل الناس وأزكاهم، وأتمهم معرفة، وهو أبو البشر، فكيف ينخدع بإبليس مرتين؟ كيف يخرجه من الجنة ويعرف أنه عدوه الذي تسبب في إخراجه ثم يطيعه مرةً ثانية، ويجعل ولده معبداً له؟!

والوارد في هذه الآية إنما هو من تلك الإسرائيليات، والإسرائيليات ذكر ابن كثير في تفسير هذه الآية أنها ثلاثة أقسام:

قسم شهد كتابُنا بأنه باطل فهذا نرده ونكذبه.

وقسم شهد له كتابُنا بأنه حق فنكتفي بكتاب الله عنه.

وقسم لم يشهد له نص من الكتاب والسنة، فنتوقف فيه ولا نكذبه، ونقول:

﴿آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

فالحاصل أن هذه القصة لم تثبت مرفوعة، وإذا كانت موقوفة على بعض الصحابة فإنهم أخذوها من كتب بني إسرائيل، وعن قصاصهم، ولم يتثبتوا، واعتقدوا أن هذا هو تفسيرها الحق.

والصحيح في الآية كما نقل ذلك ابن كثير عن الحسن البصري: أنها في جنس بني آدم، أي: كل زوجين يرغبان إلى الله عند الحمل أن يرزقهما صالحاً، وهكذا يقع أن كثيراً منهم يرزق ولداً صالحاً، ومع ذلك لا يفي بوعده فيعود إلى شركه، ويدعو مع الله شركاء.

وأما هذه القصة التي أوردها المصنف عن ابن عباس رضي الله عنهما، والتي ذُكر فيها أن آدم عليه السلام لما نزل إلى الأرض وغشي زوجته حواء فحملت، ثم لما ظهر الحمل ما كانا يعلمان ماذا يكون، وكيف يخرج هذا الولد، فجاءهما إبليس وأخبرهما بأنه إبليس، بل قال لهما: أنا صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة، لتطيعنني، أو لأجعلن له قرني إيَّلٍ(١)، فيخرج من بطنك فيشقه، ولأفعلن ولأفعلن، هكذا قال لهما.

ولكن أليس آدم وحواء يعرفان أن الشيطان لا يقدر على أن يجعل لهما قرني إيَّلٍ؟! بل كيف يقدر أن يشق بطنها ويفعل ويفعل؟!

لا شك أن إبليس لا يستطيع أن يفعل شيئاً من ذلك، وهذا يعني أن آدم وحواء لا يمكن أن يُصدِّقا الشيطان في هذه المقالة، وقد عرفا دعوته وعجزه عن ذلك، وأنه مخلوق مدبر ليس له قدرة على تغيير خلق الله تعالى.

---

(١) قال الشيخ ابن جبرين: الإيَّلِ هو ذَكَرُ الأوعال.

وكون الولد خرج ميتاً، ولم يجعل له قرني إيَّل، ولم يشق بطن حواء، كل هذا دليل على كذب الشيطان، وأنه لا يقدر على أن يفعل أي شيء من ذلك، وأما خروج الولد ميتاً فهذا مرده إلى الله، فهو الذي يحيي ويميت، وكثيراً ما يخلق الله المخلوق ثم لا يتم خلقه، كما في قوله تعالى: ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ [الحج: ٥]، يعني: هناك من يولد تام الخلق، وهناك من يولد ناقص الخلقة.

والحاصل أن الله هو الذي يصور الإنسان في الرحم، ويكونه ويتم خلقه، فإن شاء أتم خلقه ثم يخرج ميتاً، وإن شاء خرج تاماً حيّاً يعيش بأمر الله تعالى، وإن شاء خرج ناقص الخلقة مشوهاً في بعض أعضائه ونحو ذلك. وليس لإبليس شيء من التصرف في ذلك كله.

وبكل حال فهذه الآية وهي قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٨٩) فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٩، ١٩٠]. يظهر منها أنه لما تغشاها أول مرة دعوا الله فآتاهما صالحاً استجابة لدعوتهما، وليس في الآية أنهما دعوا الله عدة مرات، وأنه لم يؤتهما صالحاً إلا بعد عدة مرات.

وكذلك ليس في هذه الآية ما يدل على القصة، بل إن القصة لا تثبت.

أما لماذا أورد المصنف رحمه الله هذه الآية؟!

فالجواب: أورد المصنف رحمه الله هذه الآية من أجل بيان النهي عن التعبيد لغير الله، أي: النهي عن أن يُجعل شيئاً من المخلوقات عبداً لغير الله.

وقد سبق أن بينا أنه لا يجوز التعبيد لغير الله اتفاقاً، ونقل ذلك ابن حزم

فقال: (اتفقوا على تحريم كل اسم معبد لغير الله؛ كعبد عمرو، وعبد الكعبة، وما أشبه ذلك، حاشا عبدالمطلب)، وبهذا نعرف أن التعبيد لا يصلح إلا لله، وبأسمائه الحسنى، كعبدالله، وعبدالرحمن، وعبدالعزيز، وعبدالرحيم، ونحو ذلك، فهذه هي أسماء الله التي يعبد لها.

وجاء في هذه القصة أنهما سميا ولدهما عبدالحارث، وهذا لا شك أنه يعتبر شركاً، حيث يقول: ﴿جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، وليس في الآية دليل على أن الشركة هي شركة في العبادة، إنما قال: ﴿فِيمَا آتَاهُمَا﴾، من أجل ذلك فسرها السلف بقولهم: شركاء في الطاعة، ولم يكن في العبادة، أي: أنهما جعلا له شركاء، حيث أطاعا في ذلك أولئك الشركاء، ولم يعبدا أولئك الشركاء، إنما هم شركاء في الطاعة دون العبادة.

ومن المعلوم أن العبادة هي: الذل للمعبود، وأن الطاعة تعظيم لذلك المطاع، والتعظيم حق لله تعالى، ولهذا سمى الله الذين يطيعون غير الله في معصية الله، سماهم مشركين، وجعلهم متخذين لهم أرباباً، لقوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾، إلى قوله: ﴿سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]، وإنما شركهم شرك طاعة، حيث إنهم يطيعون ولاتهم وأكابرهم وعبّادهم ورهبانهم وعلماءهم الفسقة ونحوهم في تحليل الحرام وتحريم الحلال، فكان هذا شركاً.

فشرك الطاعة هو شرك في العبادة، فلو كان آدم وحواء قد وقع منهما هذا الشرك لما أقره الله، ولعاقبهما عقوبة أشد من عقوبتهما الأولى.

وقد أخبر الله تعالى آدم وحواء بعداوة الشيطان لهما، بقوله: ﴿وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ٢٢]، ولكن لما وقع الخطأ منهما اعترفا بذنبهما

وطلبا المغفرة والرحمة من الله، فأهبطه إلى الأرض، وتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه، فلا يمكن أن يقع منه هذا الشرك، بل لا يمكن أن يقع منه أي نوع من أنواع الشرك، لا شرك طاعة، ولا شرك عبادة، ولا شرك فيما أعطاه الله، فالصحيح أن القصة في جنس بني آدم، وليست في التعبيد خاصة.

أما أدلة التعبيد فهي عامة؛ أي: إن الخلق كلهم عبيد الله ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً﴾ [مريم: ٩٣]، وأن العباد هم الذين يملكهم المعبود ويتصرف فيهم، وليس ذلك لأحد إلا الله، فلما كان كذلك لم يصلح أن يعبد لأي مخلوق؛ بل يجب تغيير كل اسم معبد لأي لمخلوق، وجعل عبادته لرب الخلق كلهم، والله أعلم.

■ ■ ■ ■ ■

[٥٠]

باب:

قول الله تعالى:

﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ﴾

قول الله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

ذكر ابن أبي حاتم، عن ابن عباس: ﴿يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾؛ يشركون.

وعنه: (سمُّوا اللات من الإله، والعزَّى من العزيز).

وعن الأعمش: (يدخلون فيها ما ليس منها).

■ ■ ■ ■ ■

• فيه مسائل:

الأولى: إثبات الأسماء.

الثانية: كونها حسنى.

الثالثة: الأمر بدعائه بها.

الرابعة: ترك من عارض من الجاهلين الملحدين.

الخامسة: تفسير الإلحاد فيها.

السادسة: وعيد من ألحد.

■ ■ ■ ■ ■

●● الشرح ●●

باب:
قول الله تعالى:

﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ﴾

هذا الباب عقده المصنف رحمه الله، قيل: لمعرفة أسماء الله والعمل بها، وقيل: للإلحاد في أسماء الله، وهذا هو الصحيح، أي: أنه أراد به أن الإلحاد في أسماء الله نوع من الشرك منقص للتوحيد، ولهذا لم يذكر في الباب إلا أنواعاً مما يسمىٰ إلحاداً، ومما يكون به الفاعل ملحداً في أسماء الله.

والإلحاد في الأصل: هو الميل، يقال: ألحد، أي: مال، وقد ذكر الله أن هناك إلحاداً في آيات الله، وأن هناك إلحاداً في أسماء الله، وكل ملحد في أسماءه أو في آياته متعرض للوعيد.

* **فأما الإلحاد في آيات الله فدليلها قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾** [فصلت: ٤٠].

والوعيد في هذه الآية في عدة مواضع منها:

١ـ تسميتهم ملحدين، أي: مائلين عن الصواب.

٢ـ وعيدهم بقوله: **﴿لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾**، فنحن عالمون بهم، ومطلعون عليهم، ولابد أن يكون هناك انتقام منهم.

٣ـ وعيدهم ـ أيضاً ـ بقوله: **﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾**، وهو علىٰ وجه التهديد، أي: لابد وأن ننتقم منكم، فاعملوا وسوف يأتي اليوم الذي يحصل فيه

العذاب.

٤ـ قوله: ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، وهو دليل على قوله: ﴿لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾، أي: عملكم لا يخفى على الله، وإلحادكم في آياته لا يخفى عليه.

والإلحاد في آيات الله يحصل بمعرفة المراد من قوله: ﴿آيَاتِنَا﴾، فإذا قيل: ما المراد من آياته؟ قلنا: محتمل أن المراد: آيات الله الكونية، أو المراد بآياته: كلامه وهي آيات القرآن.

والإلحاد في آيات القرآن؛ قد يكون بهجر القرآن، أو بتحريف معانيه، أو ألفاظه، أو بمخالفة إرشاداته وأوامره، أو بتأويله تأويلاً يخرجه عن حقائقه، أو نحو ذلك من أنواع التحريف؛ فهذا يدخل في الإلحاد في آيات الله.

وهكذا ـ أيضاً ـ إذا قلنا: الإلحاد في آيات الله الكونية التي هي مخلوقاته العلوية والسفلية، فإنها من الآيات؛ أي: أنها دلالات على قدرة الله، ودلالات على عظمته، ودلالات على وحدانيته وإلاهيته.

يقول الله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ [فصلت: ٣٧]، أي: من الآيات الدالة على كمال تصرفه، ويقول تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ۝٢٠ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ... إلى آخر الآيات﴾ [الروم: ٢٠ـ٢٥]. وكذلك قوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾ [الروم: ٤٦]، فإرسال الرياح ـ أيضاً ـ آية من آياته، وكذلك إثارة السحب وما أشبه ذلك، فكل ذلك دلالات على عظمته سبحانه.

فالذين لا يعتبرون بهذه الآيات ملحدون في آياته، أو الذين يصرفونها إلى غيره، ويجعلونها طبيعة وعادة، وليست مدبرة، ولا مسخرة، ولا مخلوقة لله، هؤلاء قد ألحدوا في آياته.

* وأما الإلحاد في أسماء الله فهي المقصودة في هذا الباب، وقد أورد عليها المؤلف الآية التالية، وقول ابن عباس، والأعمش عليها.

■ قوله: [قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، ذكر ابن أبي حاتم، عن ابن عباس: ﴿يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾؛ يشركون[(١)].

وعنه: (سموا اللات من الإله، والعزَّى من العزيز)[(٢)].

وعن الأعمش: (يدخلون فيها ما ليس منها)]:

ذكر المصنف هذه الآية دليلاً على أن هناك إلحاداً في أسماء الله، والوعيد الوارد في الآية هو في قوله: ﴿وَذَرُوا﴾، أي: اتركوهم، وابتعدوا عنهم؛ فإنهم على خطأ وضلال.

وكذلك تسميتهم ملحدين، أي: مائلين، فدل على أنهم ليسوا مستقيمين، بل هم مائلون ومنحرفون في أسماء الله، وكذلك قوله: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، فلا بد من يوم يجزون فيه على سيئاتهم، وعلى الإلحاد في أسماء الله.

ولكن ما المراد بأسماء الله؟

ذكر الله في هذه الآية أنها حسنى: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾، فالمراد أسماؤه التي سمى بها نفسه في القرآن، وسماه بها نبيه ﷺ، وقد ورد في الحديث: «إن لله

---

(١) تفسير قوله ﴿يُلْحِدُونَ﴾: بـ: (يشركون) مروي عن قتادة، أخرجه ابن جرير (٩/ ٩١). وأخرجه عبدالرزاق وعبد بن حميد، كما في الدر المنثور (٣/ ١٤٩).

وقد فسر ابن عباس الإلحاد: بالتكذيب، أخرجه ابن جرير (٩/ ٩١). وابن أبي حاتم وابن المنذر، كما في الدر المنثور (٣/ ١٤٩).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور (٣/ ١٤٩)، والطبري عن مجاهد (٩/ ١٣٣).

تسعة وتسعين اسماً، مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة»[١]، وذكرها في رواية الترمذي حيث سردها إلىٰ أن وصل بها تسعة وتسعين[٢]، ولكن الصحيح أن سردها ليس من المرفوع، إنما هو من جمع بعض الرواة، جمعوها من القرآن فسردوها.

فالمرفوع هو ذكر فضلها، وليس هذا حصراً لأسماء الله، فأسماء الله كثيرة لا يحصرها حد.

وقد ذكر في بعض الأحاديث كثرتها، منها ما ورد في الدعاء المرفوع الذي في مسند أحمد، الذي يقول فيه: «... **أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك»**[٣].

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٤١٠)، ومسلم برقم (٢٦٧٧)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي برقم (٣٥٠٧)، وابن ماجة برقم (٣٨٦١) بسياق آخر، وابن حبان في الصحيح (٢/ ٨٨)، والحاكم في المستدرك (١/ ٦٢) رقم (٤٤)، والبيهقي في السنن (١٠/ ٢٧).

قال البوصيري في المصباح (٣/ ٣٠٨): إسناد طريق ابن ماجة ضعيف. وقال الترمذي: هذا حديث غريب وقد روي من غير وجه عن أبي هريرة ولا نعلم في كثير من الروايات ذكر الأسماء إلا في هذا الحديث.

وقد ضعف الألباني حديث الترمذي، وصحح حديث ابن ماجه، وقال: صحيح دون عدّ الأسماء. وقال الأرناؤوط في تحقيق صحيح ابن حبان (٨٠٨): رجاله ثقات.

وقال الشيخ عبدالله بن جبرين: ولكن الصحيح أن سردها ليس من المرفوع.

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٣٩١)، وابن حبان برقم (٢٣٧٢)ـ موارد، والطبراني في الكبير (١٠/ ١٦٩)، والحاكم في المستدرك (١/ ٩٦٠) رقم (١٨٧٧). عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

قال الحاكم: صحيح علىٰ شرط مسلم إن سلم من إرسال عبدالرحمن بن عبدالله عن أبيه، فإنه مختلف في سماعه من أبيه، وقال أحمد شاكر في تحقيق المسند رقم (٣٧١٢): إسناده صحيح، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم (١٩٩).

فدل على أن هناك أسماء استأثر الله بها في علم الغيب عنده، وأسماء علمها بعض خلقه، وأسماء سمى بها نفسه، وأسماء أنزلها في كتبه، فأسماء الله كثيرة لا تنحصر في هذه التسعة والتسعين.

والله عز وجل قد علمنا أسماءه حتى ندعوه بها، ونذكره بها، فنقول مثلاً: يارحمان: ارحمنا، وياعزيز: أعزنا، وياغفور: اغفر لنا، وياتواب: تب علينا.

وكذلك نتوسل بها في دعائنا، وإذا سألناه سؤلاً يتعلق بحكمته وبعلمه، نقول: إنك أنت العليم الحكيم، أو إنك أنت العليم الخبير.

وهذه الأسماء دالة على صفات، فإن اسم الرحمن دال على أنه يرحم، وأنه رحيم بعباده، واسم العزيز دال على وصفه بالعزة والقوة والغلبة، وهكذا اسم القوي.

ومن الإلحاد في أسماء الله جحد دلالاتها، فالذين يقولون: إن الله عزيز بلا عزة، أو سميع بلا سمع، أو بصير بلا بصر، أو غفور بلا مغفرة، أو ما أشبه ذلك؛ هؤلاء ملحدون قد ألحدوا في أسمائه، وهكذا الذين جعلوها مجازات، ولم يثبتوا لله أسماء حقيقية، وجعلوها لمخلوقاته، فهؤلاء ملحدون فيها.

وهكذا الذين يسمون بها المخلوقات، فيسمى أحدهم: عزيزاً وكريماً ونحو ذلك؛ هؤلاء قد ألحدوا؛ حيث إنهم جعلوا الاسم العظيم الشريف الكبير للمخلوق الضعيف.

يقول الله تعالى لأحدهم في النار: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩]، أي: أنت في نفسك العزيز الكريم الذي زاحم الله تعالى في صفة العزة والكرم، فجزاؤك أن تنال العذاب في النار.

وهكذا الذين يتسمون بأسماء الله، فيتسمى أحدهم بالرحمن، أو بالعزيز، أو غيرها من أسماء الله، لا شك أن هذا إلحاد في أسماء الله.

وهكذا - أيضاً - تسمية أسماء الله لبعض المخلوقات أو اشتقاق أسماء المخلوقات منها، كفعل الجاهلية؛ حيث اشتقوا العزى من العزيز، واسم اللات من الإله، واسم مناة من المنان، وما أشبه ذلك.

فالإلحاد في الأسماء - إذن - جحد دلالتها على الصفات المشتقة منها، ومن الإلحاد جحد تسمية الله تعالى بها، ومن الإلحاد تسمية المخلوق بها، وجعله شبيهاً بالخالق بهذه الصفات ونحوها.

ومن الإلحاد صرف معناها عما يراد بها، أي: عدم الاستدلال بها حقيقة على ما هو المراد منها، حيث أن المراد من أسماء الله تعالى ذات الله تعالى، فالرحمن لا ينطبق إلا على الذات، ويراد بها أيضاً الصفة التي اشتقت منها، فالرحمن مشتمل على الرحمة، ويراد بها أيضاً الوصف بصفات الكمال الباقية، فإن الرحمن يلزم أن يكون كريماً، وأن يكون غنياً، وأن يكون سميعاً، وأن يكون بصيراً، وما أشبه ذلك، فالذين ينكرون نوعاً منها يلزمهم إنكار الباقي، فيكونون بذلك ملحدين في أسماء الله تعالى.

■ ■ ■ ■ ■

[٥١]

باب:
لا يقال: السلام على الله

في الصحيح، عن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: كنا إذا كنَّا مع النبي ﷺ في الصلاة، قلنا: السلام على الله من عباده، السلام على فلان، فقال النبي ﷺ: «لا تقولوا: السلام على الله؛ فإن الله هو السلام».

■ ■ ■ ■ ■

● فيه مسائل:

الأولى: تفسير السلام.

الثانية: أنه تحية.

الثالثة: أنها لا تصلح لله.

الرابعة: العلة في ذلك.

الخامسة: تعليمهم التحية التي تصلح لله.

■ ■ ■ ■ ■

●● الشرح ●●

باب:
لا يقال: السلام على الله

الذي يعتقد أن الله تعالىٰ بحاجة إلىٰ خلقه فقد اعتقد نقصه ـ سبحانه ـ وتنقص الله، وظن أنه يكمل بعبادة خلقه له، وقد ثبت في الحديث القدسي ما يردّ ذلك، فقد قال ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل: **«يا عبادي: لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أتقى قلب رجل واحد؛ ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، ولو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أفجر قلب رجل واحد؛ ما نقص ذلك من ملكي شيئاً، يا عبادي: إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني»**[(١)] .

وقد أورد المصنف رحمه الله في هذا الباب هذا الحديث؛ لبيان أن السلام اسم من أسماء الله تعالىٰ فيُدعىٰ به.

■ قوله: [**في الصحيح، عن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: كنا إذا كنّا مع النبي ﷺ في الصلاة، قلنا: السلام على الله من عباده، السلام على فلان، فقال النبي ﷺ: «لاتقولوا: السلام على الله؛ فإن الله هو السلام»**[(٢)]]:

لما كان الصحابة يعتقدون أن السلام شرف أطلقوه علىٰ الله، وقالوا: السلام علىٰ الله، ثم علمهم النبي ﷺ أن الله هو السلام فيدعىٰ ولا يدعىٰ له.

ونحن عندما نقول: السلام عليكم، إنما نقصد بذلك أنه اسم الله، فالمعنىٰ: اسم الله عليكم، ويكون المراد أثره، أي: أثر هذا الاسم، وهذا الأثر إنما هو

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري برقم (٨٣٥).

البركة والخير والتسليم والإعطاء، ونحو ذلك.

وخُص هذا الاسم لأنه مشتق من السلامة، فكأنه يقول: اسم الله السلام الذي تغمركم آثاره، ولا شك أن أسماء الله تعالىٰ يُتبرك بها؛ ولذلك يبدأ باسم الله في الأمور المهمة.

فالإنسان يسمي الله تعالىٰ إذا أراد أن يأكل، أو ينام، أو يدخل، أو يخرج، أو يلبس، أو يشرب، وما أشبه ذلك؛ فكأنه يقول: أتبرك باسم الله، أو أذكر اسم الله.

فالسلام من أسماء الله، وقد عده الله من أسمائه، بقوله تعالىٰ: ﴿الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ﴾ [الحشر: ٢٣].

وكل اسم من أسماء الله له معنىٰ، فاسم الله الذي هو السلام؛ معناه: السالم من العيوب والنقائص، أو المسلم لعباده ـ إذا اعتمدوا عليه، وتوكلوا عليه ـ من الآفات والمصائب، ونحوها.

فهو اسم دال علىٰ صفة، وهو دال علىٰ ذات الله، ولا ينطبق حقّاً إلا عليه، ويدل علىٰ صفة السلامة من العيوب والنقائص، ويتصف بتسليم الخلق الذين يعتمدون عليه، ويتوكلون عليه من الآفات والمصائب، والمحن التي قد تصيبهم إذا لم يحمهم الله تعالىٰ ويحفظهم.

فما دام كذلك فقد عرف أنه لا يُسَلَّمُ علىٰ الله؛ فلا يقال: السلام علىٰ الله، وإنما يقال: التحيات لله؛ لأن التحيات هي: التعظيمات والعبادات، وجميع أنواع القربات لله تعالىٰ، وأما السلام فإنه دعاء.

ولهذا يقال: السلام عليك أيها النبي، فالنبي ﷺ يدعىٰ له، وكذلك تقول: السلام علينا وعلىٰ عباد الله الصالحين، فتدعو لنفسك، وتدعو لعباد الله الصالحين.

ويدعو المسلم للمسلمين بقوله: السلام عليكم يا أيها المسلمون، وذلك إذا دخل مجلساً، لقوله تعالى: ﴿لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النور: ٢٧]، ولقوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا﴾ [النور: ٦١]، وجعل الله هذا السلام هو تحية المسلمين؛ لأنه دعاء.

وكذلك يوجد معنى آخر لقولنا: السلام عليكم، وهو إذا قاله المرء مُنكَّراً، أي: قال: سلام عليكم، فإن معناه: تسليم وسلامة من كل آفة، وأكثر ما ذكرت هذه اللفظة في القرآن مُنكَّرةً، كما في قوله تعالى: ﴿وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤]، وقوله: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ﴾ [الزمر: ٧٣]، وقوله تعالى: ﴿فَقَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٥]، وقوله تعالى: ﴿لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا تَأْثِيمًا (٢٥) إِلاَّ قِيلاً سَلامًا سَلامًا﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦]، ونحو ذلك، ففي هذا أنه ذكر لفظ (سلام) منكَّراً، فيكون المعنى: تسليم وسلامة من الآفات والشرور والمصائب والفتن والمحن.

وكما ذكرت في القرآن مُنكَّرةً فقد ذكرت أيضاً معرفة، كما في قوله تعالى: ﴿وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾[مريم: ٣٣]، وقوله: ﴿وَالسَّلامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾ [طه: ٤٧].

والإنسان بحاجة إلى أن يدعى له بهذا التسليم؛ لهذا شرعت هذه التحية بين المسلمين، فقال النبي ﷺ: «ألا أخبركم بشيء إذا فعلتموه تحاببتم، أفشوا السلام بينكم»(١)، وقوله: «وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف»(٢).

فالله سبحانه وتعالى غني عن أن يدعو له العباد؛ لأنه ليس بحاجة إلى

(١) أخرجه مسلم برقم (٥٤). عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري برقم (١٢)، ومسلم برقم (٣٩). عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنه.

دعائنا؛ بل هم الذين في حاجة للدعاء، لذلك شرعت التحية حتى يدعو لأنفسهم وللمسلمين.

ونقول: كيف ندعو لله؟!

هل هناك من هو أكبر منه حتى تدعو ذلك الأكبر لله تعالى؟!

وهل الله فيه نقص فتدعو له حتى يكمل ذلك النقص؟!

وهل عليه خوف فتدعو له حتى يأمن من ذلك الخوف؟؟

فمن دعى لله تعالى بقوله: السلام على الله فقد تنقصه، فيعتبر بذلك ناقص التوحيد؛ لذلك لا يقال: السلام على الله، بل يقال: التحيات لله.

هذا هو وجه كون السلام على الله باباً من أبواب التوحيد؛ بمعنى أن أهل التوحيد الكمل هم الذين يعتقدون أن الله تعالى كامل، ولا يحتاج إلى تكميل، وهم الذين ينزهون الله عن النقائص والعيوب.

ومن توهم أنه سبحانه بحاجة إلى أن يدعو له عباده، أو بحاجة إلى عبادتهم، أو بحاجة إلى أعمالهم، أو بأنه يُكمل بذلك شيئاً من ملكه أو يزيد شيئاً من قدره تعالى الله عن ذلك؛ فإن هذا الاعتقاد اعتقاد سيء يخل بالعقيدة، وينقص به التوحيد، والله تعالى أعلم.

■ ■ ■ ■ ■

[٥٢]

باب:
قول: اللهم اغفر لي إن شئت

في الصحيح، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «لا يَقُولن أحدكم: اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت، ليعزم المسألة؛ فإن الله لا مكره له».

ولمسلم: «وليُعظِّم الرغبة؛ فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه.

■ ■ ■ ■ ■

• فيه مسائل:

الأولى: النهي عن الاستثناء في الدعاء.

الثانية: بيان العلة في ذلك.

الثالثة: قوله: ليعزم المسألة.

الرابعة: إعظام الرغبة.

الخامسة: التعليل لهذا الأمر.

■ ■ ■ ■ ■

●● الشرح ●●

باب:
قول: اللهم اغفر لي إن شئت

من المعلوم أن الإنسان بحاجة إلى ربه، وأن الرب سبحانه غني عن خلقه، وأن الإنسان عليه أن يُظهر أثر تلك الحاجة، فعليه أن يظهر لربه الفقر والفاقة، وشدة الحاجة، وعدم الغنى عن الله طرفة عين.

وقد ثبت أن من دعاء النبي ﷺ، قوله: «**اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين**»(١)، فكأنه يقول: وأسألك أن تتولاني، وأسألك أن تراقبني، وتحفظني وتكلأني، ﴿**قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ**﴾ [الأنبياء: ٤٢].

فالله تعالى هو الذي يمن على العبد؛ وهو الذي يعطيه، ويتفضل عليه، والعبد لا تغني عنه حركاته، ولا تغني عنه أفعاله إن لم يمده الله بقوة، وإن لم يعطه فهماً وإدراكاً، فما لم يكن معه ربه لن تنفعه أعماله، ولن يستفيد من حركاته وسكناته، ولكن الله هو الذي منَّ عليه أولاً وآخراً، وأعطاه إدراكاً وعقلاً وفهماً، وأعطاه قوة، وأعطاه جوارح يباشر بها حوائجه، ونحو ذلك.

ويسر له ـ أيضاً ـ الأسباب؛ فأخرج له المياه من الأرض، وأنزلها له من السماء، وأنبت له النبات، وجعل في النبات هذه الثمار التي يتغذى منها فتمت بذلك حاجته، وما بقي عليه إلا أن يعترف بفضل ربه، وأن يسأل ربه تمام نعمته عليه، وعدم تخليه طرفة عين عنه.

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٤٢)، وأبوداود برقم (٥٠٩٠). عن أبي بكرة رضي الله عنه.

■ **قوله: [في الصحيح، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقولن أحدكم: اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت، ليعزم المسألة؛ فإن الله لا مكره له»**(١).

ولمسلم: «وليُعظِّم الرغبة؛ فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه»(٢)]:

قوله: **«اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت»**: يحتمل معنيين:

* **المعنى الأول**: قول العبد: **«اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت»**، أي: إن قدرت على ذلك افعله، فالذي يظن ذلك كأنه يظن بربه ظنّاً سيئاً، ويظن أن ربه يعجزه شيء، أو يتعاظمه شيء، أو يُكره على شيء.

وذلك ظن السوء الذي حكاه الله عن المنافقين في قوله: **﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾** [الفتح: ١٢]، وفي قوله: **﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾** [الفتح: ٦]، وفي قوله: **﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾** [آل عمران: ١٥٤].

فالذي يظن أن ربه يعجزه شيء هذا لم يعرف ربه حق المعرفة، فالله تعالى غني كامل الغنى، وقد ذكر كمال غناه عن خلقه في الحديث القدسي، وهو قول النبي ﷺ: **«قال الله تعالى: يا عبادي: إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا... إلى أن قال: يا عبادي: إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني»**(٣).

بمعنى أنكم إن كفرتم فلن يضرني ذلك شيئاً، وكذلك عبادتكم لا تنفعني بل

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٣٣٩) و(٧٤٧٧)، عن أنس رضي الله عنه.
وأخرجه مسلم برقم (٢٦٧٨) و(٢٦٧٩). عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٦٧٩).
(٣) سبق تخريجه في أول باب (٥٠) «باب: لا يقال: السلام على الله».

هي لكم، وقد ذكر ذلك صريحاً في قوله: «**لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أتقى قلب رجل واحد، ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، ولو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم ،كانوا على أفجر قلب رجل واحد، ما نقص ذلك من ملكي شيئاً**»(١).

فهذا يبين أن الله غني عن عباده، وعن عبادتهم، فلا تنفعه طاعة المطيعين، ولا تضره معصية العاصين، بل هو النافع الضار.

وفيه ـ أيضاً ـ أن العباد فقراء إلى الله، يقول في الحديث نفسه: «**يا عبادي: كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم، يا عبادي: كلكم جائع إلا من أطعمته؛ فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي: كلكم عارٍ إلا من كسوته؛ فاستكسوني أكسكم**»(٢).

وحيث إن العباد فقراء إلى الله فإن عليهم أن يظهروا هذا الفقر، فإذا سأله أحد المغفرة فليعزم المسألة، فيقول: رب اغفر لي، **اللهم ارحمني، اللهم أنا الفقير إليك وأنت الغني**، بخلاف ما إذا سأله سؤال من يشك في قدرته، كأنه يقول: إن كنت تقدر على إجابة مسألتي فأعطني.

فيتهم الله تعالى بالعجز، ويتهم الله تعالى بالفقر، أو بالفاقة، أو بالحاجة، أو بعدم القدرة، وكل ذلك تنقص لله غاية التنقص.

فإذا قال: اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت، فكأنه لم يثق بأن الله قادر على كل شيء، لذا كان الواجب أن يعزم المسألة كما أخبر ﷺ في هذا الحديث: «**ليعزم مسألته؛ فإن الله لا مكره له**»، وفي رواية: «**فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه**»، أي: قادر ولا يعجزه ولا يتعاظمه شيء أعطاه.

---

(١) جزء من الحديث السابق.

(٢) جزء من الحديث السابق.

وقد ورد ما يدل على ذلك في الحديث النبوي، وهو قول النبي ﷺ: «**أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض، فإنه لم يَغِضّ ما في يمينه**»[1]، وفي قوله عليه السلام في الحديث المذكور: «**لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، قاموا في صعيد واحد، فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك مما عندي، إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر**».

فإذا كان العبد بحاجة، وربه هو الغني الحميد، فإن عليه أن يعظم الرغبة في ذلك، هذا هو المعنى الأول.

* **المعنى الثاني**: أنه إذا قال: «**اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت**»، فكأن العبد يقول: إنني لست بحاجة وضرورة إلى المغفرة والرحمة، فإن حصلت لي انتفعت بها، وإن لم تحصل لم يحصل ضرر ولا ضيم، وهذا ـ أيضاً ـ خطأ؛ وذلك لأن العبد كما ذكرنا في أشد الضرورة، وفي مسيس الحاجة إلى مغفرة ربه، وإلى رحمة ربه، وإلى رعايته وكفايته، وإلى حمايته وعصمته.

وأنه لو تخلى ربه عنه لحظة لتسلطت عليه الأعداء، ولفتكوا به من كل ناحية، ولكنه تعالى يكلأ عباده مؤمنهم وكافرهم، ويحرسهم ويرزقهم ويعطيهم ويغنيهم بفضله ونعمه؛ فمنهم من يشكر ومنهم من يكفر، فالذي يتوهم أنه يستغني عن الله قد توهم خطأ.

فعلى كلا التقديرين والمعنيين هذا القول فيه تنقص لله تعالى، ولكن التقدير الأول أشد؛ لأنه إذا قال: إن قدرت أن تغفر لي فاغفرلي، وإن قدرت أن تعطيني كذا فأعطني، فكأنه يتهم الله بأنه غير قادر، أو يشك في قدرة الله تعالى، فيكون ذلك تنقصاً، حيث اتهم الله تعالى بالعجز والفاقة وعدم القدرة.

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٧٤١١)، ومسلم برقم (٩٩٣). عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وأما على التقدير الثاني فإن فيه الاعتزاز بالنفس، فكأنه يظن أنه إذا لم تحصل له المغفرة والرحمة لا يتضرر ولا يتألم، وإذا حصلت له انتفع بها، وإن لم تحصل فلا نقص عليه؛ وهذا خطأ؛ وذلك لأن فيه اعتزازاً بالنفس، وذكر شيء فيه الاستقلال عن رعاية الله وحمايته والعبودية له.

ولا شك أن هذا خروج عن العبودية لله، فيكون فاعل ذلك قد ترك شيئاً من العبادة لله وعبد غير الله بلا شك.

فعلى كلٍ على العباد أن يظهروا الرغبة إلى ربهم، ويستغفروه ويسألوه المغفرة والرحمة والرضوان في كل أحوالهم، والله أعلم.

■ ■ ■ ■ ■

[٥٣]

باب:
لا يقول: عبدي وأمتي

في الصحيح، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقولن أحدكم: أطعم ربك، وضئ ربك، وليقل: سيدي ومولاي، ولا يقل أحدكم: عبدي وأمتي، وليقل: فتاي وفتاتي وغلامي».

■ ■ ■ ■ ■

• فيه مسائل:

الأولى: النهي عن قول: عبدي وأمتي.

الثانية: لا يقول العبد: ربي، ولا يقال له: أطعم ربك.

الثالثة: تعليم الأول قول: فتاي وفتاتي وغلامي.

الرابعة: تعليم الثاني قول: سيدي ومولاي.

الخامسة: التنبيه للمراد؛ وهو تحقيق التوحيد حتى في الألفاظ.

■ ■ ■ ■ ■

•• الشرح ••

باب:
لا يقل: عبدي وأمتي

من الآداب الدينية الأدب اللفظي، وقد علَّم النبي ﷺ أمته الآداب اللفظية كما علمهم الأفعال، وكما نهاهم عن وسائل الشرك الفعلية نهاهم عن وسائله القولية، كما نهاهم ـ أيضاً ـ عن كل شيء فيه رفع للنفس عن حدها، وإعطائها فوق مستواها، ومن ذلك ما ذكره المصنف رحمه الله في هذا الباب، وهو النهي عن أن يقول الإنسان: عبدي وأمتي، أو ربك ونحو ذلك.

■ **قوله: [في الصحيح، عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقولن أحدكم: أطعم ربك، وضئ ربك، وليقل: سيدي ومولاي، ولا يقل أحدكم: عبدي وأمتي، وليقل: فتاي وفتاتي وغلامي»**(١)]:

الرب: اسم من أسماء الله تعالىٰ، فهو رب العباد.

والرب: يطلق علىٰ معنيين:

الأول: المالك، فقول أحدهم: ربُّ العالمين، أو رب الخلق، أو رب الناس، أي: مالكهم، فكلهم ملكه، فهو ربهم.

الثاني: التربية؛ بمعنىٰ: أنه رباهم، أي: أنعم عليهم ونشأهم وعلمهم وربىٰ أبدانهم، وربىٰ عقولهم، والمعنيان لا يصلحان حقّاً إلا لله تعالىٰ.

ومن أجل ذلك يطلق علىٰ معرفته أنها الربوبية، فمعرفة الله بصفاته، ومعرفة

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٥٥٢)، ومسلم برقم (٢٢٤٩)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

حقه ورزقه يسمى توحيد الربوبية، فالرب سبحانه وتعالى له الربوبية، ولا يجوز إطلاقها على غيره، وإن كان قد يصلح من حيث اللغة إطلاقه على مالك الشيء، كما كان مستعملاً في اللغة.

وقد ذكروا أن عبد المطلب لما جاء أبرهة، وقال له: إن جيشك أخذ إبلي، فقال: كيف تطلب مني الإبل؟ وقد جئت لأهدم البيت، فقال: أنا رب الإبل، وللبيت رب يحميه(١)، ومعنى: (أنا رب الإبل)، أي: مالكها.

وقد ورد ـ أيضاً ـ في القرآن إطلاق الرب على المالك من الخلق، كما قال تعالى في سورة يوسف: ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ [يوسف: ٢٣]، وقد فسره بعضهم بأن المراد: سيده، أي: لا أخون سيدي فإنه أحسن مثواي؛ وإن كان التفسير الثاني أن المراد: الله، أي: لا أعصي الله تعالى؛ إنه ربي أحسن مثواي.

لكن ورد ـ أيضاً ـ في نفس سورة يوسف: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢]، أي: عند سيدك، وقال تعالى في السورة: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ﴾ [يوسف: ٥٠]، أي: ارجع إلى سيدك.

فيجوز إطلاق الرب في اللغة، ولكن أصبح الربُ عند الإطلاق وعند الاستعمال إنما يقصد به الله تعالى.

والحاصل أن إطلاق لفظ الرب على غير الله تعالى لا يجوز بعد انصراف الرب إلى الله، ولو كان ذلك الذي أطلقت عليه مالكاً لذلك الشيء، فلا يقال: رب الدار، وإن كان مستعملاً قديماً في اللغة، للنهي عنه في هذا الحديث، ولا يقال: رب الغلام، ولا يقال: أعط ربك، ولا يقال: اذهب إلى ربك، ولا يقال: هذا من ربك، ونحو ذلك.

---

(١) انظر السيرة النبوية لابن هشام (١ـ٢/ ٥٠).

ولهذا نهىٰ عنه في هذا الحديث: «**لا يقول أحدكم: أطعم ربك، وضئ ربك**»، وأمره أن يعترف له أنه سيده، أي: مالكه ومولاه، وليقل: «**سيدي ومولاي**».

وقد اختلف في كلمة (السيد)، **هل تطلق على المخلوق أم لا**؟

جاء في الحديث الصحيح: أن ناساً من بني عامر انطلقوا إلىٰ النبي ﷺ، فقالوا: يا سيدنا وابن سيدنا. فقال: «**السيد الله**» قالوا: وأفضلنا فضلاً، وأعظمنا طولاً، فقال: «**قولوا بقولكم، أو بعض قولكم، ولا يستجرينكم الشيطان**»(١).

فمن هذا أخذوا أن النبي ﷺ كره أن يطلق عليه لفظ السيادة مع كونه أهلاً لها، ولكن الصحيح إطلاق السيد علىٰ المالك؛ لأنه متسلط علىٰ مملوكه، ونحو ذلك.

ويطلق - أيضاً - علىٰ كبير القوم، كما ذكروا في قصة سعد بن معاذ؛ أنه لما جاء قال النبي ﷺ: «**قوموا إلى سيدكم**»(٢)، ولكن يكره إطلاق السيادة علىٰ من لا يستحقها، كالموصوف بالنفاق ونحوه، فقد ورد في بعض الأحاديث أن النبي ﷺ قال: «**لا تقولوا للمنافق: سيدنا؛ فإنه إن يك سيدكم فقد أسخطتم ربكم عز وجل**»(٣)، أي: إن جعلتموه سيدكم وهو منافق فقد أسخطتم ربكم عز وجل، أي: أن هذا ذنب كبير بأن يطلق علىٰ هذا العاصي سيد، وهو ليس أهلاً للسيادة.

ومن ذلك يتضح أن علىٰ المسلم أن يتحفظ في هذه الكلمة فلا يطلقها علىٰ

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (٤٨٠٦)، وأحمد (٤/ ٢٤، ٢٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٣٥٩٤). وسيأتي تخريجه مفصلاً في باب: (ما جاء في حماية النبي ﷺ حمىٰ التوحيد، وسده طرق الشرك).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٤١٢١)، ومسلم برقم (١٧٦٨).

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٣٤٦)، والبخاري في الأدب المفرد رقم (٧٦٠)، وأبو داود رقم (٤٩٧٧). عن عبدالله بن أبي بريدة عن أبيه.
وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد رقم (٥٨٤)، وفي السلسلة الصحيحة رقم (٣٧١).

كل أحد، فكثيراً ما تطلق على فسقة، وعلى عصاة ونحو ذلك، ولا بأس أن تطلق على المتفضل وصاحب الفضل، وهي أيضاً صفة لله، كما في هذا الحديث: «السيد الله».

أما قوله: **«ولا يقل أحدكم: عبدي وأمتي وليقل: فتاي وفتاتي وغلامي»**:

العبد هو: الذي يخضع لمعبوده، ويذل له، ويتواضع بين يديه، والعبدُ هو: الذي يعبد ربه، أو يعبد معبوده بغاية الخضوع والذل، والعبد هو: الذي يحب ويتواضع ويتذلل لمعبوده، وتلك صفة خاصة بالعباد مع ربهم تعالى.

فالعبودية أصبحت وصفاً لعباد الله مع ربهم تعالى؛ وذلك لأن العبودية تستلزم الذل والخضوع، وذلك وصف لا يستحقه بكامله إلا الله تعالى.

وقد فسرت العبادة بتفاسير، ومنها تفسير شيخ الإسلام ابن تيمية: (أنها غاية الحب مع غاية الذل)، وذكر ذلك ابن القيم في نونيته في قوله:

وعبادة الرحمن غاية حبه

مع ذل عابده هما قطبان

فإذا تبين أن العبد هو: من يحب معبوده ويذل له، فإن هذا الوصف إنما ينطبق على عبودية الإنسان لله تعالى، وعبودية الإنسان لله تعالى بخلاف عبودية المخلوق للمخلوق؛ فإنه ولو صدق عليه أنه عبد، أي: مملوك، لكن هذه عبودية مؤقتة، وليست مستقرة، وليست مطردةً، لأنه إنما يملكه في أشياء، ولهذا لا يملك كل حاله.

فمن أجل ذلك نهاه أن يقول: **«عبدي أو أمتي»**، وفي بعض الروايات: **«كلكم**

عباد الله، وكل نسائكم إماء الله»(١)، والأمة: هي المملوكة، والعبد: هو المملوك، وكل الخلق الذكور والإناث ملك لله.

فلا يصلح أن تطلق هذه الكلمات التي فيها مزاحمة للرب تعالىٰ في ملكه، فإذا كان الملك ملك الله تعالىٰ، أي: الملك المطلق؛ فإنه لا يصلح أن يزاحم في شيء من ذلك، وإذا كان الخلق عبيداً لله فلا يصح أن يترفع عن هذه العبودية، ولا أن يدعيها أحد لنفسه.

وإذا كانت الربوبية لله تعالىٰ فلا يصلح أن يدعيها أحد، ولا يزاحم الرب فيها أحد، ولو علىٰ وجه الإعارة، أو علىٰ وجه غير مستقر؛ وذلك من باب سد الذرائع التي لها أحكام المقاصد، ومن باب التأدب في الألفاظ؛ فإنه عليه الصلاة والسلام أدب أمته في الألفاظ؛ كما أدبهم في الأفعال، فإذا تأدبوا وابتعدوا عن مثل هذه الألفاظ التي تخل أو تقدح في التوحيد كمل بذلك توحيدهم، والله تعالىٰ أعلم.

■ ■ ■ ■ ■

---

(١) أخرجها البخاري في الأدب المفرد، كما ذكر الحافظ في الفتح (٥/ ٢١٤).

[٥٤]

باب:
لا يرد من سأل بالله

عن ابن عمر ، قال: قال رسول الله ﷺ: «من استعاذ بالله فأعيذوه، ومن سأل بالله فأعطوه، ومن دعاكم فأجيبوه، ومن صنع إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئوه، فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه»، رواه أبو داود، والنسائي بسند صحيح.

■ ■ ■ ■ ■

• فيه مسائل:

الأولى: إعاذة من استعاذ بالله.

الثانية: إعطاء من سأل بالله.

الثالثة: إجابة الدعوة.

الرابعة: المكافأة على الصنيعة.

الخامسة: أن الدعاء مكافأة لمن لم يقدر إلا عليه.

السادسة: قوله: حتى تروا أنكم قد كافأتموه.

■ ■ ■ ■ ■

●● الشرح ●●

باب:
لا يرد من سأل بالله

قَصَدَ المؤلف من وراء هذا الباب أن من عظم الله عظم أسمائه واحترمها، وأن من احترم أسماء الله فتوسل بأسمائه، أو سأل بها؛ فإنهُ يعطى ما سأل، أو استعاذ بأسماء الله، فإنه يعاذ.

■ **قوله: [عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «من استعاذ بالله فأعيذوه، ومن سأل بالله فأعطوه، ومن دعاكم فأجيبوه، ومن صنع إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئوه، فادعوا له حتى تُروا أنكم قد كافأتموه»**[1]**. رواه أبو داود، والنسائي بسند صحيح]:**

ذُكر في هذا الحديث خمس خصال:

الأولى: الاستعاذة: **«من استعاذ بالله فأعيذوه»**.

الثانية: السؤال: **«من سأل بالله فأعطوه»**.

الثالثة: إجابة الدعوة: **«من دعاكم فأجيبوه»**.

---

(١) أخرجه أبوداود برقم (١٦٧٢) و(٥١٠٨) و(٥١٠٩)، والنسائي (٥/ ٨٢)، وأحمد في المسند (١/ ٢٤٩-٢/ ٦٨، ٩٩، ١٢٧)، وابن أبي شيبة في المصنف (٣/ ٢٢٨)، والبخاري في الأدب المفرد برقم (٢١٦)، والطبراني في الكبير برقم (١٣٤٦٥، ١٣٤٦٦)، والحاكم في المستدرك (١/ ٤١٢).
والحديث صححه الحاكم ووافقه الذهبي، وصححه النووي في رياض الصالحين (٦٥٣)، وقال: رواه أبو داود والنسائي بأسانيد الصحيحين، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد رقم (١٥٨)، وفي السلسلة الصحيحة رقم (٢٥٤).

الرابعة: المكافأة: «**من صنع إليكم معروفاً فكافئوه**».

الخامسة: المكافأة بالدعاء: «**فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه**».

والشاهد هو **الخصلتان الأوليان**، وأما البقية فإنها مشتمل عليها الحديث فأوردت تبعاً للحديث، ولا شك أن المسألتين الأولتين لهما صلة بالعقيدة وصلة بالتوحيد.

الخصلة الأولى: الاستعاذة: قال ﷺ: «**من استعاذ بالله فأعيذوه**»:

صورة الاستعاذة أن يقول إنسان: أعوذ بالله من شرك، أو: أعوذ بالله من اعتدائك علي، أو: أعوذ بالله منك وهكذا، فهذا قد استعاذ بالله؛ ومن ثم فعليك أن تكف عنه وأن تتوقف.

وهذا المستعيذ الذي استعاذ لا يخلو، من حالين:

إما أن يكون ظالماً، أو مظلوماً.

* **أما الحال الأولى**: فإن كان مظلوماً، وأنت معترف بأنك معتدٍ عليه وظالم له، فأقدمت على إهانته، واستهنت بالله، وبأسماء الله، ولم تعذه؛ فقد جمعت بين منكرين:

الأول: كونك أوصلت ظلماً إلى مخلوق ظلمته بغير حق.

والثاني: كونك استهنت بأسماء الله، وقد تجرأت عليه، وقد استعاذ بالله، فكأن الله لا يعيذ، وكأنه ليس بمعاذ ولا ملاذ، وكأنه أصبح في جوار الله، وأصبح في حمايته وعصمته وعهده وذمته، وأنت رغم ذلك أخفرت ذمة الله، ونقضت

عهد الله.

وذلك بلا شك تهاون بأسماء الله وتهاون بحرماتها واعتداء عليه، فكان ولا شك منقصاً للتوحيد، حيث إن الذي يسمع من يستعيذ بالله، ولا يكف عن المستعيذ كأنه يقول بلسان حاله: لا يقدر الله أن يعيذك، ولا يقدر على أن يحميك، ولست في عصمته ولا في جواره، فيكون بذلك قد تجرأ على الله وعلى من لاذ واحتمى بجناب الله.

وهو في هذه الحال لا يأمن أن يطالبه الله تعالى بعهده وبذمته، فقد ورد في الحديث أن النبي ﷺ قال: «**من صلى الفجر في جماعة فهو في ذمة الله، فإياكم أن تخفروا ذمة الله**»[(١)]، وفي بعض الروايات: «**إياكم أن يطلبكم الله بشيء من عهده؛ فإن من طلبه أدركه**»[(٢)]. ومعنى كونه في «**ذمة الله**»، أي: في جواره.

فالذي يقول: أنا عائذ بالله من ظلمك، أو: أنا مستعيذ بالله من عدوانك، هذا قد لجأ إلى الله واستعاذ به، فالذي يتجرأ عليه لا شك أنه لم يكن لربه قدر في قلبه، ولم يقع في نفسه احترام لجوار الله، ولا لمن لاذ بجناب الله، ولا لمن استعاذ به؛ فأصبح بذلك ناقص العقيدة.

* **وأما الحال الثانية**: إذا كان المستعيذ ظالماً، وأنت تعلم علم اليقين أنه ظالم، ولكنه استعاذ وقال: أعوذ بالله من شرك، أو: أعوذ بالله منك، ففي هذه الحال

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٢٢٢)، وابن ماجه برقم (٣٩٤٥، ٣٩٤٦)، دون قوله: «**في جماعة**»، عن جندب بن عبدالله رضي الله عنه.

قال الترمذي: حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب رقم (٤١٥).

(٢) أخرجها مسلم برقم (٦٥٧)، عن جندب بن عبدالله رضي الله عنه، ولكن بلفظ: «**من صلى الصبح فهو ذمة الله، فلا يطلبنكم الله من ذمته بشيء فيدركه فيكبه في نار جهنم**».

أيضاً تحترم أسماء الله وتتوقف، وتطلب من يأخذ لك حقك منه قهراً بحكم معتمد أو مستند إلىٰ شرع الله؛ لأنه يعتبر لائذاً بالله وهو غير أهل، والله تعالىٰ قد شرع العقاب للظالم والمعتدي بمثل ما اعتدىٰ، كقوله تعالىٰ: **﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾** [النحل: ١٢٦]، وقوله: **﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾** [الشورىٰ: ٤١]، وقوله: **﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾** [البقرة: ١٩٤]، ولكن عليك أن تتركه حتىٰ تسلط عليه الدولة والولاية والحاكم الشرعي الذي يأخذ منه حقك قهراً.

وبهذا يتبين لنا صلة هذه الفقرة بالباب، وأن الذي يرد من استعاذ بالله قد تهاون بأسماء الله تعالىٰ، ويكون ذلك قدحاً وعيباً في معتقده، ونقصاً في توحيده.

الخصلة الثانية: السؤال: قال ﷺ: **«من سأل بالله فأعطوه»**:

صورة السؤال أن يقول: أسألك بالله كذا وكذا.

والمسئول الذي يسأل له حالات:

● **الحالة الأولى**: أن يسألك حقّاً عندك له، وأنت تعرفه، فهاهنا يجب عليك أن تعطيه حقه؛ فإذا قال مثلاً: أسألك بالله أن تعطيني حقِّي الذي أودعته عندك وأتمنتك عليه، ففي هذه الحال يجب أن تعطيه حقَّه؛ لسببين:

السبب الأول: أداء الحقوق والأمانات، والتنصل من الظلم وحقوق المخلوقين.

والسبب الثاني: كونه سألك بالله، وتوسل بأسماء الله تعالىٰ.

أما إذا منعته حقه أصبحت ظالماً من هاتين الجهتين، والجهة الثانية أشد من الأولى؛ لكونك لم تحترم أسماء الله، وامتهنت اسم الله الذي سألك به، واحتقرت السؤال به، واحتقرت حرمات أسماء الله؛ فأصبحت بهذا الفعل قد تجرأت هذه الجرأة، وهانت عليك أسماء الله هذا الهوان، ولا شك أن هذه الاستهانة تنقص التوحيد وتنافي كماله.

● **الحالة الثانية**: أن يسألك حقاً ليس له، وتعرف أنه لا حق له عندك، وتعرف أنه ظلمك باتهامك أن له عندك حقاً، فقال: أسألك بالله أن تعطيني حقِّي، وأنت تعرف أنه معتد وظالم، ففي هذه الحالة لا تعطه، وذلك لا يكون استهانة منك بأسماء الله لمن سأل به.

وعليك أن تبين للناس خطأه وظلمه وطلبه ما لا يستحقه، وأنه قد أخطأ في الأمرين؛ أخطأ حيث اتهمك بشيء ليس عندك، وأخطأ في سؤاله.

فمثل هذه الحالة لا يجوز للسائل اتخاذها ذريعة مخافة الاستهانة بها ونحو ذلك، ولكن إذا أجبته إجابة مؤقتة ووعدته حتى يتذكر ويتبين، فهذا أولى.

الحالة الثالثة: وهي التي قد تقع كثيراً، وهي سؤال السائلين الذين يسألون أموال الناس، وأنت تعرف أن السائل الذي يسأل أموال الناس قد ورد نهيه عن هذا الفعل، وأنه قد أخطأ حيث ارتكب هذا السؤال الذي هو تكفف الناس وطلبهم شيئاً من أموالهم، حيث قال النبي ﷺ: «**لأن يحتطب أحدكم على ظهره خير له من أن يسأل الناس، أعطوه أو منعوه**»[(١)]، وفي الحديث الآخر: «**لا تزال المسألة بالرجل حتى يأتي يوم القيامة وليس في وجهه مزعة لحم**»[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري برقم (١٤٧٠)، ومسلم برقم (١٠٤٢)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.
وأخرجه البخاري برقم (١٤٧١)، عن الزبير بن العوام رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري برقم (١٤٧٤)، ومسلم برقم (١٠٤٠)، عن حمزة بن عبدالله بن عمر عن أبيه.

فهذا بيان أنه لا يحل له سؤال الناس وهو يجد ما يُكف نفسه وما يكفيه، لكن مع ذلك إذا سأل فإن له حقاً، لا سيما إذا سأل بأسماء الله، ولكن يقال له: لا تعرض الناس للاستهانة بأسماء الله، وأنت لست بمستحق أن تسأل، وحرام عليك أن تسأل الناس ولك ما يسد فاقتك، وإذا سألت فلا تلحف في المسألة، وكن من الذي قال الله فيهم: ﴿لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: ٢٧٣]، وإذا سألت فاسأل الناس، ولا تتوسل بأسماء الله فتعرض أسماء الله وصفاته للاستهانة بها.

وقد ذكر النبي عليه الصلاة والسلام أن الذي يطوف على الناس لا يطلق عليه مسكيناً؛ لقوله: «**ليس المسكين بهذا الطواف الذي يطوف على الناس ترده التمرة والتمرتان واللقمة واللقمتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غنىً يغنيه، ولا يفطن له فيتصدق عليه، ولا يقوم فيسأل الناس**»(١).

فيقال له: إذا اضطررت إلى السؤال واشتدت حاجتك وفاقتك، ولم تجد مجالاً إلا السؤال، فعليك أن تسأل بقدر كفايتك ثم تكف، وعليك ألا تتوسل إلا بما تظن أنه جائز، فلا تقول: أسألك بالله أن تعطيني، أو: أسألك بأسماء الله، أو: أسألك باسم الله الرحمن الرحيم أن ترحمني، أو: أسألك باسم الله السميع العليم أن تسمع مقالي وأن تعطيني.

فلا يجوز مثل هذا؛ لأنه تعريض لأيذاء المسؤول؛ فقد يكون المسؤول غير واجد، وقد لا يكون عنده فضل، بل عنده كفاية نفسه، وقد يكون المسؤول بخيلاً فلا يعطيه، فيكون قد منع من توسل بأسماء الله.

وقد ورد إعطاء السائل ما يكفيه ولو قليلاً، ولو كان مظهره على ما هو عليه

---

(١) أخرجه البخاري برقم (١٤٧٦)، ومسلم برقم (١٠٣٩)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

حتى قال ﷺ: «**للسائل حق، وإن جاء على فرس**»[1]، أي: بناءً على أن هذا من المبالغة.

فعلى كل حال هذا السائل الذي يسأل أموال الناس، إذا سأل وتوسل بأسماء الله، أو بشيء من صفاته وسأل بالله، فإن عليك أن تعطيه امتثالاً لهذا الحديث، ولو قليلاً إذا كنت واجداً، فإن لم تكن واجداً فإن معك عذرك.

فقوله: «**من سألكم بالله فأعطوه**»، أي: إذا توسل إليكم باسم من أسماء الله فأعطوه ما يسكته، ولو قليلاً، أو بقدر وجدكم على ما ذكر الله في قوله: ﴿مِّن وُجْدِكُمْ﴾ [الطلاق: ٦].

فعرفنا بذلك أن هذه الفقرة لها صلة بالباب، وأن الذي يرد من سأل بالله قد تهاون بأسمائه؛ فيكون ذلك قدحاً أو عيباً في معتقده، ونقصاً في توحيده، وإن تفاوت ذلك الرد.

الخصلة الثالثة: إجابة الدعوة: قال ﷺ: «من دعاكم فأجيبوه»:

الإجابة قد تكون خاصة كإجابة إلى طعام، وقد تكون عامة كإجابة إلى غرض من الأغراض، كأن يدعو إلى استنصاره لنصره مثلاً على من ظلمه، أو يدعو إلى تنفيذ أمر من أوامر الله، ويكون ذلك واجباً بحسبه، ومن هذا أيضاً ما يحتاج إليه لنصرة المظلوم وإعانة الإنسان على تنفيذ حق من الحقوق، لا سيما إذا

---

(١) أخرجه أبي داود برقم (١٦٦٥)، وأحمد في المسند (١/ ٢٠١)، والبخاري في التأريخ (٤/ ٢/ ٤١٦)، عن الحسين بن علي رضي الله عنه.
قال أحمد شاكر في تحقيق المسند رقم (١٧٣٠): إسناده صحيح، وضعفه الألباني في الضعيفة رقم (١٣٧٨).
وقد روي الحديث من طرق أخرى عن علي بن أبي طالب، وعبدالله بن عباس، وأنس بن مالك، والهرماس بن زياد، وأبي هريرة رضي الله عنهم أجمعين.

كان مثلاً يريد أن يغير منكراً فدعاك إلىٰ تغييره معه لتعينه أو نحو ذلك .

ولكن أكثر من شرح الحديث جعلوا الإجابة خاصة بالإجابة إلىٰ طعام ، وبعضهم خصه بطعام الوليمة كوليمة الزواج ونحوها ؛ لأنه ورد فيها ما يقتضي تأكيد الأمر بالإجابة حتىٰ ولو دعي وهو صائم ؛ فإما أن يأكل ليجبر نفس أخيه وصاحب الطعام ، وإما أن يدعو لهم وينصرف[1] .

وعلىٰ كلٍ فالإجابة تختلف باختلاف الأحوال ، وفي هذه الأزمة قد تكون الحالة أخف ، وذلك لكثرة الخيرات عند الناس ، ولعدم التأثر بالإجابة ونحوها ، ولعدم إساءة الظن بمن تخلف ونحو ذلك .

الخصلة الرابعة : المكافأة : قال ﷺ : **«من صنع إليكم معروفاً فكافئوه»** :

المعروف ليس خاصاً بالأمور الدنيوية ، وإن توهم ذلك أغلب الناس أو طبقوا هذا عليها ، بل هو عام في الأمور الدنيوية والدينية ، فإذا صنع إليك إنسان معروفاً بأن نفعك نفعاً في دينك أو نفعاً في دنياك فإن عليك مكافأته ، وإذا لم تجد فعليك الدعاء له .

ومثال ذلك : إذا أقرضك في وقت حاجة ، فإن عليك أن تكافئه بأن تقرضه إذا رأيته محتاجاً ونحو ذلك ، أو ترد عليه قرضه متىٰ اكتفيت واستغنيت .

كذلك إذا أهدىٰ إليك ، فإن عليك أن تكافئه بأن تهدي له ، أو مثلاً حمل معك متاعاً أو حمل لك شيئاً من الأمور ، أو ما أشبه ذلك ، فعليك مكافأته علىٰ ذلك .

---

(١) لحديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : **«إذا دعي أحدكم فليجب ، فإن كان صائماً فليصل ، وإن كان مفطراً فليطعم»** . أخرجه مسلم برقم (١٤٣١) .

وفي رواية لمسلم أيضاً برقم (١٤٣٢) : **« . . . فمن لم يأت الدعوة فقد عصى الله ورسوله»** .

والمكافأة إما مكافأة بالمال، وإما مكافأة بالنفع بأن تنفعه كما نفعك، ولو في مجال آخر أو ما أشبه ذلك.

الخصلة الخامسة: المكافأة بالدعاء: قال ﷺ: «**فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له، حتى تروا أنكم قد كافأتموه**»:

ذكر في بعض الأحاديث أنه ﷺ قال: «**من صُنع له معروفاً فقال لفاعله: جزاك الله خيراً، فقد أبلغ في الثناء**»[1]، فإن هذا دعاء له بالخير، والخير عام، وإن كان أصله قد يطلق على خير الدنيا، كقوله عن المال: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨]، ولكنه يعم خير الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧]، يدخل في ذلك الحسنات والأعمال الصالحة وما أشبه ذلك.

فبكل حال إذا نفعك إنسان في أمر دنياك فإن عليك أن تنفعه بقدر ما تستطيع؛ إما ببدنك، وإما بمالك، فإن لم تجد شيئاً من المال ولم تستطع ببدنك أن تفعل، فما عليك إلا أن تعترف بإحسانه إليك وتكثر من الدعاء له، وشكره على ذلك وإظهار فضله؛ حتى يقتدي به غيره من ذوي الوجد ومن ذوي السعة ونحوهم.

أما إذا كان النفع دينياً، بأن كنت مثلاً على ضلال فنصحك، وبين لك الطريق السوي؛ فهداك الله بواسطته، فإن عليك أن تدعو له، وذلك لأنه ليس هناك مكافأة له مادام أنه مهتد، لذا عليك أن تكثر من الدعاء له، وإظهار منته وفضله عليك رجاء أن ينتفع بذلك غيره.

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٢٠٣٥). عن أسامة بن زيد، قال الترمذي: هذا حديث حسن جيد، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٦٢٤٤).

لكن إن قدرت أن تنصحه بأن رأيت فيه عيباً، فبينت له حتىٰ يستقيم فتكون قد كافأته بنصيحة أخرىٰ، فيكون نَصَحَكَ عن منكر؛ فتبت منه، واستقمت، ورأيته قد ترك ذلك المنكر، ولكن فعل منكراً آخر فنصحته فاستقام، فإن هذه مكافأته.

ويدخل في ذلك أيضاً النفع بأن ينفعك مثلاً بفائدة أفادك إياها، أو نحو ذلك، وفي ذلك يقول بعضهم:

إذا أفادك إنسان بفائدة
من العلوم فلازم شكره أبداً
وقل فلان جزاه الله صالحة
أفادنيها وألقِ الكبر والحسد

فهذا الحديث جمع هذه الخصال التي فيها إرشاد للإنسان في معتقده، وإرشاد له في معاملته بين الناس، فإذا طبقه المسلم استفاد فائدة كبيرة، والله تعالىٰ أعلم.

■ ■ ■ ■ ■

[٥٥]

باب:
لا يُسأل بوجه الله إلا الجنة

عن جابر، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يُسأل بوجه الله إلا الجنة»، رواه أبو داود.

■ ■ ■ ■ ■

• فيه مسائل:

الأولى: النهي عن أن يسأل بوجه الله إلا غاية المطالب.

الثانية: إثبات صفة الوجه.

■ ■ ■ ■ ■

الشرح

باب:
لا يسأل بوجه الله إلا الجنة

السؤال هنا بمعنى الدعاء والطلب، وأطلقوا عليه دعاءً من باب التأدب، وإلا فهو شبيه بالأمر، فقالوا: هو دعاء لأن العبد لا يأمر ربه، وإلا فقوله مثلاً: (رب اغفر لي، رب اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم) فكلمة (اغفر) عند إعرابها تكون فعل أمر، وكذلك (ارحم، وتجاوز)، وهكذا بقية السؤال الذي هو الدعاء فكلها أفعال أمر، ولكن من باب التأدب مع الله لا يقال: العبد يأمر ربه، بل يقال: يطلبه ويسأله ويدعوه.

■ **قوله: [عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يُسأل بوجه الله إلا الجنة»(١)، رواه أبو داود]:**

مناسبة هذا الحديث وهذا الباب لأبواب التوحيد أن الذي يسأل بوجه الله أموراً دنيئة لم يحترم الله، ولم يحترم وجهه، ولم يقدره حق قدره، بحيث توسل بوجهه وبصفته العلية إلى أمور دنية تافهة سافلة، فيكون بذلك قد احتقر صفة الله التي هي أشرف الصفات.

فلا يجوز أن يقول مثلاً: أسألك بوجهك دنياً أو مالاً أو زوجة أو صحة، أو شيئاً من الأمور الدنيوية العاجلة، إنما يسأل بوجه الله أشرف المطالب وأعلى

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (١٦٧١)، والديلمي في مسند الفردوس رقم (٧٩٨٦)، والبيهقي في السنن الكبرى (٤/ ١٩٩)، وابن مندة في الرد على الجهمية رقم (٨٨)، عن جابر رضي الله عنه، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع رقم (٦٣٦٦).

المسائل وهو الجنة ؛ لقوله ﷺ: «**لا يسأل بوجه الله إلا الجنة**»، وذلك لأن الجنة هي أعلى مقاصد العبد، وهي نهاية مطلبه، ومتى حصل له دخول الجنة حصل له ما فيها من الثواب الذي أعد لأهل الجنة، فإن في الجنة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فإذا حصلت للإنسان وأدخلها فما بعدها حاصل فيها.

ويجوز أن يتوسل بوجه الله تعالى إلى سؤال الجنة أو سؤال وسائل الجنة، أي: الأعمال الصالحة التي تسبب دخول الجنة، وإن كان بعض الشراح قصره على سؤال الجنة، وقال: لا يجوز أن تقول: اللهم إني أسألك بوجهك قبول الأعمال، والصحيح جواز ذلك؛ لأن قبول الأعمال سبب لدخول الجنة، والتوفيق للأعمال الصالحة سبب لدخول الجنة. وهكذا بقية الأسباب.

والحاصل أنه يجوز أن تقول: اللهم إني أسألك بوجهك الكريم أن تقبل أعمالي، وأسألك بوجهك الكريم أن تهدي قلبي، وأن تسدد لساني، وأن تعينني على شكرك وعلى ذكرك وحسن عبادتك، وأشباه ذلك من الأعمال، فهذه الأعمال يجوز أن تتوسل إليها بوجه الله تعالى؛ لأنها من الأسباب التي يدخل بها العبد الجنة.

وكذلك يجوز أن تستعيذ بوجه الله تعالى من النار؛ لأن من أعيذ من النار دخل الجنة، ويجوز أن تستعيذ بوجه الله تعالى من الكفر ومن الشرك ومن المعاصي ونحوها التي تكون سبباً لحرمان الجنة، فإذا قلت: أعوذ بوجهك الكريم من النار، عُرف أن من نجا من النار دخل الجنة، وإذا قلت: أعوذ بنور وجهك الكريم من الكفر ومن الشرك ومن الذنوب ومن المعاصي، وأعوذ بوجهك الكريم أن أعصيك وأنا أعلم وأستغفرك لما لا أعلم، وأشباه هذا، فإنه جائز؛ لأن ذلك

كله من وسائل دخول الجنة .

وهكذا جميع الشروط ، فإذا قلت مثلاً : أعوذ بوجهك الكريم من الشيطان الرجيم، أو : أعوذ بوجهك الكريم من استيلاء الأعداء عليّ، وأنت تقصد الأعداء الذين هم أعداء لك في العقيدة وفي الديانة لا يضلوك ولا يصدوك عن الهدىٰ ونحو ذلك ؛ لأن هذا كله من وسائل دخول الجنة ، فمتىٰ أعذت من شرهم حصل لك القرناء الصالحون الذين يهدونك ويدلونك ، ومتىٰ أعذت من الشيطان حصلت لك مقارنة ملائكة الرحمة الذين يحصل بمقارنتهم الهداية والوعد بالخير وما أشبه ذلك .

فإذن السؤال بوجه الله الممنوع هو : سؤال الأمور الدنيوية ؛ وذلك لحقارتها وتفاهتها .

ومعلوم أنه يجوز للإنسان أن يسأل ربه حاجاته ، حتىٰ إن بعض السلف قال : (اسأل الله تعالىٰ كل شيء ، حتىٰ ملح طعامك) ؛ وذلك :

أولاً : أنها من حاجات الإنسان الضرورية .

ثانياً : أنه إذا سألها الله تعالىٰ كان ذلك دليلاً علىٰ عبادة ربه وعلىٰ تعظيمه له ؛ حيث عرف أنه لا يأتيه بها إلا هو ، وحيث عرف أن ربه هو الذي يُسأل ، وهو الذي يُعطي من سأل ، وحيث صدَّق بوعد الله لإجابة السائلين في قوله تعالىٰ : ﴿**وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ**﴾ [غافر: ٦٠]، وفي قوله تعالىٰ : ﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ**﴾ [البقرة: ١٨٦] .

فحيث أن الله تعالىٰ قد وعد بإجابة السائلين ، وأمر عباده أن يسألوه وأن يكثروا من سؤاله ، فإن سؤال الله تعالىٰ كل شيء من حاجات الدنيا ومن حاجات

الدين يعتبر من العبادة؛ فإن دعاء الله تعالىٰ عبادة.

والله تعالىٰ يحب منا أن نسأله، ويغضب إذا لم نسأله، وقد ورد في الحديث: «من لم يسأل الله يغضب عليه»[(١)]؛ ولهذا يقول بعض الشعراء:

لا تسألن بُنيّ آدم حاجة

وَسَلِ الذي أبوابه لا تُحجب

الرب يغضب إن تركت سؤاله

وبُنيّ آدم حين يُسأل يغضب

فحيث أن الله تعالىٰ أبوابه لا تحجب، وأنه يغضب علىٰ من ترك سؤاله، فإننا نسأله سبحانه كل شيء من حاجات الدنيا والدين، لكن لشرف صفة وجه الله تعالىٰ الذي هو وجه الجلال والكبرياء، يقال: إنه لا يتوسل بوجه الله إلىٰ الأمور الحقيرة.

* **وفي هذا الحديث إثبات صفة الوجه، وأن لله تعالى وجهاً يليق بجلاله، ولا نشبه** صفات الله تعالىٰ بصفات أحد من خلقه.

وقد ورد إثبات صفة الوجه في القرآن وفي السنة:

فأما في القرآن، فقد أثبت الله تعالىٰ لنفسه الوجه، ووصفه بالجلال والإكرام، بقوله تعالىٰ: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]، وبقوله: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨]، فهذا الوصف يدل علىٰ أن الوجه يوصف بأنه ذو الجلال والإكرام.

---

(١) أخرجه الحاكم (١/ ٤٩١)، وصححه، ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في الضعيفة (١/ ٢٩)، ثم أشار إلىٰ تضعيفه ورجوعه عن هذا التحسين في الضعيفة (١/ ٥٤٢)، هامش (١).

وأما في السنة، فقول النبي ﷺ في وصف الرب تعالىٰ: «**حجابة النور أو النار، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهي إليه بصره من خلقه**»(١)، وكذلك في قوله ﷺ: «**جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن**»(٢)، فقد أخبر أن رداء الكبرياء علىٰ وجهه.

فلما كان وجه الرب تعالىٰ موصوفاً بالجلال والإكرام، وموصوفاً بأن عليه رداء الكبرياء، وموصوفاً بالإشراق، وبأنه لو كشف الحجاب لأحرق ما انتهىٰ إليه بصره من خلقه، لما كان هذا وصفه كان من تَنَقُّصِ صفة الله تعالىٰ أن تمتهن وتبتذل في الأمور الدنيوية الدنيئة.

ولهذا لا يجوز أن تسأل الله بوجهه الكريم الأمور الدنيوية، كأن تقول: اللهم إني أسألك بوجهك زوجة حسناء، أو تقول: اللهم إني أسألك مالاً كثيراً، وما أشبه ذلك من أمور الدنيا لحقارتها.

وأما الأمور التي ليست دنيوية محضة ولكن فيها ما يجعلها أخروية فإنه يسألها ويتوسل إلىٰ سؤالها بوجهه تعالىٰ، وبسائر صفاته، مع أن المطلوب أن يسأل الله تعالىٰ ويتوسل إليه تعالىٰ بسائر أسمائه الحسنىٰ، لقوله تعالىٰ: ﴿**وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا**﴾ [الأعراف: ١٨٠].

وأنت مأمور إذا سألت الله تعالىٰ أن تتوسل إليه بسائر أسمائه، فتقول: أسألك باسمك الرحمن الرحيم أن ترحمني، أو: أسألك باسمك الغفور أن تغفر لي، أو: تأتي بذلك بعد السؤال، فتقول: اللهم اغفر لي؛ فإنك أنت الغفار، أو

---

(١) أخرجه مسلم برقم (١٧٩)، عن أبي موسىٰ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري برقم (٤٨٧٨)، ومسلم برقم (١٨٠)، عن أبي بكر بن عبدالله بن قيس عن أبيه.

اللهم تب عليّ؛ فإنك أنت التواب، أو: اللهم ارحمني؛ فإنك أنت الرحمن الرحيم، أو ما أشبه ذلك، فيجوز أن تقدم الاسم، ويجوز أن تؤخره.

ويجوز أن تسأل المغفرة والرحمة ونحو ذلك، وتتوسل إليها بوجه الله، وذلك لأن المغفرة والرحمة من أسباب دخول الجنة.

وهكذا أيضاً تستعيذ بوجه الله تعالىٰ من العذاب الدنيوي والأخروي، وكذلك من الفتن ما ظهر منها وما بطن؛ وذلك لأن الفتن ـ بالأخص فتن الشبهات ـ من أسباب دخول النار، فكأنك تستعيذ بالله من كل ما يسبب دخول النار، فإن من نجا من النار كان من أهل الجنة.

وإذ قد عرفنا أن الباب معقود لبيان احترام أسماء الله وصفاته، وبالأخص صفة الوجه، وأنه لا يتوسل به إلىٰ الأمور الحقيرة، فكذلك ينبغي أن يسأل الإنسان ربه ويتوسل بأسماء الله الأخرىٰ وبصفاته الباقية.

وفي هذا أيضاً دليل علىٰ أن التوسل بأسماء الله وصفاته سبب لإجابة الدعاء، وأنه يعتبر كوسيلة وواسطة يستجيب الله بها، ويعتبر عبادة إذا سألته وتوسلت إليه بأسمائه وبصفاته.

وفيه دليل علىٰ أنه لا يجوز التوسل بالمخلوقين، فلا يجوز أن تقول: أسألك برسولك، أو: أسألك بعبدك ورسولك محمد، أو آدم أو نوح أو غيرهم من الأنبياء؛ وذلك لأن هذا مخلوق، والمخلوق لا يقاس بصفات الخالق، فالتوسل يكون بصفات الخالق سبحانه، ولا يُرفع المخلوق حتىٰ يصير وسيلة، وأيضاً فإن العبد ليس بينه وبين الله واسطة، فالرب تعالىٰ يسمع دعاء الداعين، ولا تخفىٰ عليه خافية من أمور عباده، فليس بحاجة إلىٰ أن يتوسل إليه بجاه فلان ولا بواسطة فلان ولا غيرهم، بل يسأله بأسمائه الحسنىٰ أو بصفاته العلا.

لكن بعض العلماء أجاز التوسل بالأعمال الصالحة فيما إذا كان الإنسان يسأل ربه نجاة من ضرر أو تحصيلاً لعمل أو نحو ذلك، فأجازوا أن يتوسل بالأعمال الصالحة التي شرعها الله ووفق الإنسان لعملها، كما توسل أهل الغار الذين انطبقت عليهم الصخرة بأعمالهم التي عملوها حتىٰ كشف الله عنهم تلك الصخرة وأزالها عنهم، فتوسل أحدهم ببره لوالديه، وتوسل الثاني بعفته عن الحرام، وتوسل الثالث بأمانته وأدائه الحقوق لأهلها[1]، فهذا كأنه يسأل الله تعالىٰ بأنه من أهل الرحمة، حيث قد عمل من الأعمال ما يستحق بها رحمة الله.

وعلىٰ كل حال ينبغي للإنسان أن يكثر من دعاء الله تعالىٰ وسؤاله بأسمائه الحسنىٰ، وأن يتوسل بأسمائه إلىٰ مقاصده عاجلاً وآجلاً، وألا يبتذل ويمتهن وجه الله تعالىٰ في الأمور التافهة الدنيئة لما في ذلك من احتقار هذه الصفة العلية، والله تعالىٰ أعلم.

■ ■ ■ ■ ■

(١) حديث أهل الغار أخرجه البخاري برقم (٢٢٧٢)، ومسلم برقم (٢٧٤٣)، عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما.

[٥٦]

باب:
ما جاء في اللَّو

وقول الله تعالى: ﴿ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وقوله: ﴿ الَّذِينَ قَالُوا لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ﴾ [آل عمران: ١٦٨].

في الصحيح، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجزن، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإنَّ لو تفتح عمل الشيطان».

■ ■ ■ ■ ■

• فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآيتين في آل عمران.

الثانية: النهي الصريح عن قول: (لو) إذا أصابك شيء.

الثالثة: تعليل المسألة بأن ذلك يفتح عمل الشيطان.

الرابعة: الإرشاد إلى الكلام الحسن.

الخامسة: الأمر بالحرص على ما ينفع مع الاستعانة بالله.

السادسة: النهي عن ضد ذلك وهو العجز.

■ ■ ■ ■ ■

●● الشرح ●●

باب:
ما جاء في اللَّو

استعمال كلمة (لو) يجوز إذا كان لبيان حكم، ولا يجوز إذا كان للتأسف على فائت لا يمكن تداركه.

وقد استعمل الرسول ﷺ كلمة (لو) في بعض الأحاديث لبيان حُكمٍ، كما في قوله ﷺ: «**لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما سقت الهدي، ولجعلتها عمرة**»(١)، فهذا لبيان حكم، وليس للتأسف على فائت، وكذلك قوله ﷺ: «**لولا حدثان قومك بكفر لنقضت الكعبة، ولجعلت لها بابين**»(٢)، إلى آخره، فهذا أيضاً لبيان حكم، وليس هو لتأسف على فائت.

أما الذي لا يجوز، فهو أن يتأسف على شيء لا يمكن تداركه، ثم يستعمل كلمة (لو) ندماً وأسفاً، كأنه يمكنه أن يرد ما حصل وأن يغير ما وقع، وذلك ليس بالإمكان، فإن ما وقع لا يمكن تغييره.

■ **قوله**: [وقول الله تعالى: ﴿**يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا**﴾ [آل عمران: ١٥٤]. وقوله: ﴿**الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا**﴾ [آل عمران: ١٦٨]]:

هاتان الآيتان وقعتا في قصة المنافقين يوم أحد.

فالآية الأولى: في الذين قالوا للنبي ﷺ: لا تخرج من المدينة وقاتلهم في

(١) أخرجه البخاري برقم (١٧٨٥)، ومسلم برقم (١٢١٦).
(٢) أخرجه البخاري برقم (١٧٨٣)، ومسلم برقم (١٣٣٣)

داخلها، فإنك تكون متحصناً ولا يستطيعون التغلب، ولما أشار عليه أكثرهم، وقالوا: بل اخرج بنا إليهم لنقاتلهم فإننا سننتصر عليهم إن شاء الله، فلما رأىٰ حرص أولئك خرج بهم إلىٰ المعركة وحصل ما حصل، فقال هؤلاء: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا﴾ [آل عمران: ١٥٤]، وقالوا قبل ذلك: ﴿هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

والمراد بالأمر هنا التصرف، يقولون: لو كان التصرف إلينا، ولو كانت الولاية بأيدينا لما قتلنا، ولما قتل إخواننا، ولما حصل ما حصل، ولكن رد الله عليهم:

فأولاً: ذكرهم الله بأن هذا شيء بيد الله بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، فإذا كان الأمر كله لله فإنه هو المتصرف فيكم، وهو الذي قدر وقضىٰ، وهو الذي أمر ونهىٰ، فليس لكم شيء من الأمر ولا من التصرف.

وثانياً: بين لهم أن تحصُّنهم لا يفيد ما دام قد كتب عليهم ما كتب من القتل، فإن القتل مقدر، وأن من يقتل لابد وأن يقع به ما قدر عليه وكتب.

وقد أخبر الله أن هذا شيء قد خط في اللوح المحفوظ قبل خلق العالم، فقال: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٢، ٢٣]، فلا تأسوا علىٰ ما فات، ولا علىٰ ما وقع، ولا تقولوا: يا ليتنا فعلنا، ولو فعلنا كذا لكان كذا وكذا، ولا تفرحوا بما آتاكم فرح أشر وبطر، وتقولوا: انتفعنا بحيلتنا وبقوتنا وبإدراكنا كذا وكذا؛ بل اعلموا أن ذلك مقدر.

ثم قال تعالىٰ: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، يعني: لو كنتم متحصنين لكان الذين قد قدر عليهم

أنهم سيقتلون هنا لابد وأن يأتي بهم الله تعالى ويخرجوا إلى أماكنهم التي قدر أنهم سيقتلون فيها، ويسوقهم إلى المكان الذي قدّر بأن يكون هذا مضجع فلان وهذا مقتل فلان، ولا يغني عنهم تحصنهم، وذلك كما فعلت اليهود في قوله تعالى: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢]، فلم تمنعهم حصونهم عن الموت وعن القدر، وكما قال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

ثم قال الله تعالى: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، أي: أنه قدر هذا الأمر ليظهر صادق الإيمان من غيره، وإلا فالله قد علم أن هذا شقي وهذا سعيد.

ومثله أيضاً قوله في الآية التي بعدها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ [آل عمران: ١٥٦]، أي: لو أنهم لم يخرجوا ما قتلوا، قال الله: ﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٨]، أي: ادفعوا عن أنفسكم الموت، فإنهم قد قتلوا بآجالهم، وأنتم سوف يأتيكم الموت، ولكن هل تقدرون على دفعه؟! والجواب: لا تستطيعون دفعه.

وهكذا أيضاً حكى الله عن المنافقين أيضاً في نفس السورة فقال: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ﴾ قيل لهم: إما أن تقاتلوا، وإما أن تدفعوا عن إخوانكم، فقالوا: ﴿لَوْ نَعْلَمُ﴾، فقد استعملوا كلمة (لو) في غير موضعها، ثم أخبر الله تعالى: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ﴾ [آل عمران: ١٦٧]، فقد قالوا ذلك وهم قريبون من الكفر أقرب منهم للإيمان.

ثم قال تعالىٰ في الآية التي بعدها وهي التي أوردها المصنف رحمه الله، قال: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ [آل عمران: ١٦٨]، فكانت هذه مقالتهم لإخوانهم، وهم قد قعدوا.

فالحاصل أن هذا ونحوه فيه انتقاد لهؤلاء الذين يتأسفون علىٰ شيء قد وقع وانقطع؛ لأنه لا حيلة فيما فات، بل الأمر بيد الله، فليس للإنسان شيء من التصرف، فالله تعالىٰ هو الذي يتصرف في الأمور، فإذا وقع الأمر فلا تتأسف ولا تظهر الندم، بل ارض بما قضىٰ الله تعالىٰ وقدر، وهو الذي يختار لعباده، ولا ينافي ذلك أنك قبل أن يقع الأمر تفعل ما في استطاعتك وما في مقدرتك، ولكن بعد وقوعه اقنع بما حصل، وارض وسلم، واعلم أنه لا حيلة في تغيير شيء قد وقع، وأنه لا بد وأن يقع علىٰ هذه الصفة التي هو عليها، فإذا علمت ذلك حَمَلَكَ ذلك علىٰ أن ترضىٰ بما حصل وتقتنع، ولا تظهر التأسف والتندم علىٰ شيء وقع.

■ **قوله: [في الصحيح، عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجزن، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإنَّ لو تفتح عمل الشيطان»**(١)]:

لم يورد المصنف رحمه الله أول الحديث اختصاراً، وأول الحديث قوله ﷺ: **«المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍ خير»**.

المراد بالمؤمن القوي والمؤمن الضعيف القوة في ذات الله، وليس يريد قوة البدن؛ إنما هي قوة القلب، أي: الجرأة علىٰ أوامر الله، والجرأة علىٰ الأعمال الصالحة، وعلىٰ الأمر والنهي، وعلىٰ إقامة حقوق الله وحدوده وما أشبه ذلك،

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٦٦٤)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

فإن هذه هي القوة النافعة، وإن كانت قوة البدن أيضاً لها تأثير ولها فائدة، فهي تفيد مثلاً في القتال أو حمل الأثقال التي قد يحتاج إليها، وما أشبه ذلك، لكن ليس هذا هو المقصود بالحديث، فإن الأصل أن تغذية الأبدان وتنميتها وتقويتها لا تفيد، ولا تقرب عند الله تعالى؛ يقول الرسول ﷺ في الحديث: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم وأجسامكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**»(١).

فإن القوة هي قوة القلب، والجرأة على تنفيذ الحقوق، وهي التي كان عليها الأئمة العلماء الذين لا تأخذهم في الله لومة لائم، فإذا أرادوا إقامة حق من حقوق الله وإظهاره حملتهم قوة قلوبهم على أن يجرؤوا على كل ذلك، وألا يبالوا بما أمامهم من الوعيد ومن التهديد، من سجن أو حبس أو ضرب أو جلد أو قتل وما أشبه ذلك، فإنهم وإن كانت أجسادهم ضعافاً وقواهم الحسية منهوكة لكن قلوبهم قوية، فتحملهم قوة قلوبهم على الجرأة في إقامة الدين وإظهار حقوق الله وحدوده وشعائره وشرائعه.

* ثم قال ﷺ: «**وفي كلٍ خير**»: حيث يجمعهم وصف الإيمان، فإن الكل منهم مؤمن، ولكن القوي نفعه متعد، والضعيف نفعه قاصر على نفسه.

* بعد ذلك قال ﷺ: «**احرص على ما ينفعك**»: الحرص عام لكل ما ينفع الإنسان في دينه ودنياه.

وفي هذا رد على أهل التواكل وأهل العجز والتكاسل، فإنه يخبر بأن الإنسان مأمور بأن يفعل ما يستطيعه، وما في مقدرته من الأسباب التي يكون لها أثر في نفعه لنفسه أو إيصال النفع إلى غيره؛ فلذلك قال: «**احرص على ما ينفعك**»، فحرصك على ما ينفعك يدخل فيه طلبك الرزق بما تستطيعه من الوجوه

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٥٦٤)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

المباحة الحلال، وعدم التعاجز والتكاسل.

ويدخل في حرصك على نفع بدنك تعاطي الشهوات المباحة بالأكل ونحوه، ويدخل فيه أيضاً حرصك على ما ينفع بدنك بالوقاية من الأسباب المؤذية والضارة، فأنت مأمور بأن تحرص على وقاية بدنك من أضرار البرد وأضرار الحر وأضرار العدو والهوام وما أشبهها من الأضرار الحسية، حتى في نفس القتال مأمور بأن تأخذ العدة، ولا تدخل الميدان بغير سلاح وعدة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠]، ولقوله: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥].

وأخبر الله تعالى بأنه قد سخر لداود الحديد حتى صنع الصنعة التي تلبس في الحرب، لقوله تعالى: ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ [النحل: ٨١]، أي: تلبسونها في حالة القتال، وهي الدروع التي يتقى بها وقع السلاح؛ فإن هذه ونحوها تدخل في قوله: «**احرص على ما ينفعك**».

ويدخل في ذلك وبطريق الأولى ما ينفعك في الآخرة، فإنك مأمور بأن تحرص كل الحرص على ما يقربك إلى الله فإنها هي التي يبقى نفعها، فتعمل الصالحات وتفعل الخيرات وتكثر الحسنات وتتقرب إلى الله بالقربات وما أشبهها.

وكما أنك مأمور بأن تحرص على فعل كل شيء نافع فإنك مأمور بأن تبتعد عن الأشياء الضارة التي فيها ضرر حسي أو معنوي؛ فلا يجوز لك أن تلقي بنفسك من شاهق، وتقول: أنا معتمد على الله، ولا يجوز لك كذلك أن تغرق نفسك، ولا يجوز أن تتعرض للأشياء التي فيها هلاك أو مرض وما أشبه ذلك.

وكما أنك تحرص على ما ينفعك من الصلوات ومن العبادات والقراءات

والحسنات ونحوها، فإنك تحرص على ترك ما يضرك وما يشقيك ويكتب عليك شقاءً في الآخرة من السيئات والذنوب والمآثم صغيرها وكبيرها.

* وأما قوله: «**واستعن بالله**»: فإنه يفيد أن الإنسان لا يعتمد على حوله وقوته، بل يطلب من ربه أن يمده بحول منه وبقوة، فيقول: (بحولك يا رب وبقوتك أفعل، فأعني على طاعتك، وأعني على أموري التي أنا بحاجة إليها)، فأمرك بأن تستعين بالله، كما أنك تستعينه في كل قراءة في الصلاة، فتقول: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ [الفاتحة: ٥]، أي: على العبادة وغيرها، فكذلك أيضاً تستعين بالله على الأمور الحسية، فتقول: (يا رب أعني على هذه الصنعة، أو أعني على هذه التجارة، أو أعني على هذه الحرفة)، وما أشبه ذلك.

وقد أمرك بأن تستعين بالله حتى لا تركن إلى نفسك، ولا تعتمد على حولك وقوتك، فإن الله ذم الذين يسندون الخير والكسب والمال والتحصيل إلى قواتهم، كما أخبر الله عن قارون أنه قال: ﴿**إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي**﴾ [القصص: ٧٨]، أي: على علم مني بوجوه المكاسب.

* وأما قوله: «**ولا تعجز**»: فإن في ذلك نهي للإنسان عن التكاسل عن الأمور الحسية وعن الأمور المعنوية، كما ذكرنا أن عمر رضي الله عنه رأى أناساً جالسين في المساجد ليس لهم عمل، فقال لهم: (ما أنتم؟) قالوا: نحن المتوكلون، فقال: (اخرجوا، أنتم المتواكلون؛ ولستم المتوكلين)، فالنهي عن العجز معناه: التكاسل عن طلب المعاش ونحوه، والجلوس مثلاً في المساجد.

ومعلوم أن الإنسان قد كتب الله له ما كتب، ولكن أمره مع ذلك بأن يبذل ما يستطيعه من سبب، ولا يتكاسل ويتعاجز.

ويدخل في ذلك أيضاً عدم التكاسل والتعاجز عن العبادات، فلا يخلد إلى

التكاسل عن الصلوات، ولا عن القراءات، ولا عن النفقات الخيرية، ولا عن النفع العام للمسلمين، ولا عن الأمر بالخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وما أشبه ذلك، فكل ذلك داخل في قوله: «**ولا تعجز**».

* أما قوله: «**وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان**»: وهذا هو الشاهد من هذا الحديث، وهو أن الإنسان أولاً يفعل الأسباب، ولكن متى وقع شيء يكرهه فلا يتأسف على ما مضى، ولا يتندم، ولا يرجع باللوم على نفسه، ولا يقل: ليتني فعلت وليتني لم أفعل، ولا يقل: لو أني سافرت لحصل لي كذا وكذا، أو: لو أني اشتركت لحصل لي كذا، أو: لو أني حرصت لحصلت على كذا وكذا.

نقول: هذا الذي قد مضى وانقضى لا حيلة في رده، فعليك أن ترضى وتسلم، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، وتسلم له؛ فلا حيلة في رده، وتقول ما أمرت به: «**قدر الله وما شاء فعل**»، أي: هذا قدر الله، فما شاءه لابد وأن يفعله، ولا حيلة في رده، كما يقول المسلمون: (ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن)، أي: ما شاءه مشيئة كونية فلابد من وقوعه، وما لم يشأ لا يقع، ولا حيلة في وقوع ما لم يشأ.

فبهذا يكون الإنسان مستسلماً لما وقع بعد أن يقع، فلا تستسلم للهلاك قبل أن يقع، ولا تلق بنفسك إلى التهلكة، ولا تتعاط الأخطار، فلا تخاطر بنفسك فتقول مثلاً: سأسرع في السير ولا خوف عليَّ، فأنت مأمور بأن تتمهل ولا تسرع في سيرك بسيارتك مثلاً، ومأمور بألا تخاطر ولا تتهور بنفسك في لجة البحر مثلاً، ومأمور بأن لا تصعد الأماكن الشاهقة التي فيها خطر أن تنقلب بك ونحو ذلك، وكذلك أنت منهي عن أن تتعاطى أو تفعل الأشياء التي قد تجلب لك

مرضاً نفسياً أو حسياً أو ما أشبه ذلك.

لكن متىٰ وقع شيء منها فارض بما قدر الله واستسلم له، ولا تقل: لو أني لم أسرع لم يحصل كذا، أو: لو أني أسرعت قليلاً لسلمت من هذا الخطر، أو: لو أني تسابقت، أو: لو أني اشتريت مع فلان السلعة الفلانية لربحت كما ربح، أو: لو أني لم أساهم مع فلان لما خسرت هذا الخسران الكبير، أو: لو أني لم أرافق فلاناً لما حصل لي مقاطعة فلان، أو: لو أني... أو: لو أني...، أو ما أشبه ذلك.

والحاصل أنك مأمور ألا تقول: لو أني فعلت، أو: ليتني لم أفعل، وما أشبه ذلك، بل اقنع بما ترزق وارض بما كتب الله، فإن (لو) تفتح عمل الشيطان، ووجه ذلك أنه إذا أخذ يكرر كلمة (لو) فكأنه يلوم نفسه، وكأنه يعترض علىٰ تصرف الله، وكأنه يدعي أنه يمكن تغيير الواقع، ويمكن التخلص من الشيء الذي قد يحصل، وهذا كله اعتراض علىٰ ما قدر الله وما قضاه، فلا حيلة في تغيير شيء من أمر الله، والله تعالىٰ أعلم

■ ■ ■ ■ ■

[٥٧]

باب:
النهي عن سب الريح

عن أبي بن كعب، أن رسول الله ﷺ قال: «لا تسبوا الريح. فإذا رأيتم ما تكرهون، فقولوا: اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح وخير ما فيها وخير ما أمرت به، ونعوذ بك من شر هذه الريح وشر ما فيها وشر ما أمرت به»، صححه الترمذي.

■ ■ ■ ■ ■

• فيه مسائل:

الأولى: النهي عن سب الريح.

الثانية: الإرشاد إلى الكلام النافع إذا رأى الإنسان ما يكره.

الثالثة: الإرشاد إلى أنها مأمورة.

الرابعة: أنها قد تؤمر بخير وقد تؤمر بشر.

■ ■ ■ ■ ■

●● الشرح ●●

باب:
النهي عن سب الريح

الريح هي: هبوب الرياح التي تثور وتثير التراب ونحوه، وتكون تارة رخاءً، وتارة عواصف، وتارة بين ذلك، وهذه الريح والرياح مسخرة من الله ومسيرة، وليست بنفسها متصرفة، وليس لها اختيار، وإنما الله تعالى هو الذي يرسلها.

وقد ذكر الله تعالى الريح بصفة الجمع وبصفة الإفراد، وتارة يجعلها رحمة، وتارة يجعلها عذاباً، فأرسلها على عاد فأهلكتهم، وسماها ريحاً صرصراً في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ [فصلت: ١٦]، وفي آية أخرى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ [القمر: ١٩]، وقدرها في آية أخرى بسبع في قوله تعالى: ﴿فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٦، ٧].

وقد يجعلها مسخرة لبعض خلقه كسليمان عليه السلام، قال تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص: ٣٦].

وقد يجعلها أيضاً مسيرة للسفن في البحر، كقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ [يونس: ٢٢]، فذكر أنها تارة تكون ريحاً طيبة تسير السفن كما يشاء، وتارة تكون عاصفة مثيرة للأمواج يكون الناس فيها على خطر، فسمى هذه ريحاً وهذه ريحاً.

وتارة يذكرها الله بلفظ الجمع، وغالباً أنها هي التي تثير السحب، قال

تعالىٰ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الروم: ٤٦]، فجعلها رياحاً مبشرات؛ لأنها تجيء بالمطر بعدها.

ثم ذكر في آية بعدها أنها تثير السحاب، فقال تعالىٰ: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ [الروم: ٤٨]، أي: مثيرات للمطر وعلامة عليه، وقال تعالىٰ: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ...﴾ [فاطر: ٩]، وقال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الأعراف: ٥٧]، أي: قدامها وقريباً منها، وبشرىٰ، أي: فيها تبشير، وفي قراءة ﴿نُشُراً﴾ أو ﴿نَشْراً﴾، أي: تنشر السحب وتثيرها.

وهذه الريح لا يقدر أحد علىٰ تغييرها، ولو اجتمع الخلق كلهم علىٰ أن يثيروها إذا سكنت ما استطاعوا، ولو اجتمعوا علىٰ أن يوقفوها إذا هاجت وتحركت ما استطاعوا أن يوقفوها أو يردوها.

وفي هذه الرياح مصالح كثيرة، فإنها تخفف الأنتان التي علىٰ وجه الأرض، فلو سكنت هذه الرياح لأنتن ما علىٰ وجه الأرض كالجيف أو الأطعمة الفاسدة أو الفضلات أو نحو ذلك، فهذه الريح تفرق ما يشم منها وتزيله وتذهب به؛ فلا يبقىٰ له رائحة مؤذية، فهذا من الحكمة العظيمة في هذه الرياح.

ومن الحكم فيها ما ذكر الله أنه يرسلها عذاباً، ويرسلها نصراً، وقد ورد ذلك أيضاً في حديث أن النبي ﷺ قال: «**نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور**»[(١)]، والصبا هي: الريح التي تأتي من الشرق، والدبور: الريح التي تأتي من الغرب، فجعل النبي ﷺ الصبا سبباً في نصرته، وذلك في الرياح التي أرسلها الله تعالىٰ علىٰ الأحزاب، قال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ

(١) أخرجه البخاري برقم (١٠٣٥)، ومسلم برقم (٩٠٠)، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب: ٩]، أرسل الله عليهم ريحاً لم تضر المسلمين، ولكنها أكفأت قدور المشركين، وقلعت خيامهم، وأقلقت راحتهم؛ فصارت نصرة للرسول عليه الصلاة والسلام وصحابته، وهذا معنى قوله: «**نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور**».

وكما يرسلها الله تعالى نصرة؛ يرسلها أيضاً عذاباً، كما أرسلها على هود، فإذا سخط الله على قوم وعاقبهم أرسل عليهم الريح، فكثيراً ما تجفف الأرض، وكثيراً ما تقلع الأشجار، وكثيراً ما تحمل أتربة تدفن الحروث ونحوها، فهذه عقوبة يعاقب الله بها بعض عباده، ولا يستطيعون ردها، فعليهم أن يعتبروا أن الذي أرسلها قد أراد منهم أن ينتبهوا ويتذكروا ويعرفوا الحكمة في ذلك.

■ **قوله: [عن أبي بن كعب، أن رسول الله ﷺ قال: «لا تسبوا الريح. فإذا رأيتم ما تكرهون، فقولوا: اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح وخير ما فيها وخير ما أمرت به، ونعوذ بك من شر هذه الريح وشر ما فيها وشر ما أمرت به»[1]، صححه الترمذي]:**

في هذا الحديث النهي عن سب الريح، وذلك لأن سبها يرجع إلى سب من

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٥/ ١٢٣)، والترمذي برقم (٢٢٥٢)، والنسائي في عمل اليوم والليلة برقم (٩٣٣) و(٩٣٤) إلى (٩٤٠)، والبخاري في الأدب المفرد برقم (٧١٩). عن أبي بن كعب رضي الله عنه.

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وصححه الألباني لشواهده في صحيح الجامع رقم (٧١٩٢).

وله شاهد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أخرجه أبو داود برقم (٥٠٩٧)، وابن أبي شيبة في المصنف (٤/ ١٩)، والنسائي في عمل اليوم والليلة برقم (٩٣١)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود.

وشاهد آخر من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، أخرجه الطبراني في كتاب الدعاء برقم (٢٠٥٠).

وشاهد آخر من حديث عائشة رضي الله عنها، أخرجه الترمذي برقم (٣٤٤٩)، وحسنه، وقال الألباني: صحيح.

أرسلها، فلا يجوز سبها، ولا عيبها، ولا الدعاء عليها، ولا غير ذلك؛ لأن ذلك تصرف الله وحده.

والذي يسب الريح كأنه يعترض على الله، ويطعن في حكمته ويطعن في تصرفه؛ لأنه يسب ما لا يستحق السب من الرياح المسخرة، أو يرجع سبه إلى الرب سبحانه وتعالى، ولا شك أن هذا السب إذا رجع إلى الرب عز وجل كان ضلالاً وكفراً وطعناً في حكمة الله، وطعناً في تصرفه؛ فنهانا النبي ﷺ عن سب الرياح، وقال: «**لا تسبوا الرياح**».

وكان عليه الصلاة والسلام إذا ثارت الرياح أخذ يدعو الله بمثل هذه الأدعية، فحفظ عنه أنه كان يقول: «**اللهم اجعلها رياحاً، ولا تجعلها ريحاً**»[1]؛ لأن الريح بالإفراد هي التي أهلك الله تعالى بها بعض الأقوام فأهلك بها عاداً، وكذلك رد الله بها الكفار والأحزاب الذين غزوا المدينة، فيكون فيها عذاب؛ فلذلك قال: «**اللهم اجعلها رياحاً**»؛ لأن الرياح بالجمع هي التي فيها رحمة، كقوله تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ**﴾ [الأعراف: ٥٧].

وهكذا حفظ أيضاً هذا الدعاء الآخر، وهو أنك إذا ثارت الرياح تدعو به فتقول: «**اللهم أني أسألك خيرها، وخير ما فيها، وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها، وشر ما فيها، وشر ما أرسلت به**»[2].

وقوله: «**اللهم أني أسألك خيرها، وخير ما فيها، وخير ما أرسلت به**»: إذا أرسلت مثلاً بإثارة السحب بشرى بين يدي المطر ونحو ذلك.

وقوله: «**وأعوذ بك من شرها، وشر ما فيها، وشر ما أرسلت به**»، إذا كان فيها

---

(١) أخرجه الشافعي في مسنده بإسناد ضعيف جداً، والبيهقي في الدعوات الكبير عن ابن عباس، تخريج المشكاة رقم (١٥١٩).

(٢) جزء من حديث أخرجه مسلم برقم (٨٩٩)، عن عائشة رضي الله عنها.

عذاب وهلاك، أو إذا كان فيها غرق، حيث أن السحب قد يكون فيها غرق ونحوه؛ أو الريح فيها تجفيف للأرض، ونحوه، أو فيها قلع للأشجار أو عذاب للأرواح وما أشبهها.

ومعنىٰ الاستعاذة كأنك تقول: أعوذ بك يا رب، بمعنىٰ: ألتجئ إليك وأتحصن بك وأحتمي بك وأستجير بك؛ فإنك أنت الملاذ وأنت المرتجىٰ من شر هذه الريح التي أرسلتها والتي هي تصرفك.

فهذا دعاء جامع، يفيد أولاً: أن الإنسان يعترف بأن هذه الريح من الله، وليست من نفسها ثارت، وليس أحد من الخلق أثارها أو تصرف فيها.

ويفيد ثانياً: أن التصرف إلىٰ الله، وأنه الذي يُسأل ويُستعاذ به.

وتفيد ثالثاً: النهي عن الاعتراض علىٰ خلق الله المسخر المدبر، فالاعتراض عليه اعتراض علىٰ الخالق.

فإذا عرف الإنسان مثل هذه العقيدة عرف كمال التصرف، وفوض أموره إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ، ورضي به، فاستعاذ به من شر ما في المخلوقات التي يملك الرب تعالىٰ إرسالها، وسأله من خير ما في هذه المخلوقات، فالله هو المالك لإعطاء الخير منها وتسخيرها، واعتقد بعد ذلك أنه له وحده التدبير والأمر والنهي، واعتقد بعد ذلك أن الذين يعترضون علىٰ تصرفه وتقديره قد نقصت عقائدهم، ونقص توحيدهم؛ حيث يجعلون معه متصرفاً، ويجعلون الريح لها شيء من التصرف أو نحو ذلك.

واعتقد بعد ذلك أن الرب تعالىٰ حكيم في أمره، وحكيم في تصرفه؛ فهو لم يرسل هذه الرياح إلا لحكمة عظيمة تعجز العقول عن إدراكها، فإذا عرفنا شيئاً من الحكم تحدثنا به، وإذا جهلنا شيئاً سلمنا الأمر إلىٰ الله، وقلنا: هذا تصرفه وتدبيره فليس لنا الاعتراض علىٰ شيء مما قدره وقضاه، والله تعالىٰ أعلم.

[٥٨]

باب:
قول الله تعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾

قول الله تعالى: ﴿ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وقوله: ﴿ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ [الفتح: ٦].

قال ابن القيم في الآية الأولى: فُسِّر هذا الظن :بأنه سبحانه لا يَنْصرُ رسوله، وأن أمره سيضمحل، وفُسِّر: بأنَّ ما أصابه لم يكن بقدر الله وحكمته.

ففُسِّر بإنكار الحكمة، وإنكار القدر، وإنكار أن يتم أمر رسوله، وأن يظهره الله على الدين كله.

وهذا هو ظن السوء الذي ظن المنافقون والمشركون في سورة الفتح، وإنما كان هذا ظن السوء؛ لأنه ظنَّ غير ما يليقُ به سبحانه، وما يليق بحكمته وحمده ووعده الصادق.

فمن ظن أنه يديل الباطل على الحق إدالة مستقرة يضمحل معها الحق، أو أنكر أن يكون ما جرى بقضائه وقدره، أو أنكر أن يكون قدره لحكمة بالغة

يستحق عليها الحمد، بل زعم أن ذلك لمشيئة مجردة. فذلك ظن الذين كفروا، فويلٌ للذين كفروا من النار.

وأكثر الناس يظنون بالله ظن السوء فيما يختص بهم وفيما يفعله بغيرهم، ولا يسلم من ذلك إلا من عرف الله وأسماءه وصفاته، وموجب حكمته وحمده. فليعتن اللبيب الناصح لنفسه بهذا، وليتب إلى الله وليستغفره من ظنه بربه ظنَّ السوء.

ولو فتشت من فتشت لرأيت عنده تعنتاً على القدر وملامة له، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا. فمستقل ومستكثر، وفتش نفسك: هل أنت سالم؟

فإن تنج منها تنج من ذي عظيمة

وإلا فإني لا أخالك ناجياً

■ ■ ■ ■ ■

• فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية آل عمران.

الثانية: تفسير آية الفتح.

الثالثة: الإخبار بأن ذلك أنواع لا تحصر.

الرابعة: أنه لا يسلم من ذلك إلا من عرف الأسماء والصفات وعرف نفسه.

■ ■ ■ ■ ■

•• الشرح ••

باب:
قوله تعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾

هذا الباب في ظن السوء، والظن السيئ بالله تعالى يصل إلى درجة الكفر ودرجة النفاق، وقد وصف الله به المنافقين، ووصف به الكفار؛ وذلك لأنهم ظنوا بالله ظناً سيئاً، وكذلك أيضاً في جهلة الأعراب الذين هم أيضاً يقربون من النفاق، فقد ظنوا بالله ظناً سيئاً.

■ قوله: [قول الله تعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]]:

قال الله تعالى في أول هذه الآية: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ﴾، **وهذه هي الطائفة الأولى**، وهي طائفة المؤمنين، وذلك أنه لما كانت غزوة أحد نزل نعاس على المؤمنين وغشيهم، وصار ذلك أمنة منه، كما في قوله تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ [الأنفال: ١١]، فأخبر بأنه جعل النعاس أمنة للمؤمنين يغشاهم.

ثم قال تعالى: ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾، **وهذه هي الطائفة الثانية**، وهم: المنافقون، فذكر تعالى أنهم أهمتهم أنفسهم، ولم يهمهم إلا النجاة، فلم يهمهم نصر الإسلام، ولم يهمهم نصر الرسول ﷺ، فلم يهمهم إلا أن يفروا ويهربوا

وينجوا أنفسهم، ولو قتل المسلمون، ولو تغلب المشركون، ولو استولوا على البلاد والعباد، ولو اضطهد الإسلام وأهله.

فمن كان هكذا فإنه قد ظن بالله غير الحق ظن الجاهلية، أي: ظناً باطلاً، وهو الظن الذي كانوا عليه في الجاهلية، والذي ذكره الله عن جهلة الأعراب بقوله: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ [الفتح: ١٢].

فمن ظن بالله أنه لا ينصر رسله، وأنه ينصر المشركين، وأن الإسلام ينمحي ويزول مع تمسك أهله به، فإنه داخل في هذه الآية.

ويدخل في ذلك أيضاً من ظن بالله ظناً سيئاً في تصرفاته، فمن ظن بالله أنه لا يعدل في عباده، وأنه يثيب العاصين، ويعاقب المطيعين والمؤمنين، فهذا أيضاً ظن ظناً سيئاً؛ سواء ذلك في الدنيا أم في الآخرة.

فهذه الآية وهي: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾، نزلت في المنافقين، فهم يقولون: لو كان الأمر إلينا ما خرجنا بأنفسنا وعرضنا إخواننا لأن يقتلوا، بل الأمر ليس بأيدينا.

فرد الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾، أي: هو الذي قدر هذا، فلا حيلة لكم في رد شيء قدره الله وقضاه.

فعلى كل حال من ظن بالله هذا الظن دخل في وصف المنافقين، فمن ظن أنه لا ينصر رسله، أو أنه لا ينصر دينه، فقد كذب ما أخبر الله به وما وعد به في قوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١]، ولكن لابد أن يبتلي بعض عباده ابتلاء وامتحاناً ولو كان متمسكين، وذلك من

باب الاختبار ليتميز الصادق من الكاذب، وليكون ذلك مثوبة للصادقين إذا صبروا على ما أصيبوا، كما في هذه الآية: **﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾** [آل عمران: ١٥٤]، وكما في قوله: **﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾** [آل عمران: ١٤١]، فالله يبين أن هذا من حكم تسليط الأعداء أحياناً على بلاد المسلمين.

وهكذا أيضاً يبتلي الله المسلمين إذا قصروا، فإذا كان في المسلمين شيء من التقصير يبتليهم ويسلط عليهم أعداءهم، ولو كان أولئك الأعداء كفرة، كما ورد ذلك في الحديث القدسي: «**إذا عصاني من يعرفني سلطت عليه من لا يعرفني**»، فكونهم قد يقولون: نحن مسلمون فكيف انتصر علينا هؤلاء الكفار؟! وكيف صاروا يقتلوننا ويقاتلوننا في عقر دارنا؟!

نقول: إنكم لم تحققوا إسلامكم، ولم تعملوا بكتاب ربكم، ولم تتبعوا سنة نبيكم، ولم تسيروا على نهجه، ولم تصدقوه من كل قلوبكم، ولم تطبقوا شرعه، ولم تحافظوا على دينكم، ولم تحققوا التوحيد تحقيقاً كاملاً، ولم تقيموا الصلوات كما ينبغي، ولم تؤدوا الزكاة، ولم تكملوا بقية الأركان، ولم تنتهوا عن المحرمات، فلم تبتعدوا عن الإثم والفواحش والزنا والخنا وشرب الخمور والملاهي والأغاني وسائر المحرمات، ولم تستقيموا على أمر الله، ولكنكم إذا كنتم على عكس ذلك فأبشروا بنصر الله.

فالحاصل أن الذين يظنون بالله هذا الظن السيء هم ناقصو الإيمان، وقد شابهوا هؤلاء الكفار والمنافقين.

▪ قوله: [وقوله: ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾ [الفتح: ٦]:

فقد أخبر الله تعالىٰ في أول الآية بأنه يعذب المنافقين، فقال تعالىٰ: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾، ولا شك أن العذاب قد يكون عاجلاً وقد يكون آجلاً، فقد يسلط عليهم عذاباً في الدنيا، إما عذاباً سماوياً أو أرضياً، أو أن يجعل بأسهم بينهم -وذلك من العذاب-، أو أن يسلط عليهم أعداءهم، ويديلهم عليهم، وذلك إذا اتصفوا بهذه الصفات الثلاثة التي هي:

١- النفاق: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ﴾.

٢- الشرك: ﴿وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾.

٣- ظن السوء: ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾.

وظنهم السيىء هو: أنهم ظنوا أنه لا يبقىٰ إسلام، وظنوا أن الإسلام ليس بدين الحق، وتوقفوا وشكوا في صدق الرسل، أو أن دينهم دين صحيح، أو ظنوا أن دين اليهود أو النصارىٰ أحق من دينهم، أو ظنوا أو اعتقدوا أو عملوا شيئاً من أعمال الجاهلية ومن أديانهم وفضلوه علىٰ دين الإسلام، أو ظنوا أن حكم الشرع لا يناسب أزمنتهم، وأن القانون الوضعي هو المناسب، وهو الذي يصلح في هذه الأزمنة أو ما أشبه ذلك، فإن هذا كله من ظن السوء الذي يديل الله به عليهم أعداءهم ويسلطهم عليهم.

أما إذا كانوا متمسكين وتسلط عليهم الأعداء، فإن النصر والعاقبة للمتقين،

كما حصل في غزوة الأحزاب لما جاء الكفار وأحدقوا بالمدينة، فالمنافقون أخذت بهم الظنون كل مأخذ، كما في قوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ [الأحزاب: ١٠]، فالذين ظنوا بالله الظنونا هم المنافقون الذين ظهرت منهم آثار تلك الظنون.

ثم قال الله: ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا (١١) وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١١، ١٢]، فهم يقولون: الله يعدنا والرسول يعدنا بأنا سنفتح بلاد فارس وبلاد الروم وسنملك الشام واليمن والشرق والغرب، ونحن الآن قد أحدق بنا، فهذا هو الظن السيىء؛ فلأجل ذلك قال: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا﴾.

فعلى كل حال الظن السيىء عام فيمن ظن بالله غير ما يليق به؛ سواء ظن بالله في وعده ووعيده، أو ظن بالله أنه لا يبعث العباد ولا يجازيهم على أعمالهم، فلا يثيب المطيع ولا يعاقب الكافر، أو ظن بشرعه ظناً سيئاً أنه لا يناسب ولا يليق بالحال، ولا يصلح في هذا الزمان أو ما أشبه ذلك، فكل ذلك من الظنون السيئة التي يلتحق صاحبها إما بالكافرين وإما بالمنافقين.

■ قوله : [قال ابن القيم في الآية الأولى : فُسِّر هذا الظن :بأنه سبحانه لا يَنْصُرُ رسوله ، وأن أمره سيضمحل ، وَفُسِّر : بأنَّ ما أصابه لم يكن بقدر الله وحكمته .

ففُسِّر بإنكار الحكمة ، وإنكار القدر ، وإنكار أن يتم أمر رسوله ، وأن يظهره الله على الدين كله .

وهذا هو ظن السوء الذي ظن المنافقون والمشركون في سورة الفتح ، وإنما كان هذا ظن السوء ؛ لأنه ظنٌّ غير ما يليقُ به سبحانه ، وما يليق بحكمته وحمده ووعده الصادق .

فمن ظن أنه يديل الباطل على الحق إدالة مستقرة يضمحل معها الحق ، أو أنكر أن يكون ما جرى بقضائه وقدره ، أو أنكر أن يكون قدره لحكمة بالغة يستحق عليها الحمد ، بل زعم أن ذلك لمشيئة مجردة . فذلك ظن الذين كفروا ، فويل للذين كفروا من النار .

وأكثر الناس يظنون بالله ظن السوء فيما يختص بهم وفيما يفعله بغيرهم ، ولا يسلم من ذلك إلا من عرف الله وأسماءه وصفاته ، وموجب حكمته وحمده . فليعتن اللبيب الناصح لنفسه بهذا ، وليتب إلى الله وليستغفره من ظنه بربه ظنَّ السوء .

ولو فتشت من فتشت لرأيت عنده تعنتاً على القدر وملامة له ، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا . فمستقل ومستكثر ، وفتش نفسك : هل أنت سالم ؟

فإن تنج منها تنج من ذي عظيمة

وإلا فإني لا أخالك ناجياً] :

هذا الكلام ذكره ابن القيم في زاد المعاد[1] لما تكلم على غزوة أحد ، حيث تكلم على المنافقين الذين قالوا هذه المقالة التي في قوله تعالى : ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ

(١) انظر زاد المعاد (٣/ ٢٢٨ـ٢٣٧) .

﴿الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، فذكر هؤلاء الذين وصفوا بأنهم منافقون والذين يظنون بالله غير الحق الذي هو ظن السوء الذي وصف الله به المشركين والمنافقين في سورة الفتح في قوله تعالىٰ: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾ [الفتح: ٦].

ونقل مثل هذا الظن عن الأعراب بقوله تعالىٰ: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا﴾، أي: عن الخروج معك، ﴿فَاسْتَغْفِرْ لَنَا﴾، إلىٰ قوله: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ [الفتح: ١٢]، فجعل من ظنهم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلىٰ أهليهم أبداً.

لقد ظن المنافقون في غزوة أحد ظناً سيئاً، حيث إنهم ظنوا ظن الجاهلية؛ فظنوا أن المشركين سينتصرون على المسلمين، وأن المسلمين لن يبقىٰ منهم بقية، وظنوا أن الإسلام يضمحل ولا يبقىٰ عليه أحد، أو ظنوا أن هذا الدين الذي جاء به النبي ﷺ ليس بصحيح، وأنه ليس من الله، أو ظنوا أن ما جرىٰ وما حدث من المصيبة علىٰ المسلمين ليس بقضاء من الله ولا بقدر، بل إنه صدفة، أو أنه حصل بقوة وبغلبة من المشركين؛ فتغلبوا علىٰ قضاء الله وقدره، وأنه لم يكن مكتوباً قبل وجود الخلق ونحو ذلك، مع أن الله قال في نفس هذه الآية: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، فأخبر بأنه مكتوب علىٰ من قتل منكم أنه سيقتل، وعلىٰ من جرح أنه سيجرح، ولا محيد له ولا مفر عن القدر المحتوم.

والحاصل أننا نقول: إن من ظن هذا الظن السيء يكون قد تدخل فيما لا

يعنيه، وظن بالله ظناً سيئاً.

وقد أطال ابن القيم رحمه الله في هذه المقام في نحو ست صفحات أمثلة ممن ظن ظناً سيئاً؛ سواءً فيما يتعلق بالصفات، أو فيما يتعلق في الحكمة والقضاء والقدر، أو فيما يتعلق في الأحكام، أو فيما يتعلق في الحدود، أو ما أشبه ذلك.

● **فمن ذلك قوله**: ومن ظن أن آيات الله وكلامه الذي أنزله على رسوله ﷺ لم يؤمر الناس باتباعه؛ فقد ظن بالله ظن السوء.

● **ومن ظن** أننا أمرنا بقراءته ولا نتفقه فيه ولا نتدبر معانيه، فقد ظن بالله ظن السوء.

● **ومن ظن أن الله تعالى** لا يوصف بما ذكره في كتابه من صفات الكمال التي أثبتها لنفسه، أو أثبتها له رسوله ﷺ؛ فقد ظن بالله ظن السوء.

● **ومن ظن أن الله** ليس فوق عباده، وليس مستوياً على عرشه كما أخبر عن نفسه؛ فقد ظن بالله ظن السوء.

● **ومن ظن أن الرسول** عليه الصلاة والسلام لا يعلم معاني ما أنزل إليه، وأنه يقرؤها ولا يفقه مدلولها، فقد ظن بالله ظن السوء؛ أي: أنه ظن أن الله يخاطب الناس بما لا فائدة فيه، وبما لا يُعقل معناه، وقد أطال ابن القيم رحمه الله في ذلك.

والقصد من ذلك أن الظن الذي نحن بصدده ظن السوء هو ما يتعلق بتلك الوقعة التي هي غزوة أحد، فإنه ظن سيء، وظن أهل الجاهلية، لقوله: **﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ**

فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

ثم ذكر الحكمة في قوله: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، أي: أن من حكمة الله في إدالة المشركين هذه المرة أنه يختبر ويمحص من يكون إيمانه ضعيفاً، كما قال في آية أخرىٰ في نفس السورة: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤١].

والتمحيص هو تطهيرهم من الخطايا ومن الزلات ونحوها، والابتلاء هو: اختبار من إيمانه ضعيف؛ أيثبتُ علىٰ هذا الإيمان، أم يثبت نفاقه ويبدو منه ما يخالف الإيمان الحقيقي؟! كما حصل من هؤلاء المنافقين، فإنه قد ظهر منهم عند هذا الابتلاء والامتحان ما دل المسلمين علىٰ أنهم ليسوا بمؤمنين حقّاً.

والذي ذكرت عنه هذه المقالة من المنافقين يقال له: معتِّب بن قشير، كما ذكره ابن إسحاق.

والمؤمنون كانت تخفق رؤوسهم من النعاس الذي تغشاهم حتىٰ تسقط سيوفهم من أيديهم، وذلك من الأمنة؛ لأن الله أمنهم حتىٰ لا يخافوا فأنزل عليهم ذلك النعاس، وأما هؤلاء فأصيبوا بهذا القلق والخوف.

فعلىٰ المسلم أن يكون ظنه في الله في كل واقعة ظنّاً حسناً، وأن يعتني بأمر قلبه، وينظر هل هو يعتب علىٰ القدر، وينظر هل هو يعتب علىٰ قضاء الله، فكثير من الناس - كما ذكر ابن القيم - يتعنتون في أمر المصائب والحوادث، ويقولون: وددنا هذا لم يحدث، أو ليت هذا لم يحدث، فلان لا يستحق هذا المرض، فلان لا يستحق الموت، فلان لا يفرح بنزول كذا وكذا عليه، أو ما أشبه ذلك، وكأنهم لم يؤمنوا أن ما أصابه مكتوب وليس منه مفر ولا محيد، وكأنهم لم يؤمنوا الإيمان الصحيح بأن ما أصاب العبد لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم

يكن ليصيبه.

والواجب على الإنسان أن يؤمن بالقضاء والقدر، وألا يتعنت ولا يعترض على ما حدث من أمر الله، وأن يقول كما أمره النبي ﷺ: «قدر الله وما شاء فعل»[1]، أي: هذا قدره، وهذا قضاؤه، فما شاء فعله، وما أمر به فلا مخالف لأمره.

فعلى المسلم أن يكون مؤمناً بأمر الله وبقدره وبقضائه وبشرعه، ونؤمن بأنه سبحانه لا يفعل شيئاً إلا لمصلحة، ولا يقدر شيئاً إلا لحكمة، سواءً ظهرت لنا تلك الحكمة أو خفيت عنا، فإذا خفيت عنك حكمة في أمر من الأمور أو واقعة من الوقائع، أو مصيبة من المصائب، ولا تعلم الحكمة في أن الله أجراها وأوقعها، فعليك أن تستسلم للأمر استلاماً مطلقاً، وتقول: آمنت بالله، وبما جاء عن الله، على مراد الله، وآمنت برسول الله، وبما جاء عن رسول الله، على مراد رسول الله.

وهذا هو الإيمان الصحيح الذي يعم التصديق بكل ما أنزل الله على رسوله، ويستتبع بعد ذلك العمل والتطبيق الذي هو ثمرة عنه، والله تعالى أعلم.

■ ■ ■ ■ ■

(١) سبق تخريجه.

[٥٩]

باب:
ما جاء في منكري القدر

قال ابن عمر: «والذي نفسُ ابن عمر بيده، لو كان لأحدهم مثل أحد ذهباً، ثم أنفقه في سبيل الله ما قبله الله منه، حتى يؤمن بالقدر. ثم استدل بقول النبي ﷺ: «الإيمان: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»، رواه مسلم.

وعن عبادة بن الصامت، أنه قال لابنه: يا بني، إنك لن تجد طعم الإيمان، حتى تعلم، ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك. سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، فقال: رب وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة»، يا بني، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من مات على غير هذا فليس مني».

وفي رواية لأحمد: «إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة».

وفي رواية لابن وهب: قال رسول الله ﷺ: «فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره: أحرقه الله بالنار».

وفي المسند، والسنن، عن ابن الديلمي، قال: أتيت أُبيٍّ بن كعب، فقلت: في نفسي شيء من القدر، فحدثني بشيء لعل الله يذهبه من قلبي، فقال: لو

أنفقت مثل أحد ذهباً ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر، وتعلم أنَّ ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك. ولو مت على غير هذا لكنت من أهل النار، قال: فأتيت عبدالله بن مسعود، وحذيفة بن اليمان، وزيد بن ثابت، فكلهم حدثني بمثل ذلك عن النبي ﷺ. حديث صحيح، رواه الحاكم في صحيحه.

■ ■ ■ ■ ■

فيه مسائل:

الأولى: بيان فرض الإيمان بالقدر.

الثانية: بيان كيفية الإيمان.

الثالثة: إحباط عمل من لم يؤمن به.

الرابعة: الاخبار أن أحداً لا يجد طعم الإيمان حتى يؤمن به.

الخامسة: ذكر أول ما خلق الله.

السادسة: أنه جرى بالمقادير في تلك الساعة إلى قيام الساعة.

السابعة: براءته ﷺ ممن لم يؤمن به.

الثامنة: عادة السلف في إزالة الشبهة بسؤال العلماء.

التاسعة: أن العلماء أجابوه بما يزيل شبهته، وذلك أنهم نسبوا الكلام إلى رسول الله ﷺ فقط.

■ ■ ■ ■ ■

•• الشرح ••

باب:
ما جاء في منكري القدر

هذا النوع من القدر هو علم الله السابق بالمخلوقات وبأوقاتها قبل خلقها، بل قبل خلق السموات والأرض، وقبل خلق الأفلاك، ونحو ذلك.

وهذا النوع دليله صفة العلم، وقد مر بنا أن الذين أنكروه هم غلاة القدرية قديماً؛ كمعبد الجُهني، وغيلان القدري، ونحوهم من الذين أنكروا علم الله السابق بالأمور قبل أن تقع، وأنكروا أن يعلم الله الأشياء قبل أوقاتها وحدوثها، وأنكروا أن الله يعلم عدد من سيخلق، وما هو كائن، وما لم يكن.

ولا شك أن ذلك قدح في علم الله، وطعن في صفة من صفاته، والله تعالىٰ قد وصف نفسه بالعلم السابق، وأخبر بأنه بكل شيء عليم، وذلك علىٰ عمومه، فلا يخفىٰ عليه شيء؛ لقوله تعالىٰ: **﴿لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾** [سبأ: ٣].

والذين ينكرون هذا النوع من العلم السابق ومن القدر ينقص بذلك توحيدهم، ويقدح في إيمانهم وفي عقيدتهم؛ وذلك لأنهم كذبوا الله في خبره، وهذا التكذيب نقص في الإيمان ونقص في العقيدة، ثم رموا ربهم تعالىٰ بالجهل وهذا تنقص، بمعنىٰ أنه جاهل بخلقه، ولا يعلم بمن سيوجد حتىٰ يوجد، وذلك غاية التنقص.

ولا شك أن من تنقص الله تعالىٰ بمثل ذلك نقص توحيده، واختلت عقيدته،

وهذا هو السبب في إدخال هذا الباب في أبواب كتاب التوحيد، وإلا فإن موضع بسطه في كتب العقائد، كما مر بنا في شرح العقيدة الواسطية[1] بيان مراتب هذا النوع، وذكرنا أنه ينقسم إلىٰ أربعة أقسام:

الأول: تقدير عام.

الثاني: تقدير عمري.

الثالث: تقدير سنوي.

رابعاً: تقدير يومي.

وذكرنا أمثلة وأدلة علىٰ كل نوع.

وهؤلاء الذين أنكروا هذا العلم كأنهم تخيلوا أن العلم بعدد الكائنات المستقبلة لا يحصل إلا بعد وجودها، ولا شك أن الذي يتخيل ذلك يدخل في فكره أنها توجد نفسها، أو أن الله لم يكن قد علم أعمارها وحدودها وآجالها وأوقاتها، ولا شك أن هذا طعن في علم الله، وطعن في صفات كماله.

أما النقص فهو في المخلوق فقط، فهو الذي لا يعلم ما في غد، ولا يعلم المستقبلات، حتىٰ الأنبياء وصفوا بأنهم لا يعلمون ما غاب عنهم، فالنبي ﷺ وغيره من الأنبياء لكونهم بشراً لا يعلمون ما في غد.

يقول الله تعالىٰ لنبيه ﷺ: **﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾** [الأعراف: ١٨٨]، فذكر أنه لا يعلم المستقبلات، وأنه لو علم ذلك لاستكثر من الخير؛ ولأعد للسنة المجدبة من

---

(١) انظر كتاب: التعليقات الزكية علىٰ العقيدة الواسطية، لفضيلة الشيخ العلامة الدكتور عبدالله بن جبرين من إعدادي: (٢/ ١٥٢ ـ ١٥٨).

السنة المخصبة، فلو عرف أن هناك سنة تأتيه وهي جدب لاستعد لها في السنة التي قبلها، ولعلم ما سيربح وما لا يربح وما ربحه في هذا وهذا.

إذاً فعلم الغيب لا يعلمه إلا الله، وقد اتفق المسلمون على أن الله تعالى الذي يعلم الغيب، وإذا كان يعلم الغيب فلا فرق بين علم الغيب الماضي وعلم الغيب المستقبل، كعدد من سيخلق من المخلوقات، ووقت قيام الساعة، وأعمال العباد الذين لم يوجدوا، وأعمارهم، وممتلكاتهم، وما أشبه ذلك، وكذلك سائر المخلوقات، فالله يعلم ما سيوجد من المخلوقات من حشرات ومن دواب ومن حيوانات ونحو ذلك، فالله تعالى هو خالقهم، وهو العالم بهم.

فكل ذلك داخل في صفة العلم ونفي ذلك تنقص للرب تعالى، يقول تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

والذين أنكروا صفة العلم يلزمهم أن ينكروا النصوص الصريحة في هذا، وذلك كُفر، فإن من أنكر الآيات والأحاديث الصحيحة في هذا الباب يقع في الكفر والعياذ بالله.

ولهذا قال عنهم الإمام الشافعي رحمه الله: (ناظروهم بالعلم، فإن أقروا به خُصموا، وإن جحدوه كفروا)، أي: قولوا لهم: هل تعترفون أن الله بكل شيء عليم، وأنه عالم بخلقه؟ فإذا اعترفوا بالعلم فقولوا لهم: ما الفرق بين علم ما مضى وما بقي؟!، فإن الله تعالى عالم بكل شيء، يعلم الجهر وما يخفى، ويعلم السر وأخفى، فإذا كان يعلم ذلك؛ فإنه يعلم أيضاً من سيوجد ومن سيكون، يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن كيف يكون؛ فهذا هو الإيمان بالقدر.

والأدلة على الإيمان بالقدر من القرآن كثيرة، مثل قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ

أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠]، فأخبر بأنه يعلم ذلك، وأنه قد كتبه في أم الكتاب.

وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿**وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ**﴾ [يونس: ٦١]، أي: كل شيء مكتوب، حتىٰ مثقال الذرة وأصغر من الذرة وأكبر منها، وما يحصل في الوجود كله مدون ومكتوب.

وقد ذكر الله أيضاً الحكمة في إخبارنا أنه يعرف ما سوف يحصل، فقال تعالىٰ: ﴿**مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ**﴾، أي: يسير وسهل علىٰ الله أن يعلم الأمور المستقبلية كما يعلم الماضية، ويسير عليه أن يكتبها أو يأمر بكتابتها، ويسير عليه أن يعلم تفاصيل ما سوف يوجد، وما سوف يحصل من المصائب التي سوف تقع، ونحو ذلك. ﴿**لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ**﴾ [الحديد: ٢٢، ٢٣]، أي: لا تأسوا ولا تحزنوا علىٰ الشيء الذي فاتكم ولم تدركوه، ولا تفرحوا بالشيء الذي حصلتم عليه فرح أشر وبطر، بل اعلموا أن ذلك مقدر عليكم، وكائن قبل أن يخلق الله هذه المخلوقات، وليس لكم منه ولا محيد.

فهذه أدلة ناجعة علىٰ سعة علم الله تعالىٰ، وأنه عالم بالمستقبلات في عددها، وإذا آمن العبد بذلك وصدق به ولم يَرُدَّ شيئاً اطمئن قلبه واستقر في حياته، وإذا فقد شيئاً من الإيمان بذلك فإنه كثيراً ما يحصل له التأسف والتندم علىٰ الحياة، والحسرة علىٰ ما فات.

■ **قوله: [قال ابن عمر: «والذي نفسُ ابن عمر بيده، لو كان لأحدهم مثل أحد ذهباً، ثم أنفقه في سبيل الله ما قبله الله منه، حتى يؤمن بالقدر. ثم استدل بقول النبي ﷺ: «الإيمان: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»**(١)**، رواه مسلم]:**

ذكر المصنف أثر ابن عمر لما سأله يحيىٰ بن يعمر، وقال: إنه قد ظهر قبلنا أناس يقرءون القرآن ويتقفرون العلم، وأنهم يزعمون أن لا قدر، وأن الأمر أنف، فقال: (إذا لقيت أولئك فأخبرهم أني منهم بريء، وهم مني برآء، والذي نفس ابن عمر بيده لو أنفق أحدهم مثل أحد ذهباً ما قبله الله منه حتىٰ يؤمن بالقدر)، ثم استدل بحديث جبريل المشهور، وفيه أركان الإيمان، ومنها: «**وتؤمن بالقدر خيره وشره**».

فهذا دليل علىٰ أن إنكار القدر يحبط الأعمال، فهؤلاء لما أنكروا القدر أبطل الله أعمالهم، فلو أنفق أحد منهم ما يملك في سبيل الله ما قبل الله منه، وهو دليل علىٰ أنه قد كفر؛ لأن أعمال الكافر وصلواته ونفقاته مردودة عليه لا تقبل منه، قال تعالىٰ: ﴿**وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُوراً**﴾ [الفرقان: ٢٣].

فيكون إنكار القدر كفراً، وسببه أن هؤلاء الذين ينكرونه يطعنون علىٰ الله تعالىٰ في خبره، وكذلك يصفونه بالجهل، وذلك تنقص وأي تنقص، فالتنقص لله والاستهزاء بصفاته التي هي صفات الكمال، وجحدها ووصفه بضدها إما تصريحاً وإما لزوماً كله كفر، والكفر يحبط الأعمال، سواءً الأعمال البدنية أو الأعمال المالية.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٨).

■ قوله: [وعن عبادة بن الصامت، أنه قال لابنه: يا بني، إنك لن تجد طعم الإيمان، حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك. سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، فقال: رب وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة»، يا بني، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من مات على غير هذا فليس مني»(١).

وفي رواية لأحمد: «إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة»(٢).

وفي رواية لابن وهب: قال رسول الله ﷺ: «فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره: أحرقه الله بالنار»(٣)]:

في هذا الحديث: أن عبادة رضي الله عنه لما حضره الموت، قال له ولده:

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (٤٧٠٠)، والترمذي برقم (٣٣١٩)، وابن أبي عاصم في السنة (١٠٢، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٥)، وأحمد في المسند (٥/ ٣١٧)، وابن أبي شيبة في المصنف (١٤/ ١١٤)، والطيالسي في المسند رقم (٥٧٧)، والأجري في الشريعة (١٧٧، ١٨٧).
قال الهيثمي في المجمع (٧/ ١٩٨): رواه الطبراني في الكبير والأوسط وفي أحدهما عثمان بن أبي العاتكة وهو ضعيف، وقد وثقه دحيّم وبقية رجاله ثقات، وفي بعضهم كلام. وصححه الألباني لطرقه وشواهده في السنة لابن أبي عاصم برقم (١٠٢، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٥، ١٠٧).
وله شاهد من حديث ابن عباس، أخرجه ابن أبي عاصم في السنة برقم (١٠٨). وأبو يعلى في المسند ربقم (٢٣٢٩)، والدارمي في الرد على الجهمية (٧٧)، والطبراني في الكبير (١٢/ ٦٨)، والبيهقي في الكبير (٩/ ٣) رقم (١٧٤٨١)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٥٤٠) رقم (٣٨٤٠).
قال الهيثمي في المجمع (٧/ ١٩٠): رواه البزار ورجاله ثقات، ورواه الطبراني ورجاله ثقات.
وقال الذهبي في المستدرك: على شرط البخاري ومسلم، وقال محقق مسند أبي يعلى: إسناده صحيح.
(٢) أخرجها أحمد (٥/ ٣١٧). وابن أبي عاصم رقم (١٠٧). والطبراني في الكبير رقم (١٢/ ٦٨) (١٢٥٠٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما.
(٣) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة رقم (١١١). والآجري في الشريعة ص (١٧٧، ١٧٨، ١٨٦، ١٨٧). ويشهد لهذه الرواية الحديث الآتي الذي أورده المصنف.

أوصني، وكان مضطجعاً، فقال: أجلسوني، فأجلسوه، فأوصى ولده بهذه الوصية، وهي الإيمان بالقدر، وأخبره بأنه لا يجد للإيمان طعمه ولذته حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وذلك هو حقيقة الإيمان بالقدر.

فإذا علم الإنسان أن الشيء الذي وقع فيه مكتوب عليه ليس له منه مفر ولا محيد اطمأن قلبه، وقال: هذا قد كتب علي قبل أن أخلق، بل قبل أن تخلق السموات بخمسين ألف سنة، أو بما شاء الله تعالى، فإذا كان كذلك وجد للأعمال لذتها، ووجد للصالحات وللحسنات وللعلوم الشرعية وللقربات لذتها.

والمراد بطعم الإيمان ولذته اللذة المعنوية، وهي لذة روحية قلبية، فالذي يرضى بما أصابه ويقنع بما رزقه الله، ولا يتأسف على فائت، ولا يفرح فرح أشر وبطر بما حصل عليه، ويعمل بقول الله: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣]، هذا هو الذي يجد للإيمان طعماً وارتياحاً، فترتاح نفسه إذا رزق عملاً صالحاً ووفق له، وترتاح نفسه إذا وفق لتجنب السيئات والبعد عن المخالفات، أما إذا لم يؤمن بالقدر خيره وشره فإنه لا يجد لهذه الأعمال لذتها ولا حلاوتها.

ثم استدل عبادة بالحديث المشهور، وهو قول النبي ﷺ: **«إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، فقال: رب وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة»**. وفي رواية: **«إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة»**.

وهذا هو التقدير العام، والتقدير أربعة أنواع: تقدير عام: وهو كتابة الله

تعالىٰ في اللوح المحفوظ كل ما هو كائن من المخلوقات ومن الأعمال ومن الحركات ونحوها، وتقدير عُمري، وتقدير سنوي، وتقدير يومي.

وهذا الحديث دليل علىٰ التقدير العام، وأن القلم جرىٰ عندما خُلق وأُمر بكتابة كل الكائنات.

وهذا دليل علىٰ أن القلم أول ما خلق الله من الأشياء، ولكن الصحيح أن العرش مخلوق قبله؛ لأنه ورد في الحديث: «**كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء**»[1]، وعرشه ذو قوائم وأركان، فإن القلم أول المخلوقات بعد العرش، ولما خلقه الله وأمره فكتب ما هو كائن.

ثم قال عبادة رضي الله عنه: يا بني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من مات على غير هذا فليس مني**»:

فبعد أن ذكر الإيمان بالقدر خيره وشره، واعتقاد أن ما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، أخبر بأن من مات علىٰ غير هذا الإيمان المطلوب فليس من أتباع النبي ﷺ ولا من أهل سنته، لأنه قد كذب بما جاء عنه من الأخبار الصحيحة التي تنص علىٰ أن الله كتب مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وأن كل ما حدث من المصائب والأمور فإن الله قد علمها وقدر زمانها، وكتب صفتها في اللوح المحفوظ، كما قال تعالىٰ: ﴿**وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ**﴾ [يونس: ٦١]، أي: مكتوب فيه مثاقيل الذر، وحوادث البر والبحر، ومن كذب بذلك فقد رد خبر الله تعالىٰ، وأنكر ما أخبر الله تعالىٰ به من تقدير كل شيء، وتحديد أوقات الحوادث وأزمنتها وكيفيتها ونحو ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٧٤١٨)، عن عمران بن حصين رضي الله عنه.

ثم إن ذلك كله لا يمنع كل إنسان من فعل الأسباب الحسية، فالمرض يستدعي العلاج، والجوع يستدعي الأكل، وحصول المال يستدعي طلبه بالتكسب ونحو ذلك، مع أن الجميع قد علمها الله تعالى وقدرها كما يشاء، والله بكل شيء عليم.

ثم قال ﷺ: «**فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره: أحرقه الله بالنار**»:

أي: من لم يؤمن بالقدر وبكتابة الله لما هو كائن ووجود المخلوقات وتحديد أوقاتها وأعمالها وما إلى ذلك، من لم يؤمن بذلك أحرقه الله بالنار، أي: أنه كافر.

■ قوله: [**وفي المسند، والسنن، عن ابن الديلمي، قال: أتيت أُبيّ بن كعب، فقلت: في نفسي شيء من القدر، فحدثني بشيء لعل الله يذهبه من قلبي، فقال: لو أنفقت مثل أحد ذهباً ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، ولو مت على غير هذا لكنت من أهل النار، قال: فأتيت عبدالله بن مسعود، وحذيفة بن اليمان، وزيد بن ثابت، فكلهم حدثني بمثل ذلك عن النبي ﷺ**[1]. **حديث صحيح، رواه الحاكم في صحيحه**]:

هذا الحديث فيه أن من لم يؤمن بالقدر خيره وشره وحلوه ومره فإنه يكون

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١٨٢، ١٨٥، ١٨٩). وأبو داود برقم (٤٦٩٩)، وابن ماجة في المقدمة برقم (٧٧)، وابن أبي عاصم برقم(٢٤٥)، والطبراني في الكبير(٤٩٤٠)، وابن حبان في الصحيح (١٨١٧).

وصححه الألباني في صحيح أبي داود، وابن حبان في صحيحه (٢/ ٥٠٥) رقم (٧٢٧).

وأخرجه الطبراني في الكبير برقم(١٠٥٦٤)، من حديث عمران بن حصين، وابن مسعود، وأبي بن كعب.

قال الهيثمي في المجمع (٧/ ١٩٨): رواه الطبراني بإسنادين ورجال هذه الطرق ثابت، وصححه الألباني في السنة لابن أبي عاصم برقم (٢٤٥)، وفي المشكاة (١/ ٣٤)، وقال شعيب الأرناؤوط في تحقيق صحيح ابن حبان: إسناده قوي.

من أهل النار، وهذا أيضاً مثل ما ذكر في حديث عبادة.

وفيه أيضاً أن الإنسان لو أنفق ما أنفق ما قبله الله منه، ولو عمل ما عمل ما قبله الله منه حتىٰ يؤمن بالقدر.

وفيه أيضاً تفسير القدر بأن يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

وقد جاء مثل ذلك في حديث ابن عباس المشهور، والذي يقول فيه النبي ﷺ: «**واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك؛ رفعت الأقلام، وجفت الصحف**»[1]، وفي رواية: «**رفعت الأقلام، وطويت الصحف**»[2]، أي: كتبت علىٰ ما فيها، ويبست وجفت، وليس شيء يتجدد؛ بل الأمر مفروغ منه.

فيؤمن الإنسان بذلك كله ويرضىٰ ويسلم لما أصابه، ولكن مع ذلك كله يعمل؛ ولا يقول مثلاً: مكتوب في أم الكتاب أني سعيد أو شقي؛ فإني سأتكل علىٰ كتابي.

وقد قال الصحابة ذلك للنبي ﷺ، فقالوا: أفلا نتكل علىٰ كتابنا وندع العمل؟ قال: «**اعملوا؛ فكلٌ ميسر لما خلق له**»[3]، أي: أن الإنسان مأمور أن يعمل، ولكن يقوده عمله إلىٰ ما خُلق له من خير أو شر.

والحاصل أن من فوائد الإيمان بالقدر المستخرجه من الآثار السابقة ما يلي:

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه مسلم برقم (٢٦٤٧) (٧).

أولاً: أنه سبب لقبول الأعمال، والإنكار سبب لردها.

ثانياً: أن الإيمان بالقدر سبب لوجود طعم الإيمان والتلذذ بالطاعات.

ثالثاً: أن الإيمان بالقدر سبب في النجاة من النار، والتكذيب بالقدر سبب لعذاب النار والعياذ بالله.

■ ■ ■ ■ ■

[٦٠]

باب:
ما جاء في المصورين

عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي؛ فليخلقوا ذرة، أو ليخلقوا حبة، أو ليخلقوا شعيرة»، أخرجاه.

لهما، عن عائشة: أن رسول الله ﷺ قال: «أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يضاهئون بخلق الله».

ولهما، عن ابن عباس: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل مصوِّر في النار، يُجعل له بكل صورة صورها نفسٌ يعذب بها في جهنم».

ولهما، عنه مرفوعاً: «من صور صورة في الدنيا كلف أن ينفخ فيها الروح، وليس بنافخ».

ولمسلم، عن أبي الهياج، قال: قال لي علي: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ؟ «أن لا تدع صورة إلا طمستها، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته».

■ ■ ■ ■ ■

فيه مسائل:

الأولى: التغليظ الشديد في المصورين.

الثانية: التنبيه على العلة، وهو ترك الأدب مع الله، لقوله: «**ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي**».

الثالثة: التنبيه على قدرته وعجزهم، ، لقوله: «**فليخلقوا ذرة أو حبة أو شعيرة**».

الرابعة: التصريح بأنهم أشد الناس عذاباً.

الخامسة: أن الله يخلق بعدد كل صورة نفساً يعذب بها المصور في جهنم.

السادسة: أنه يكلف أن ينفخ فيها الروح.

السابعة: الأمر بطمسها إذا وجدت.

■ ■ ■ ■ ■

الشرح

باب:
ما جاء في المصورين

هذا الباب في المصورين، ووجه إدخاله في كتاب التوحيد أن المصورين يزاحمون الخالق في خصائصه، لأن الخلق من خصائص الله تعالى، فقد اختص تعالى بإيجاد المخلوقات على غير مثال سبق، فالذين يقلدون خلق الله ويصورون هذه الصور على مثال ما خلق الله كأنهم يرفعون أنفسهم إلى منزلة لا يستحقونها وهي تقليد الله، والتشبه بالله في إيجاد مثل ما أوجد.

فلأجل ذلك أُدخل هذا الباب في أبواب كتاب التوحيد، ولأن من كمال التوحيد أن يكون الإنسان معظماً لله، ومن تعظيمه أن يعظم خلقه، فلا يزاحمه في خلقه، ولا يدعي المسلم ما ليس له، فهذا هو السبب في كون التصوير من منقصات التوحيد.

ثم المراد بالتصوير تقليد الخلقة الربانية، ومحاولة الإنسان أن يخلق أو يمثل مخلوقات الله.

ومن أسماء الله تعالى المصور، لقول الله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾ [الحشر: ٢٤]، بمعنى أنه هو الذي صور هذه المخلوقات، ومن جملة مَنْ صوَّر الإنسان، قال تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر: ٦٤].

وقد أورد المصنف رحمه الله في هذا الباب جملة من الأحاديث لبيان حكم التصوير والمصورين.

■ **قوله: [عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي؛ فليخلقوا ذرة، أو ليخلقوا حبة، أو ليخلقوا شعيرة»[1]، أخرجاه]:**

هذا الحديث رواه البخاري برقم (٥٩٥٣) من طريق عمارة، حدثنا أبو زرعة، قال: دخلت مع أبي هريرة داراً بالمدينة، فرأىٰ في أعلاها مصوراً يصور، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي؛ فليخلقوا حبة، وليخلقوا ذرة... إلخ**»، وظاهره أنه من كلام النبي ﷺ، والصواب أنه من رواية النبي ﷺ عن ربه، من الأحاديث القدسية.

وقد رواه البخاري في التوحيد برقم (٧٥٥٩) عن أبي هريرة، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**قال الله عز وجل: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي؛ فليخلقوا ذرة، أو ليخلقوا حبة، أو شعيرة**».

وهو عند مسلم كرواية البخاري الثانية، وذكر أن الدار لمروان أو لسعيد بن العاص أمير المدينة زمن معاوية.

والمعنى: لا أحد أظلم ممن حاول أن يخلق مثل خلق الله تعالىٰ، فيصور صورة مماثلة لما خلق الله من الحيوانات ونحوها.

ثم قال: فليخلقوا ذرة، أو ليخلقوا حبة، أي: لا يقدرون علىٰ ذلك، وهذا من باب التحدي والتعجيز عن خلق الذرة، وهي النملة الصغيرة، فإن خلقها من عجائب قدرة الله تعالىٰ؛ حيث ركب فيها أعضاءها من الأيدي والأرجل والسمع والبصر، وسرعة الحركة، ومعرفة ما ينفعها أو يضرها، فلو اجتمع الخلق علىٰ أن يوجدوا مثلها، أو أصغر منها كالبعوضة، لعجزوا عن ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٥٩٥٣)، ومسلم برقم (٢١١١).

ثم تحداهم بخلق حبة من بر أو شعير، وذلك على وجه التعجيز، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ [الانعام: ٩٥]، فهذه الحبة من البر ونحوه قد فلقها الله وجعل فيها هذا الوجه المتميز، فلا يقدر أحد أن يخلق حبة مثلها ذات طعم وفلق، تُبذر وتَنْبِتَ وتُثمر؛ سواء من البر أو الشعير أو الذرة أو غيرها.

ودلالة الحديث ما فيه من التهديد والوعيد الشديد بأن من حاول أو أراد مضاهاة خلق الله بهذه التصاوير فهو من أظلم الظالمين، وقد قال تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

■ **قوله: [ولهما، عن عائشة: أن رسول الله ﷺ قال: «أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يضاهئون بخلق الله»**(١)]:

رواه البخاري برقم (٥٩٥٤) عنها، قالت: قدم رسول الله ﷺ من سفر، وقد سترت بقرام لي على سهوة لي فيه تماثيل، فلما رآه رسول الله ﷺ هتكه، وقال: «**أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يضاهئون بخلق الله**»، قالت: فجعلناه وسادة أو وسادتين.

ثم رواه بعده بلفظ: وعلقت درنوكاً فيه تماثيل، فأمرني أن أنزعه فنزعته.

ثم رواه برقم (٦١٠٩) عنها، قالت: دخل عليّ رسول الله ﷺ وفي البيت قرام فيه صور، فتلون وجهه، ثم تناول الستر فهتكه، وقال: «**أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يصورون هذه الصور**».

ورواه مسلم في اللباس والزينة بعدة ألفاظ.

وفسر الحافظ في الفتح القرام بأنه: ستر فيه رقم ونقش، وقيل: ثوب من

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٥٩٥٤)، ومسلم برقم (٢١٠٦) (٩٢).

صوف ملون يفرش في الهودج أو يغطى به، وفسر السهوة بأنها: صفة من جانب البيت، وقيل: الكوة، وقيل: الرف... إلخ.

وفي رواية: وقد علقت درنوكاً على بابي؛ وفسر الدرنوك بأنه: ثوب غليظ له خمل إذا فرش فهو بساند، وإذا علق فهو ستر، والتماثيل هي: التصاوير، كما في بعض الروايات، وهو يعم ما كان شاخصاً مجسداً أو نقشاً أو دهاناً، أو نسجاً في ثوب.

ومعلوم أن تلك التماثيل في ذلك القرام كانت نقوشاً فيه، وليست مجسدة، ولذلك هتكه، أي: نزعه من السهوة، أو أمرها فنزعته، ثم شققته فجعلته وسادة أو وسادتين.

وقوله: «**أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يضاهئون بخلق الله**»: أي: يشبهون ما يصنعونه بما يصنعه الله من المخلوقات، والمضاهاة: المماثلة، فتوعدهم لهذا القصد، وهو تشبههم بالله في الخلق، ومحاولتهم أن يخلقوا كخلق الله، وذلك أن الخلق والإيجاد من الله تعالى وحده، قال الله تعالى: ﴿**أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ**﴾ [النحل: ١٧]، فعاب آلتهم بأنها لا تخلق شيئاً، بل هي مخلوقة لله تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿**أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ**﴾ [الأعراف: ١٩١].

ولما ذكر بعض مخلوقاته تعالى قال بعدها: ﴿**هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ**﴾ [لقمان: ١١]، فمن حاول أن يخلق مثل خلق الله فإنه يعجز، ولو بخلق ذرة، أو ذباب، أو بعوضة، ولذلك توعد الذين يضاهئون بخلق الله تعالى بأنهم أشد الناس عذاب.

وقد ثبت أيضاً في الصحيح عن ابن مسعود، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون**»، قال الحافظ في الفتح: وقد استشكل كون المصور أشد الناس عذاباً، مع قوله تعالىٰ: ﴿**أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ**﴾ [غافر: ٤٦]، فإنه يقتضي أن يكون المصور أشد عذاباً من آل فرعون.

وأجاب الطبري بأن المراد هنا: من يصور ما يعبد من دون الله قاصداً، وهو عارف بذلك، فإنه يكفر بذلك، فلا يبعد أن يدخل مدخل آل فرعون، وأما من لا يقصد ذلك فإنه يكون عاصياً بتصويره فقط.

وأجاب غيره بأن الرواية بإثبات (من)، أي: «**إن من أشد الناس**» ثابتة، وبحذفها محمولة عليها، وإذا كان من يفعل التصوير من أشد الناس عذاباً كان مشتركاً مع غيره إلخ.

ولا شك أن هذا وعيد شديد علىٰ التصوير، ولا يلزم أن يكون عذابه المطلق في الآخرة أشد من المشركين والكفار المعاندين الذين توعدهم الله بالخلود في النار والعذاب الأليم، فلعل المراد أشد العصاة عذاباً، إذا قيل إن التصوير المطلق لا يبلغ مرتبة الكفر والشرك.

وذكر القرطبي في المفهم أن قوله: «**أشد الناس**»، لا يراد بهم كل الناس؛ بل بعضهم، وهم من يشارك في المعنىٰ المتوعد عليه بالعذاب... ومن صور صورة ذات روح للعبادة أشد عذاباً ممن يصورها لغير العبادة، وخص بعضهم الوعيد الشديد بمن صور قاصداً أن يضاهي بخلق الله فإنه يكفر بذلك، أما ما عداه فيحرم ويأثم دون إثم المضاهي، والله أعلم.

■ قوله: [ولهما، عن ابن عباس: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل مصورٍ في النار، يُجعل له بكل صورة صورها نفسٌ يعذب بها في جهنم»(١)]:

هذا الحديث رواه مسلم في اللباس والزينة عن سعيد بن أبي الحسن، قال: جاء رجل إلى ابن عباس فقال: إني رجل أصور هذه الصور فأفتني فيها. . . قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل مصور في النار يَجْعل له بكل صورة صورها نفساً فتعذبه في جهنم»، وقال: إن كنت لابد فاعلاً فاصنع الشجر وما لا نفس له.

ورواه البخاري برقم (٢٢٢٥) في البيوع من طريق سعيد بن أبي الحسن، وهو أخو الحسن البصري، بمعنى الحديث الذي بعده، لا بهذا اللفظ، ولم أجده في البخاري بلفظ: «كل مصور في النار».

وقد رواه البخاري ومسلم من طريق النظر بن أنس بقصة الرجل الذي يصنع التصاوير، وبلفظ: «من صور صورة كلف أن ينفخ الروح... إلخ».

ثم إن رواية مسلم صريحة في الوعيد بالنار للمصور، والمراد نار الآخرة كما هو الظاهر من الإطلاق، قال النووي في شرح مسلم: (وأما قوله: يَجْعل له: فهو بفتح الياء، والفاعل هو الله تعالى، أضمر للعلم به.

قال القاضي في رواية ابن عباس: يحتمل أن الصورة التي صورها هي تعذبه بعد أن يجعل فيها روح. . .، ويحتمل أن يجعل له بعدد كل صورة ومكانها شخص يعذبه به. . . إلخ.

ولا شك أن هذا وعيد شديد للمصور، ولكن التصوير لأجل العبادة أعظم، وكذا الصور التي لها ظل أشد تحريماً من المنقوشة، مع اشتراك الجميع في أنها تصاوير.

(١) أخرجه البخاري بنحوه برقم (٢٢٢٥)، ومسلم رقم (٢١١٠) (٩٩).

■ **قوله: [ولهما، عنه مرفوعاً: «من صور صورة في الدنيا كلف أن ينفخ فيها الروح، وليس بنافخ»[(١)]]:**

هذا الحديث رواه البخاري برقم (٢٢٢٥) عن ابن عباس، بلفظ: **«من صور صورة في الدنيا فإن الله معذبه حتى ينفخ فيها الروح، وليس بنافخ فيها أبداً»**، ثم رواه برقم (٥٩٦٣) عنه بنحوه.

وكذا رواه مسلم في كتاب اللباس والزينة، باب: «تحريم تصوير صورة الحيوان»، بلفظ: **«من صور صورة في الدنيا كلف أن ينفخ فيها الروح يوم القيامة، وليس بنافخ»**.

ورواه البخاري برقم (٢١٠٥) عن عائشة أنها اشترت نمرقة فيها تصاوير . . . فقال رسول الله ﷺ: **«إن أصحاب هذه الصور يوم القيامة يعذبون، فيقال لهم: أحييوا ما خلقتم»**، وقال: **«إن البيت الذي فيه الصور لا تدخله الملائكة»**، ثم رواه بنحوه برقم (٥٩٥٧، ٥٩٦١) عنها، وفيه قصة النمرقة.

وكذا رواه مسلم في باب: «تحريم التصوير من كتاب الزينة» من طرق عن نافع، عن القاسم عنها.

ورواه البخاري برقم (٥٩٥١) عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: **«إن الذين يصنعون هذه الصور يعذبون يوم القيامة، يقال لهم: أحيوا ما خلقتم»**.

وكذا رواه مسلم في باب تحريم التصوير عن ابن عمر رضي الله عنهما، فهو حديث مشهور، رواه في الصحيحين هؤلاء الثلاثة من أكابر الصحابة رضي الله عنهم.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٥٩٦٣)، ومسلم برقم (٢١١٠) (١٠٠).

وهو دليل علىٰ تحريم التصوير، وما يترتب علىٰ المصورين من العقوبة والعذاب في الآخرة، فالمعنىٰ: أنه يستمر في العذاب، ويقال له: لا ينقطع عذابك حتىٰ تنفخ الروح في هذه الصور التي صورتها، والقصد طول زمان العذاب معه، وإظهار عجزه عما كان تعاطاه، ومبالغة في توبيخه، وبيان قبح فعله.

وقوله: «**ليس بنافخ**»، أي: لا يمكنه ذلك، فيكون معذباً دائماً.

وقوله: «**يقال لهم: أحيوا ما خلقتم**»: هو أمر تعجيز، وهذا وعيد شديد، لأنه لا يمكنه نفخ الروح فيما صور، ولا إحياؤه، فيفهم منه أن عذابه مستمر إلىٰ غير نهاية، وقد تأوله بعضهم بحمله علىٰ المستحيل لذلك مع علمه بالتحريم، وقيل: إن ذلك فيمن صور ما يعبد مع الله، وقيل: إنه فيمن قصد مضاهاة خلق الله، وحمله بعضهم علىٰ الصور المجسمة، وفي ذلك نظر.

وقد استدل بذلك علىٰ جواز تصوير ما لا روح فيه من الشجر والجبال، والأبنية والصناعات اليدوية ونحو ذلك مما لا روح فيه، لقول ابن عباس لذلك السائل: ويحك إن أبيت إلا أن تصنع فعليك بهذا الشجر... إلخ، وقد منع ذلك بعض العلماء نظراً إلىٰ عموم قوله: «**ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي**»، وحمل الحديث علىٰ من قصد مضاهاة خلق الله، والله أعلم.

■ **قوله: [ولمسلم، عن أبي الهياج، قال: قال لي علي: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ؟ «أن لا تدع صورة إلا طمستها، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته»**(١)]:

هذا الحديث رواه مسلم في الجنائز، وكذا رواه أبوداود، والترمذي، والنسائي، في كتاب الجنائز من سننهم.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٩٦٩)، بلفظ: «**أن لا تدع تمثالاً إلا ...**».

ورواه الإمام أحمد في المسند برقم (٧٤١، ١٠٦٤) عن أبي الهياج بنحوه.

وقد رواه الإمام أحمد برقم (٦٥٧) عن أبي محمد الهذلي، عن علي، قال: كان رسول الله ﷺ في جنازة، فقال: «**أيكم ينطلق إلى المدينة فلا يدع بها وثناً إلا كسره، ولا قبراً إلا سواه ،ولا صورة إلا لطخها**»، فذكر الحديث، وفيه: «**من عاد لصنعة شيء من هذا فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ**. . . » إلخ، ثم رواه بعده بنحوه، وفيه: «**إلا طلخها**»، وكذا رواه برقم (١١٧٠) بلفظ: «**ولا صورة إلا طلخها**...» إلخ، وكأنه من المقلوب.

والأمر بالطمس واللطخ يقتضي لزوم محو الصور، وإزالة أثر التصوير، ولعل ذلك يحصل بمحو الوجه والرأس، وسائر ما تتميز به، ويعرف أنها صورة حيوان، ويعم ذلك المجسم وغيره، ولهذا قال النووي رحمه الله في شرح مسلم: قال أصحابنا وغيرهم من العلماء: تصوير صورة الحيوان حرام شديد التحريم، وهو من الكبائر، لأنه متوعد عليه بهذا الوعيد الشديد المذكور في الأحاديث، وسواء صنعه بما يمتهن أو بغيره، فصنعته حرام بكل حال، لأن فيه مضاهاة لخلق الله تعالى، وسواء ما كان في ثوب، أو بساط، أو درهم، أو دينار، أو فلس، أو إناء، أو حائط أو غيرها.

وأما تصوير صورة الشجر ورحال الإبل وغير ذلك مما ليس فيه صورة حيوان فليس بحرام، هذا حكم نفس التصوير.

وأما اتخاذ المصور فيه صورة حيوان، فإن كان معلقاً على حائط أو ثوباً ملبوساً أو عمامة أو نحو ذلك مما لا يعد ممتهناً فهو حرام، وإن كان في بساط يداس، ومخدة ووسادة ونحوها مما يمتهن، فليس بحرام، . . . ولا فرق في هذا كله بين ما له ظل وما لا ظل له. انتهى.

وقد كثر كلام مشايخنا في هذه الأزمنة في التصوير الفوتوغرافي، والتصوير بالكاميرا، ونحو ذلك مما تجدد وانتشر وتمكن، وعمت به البلوىٰ، وعد من الضروريات، فمنعه المشايخ المتقدمون، ورخص فيه الكثير من المعاصرين.

وهكذا التصوير المتحرك، والذي يعرض في أفلام الفيديو ونحوه، وإن كان الأمر يعود إلىٰ آثاره ومصالحه ومفاسده، فالأولىٰ أن يعطىٰ حكم ما يؤل إليه، فيرخص في المفيد لما فيه من المنفعة المقصودة، وكذا المباح الذي لا مضرة فيه، ويمنع ما فيه مضرة أو مفسدة راجحة، والله أعلم.

■ ■ ■ ■ ■

[٦١]

باب:
ما جاء في كثرة الحلف

وقول الله تعالى: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩].

عن أبي هريرة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الحلف منفقة للسلعة، ممحقة للكسب»، أخرجاه.

وعن سلمان، أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم: أشيمط زان، وعائل مستكبر، ورجل جعل الله بضاعته، لا يشترى إلا بيمينه، ولا يبيع إلا بيمينه»، رواه الطبراني بسند صحيح.

وفي الصحيح، عن عمران بن حصين، قال: قال رسول الله ﷺ: «خير أمتي قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم - قال عمران: فلا أدري، أذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثاً، - ثم إن بعدكم قومٌ يشهدون ولا يستشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يوفون، ويظهر فيهم السمن».

وفيه، عن ابن مسعود: أن النبي ﷺ قال: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته».

قال إبراهيم: كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد، ونحن صغار.

■ ■ ■ ■ ■

• فيه مسائل:

الأولى: الوصية بحفظ الأيمان.

الثانية: الإخبار بأن الحلف منفقة للسلعة ممحقة للبركة.

الثالثة: الوعيد الشديد فيمن لا يبيع ولا يشتري إلا بيمينه.

الرابعة: التنبيه على أن الذنب يعظم مع قلة الداعي.

الخامسة: ذم الذين يحلفون ولا يستحلفون.

السادسة: ثناؤه ﷺ على القرون الثلاثة أو الأربعة وذكر ما يحدث.

السابعة: ذم الذين يشهدون ولا يستشهدون.

الثامنة: كون السلف يضربون الصغار على الشهادة والعهد.

■ ■ ■ ■ ■

●● الشرح ●●

باب:
ما جاء في كثرة الحلف

هذا الباب عقده المصنف رحمه الله للنهي عن كثرة الحلف، وقد تقدم لنا في الأبواب السابقة النهي عن الحلف بغير الله، وأن الحلف بغير الله شرك، لقوله ﷺ: «**من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك**»(١).

أما هذا الباب فهو معقود للنهي عن كثرة الحلف بالله.

ومعلوم أن الحلف بالشيء تعظيم له، ولهذا السبب جاء النهي عن الحلف بغير الله؛ لأنه تعظيم للمحلوف به، كما كان المشركون يقولون: واللآت والعزىٰ، وكما يقول أهل زماننا: والنبي، والكعبة، ونحو ذلك، فإن هذا كله تعظيم لهذه المخلوقات، وتعظيمها لهذا الحد يعتبر شركاً، فالذي يحلف بالله هو معظم لله، ولكن يخشىٰ عليه مع كثرة الحلف أن يفجر ويكذب؛ لأن الذي يحلف بالله يؤكد بيمينه صدقه فإذا كذب فكأنه لم يحترم أسماء الله حيث استعملها كاذباً، ولم يكن لربه قدر في قلبه.

ولاشك أن عدم احترام أسماء الله يؤدي إلىٰ نقص العقيدة ونقص التوحيد، وهذا هو السبب في إدخال هذا الباب في كتاب التوحيد.

■ **قوله: [وقول الله تعالى: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾** [المائدة: ٨٩]]:

هذه الآية صريحة واضحة في النهي عن كثرة الحلف بالله، وهناك آية أخرىٰ أصرح منها، وهي قوله تعالىٰ: **﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾** [البقرة: ٢٢٤].

---

(١) سبق تخريجه، ص:

واليمين هي: الحلف بالله تعالىٰ، أو باسم من أسمائه، أو بصفة من صفاته، كعزة الله، وكلام الله تعالىٰ.

والمعنىٰ: تحفَّظُوا في الأيمان، ولا تجعلوا الحلف بالله ديدنكم ودأبكم، ولا تكثروا من الحلف الذي يعرض الحالف للحنث، وعدم الوفاء باليمين، أو للاستهانة بالأيمان، والجرأة علىٰ الحلف مما يهون أمرها في القلوب فيستخف بأسماء الله، وتذهب هيبتها في القلب، فلا يبالي أن يبذل اليمين علىٰ الأمور التافهة من غير احترام لربه، وذلك مما ينقص التوحيد.

وقد يكون المعنىٰ: احفظوا أيمانكم عن الحنث، أو عن ترك الكفارة التي ذكر نوعها في هذه الآية.

■ **قوله: [عن أبي هريرة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الحلف منفقة للسلعة، ممحقة للكسب»**(١)**، أخرجاه]:**

في هذا الحديث النهي عن الحلف عند البيع، حيث أخبر أن ذلك قد يسبب نفاق السلع ورواجها، حيث أن الغالب من الناس أنهم يصدقون ذلك الحالف، ويعتقدون صحة ما قال، عملاً بقول النبي ﷺ: **«من حلف بالله فليصدق، ومن حلف له بالله فليرض، ومن لم يرض فليس من الله»**(٢)، رواه ابن ماجه، قال البوصيري في الزوائد: هذا إسناد صحيح رجاله ثقات.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٠٨٧). ومسلم برقم (١٦٠٦). ولكن رواية البخاري: «ممحقة للبركة»، ورواية مسلم: (ممحقة للربح)، أما اللفظ الذي ذكره المصنف فهو عند النسائي وأحمد.

(٢) أخرجه ابن ماجة برقم (٢١٠١)، وأورده المنذري في الترغيب (٣/ ٦٠٦)، عن ابن عمر رضي الله عنهما. قال ابن حجر في فتح الباري (١١/ ٥٤٤): سنده حسن، وقال محقق سنن ابن ماجه محمد فؤاد عبدالباقي: في الزوائد: رجال إسناده ثقات. وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة رقم (١٧٠٨).

فأخبر ﷺ أن الحلف الكثير قد يحصل به رواج السلع، وكثرة البيع بربح، واشتهارها، حيث يحصل منه المدح والإطراء لها، والمبالغة في وصفها، مع التأكيد بالحلف على الثمن بأنها تساوي كذا وكذا، أو أنها مشتراة بكذا، أو الحلف بأنها من انتاج كذا، ونحو ذلك مما يحمل عليه الطمع في زيادة الربح، فيصدق العامة، ويقبلون على الشراء منه، ولكن عاقبته نزع البركة في كسبه، ونهايته الخسران المبين غالباً، فقد يحصل عليه تلف للمال، بحرق أو غرق أو ضياع، وقد يسلط الله عليه من يأخذ ماله بنهب أو غصب أو اختلاس أو خيانة أو سرقة، وقد تفسد بضائعه وتكسد، وينتشر بين الناس كذبه وتزويره وفجوره، فيبوء بالفشل والحرمان.

ولا شك أن نزع البركة من المال يسبب الخسران المبين، وأن المعاصي ومنها الكذب والفجور سبب لغضب الله تعالى، ثم عقوبته بإتلاف المال ظاهراً أو باطناً.

وقد شوهد الكثير يكثرون الحلف وأكثره كذب، أو بتأويل بعيد، ثم تنزع البركة من أرزاقهم، حيث يملكون الأموال الطائلة، ولكن قلوبهم فقيرة، فإن الغنى غنى القلب، وكثيراً ما يتسلطون على الأموال فيسرفون فيها، ويصرفونها في الباطل، وذلك من محق الكسب.

■ **قوله: [وعن سلمان، أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم: أشيمط زان، وعائل مستكبر، ورجل جعل الله بضاعته، لا يشترى إلا بيمينه، ولا يبيع إلا بيمينه»[(١)]، رواه الطبراني بسند صحيح]:**

هذا من أحاديث الوعيد التي تجرىٰ علىٰ ظاهرها ليكون أبلغ في الزجر، وفيه عظم هذه الذنوب، والتحذير منها، حيث رتب عليها هذا الوعيد الشديد.

فأولاً: نفي كلام الله لهم، فهو يحجبهم ويبعدهم عنه، ويخزيهم بهذا الإبعاد، وعدم التكليم، وفي هذا دليل علىٰ أنه يكلم عباده الصالحين، وأن كلامه لهم نعيم ولذة لهم يجدون فيه السرور والحبور، وأن ترك تكليم العصاة عذاب عليهم وضرر.

وقد أخبر النبي ﷺ بأن الله تعالىٰ يكلم المؤمنين فقال: «**ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان**»[(٢)]، متفق عليه. وقد أثبت الله تعالىٰ لنفسه صفة الكلام، فأخبر بأنه كلم موسىٰ تكليماً، وأخبر بأن من كلامه القرآن والكتب المنزلة، وأنه يكلم المؤمنين في الجنة، ويكلم الكفار بقوله لهم: ﴿**اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ**﴾ [المؤمنون: ١٠٨]، وذلك كلام سخط لا كلام رضىٰ.

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير رقم (٦١١١)، والصغير برقم (٨٢١). والأوسط كما في الترغيب والترهيب (٢/ ٥٨٧).
قال المنذري: ورواته محتج بهم في الصحيح، وكذا قال الهيثمي (٤/ ٧٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٣٠٦٧).
وله شاهد عند مسلم برقم (١٠٧)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.
وشاهد آخر عند النسائي برقم (٢٥٧٥)، عن أبي هريرة رضي الله عنه. قال الألباني في صحيح سنن ابن ماجه: حسن صحيح.

(٢) أخرجه البخاري برقم (٦٥٣٩)، ومسلم برقم (١٠١٦)-(٦٧)، عن عدي بن حاتم رضي الله عنه.

ثم من عقيدة أهل السنة والجماعة وصف الله تعالىٰ بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله ﷺ، ومن ذلك إثبات صفات الكلام، فإنه من صفات الكمال، ونفيه نقص ينزه الرب عنه، فهو سبحانه متكلم ويتكلم إذا شاء، وليس كلامه مخلوقاً كما يقوله المعتزلة، وليس كلامه هو المعنىٰ الذي يقوم بذاته كما تقوله الأشاعرة، بل كلامه يسمعه الملك، وتسمعه السموات، وترجف له، ويكلم من شاء من رسله بما يشاء، ويبعد من يشاء ويحرمهم التلذذ بسماع كلامه تعذيباً لهم، وكلامه يليق به كسائر صفاته.

وثانياً: أخبر بأنه لا يزكيهم، أي: لا يطهرهم من الذنوب، ولا يغفرها لهم، مع إصرارهم علىٰ هذه الذنوب التي هي من أكبر الكبائر، وقد يراد بالتزكية المدح والثناء عليهم، كما قال تعالىٰ: ﴿**بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ**﴾ [النساء: ٤٩]، أي: يرفع ذكرهم، ويعلي مكانتهم.

وثالثاً: العذاب الأليم: والأصل أنه عذاب النار، وهو أشد العذاب، وقد يعم عذاب الدنيا، وعذاب البرزخ، وعذاب الموقف وما بعده.

وقوله: «أشيمط زان»: أي: شيخ كبير السن، كما ورد في حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**ثلاثة لا يكلمهم الله، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم، شيخ زان، وملك كذاب، وعائل مستكبر**»(١)، رواه مسلم.

والأشيمط ذكر مصغراً تحقيراً له وإهانة، وهو الذي شمطه الشيب، أي: اختلط بياضه بسواده، ويطلق علىٰ الأشيب الذي أبيض جميع شعره، وإنما خص الأشيب لأنه إذا زنىٰ وقد ضعفت دواعي الشهوة معه دل ذلك علىٰ خبث طويته،

(١) أخرجه مسلم برقم (١٠٧).

فإن كبير السن يضعف ميله إلى النساء غالباً، وتقل شهوته، ويستطيع أن يملك نفسه، بخلاف الشباب فإن الدواعي معه قوية، قد لا يستطيع التغلب عليها إلا بإعانة الله تعالى، فمتى حصل الزنا من الكبير كان مستغرباً، فيكون ذنبه أكبر، وإن كان الزنا محرماً من الكبير والصغير.

وقوله: «**وعائل مستكبر**»، العائل هو: الفقير قليل ذات اليد، وإذا تكبر على الله وعلى العباد كان ذنبه أكبر من الغني إذا حصل منه الكبر، فإن المال والثروة، والجاه والشهرة من دواعي التكبر، بخلاف الفقر والضعف، فمتى تكبر الفقير كان ذنبه أكبر، مع أن الكبر حرام مطلقاً من الغني والفقير، وفيه وعيد شديد، كقوله ﷺ: «**لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر**»[1].

وقوله: «**ورجل جعل الله بضاعته لا يشتري إلا بيمينه، ولا يبيع إلا بيمينه**»: فهو كثير الحلف، بحيث يتساهل بكثرة الأيمان، فيحلف عند كل بيع، وعند كل شراء، والغالب أنه يقع منه كذب أو تأويل، أو مبالغة، فيكون قد حنث في هذه اليمين.

ولا شك أن كثرة الحلف دليل على الاستخفاف بأسماء الله، وعدم الاكتراث بحرمتها، حيث يبذل الحلف على أمور تافهة، لا أهمية لها، وذلك احتقاراً لأسماء الله وصفاته، فيكون منقصاً للتوحيد، أو منافياً لكماله، والله أعلم.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٣٩)، عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

■ **قوله: [وفي الصحيح، عن عمران بن حصين، قال: قال رسول الله ﷺ: «خير أمتي قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم ـ قال عمران: فلا أدري، أذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثاً ـ، ثم إن بعدكم قومٌ يشهدون ولا يستشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يوفون، ويظهر فيهم السمن»**(١).

وفيه، عن ابن مسعود: أن النبي ﷺ قال: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته».

قال إبراهيم: كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد، ونحن صغار(٢)]:

هذان الحديثان ـ حديث عمران بن حصين، وابن مسعود ـ يتعلقان بكثرة الحلف من جهة أن الشهادة والنذر لهما تعلق بالحلف وبالعهد.

قوله ﷺ: «خير أمتي قرني»، وفي رواية: «خير الناس قرني»، وفي رواية: «**القرن الذي بعثت فيهم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**»، يدل على أن قرن الصحابة أفضل القرون، ثم بعده قرن التابعين، فهو دونه في الفضل، ولكنه خير من القرن الثالث، وهو قرن تابع التابعين، والقرن الثالث شريك أيضاً في الخيرية، ولكنه دون القرنين اللذين قبله، أما ما بعد القرون الثلاثة فإنه قد كثر الاختلاف، وكثرت البدع.

وهذا واقع ومحسوس، فإن قرن الصحابة لم يقع فيه شيء من البدع يكون لها انتشار، وإن كان قد وقع فيه بدع ولكنها لم تتمكن.

فأول بدعة وقعت فيه بدعة الغلاة الذين غلوا في علي رضي الله عنه وادعوا

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٦٥١، ٣٦٥٠، ٦٤٢٨، ٦٦٩٥)، بلفظ: «خيركم»، وأخرجه مسلم برقم (٢٥٣٥).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٢٦٥٢، ٣٦٥١، ٦٤٢٩، ٦٦٥٨)، ومسلم برقم (٢٥٣٣)ـ(٢١٠، ٢١١).

فيه الألوهية، وأرادوا بذلك إفساد الدين على المسلمين، ولكنه أحرقهم.

ووقع بعد ذلك أو قبله بدعة الخوارج الذين كفروا علياً، واعتقدوا أنه ارتد، واستحلوا قتله، وقاتلوه وقاتلهم، وقتل منهم خلقاً، ولكن هؤلاء الخوارج قلة وذلة، ولم يتمكنوا، وإن كان حصل منهم إفساد ومفاسد.

ثم حصلت أيضاً بدعة أخرى، وهي بدعة إنكار القدر، ولكن خروجها في القرن الأول إنما هو في أفراد ولم تتمكن، ثم هؤلاء الأفراد لم ينكروا إلا نوعاً منه فقط.

فالحاصل أنه قد وجد مبادئ بدع في القرن الأول إلا أنها لم تتمكن.

أما القرن الثاني، فقد وجدت فيه بعض البدع كالقدرية التي تمكنت، ثم ظهرت أيضاً بدعة الجهمية والمعتزلة بإنكار الصفات، ولكن مع ذلك وجد من يقاومها ويرد عليها، فكان هناك علماء وعباد وحملة علم وقادة وسادة يقومون بهذا الدور، ثم انقضى ذلك القرن قبل أن تتمكن هذه البدع.

أما في القرن الثالث فقد تمكنت فيه تمكناً قوياً، بحيث اعتقد كثيراً منها بعض الخلفاء، وامتحن كثيراً من العلماء على ذلك، ولكن وجد من جابهها وردها وصمد لها، وبعد ذلك قويت السنة وانتشرت.

أما بعد القرون الثلاثة، فإن بدعة الجهمية والمعتزلة سادت وتمكنت، وقلّ من يخالفها، وصارت من السنة، بحيث إن الأغلب لا يعرفون سواها، وكان فيهم علماء محدثون وأئمة، ولكنهم انخدعوا بتلك الشبهات التي يدلي بها أولئك المعتزلة وورثتهم.

فالحاصل أن هذا إخبار من النبي ﷺ، وهو مطابق للواقع.

بعد ذلك أخبر الرسول ﷺ بحال مَنْ بَعْدِ القرون الثلاثة، فوصفهم بهذه الصفات:

الصفة الأولى: «يشهدون ولا يستشهدون»:

أي: يتساهلون بالشهادة؛ فليس للشهادة في قلوبهم قدر، ولا شك أن الشهادة إنما تكون على اليقين؛ لقوله تعالى في سورة يوسف: ﴿**وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا**﴾ [يوسف: ٨١].

وأخبر الله بأن أهل الشهادة إنما يكونون من العدول، قال تعالى: ﴿**وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ**﴾ [الطلاق: ٢]، فلا بد من العدالة، فهؤلاء إما أنهم يأتون ويقولون: نحن نشهد لك يا فلان، ولم يطلبوا، وإما أنهم يشهدون وهم لم يحضروا ما شهدوا به، والناس يعرفون أنهم غير ثقات؛ فلا تقبل شهادتهم لظهور الطعن فيهم، ولظهور ما يقدح في شهادتهم.

فيدل هذا على أن الاستخفاف بأمر الشهادة من قلة الديانة، وقد روي أنه عليه الصلاة والسلام قال لرجل: «**أترى الشمس؟**» قال: نعم، قال: «**على مثلها فاشهد أو دع**»[1]، أي: لا تشهد إلا بعدما تتحقق الأمر كتحققك أن هذه هي الشمس.

فالذي يشهد حمية أو محاباة، أو يشهد لأجل مصلحة دنيوية أو أجرة أو نحو ذلك هو على خطر كبير، وذلك لأن الشهادة يترتب عليها انتزاع حق من إنسان وإعطاؤه لآخر؛ فيكون الشاهد هو المتسبب لأخذ شيء لمن لا يستحقه،

---

(١) **قال الشيخ ابن جبرين**: رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٩٨)، والبيهقي (١٠/ ١٥٦)، والعقيلي في الضعفاء (٤/ ٧٠)، وابن عدي في الكامل (٦/ ٢٢١٣)، بمعناه، وأبو نعيم في الحلية (٤/ ١٨)، بلفظه، وصححه الحاكم وخالفه الذهبي، وضعفه العقيلي وغيره.

وهو المتسبب كذلك في ظلم المظلوم وأخذ شيء منه بغير استحقاق.

ولا شك أن شهادة الزور من أعظم الذنوب، قال الله تعالى في صفة المؤمنين: ﴿وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ [الفرقان: ٧٢]، أي: لا يشهدون زوراً، وثبت أنه عليه الصلاة والسلام عدها من الكبائر لما قال: «**ألا أخبركم بأكبر الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين** وكان متكئاً ـ أي: على حائط ونحوه ـ فجلس، ثم قال: **ألا وقول الزور، ألا وشهادة الزور**»، فما زال يرددها حتى قالوا: ليته سكت[١]، فيدل ذلك على عظم ذنب شهادة الزور، وقد روي أن النبي ﷺ قال في شاهد الزور: «**أنه لا تزول قدما شاهد الزور حتى يعرض على النار**»[٢]، والعياذ بالله.

الصفة الثانية: «يخونون ولا يؤتمنون»:

الخيانة من صفة المنافقين، فقد وصف النبي ﷺ المنافق بقوله: «**وإذا اؤتمن خان**»[٣]، أي: تأمنه على مال فيخونك، وتأمنه على سر فيفشي سرك، فإذا عرفهم الناس أنهم لا يوفون تجنبوهم ولم يأتمنوهم على مال ولا على دين ولا على أسرار ولا على أمر من الأمور، لأن الخيانة ضد الأمانة.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٦٥٤)، عن عبدالرحمن بن أبي بكرة عن أبيه رضي الله عنه.

(٢) أخرجه ابن ماجه برقم (٢٣٧٣)، وأورده المنذري في الترغيب (٣/ ٢٢٢) برقم (٣٤١٣).

ولفظ ابن ماجة: «**لن تزولا قدما شاهد الزور حتى يوجب النار**».

قال محقق سنن ابن ماجة محمد فؤاد عبدالباقي: في الزوائد: في إسناده محمد بن الفرات، متفق على ضعفه. وكذبه الإمام أحمد، وقال المنذري في الترغيب: رواه ابن ماجه والحاكم، وقال: صحيح الإسناد، ورواه الطبراني في الأوسط. وقال الهيثمي في المجمع (٤/ ٢٠٠): فيه من لا أعرفه.

قال الشيخ ابن جبرين: رواه ابن ماجة وفيه ضعف. وقد أورده الشيخ بصيغة التمريض.

(٣) سبق تخريجه.

الصفة الثالثة: «وينذرون ولا يوفون»:

النذر هو: الحلف على أمر من الأمور، سواء لله أو لغير الله، فمنه نذر الطاعة كأن يقول: لله علي أن أتصدق بكذا، ولا يوفي.

وقد يكون مثلاً مصراً على ذنب، فينذر أن يتركه ولا يوفي بنذره، كأن يكون مصراً على شرب الدخان، فيقول: لله علي أن أترك الدخان، ثم لا يتركه، أو مصراً على شرب الخمر، أو مصراً على حلق اللحية، أو إطالة الشارب، أو نحو ذلك، فيقول: لله علي أو أعاهد الله ألا أعود إلى هذا الذنب، ثم يعود، فهذا نذر ولم يوف؛ فيكون داخلاً في هؤلاء الذين ينذرون ولا يوفون.

الصفة الرابعة: «أنه يظهر فيهم السمن»:

فالمراد أنهم يكون همهم شهواتهم وبطونهم ومآكلهم، فيكثر أحدهم من إعطاء نفسه متطلباتها من المشتهيات التي يريدها، فما يتمنى شيئاً إلا ويتحصل عليه، فيأكل من المآكل الشهية ومن المشروبات ونحوها حتى تعظم جثته، وينتفخ بطنه، ويركبه اللحم والشحم، ويظهر فيه السمن، فيكون سميناً، أي: كبير الجثة كبير البطن كثير الشحم، وليس ذلك بخصلة محبوبة، بل المؤمنون وأهل الخير هم الذين لا ينعمون أنفسهم، ولا يتبعون شهوات أنفسهم.

هذه هي خصال هؤلاء، والشاهد منها أنهم يكثرون النذر والحلف ولا يوفون إذا حلفوا أو نذروا، وأنهم يتسرعون بأمر الشهادة.

* وقوله في حديث ابن مسعود: **«تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته»:**

أي: أنه يتسرع في الشهادة، فيشهد قبل أن يستشهد، ويتسرع في الحلف، فيحلف قبل أن يستحلف، وإذا حضر حلف وشهد، يكاد أن يحلف قبل أن

يشهد، ويحلف على الشهادة، ويشهد على الحلف، وذلك من الاستخفاف باليمين، ومن قلة الاحترام للشهادة، ففي هذا ونحوه دليل على خفة ديانتهم حيث تهاونوا بأمر الشهادة؛ فشهدوا قبل أن يستشهدوا.

* **أما قول إبراهيم النخعي: «كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد ونحن صغار»:**

فالمراد بالعهد: الميثاق، وهو المعاهدة على الشيء، فمن عاهد على أمر من الأمور فإنه بمنزلة الميثاق ويؤمر بأن يفي به، قال تعالى: ﴿**إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً**﴾ [الإسراء: ٣٤]، وكذلك المعاقدات، قال تعالى: ﴿**أَوْفُوا بِالْعُقُودِ**﴾ [المائدة: ١]، وقد أمر الله تعالى بأن يوفي الإنسان بما عاهد، قال تعالى: ﴿**وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ**﴾ [النحل: ٩١].

فقد أخبر إبراهيم النخعي أن أهل زمانه كانوا يؤدبون الصبيان على الشهادة، ويقولون لهم: لا تشهدوا إلا عن يقين، ولا تعاهدوا إلا عن يقين بالوفاء، وهؤلاء هم الصحابة، فقد كان مشايخ ابن مسعود وعلي ومن في زمنهما ممن أدركهم إبرهيم النخعي يضربون تلاميذهم على الشهادة والعهد وهم صغار، ضرب تأديب وتعليم، حتى يتثبتوا في الشهادة فيشهدون بعد تحقق، ويعاهدون ويوفون.

فعرفنا بذلك أن آثار كثرة الحلف وكثرة النذر وكثرة المعاهدة، ونحو ذلك توقع الإنسان في الإثم والحنث من حيث لا يشعر، وتوقعه في الاستخفاف بالأيمان والاستخفاف بأسماء الله تعالى وقلة احترامها، ومتى قل احترام المسلم لأسماء الله ولصفاته قلت ديانته وخفت أمانته.

■ ■ ■ ■ ■

[٦٢]

باب:
ما جاء في ذمة الله وذمة رسوله

وقول الله تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [النحل: ٩١]:

وعن بريدة، قال: كان رسول الله ﷺ، إذا أمر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله، ومن معه من المسلمين خيراً. فقال: «اغزوا بسم الله، في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله. اغزوا، ولا تَغلُّوا، ولا تغدروا، ولا تُمثِّلوا، ولا تقتلوا وليداً. وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال ـ أو خلال ـ، فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم، وكف عنهم. ثم ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين. وأخبرهم: أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين، وعليهم ما على المهاجرين. فإن أبوا أن يتحولوا منها، فأخبرهم: أنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم حكم الله تعالى، ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين. فإن هم أبوا فاسألهم الجزية. فإن هم أجابوك فاقبل منهم، وكف عنهم، فإن هم أبوا، فاستعن بالله وقاتلهم، وإذا حاصرت أهل حصن، فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه، فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك، فإنكم إن تخفروا ذممكم وذمة أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة نبيه، وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم، ولكن أنزلهم على حكمك، فإنك لا تدري: أتصيب فيهم حكم الله أم لا؟»، رواه مسلم.

• فيه مسائل:

الأولى: الفرق بين ذمة الله وذمة نبيه وذمة المسلمين. .

الثانية: الإرشاد إلى أقل الأمرين خطراً.

الثالثة: قوله: «اغزوا بسم الله في سبيل الله».

الرابعة: قوله: «قاتلوا من كفر بالله».

الخامسة: قوله: «استعن بالله وقاتلهم».

السادسة: الفرق بين حكم الله وحكم العلماء.

السابعة: في كون الصحابي يحكم عند الحاجة بحكم لا يدري أيوافق حكم الله أم لا؟.

■ ■ ■ ■ ■

الشرح

باب:
ما جاء في ذمة الله وذمة رسوله

هذا الباب في ذمة الله وذمة نبيه ﷺ.

والذمة هي: العهد، ولأجل ذلك استدل بهذه الآية، وهي قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النحل: ٩١].

والعهد هو أن يقول: لك عهد الله أو أعاهدك بالله أو أعاهد الله لك أن لا أفعل معك كذا.

والعهد إذا استهان به العبد فإنه يعتبر محتقراً لذمة الله وعهده وميثاقه، ومتهاوناً بأمره. ولاشك أن التهاون بذلك سبب في احتقار عقوبة الله وعظمته، وذلك منقص للتوحيد ومخل بالعقيدة، فلأجل ذلك أدخل هذا الباب في جملة أبواب التوحيد.

وقد اختلف العلماء في جواز الحلف بالنبي ﷺ، والصحيح أنه لا يجوز؛ لقوله ﷺ: **«لا تحلفوا بآبائكم، ولا بالأصنام، ولا تحلفوا بالله إلا وأنتم صادقون»**(١)، وكذلك ثبت عنه أنه قال: **«من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك»**(٢).

فإذن لا يجوز الحلف بالنبي ﷺ، لا باسمه العلم كأن يقول: حلفت بمحمد

(١) سبق تخريجه بنحوه.

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٤٧-٢/ ٦٩، ٨٧، ١٢٥)، وأبو داود برقم (٣٢٥١)، والترمذي برقم (١٥٣٥).

قال الترمذي: حسن، وقال أحمد شاكر في تحقيق المسند (٣٢٩): إسناده صحيح، وصححه الألباني في الإرواء رقم (٢٥٦١).

أو أحلف بمحمد، ولا بصفته، ولا يجوز أن يعطف على اسم الله، فلا يقول: حلفت بالله وبالنبي، أو حلفت بالله وبمحمد؛ لأن العطف يقتضي المساواة، وهكذا أيضاً لا يعطف بـ(ثم)، فلا يقول: حلفت بالله ثم بمحمد؛ لأنه يكون حلفاً بمحمد أو بالنبي، وذلك حلف بغير الله.

وقوله: [باب: ما جاء في ذمة الله وذمة رسوله]:

أخذاً من الحديث الذي سيأتي في هذا الباب، والذمة المراد بها: العهد، والنبي ﷺ له عهد، كما أنك أنت لك عهد، أي: لك ذمة.

فالذمة هنا هي: العهد، والنبي ﷺ كغيره من المخلوقين له ذمة، وللإنسان - أي إنسان - ذمة؛ فإذن ليس المراد هنا بالذمة الحلف ولا اليمين، ولكن المراد بها عهد الأنسان، فذمة الله تعالى بمعنى: عهده، وذمة النبي ﷺ بمعنى: عهده، فلا يكون ذلك مقتضياً للمساواة بين الذمتين.

وقد كان النبي ﷺ يعاهد، فقد ثبت أنه عاهد المشركين في الحديبية، وأعطاهم ذمته وذمة أصحابه، وهكذا أيضاً المعاهدات التي بينه وبين سائر القبائل أو الدول أو الأمم الأخرى تدل على أنه أعطاهم ذمته وعاهدهم عهده.

أما نحن فليس لنا أن نجعل لأحد ذمة النبي ﷺ حتى لا نخفرها، أي: لا ننقض العهد الذي فيه ذمة النبي ﷺ، كما أنك لا يجوز لك أيضاً أن تجعل ذمة غيرك، بل اجعل لمن تعاهده ذمتك، ولا تتجرأ على غائب فتجعل ذمته، فلا تقول: لك عهد أبي أو لك عهد أميري وذمته وميثاقه أو رئيسي، فلا تعاهد إلا بنفسك، فتقول: لك عهدي أو ميثاقي، فلا تتجرأ أن تعاهد بعهد أحد غيرك إلا إذا فوضت وأعطاك تفويضاً صريحاً، أو أنابك مثلاً رئيسك أو أميرك أو مسئول عنك أو أنت وكيل عنه، فلك حينئذ أن تعاهد عنه وتجعل الذمة ذمته.

وبكل حال فإن الإنسان متى عاهد بنفسه عن ذمته عهده وميثاقه فإن عليه الوفاء بما يستطيعه، وكذلك إذا عاهد بالوكالة عن غيره فإن عليه أن يفي، وإن على الموكِّل الذي بُذلت ذمته وعهده أن يفي ولا يخون؛ لأن العهد مسئول، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾ [الإسراء: ٣٤]، ولهذه الآية الصريحة: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ﴾ [النحل: ٩١].

فعليك الوفاء بالعهد الذي بينك وبين من تعاهده؛ لأنه قد وثق بك واطمأن إلى معاهدتك، فلا يجوز للإنسان بعد بذل العهد أن يخون أو يخفر ذمته ويأتي بما ينقض به شريعة الله تعالى ويخالف ما أمر به.

إذن الأصل في المعاهدات إما أن تكون بين الله وبين العبد على فعل الطاعة وترك المعصية، فهذه هي المؤكدة، وإما أن تكون بين اثنين أو بين قبيلتين على الوفاء وعدم الخيانة وعدم الاعتداء من أحد على أحد، فهذه أيضاً يجب الوفاء بها وعدم الخيانة وعدم نقضها؛ وذلك لما فيها من بذل الذمة.

والأصل في الذمة أنها ضمير الإنسان وعقيدته وقلبه، وذلك لأنه إذا التزم بذلك فقد وعد وعداً، ووعد الحر دين عليه، فهو عندما عاهد كأن بينه وبين صاحبه مرابطة وموافقة على فعل هذا الشيء، فنقضه لذلك يعتبر خيانة، ويتجرأ الإنسان على أن يفعل المعاصي التي بينه وبين الله، كما فعلها بينه وبين الإنسان.

فعلى المسلم الوفاء بالوعد وبالذمة وبالمعاهدات حتى مع الكفرة ومع الفسقة ومع الخارجين عن الإسلام، وذلك لأن الوفاء صفة مدح جاء بها الإسلام، والعقل أقرها، والكفرة يتمدحون بهذا الوفاء في الإنجازات وفي المواعيد وفي الأمانات وفي الحقوق وما أشبه ذلك، فلما أقرها الشرع واستحسنها العقل دل على أن خلافها من منقصات الإسلام، ومما ينافي كمال التوحيد.

■ قوله: [وقول الله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [النحل: ٩١]]:

العهد هو: الميثاق، بأن يعطي الإنسان عهداً، أي: إلزاماً، كأن يقول: أعاهد الله على ألا أعود إلى كذا، أعاهد الله على ألا أترك صلاة، أو ألا أشرب خمراً أو دخاناً، أو على ألا أزني أو أفجر أو أكذب، أو ما أشبه ذلك، فهذه معاهدة ومواثقة بين العبد وبين ربه، ولابد من سؤاله إذا لم يف، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤]، أي: كان ولا بد أن يسأل عنه.

والمعاهدة إما أن تكون بين الله وبين العبد، كأن يعاهده ألا يعصيه، أو أن يطيعه ونحو ذلك، وقد تكون المعاهدة بين اثنين، كأن يقول: لك عهد الله علي، أو أعاهدك بالله ألا أخونك، أو ألا أخلف وعدك، أو ألا أجور عليك في أمر، أو لا أحيف مع غيرك عليك، أو أعاهدك بالله أو لك عهد الله أن أنصح لك أو أطيعك أو ما أشبه ذلك، فهذا عهد الله بين اثنين، وهو آكد من اليمين، وذلك لأن الله تعالى عطفه على اليمين، فقال: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ﴾، بدأ به، ثم قال: ﴿وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النحل: ٩١]، والأيمان أن يقول: أحلف لك بالله، أو حلفت بالله ألا أفعل كذا.

وفي هذه الآية يأمر الله تعالى عباده أن يوفوا بالعهود والمواثيق، ويعم ذلك المعاهد لله تعالى، والمعاهدة بأسمائه، وقد دل على الوفاء بها كثير من الأدلة، كقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤]، وهو عام في كل معاهدة بين اثنين، وكذا معاهدة العبد لربه، كقوله تعالى: ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ [الانعام: ١٥٢]، والعهد هو الذمة، فمن عاهد بالله لزمه الوفاء احتراماً لأسماء الله وتعظيماً لله، ويعم ذلك من عاهد قوماً بقوله: لكم عهد الله وميثاقه

أن لا أفعل كذا وكذا، ويعم من قال: لكم ذمة الله أن لا أعتدي عليكم، فيلزم الوفاء بذمة الله، وعدم الغدر والكذب الذي هو من صفات المنافقين، فالمنافق إذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وقد ورد في الحديث عن ابن عمر مرفوعاً: «**يرفع لكل غادر لواء يوم القيامة، يقال: هذه غدرة فلان بن فلان**»(١)، متفق عليه.

ولا شك أن كل عبد قد عاهد ربه أن لا يشرك به، ولا يعصيه، ولا يرتكب إثماً أو يفعل ذنباً، فعليه الوفاء بهذا العهد، وهكذا لا يعتدي على من لهم عهد وذمة من المسلمين وغيرهم، فقد ورد في الحديث قوله ﷺ: «**من صلى الصبح فهو في ذمة الله، فلا يطلبنكم الله من ذمته بشيء، فإنه من يطلبه من ذمته بشيء يدركه، ثم يكبه على وجهه في نار جهنم**»(٢)، رواه مسلم.

وروى البخاري عن عبدالله بن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ: «**من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة**»(٣)، والمعاهد: هو من له عهد وأمان من المشركين وأهل الكتاب، بحيث يأمن في بلاد الإسلام على نفسه وماله بسبب العهد الذي عقده له الإمام العام أو نائبه.

وقوله تعالى: ﴿**وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا**﴾، أي: لا تحنثوا وتخالفوا ما حلفتم عليه من الأيمان المؤكدة التي تلتزمون فيها فعلاً أو تركاً، وذلك عندما

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣١٨٦، ٣١٨٧)، عن عبدالله بن عمر وعن أنس رضي عنهم، ومسلم برقم (١٧٣٥)، عن أنس رضي الله عنه.
وأخرجه البخاري برقم (٣١٨٨)، ومسلم برقم(١٧٣٥)، عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما.
وأخرجه مسلم برقم (١٧٣٦)، عن ابن عمر رضي الله عنهما.
وأخرجه مسلم برقم (١٧٣٧)، عن أنس رضي الله عنه.
وأخرجه مسلم برقم (١٧٣٨)، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم برقم (٦٥٦)ـ(٢٦٢)، عن جندب بن جنادة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري برقم (٣١٦٦)، عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما.

يحلفون أيماناً مغلظة على الوفاء بالبيعة أو أداء الحق، أو البعد عن الغدر والخيانة، فتلك الأيمان ونحوها يجب الوفاء بها، ويحرم نقضها والخلف في ما احتوت عليه.

ثم قال تعالى: ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً﴾، وذلك أن الحلف بأسماء الله تعالى أو بصفاته يستلزم مراقبته وتوكيله، وهو كفيل على العباد، وعلى هذا يجب مراقبته، وعدم الاستهانة بأسمائه وصفاته، متى جعل ربه عليه كفيلاً ورقيباً، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾، من الوفاء أو الغدر، ونقض الأيمان، والله أعلم.

■ **قوله: [وعن بريدة، قال: كان رسول الله ﷺ، إذا أمر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله، ومن معه من المسلمين خيراً. فقال: «اغزوا بسم الله، في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله. اغزوا، ولا تَغلُّوا، ولا تغدروا، ولا تُمثِّلوا، ولا تقتلوا وليداً. وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال ـ أو خلال ـ، فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم، وكف عنهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين. وأخبرهم: أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين، وعليهم ما على المهاجرين. فإن أبوا أن يتحولوا منها، فأخبرهم: أنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم حكم الله تعالى، ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين. فإن هم أبوا، فاسألهم الجزية. فإن هم أجابوك فاقبل منهم، وكف عنهم، فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم، وإذا حاصرت أهل حصن، فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه، فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك، فإنكم إن تخفروا ذممكم وذمة أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة نبيه، وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله**

فلا تنزلهم، ولكن أنزلهم على حكمك، فإنك لا تدري: أتصيب فيهم حكم الله أم لا؟»[1]، رواه مسلم]:

هذا الحديث حديث جامع كامل لما يوصىٰ به أمير الجيش وأمير الغزو، وفيه أن النبي ﷺ كان يؤمِّر علىٰ كل سرية أميراً، ويأمرهم أن يطيعوه، ويأمره أن يعدل فيهم، وأن يرفق بهم، وألا يشق عليهم، ولا يكلفهم، ويلتمس راحتهم ورفقهم.

*** وفي هذا الحديث كان ﷺ يوصي أمير الجيش أو السرية بجملة وصايا، ومن ذلك:**

الوصية الأولى: تقوى الله في خاصته:

لأن من اتقىٰ الله راقبه، وأن تقوىٰ الله سبب لطاعته، وطاعته سبب للعمل بكل ما أمر به، فتقوىٰ الله شاملة عامة لكل ما فيه مصلحة وما فيه عبادة.

الوصية الثانية: أن يعمل بمن معه من المسلمين ـ أي جيشه ـ خيراً:

فيقول مثلاً: ارفق بهم، ولا تكلفهم ما لا يطيقون، ولا تشق عليهم في السير ولا تلق بهم في عدو يفوقهم عدداً وعدة فيؤول ذلك إلىٰ ضعفهم، والتمس راحتهم وما فيه مصلحة عامة وليس فيه ضرر.

الوصية الثالثة: أن يغزو باسم الله:

فهو يبين لهم أن مسيرهم هذا غزو، والغزو هو السفر لأجل الجهاد في سبيل الله، وقتال المشركين، قال تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى﴾ [آل عمران: ١٥٦]، ولأجل ذلك تسمىٰ الوقائع التي وقعت للنبي ﷺ غزوات

(١) أخرجه مسلم برقم (١٧٣١).

ومغازي.

وقوله: «اغزوا باسم الله»، أي: مستعنين باسم الله، متقوين باسم الله، وكلمة باسم الله تأتي للاستعانة، أي: استعينوا باسمه، والاسم هنا للجنس، سواء الله أو غيره من أسمائه، كأنه يقول لهم: أكثروا من الاستعانة باسم الله، وقولوا: اللهم أعنا، اللهم إنا نستعين بك، باسمك نستعين، وبأسمائك الحسنىٰ نتقوىٰ ونستنصر علىٰ الأعداء.

الوصية الرابعة: أن يغزوا بهم في سبيل الله:

لأن هذا الغزو ليس في سبيل النفس، وليس في سبيل الهوىٰ، وليس في سبيل الدنيا، وسبيل الله هو الطريق الموصل إلىٰ رضاه، فالسبيل في الأصل الطريق الذي يسير فيه الناس، قال تعالىٰ: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ [المائدة: ١٦]، وقال: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وقال: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨]، أي: طريقتي، وكل هذه سبل معنوية، فسبيل الله الطريق التي توصل إلىٰ رضاه، وهي تقطع بالأعمال، وليست تقطع بالسير علىٰ الرواحل ونحوها، إنما الناس يسيرون عليها بأعمالهم وبأقوالهم.

فإذا قال الإنسان: أنفقت هذه النفقة في سبيل الله، فالمراد حتىٰ أصل إلىٰ رضا الله، وكذا من يقول: صليت في سبيل الله، أو تكلمت بهذه الكلمة في سبيل الله، أو غزوت في سبيل الله، أو قرأت في سبيل الله، أو صمت في سبيل الله، أو نصحت أو دعوت إلىٰ سبيل الله، فكل شيء يوصل إلىٰ رضاه فهو في سبيله.

لكن اشتهر أن سبيل الله هي الغزو، قال ﷺ: «**لغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها**»(١)، والمراد غزو الكفار وقتالهم؛ لأن الذي يفعل ذلك يبذل نفسه وهي أغلىٰ ما يملك في سبيل الله، أي: فيما يقرب إليه، ويبذل ماله ويبذل وسعه ويبذل قصارىٰ جهده، فأطلق عليه سبيل الله.

الوصية الخامسة: أن يقاتلوا من كفر بالله:

المراد أن قتالكم ليس قتالاً في سبيل الشيطان؛ لأنكم تقاتلون الكفار، فهؤلاء الذين كفروا بالله تعالىٰ هم الذين يحاربون؛ لأنهم أعداء الله وأنتم أولياؤه، فكما أنهم أعداء الله فهم أعداء لمن والىٰ الله، فإذن هم أعداؤكم كما هم أعداء الله، فقاتلوهم لأنهم كفروا بالله، حتىٰ ولو لم يظهروا لكم العداوة، حتىٰ ولو لم يقاتلوكم.

وهذا دليل علىٰ القتال لأجل الكفر، لا لأجل الدفاع، وقد اشتهر في زماننا هذا أناس من الذين يدعون العلم، ويقولون: (إن الكفار لا يُقَاتَلُونَ إلا دفاعًا، وإذا تركونا تركناهم، وإذا سالموا سالمنا، وإذا لم يبدأوا بالقتال لم نبدأ، ونحن إنما نقاتلهم دفاعاً عن الأنفس)، ولكن هذا يخالف هذا النص الصريح، قال الله تعالىٰ: ﴿**قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ**﴾ [التوبة: ١٢٣]، فهذا نص صريح بأنهم يقاتلون لكفرهم، والنبي ﷺ في هذا الحديث يقول: «**قاتلوا من كفر بالله**»، ولم يقل قاتلوا من قاتلكم، أو قاتلوا دفاعاً عن أنفسكم، أو قاتلوا دفاعاً عن بلادكم، أو من اعتدىٰ عليكم، بل قال: «**قاتلوا من كفر بالله**».

*** بعد ذلك أوصاهم ﷺ بوصايا أخرى تدل على أن المقاتلين عليهم العدل حتى مع**

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٧٩٢)، وأخرجه مسلم برقم (١٨٨٠)، عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

الأعداء، ومن ذلك:

أولاً: قوله ﷺ: «اغزوا»:

تأكيداً لما سبق.

ثانياً: قوله ﷺ: «ولا تغلوا»:

الغلول هو: إخفاء شيء من الغنيمة قبل قسمتها، فإذا غنم المقاتلون غنيمة فإنها مشتركة بينهم، فيخرج خمسها لله ولرسوله ﷺ وَمَنْ ذَكَرَ الله، والبقية تقسم بين الغانمين؛ للراجل سهم، وللفارس سهمان أو ثلاثة كما ذكروا ذلك في الجهاد.

ثالثاً: قوله ﷺ: «ولا تغدروا»:

الغدر هو: الخلف في الميثاق، أو نقض الميثاق، أو نقض المعاهدة، أي: من كان بينك وبينهم معاهدة فإياك أن تنقض العهد، فذلك الغدر، والغدر حرام؛ قال النبي ﷺ: **«يرفع لكل غادر لواء يوم القيامة يقال: هذه غدرة فلان بن فلان»**[(١)].

والغدر معناه: أنك قد تصطلح أنت وأهل هذه البلدة على عهد، فتقول: أمهلونا، لا تقاتلونا ولا نقاتلكم مدة سنة أو مدة عشرة سنين أو مدة شهر حتى يأتينا وفدنا أو يأتيكم وفدكم أو نحو ذلك، فتصطلحون معهم على ترك القتال، فحين ذاك إياكم أن تغدروا، فلا تقاتلوا أحداً منهم.

وكذلك إذا أمّنتم أحداً فإياكم أن تخونوا فتقتلوه، أي: إذا دخل واحد من الكفار إلى بلادكم بأمان فإياكم أن تقتلوه، فإن ذلك يجلب لكم سمعة سيئة، فمن استسلم فإن الله تعالى أمركم بالأمان له، قال تعالى: **﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ**

---

(١) سبق تخريجه.

اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، فأمرك بأن تجيره ليدخل البلد، ويسمع كلام الله، حتىٰ ولو كان كافراً، وإذا دخل فلا يتعرض له أحد بأذىٰ ولا بقتل ولا بضرب، بل يعامل بما يليق به كسائر الكفار الذين يقيمون في البلاد الإسلامية، فإن لهم عهد، ولهم ذمة؛ فلا يغدر بهم، وهذا يناسب الترجمة، فإن الغدر هو نقض للعهد.

رابعاً: قوله ﷺ: «ولا تمثلوا»:

التمثيل هو: تشويه خلقة القتيل من الأعداء، وذلك لأن بعض الأعداء عندما يتقاتلون هم وأعداؤهم فيقتلون منهم قتلىٰ، فمتىٰ جاؤا إلىٰ القتلىٰ ـ بعدما يستولون علىٰ المعركة ـ يمثلون بهم، فيبقرون بطن القتيل، ويجدعون أنفه، ويشقون شقي فمه، ويطمسون عينيه، ويشوهون خلقه ووجهه، ويقطعون ذَكَرَهُ، أو ما أشبه ذلك، فالحاصل أنهم يكونون قد مثلوا به، أي: فعلوا به مثلة سيئة، والنبي ﷺ نهىٰ عن المثلة، فقال: «**لا تمثلوا**».

وقد ذُكِرَ أن المشركين لما قتلوا من الصحابة في وقعة أحد من قتلوا جاء النساء إلىٰ بعض القتلىٰ فمثلوا بهم، ومنهم حمزة رضي الله عنه، حيث شقت هند بنت عتبة بطنه ـ لأنه كان قتل أباها ـ، وأخرجت كبده ومضغت منها شيئاً ثم لفظته، فقال أبو سفيان: إنكم ستجدون مُثْلَةً ـ يعني: في القتلىٰ ـ لم آمر بها ولم أنهها، ولم تسؤني ولم تُفرحني، يعني: أنني ما سعيت في هذه المثلة. فهذا دليل علىٰ أن بعض الأعداء يمثلون بالقتلىٰ لشفاء غيظٍ في نفوسهم.

فالحاصل أن النبي ﷺ نهىٰ عن التمثيل بالقتلىٰ، فقال: «**ولا تمثلوا**»، أي: اتركوهم كما قتلوا، وعلىٰ ما أصابهم من الجراح ليجهزهم أولياؤهم وليدفنوهم

- إن كانوا مسلمين - بجراحهم.

خامساً: قوله ﷺ: «ولا تقتلوا وليداً»:

فإنها وصية بترك قتل الصبيان الذين لا يقاتلون لصغر السن، فإنهم لا ضرر منهم على المسلمين؛ ولأنهم يُسْتَرَقُّونَ ويملكهم الغانمون كالسبي، ويتربون مع المسلمين، والغالب أنهم يسلمون؛ حيث ينشئون بين أظهر المسلمين ولا يعرفون عن دين آبائهم شيئاً، فلا حاجة إلى قتلهم.

وهكذا ورد النهي عن قتل النساء، فإنهن يصبحن سبياً وغنيمة يقتسمها المقاتلون بعد إخراج الخمس، لكن إذا قاتلت المرأة بأي نوع من السلاح فإنها تقتل دفاعاً.

وهكذا ورد النهي عن قتال الشيوخ والمسنين الذين لا رأي لهم لعدم الخوف من قبلهم.

فهذه الوصايا ونحوها كان النبي ﷺ يوصي بها كل أمير يؤمِّره على سرية أو جيش، وفيها نصح للأمراء، وهي تمثل العدل والإنصاف حتى مع الأعداء، فإن العادل هو الذي يعدل مع عدوه كما يعدل مع وليه.

* **بعد ذلك أوصى ﷺ أمير الجيش بثلاث خصال يجب أن يُعمل بها عند لقاء الكفار والمشركين قبل قتالهم، لقوله ﷺ: «وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال أو خلال»**، ثم قال: **«فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم، وكف عنهم»**: أي: إذا أجابوك إلى إحدى هذه الخصال فإن الواجب عليك أن: تكف عنهم، وتقبل منهم، ولا تقاتلهم.

وهذه الخصال هي:

الخصلة الأولى: قوله ﷺ: «ثم ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم، وكف عنهم»:

وهذا أول شيء أمرهم به النبي ﷺ قبل أن يقاتلوا، وهو أن يدعوا من يقاتلونهم حتى تبلغهم دعوة الإسلام، فيدعونهم إلى الإسلام، فيقولون لهم مثلاً: نحن نقاتلكم لأجل التوحيد، وندعوكم إلى أن تدخلوا في الإسلام، فليس لنا في قتلكم حاجة، وإنما نريد الخير لكم، فإن قبلتم الإسلام، ودخلتم فيه طائعين، والتزمتم بأحكامه، فأنتم إخواننا تنضمون لنا، وتكونون منا ونحن منكم، وتقاتلون من نقاتله ونقاتل أعداءكم الذين هم أعداء الجميع، وهم الكفار.

وقد كان النبي ﷺ يأمر بالدعوة إلى الإسلام قبل القتال، كما ثبت في حديث علي الذي تقدم في أول الكتاب لما قال له: «**انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه**»(١)، وكذلك لما أرسل معاذاً قال له: «**فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله**»(٢)، إلى آخر الحديث، فأمره أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم.

فإذا أسلموا، ودخلوا في الإسلام، دعاهم إلى ما يكمل إسلامهم، وهو الهجرة، فقال: «**ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين، وعليهم ما على المهاجرين**»، أي: يأمرهم أن يهاجروا ويتحولوا من دار الكفر وينتقلوا إلى دار الإيمان، وكان ذلك قبل أن ينتشر

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

الإسلام، وقبل أن تكون المدن كلها بلاد إسلام، أما بعد فتح مكة فإن النبي ﷺ أقر أهلها بها، وقال: «**لا هجرة بعد الفتح**»(١)، فلم يكلفهم أن يهاجروا، وأرسل إليهم من يعلمهم ويفقههم.

فإذا كان الذين أسلموا في بلاد يغلب عليها الكفر ويغمرها الجهل، وجب عليهم أن يهاجروا لأسباب، **منها**: أن يتفقهوا في الدين ويعرفوا كيف يتعبدون؛ حتى لا يبقوا على جهل وضلال، **ومنها**: أن يسلموا من أذى المشركين؛ لأن المشركين لابد أن يؤذوهم في الأبدان وفي الأديان غالباً، فيسلموا من فتنتهم وإلقاء الشبه عليهم، وردهم إلى ما كانوا عليه من الكفر.

ثم قال ﷺ: «**فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم حكم الله تعالى، ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين**»: أي: إذا لم يهاجروا وبقوا في بلادهم وفي نواحيهم فإنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم حكم الله، ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء إلا أن يقاتلوا في سبيل الله.

فقد كان هناك أعراب من المسلمين في البوادي وكان حكم الشرع جارياً عليهم، بحيث إنهم يُقتل قاتلهم، ويُقطع سارقهم، ويُرجم زانيهم، ويُؤدب عاصيهم، وتجري عليهم أحكام العقود كعقود النكاح ونحوها، ويُلزمون بالنكاح الشرعي والطلاق الشرعي وما أشبه ذلك، ويُلزمون بالأحكام كلها من العِدَدِ ومن مستتبعات الرضاع والنفقات ومواريث الإسلام والوصايا والمبايعات وما أشبهها.

كذلك هؤلاء إذا أسلموا وبقوا في بلادهم ولم يهاجروا لا يكون لهم في

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٠٧٧)، ومسلم برقم (١٨٦٤)، عن عائشة رضي الله عنها.

الغنيمة والفيء شيء إلا إذا شاركوا المقاتلين، فيكون الفيء والغنيمة الزائد منها للمهاجرين الذين تركوا بلادهم وأموالهم ورضوا بالفقر والفاقة، فجعل الله الفيء لهم، كما ذكر الله ذلك في سورة الحشر، فقال: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ⑧ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ⑨ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ [الحشر: ٨-١٠]، فهو يُقَسَّمُ على هؤلاء، وكذلك الغنيمة للمجاهدين، ولا يُعطى هؤلاء شيئاً من الخمس إلا أن يجاهدوا.

الخصلة الثانية: قوله ﷺ: «فإن هم أبوا فاسألهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم»:

أي: إذا لم يسلموا فيدعوهم إلى بذل الجزية عن يد وهم صاغرون، حيث يُقرُّ الكافر على دينه، ولكن يبذل جزية مالية كل سنة قدرها على الغني أربعة وعشرون ديناراً وعلى المتوسط نصف ذلك، وعلى الفقير نصفه، ولا جزية على المرأة، ولا فقير يعجز عنها، ونحو ذلك.

فإذا التزموا أن يدخلوا في ولاية المسلمين، وتجرى عليهم أحكام الإسلام في النفس والمال والعرض، وتقام عليهم الحدود فيما يعتقدون تحريمه دون ما يعتقدون حله، والتزموا بالجزية، والتزموا بالصغار، فإنهم حينذاك يُكف عنهم، أي: أنهم إذا أجابوا إلى ذلك قبل منهم وكف عن قتلهم.

الخصلة الثالثة: قوله ﷺ: «فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم»:

فإذا امتنعوا من الإسلام مع الهجرة، أو إسلام بدون هجرة، ومن بذل الجزية

والصغار، فاستعن بالله وقاتلهم، أي: ابدأهم بالقتال المشروع بعد انذارهم وإعلامهم بحل دمائهم إذا أصروا على الكفر، وأبوا الدخول في الإسلام، وامتنعوا من الجزية، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ [محمد: ٤]، وقال تعالى: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢]، فقتالهم وقتلهم فرض كفاية حتى يسلموا أو يدفعوا الجزية.

وقد استدل بهذا الحديث شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى على أخذ الجزية من جميع الكفار، كالوثنيين والبوذيين والدهريين؛ فإن قوله: «**فإذا لقيت عدوك من المشركين...**» إلخ، يعم جميع الكفار من العرب والعجم والروم والبربر وغيرهم، مع أن جمهور العلماء يرون أن الجزية لا تؤخذ إلا من المجوس واليهود والنصارى ومن تبعهم، ولكل مجتهد نصيب.

بعد هذه الخصال التي أمره أن يأتي بها أخبره أنه قد ينزل بحصن فيسأله أهل ذلك الحصن أن يجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه، فمنعه من ذلك، فقال ﷺ: «**وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه، فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك**».

فإذا قالوا لك: نحن في ذمة الله فاجعل لنا ذمة الله وذمة نبيه، فقل لهم: لا، بل أجعل لكم ذمتي، أي: عهدي، وذمة أصحابي ألا نخونكم.

ويعلل النبي ﷺ النهي فيقول: «**فإنكم أن تخفروا ذممكم وذمة أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة نبيه**».

والإخفار هو: نقض العهد، أي: أنكم إذا نقضتم عهدكم الذي هو ذمتكم فذلك خفيف بالنسبة إلى كونكم تهاونتم بذمة الله وبذمة نبيه؛ فذلك تنقص لله وتنقص للنبي ﷺ.

فلا يجوز لكم ما دمتم تخافون ألا توفوا، وتخشون أن يكون هناك بعض الجهلة منكم يعتدون بعد العهد وبعد الذمة، فلا تجعلوا لهم ذمة الله ولا ذمة نبيه، ولكن اجعلوا لهم ذممكم وذمم أصحابكم.

ثم قال ﷺ: «**وإذا حاصرت أهل حصين فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله، فلا تنزلهم، ولكن أنزلهم على حكمك، فإنك لا تدري أتصيب فيهم حكم الله أم لا**»: وذلك لأن الإنسان لا يحيط بأحكام الله، إنما يجتهد بنظره، فيقول: أحكم فيكم بنظري فأجتهد، وأحكم فيكم بما أراه حقّاً، وبما أعلم أنه أقرب للصواب، ولا أجزم بأنه عين حكم الله المنزل من عند الله، وإنما أتحرىٰ أقرب شيء إلىٰ حكم الله، فأحكم به، ولا أنسبه إلىٰ الله مخافة أن أنسب إليه ما ليس بحكمه، وهذا من باب تعظيم حرمات الله وتعظيم أحكامه.

ومعنى ذلك: أن الحاكم ليس له أن يجزم في قضية أن هذا حكم الله، كما يتهاون كثير من القضاة ونحوهم إذا حكم بين اثنين، ويقول: هذا حكم الله، وهذا شرع الله، وإنما عليه أن يقول: هذا الذي وصل إليه علمي، وأما كوني أجزم بأنه وحي منزل من الله فليس عندي دليل قاطع، فإني أتوقف في ذلك، والله أعلم.

■ ■ ■ ■ ■

[٦٣]

باب:
ما جاء في الإقسام على الله

عن جندب بن عبدالله، قال: قال رسول الله ﷺ: «قال رجل: والله لا يغفر الله لفلان، فقال الله عز وجل: من ذا الذي يتألى عليّ أن لا أغفر لفلان؟ إني قد غفرت له، وأحبطت عملك» رواه مسلم.

وفي حديث أبي هريرة: أن القائل رجل عابد، قال أبو هريرة: تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته.

■ ■ ■ ■ ■

• فيه مسائل:

الأولى: التحذير من التألي على الله.

الثانية: كون النار أقرب إلى أحدنا من شراك نعله.

الثالثة: أن الجنة مثل ذلك.

الرابعة: فيه شاهد لقوله: «**إن الرجل ليتكلم بالكلمة...**» إلخ.

الخامسة: أن الرجل قد يغفر له بسبب هو من أكره الأمور إليه.

■ ■ ■ ■ ■

●● الشرح ●●

باب:
ما جاء في الإقسام على الله

الإقسام بمعنىٰ: الحلف، والمُقْسِم علىٰ إنسان كأنه يلزمه بالشيء، ويحتم عليه أن يفعل، وغالباً أن المُقْسِم يكون له سلطة علىٰ المُقْسَم عليه، فيقسم الرجل علىٰ ولده، فيقول: أقسمت عليك يا ولدي أن تذهب إلىٰ كذا، أو حلفت عليك أن تذهب إلىٰ كذا، وهكذا أيضاً يقسم علىٰ أخيه ونحوهم.

وقد ورد أن من حقوق المسلم علىٰ المسلم إبرار المُقْسِم، فإذا أقسم عليك أخوك فمن حقه عليك أن تبر قسمه، ولا تعرضه لأن يحنث في يمينه وتلجئه إلىٰ الكفارة، بل أطعه وبر ما أقسم به، كأن يحلف عليك أن يضيفك مثلاً، أو يحلف عليك أن يجلسك في هذا البيت أو في هذا المكان، أو يقسم عليك أن تقبل هذه الهدية أو هذه العطية وما أشبه ذلك، فإذا حلف فمن حقه عليك أن تبر قسمه إن لم يكن عليك ضرر، فإن من حقه عليك أن توفي بيمينه.

ولا يجب إبرار القسم إذا كان علىٰ المُقْسَم عليه ضرر، فإذا أقسم عليك أن تقيم هذا اليوم وعليك ضرر، وتعرف أنه لا فائدة في هذه الإقامة، فلك ألا توفي بما أقسم عليك به، أو مثلاً عرفت أنه سيتضرر إذا أقسم عليك أن يكرمك ويضيفك هذا اليوم، وعرفت أنه فقير، وسوف يستدين ويتكلف، فلك أن تمتنع، فكونه يتحمل كفارة حلفه وهي إطعام عشرة مساكين أهون من أن يتكلف مصاريف الضيافة ونحو ذلك.

وعلىٰ كل حال إبرار القسم من حقوق المسلم علىٰ أخيه، إذا لم يكن هناك ضرر.

والإنسان إما أن يقسم علىٰ ولده ونحوه، ففي هذه الحالة يجب علىٰ المُقْسَم عليه أن يبر.

وأما أن يقسم علىٰ من هو مثله كأخيه أو صديقه، ففي هذه الحال يندب أن يوفي بقسمه وأن يبره إذا لم يترتب ضرر علىٰ هذا الوفاء.

وإما أن يقسم علىٰ من هو أكبر منه وأرفع، فلا يلزم، كأن يقسم مثلاً علىٰ أمير من الأمراء أن يعطيه، أو علىٰ ملك من الملوك أن يسافر أو أن يغزو أو أن يقيم أو نحو ذلك، فليس له ذلك، لأنه لا يقدر أن يتصرف فيمن هو أكبر منه.

وهذه كلها إقسامات بين المخلوق والمخلوق، والباب معقود للإقسام علىٰ الله، ولا شك أنه إقسام علىٰ رب الأرباب، وإقسام علىٰ مالك الملك، فيكون إلزاماً ن العبد الضعيف للرب العظيم، وكيف يلزم العبد الضعيف المملوك المخلوق رب الأرباب ويقسم عليه بأن يفعل كذا أو بألا يفعل كذا؟

فهو إما أنه جعل الرب كالمخلوقين الذين إذا أقسمت عليهم أطاعوك واستجابوا، أو فرض نفسه أعلىٰ من الله، كأنه جعل له تصرفاً في ملك الله، فيكون ذلك تدخلاً في ملك الله وفيما هو من خصائصه، وتلك جرأة كبيرة علىٰ الله تعالىٰ، فيكون منقصاً للتوحيد وهذا هو معنىٰ الإقسام علىٰ الله.

■ **قوله: [عن جندب بن عبدالله، قال: قال رسول الله ﷺ: «قال رجل: والله لا يغفر الله لفلان، فقال الله عز وجل: من ذا الذي يتألى علي أن لا أغفر لفلان؟ إني قد غفرت له، وأحبطت عملك» رواه مسلم**[(١)]]:

هذا الحديث ذكر فيه أن رجلاً **أقسم على الله قسماً بالفعل الماضي**، لقوله: «**والله لا يغفر الله لفلان**»، كأنه يتحجر على الله، وكأن المغفرة بيده، فيلزم الله بأن يغفر لفلان، ويمنع الله ألا يغفر لفلان، وذلك يكون تدخلاً في ملك الله، والملك خاص به، قال تعالى: ﴿**لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ**﴾ [التغابن: ١]، فيكون ذلك جرأة على الله؛ فلما كان كذلك عوقب هذا المُقْسِم على الله بإحباط عمله، وبغفران الله تعالى لذلك المذنب.

■ **قوله: [وفي حديث أبي هريرة: أن القائل رجل عابد، قال أبو هريرة: تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته**[(٢)]]:

في هذا الحديث - وهو حديث أبي هريرة - أن رجلاً مر على إنسان وهو يعمل ذنباً، فنهاه، ثم مر عليه يوماً آخر، فنهاه، فعند ذلك قال: «**والله لا يغفر الله لك**»، وكان ذلك الناهي رجلاً غيوراً صالحاً، ولكن معه جهل، وجهله أداه إلى أن يحلف على الله وأن يُقسم عليه أن يفعل وأن لا يفعل، قال أبو هريرة: «**قال كلمة أوبقت دنياه وآخرته**»، أي: تكلم بكلمة أحبطت عمله، حيث أن الله أحبط عمله، وذلك دليل على أن الكلمة الواحدة قد يحبط بها العمل، وهذا مصداق قول النبي ﷺ: «**إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت،**

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٦٢١).

(٢) أورده البغوي في شرح السنة برقم (٤١٨٧)، وأبوداود برقم (٤٩٠١)، وأحمد (٢/ ٣٢٣، ٣٦٣)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

قال الألباني في صحيح أبي داود: صحيح، وحسنه الأرناؤوط في تخريجه لشرح السنة.

يهوي بها في النار كذا وكذا»[(١)] .

عرفنا بذلك أن الكلمة التي تكلم بها هي كونه تجرأ على ملك الله ، وحلف أن الله لا يغفر له ، وظن أن الله سيتنزل على رغبته ، وعلى قوله ، فأصبح بهذه الكلمة قد أُحبط عمله وأوبقه .

*** وقد وردت أحاديث تدل على جواز الإقسام على الله ، وقد رويت أيضاً حكايات عن بعض الزهاد والعباد أنهم أقسموا على الله فأجابهم .**

فمن هذه الأحاديث قول النبي ﷺ : **«رب أشعث أغبر ذي طمرين مدفوع بالأبواب ، لو أقسم على الله لأبره»**[(٢)] ، ومعناه : أنه قد يوجد إنسان ضعيف فقير مسكين ، ثيابه خلقة بالية ـ والطمر هو : الثوب الخلق ـ يدفعه الناس ويردونه ، ولا يمكنونه من الدخول في داخل بيوتهم ، ولكن مع ذلك له قدر عند الله ، بحيث إنه لو أقسم عليه لأبره قسمه ، أي : أنه لو قال : أقسمت عليك يا رب أن تغيثنا ، لفعل ، أو أقسمت عليك يا رب أن تغيثني أو تغيث فلاناً أو أن تنصر فلاناً أو نحو ذلك ، فإن الله يبر قسمه ، وذلك مدح له مع احتقار الناس له ، وكأنه قال : لا تحتقروا كثيراً من الضعفاء ؛ فإن الله تعالى يحبهم ، ولهم قدر ، وبحيث إنه يجيب دعوتهم ، ويبر قسمهم .

وليس في الحديث أنهم يقسمون على الله ، وإنما فيه أن من فضلهم أنه لو قدر أن أحداً منهم طلب من الله طلباً بإلحاح لأجابه الله تعالى لفضلهم ولشرفهم .

كذلك أيضاً روي عن بعض السلف أنه دعا الله دعاءً فيه شبه إلزام ، فأجاب الله دعوته ، فبعض الصحابة لما قاتلوا الفرس أو بعض المشركين ، قال : (قد

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) سبق تخريجه .

أقسمت عليك يا رب لما منحتنا أكتافهم، وجعلتني أول قتيل)، فأجاب الله دعوته.

لكن هذا محمول على حسن الظن، كأنه عرف قول الله تعالى في الحديث القدسي: **«أنا عند حسن ظن عبدي بي فليظن عبدي بي ما شاء»**(١)، فليس في هذا تحجر على الله، وليس فيه إلزام وفرض قوة على الله، كالحديث الذي فيه الحلف أن الله لا يغفر لفلان، فلأجل ذلك فُرِّقَ بين أن يكون ذلك عن حسن ظن، أو عن فرضية وإظهار قوة منزلة عند الله ليست للعبد.

فعرفنا بذلك أن الإقسام على الله الذي هو إلزام يعتبر منقصاً للتوحيد وقادحاً في العقيدة؛ حيث إن فيه رفع النفس عن مستواها، وفيه تحجر على الله تعالى، والله أعلم.

■ ■ ■ ■ ■

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ أحمد (٣/ ٤٩١)، (٤/ ١٠٦)، وأخرجه أيضاً البخاري برقم (٦٥٠٢)، ومسلم برقم (٢٦٧٥)، بلفظ: «يقول الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي...»، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

[٦٤]

باب:
لا يستشفع بالله على خلقه

عن جبير بن مطعم، قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله؛ نُهكت الأنفس، وجاع العيال، وهلكت الأموال؛ فاستسق لنا ربك، فإنا نستشفع بالله عليك، وبك على الله، فقال النبي ﷺ: «سبحان الله، سبحان الله!»، فما زال يسبح حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه. ثم قال: «ويحك! أتدري ما الله؟ إن شأن الله أعظم من ذلك، إنه لا يستشفع بالله على أحد...»، وذكر الحديث، رواه أبو داود.

■ ■ ■ ■ ■

• فيه مسائل:

الأولى: إنكاره على من قال: نستشفع بالله عليك.

الثانية: تغيره تغيراً عرف في وجوه أصحابه من هذه الكلمة.

الثالثة: أنه لم ينكر عليه قوله: «نستشفع بك على الله».

الرابعة: التنبيه على تفسير: «سبحان الله».

الخامسة: أن المسلمين يسألونه ﷺ الاستسقاء.

■ ■ ■ ■ ■

●● الشرح ●●

باب:
لا يستشفع بالله على خلقه

في هذا الباب تعظيم الرب سبحانه وتعالىٰ، وتنزيهه عن النقائص والعيوب، فإن الشافع إنما يشفع عند من هو فوقه، فالله تعالىٰ هو رب العالمين، ومالك الملك، ذو الجلال والإكرام، وهو الذي بيده ملكوت كل شيء، فيملك الضر والنفع، والعطاء والملك، لا مانع لما أعطىٰ ولا معطي لما منع، فلا يطلب منه أن يشفع إلىٰ أحد من خلقه ولو كان من الأنبياء والرسل.

فلا يقال: يا ربنا اشفع لنا عند محمد، أو عند علي، أو عند جبرائيل، أو ميكائيل... إلخ، فإن في ذلك تنقص لله تعالىٰ؛ حيث يطلب أن يشفع عند المخلوقين الذين هم ملكه وعبيده؛ ليطلب منهم نفع أحد، أو إزالة ضر، أو تخفيف مصيبة، فما لا يملكه المخلوقون، فلذلك ينكر علىٰ من طلب الله تعالىٰ أن يطلب من أحد المخلوقين نفعاً أو ضراً، وإنما المخلوق هو الذي يشفع عند الله تعالىٰ بعد إذنه للشافع في الآخرة، كما قال تعالىٰ: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

■ **قوله: [عن جبير بن مُطعِم، قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله؛ نُهكت الأنفس، وجاع العيال، وهلكت الأموال؛ فاستسق لنا ربك، فإنا نستشفع بالله عليك، وبك على الله، فقال النبي ﷺ: «سبحان الله، سبحان الله!»، فما زال يُسبِّح حتى عُرف ذلك في وجوه أصحابه. ثم قال: «ويحك! أتدري ما الله؟ إن شأن الله أعظم**

من ذلك، إنه لا يستشفع بالله على أحد...»[1]، وذكر الحديث، رواه أبو داود]:

ذكر في هذه القصة أن هذا الأعرابي جاء والنبي ﷺ يخطب خطبة جمعة، فوقف أمامه، وتوسل بهذه الأسباب:

أولها: قوله: (**نُهكت الأنفس**): أي: تعبت وضعفت وهزلت من الجدب، ومن القحط، ومن تأخر المطر، حتى أمحلت البلاد، فحصل الجوع للأنفس، فنهكت وضعفت من التعب والنصب.

ثانيها: قوله: (**وجاع العيال**): ومن المعلوم أن الوالد قد يقدم طعامه لولده، فيؤثره بالطعام، فإذا جاع الأبناء فقد جاع الآباء بطريق الأولى، فلما أمحلت البلاد ويبست الأرض لم يجدوا ما يأكلون، فأصبحوا جياعاً.

ثالثها: قوله: (**وهلكت الأموال**): وقد يقصد بالأموال الدواب التي هي بهيمة الأنعام؛ لأنها التي يملكها أغلب العرب في ذلك الوقت، فهلكت البهائم بسبب الجدب، وتوالي السنين، وتأخر المطر، وجفاف الأرض.

وقد يراد بالأموال هنا الأشجار ونحوها، فعندما تأخر المطر وغارت المياه هلكت الأشجار ويبست، فلم يتمكن من استغلال الأرض، ولم يتمكن من غرس الأشجار واستواء آخر الثمار مما صار سبباً في حصول الجوع.

وقد يراد بالأموال أيضاً التجارات فيكون المعنى أنهم لم يتمكنوا من ترويج

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (٤٧٢٦)، والبخاري في الكبير (٢/ ٢٢٤)، والدارمي في الرد على الجهمية (٢٤)، وابن أبي عاصم في السنة (٥٧٥، ٥٧٦)، والطبراني في الكبير رقم (١٥٤٧)، والبيهقي في الأسماء (٤١٧، ٤١٨)، عن جبير بن مطعم رضي الله عنه.

وصححه ابن القيم في تهذيب السنن (٧/ ٩٥)، وابن كثير في التاريخ (١/ ٨)، وضعفه الألباني في تخريج السنة لابن أبي عاصم (٥٧٥، ٥٧٦)، وفي ضعيف أبي داود، وضعفه الأرناؤوط في شرح السنة (١/ ١٧٦).

البضائع والتجارات؛ وذلك لأن وسائل نقلهم وهي الإبل قد هزلت، وقد صارت المفازات طويلة وأرضها مجدبة.

فالحاصل أنه لما ذكر هذه الأسباب طلب من النبي ﷺ أن يستسقي لهم، أي: يطلب لهم من الله تعالىٰ أن يسقيهم المطر.

ثم ذكر أيضاً كلمتين إحداهما جائزة، والأخرىٰ ممنوعة، فقال: (**فإنا نستشفع بالله عليك، وبك على الله**).

فالأولى: قوله: (**نستشفع بك على الله**)، أي: نتوسل بك ونتوسط بك إلىٰ الله، فنطلب منك أن تشفع لنا عند الله أن يغيثنا، والمراد هنا: الوساطة في الدعاء، أي: نتوسل بدعائك، حيث إنك رسول الله وخيرته وصفوته من بريته، فإذا دعوت الله وسألته لنا أجابك: فنحن نجعلك واسطتنا وشفيعنا؛ أي: نطلب منك أن تكون شفيعاً لنا عند الله تعالىٰ؛ حتىٰ يزيل ما نحن فيه من الكرب.

والثانية: قوله: (**نستشفع بالله عليك**): أي: نطلب من الله أن يشفع عندك، وهذه الجملة هي التي أنكرها رسول الله ﷺ، وشنع علىٰ هذا الأعرابي الذي قالها، وغضب منه أشد الغضب، وأخذ يسبح الله تعظيماً له عن هذه المقالة، وذلك لأنها تتضمن أن الرب تعالىٰ أنقص من النبي ﷺ، وأنزل منه قدراً.

وذلك لأن الشافع إنما يشفع عند من هو أعلىٰ منه، فإنما يحتاج إلىٰ الشفيع عند من هو رفيع القدر، فأنت مثلاً في الدنيا تستشفع بالخادم علىٰ المخدوم، ولا تعكس، فلا تأتي إلىٰ المخدوم الذي هو المالك، وتقول له: اشفع لي عند خادمك، فإنه أنزل منه قدراً، كذلك أيضاً تستشفع بالوزير عند الملك، ولا تعكس؛ لأن الملك أرفع قدراً من الوزير، فالوزير يشفع عنده، فيأتي إليه ويقول: أنا أشفع عندك أيها الملك لفلان الذي هو أحد رعيتك، والذي هو

بحاجة إلى كذا وكذا، فهذه شفاعة من النازل للعالي، أي: من الوزير عند الملك.

وأما كون الملك يشفع عند الوزير، فإن ذلك تنقص له، فلا تأتي إلى الملك وتقول له: اشفع لي عند وزيرك أو اشفع لي عند أميرك أو عند خادمك أو عند ولدك؛ فإن في هذا تنقص وحط من منزلته.

فإذا كان هذا في جنس المخلوقين بعضهم مع بعض رغم أنهم كلهم بشر، فكيف يكون الرب تعالى شافعاً عند أحد من خلقه؟! لذلك قال: **«إن شأن الله أعظم»**، وكأنه استجهل ذلك الأعرابي الذي لم يقدر الله حق قدره، ولم يعرف ربه حق معرفته، ولم يستحضر عظمة الله وجلاله وعلوه وارتفاعه فوق خلقه، وإحاطته بجميع المخلوقات، وعلمه بجميع الكائنات، بل خفي كل ذلك على هذا الأعرابي؛ فتكلم بذلك كأنه يطلب من الله تعالى العلي الأعلى أن يشفع عند المخلوقين، حيث قال: **(نستشفع بالله عليك)**؛ فقال النبي ﷺ: **«إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه»**، أي: لا يستشفع بالخالق على المخلوق.

ولا شك أن الذي يفعل ذلك كأنه يتنقص الرب تعالى، وكأنه ينزل من قدره، وكأنه يرفع بعض خلقه فوقه، حيث جعل المخلوق مشفوعاً عنده، وجعل الخالق شافعاً، ولا شك أن هذا هو التنقص الذي أنكره النبي ﷺ وبالغ في إنكاره.

فلأجل ذلك نحن نقول: إن كل ما فيه تنقص لله تعالى، وكل ما فيه احتقار لصفة من صفاته، ولفعل من أفعاله، وَجَعْلِ صفة المخلوق مماثلة له أو زائدة عليه؛ فإن ذلك من الشرك، أو مما ينافي كمال التوحيد وينقص ثوابه.

[٦٥]

باب:
ما جاء في حماية النبي ﷺ
حمى التوحيد وسده طرق الشرك

عن عبدالله بن الشِّخِّير، قال: انطلقت في وفد بني عامر إلى رسول الله ﷺ، فقلنا: أنت سيدنا، فقال: «السيد الله تبارك وتعالى»، قلنا: وأفضلنا فضلاً، وأعظمنا طولاً، فقال: «قولوا بقولكم، أو بعض قولكم، ولا يستجرينَّكم الشيطان»، رواه أبو داود بسند جيد.

وعن أنس، أن ناساً قالوا: يا رسول الله، يا خيرنا، وابن خيرنا، وسيدنا، وابن سيدنا، فقال: «يا أيها الناس؛ قولوا بقولكم، ولا يستهوينكم الشيطان، أنا محمد عبدالله ورسوله، ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل»، رواه النسائي بسند جيد.

■ ■ ■ ■ ■

• فيه مسائل:

الأولى: تحذير الناس من الغلو.

الثانية: ما ينبغي أن يقول من قيل له: «أنت سيدنا».

الثالثة: قوله: «**لا يستجرينكم الشيطان**»، مع أنهم لم يقولوا إلا الحق.

الرابعة: قوله: «ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي».

■ ■ ■ ■ ■

●● الشرح ●●

باب:
ما جاء في حماية النبي ﷺ حمى التوحيد وسده طرق الشرك

هذا الباب مثل الباب السابق، وهو باب: (ما جاء في حماية النبي ﷺ حمى التوحيد، وسده كل طرق الشرك)، أي: حماية المصطفى جناب التوحيد، وسده كل طريق يوصل إلى الشرك.

فيتعلق البابان بأنه ﷺ نهى أن يغلو الناس فيه، أو يغلو في قبره بعد موته، فنهى عن غلوهم في قبره بقوله: «**لا تتخذوا قبري عيداً**»[1]، وبقوله: «**اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد**»[2]، ونهى عن الغلو في ذاته.

■ **قوله: [عن عبدالله بن الشِّخِّير، قال: انطلقت في وفد بني عامر إلى رسول الله ﷺ، فقلنا: أنت سيدنا، فقال: «السيد الله تبارك وتعالى»، قلنا: وأفضلنا فضلاً، وأعظمنا طولاً، فقال: «قولوا بقولكم، أو بعض قولكم، ولا يستجرينَّكم الشيطان»[3]، رواه أبو داود بسند جيد.**

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه أبوداود برقم (٤٨٠٦). وأحمد في المسند (٤/ ٢٤، ٢٥)، والبخاري في الأدب المفرد برقم (٢١١)، والنسائي في عمل اليوم والليلة برقم (٢٤٥، ٢٤٧)، والبيهقي في الأسماء (ص٢٢).
قال ابن مفلح في الأدب (٣/ ٤٦٤): إسناده جيد، وقال الحافظ ابن حجر في الفتح (٥/ ١٧٩): رجاله ثقات وقد صححه غير واحد، وصححه صاحب عون المعبود (٤/ ٤٠٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٣٥٩٤)، في صحيح الأدب المفرد برقم (١٥٥). وفي إصلاح المساجد (١٣٩).

وعن أنس، أن ناساً قالوا: يا رسول الله، يا خيرنا، وابن خيرنا، وسيدنا، وابن سيدنا، فقال: «يا أيها الناس؛ قولوا بقولكم، ولا يستهوينكم الشيطان، أنا محمد عبدالله ورسوله، ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل»، رواه النسائي بسند جيد(١)]:

في هذين الحديثين ـ حديث عبدالله بن الشِّخِّير، وحديث أنس الذي بعده ـ قال هؤلاء الوفد للرسول ﷺ: يا سيدنا، وابن سيدنا، أو يا خيرنا، وابن خيرنا، أو أنت سيدنا، أو أنت أفضلنا فضلاً، وأعظمنا طولاً.

قالوا له هذه المقالات، ولا شك أنه يستحقها ﷺ؛ فهو سيد الخلق، وهو أفضلهم، وهو أعظمهم طولاً، وهو صاحب الفضائل العديدة، ولكن مع ذلك نهاهم عن مثل هذه الكلمات؛ لأنهم حديثو عهد بالجاهلية، فخاف أن يعتقدوا فيه ما يعتقده أهل الجاهلية الذين يعتقدون في آلهتهم ما لا يصلح أن يصرف إلا لله، فهم يصفون آلهتهم ومعبوداتهم بالسيادة وبالرفعة وبالمقام العالي؛ فعبدوها مع الله نتيجة تلك الأوصاف.

فلما خاف الرسول أن يغلوا فيه بسبب قرب عهدهم بالجاهلية نهاهم عن ذلك، فلما قالوا له: أنت سيدنا، قال: «السيد الله»، أي: أن السيادة حق لله تعالى، فلا تصفوني بها، وأنا لا أستحقها مع الله، ولا أساوي الله في استحقاقها، كذلك لما قالوا له: أنت أفضلنا فضلاً، وأعظمنا طولاً، أو يا خيرنا وابن خيرنا، نهاهم أيضاً عن ذلك.

---

(١) أخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة برقم (٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٠)، وأحمد في المسند (٣/ ١٥٣، ٢٤١، ٢٤٩). وابن حبان في الصحيح (٨/ ٤٦)، وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٢٥٢).
عن أنس بن مالك رضي الله عنه.
قال ابن عبدالهادي في الصارم المنكي (ص ٢٤٦): إسناده صحيح على شرط مسلم.

ولما نهاهم عن ذلك أمرهم ﷺ أن يقولوا بما كانوا يقولونه سابقاً، فقال: «قولوا بقولكم، أو بعض قولكم»، أي: اقتصروا على قولكم السابق، وهو أن تصفوني بالعبودية والرسالة، فإن ميزته عليه الصلاة والسلام أنه رسول من عند الله؛ لذلك قال: «أنا محمد عبد الله ورسوله».

وقوله ﷺ في حديث أنس الثاني: «ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله»، أي: أن الله تعالى وصفه بالعبودية ووصفه بالرسالة، فوصفه بالعبودية في قوله: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣]، ووصفه بالرسالة في قوله: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وبقوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، فهذه هي ميزته.

أما الذين يتجرؤن على وصفه بهذه الأوصاف فإنهم يُخشى أن يغلوا فيه حيث يصفونه بما لا يستحقه، فلو أرخي لهم العنان وسمح لهم بالأوصاف التي قالوها لم يؤمن بعد ذلك أن يزيدوا، فيقولوا: يا رفيع المقام، أو ياعالم ما لا نعلم، أو ما أشبه ذلك، فيصفونه بشيء من صفات الله؛ فيقعون في الغلو وفي الإطراء الذي نهى عنه ﷺ.

فقد نهى رسول الله ﷺ عن إطرائه فقال: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله»[1]، وقد وقع كثيرون في هذا الإطراء لما تجاوزوا ما حدد لهم، فقد حدد لهم أن يقتصروا على وصفه بالعبودية والرسالة، فوصفوه بعلم الغيب، ووصفوه بالتصرف في الكون، ووصفوه بملكية ما في الدنيا وما في الآخرة، وما أشبه ذلك، وكل ذلك مما نهى عنه، فأوقعهم هذا الغلو والإطراء في أن أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً.

---

(١) سبق تخريجه.

فهذا الباب معقود لبيان الواجب في حقه، وتقدير الباب: بيان أنه لا يجوز وصف النبي ﷺ بالصفات التي فيها غلو وإطراء؛ مخافة أن يزيد الأمر بالواصف إلى أن يعطيه شيئاً من حق الله تعالى.

وبالجملة فالرسول عليه الصلاة والسلام حرص على حماية التوحيد حتى في حقه وبما يتعلق به؛ فخاف أن يغلوا فيه ويعطوه شيئاً من حق الله إذا كثر وصفهم له بمثل هذه الأوصاف؛ فحمى التوحيد، وسد طرق الشرك ومنافذه في حقه، وفي حق غيره بطريق الأولى.

ويقال بعد ذلك: إذا كان عليه الصلاة والسلام نهى أن يقال له: يا سيدنا، فكيف تبذل السيادة لأسافل الناس؟! وكيف تبذل السيادة لأراذلهم وللفسقة ونحوهم؟! فقد ثبت أنه ﷺ قال: «**لا تقولوا للمنافق: سيداً؛ فإنه إن يكن سيداً فقد أسخطتم ربكم**»(١).

ومع ذلك فإنه ﷺ سيد بمعنى السيادة التي هي الشرف والرفعة والفضل، والتي من لوازمها رفعة المقام والشرف على غيره، وهذا حاصل له، وقد ثبت أنه ﷺ قال: «**أنا سيد ولد آدم ولا فخر**»(٢)، وثبت أنه قال للحسن: «**إن ابني هذا**

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٢)، والترمذي برقم (٣٦١٥)، وابن ماجه برقم (٤٣٠٨)، واللفظ له، عن أبي سعيد رضي الله عنه، وصححه الألباني.
وله شاهد من حديث أبي هريرة، أخرجه مسلم برقم (٢٢٧٨) بلفظ: «**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة..**».
وأحمد (٢/ ٥٤٠)، وأبي داود برقم (٤٦٧٣)، وصححه الألباني.
وشاهد آخر من حديث ابن عباس، أخرجه أحمد (١/ ٢٨١، ٢٨٢، ٢٩٥)، وصححه أحمد شاكر في تحقيق المسند برقم (٢٥٤٦، ٢٦٩٢).

سيد، ولعل الله يصلح به بين فئتين من المسلمين»[١]، ولما جاءهم سعد بن معاذ قال لهم: «قوموا إلى سيدكم»[٢]، وقال للأنصار: «من سيدكم يا بني سعدة؟»، فقالوا: فلان، فقال: «بل سيدكم عمرو بن الجموح»[٣]، فالمراد بالسيد هنا: الشريف في قومه، والفاضل فيهم، والمقدم والرئيس الذي له الرئاسة عليهم.

فهو ﷺ كره أن يوصف بهذه السيادة من باب التواضع، ومخافة أن يتجرؤوا إلى إعطائه شيئاً من حق الله سبحانه وتعالى، والله تعالى أعلم.

■ ■ ■ ■ ■

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٧٤٦)، عن أبي بكرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري برقم (٤١٢١)، ومسلم برقم (١٧٦٨)، عن أبي سعيد رضي الله عنه.

(٣) رواه البخاري في الأدب المفرد برقم (٢٩٦)، عن جابر رضي الله عنه، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد رقم (٢٢٧). وأفاد أن الحديث في الروض النضير (٤٨٤).

[٦٦]

باب:
ما جاء في قول الله تعالى:
﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾

قول الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

عن ابن مسعود، قال: جاء حَبْرٌ من الأحبار إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد، إنا نجد أن الله يجعل السماوات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء على إصبع، والثَّرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع، فيقول: أنا الملك. فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقاً لقول الحبر، ثم قرأ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ الآية [الزمر: ٦٧]. متفق عليه.

وفي رواية لمسلم: «والجبال والشجر على إصبع، ثم يهزهن، فيقول: أنا الملك، أنا الله».

وفي رواية للبخاري: «يجعل السموات على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع»، أخرجاه.

ولمسلم، عن ابن عمر مرفوعاً: «يطوي الله السموات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين السبع، ثم يأخذهن بشماله، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟».

وروي عن ابن عباس، قال: «ما السموات السبع والأرضون السبع في كف الرحمن إلا كخردلة في يد أحدكم».

وقال ابن جرير: حدثني يونس، أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد: حدثني أبي، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما السموات السبع في الكرسي إلا كدراهم سبعة ألقيت في ترس».

قال: وقال أبو ذر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض».

وعن ابن مسعود، قال: «بين السماء الدنيا والتي تليها خمسمائة عام، وبين كل سماء خمسمائة عام، وبين السماء السابعة والكرسي خمسمائة عام، وبين الكرسي والماء خمسمائة عام، والعرش فوق الماء. والله فوق العرش، لا يخفى عليه شيء من أعمالكم»، أخرجه ابن مهدي، عن حماد بن سلمة، عن عاصم، عن زر، عن عبدالله.

ورواه بنحوه المسعودي، عن عاصم، عن أبي وائل، عن عبدالله.

قاله الحافظ الذهبي، قال: وله طرق.

وعن العباس بن عبدالمطلب، قال: قال رسول الله ﷺ: «هل تدرون كم بين السماء والأرض؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «بينهما مسيرة خمسمائة سنة، ومن كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة سنة، وكثف كل سماء مسيرة خمسمائة سنة، وبين السماء السابعة والعرش بحر، بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض، والله تعالى فوق ذلك، وليس يخفى عليه شيء من أعمال بني آدم»، أخرجه أبوداود وغيره.

■ ■ ■ ■ ■

● **فيه مسائل:**

الأولى: تفسير قوله تعالى: ﴿وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

الثانية: أن هذه العلوم وأمثالها باقية عند اليهود الذين في زمنه ﷺ ولم ينكروها ولم يتأولوها.

الثالثة: أن الحبر لما ذكر للنبي ﷺ صدقه ونزل القرآن بتقرير ذلك.

الرابعة: وقوع الضحك من رسول الله ﷺ لما ذكر الحبر هذا العلم العظيم.

الخامسة: التصريح بذكر اليدين وأن السماوات في اليد اليمنى والأرضين في الأخرى.

السادسة: التصريح بتسميتها الشمال.

السابعة: ذكر الجبارين والمتكبرين عند ذلك.

الثامنة: قوله: «**كخردلة في كف أحدكم**».

التاسعة: عظم الكرسي بالنسبة إلى السماء.

العاشرة: عظم العرش بالنسبة إلى الكرسي.

الحادية العاشرة: أن العرش غير الكرسي والماء.

الثانية عشرة: كم بين كل سماء إلى سماء.

الثالثة عشرة: كم بين السماء السابعة والكرسي.

الرابعة عشرة: كم بين الكرسي والماء.

الخامسة عشرة: أن العرش فوق الماء.

السادسة عشرة: أن الله فوق العرش.

السابعة عشرة: كم بين السماء والأرض.

الثامنة عشرة: كثف كل سماء خمسمائة سنة.

التاسعة عشرة: أن البحر الذي فوق السماوات بين أسفله وأعلاه مسيرة خمسمائة سنة، والله أعلم.

●● الشرح ●●

باب:
ما جاء في قول الله تعالى:
﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾

المراد من هذا الباب بيان أن كل من عظم مخلوقاً وجعل له شيئاً من حق الله فقد احتقر الرب عز وجل، وقد تنقصه غاية التنقص، ولم يقدره حق قدره، وذلك للفرق الكبير الشاسع، والبون البعيد بين الخالق والمخلوق، فالمخلوق الذي يعظمه المشركون؛ سواء أكان آدمياً أو شجراً أو صخراً يعظمونه ويصرفون له شيئاً من العبادة لا يقاس ولا يقارب بشيء من خصائص الله ولا من صفاته.

ويتبين من هذا الباب أن المشركين ما قدروا الله حق قدره، ولا أعطوه حقه، ولا عظموه حق تعظيمه، ولا عرفوه حق معرفته، ويتبين أن كل من عصى الله واستخف بنظره إليه فإنه ما عرفه حق معرفته، وإذا عرفه فما قدره حق قدره، ولا عبده حق عبادته؛ حيث صرف عبادته التي هي خالص حقه إلى مخلوق ضعيف مهين حقير غاية الحقارة؛ لا يقارب أن يقاس بشيء من خصائص الله ولا من صفاته.

فيتبين من هذه الآية ومن هذه الأحاديث التي في هذا الباب تعظيم حق الله على عباده، فإذا عرف العباد وصف الله تعالى بهذا الوصف، وعرفوا أنه الذي يتصرف في الكون، وأنه الذي يتصرف في خلقه بقبضهم كما يشاء، وهم ليسوا بشيء، وينادي أمام خلقه فلا يجيبه أحد فيجيب نفسه، إذا عرفنا ذلك علمنا أن الخلق كلهم في غاية الحقارة بالنسبة إلى عظمته تعالى.

■ قوله: [قول الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧]]:

هذه الآية تصور عظمة الرب وجلاله وكبرياءه، وحقارة جميع المخلوقات العلوية والسفلية بالنسبة إلى عظمة الله تعالى، وأن المشركين ما عرفوا ربهم حق معرفته، ولا استحضروا جلاله وكبرياءه، حيث رفعوا بعض المخلوقات الضعيفة المهينة، وأعطوها شيئاً من حق الله من العبادة، والتعظيم، والتصرف، وظنوا فيها النفع والنصر، والعطاء والمنع، فما قدروا الله حق قدره، فإنه سبحانه يقبض الأرض جميعاً يوم القيامة، ويطوي السماء كلها بيمينه، وتكون هذه المخلوقات مع عظمتها صغيرة حقيرة تحت قبضته وتصرفه، فكيف يصرف حقه من العبادة لمن يسمون بالأولياء، والسادة، والأقطاب، والأوتاد، ونحوهم ممن هم خلق من خلق الله، لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً.

وقد ذكر ابن كثير في تفسير هذه الآية كثيراً من الأحاديث التي تتضمن أن الله تعالى يقبض السموات والأرض وجميع المخلوقات يوم القيامة، وذلك دليل على ضعف الإيمان عند المشركين والقبوريين، حيث لم يتصوروا ما دلت عليه هذه الآية، وما اشتملت عليه الأحاديث الكثيرة التي تتضمن أن الله تعالى هو الكبير المتعال، المحيط بجميع المخلوقات، وهو مالك الملك، ذو الجلال والإكرام، وهو رب العالمين ومدبرهم، والمتصرف فيهم، وجميع المخلوقات خاضعة لعظمته، ذليلة صغيرة حقيرة أمام جلاله، وهو المتصرف فيها، فمن رفع المخلوق إلى رتبة الخالق، وجعل له شيئاً من خالص حق الله تعالى، فما قدره حق قدره، ولا عظمه حق عظمته، حيث سواه بخلقه، أو رفع المخلوق الضعيف إلى رتبة الخالق، ولهذا ختم هذه الآية بقوله: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، فنزه نفسه ورفع قدره عن شرك المشركين وتنديدهم، تعالى الله وتقدس عما يقول

الظالمون علواً كبيراً.

وفي هذه الآية إثبات صفة اليد لله تعالىٰ، حيث قال تعالىٰ: ﴿وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾. وقد أثبت الله لنفسه صفة اليد في أماكن أخرىٰ من القرآن، فقال رداً علىٰ اليهود الذين قالوا: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾، رد عليهم فقال: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٦٤]، أي: مبسوطتان بالعطاء وبالنفقة، فهو ينفق ويعطي كما يشاء، فأثبت لنفسه اليدين وبسطهما بالعطاء.

وأخبر تعالىٰ بأنه خلق آدم بيديه، قال تعالىٰ: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ [ص: ٧٥].

▪ قوله: [عن ابن مسعود، قال: جاء حَبْرٌ من الأحبار إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد، إنا نجد أن الله يجعل السموات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء على إصبع، والثَّرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع، فيقول: أنا الملك. فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقاً لقول الحبر، ثم قرأ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ الآية [الزمر: ٦٧]. متفق عليه.

وفي رواية لمسلم: «والجبال والشجر على إصبع، ثم يهزهن فيقول: أنا الملك، أنا الله».

وفي رواية للبخاري: «يجعل السموات على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع»، أخرجاه(١)]:

دل هذا الحديث علىٰ أن اليهود عندهم علم ورثوه من أنبيائهم، وأنه حق

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٨١١)، (٧٤١٤، ٧٤١٥، ٧٤٥١، ٧٥١٣). ومسلم برقم (٢٧٨٦)، عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

موافق لكتاب الله تعالىٰ، فهذا اليهودي ذكر هذا الكلام عند النبي ﷺ فضحك تصديقاً له، وقرأ هذه الآية التي فيها شاهد لكلام هذا الحبر، فإن فيها أن الأرض جميعها قبضة الله تعالىٰ يوم القيامة، بما فيها من الشجر، والماء، والثرىٰ، والجبال، والحيوانات، وأن السموات مطويات بيمينه كما يشاء، وأنه يهز هذه المخلوقات كلها، ويقول: أنا الملك أنا الله.

وهذا دليل عظمة الخالق تعالىٰ وكبريائه، وصغر المخلوقات في قبضته، وضعف تصور المشركين من القبوريين والوثنيين، حيث رفعوا المخلوقات إلىٰ رتبة الخالق، فطلبوا من أفراد البشر ما لا يملكه إلا الرب العظيم، وأعطوهم من الطلب والتعظيم ما لا يستحقه سوىٰ الخالق، مع علمهم بأنهم بشر مخلوقون، مسبوقون بعدم، وأتىٰ عليهم الموت، والجوع، والضعف، فلم يدفعوا عن أنفسهم، فلذلك يعترفون بضلالهم وهم في النار، كما قال تعالىٰ: ﴿**قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (٩٦) تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الشعراء: ٩٦].

والحبر هو العالم من اليهود، وفيه دليل علىٰ أن عندهم علم مما في كتب الأنبياء لم يدخله التغيير والتبديل، حيث أقر النبي ﷺ هذا الحبر علىٰ ما ذكره عن كتبهم، وصدقه بما دلت عليه هذه الآية الكريمة.

وفيه إثبات الأصابع لله تعالىٰ كما يليق به، ولا تشبه ما يختص بالمخلوقين، وقد قال النبي ﷺ: «**إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن**»(١)، رواه مسلم.

وفيه إثبات كثرة الأرضين، وقد يؤخذ ذلك من تأكيد الأرض في الآية

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٦٥٤)، عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

بقوله: ﴿وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ﴾، أي: مجموع جنس الأرض وما عليها.

ثم إن الحبر فصل بعض ما عليها، حيث ذكر الشجر، والجبال، والماء، والثرى، ثم بعد التفصيل أجمل لسائر الخلق، فيعم العلوي والسفلي.

وقد صدقه النبي ﷺ، وقرأ هذه الآية كدليل على صحة ما قال، والآية مكية، ولكنها تعتبر شاهداً لصحة ما ذكر هذا الحبر.

وفيها وفي القصة إثبات صفة اليد، وصفة اليمين، وهذا الإثبات مما نقر به ولا نتأوله، ولا نكيف هذه الصفة، أو نمثلها بما يختص بالمخلوقين، فإن الله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

وقد كثرت الأدلة في ذكر صفة اليد واليمين، كقوله ﷺ: «**يمين الله ملأى، لا يغيضها نفقة**»[١]، متفق عليه، وتأولها النفاة بتأويلات بعيدة متكلفة، وذلك بناء منهم على أن إثبات اليدين يلزم منه التشبيه، وهو وهم بعيد، وفهم قاصر.

فالواجب إثبات اليدين كما أثبتها الله لنفسه، من غير تشبيه ولا تمثيل، فقد أثبت الله القبض والطي والأخذ ونحوها، وكلها حقيقة لا تحتمل التأويل.

وقد ورد ذكر اليد في عدة مواضع، ولعدة معان، ولكن الجميع يدور حول اليد، وما يحصل بها، والله أعلم.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٧٤١٩)، ومسلم برقم (٩٧٣)ـ(٣٧)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

■ **قوله: [ولمسلم، عن ابن عمر مرفوعاً: «يطوي الله السموات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين السبع، ثم يأخذهن بشماله، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟»[(١)]**:

وهذا الحديث أيضاً دليل على عظمة الباري سبحانه، وعلى حقارة المخلوقات كلها بالنسبة إلى عظمته، وهذا القبض والأخذ يكون يوم القيامة، لقول الله تعالى: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، فقد رواه البخاري عن ابن عمر بلفظ: «**إن الله تبارك وتعالى يقبض يوم القيامة الأرضين على إصبع، وتكون السموات بيمينه، ثم يقول: أنا الملك**»، وهكذا بقية الأحاديث التي ذكرها الشارح ههنا وغيرها، وكلها تدل على عظمة الباري وجلاله وكبريائه، وصغر المخلوقات بالنسبة إلى عظمته، وأن جميع الخلق يوم القيامة يخضعون لعظمته وجلاله وكبريائه، ولو كانوا في الدنيا من الجبارين والمتكبرين الذين يتكبرون على الله تعالى، ويبطشون جبارين في خلق الله، وقد توعد الله تعالى على ذلك بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [إبراهيم: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [غافر: ٣٥]، وقد ذكر الله من أسمائه تعالى (الجبار المتكبر).

فمن تكبر على الله وضعه وأذله وأهانه عاجلاً أو آجلاً، ومن تجبر وعتا وطغى في العباد أذله الله وأهانه.

ثم في هذا الحديث إثبات اليمين والشمال لله تعالى، وقد قال النبي ﷺ: «**المقسطون يوم القيامة على منابر من نور عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين**»[(٢)]، رواه

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٧٨٨)، عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما.
وأخرجه مسلم أيضاً برقم(٢٧٨٧). عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) أخرجه مسلم برقم (١٨٢٧)، عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

مسلم. وقال القرطبي في المفهم: جاءت هذه الرواية باطلاق لفظ الشمال على يد الله تعالى على المقابلة المتعارفة في حقنا، وفي أكثر الروايات وقع التحرز عن إطلاقها على الله، حتى قال: «وكلتا يديه يمين»، لئلا يتوهم نقص في صفته سبحانه وتعالى، لأن الشمال في حقنا أضعف من اليمين. أ.هـ.

يعني: أن ذكر الشمال جاء لأجل المقابلة لليمين، وأن لله تعالى يدان كما ذكر، وكلتاهما يمين مباركة، واليمين هو: الخير وكثرة البركة، والله أعلم.

■ **قوله: [وروي عن ابن عباس، قال: «ما السموات السبع والأرضون السبع في كف الرحمن إلا كخردلة في يد أحدكم»**[(١)]]:

هذا الأثر يدل على عظمة الباري وجلاله وكبريائه سبحانه وتعالى، حيث أخبر أن السموات السبع والأرضين السبع في قبضة الرحمن تعالى صغيرة، كأنها حبة خردل في يد أحد العباد، والخردل شجر معروف، وحبه في غاية الصغر، وكثيراً ما يضرب الله المثل بحبة الخردل لصغر حجمها، كقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وفي هذا الأثر إثبات عدد الأرضين، وأنها سبع، وإن كنا لم نشاهد إلا الأرض التي عليها جنس البشر، وإثبات اسم الكف، والمراد به اليد، وهو دليل على حقيقة اليد، خلافاً لمن فسرها بالنعمة أو القدرة، وتكلف في صرف الأحاديث عن مدلولها، والله أعلم.

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في التفسير (٢٤/ ٢٥).
قال الشيخ سليمان بن عبدالله كما في إبطال التنديد ص (٣٢٠): وهذا الإسناد في نقدي صحيح.

■ **قوله : [وقال ابن جرير : حدثني يونس، أخبرنا ابن وهب، قال : قال ابن زيد : حدثني أبي، قال : قال رسول الله ﷺ : «ما السموات السبع في الكرسي إلا كدراهم سبعة ألقيت في ترس»**(١)] :

تفيد هذه أن الإنسان خلق في هذا الكون العظيم الذي لا يحد ولا يقاس، ولا يعرف مدىٰ هذا الكون ولا مدىٰ منتهاه، فإذا تفكر الإنسان وتدبر وتعقل عرف أن هذا الكون مع تباعده لابد له من مالك، ولا بد له من متصرف، وأن الرب العظيم الذي يتصرف في هذا الكون والذي أوجد ما فيه من الكائنات وخلق ما فيه من الذرات وسائر المخلوقات أنه وحده الذي يستحق أن يعبد، ويركع له ويسجد، ويعظم حق التعظيم.

قال الله تعالىٰ : ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فأخبر في هذه الآية بأن كرسيه وسع السموات والأرض، فأنت أيها المخلوق علىٰ أرض واحدة من سبع أراضين، هذه الأرض ترىٰ سعتها وترىٰ تباعدها واتساعها لمن عليها من المخلوقات، وما فيها من البراري والبحار والقفار والأشجار والصخور والجبال والأودية والشعاب والنباتات والأنهار والآبار، أرض واحدة عليها هذا الخلق العظيم، وهناك مثلها سبع أراضين، لا نعلم أين هي، ولا نعلم ما عليهن، ولكن لا نشك أن عليهن ملكاً عظيماً كذلك، وأن الذي خلقهن وسخرهن هو خالق الكون سبحانه.

كذلك السموات السبع، قد أخبر الله سبحانه وتعالىٰ بأنهن سبع شداد، ومع ذلك أخبر بما فيهن من الملائكة ومن المخلوقات التي لا نعلم عددهم، ولا يعلم عددهم إلا الله الخالق وحده.

---

(١) أخرجه ابن جرير (٣/ ٧، ٨).

قال الشيخ سليمان بن عبدالله كما في إبطال التنديد ص (٣٢٠) : «رواه أصبغ بن الفَرَجْ بهذا الطريق واللفظ، وهو مرسل، وعبدالرحمن بن زيد ضعيف».

وقال الشيخ ابن جبرين : هذا الحديث مرسل ولكن له شواهد.

فإذا تصورنا عظم مخلوقات الله؛ ومنها هذه السموات السبع التي بهذه العظمة، ومع ذلك فإن هذه السبع إذا نسبت إلىٰ الكرسي كانت كدراهم سبعة ألقيت في ترس، كما ورد في هذا الحديث الذي رواه ابن جرير، وإن كان مرسلاً لكن له شواهد، يقول: «**ما السموات السبع في الكرسي إلا كدراهم سبعة ألقيت في ترس**».

والترس هو: المجن الذي يلبسه المقاتل علىٰ رأسه، وهذا المجن عبارة عن مغفر من حديد يقاس علىٰ الرأس، ويدخل فيه الرأس حتىٰ يقيه السلاح في القتال، والدراهم هي قطع من الفضة صغيرة جداً بمنزلة الظفر أو نحوه.

والمعنىٰ: أن هذه الدراهم السبعة لو ألقيت في هذا الترس لشغلت مكاناً ضئيلاً جداً، فكذلك الكرسي أمره عظيم، فالسموات حقيرة أمام هذا الكرسي الذي وسع السموات.

بهذا نعرف عظمة هذا الكرسي الذي وسع هذه السموات السبع.

■ **قوله: [قال: وقال أبو ذر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما الكرسي في العرش إلا كحَلْقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض»**(١)]:

ذكرنا أن السماوات والأرضين صغيرة أو حقيرة بالنسبة إلىٰ الكرسي، وهذا

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٢/ ٧٧)، وابن أبي شيبة في كتاب العرش برقم (٥٨)، وأبو الشيخ في العظمة برقم (٢٠٦، ٢١٨، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٢، ٢٥٩)، وابن مردوية في التفسير كما في الدر المنثور (٢/ ١٧)، وهو في جامع البيان لابن جرير عند تفسير آية الكرسي رقم (٥٧٩٤)، ونقله ابن كثير (١/ ٣٠٩، ٣١٠) عند تفسير آية الكرسي بإسناده وأقره، ثم ذكره بإسناد ابن مردوية مطولاً، عن أبي ذر رضي الله عنه.

وأخرجه أبو نعيم في الحلية (١/ ١٦٦)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٥١٠).

قال ابن حجر في الفتح (١٣/ ٤١١): صححه ابن حبان وله شاهد عن مجاهد، أخرجه سعيد بن منصور في التفسير بسند صحيح، وأخرجه عبدالله بن أحمد في السنة رقم (٥٩١)، وصححه الألباني في مختصر العلو ص (١٣٠).

الكرسي الذي هذه عظمته فهو صغير وحقير أيضاً إلىٰ العرش، فالكرسي كالمرقاة بين يدي العرش، أي مرقاة أو درجة، وقيل: الكرسي هو موضع القدمين، فهذا الكرسي الذي هذه عظمته صغير وحقير بالنسبة إلىٰ العرش، وهذا العرش الذي اختصه الله بأن استوىٰ عليه كما يليق به لا يقدر قدره إلا الله.

وقد ذكر الله العرش في كتابه العزيز، وذكر شيئاً مما يدل علىٰ عظمته، قال تعالىٰ: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ﴾ [غافر: ١٥]، وقال: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧]، وقال: ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ [البروج: ١٥]، فالعرش خصه الله بأن استوىٰ عليه كما يشاء، والكرسي مقدمة بين يدي العرش، وهو صغير بالنسبة إلىٰ العرش.

لهذا قال ﷺ في هذا الحديث: «**ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض**»، والفلاة هي الصحراء الواسعة المترامية الأطراف، والصحراء هي الأرض المتسعة التي لا يقطعها البصر، فما ظنك بحلقة حديد ألقيت فيها، ماذا تشغل من هذه الفلاة؟! لا شك أنها تضيع بها، وكأنها لا شيء، فكذلك الكرسي الذي اتسع لهذه السموات بأكملها ولهذه الأرضين، وصارت صغيرة بالنسبة إليه، هو أيضاً صغير وقليل وحقير بالنسبة إلىٰ العرش.

وإذا كانت هذه هي عظمة العرش، فإن عظمة رب العرش أعظم وأجل، فهو أولىٰ بأن يعظم ويجل، فالعرش مخلوق من سائر مخلوقاته، والمخلوقات لا تقاس بالخالق تعالىٰ، ولا ينبغي أن يتوهم فيها شيء من خصائص الخالق تعالىٰ.

■ قوله: [وعن ابن مسعود، قال: «بين السماء الدنيا والتي تليها خمسمائة عام، وبين كل سماء خمسمائة عام، وبين السماء السابعة والكرسي خمسمائة عام، وبين الكرسي والماء خمسمائة عام، والعرش فوق الماء. والله فوق العرش لا يخفى عليه شيء من أعمالكم»، أخرجه ابن مهدي، عن حماد بن سلمة، عن عاصم، عن زر، عن عبدالله.

ورواه بنحوه المسعودي، عن عاصم، عن أبي وائل، عن عبدالله[1].

قاله الحافظ الذهبي، قال: وله طرق[2].

وعن العباس بن عبدالمطلب، قال: قال رسول الله ﷺ: «هل تدرون كم بين السماء والأرض؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «بينهما مسيرة خمسمائة سنة، ومن كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة سنة، وكثف كل سماء مسيرة خمسمائة سنة، وبين السماء السابعة والعرش بحر، بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض، والله تعالى فوق ذلك، وليس يخفى عليه شيء من أعمال بني آدم»[3]، أخرجه أبوداود وغيره]:

في هذه الأحاديث - حديث ابن مسعود، وحديث العباس - بيان عظمة السموات والأرض، فقد أخبر في هذه الأحاديث بأن ما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة سنة، فالسائر إذا سار شهراً قطع مسافة بعيدة، فكيف إذا سار

---

(١) أخرجه الدارمي في الرد على الجهمية (٢٦)، وفي النقض على المريسي (ص٧٣، ٩٠، ١٠٥)، وابن خزيمة في التوحيد (ص ١٠٥، ١٠٦، ١٧٦، ٣٧٧)، والذهبي في العلو ص٦٤، والبيهقي في الأسماء والصفات، (ص٤٠١)، والطبراني في الكبير (٨٩٨٧)، وأبو الشيخ في العظمة رقم (٢٠٣)، ٢٧٩)، واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد رقم (٦٥٩).
وصححه ابن القيم في اجتماع الجيوش الإسلامية (ص ١٠٠)، والذهبي في العلو، وقال الهيثمي في المجمع (١/ ٨٦): رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.

(٢) انظر العلو للذهبي (ص٦٤).

(٣) أخرجه أبو داود برقم (٤٧٢٣، ٤٧٢٤، ٤٧٢٥)، والترمذي برقم (٣٣٢٠)، وابن ماجه برقم (١٩٣)، وأحمد (١/ ٢٠٦، ٢٠٧)، وضعفه الألباني في تخريج السنة رقم (٥٧٧)، وفي سنن أبي داود والترمذي وابن ماجه.

سنة؟! وكيف إذا سار عشرون سنة؟! وكيف إذا سار مائة سنة؟! بل كيف بمسيره خمسمائة سنة؟! فلا شك أن المسافة طويلة طويلة.

وقيل: إنها مسيرة خمسمائة سنة بالسير المعتاد، الذي هو سير الأقدام وسير الأثقال؛ لأنه الذي كان مألوفاً ومعروفاً في ذلك الوقت الذي تكلم به النبي ﷺ، وقيل: إنها بمسيرة الطير، ولكن هذا لا يناسب؛ لأن الطير لا يقال له: سائر.

فبكل حال لو قدرنا أنها مسيرة خمسمائة سنة على الأقدام لكانت مسافة بعيدة جداً.

ثم بين في هذه الأحاديث أن مسافة ما بين كل سماءين خمسمائة سنة، وكذا مسافة كثفها، أي: غلظها؛ فإن كل سماء لها جرم عظيم، فغلظها لو انحرق فإنه لا يقطعه السائر على السير المعتاد إلا إذا سار خمسمائة سنة متواصلة.

وهكذا المسافة بين السماء الدنيا والسماء الثانية مسيرة خمسمائة سنة، وهكذا مسيرة غلظ السماء الثانية، وهكذا كل سمائين بينهما مسيرة خمسمائة، وغلظ كل سماء مسيرة خمسمائة؛ فيكون المجموع سبعة آلاف سنة.

والأرض أيضاً كذلك، فإذا قدرنا أن الأرض مسيرتها خمسمائة سنة، وقدرنا أن الأرض الأخرى كذلك، فيكون الجميع أربعة عشر ألف سنة.

ثم ذكر في هذه الأحاديث أن فوق السموات بحراً من أعلاه إلى أسفله كما بين سماء إلى سماء.

وفي بعض الروايات: «**أن عليه ثمانية أوعال - أي: ملائكة على صور أوعال - ما بين أظلافهن إلى ركبهن كما بين السماء والأرض**»[1]، فهؤلاء الملائكة المذكورون في الحديث السابق يحملون على ظهورهم العرش الذي هذه عظمته، فالله تعالى أعانهم على حمله كما يشاء، ولم يحملوه إلا بالتسبيح وبقدرة الله تعالى وإقداره لهم.

---

(١) أخرجه ابن ماجة برقم (١٩٣)، وضعفه الألباني في سنن ابن ماجة رقم (٣٤).

وقد روي في بعض الأحاديث أن النبي ﷺ قال: «**أذن لي أن أحدث عن ملك من الملائكة ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة سنة**»(١)، أو كما في الحديث، وذكر أن أحدهم رجلاه تحت تخوم الأراضي السبع، ومنكبه في أعلى السموات، أي: فوق السموات.

فهؤلاء من جملة خلق الله تعالى، فهذه مسافات طويلة لا يقدر قدرها إلا الله تعالى الخالق لهذه المخلوقات.

ولهؤلاء الخلق عالم بهم لا تخفى عليه منهم خافية، فهو على عرشه، وهو مع ذلك يعلم ما هم عليه؛ ولهذا قال في الحديث: «**والله تعالى فوق العرش لا يخفى عليه شيء من أعمالكم**»، أي: يعلم أحوالكم، ويطلع على ضمائركم.

فالواجب على المسلم أن يؤمن بذلك، والإيمان بذلك له فوائد، **ومن هذه الفوائد**:

أولاً: أنه من جملة ما يعتقده المسلم، ويلزم باعتقاده الإيمان بعظمة هذه المخلوقات وسعتها.

ثانياً: أن هذه المخلوقات لم تخلق نفسها، فهي مع عظمتها لابد لها من خالق مدبر.

ثالثاً: أن هذا الخالق الذي هذه عظمته هو المستحق لأن يعبد.

رابعاً: أن الذي يستحضر عظمة هذا الخالق، لا تحدثه نفسه بمعصيته، ولا بالخروج عن طاعته.

وهذا الباب الذي خُتم به الكتاب وذيل بهذه الأحاديث يستدل بها المؤلف على أن الخالق العظيم الذي هذه عظمته، وهذه عظمة مخلوقاته التي خلقها كيف يليق أن يسوى به أحد من خلقه؟! وكيف تجعلون المخلوق الضعيف شريكاً

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (٤٧٢٧)، والطبراني في المعجم الأوسط (٢/ ٤٢٥) رقم (١٧٣٠)، عن جابر رضي الله عنه، وصححه الألباني في الصحيحة رقم (١٥١).

للخالق العظيم في عبادته؟!

فالمشركون ما قدروا الله حق قدره، ولا عرفوه حق معرفته، ولو استحضروا عظمته بما في هذه الآثار وبما في هذه الأدلة لما قاسوا به هؤلاء الأموات المقبورين، فهم يجعلون بعض المخلوقين يملك الملك ويدبر الأمر ويتصرف في الكون، ويصفونه بصفات لا تليق إلا بالخالق تعالىٰ، فيقولون: فلان سيدنا أو ولي الله هو الذي يدبر هذه البلاد، فلا يدخل فيها ذرة إلا بعدما يأذن، وهو يعلم الكائنات، ويدبر الأمور، ويتصرف في كذا وكذا، ويعلم ما توسوس به الأنفس، ويحيي ويميت، وما أشبه ذلك.

ألم يعلموا أنه مخلوق أتىٰ عليه حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً؟

ألم يكن نطفة؟

ألم يكن علقة؟

أليس في حال حياته يأكل الطعام ويمشي في الأسواق؟

أليس في حال حياته يدخل الكنف ويحتاج إلىٰ التخلي؟

أليس قد مات وفارقت روحه جسده؟

أليس قد دفن في التراب؟

أليس قد وارته هذه الأضرحة؟

فكيف يقاس هذا بالخالق الذي هو نموذج من عظمته؟!

لا شك أن الذين فعلوا ذلك ما قدروا الله حق قدره، وإلا لما انصرفوا إلىٰ غيره، ولما عبدوا سواه، ولما أعطوا أحداً من خلقه شيئاً من حقه.

والله تعالىٰ أعلم، وصل الله علىٰ محمد، وعلىٰ آله وأصحابه، وسلم تسليماً كثيراً.

■ ■ ■ ■ ■

الفهرس

الموضـــــوع | الصفحة